المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة



ميل تشيرتون
وآن براون

علم الاجتماع
النظرية والمنهج

ترجمة: هناء الجوهرى

2075



يضع هذا الكتاب نصب عينيه احتياجات الدارس المبتدئ لعلم الاجتماع، فيبدأ باستعراض أهم النظريات والمعارك الفكرية اللازمة لفهم علم الاجتماع والتمكن من قضاياه. ثم ينتقل إلى تناول المفاهيم، والأساليب الفنية، والاتجاهات المتعلقة بمناهج البحث فى علم الاجتماع، موضحًا بكل جلاء الارتباط الوثيق لذلك المجال كله بميدان النظرية. ويحرص الكتاب على الإحاطة الوافية بكل الأفكار، والقضايا والمنهجيات التقليدية، دون أن يهمل أو يتجاهل إبراز أحدث القضايا الفكرية والتقنيات البحثية. ويوضح بأمثلة وتدريبات تطبيقية استجابة علماء الاجتماع لكل المستجدات النظرية والمنهجية، خاصة ما جلبته أفكار ما بعد الحداثة من تجديدات. وقد حرص الكتاب فى ثنايا تناوله لأساسيات المناهج الكمية والكيفية على إيضاح كيفية الاختيار الصحيح لطريقة البحث المناسبة. وبذلك يجمع فى كل فصوله بين تلبية الاحتياجات النظرية والعلمية لكل باحث اجتماعى.

الغلاف واللوحة: مجاهد العزب



علم الاجتماع: النظرية والمنهج

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2075
- علم الاجتماع: النظرية والمنهج
- ميل تشيرتون، وآن براون
- هناء الجوهرى
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

Theory & Method – 2nd Edition
By: Mel Churton & Anne Brown

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

علم الاجتماع
النظرية والمنهج

تأليـــــــــــف: مـــيل تـــشيرتون
وآن بــــــــراون
ترجمـــــــــة: هنــــاء الجـــوهرى



2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تشيرتون ، ميل .

علم الاجتماع: النظرية والمنهج/ تأليف: ميل تشيرتون، وآن براون ، ترجمة: هناء الجوهرى

ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٢

٧٧٦ ص ، ٢٤ سم

١ – الاجتماع ، علم

(أ) براون ، آن (مؤلف مشارك)

(ب) الجوهرى ، هناء (مترجم)

(جـ) العنوان ٣٠١

رقم الإيداع ١٧٩٨ / ٢٠١٢

الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 704 - 917- 7

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية



المحتويات

مقدمة الترجمة العربية

سوف يكتشف القارئ أن هذا العمل الذى بين يديه واحد من أهم الكتب العربية فى علم الاجتماع وأكثرها إفادة ومتعة. وهذه الصفات ليست مترادفات يستدعيها القلم، ولكنها خصائص جوهرية لهذا العمل العلمى تفرض نفسها على هذا التقييم فرضًا، وسأحاول أن أفصلها فيما يلى:

تؤكد هذا التقييم وتبرهن عليه الببليوجرافيات الضخمة التى نشرت عن الإنتاج العربى فى علم الاجتماع – ومازالت تنشر إلكترونيًا حتى الآن – وتعرِّف به منذ بدايات الكتابة العلمية فى الاجتماع عشرينيات القرن العشرين وحتى اليوم(*). ولن تجد فى هذه الآلاف من الصفحات كتابًا واحدًا بالعربية يجمع بين دفتيه حديثًا مفصلاً عن النظرية السوسيولوجية وعن فلسفة منهج البحث الاجتماعى، وطرق تنفيذ هذا البحث. فأنت إما تجد كتابًا عن النظرية؛ وهذه كثيرة بغير حصر، أو تجد كتابًا يوقفه صاحبه على المنهج وحده، أو تجد نوعية ثالثة – هى الأكثر عددًا والأوسع انتشارًا – تقدم عرضًا مجملاً لميدان علم الاجتماع، أو هى مدخل لدراسة كل موضوعات العلم: النظرية، والمنهج، وميادين الدراسة... إلخ.

(*) الإنتاج العربى فى علم الاجتماع، إصدار مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، تحرير محمد الجوهرى وأحمد زايد. صدر منها مجلدات سنوية مشروحة منذ ١٩٩٧، ومازالت مستمرة إلكترونيا على موقع المركز. وصدر مجلدان تجميعيان الأول يغطى – بدون شرح – الإنتاج المنشور من ١٩٢٤ – ١٩٩٤، والثانى يغطى الإنتاج المنشور من ١٩٩٥ – ٢٠٠٠. ويمكن الحصول عليها ورقيًا من مقر المركز وإلكترونيا من موقع المركز على الإنترنت.

ويهمنا الجمع بين ميدانى النظرية والمناهج فى كتاب تعليمى واحد، ذلك أن الغالبية الغالبة من طلاب الدراسات العليا – بل وبعض المشتغلين بالبحث فى علم الاجتماع – لا يرون هذه الصلة الوثيقة بين التوجه النظرى وأداة البحث وفقًا لهذا التوجه.

والسمة الأخطر لهذا المؤلف أنه – كما يزود الطالب بمعرفة وافية عن حقائق العلم وأصوله – يحاول أن يدربه على تفسير تلك المعرفة وتحليلها، ثم تقييمها وتطبيقها، وبذلك يضمن فهمه لها على الوجه الصحيح. ويتحقق ذلك الهدف من مئات التمارين التى نطالعها لأول مرة فى كتاب عن علم الاجتماع باللغة العربية. ويبرز المؤلفان هذا النهج الذى اتبعاه بالقول: "من أهداف هذا الكتاب مساعدتك على تنمية قدرات التقييم العامة اللازمة لاجتياز الامتحانات فى علم الاجتماع بنجاح. ولهذا الغرض قدمنا مجموعات من الأسئلة شبيهة بأسئلة الامتحانات، مع ما يرتبط بها من واجبات ومهام لكى تؤديها أنت بنفسك. ومن شأن ممارسة هذه الواجبات أن تدعم الجهد الدراسى الذى تبذله داخل المحاضرة، أو فى حلقات البحث، أو الواجبات التى تكلف بها طوال دراستك، كما أنها ستكون بمثابة مراجعة تفيدك فى تحسين أدائك وقدرتك على الحكم على المعلومات".

وللمرة الأولى أيضًا فى كتاب تعليمى فى علم الاجتماع يصرح لك مؤلفوه بأنهم لم يضمّنوا الكتاب كل المعلومات المتعلقة بالموضوعات التى يعالجها. ففضلاً عن صعوبة ذلك عمليًا، إلا أن الهدف التعليمى البعيد هو تدريب الطالب على أن يقوم بنفسه بالتماس بعض المعارف والمعلومات فى تخصصه فى أمهات المراجع وفى كتابات الرواد وكبريات الأعمال البحثية. فالكتاب لا يحوى حقائق الموضوع المعروض من ألفها إلى يائها – ولا يسعه أن يفعل – ولكنه يحرص على إشراك القارئ (الدارس) فى عملية البحث والتقصى.

وفى هذا يقول مؤلفا الكتاب: "لاحظ أن هذا الكتاب لن يقدم لك معلومات يمكنك أن تجدها بسهولة في كتب مدخل الاجتماع الأخرى، لأنه من العبث محاولة قول أشياء قيل ويقال الكثير منها فى كتب أخرى لا حصر لها. ولكن الكتاب يحاول أن يراجع معك بعض المعلومات المألوفة من خلال التركيز على التطورات التى شهدها علم الاجتماع خلال ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته والعقد الأول من القرن الحادى والعشرين، وذلك بحيث تستطيع استخدام المعلومات الأحدث فيما تؤديه من اختبارات".

وأخيرا يلفت المؤلفان نظر القارئ إلى أنه لن يستطيع أن يفيد من هذا الكتاب الفائدة الكاملة المنشودة إلا إذا تعامل معه بطريقة إيجابية، وحرص كل الحرص على تطبيق المعلومات والمهارات المستخلصة منه فيما يؤديه من امتحانات، وما يكتبه من أوراق بحثية. أما القارئ الذى يقنع بقراءة الكتاب ولا يكلف نفسه عناء حل التمرينات، فيؤكد له المؤلفان أنه بذلك يكون قد أسقط وتخلى عن أداء نصف المهمة التى يتعين عليه أداؤها. فأرجو من القارئ الكريم أن يأخذ نصيحة المؤلفين مأخذ الجد، لتتحقق له الإفادة الكاملة من الجهد الهائل الذى بذل فى هذا العمل تأليفا وترجمة.

هناء الجوهرى

القاهرة فى ٢٣ يوليو ٢٠١١

شكر وتقدير

أقدم الشكر لفيل براون لإسهاماته فى الفصول الثالث، والرابع، والخامس، والعاشر، وعلى وجه الخصوص المادة التى زودنا بها عن برنامج الكمبيوتر PASW لمعالجة البيانات الاجتماعية فى التمارين التى وردت عن هذا البرنامج فى الفصل الثامن. كما أقدم جزيل الشكر لكل من تونى لوسون لمساعدته فى تحرير المادة الجديدة، وأنامارى ريفز لإرشاداتها العامة البارعة، ونصائحها ومساعدتها خلال عملية إعادة الكتابة، وأخيرا كيث بوفى لتحرير النسخة النهائية للكتاب.

ويود المؤلفان والناشرون أن يعبروا عن الشكر لمؤسسة SPSS لموافقتها الكريمة على تصوير بعض صور من إحصائيات برنامج PASW (التى كانت تحمل فى الماضى اسم SPSS). وقد بذلنا كل جهد ممكن للاتصال بأصحاب حقوق نشر الأعمال التى نقلنا عنها، والحصول على موافقتهم على نشر الاقتباسات من تلك الأعمال. ولكن لو اتضح أن بعضها قد سقط عن سهو غير متعمد، فإنه سوف يسعد الناشرين أن يتخذوا الإجراءات اللازمة فى أقرب فرصة ممكنة.

الفصل الأول

مقدمة

الفلسفة وراء هذا الكتاب

يسعى هذا الكتاب إلى تحقيق ثلاثة أهداف. أولها أننا نريد أن نشجعك على أن تضطلع بدور إيجابى فى تعليم نفسك. ذلك أن المهارات الأساسية التى يتعين أن يتميز بها الدارس الذى يتقدم لأداء أى امتحان فى علم الاجتماع هى: **التفسير**، **والتطبيق**، **والتحليل**، **والتقييم**. وهى نفسها ذات المهارات الأساسية التى يجب أن يتحلى بها أى مشتغل بعلم الاجتماع فى أى مستوى من مستويات دراسته أو اشتغاله بالعلم بعد ذلك.

- ويعنى **التفسير** أنه عليك أن ترجع إلى نصوص وكتابات من نوعيات مختلفة، كجداول البيانات الإحصائية، أو الصحف والمجلات، وأن تكون قادرا على التعبير عن مدى فهمك للمادة التى تقرؤها فى تلك النصوص.

- أما **التطبيق** فيعنى القدرة على استخلاص المادة السوسيولوجية واستخدامها بالطرق المناسبة للإجابة عن الأسئلة المطروحة.

- ويعنى **التحليل** قدرتك على القيام بتشريح الحجج والنظريات، والأوصاف، والشواهد، وكذا قدرتك على فهم المناقشات الدائرة حول مسائل معينة.

- ويعنى **التقييم** قدرتك على وزن المناقشات والحجج السوسيولوجية فى ضوء الشواهد والبراهين المتاحة.

والسبيل الأفضل لأن تنمى هذه المهارات لديك هو أن تمارسها وتتدرب عليها بنفسك. ولهذا قمنا بتصميم مجموعة من التمرينات المرتبطة بتنمية هذه المهارات، بحيث إذا قمت بحلها فمعنى ذلك أنك ستتمكن من تحسين مستوى أدائك لتلك المهارات. والمهارات التى يستهدف كل تمرين تطويرها قد تمت الإشارة إليها بالرموز التالية:

- تفسير I
- تطبيق A
- تحليل An
- تقييم E
- معرفة K
- فهم U(*)

ومن المهم كذلك أن تفهم الصلات المتداخلة بين مختلف أجزاء المعلومة على امتداد هذا الكتاب. ولهذا السبب أوردنا بعض التمرينات لتدريبك على إدراك هذه التداخلات. وليس من شأن هذا أن يساعدك على الدراسة والعمل بمهارة وحسب، ولكنه سيؤدى – كذلك – إلى زيادة فهمك لنظرية علم الاجتماع ولطرق البحث فيه.

ويتمثل الهدف الثانى لهذا الكتاب فى تزويدك بالمعرفة السوسيولوجية المناسبة والمفيدة لأدائك الامتحانات على الوجه الصحيح، وذلك على اعتبار أن القدرة على نقل **المعرفة والفهم** هى مهارة أخرى من المهارات التى يتطلبها أداء الامتحان على أى

(*) تشير الحروف إلى أوائل مسميات المهارات والقدرات التى يفترض أن ينميها ويطورها مثل هذا التمرين:

- تفسير = I (Interpretation)
- تطبيق = A (Application)
- تحليل = An (Analysis)
- تقييم = E (Evaluation)
- معرفة = K (Knowledge)
- فهم = U (Understanding)

وسوف نقتصر فيما يلى على إيراد الكلمات العربية فقط. (المترجم)

مستوى فى علم الاجتماع. ولاحظ أن هذا الكتاب لن يقدم لــك معلومـــات يمكنــك أن تجدها بسهولة فى كتب مدخل الاجتماع الأخرى، لأنه من العبث محاولة قــول أشــياء قيل ويقال الكثير منها فى كتب أخرى لا حصر لها. ولكن الكتاب يحــاول أن يراجــع معك بعض المعلومات المألوفة من خلال التركيز على التطورات التــى شــهدها علــم الاجتماع خلال ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته والعقد الأول من القــرن الحــادى والعشرين، وذلك بحيث تستطيع استخدام المعلومات الأحدث فيما تؤديه من اختبارات.

ولا يعتزم هذا الكتاب أن يحدثك عن كل ما هو موجود وعن كل ما يتعــين عليك الإحاطة به فى علم الاجتماع خلال هذه الفترة، لأنك ستكون قــادرًا بفــضل تطوير مهاراتك السوسيولوجية على أن تحدد لنفسك بنفسك ماذا جرى فى المجتمع وفى حقل علم الاجتماع خلال تلك الفترة. وإنما سيحاول كتابنا هذا أن يقدم رؤيــة عامة شاملة للمناقشات الدائرة فى الميدان، ونظرة عامة على علماء الاجتماع الذين كانوا يكتبون عن الاتجاهات النظرية المختلفة وعن مختلف طرق البحث. وســوف تتبين أن الجانب الأكبر من المادة المعروضة الخاصة بالنظريات يدور حول أفكار اليمين الجديد ومفكرى ما بعد الحداثة، وكيف استجاب بعــض علمــاء الاجتمــاع الآخرين لتلك التيارات خلال هذه الفترة.

أما الهدف الثالث من أهداف هذا الكتاب فهو مساعدتك على تنميــة قــدرات التقييم العامة اللازمة لاجتياز الامتحانات فى علم الاجتماع بنجاح. ولهذا الغــرض قدمنا مجموعات من الأسئلة شبيهة بأسئلة الامتحانات، مع مــا يــرتبط بهــا مــن واجبات ومهام لكى تؤديها أنت بنفسك. ومن شأن ممارسة هذه الواجبات أن تــدعم الجهد الدراسى الذى تبذله داخل المحاضرة، أو فى حلقات البحــث، أو الواجبــات التى تكلف بها طوال دراستك، كما أنها ستكون بمثابة مراجعة تفيدك فــى تحــسين أدائك وقدرتك على الحكم على المعلومات.

والشيء المهم الذي يتعين أن تتذكره دائمًا أنك يمكن أن تفيد من هذا الكتاب أعظم الفائدة إذا تعاملت معه بطريقة إيجابية، وكنت مستعدا لتطبيق المعلومات والمهارات المستخلصة منه في امتحاناتك. أما إذا اكتفيت بقراءة الكتاب ولم تهتم بحل التمرينات، فإنك تسقط نصف المهمة التي يتعين عليك أداؤها.

محتوى الكتاب

على الرغم من أن هذا الكتاب يدور عن النظرية والمنهج في علم الاجتماع، فإن الفهم النظري هو الذي يمثل في العادة التحدي الأكبر للطلاب. وسبب ذلك أنه يعتقد – في الغالب – أن النظريات أمور مجردة وأنه يصعب ربطها "بالعالم الواقعي". ولكننا سوف نشجعك على أن تنمي مهارتك وقدرتك على التنظير (التفكير النظري)، وليس الاقتصار على اعتبار النظرية مجرد شيء يتعين على الإنسان أن يدرسه وحسب. والأمر الجوهري بالنسبة للنظرية الاجتماعية أنها تفسر لك العالم من حولك وتعرفك بمكانتك ودورك في هذا العالم. ولهذا يصبح من الواجب عليك أن تستخدم النظرية وتطبقها بشكل إيجابي في حياتك اليومية في كل الأمور التي تتعلق بالمجتمع والتي تعرض لك في دراستك، أو في فهم المسائل التي تظهر لك وتواجهك من واقع خبراتك في "العالم الواقعي". وهذا هو ما يذهب إليه إيان كريب Ian Craib إذ يقول:

"تتمثل قوة النظرية في قدرتها على تعديل الوعي، أي أن تغير الناس؛ ليس عن طريق الإقناع العقلي بالضرورة، وإنما من خلال تمكينهم من فهم العالم المحيط بهم وفهم الخبرات التي يتعرضون لها فهمًا جديدًا تمامًا، بحيث يصبحون واعين بأساليب تغيير العالم من حولهم. ولكي تؤدي النظرية هذا الدور، يجب أن تكون حاضرة في التصورات اليومية للعالم، بحيث تتخذها منطلقًا لرؤيتها وحججها، كما يتعين أن تكون النظرية قادرة على تعديل تلك التصورات بحيث تجعل منها فهمًا سليمًا للعالم". (كريب، ١٩٨٤)

ما المجتمع؟

قبل أن نبدأ فى تناول أهمية النظرية الاجتماعية، يتعين أن نطـــرح الـــسؤال التالى: "ما الموضوع الذى ننظر له، أو نتأمله نظريا؟" الواقـــع أن أغلـــب علمـــاء الاجتماع يسلمون بداية بأن موضوع تنظيرنا هو المجتمـــع، مفترضـــين بـــذلك أن موضوع دراستهم واضح تمام الوضوح. ومع ذلك ينبغى أن نلفت نظرك هنا إلـــى بعض ملامح المجتمع التى ستكون لها أهمية خاصة عند التفكيـــر فـــى النظريـــة الاجتماعية. فالمجتمع يتكون من النظم الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية التى نعيش فيها حياة مركزة ومكثفة. مع ملاحظة أن تلك النظم والعلاقات تتسم بأنها ملموســـة ومحسوسة ومجردة فى نفس الوقت.

ولنأخذ على سبيل المثال النظام الملكى. سوف تجد أن هناك بعـــض النـــاس الذين قابلوا ملك بلادهم شخصيا، كما أن بعض البلاد توجد فيها علاقة مستمرة مع الملك أو الملكة بشكل يومى. فى مقابل ذلك هناك بلاد أخرى تكون فيها العلاقة مع الملك علاقة مجردة (أو معنوية)، بمعنى أنهم يعتبرون أنفسهم رعايا للملك، ولكـــن ليست لهم به علاقة مباشرة. ومع أن هذه العلاقة مجردة فى مظهرها، فإنهـــا مـــع ذلك حقيقة واقعة فى آثارها ونتائجها. إذ تتضح هذه الآثار – مثلاً – فيمـــا يدفعـــه الرعايا من ضرائب لدعم ملكهم.

معنى ذلك أن النظام الملكى مؤسسة وليست مجرد إنسان معـــين. فـــالملوك والملكات يجيئون ويذهبون، ولكن النظام الملكى قائم ومستمر فى صورة الوظائف التى يؤديها وفى اهتمامه بهوية رعايا الملك. ولكن لاحظ – مع ذلك – أن النظـــام الملكى ليس بالضرورة سمة ثابتة ودائمة للمجتمع، فالنظام يمكن القضاء عليـــه أو إلغاؤه، ومن ثم لا يصبح محطًا لولاء أفراد المجتمع. وهكذا يمكن القول أن النظام

الملكى موجود بوصفه مفهومًا مجردًا، يعمل على إشباع بعض العناصر الدستورية والعاطفية للمجتمع. وتلك هى الطبيعة المجردة لكثيـر مـن الـنظم الاجتماعيـة ولخبراتنا معها، وهو الأمر الذى يدفعنا دفعًا إلى الاهتمام بالنظرية الاجتماعية.

ثانى ملامح المجتمع الذى يهمنا فى مجال التنظير أنـه ذو طـابع مـصنف نمطيًا. ويعنى ذلك أن المجتمع وحياتنا فيه تكشف عن قدر من الانتظـام والتتـابع الروتينى يتطلب تنظير علماء الاجتماع له (أى وضع نظريات حوله). وتختلف هذه الأنماط من العنصر البسيط والفردى، كالجزر(*) وتتابع النشاط بين النهار والليـل، بحيث تتكون شبكة كثيفة من التفاعلات خلال ساعات النهار. إلا أن الانتظام فـى السلوك والعلاقات – بأشكاله المختلفة – يمكـن أيـضًا أن يتجلـى وراء الـسطح الخارجى للنشاط الإنسانى. فيمكن أن نتبين – مثلاً – وجود أنماط ثابتة للتحـصيل الدراسى، بحيث نجد أن بعض الجماعات الاجتماعية (كأبناء الطبقة العاملة وبعض الأقليات الإثنية) يحصلون دائمًا على تقديرات منخفضة فى الامتحانـات. ومهمـة النظرية الاجتماعية أن تحاول تفسير كل ما يحدث على السطح، وكذلك تلك الأنماط العميقة للسلوك الاجتماعى.

ما النظرية؟

من المعروف أن فكرة علم الاجتماع النظرى مـستمدة مـن دنيـا العلـوم الطبيعية، التى تعد بمثابة النموذج الذى يحاول أن يحتذيه الكثيـرون مـن علمـاء الاجتماع (انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب حيث نقدم مناقـشة مفـصلة لهـذه القضية). ورغبة منا فى تقديم موضوع النظرية يهمنا إبـراز ثلاثـة جوانـب أو عناصر لهذا النموذج المستمد من العلوم الطبيعية.

(*) مقابل مد البحر – المترجم

فنلاحظ أولاً أن النظرية تعرف بوصفها حكمًا تقريريا عامًا علــى ظــاهرة اجتماعية. ومعنى هذا أن عالم الاجتماع يسعى إلى الذهاب إلى أبعد مــن مجــرد الوصف البسيط لبعض الوقائع المحدودة والمنفصلة عن بعضها، وذلك بهــدف أن يتوصل إلى مستوى مختلف من التحليل. من هنا تغطى الأحكام النظرية عددا مــن الوقائع المتماثلة أو المتشابهة، وتحاول بلورة أوجه الشبه بينها، وأسباب وجــود أى فروق أو اختلافات فيما بينها. وإذا عدنا إلى الاستعانة بمثال التحصيل الدراســى، نجد أن علماء الاجتماع يتأملون إحصائيات التحصيل الدراسى على امتــداد عــدة سنوات، ثم يصوغون -- من واقع تلك المراجعة والتأمل - بعض الأحكام النظريــة المتعلقة باستمرار بعض الفروق بين بعض الجماعات، والخاصة كــذلك بأســباب تغير بعض تلك الفروق عبر السنين.

ويقودنا هذا إلى الملمح الثانى المهم من ملامح النظرية، وهو أن النظريــة تسعى إلى تفسير الظواهر الاجتماعية، وذلك من خلال بلورة أسباب مقنعة – يوجد ما يدلل عليها – لوجود مثل هذه الفروق بين تحصيل الجماعات المختلفة، ولحدوث تغيرات فى نتائج هذا التحصيل. والحقيقة أن الغرض من وراء تفــسير الظــواهر الاجتماعية هو أن نصبح قادرين على التنبؤ بالأنماط التى ستجد فى المستقبل، وأن نستطيع التأثير فى السياسات الاجتماعية التى من شأنها أن تحدث تغيرات إيجابيــة فى تلك الأنماط. وبالرجوع إلى مثال انخفاض مستوى التحصيل الدراســى يمكــن القول: إننا لو عرفنا سبب انخفاض مستوى تحصيل جماعات بعينها، فإنه ســيكون بمقدورنا خلق الظروف التى من شأنها أن تدعم أداء أفراد تلك الجماعات وتحــسن منه. ومن الواجب الإشارة فى هذه الجزئية إلى أن ذلك التطوير والتحــسين قــد لا يكون بالأمر السهل دائمًا. وسبب ذلك أن المجتمع الإنسانى يختلف عــن ظــروف البيئة الطبيعية من ناحيتين مهمتين. الناحية الأولى أن البــشر كائنــات ذات إرادة

حرة، وبوسعهم أن يغيروا من سلوكهم وفقًا لما يفضلونه من رغبات، أو إيديولوجيات أو حتى نزوات عابرة. الناحية الأخرى أن المجتمعات لا تعرف السكون أو الاستاتيكية (الثبات على حال واحدة)، ولكنها تتغير بمرور الزمن، وربما تحدث بعض تلك التغيرات بطريقة غير متوقعة. ومن شأن ذلك أن يجعل وضع قوانين عامة شاملة تصدق على جميع المجتمعات وفى كل العصور؛ يجعل ذلك أمرًا مستحيلاً.

الملمح الثالث من ملامح النظرية هو أن الحكم التقريرى النظرى يجب أن يكون قابلاً للتمحيص والمراجعة من جانب العلماء الآخرين، الذين لم يشاركوا فى عملية التوصل إليه. ذلك أن علماء الاجتماع هم بشر فى نهاية الأمر، يتأثرون بما يؤمنون به سلفًا من فروض أو يميلون إليه من تحيزات. ونلاحظ أن علماء الاجتماع عندما يكونون بصدد وضع نظرياتهم يتبعون طرقًا وأساليب منظمة للتفكير، تكون بمثابة المنظورات التى تؤثر على عملهم النظرى هذا وتطبعه بطابعها. لهذا يصبح من الأمور عظيمة الأهمية إمكانية تعريض الشواهد والبراهين التى يستخدمها علماء الاجتماع لدعم وتأييد أحكامهم النظرية؛ تعريضها للتمحيص بمعرفة طرف مستقل. وهنا تلعب منهجية البحث الدور المحورى.

ما مناهج البحث؟

مناهج البحث – فى أبسط معانيها – هى الاستراتيجيات التى يطورها علماء الاجتماع ثم يتبنونها فى عملية جمع الشواهد والأدلة من عالم الواقع عن بعض الظواهر الاجتماعية المحددة التى يشرعون فى دراستها. أى أن مناهج البحث هى شىء أكبر وأخطر من مجرد اختيار أداة بحث معينة – مثل استمارة جمع البيانات (أو الاستبيان) – لاستخدامها فى جمع معلومات عن موضوع معين. إنما تتضمن

مناهج البحث البدء بملاحظة قضية أو مشكلة اجتماعية معينة، ثم طرح بعض الأسئلة عليها، ثم بلورة بعض الأفكار بشأنها التى يمكن الشروع فى بحثها، ثم اختيار أداة أو أدوات معينة لاستخدامها فى هذا البحث. وهناك كم هائل من طرق وأدوات البحث التى يستطيع علماء الاجتماع استخدامها، وهى تتعرض كل يوم للمزيد من التحديد والتدقيق، كما تضاف إليها كل يوم أدوات جديدة، وذلك من واقع ما يطرأ من تحسين وتقدم على تكنولوجيا المعلومات – على سبيل المثال. (انظر حديثنا عن بعض طرق من هذا النوع فى الفصل العاشر من هذا الكتاب). وما أن يفرغ الباحث من عملية جمع البيانات، يتعين عليه أن يشرع فى تحليلها واختبارها على الفروض التى سبق له أن طورها فى مرحلة سابقة من عملية البحث، وذلك كله من أجل توليد أحكام نظرية.

وقد استفاض الكُتّاب والعلماء فى مناقشة العلاقة بين المواقف النظرية (للباحث) واختيار طرق وأدوات معينة، وهو الأمر الذى سنعرض طرفًا منه فى الفصل التاسع من هذا الكتاب. ولكن يهمنا هنا أن نلاحظ أنه كثيرًا ما يوجد عادة خلاف جوهرى يكاد يبلغ حد الانفصال بين علماء الاجتماع الذين يكون همهم الأساسى تطوير نظريات كبرى عن المجتمع، وعلماء آخرين يتركز اهتمامهم على التعمق فى تناول قضايا ومسائل محددة، وأنهم يختارون دراسة موضوعهم هذا دراسة إمبيريقية(*). وعلى حين يشير الفريق الأول إلى كتاب يعتمدون على شواهد

(*) إمبيريقى (تجربى) Empirical: عندما يطلق مصطلح الإمبيريقية على الآراء، أو بعض أنواع المشروعات البحثية، أو حتى على المداخل العامة فى البحث، فإنه يعنى فى كل تلك الأحوال علاقة وثيقة بالخبرة الحسية، أو الملاحظة، أو التجربة. وفى بعض الأحيان يستخدم هذا المصطلح مقابلاً لكل ما هو مجرد أو نظرى، وأحيانا أخرى يستخدم مقابلاً لكل ما هو دوجماطيقى (قطعى) أو مدرسى. أما استخداماته ذات الطابع الازدرائى أو التحقيرى فتعنى عدم الاهتمام بالمبادئ العامة أو النظريات. ويعنى المصطلح فى نظر من يقبلونه، أى الذين يؤمنون بالنزعة الإمبيريقية، الاحتكام إلى الواقع، أو القابلية للاختبار والتمحيص، وذلك فى مقابل النزعة المدرسية المولعة بالاعتماد على المعرفة المستمدة من الكتب، أو التأمل الذى=

جمعها غيرهم فى وضع نظرياتهم، نؤكد أن الفريق الثانى يتأثر ببعض المواقف النظرية فى تصميم دراسته الإمبيريقية. ومن النادر فعلاً أن يجمع دارس اجتماعى واحد بين هذين الموقفين القطبيين فى عمل واحد. وبعد أن أخذنا كل تلك الجوانب الأساسية التمهيدية فى الاعتبار، يمكننا أن ننتقل فيما يلى إلى الحديث عن تفاصيل تناول تلك الأسس فى بقية كتابنا هذا.

ينقسم مضمون موضوع الكتاب إلى تسعة مجالات. يستعرض الفصل الثانى التوجهات النظرية الرئيسية المرتبطة بعلم الاجتماع التقليدى. أما الفصل الثالث فيحاول أن يغطى المناقشات النظرية التقليدية بهذا الخصوص. وفى الفصل الرابع ننتقل إلى استعراض التطورات الحديثة فى علم الاجتماع، محاولين التركيز على المناقشات النظرية المعاصرة. أما الفصل الخامس فيكرس نفسه للمناقشات المعاصرة التى تناولت تحديدًا موضوع الخيال السوسيولوجى. ويجد القارئ عرضًا لبعض المفاهيم الأساسية فى مجال البحث فى الفصل السادس من الكتاب. ويغطى الفصلان السابع والثامن طرق البحث الكمية والكيفية، محاولاً إلقاء الضوء على الأساليب التى استجدت حديثًا فى استخدام تلك الطرق والأدوات. ويقدم الفصل التاسع عرضًا للعوامل التى تتدخل فى التأثير على اختيار طرق البحث وأدواته. أما الفصل العاشر – آخر فصول الكتاب – فيعاود النظر مرة أخرى إلى قضية علم الاجتماع والعلم، مبديًا الاهتمام بتأثير التفكير المعاصر على إشكالية "علم الاجتماع باعتباره علمًا".

= يحلق دون الاستناد إلى أى أساس. راجع المزيد فى: محمد الجوهرى وزملاؤه، موسوعة علم الاجتماع، تأليف سكوت ومارشال، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١١، المجلد الأول، ص ٢١٠ وما بعدها. (المترجم)

الفصل الثانى

النظرية التقليدية

عندما تفرغ من دراسة هذا الفصل يتعين أن تصبح قادرا على ما يلى:

- التعرف على التفسيرات الرئيسية الأربعة للمجتمع التـى قـدمتها النظريات التقليدية، وهى على النحو التالى:

1. المجتمع قائم على الصراع.
2. المجتمع قائم على الإجماع والتوافق.
3. المجتمع قائم على الفعل الاجتماعى، والتأويل، والمعنى.
4. المجتمع قائم على الهيمنة الذكورية: النظرية النسوية.

- التعرف على الكتَّاب الرئيسيين فى كل اتجاه من تلك الاتجاهـات، وفهم تأثيرهم على التفكير فى علم الاجتماع.
- الوقوف على الفروض الأساسية لكل اتجاه منها.
- استعراض أمثلة من بحوث علم الاجتماع التى توضح تطبيقات كل اتجاه من هذه الاتجاهات.
- الوقوف على المزايا النسبية والانتقادات التى وجهت لكـل اتجـاه منها، وتقييم إسهام كل منها.

المجتمع يقوم على الصراع

تنطلق نظريات المجتمع القائمة على فكرة الصراع من التقسيمات والفروق بين جماعات الناس فى أى مجتمع. فثمة اعتقاد أن علاقات القوة تؤدى إلى خلق بناء اجتماعى معين يكون مكرسًا لخدمة مصالح الجماعات المسيطرة ومناهضًا لمصالح الجماعات الخاضعة، الأمر الذى من شأنه أن يؤدى إلى نشوب الصراع بين هذين الفريقين. ويلاحظ أن الفروق فى القوة يمكن أن توجد بين الرجال والنساء، أو بين الكبار فى السن والشباب، أو بين الجماعات الإثنية المختلفة، أو بين الطبقات الاجتماعية كما هو الحال تحديدًا فى النظرية الماركسية التقليدية أو المحدثة. ولو أنه من الممكن كذلك أن يوجد نوع من التفاعل والتداخل المعقد بين كل هذه الفئات جميعًا، يتسم بالدينامية والتغير كلما نما المجتمع وتطور.

الماركسية

انبثقت الماركسية من مؤلفات كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)، التى عاونه فريدريك إنجلز فى بعضها. وعلى الرغم من أن اسم كارل ماركس قد اقترن لدى الكثيرين بتاريخ علم الاجتماع وتطوره، فإن أعماله نفسها ظلت محل جدل وخلاف، وتباين قبول الناس لها بشكل واضح. ففى الشرق (المعسكر الشرقى أيام الحرب الباردة) اعتبرت الماركسية فلسفة عظيمة الأهمية شديدة التأثير، على حين كان تأثيرها فى الغرب (سابقًا أيضًا) أقل ظهورًا وتقديرًا حتى عهد قريب.

والحقيقة أنه يمكن إرجاع بعض الاتجاهات والآراء المناهضة للماركسية إلى قصور فى فهم كتابات ماركس نفسها. من ذلك مثلاً أن أشهر نقد لماركس يركز على:

- نبوءته بوقوع الثورة التى لم تقع حتى الآن.
- مبالغته فى التأكيد على البناء الاجتماعى، خاصة نوعيات البناء الموجودة فى المجتمع الرأسمالى، وذلك على حساب اهتمامه بالعلاقات الاجتماعية.

والحقيقة أن هذه الانتقادات وأمثالها إنما تظلم النظرية الماركسية، وتدل على قصور فى استيعاب الإسهام الفكرى الذى قدمه ماركس لفهم الحياة الاجتماعية.

ذلك أن المحور الرئيسى لأعمال ماركس (انظر مؤلفه الصادر عام ١٨٦٧ وعام ١٩٦٧) هو مفهوم "الجدل"، بمعنى أنه فن المناقشة، أو ذلك الفرع من المنطق الذى يعلمنا قواعد وطرق التفسير وإقامة البراهين. وقد حاول ماركس خلال تلك الفترة من حياته أن يقدم تحليلاً جدليًا للعالم المادى، أى للرأسمالية. وقد رفض فى تحليله هذا مبدأ البحث البسيط عن علاقات السبب والنتيجة بين مختلف أجزاء العالم الاجتماعى، مفضلاً عليها تحليل العلاقات الاجتماعية المركبة التى تتسم بالتداخل والتأثير المتبادل. كذلك رفض ماركس الفرض الذى كان شائعًا فى عصره، والذى كان يرى أن القيم الاجتماعية يمكن فصلها عن الوقائع والحقائق الاجتماعية.

وقد أثر الجدل على الطريقة التى نظر بها ماركس إلى العالم الاجتماعى. فبدلاً من أن ينظر إلى مكونات هذا العالم الاجتماعى بوصفها متمايزة ومستقلة عن بعضها البعض، استطاع أن ينظر إليها بوصفها مكونات متداخلة تتبادل التأثير فى بعضها وأنه يمكن تعريفها من خلال العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والتنظيمات. وهكذا يتعين – فى رأيه – أن يركز التحليل على تلك العلاقات التفاعلية المتداخلة بنفس القدر الذى يركز فيه على الوحدات المعزولة وموقعها على خريطة البناء الاجتماعى العام.

أما تحليل ماركس التاريخى للمجتمع (انظر مؤلفه الصادر عام ١٨٥٢/ ١٩٧٠) فقد اتسم بالتفكير الجدلى. فلكى يفهم العالم المعاصر من حوله اتجه ببصره إلى الماضى، كما شخص بهذا البصر إلى المستقبل. وقد قاده هذا المنهج فى النظر إلى استكشاف جذور الرأسمالية، وإلى محاولة التنبؤ بمستقبل المجتمع. وقد رأى ماركس أن البشر يتشكلون بفعل قدرتهم، ولكنهم يملكون فى نفس الوقت القدرة على تشكيل هذا المصير. إن تأثير الماضى على الناس أمر لا جدال فيه، ولكن ماركس آمن كل الإيمان أن الناس قادرون على التأثير على مستقبلهم بإحداث تغييرات فى واقعهم. وبوسع الناس أن يتوصلوا إلى فهم التغير الاجتماعى من خلال محاولتهم فهم آثار الماضى على المجتمع المعاصر الذى يعيشون فيه. ومن شأن ذلك أن يزودهم بمعلومات مفيدة تعينهم على فهم كيف يمكن لأفعالهم أن تغير المستقبل وتؤثر فيه. ومع ذلك فقد تبين لماركس بوضوح أن هناك ثمة قيود وعوائق خارجية من شأنها أن تضعف إدراك الناس وفهمهم للدور الذى يمكن أن يلعبوه فى تشكيل مصيرهم ومستقبل العالم الاجتماعى الذين يعيشون فيه.

الفروض الأساسية للماركسية: من النقاط التى غالبًا ما أغفلها نقاد ماركس أنه حاول أن يفهم الحالة الطبيعية للأفراد وللبناء الاجتماعى. فقد تركزت كتابات ماركس المبكرة (انظر ماركس ١٨٤٥/ ١٩٥٦) بشكل أساسى على محاولة استكشاف الإنسانية، بينما تراجع هذا الاهتمام فى بعض كتاباته اللاحقة (انظر مؤلفيه ١٨٦٧/ ١٩٦٧) أمام رغبته القوية فى تقديم تحليل علمى للمجتمع الرأسمالى. وبرغم أى شىء لم يفقد ماركس تركيزه على الفرد، بل إنه كثف نقده للتناقضات الكامنة فى طبيعة النظام الرأسمالى لكى يزود المقهورين والمحرومين بالأمل الذى يحتاجونه أشد الاحتياج والوعى الذى يدفعهم إلى الانخراط فى إحداث التغيير الثورى.

إمكانيات الفرد وقدراته: اهتم ماركس وإنجلز (انظر ١٨٤٥/ ١٩٥٦) بما أسمياه الإمكانيات والقدرات الإنسانية. فقد نظر ماركس إلى الناس بوصفهم يملكون قدرات أصيلة (كامنة) على الابتكار، إلا أن تلك القدرة الإبداعية قد قمعتها أو وأدتها تمامًا الظروف القاسية للمراحل السابقة على الرأسمالية، حيث انحصرت جهود الناس انحصارًا تامًا فى إنتاج السلع واستهلاكها لكى يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة.

إذ يرى ماركس وإنجلز أن الإبداع لا يمكن أن يتحقق فى ظل الرأسمالية لأن وجود الناس قد تحدد واصطبغ فعلاً بالإنتاج الكبير. ولم يعد الناس يتحكمون بشكل كامل فى منتجات عملهم، ولا فى علاقاتهم مع زملائهم من العمال الآخرين. ولهذا حكم على قدراتهم الإبداعية بالجمود.

كذلك اهتم ماركس وإنجلز (انظر ١٨٤٥/ ١٩٥٦) بموضوع الوعى، باعتبار أن الوعى هو الذى يميز البشر عن الحيوانات. والوعى عملية عقلية داخلية هى التى تمنح الناس القدرة على الذكاء الإبداعى وعلى التفكير المجرد. واعتبر ماركس وإنجلز الوعى أمرًا حاسمًا فى قدرة الإنسان على التعبير عن إمكانياته؛ ذلك أن الأفراد الواعين حقًا هم وحدهم القادرون على تحرير أنفسهم من قيود الرأسمالية.

ثم قدم ماركس (انظر ١٨٥٧ – ١٨٥٨/ ١٩٦٤) تحليلاً تاريخيًا لتطور الإمكانيات والقدرات البشرية. مؤكدًا أن الأفراد لم يبلغوا بعد درجة التحقق الإبداعى الكامل. أما فى المجتمع البدائى فنجد القدرة البشرية على الإبداع مكبلة بفعل نقص الموارد ونقص الفرص المتاحة للإبداع: "ففى أدنى مراحل الإنتاج ... لا يحتاج للعمل بالإنتاج إلا عدد قليل فقط من البشر، ومن ثم لا يتحقق الرضا والإشباع إلا لقلة قليلة فقط" (انظر: ماركس ١٨٥٧–١٨٥٨ / ١٩٧٤، ص ٣٩٨).

أما فى المجتمع الرأسمالى فالقدرات والإمكانيات متاحة لمن يريد أن يكتسبها، ولكن الإبداع البشرى يخنقه نظام الإنتاج الكبير ونظام الاستهلاك. وتتسم الإنتاجية فى مثل هذا المجتمع بالتجزوء والتخصص، وفيه يغترب العمال (أى يُبعدون وينفصلون) عن منتجات عملهم وعن العملية الإنتاجية نفسها. ولما كان العمل هو العامل الأساس فى تحديد هوية العمال فى المجتمع الرأسمالى، فإننا سنتبين كذلك أنهم قد أصبحوا مغتربين عن أنفسهم.

وقد تنبأ ماركس (١٨٥٧ – ١٨٥٨/ ١٩٦٤) بأن الرأسمالية سوف تزول حتى تتمكن الإنسانية من تحقيق قدراتها وتطوير إمكانياتها. عندئذ سيصبح بإمكان الناس أن يطبقوا المعرفة التكنولوجية والتنظيمية للرأسمالية بطريقة إبداعية وخلاقة، بحيث يستطيعون فى نهاية المطاف أن يبلغوا الذروة فى تحقيق إمكانياتهم.

بناء المجتمع

تناولت أعمال ماركس المبكرة تأثير الرأسمالية على الإنسان، فى حين ركزت أعماله اللاحقة تركيزًا كبيرًا على أبنية المجتمع الرأسمالى. من هنا يمكن تقسيم أعمال ماركس – بشكل عام – إلى مجموعة من المعالجات المستقلة لموضوعات: الاقتصاد، والعلاقات، والثقافة، سنعرض لكل منها بإيجاز فى السطور التالية، وفق هذا الترتيب.

الاقتصاد: ركز ماركس (انظر ١٨٦٧/ ١٩٦٧) فى تناوله للاقتصاد الرأسمالى بصفة رئيسية على السلع. وقد ذهب إلى أن السلع فى المجتمع قبل الرأسمالى كانت مجرد أشياء ينتجها الناس كى يستطيعوا البقاء على قيد الحياة. ولذلك لم تكن لها فى ذلك سوى "قيمة استعمالية" فقط. وقصد بمصطلح القيمة الاستعمالية أن الأشياء كانت مجرد منتجات للعمل البشرى وأنها لم تكن تتمتع بوجود

مستقل فى ذاتها، لأنها كانت تستهلك مباشرة بواسطة منتجيها فقط (انظر ريتزر، ٢٠٠٨). أما فى المجتمع الرأسمالى فإن السلع لا يتم إنتاجها لكى يجرى استخدامها مباشرة بواسطة من أنتجوها، وإنما يتم إنتاجها لكى يجرى تبادلها فى السوق المفتوح (الحر) فى مقابل المال. من هنا اكتسبت السلعة "قيمة تبادلية"، وأصبح وضعها فى المجتمع أكثر تعقيدًا عما كان عليه قبلا. ويرى ماركس أن الأشياء كانت فى بادئ الأمر تستهلك بسبب منفعتها، ولكن بعد أن سيطرت الرأسمالية أصبحت الأشياء أمرًا يشتهيه الناس لذاتها. وقد جعلها هذا الوضع الجديد تصبح ظواهر مستقلة لا تخضع لسيطرة الناس الذين أنتجوها. وأرجع ماركس تلك الظاهرة فى الأساس إلى عملية "الفتشية" (أى تقديس السلع)، التى بمقتضاها يرفض منتجو هذه الأشياء فكرة أن عملهم هو الذى أضفى عليها القيمة، ويعتقدون أن قيمتها تنبع من الخصائص الطبيعية للأشياء ذاتها، أو أن السوق هو الذى أضفى عليها ما اكتسبته من قيمة. وتؤدى عملية تقديس السلع (أو الفتشية) إلى زيادة قيمتها السوقية إلى حد أن يغترب العمال عن منتجات عملهم. ومعنى ذلك – بعبارة أخرى – أنه لا تتوفر لهم الموارد التى تمكنهم من شرائها. وقد عمل بعض الكُتّاب المعاصرين على تطوير تلك الفكرة، على نحو ما سنبين تفصيلاً فى الفصل الرابع من هذا الكتاب (انظر هناك خصوصًا حديثنا عن ما بعد الحداثة والثقافة الجماهيرية).

كذلك يرى ماركس (١٨٦٧/ ١٩٦٧) أن تبادل السلع هو الذى يخلق رأس المال (أى الربح المتحقق من الاستثمار) الذى يعمل بدوره على دعم الاقتصاد الرأسمالى. وتؤدى عمليات التلاعب فى العملية الإنتاجية إلى ضمان أن يظل الطلب على السلع متفوقًا دائمًا على العرض. وبذلك يعمل الرأسماليون على استمرار عملية "تقديس السلع" (أو الفتشية) وعلى الاحتفاظ بقيمة سوقية مرتفعة لتلك السلع. على أن الملاحظ أن سعر السلع يكون أعلى كثيرًا من تكلفة المواد الخام التى استهلكت فى صنعها وأجور العمل التى دفعت فيها. وعلى هذا النحو

يتولد فائض رأس المال (أو فائض القيمة)، أى الربح المتحقق من العملية الإنتاجية. ولضمان استمرار النظام الرأسمالي يتعين إعادة استثمار هذا الربح من أجل زيادة الإنتاجية، وهو الأمر الذى من شأنه أن يؤدى فى الوقت نفسه إلى خفض تكاليف الإنتاج. وهكذا يتولد المزيد من فائض رأس المال الذى يجرى إعادة استثماره لتقوية سيطرة رأس المال على العملية الإنتاجية برمتها. وبهذه الطريقة يكتسب رأس المال وجودًا مستقلاً كأداة استغلالية، توظف لقهر العمال أصحاب الفضل فى إنتاج رأس المال هذا.

ومصطلح "التشيوء" هو المصطلح الذى أطلقه ماركس على العملية التى بمقتضاها تتخذ مختلف جوانب الرأسمالية (كرأس المال، والسلع، والعلاقات الاجتماعية) نوعًا من الوجود المستقل بذاته. وقد كانت تلك العملية أمرًا حاسمًا بالنسبة للرأسمالية، باعتبار أن عندها وبسببها يفقد العمال القدرة على إدراك تأثيرهم على مختلف عناصر النسق الاجتماعى. فنراهم يتصورون – بدلاً من ذلك– أن مثل هذه العناصر تمثل سمات حتمية ومحورية للنظام الرأسمالى لا يمكن تغييرها أبدًا.

كما يرى ماركس أن الاقتصادات الرأسمالية سوف تتعرض دائمًا لفترات من الرخاء ومن الكساد. وتتسم فترات الرواج الاقتصادى بارتفاع معدلات التشغيل، والثقة فى المؤسسات الاقتصادية، وزيادة الربحية، وارتفاع مستويات المعيشة. أما فترات الكساد الاقتصادى فتتسم بتراجع الربحية، وانخفاض مستوى الثقة فى المؤسسات، وارتفاع معدلات البطالة، وإفلاس كثير من المؤسسات الاقتصادية، وانخفاض مستويات المعيشة. ويتمثل التناقض الجوهرى للرأسمالية فى ذلك الموجود بين رَغبة الطبقة الرأسمالية (أصحاب المشروعات) فى زيادة الأرباح وتنمية رأس المال من جانب، والبروليتاريا (الطبقة العاملة) التى تعمل لحساب الطبقة البورجوازية الذين يطالبون برفع مستويات معيشتهم عن طريق زيادة

الأجور، والمرتبات، والمزايا الأخرى. وتمثل فترات "الإفلاس" (أو "الانهيار") رد فعل متأخر على هذا التناقض القائم داخل النظام الرأسمالى. من هنا تعد فترات الانكماش الاقتصادى نوعًا من التراجع فى الربحية، وليست نقصًا فى الثقة كما يجرى تصويرها فى الغالب. ويمكن وصف "الكساد العظيم" الذى شهده العالم فى ثلاثينيات القرن العشرين "وأزمة الائتمان" العالمية عام ٢٠٠٨ نماذج لحالات عدم الاستقرار الاقتصادى، أو "لإفلاس" الرأسمالية حسب تعبير ماركس.

لذلك يمكن القول بأن الأزمات المالية المتكررة تعد من السمات العامة الملازمة للنظام الرأسمالى. ويمكننا شرح وتوصيف الانكماش الاقتصادى لعام ٢٠٠٨ – وفقًا للمصطلح الماركسى – على النحو التالى:

نمو رأس المال، والناتج المحلى الإجمالى وأزمة ٢٠٠٨

أوضحنا من قبل أن تاريخ الرأسمالية هو تاريخ النمو الذاتى لرأس المال. ذلك لأن رأس المال يجب أن ينمو حجمه باضطراد لكى يحقق المزيد من الأرباح. وذلك هو ما يُعبر عنه بدورة الإنتاج، التى تستهدف فى النهاية تحقيق الربح. ومن مؤشرات نمو رأس المال فى القطاعات الاقتصادية المختلفة ما يعرف باسم: "الناتج المحلى الإجمالى". ويحدث بصفة دورية – كما أوضح ماركس – تراجع فى الأرباح فى ظل النظام الرأسمالى من شأنه أن يؤدى إلى ضغوط لتخفيض الدخول. ويلاحظ فى الفترة السابقة على أزمة ٢٠٠٨ أنه على الرغم من أن رأس المال ظل ينمو بمعدل متوسطه ٢،١% سنويًا طوال عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧؛ فقد انخفضت الزيادة فى متوسط الدخول خلال هذين العامين من ٢،١% خلال الفترة من ١٩٩٧ حتى ٢٠٠٥ إلى ٠،٠٨%، بما يعنى زيادة متوسط الدخول بما يقل عن ٠،٠٥%. والغريب فى الأمر أن مؤشرات الكساد كانت واضحة تمامًا ومع ذلك استمر نمو رأس المال.

ويرى ماركس أن أزمة الربحية التى قد يعانى منها الرأسماليون من شـأنها أن تؤدى إلى العمل على خفض دخول العمال، وهو الأمر الذى يؤدى بدوره إلـى انخفاض الطلب، الذى يترتب عليه تقليل كميات الإنتاج (ذلك أن الرأسماليين لـن ينتجوا سلعًا لا يستطيعون بيعها). ومن شأن كل ذلك أن يـؤدى إلى تراجـع عـام فى الاقتصاد. عندئذ يفقد كثير من العمال وظـائفهم، ويـنخفض النـاتج المحلـى الإجمالى، ويحدث الكساد. على أننا قد لاحظنا فى المثال السابق أن الدخول بـدأت تنخفض ابتداء من عام ٢٠٠٦، ومع ذلك لم يحدث الكساد إلا فـى عـام ٢٠٠٨. فمـا سبب ذلك؟ سوف يقول الماركسيون إن المؤسسات المالية قد عملـت علـى تغذية رواج ائتمانى. وقد ساعد ذلك على استمرار الطلب من جانب المـستهلكين، وعندما كان الدخل ينخفض كان الائتمان يزداد ليسد هذه الثغرة. فأصـبح بوسـع الناس أن يقترضوا الأموال لشراء السلع، والمساكن وغيرها. ونلاحظ فى المملكـة المتحدة أن إجمالى حجم الديون الشخصية بلغ فى نهاية شهر أكتـوبر مـن عـام ٢٠٠٧ ١،٣٩١ مليار جنيه إسترلينى. ولكن منذ نهاية شهر ديسمبر من عام ٢٠٠٧ أخـذ يتزايـد بمعـدل مليـون جنيـه إسـترلينى كـل أربـع دقـائق (www.creditaction.org.uk/dec.html). لهذا السبب استمر نمو رأس المـال دون انقطاع. غير أن الموقف وصل فى نهاية الأمر إلى درجة عـدم الاسـتقرار وفقدان التوازن. وحول ذلك يقول ماركس: "فى النظام الإنتاجى الذى تعتمـد فيـه عملية إعادة الإنتاج على الائتمان، لابد أن تقع الأزمة وتتبدى بكل وضوح". (انظر ماركس ١٨٩٤/ ١٩٧٤، ص ١٩٠).

وقد ظهر كساد عام ٢٠٠٨ فى ثانى أهم الأسواق الأمريكية حيـث عجـز الناس عن الاستمرار فى دفع أقساط القروض العقارية المستحقة. ووجدت البنـوك نفسها مثقلة بمليارات الجنيهات الإسترلينية و/ أو الدولارات التى أصـبحت تمثـل ديونًا رديئة. عندئذ أخذت منابع الائتمان تجف. وترتب على ذلـك أن المؤسـسات

الاقتصادية التى تعتمد على النظام البنكى سرعان ما دخلت فى أزمات بسبب تراجع طلبات المستهلكين. عندها انفجرت بالونة الائتمان، ودخل الاقتصاد كله فى كساد (تأخر عن موعده عامان أو ثلاثة). ومعنى ذلك فى رأى ماركس أن الأزمة المالية قد حدثت بسبب الطبيعة الأصيلة لنظام الرأسمالية نفسه.

العلاقات

أوضح ماركس (١٨٦٧/ ١٩٦٧) أن الناس فى المجتمع الرأسمالى لا ينتجون أشياء اقتصادية (أى سلعًا) وإنما ينتجون علاقات اجتماعية. ويعنى بها تلك العلاقات الاجتماعية التى تدعم البنى الاجتماعية للمجتمع الرأسمالى. وقد اعتبر أن هناك مجموعتين من العلاقات التى لها أهمية خاصة. تتعلق المجموعة الأولى بعلاقات العمال بزملائهم من العمال، وترتبط الأخرى بعلاقات العمال بالرأسماليين.

وقد اتضح من العرض السابق أن عملية الإنتاج فى المجتمع الرأسمالى لا تخضع لسيطرة أو تحكم العمال الأفراد. فبدلاً من أن يقوم العمال بإنتاج السلع التى يحتاجونها للبقاء على قيد الحياة، نجدهم مجبرين على بيع قوة عملهم – أو طاقاتهم – للرأسماليين. ويجرى العمل فى المصنع بالاعتماد على الأوتوميشن (تتابع العمليات آليًا) والتخصص. وبدلاً من أن يقوم العمال بالانخراط فى أنشطة مشتركة لإنتاج السلع، نجدهم لا يؤدون إلا مهام محددة متكررة لا تمثل سوى جزء صغير من عملية الإنتاج. ولذلك "يغتربون" عن زملائهم العمال لأنهم لم يعودوا فى حاجة إلى الاتصال بهم أو التعاون معهم. بل إنهم يغتربون عن العمل الذى يؤدونه لأنهم يحرمون من المشاركة فى جميع عناصر العملية الإنتاجية، وتقتصر مسئوليتهم – بدلاً من ذلك – على أداء جزء مجتزأ ولا معنى له من العملية الإنتاجية.

وقد أطلق ماركس (١٨٦٧/ ١٩٦٧) على تجزؤ العملية الإنتاجية مـصطلح: "تقسيم العمل". وقد حدد عددًا من الآثار السلبية لهذه الظاهرة. أول هـذه الآثـار أن الفرد يصبح منفصلاً بشكل مصطنع عن المجتمع المحلي بأكمله. فيعانى الأفراد مـن محدودية النظر وأنانية الرؤية، ومن ثم يفقدون القدرة على رؤية مصالح المجتمع فى مجموعه. ثانى هذه الآثار أن العمل يصبح أقل إشـباعًا لأن الإمكانيـات والقـدرات البشرية قد أصابها الجمود. وهنا يسعى العمل إلى التماس المتعة خارج مجال العمـل ويصبح الاستهلاك وسيلـة للهروب مما يمارسه العمل فى ظل الرأسمالية من إذلال لإنسانية العامل. وفى النهاية يفقد العمال أى قدرة على التحكم سـواء فـى منتجـات عملهم أو فى السوق الذى تباع فيه هذه السلع. معنى ذلك أن قوة العمال تتراجع بشدة ويصبحون غير قادرين على تقدير دورهم فى دعم واستمرار النظام الرأسمالى.

من ناحية أخرى يهتم ماركس (١٨٥٩/ ١٩٦٧) بتصوير العلاقة بـين العمـال والرأسماليين فى إطار حديثه عن الطبقات الاجتماعية. والحقيقة أن ماركس لـم يهـتم كثيرًا بتوضيح مفهوم الطبقة الاجتماعية في ذاته، ولكنه أكد بكل وضوح أنه ينظر إلـى الطبقات الاجتماعية بوصفها أبنية خارجية بالنسبة للناس، ولكنها تمارس القهر علـيهم. وقد حدد ماركس طبقتين اجتمـاعيتين رئيـسيتين فـى المجتمـع الرأسـمالى همـا: البورجوازية (الذين يملكون أدوات الإنتاج) والبروليتاريا (وهـم الـذين يبيعـون قـوة عملهم). والعلاقة بين الفئتين تتصف بأنها علاقة استغلالية. فالطبقة البورجوازية هـى التى تتحكم فى عملية الإنتاج، وطبقة البروليتاريا هم الذين يقايضون حقوقهم الإنتاجيـة بالأجور. وتعمد البورجوازية إلى التحكم الدقيق فى العملية الإنتاجية بمـا يـؤدى إلـى خفض التكاليف وزيادة الأرباح، ومعنى ذلك استغلال البروليتاريا. ولكـن البروليتاريـا يجدون أنفسهم غير قادرين على التوقف عن العمل لأنهم يعتمدون على الأجـور التـى يحصلون عليها من الرأسمالى لكى يتمكنوا من إعالة أسرهم فى ظل مجتمع اسـتهلاكى يتم فيه مقايضة السلع بالمال. من هنا تتناقض مصالح الجماعتين على طـول الخـط: فالبورجوازية لها مصلحة فى استمرار النظام الرأسمالى وتوليد الربح الذى يؤدى إلـى

تراكم الثروة، وعلى الناحية الأخرى نجد البروليتاريا الذين لا يحصلون من العملية الإنتاجية إلا على أجورهم؛ نجدهم يناضلون من أجل زيادة تلك الأجور لتحسين مستويات معيشتهم. ولكن تأتى لحظة عندها يتصادم العالمان عندما تحدث أزمة فى الربحية (أى تتراجع الأرباح)، وعندها يدخل الاقتصاد بأكمله فى مرحلة الركود.

وكان ماركس (١٩٣٢/ ١٩٦٤) يعتقد أن النظام الرأسمالى لن يستمر إلى ما لا نهاية. بل إنه كان يؤمن أن التناقضات داخل النظام الرأسمالى سوف تؤدى إلى تدميره فى نهاية المطاف. وتنبأ ماركس أنه كلما زادت سيطرة الرأسمالية وزاد تحكمها، كلما زاد عدد العمال الذين يتم استغلالهم وزاد كذلك مقدار ذلك الاستغلال. ومن شأن هذا التصاعد فى الاستغلال أن يولد المقاومة بين صفوف البروليتاريا، الذين سوف يصبحون على وعى بخبرة القهر المشتركة التى يمرون بها جميعًا. وسوف يجدون أنفسهم يتحدون معًا، تجمع بينهم الرغبة فى القضاء على مستغليهم من البورجوازيين وإشعال نار الثورة "النهائية". وسوف يحل محل النظام الرأسمالى مجتمع شيوعى يكون فيه جميع العمال على قدم المساواة وتتاح فيه الفرص لتحقيق القدرات والإمكانيات البشرية.

الثقافة

مع أن اهتمام كارل ماركس كان منصبًا بالأساس على البناء الاقتصادى للنظام الرأسمالى، فإنه أولى بعض اهتمامه لدراسة الثقافة، لأنها هى التى تستطيع أن تقنع الناس بنجاح النظام الرأسمالى. وقد نظر ماركس إلى الثقافة على المستويين الفردى والبنائى، كما ربط بينهما عندما تناول كيفية تأثير كل منهما على الآخر. وفيما يتعلق بالمستوى الفردى، تحدث ماركس (١٨٥٧- ١٨٥٨/ ١٩٦٤) عن الوعى الطبقى وعن الوعى الزائف. وعرف الوعى بأنه: "مجموعة الحالات والعمليات العقلية (كالإدراك، والمشاعر، والأفكار). والعقل هنا بأوسع معانيه وهو الوعى". وكان ماركس يعد الوعى أمرًا ذا أهمية حيوية للبناء الرأسمالى.

الموضوع (A)

الاتجاه الماركسي في فهم السياسة الخارجية الأمريكية،

والحادى عشر من سبتمبر، و"الحرب على الإرهاب".

يذهب بعض الكُتّاب – مثل دافيد هارفي (٢٠٠٥) – إلى أن حربي العراق وأفغانستان لا يمكن فهمهما على الوجه الأكمل إلا بوصفهما جزءًا من استراتيجية طويلة المدى للولايات المتحدة لتأكيد ودعم وضعها المسيطر على المسرح العالمي. ويتوقف التفوق الاقتصادى والعسكرى على تأمين منابع البترول المهمة، التي يقع معظمها في منطقة الشرق الأوسط. كما نعرف فضلاً عن هذا أن الاقتصاد المحلي الأمريكي يعتمد اعتمادًا رئيسيًا على استهلاك البترول. ويمكن النظر إلى هجوم القاعدة على برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك في الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كذريعة لزيادة نفوذ الولايات المتحدة في العراق أو غيرها تحت قناع "الحرب على الإرهاب". كما أن من شأن هذا أن يصرف انتباه الرأى العام عن التفكير في المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي كالبطالة، والديون، وفضائح مؤسسات الأعمال، وزيادة التفاوت بين الأغنياء والفقراء. (انظر تمرين ٢-١).

وفي رأى جيسون بيرك (٢٠٠٤) – وهو صحفي يعمل في منطقة الشرق الأوسط – أن القاعدة تنظر إلى الولايات المتحدة كقوة إمبريالية تعمل على حماية مصالحها في شتى أنحاء العالم بلا هوادة. وهي تفعل ذلك عن طريق استخدام القوة، ونشر الآراء المناهضة للإسلام، وخلق قيم وثقافة موالية للغرب. ويمثل هذا الأمر في ذات الوقت جزء من الدور الذى تؤديه الشركات الأمريكية العابرة للقوميات مثل ماكدونالدز وكوكاكولا. ولذلك تعد القاعدة الإرهاب سلاحًا عسكريًا مشروعًا من حقها أن تستخدمه لمقاومة القوة الأمريكية والاستعمار الأمريكي.

(المصدر: نقلاً بتصرف عن كارل تومسون فى مقاله: "النظرية الراديكالية والحادى عشر من سبتمبر"، المنشور فى مجلة علم الاجتماع المجلد ١٦ (عدد ٣)، ٢٠٠٧).

تمرين ٢-١	
تفسير تطبيق	١- ما هى - فى رأى هارفى - الاستراتيجية الاقتصادية طويلة المدى للولايات المتحدة؟
تطبيق تحليل	٢- كيف تعمل الولايات المتحدة الأمريكية - كحكومة ومؤسسات اقتصادية وإعلام - على خلق "وعى زائف" لدى الرأى العام الأمريكى؟
تحليل تقييم	٣- اشرح كيف يمكن أن يستخدم سلوك الولايات المتحدة لفهم المبادئ التى يؤمن بها تنظيم القاعدة؟
تفسير تطبيق تحليل تقييم	٤- وضح المقصود بعبارة "الآراء المناهضة للإسلام" وعبارة "القيم والثقافة الموالية للغرب"؟

البناء والإيديولوجيا

اهتم ماركس - على المستوى البنائى - بتناول أهمية البناء الفوقى الثقافى ودراسة "الأشكال الإيديولوجية"، ويقصد بها: القانون، والسياسة، والدين، والفن، والفلسفة وما إلى ذلك. أى أنه يقصد بها مصادر التفكير والتفسير والقيم والمعتقدات السائدة فى المجتمع. وتعد الأشكال الإيديولوجية جزء مهما من تفسيرات ماركس

لأسباب اشتعال مثل هذه الثورة المتوقعة، ذلك أن الرأسمالية تخلق – إلى حد ما – طرائق للتفكير من شأنها العمل علـــى دعم النظام القائم واستمراره. ويعرف ليفيفر (١٩٦٨) الإيديولوجيا بأنها نسق متكامل من الأفكار يوجد خارج الناس ويمـــارس قهرًا عليهم. وفـــى تحليل ماركس (١٨٥٧- ١٨٥٨/ ١٩٦٤) ترتكز الايـــديولوجيا المسيطرة فى المجتمع الرأسمالى على أفكار الطبقة الحاكمة. وتكون هذه الأفكـــار متجذرة فى النظم القانونية، والسياسية، والدينية القائمة فى المجتمع، كما أنها تعمل على دعم السلطة البورجوازية وإضفاء المشروعية عليها. وفـــى مثل هذا المجتمع نجد أن وعى جميع الأفراد قد تشرب إيديولوجيا الطبقـــة الحاكمـــة، التـــى تؤكـــد الصواب الحقيقى للوضع القائم، وطبيعته السوية وضرورته الحتمية.

ولعل البناء السياسى يمثل فى رأى ماركس أهم عناصـــر البنـــاء الفـــوقى الثقافى. وقد كرس جانبًا كبيرًا من الجهد لنقد ما أسماه "الديموقراطية البورجوازية"، رافضًا قيم التعددية السياسية ومفضلاً عليها التنظيم السياسى اللامركـــزى. ويـــرى ماركس أن النظام السياسى الحاكم سوف يؤول أمـــره فـــى النهايـــة إلـــى الأخـــذ بالديموقراطية المباشرة، التى يتيحها نظام المجالس العمالية، التـــى ســـوف تتخـــذ القرارات السياسية التى لا يفرضها أو يتدخل فيها أى تنظيم حكومى من أى نـــوع. وقد سبق أن لاحظ موزيليس (١٩٩٢) أن ماركس كان يـــرفض الإقـــرار بقـــدرة الديموقراطية الغربية وإمكانياتها، معتبرًا أنها ليست سوى شكل آخر مـــن أشـــكال القهر البورجوازى.

وقد قدم ماركس (١٨٦٧/ ١٩٦٧) تحليلاً اقتـــصاديًا لعناصـــر الممارســـة السياسية، معتبرًا الحزب نظامًا مرتبطًا بالقوة الاقتصادية على نحو لا فكاك منـــه. فالممارسة السياسية فى المجتمع الرأسمالى إنما تعكس أشكال عدم التفاوت القائمـــة فى ذلك المجتمع، وأن الديموقراطية لا تعمل إلا على خلق وهم التمثيل السياسى.

الموضوع (B)

ماركس والديموقراطية

يؤمن ماركس أن القوة الاقتصادية هي الوجه الأهم للقوة في أي مجتمع، وأنه طالما كان هناك تفاوت اقتصادي لا يمكن أن تكون هناك مساواة سياسية. وبهذا الفهم لم يكن يؤمن أن بالإمكان قيام ديمقراطية حقيقية إلا بعد أن يوجد مسرح اقتصادي عادل ومتكافئ. لماذا إذن تتحقق الديموقراطية السياسية؟ يرى ماركس أن التمثيل البرلماني قد ظهر كوسيلة – من بين عدة وسائل – حاولت الطبقة البورجوازية استخدامها في التحكم في البروليتاريا. ففي الوقت الذي يتم فيه تبني الديموقراطية الشكلية تتيح سيطرة البورجوازية على القوة الاقتصادية لها أن تتلاعب بالممارسة السياسية وبالمجتمع بما يخدم مصالحها. من ذلك مثلاً أن القوة الاقتصادية هي التي تضمن سيطرة وكلاء البورجوازية على وسائل الإعلام، بحيث يتم نشر رؤية للعالم تتوافق مع مصالح البورجوازية وتخدمها. ويتحقق ذلك بالأساس عن طريق استبعاد الأفكار الاقتصادية الخلافية من المجال العام. كذلك لم يقنعه وجود الأحزاب السياسية المتنافسة بقيمة الديموقراطية وأهميتها. فهي في رأيه ليست سوى جماعات صفوة منظمة (أوليجاركية) لابد أن تعمل حتمًا على خيانة مصالح أفراد الشعب الذين يفترض أنها تمثلهم. ومن شأن ذلك أن يدفع جماهير الناس دفعًا نحو اللامبالاة السياسية، بسبب إحباطهم الناجم عن عجز قادتهم على تغيير الأمور نحو الأفضل. ولذلك لم يسع ماركس إلى توسيع الأبنية البرلمانية في المجتمع الشيوعي، ونجده – بدلاً من ذلك – يدعو إلى الإطاحة بالدولة نفسها، وذلك عند قيام الديموقراطية المباشرة.

تمرين ٢-٢	
معرفة فهم تطبيق	١- عرف ما هى الديموقراطية فى ضوء الموضوع (B)
معرفة فهم تطبيق تحليل	٢- ما الاسم الذى يطلق على مجموعة النـاس الـذين يملكـون وسائل الإنتاج؟
تفسير تطبيق تحليل	٣- كيف تعمل السيطرة على وسائل الإعلام على خدمة مصالح الرأسمالية؟
معرفة فهم تطبيق	٤- ما المقصود باللامبالاة السياسية؟
تطبيق تحليل	٥- كيف تتصور أن اللامبالاة السياسية يمكـن أن تفيـد الفئـة المهيمنة فى المجتمع؟
معرفة فهم تطبيق	٦- ما الأوليجاركية (استبداد الأقلية)؟
تطبيق تحليل	٧- لماذا يمثل وجود جماعات الأقلية المستبدة (الأوليجاركيـات) تهديدًا للديموقراطية؟
تفسير تطبيق	٨- ما تصورك لما يعنيه ماركس بحديثه عن الإطاحة بالدولة؟
تحليل تقييم	٩- إلى أى مدى توافق على رأى ماركس بأن التعددية السياسية لا تخدم مصالح الطبقة العاملة؟ اكتب مبررات لرأيك.

تقييم الماركسية

نقاط القوة

١- لفت ماركس الانتباه إلى الأوضاع المأزومة للفئات المحرومة في المجتمع الرأسمالي، وأوضح كيف أن مختلف عناصر البناء الاجتماعي تعمل على استمرار اللامساواة الاجتماعية على نطاق واسع.

٢- أوضح ماركس في نقده للرأسمالية أنها ليست نظامًا حتميًا ولا عصيًا على الهدم. وفي هذا السياق رفض التصور السائد بأن الرأسمالية لها وجود مستقل وبذلك كشف زيف أسطورة قوة الرأسمالي.

٣- إعادة ماركس التأكيد على أن العمل الذي يقوم به العمال هو الذي يدعم وجود الرأسمالية وأن بدونه لا يمكن أن توجد رأسمالية. وذهب إلى أن وحدة العمال والرغبة المشتركة في الإطاحة بالطبقة البورجوازية والقضاء على القهر يمكن أن تكون قوة فعالة ومؤثرة في إحداث التغيير الاجتماعي. فمن شأن هذا أن يمنح العمال المعرفة والوسيلة التي يحررون بها أنفسهم.

٤- من الأمور التي تستحق الإشادة اهتمام ماركس بتحرير الإنسان. فقبل ظهور مؤلفات ماركس كان علماء الاجتماع يوجهون جل اهتمامهم إلى محاولة فهم الوضع القائم وليس الانشغال بتقديم تحليل نقدي مدفوع بالرغبة في تحسين الأوضاع الراهنة لأفراد المجتمع. ولم يهتموا إلا اهتمامًا ضئيلاً بقضايا مثل القدرات والإمكانيات البشرية والإبداع الإنساني.

٥- قدم ماركس – بتبنيه للمنهج الجدلي – بديلاً للنظريات السابقة التي أخفقت في التعرف على العلاقات الخفية بين مختلف عناصر العالم الاجتماعي وكيف تعمل هذه العلاقات على التأثير في هذا العالم. وقد أوضح ماركس كيف أن العلاقات الاجتماعية يمكن أن تكون لها نفس قوة الأبنية الاجتماعية.

٦- ابتكر ماركس عددًا من المفاهيم الجديدة (مثل: اقتصاد السوق الحر، تقديس السلع، التشيوء، الإيديولوجيا، الاغتراب) التي أثرت أعمق الأثر على تصورات علماء الاجتماع الذين جاءوا بعده. فقد زودتهم مثل هذه المفاهيم بأساليب جديدة لفهم العالم ودراسته. ومازال كثير من هذه المفاهيم مهمًا ومستخدمًا حتى اليوم.

أوجه القصور

١- لعل أبرز الانتقادات التي وجهت إلى ماركس هو أنه تنبأ بحدوث الثورة، وهو الأمر الذي لم يحدث مع ذلك. ويرى البعض في ذلك مبررًا كافيًا لرفض إسهامه في علم الاجتماع واستبعاده تمامًا. فالمجتمعات التي تبنت وطبقت المبادئ والأسس الماركسية – على نطاق واسع – في إدارة اقتصاداتها وأبنيتها التحتية كالاتحاد السوفيتي السابق، ويوغوسلافيا (السابقة)، والمجر، وجمهورية التشيك، وألمانيا الشرقية كانت تعد جميعها مجتمعات استبدادية وقمعية. ثم آل الأمر بتلك البلاد في النهاية إلى تبني موقف مؤيد للرأسمالية وأصبحت منقسمة على نفسها وفقًا لبعض الأسس شبه العرقية/ الدينية. وقد حدث ذلك في أعقاب صراع مسلح مازال مستمرًا. ومازالت الصين، وكوبا، وكوريا الشمالية هي الدول الثلاث التي مازالت تقوم على الفكر الماركسي صراحة.

٢- يضاف إلى ما سبق ما ذهب إليه البعض من أن ماركس قد قلل من مرونة الرأسمالية – بمعنى أن الطبقة البورجوازية يمكن أن تقدم بعض التنازلات للبروليتاريا – من قبيل دفع أجور أعلى، ومنحهم حقوق التصويت، والسماح لهم بالملكية الخاصة للسلع/ والممتلكات ونحو ذلك، دون أن ينتقصوا من قوتهم شيئًا.

٣- كما انتقد ماركس بسبب شدة تطرفه. فقد دفعت ميوله الثورية المفكرين المحافظين والليبراليين إلى وصفه "بالمتعصب المتعطش للدماء" (ريتزر، ٢٠٠٨). والحق أن الجانب الأكبر من هذا الحماس "الثوري" قد كتب في المنشورات السياسية التي كانت تستخدم على أيامه لأغراض الدعاية، ولكن لم تتضمن مؤلفاته الأكاديمية – مثل كتاب رأس المال – أي تشخيص كامل وعلمي لنمو وتطور الاتجاه نحو الثورة.

٤- من الانتقادات الأخرى الشائعة لماركس أنه كان متحيزًا من الناحية الإيديولوجية. ويخص النقاد بالذكر اهتمام ماركس الزائد عن الحد بموضوع الاقتصاد على حساب العناصر المهمة الأخرى للبناء الاجتماعي. كما وجهت انتقادات أخرى إلى الموقف السياسي الذي اتخذه ماركس. فقد قيل إن تحمسه للامركزية السياسية قد قاده إلى رفض قيمة التعددية السياسية وأهميتها في حماية حقوق الفرد (موزيليس، ١٩٩٢).

٥- كما انتُقدت النظرية الماركسية في ضوء انهيار المجتمعات الاشتراكية والشيوعية، التي حلت محلها مجتمعات ذات اقتصاد رأسمالي. فالشيوعية ليست سوى يوتوبيا (تصور مثالي خيالي) لدى ماركس لا يمكن أن تتحقق إلا إذا توفرت كافة شروط تحقق الإمكانيات البشرية والإبداع الإنساني. وأن هذا المجتمع الشيوعي سوف يبزغ من تناقضات الرأسمالية لكي يؤسس بناء اجتماعيًا قائمًا على التعاون المشترك والقبول العام. وليس بوسع النظرية الماركسية أن تفسر اليوم انهيار الشيوعية والعودة إلى الرأسمالية لأن شيئًا من هذا القبيل لم يتخيله ماركس أو يطرأ على خاطره أبدًا.

الماركسية الجديدة

حاول عدد من الكُتّاب البناء على نظرية ماركس، ويسمى أولئك الذين كتبوا وفكروا على هدى الخطوات الرئيسية المتضمنة فى مؤلفاته الأصيلة؛ يسمون الماركسيين الجدد. أما أولئك الذين تجاوزوا الحدود التقليدية للنظرية الماركسية فيسمون ما بعد الماركسيين (أى أتباع "ما بعد الماركسية"). وسوف تقتصر هذه الفقرة على مناقشة آراء الماركسيين الجدد. فقد سعى الماركسيون الجدد إلى تطوير النظرية الماركسية فى ضوء تصاعد النقد الموجه إلى الحتمية الاقتصادية. وسوف ينصب كلامنا هنا بالأساس على مؤلفات أنطونيو جرامشى – أحد الماركسيين الجدد – فى محاولتنا إلقاء الضوء على آفاق التحليل الماركسى الجديد.

يعد جرامشى (١٨٩١–١٩٣٧) أهم مفكرى الماركسية الجديدة، وهو الذى رفض القول بالدور الطاغى للاقتصاد فى تحقيق الشيوعية. ففى رأى جرامشى (١٩١٧/ ١٩٧٧) أنه لا يمكننا إنكار أهمية الاقتصاد، إلا أننا لا نوافق على أن صور التفاوت الاقتصادى فى ظل الرأسمالية يمكن أن تكفى وحدها لخلق الوعى الطبقى عند البروليتاريا. فالبروليتاريا ليس بمقدورها أن تولد أفكارًا ثورية من داخلها، وإن الإيديولوجيا الثورية لن تتولد إلا على يد المثقفين الثوريين، ثم تقوم البروليتاريا بتنفيذها.

وقد اعتبر جرامشى أن الأفكار الجماعية وليس البنى الاجتماعية – كالاقتصاد – هى المفتاح الأساسى لفهم الحياة الاجتماعية والتغير الاجتماعى. وقد سعى إلى تحليل مصدر الأفكار فى المجتمع، حيث أولى اهتمامًا خاصًا لمصدر الأفكار المهيمنة،

وكيف يتم نقلها إلى الجماهير. إذ يرى جرامشى أن أساس الهيمنة البورجوازيــة إنمــا يرجع إلى التحكم فى الأفكار. ولهذا إذا أريد للثورة أن تــنجح فلابــد للبروليتاريــا ألا تكتفى بالهيمنة على وسائل الإنتاج والتحكم فيها فحسب، وإنما يتعين عليها أن تــضطلع بالزعامة الأخلاقية والثقافية.

والنقطة المحورية عند جرامشى (١٩٣٢/ ١٩٩٥) هــى تحليلــه لمفهــوم "الهيمنة"، التى عرفها بأنها: "الزعامة الأخلاقية والفلسفية التى تــستطيع أن تحــوز القبول الإيجابى من جانب من تحكمهم. إنها قيــادة تــستهدف خلــق إرادة شــعبية جماعية" (سلاترى، ١٩٩١). ويمكن التوصل للفوز برضــا المحكــومين بمجــرد توجههم إلى الاعتقاد بأن الطبقة الحاكمة هى الأصلح لتولى مقاليــد الــسلطة فــى المجتمع.

ويرى جرامشى أن وسائل الاتصال الجماهيرى تمثــل أداة مهمــة لتحقيــق السيطرة الإيديولوجية على الجماهير. إذ يمكن استخدامها فى تقديم رؤيــة معينــة للعالم يمكن امتصاصها داخل الوعى الجمعى للجماهير وتشبعهم بها بحيث تــصبح رؤيتهم هم. وسوف يتيح لنا التمرين التالى أن نعرف كيف يمكن استخدام وســائل الإعلام فى تشكيل أفكار الناس وتصوراتهم للأحداث الاجتماعية، وكيف يمكــن أن يستخدم ذلك لصالح الجماعات القوية فى المجتمع وضد الجماعات المستضعفة.

الموضوع (C)

إنتاج الأخبار: نموذج الهيمنة

يعترف منظروا الهيمنة بأن وسائل الإعلام فى بريطانيا لا تخضع – على العموم – لتوجيه وتنظيم من جانب الدولة. كما أنها لا تدافع مباشرة عن الطبقة الحاكمة. وأن التحيز الموجود فى وسائل الإعلام إنما يرجع إلى العاملين بالإعلام أنفسهم. فالإعلاميون هم من أبناء الطبقة الوسطى، على قدر معقول من الثراء (وهم من الرجال عادة) الذين يميلون إلى تبنى نظرة "معتدلة" تسعى إلى تحقيق الإجماع فى معظم المسائل المعروضة...

ويرى أصحاب نظرية الهيمنة أن أولئك القائمين على الإعلام إنما يترجمون الإيديولوجيا المهيمنة ويعبرون عنها على نحو ما تدل مخرجات وسائل الاتصال. وتقوم هذه العملية على اختيار رموز (أو شفرات) من شأنها أن تضفى معانٍ مناسبة على الأحداث والقصص التى يروجونها. وتجسد هذه الرموز أو الشفرات تفسيرات "طبيعية" يمكن أن يتقبلها غالبية أفراد المجتمع (أى أنها تبدو طبيعية فى التعبير عن تفكير مجتمع معين). ويمكن أن تتم عملية تشفير الإيديولوجيا المهيمنة على نحو يعطى الوزن الأكبر لوجهة نظر الأثرياء الأقوياء؛ يمكن أن تتم أحيانًا تحت قناع القيم الإعلامية (القيم الجديدة، الحساسية الإخبارية، البث الحى، الصور المثيرة، الروايات المحبوكة، الأخبار الساخنة، النكات والقفشات الطريفة). إلا أننا يجب أن ننتبه إلى أن هذه القيم نفسها إنما تجسد الإيديولوجيا المهيمنة وتعبر عنها.

ومن أمثلة هذا الأسلوب طريقة تصوير عمل الشرطة فى وسائل الإعلام بأنها نشاط يحقق مستوى عاليًا من النجاح. فضباط الشرطة وأخصائيو الطب

الشرعي تعرض لهم مسلسلات الجريمة الشهرية (مثل CSI "دراسة مسرح الجريمة"، و"الملمس الجليدى"، و"المفتش مورس" وغيرها) ينجحون دائمًا في حل القضايا التي يتناولونها. كما نجد في نشرات الأخبار اهتمامًا بتخصيص المزيد من الحيز الزمني ومساحة التغطية للحديث عن الجرائم الخطيرة التي يتم الكشف عنها وحل ألغازها. على حين يرى راينر (٢٠٠٠) أن عمل الشرطة لا يعد من الأساليب ذات الفاعلية الفائقة في ضبط الجريمة. ربما تسهم الشرطة في المحافظة على النظام العام في المجتمع الصناعي الحضري، ولكن تصويرها في وسائل الإعلام في صورة أسطورية إنما يدعم الإيديولوجيا المهيمنة التي تريد أن تعلمنا أن الشرطة تقوم بحمايتنا جميعًا.

(المصدر: بتصرف عن تراولر، علم الاجتماع في بؤرة الاهتمام: دراسة وسائل الإعلام، لندن، كولينز، ١٩٩١. وعن سان سوليفان، "رجال الشرطة في برامج التليفزيون: وسائل الإعلام والعمل الشرطي" المنشور في مجلة علم الاجتماع، المجلد ١٦ (العدد ١)، ٢٠٠٦).

<table>
<tr><th colspan="2">تمرين ٢-٣</th></tr>
<tr><td colspan="2">أوضح الموضوع (C) كيف أن مفهوم جرامشي عن الهيمنة يمكن أن يطبق على عملية إنتاج الأخبار وعلى تصوير الشرطة في وسائل الإعلام. اقرأ نص الموضوع بعناية، ثم أجب عن الأسئلة التالية:</td></tr>
<tr><td>تفسير
تطبيق</td><td>١- في ضوء الموضوع (C) كيف تعمل وسائل الإعلام على خلق رؤية واحدة متجانسة لدى جميع الناس؟</td></tr>
<tr><td>تطبيق</td><td>٢- ما الدور الذي تلعبه المؤسسة الإعلامية في دعم وتأكيد</td></tr>
</table>

تحليل	الوضع الراهن؟
تحليل تقييم	٣- إلى أى مدى توافق على تصور أصحاب نظرية الهيمنة فى أن مسئولية انحياز وسائل الإعلام تقع على عاتق الإعلاميين أنفسهم؟
تحليل تقييم	٤- لم يكن ماركس ليوافق على الرأى القائل بأن وسائل الإعلام تعبر – بشكل غير واع – عن الإيديولوجيا المهيمنة فى ممارسة العمل الإعلامى. اشرح كيف؟
تفسير تطبيق	٥- فى ضوء الموضوع (C) ما العوامل المؤثرة على أسلوب السرد أو تصوير الحادثة، خاصة فيما يتعلق بالشرطة؟
تحليل تقييم	٦- إلى أى مدى توافق على القول بأن أفكار الأفراد تتشكل حسب طريقة عرض الأخبار عليهم؟

الموضوع (D)

عالمان يتصادمان

المشهد: زوجان عاديان، وسيارة مليئة بأفراد

من جماعات الهيبيز، ونزهة صباح الأحد انتهت بكارثة.

تقرير خاص بقلم جون هامشير

السائق المسئول عن الصدام المروع بين سيارتين – والذى ذهب ضحيته خمسة أشخاص – إنما هو فتاة هيبيز فى الرابعة عشر من عمرها يرجح أنها

كانت تقود السيارة تحت تأثير جرعة عالية من المخدرات على نحو ما أوضح مسئولو الشرطة أمس.

ضحايا الأمس كانوا أربعة من مسافرى العصر الحديث بينهم الفتاة كيبرا لوجلين، ثلاثة منهم كانوا يركبون السيارة المليئة، فضلاً عن رجل أعمال متزوج.

وعند قيام رجال الشرطة بفحص حطام سيارة الركاب الهيبيز اتضح أنها لم تسدد الضرائب وليس مؤمنًا عليها (ماركة رينو طراز فويجو) وعثروا فيها على كمية "كبيرة" من الحشيش.

أما الناجى الوحيد من سيارة الهيبيز، وهو الطفل ليروى جراهام، فيبلغ من العمر أربعة أعوام وكان مازال يصارع الموت حتى مساء أمس. أما رجل الأعمال الذى توفى جلين كارول فكان فى التاسعة والثلاثين. وتعمل زوجته سوزان سكرتيرة وتبلغ من العمر تسعة وثلاثين عامًا أيضًا، وقد أصيبت بإصابات خطيرة.

ويعتقد رجال الشرطة أن كيبرا، التى كانت تحتفل بعيد ميلادها الأسبوع الماضى، كانت تدخن الحشيش عندما حاولت أن تتفادى الاصطدام بسيارة كارول (لاندروفر ٢١٦ صالون) التى كانت قادمة أمامها عند أحد التقاطعات المعروفة على الطريق السريع A39 عند ناحية جرين أور، التابعة لمنطقة سومرست يوم عيد الأم.

وبعد وقوع الصدام اصطدمت بحطام السيارتين سيارة ثالثة بيجو ٦٠٥، ولكن سائقها نجا من الإصابة فى الحادث.

توفيت كيبرا على الفور، كما توفيت فى نفس الوقت ميشيلا ستورر (١٥

عامًا) وكذلك شاندر توماس (١٦ عامًا) وجيسون ماك لوجلن (٢٥ عامًا) والــد الطفلة الصغيرة ليروى.

وكان ركاب سيارة الهيبيز يعيشون مع ٨٠ آخرين في مجتمع مغلق يتسم بالقذارة ويتكون من مجموعة من عربات النوم (كارافان) المتهالكة والــسيارات القديمة في مكان يقع بالقرب من ناحية ويستون سوبر مير.

أما الطفلة ليروى التي تعاني من إصابات خطيرة بالعمود الفقري فكانــت ترقد بالأمس في حالة خطيرة بقسم العناية المركزة بمستشفى بريستول للأطفال.

أما السيدة كارول فكانت ترقد في المستشفى الملكي في المدينة لمعاناتهــا من إصابات في الساق والرقبة. ومع أن حالتها خطيرة، فإنها لا تمثــل خطــرًا على حياتها.

وقد صرح والدها المصدوم السيد جون نورجروف (٧٤ عامًــا) والــذي يعيش مع ابنته وزوجها في بلدة كروسكومب بالقرب من ويلز؛ صرح: "كيــف يتأتى لفتاة في الرابعة عشر من عمرها أن تقود ســيارة علــى طريــق ســريع مزدحم؟ إنه أمر لا يعقل، أن بعض الشباب أصبحوا لا يبدون أي احترام للقانون أو مراعاة للصواب والخطأ. إنه فعلاً إهدار مروع للحياة".

وفيما يلي تستعرض (صحيفة) "الديلي ميل" حياة تلــك المجموعــة مــن الأفراد الذين يتباينون فيما بينهم أشد التباين، ولكن القدر جمعهم معًا فــي تلــك النزهة صباح يوم الأحد.

(المصدر: جون هامشير، "عالمان يتصادمان"، جريدة الــديلي ميــل، ١٦ مارس ١٩٩٤).

تمرين ٢-٤	تفسير – تطبيق تحليل – تقييم

أتاح لك التمرين السابق فرصة التعرف الوثيق على مفهوم جرامشى عن الهيمنة الذى يمكن تطبيقه على وسائل الإعلام. ويستهدف التمرين الحالى أن يمكنك من تطبيق أفكار جرامشى بنفسك عن طريق تحليل مقال منشور بإحدى الصحف:

١- اقرأ الموضوع الذى يروى حادث سير مروغا يوم عيد الأم.

٢- ناقش الأسئلة التالية مع مجموعة صغيرة من الطلاب:

أ- كيف يمكن أن يؤثر إخراج المقال على وقعه فى نفس القارئ.

ب- كيف يمكن أن يؤثر وصف الناس المشار إليهم فى المقال على انطباع القارئ عن الحادث؟

ج- كيف تم استخدام اللغة/ الخطاب فى هذا المقال؟

د- لماذا اعتبرت هذه القصة – من وجهة نظر الصحيفة – جديرة بالنشر؟

٣- ارجع إلى الأفكار الواردة فى تمرين ٢-٣، ثم أجب عن الأسئلة التالية:

أ- إلى أى مدى يعكس المقال الأفكار التى يجسدها نموذج الهيمنة؟

ب- ما التفسيرات الأخرى التى يمكن أن تقدمها لفهم الأسلوب الذى اتبعه الكاتب فى عرض قصته؟

تقييم الماركسية الجديدة

نقاط القوة

١- يمثل تركيز جرامشى على موضوع الهيمنة بديلاً للحتمية الاقتصادية التى كانت تأخذ بها الماركسية التقليدية. فالماركسيون الاقتصاديون كانوا يميلون إلى تأكيد العناصر الاقتصادية وعناصر القهر فى نظام الدولة. فى مقابل هذا نجد جرامشى يذهب إلى القول بأن السيطرة إنما تنبع من تقبل الإيديولوجيا التى تعمل على استدامة قوة الطبقة الحاكمة واستمرارها.

٢- يقدم جرامشى طريقًا بديلاً لطريق الثورة، عندما يقرر أن السيطرة على وسائل الإنتاج ليست كافية وحدها. فالثوريون لن يستطيعوا تحقيق السيطرة الكاملة إلا إذا اكتسبوا دور الزعامة الثقافية على بقية المجتمع.

٣- يؤكد جرامشى على الدور المهم للتعليم فى تحقيق الثورة. ففى رأيه أن الوعى الطبقى لن يتكون فقط بمجرد أن يصبح العمال على وعى بخبرة القهر التى يمرون بها جميعًا. بل إن التوعية الفكرية تكون ذات أهمية حاسمة فى خلق قوة الدفع للعمل الثورى. وقد أوضح جرامشى أن للحزب الشيوعى دور حيوى يتعين أن يلعبه هنا، ألا وهو توجيه الانتباه العام إلى أولئك الذين يستطيعون أن يلهموا بعملهم وفكرهم التغيير الثورى.

٤- أفاض جرامشى – ربما على نحو يفوق ما فعله ماركس – فى بيان قيمة التحليل الجدلى. فمزجه بين الوعى الثقافى، والزعامة المعنوية والفلسفية، والسيطرة الاقتصادية والسياسية تعد تحليلاً أكثر دقة وأقرب احتمالاً لسيطرة الدولة والمجتمع من ذلك التحليل المادى ذى البعد الواحد الذى قدمه ماركس.

٥- اعتراف جرامشى بأن السيطرة الإيديولوجية الكاملة أمر نادر، وأن المجتمع يتسم بوجود جماعات المصالح ذات الفلسفات المتصارعة التى تسعى إلى السيطرة الإيديولوجية، ومن هنا فإنها تستطيع أن تتسق مع الديموقراطية الغربية أكثر من الصورة الشمولية التى رسمها ماركس. ولا نلمس فى أعمال جرامشى مجرد الإدراك الواضح لمصادر قوة الجماعة المسيطرة، وإنما نجده يدرك بوضوح وجود نظم متتابعة وآفاق حدوث هذا التتابع.

أوجه القصور

١- خضع تحليل جرامشى – الأكثر إنسانية وانفتاحا وتدرجا – للاستراتيجية الاشتراكية لنقد قاس من جانب الماركسيين الأكثر تشددا بسبب كونه متحررًا أكثر مما يجب، ولأنه ينكر الأهمية التاريخية للمادية التاريخية، وهى العملية التى تعمل على تحقيق التغير الاجتماعى عن طريق تصادم المصالح المادية فى المجتمع (سلاترى، ١٩٩١).

٢- انتقدت الأحزاب الشيوعية تأكيد جرامشى على أهمية اعتماد البروليتاريا على التعليم لتصبح طبقة ثورية. ففى رأيهم أن ذلك ينكر عليهم قدراتهم على تحقيق التغيير بأيديهم.

٣- يبدو أن التأثير المحدود للأحزاب الشيوعية فى الغرب يعد فى رأى البعض بمثابة إضعاف لتحليل جرامشى. فقد تصور أن المفكرين الثوريين يمكن أن يولوا اهتمامًا متزايدًا للطبقة العاملة لنشر الحماس الثورى بينهم. ولكن الواقع أن الطبقة العاملة قد أصبحت أكثر محافظة وتقبلاً للوضع الراهن، وأكثر رفضًا للسياسة الشيوعية. فقد أصبحت الأحزاب الشيوعية والأحزاب التى حلت محلها مباشرة أبعد ما تكون اليوم عن أن تمثل إغراء للمجتمع، ويبدو الأمر أنها لا

تستطيع أن تجتذب إلا جماعات الأقلية فقط (مثل: الطلاب، والنساء، والسود) الذين يحتلون مكانة هامشية داخل الطبقة العاملة، ومن ثم يمكن وصفهم بأنهم ليسوا بروليتاريا.

النظرية النقدية

ترتبط النظرية النقدية بأعمال مدرسة فرانكفورت، وهم جماعة من الماركسيين الجدد الألمان الذين قرروا الإفصاح عما يعدونه نقطة ضعف للماركسية: ألا وهو ميلها إلى الحتمية الاقتصادية. وقد قدم كل من تيودور أدورنو، وماكس هوركهايمر، وهربرت ماركيوز تفسيرًا أكثر دقة وإحكامًا للبناء الاجتماعى، مع الاهتمام بإبراز عناصر المجتمع التى يمكن أن تسهم فى تحقيق "السيطرة"، أى الطريقة التى يتبعها النظام فى فرض سيطرته على الناس، وقهرهم وتزييف وعيهم لضمان إعادة إنتاج الموقف الاجتماعى والاقتصادى السائد.

كما يقدم مفكرو النظرية النقدية نقدًا للمجتمع المعاصر أيضًا، ويتصدر هذا النقد تحليل الثقافة ودورها فى إبقاء الجماهير على حالها. ويكرس ماركيوز (١٩٦٤) جانبًا كبيرًا من أعماله للكتابة عما أسماه "الثقافة ذات البعد الواحد"، التى يراها تسود المجتمع المعاصر (انظر تمرين ٢-٥ للوقوف على فهم لهذه الفكرة). فهو ينسب لصناعة الثقافة دورًا قويًا فى خلق ونشر ثقافة زائفة تخدع الجماهير وتخلق لديهم احتياجات زائفة. ومن شأن ذلك أن يمنع التفكير فى أى أعمال ثورية مناهضة للجماعات المسيطرة. فصناعة الثقافة تنجح فى إخضاع الجماهير من خلال نشرها مجموعات جاهزة من الأفكار. فيصبح الناس مهووسين بتوافه الأمور، وأحاديث النميمة، والموضة والبدع الجديدة، والرغبة فى نشر ثقافة جماهيرية بدلاً من العمل على تطوير رؤية ثورية للظروف الاجتماعية التى تعيش فيها تلك الجماهير وسبل التحرر منها.

تحليل – تقييم	تمرين ٢–٥

اختر مثالاً لما أسماه ماركيوز "الثقافة ذات البُعد الواحد" التى ترى أنها منتشرة فى المجتمع، ثم ناقش مع مجموعة من زملائك الطلاب تأثير هذه النماذج من وجهة نظر النظرية النقدية/ الماركسية. وفيما يلى بعض النماذج التى تستطيع أن تبدأ بها:

- برامج تليفزيون الواقع، مثل برنامج "الأخ الأكبر".
- التمسك بالعلامات التى تحمل اسم "المصمم" أو "المنتج" على قطع الملابس وعلى الأحذية.
- عبادة الشهرة، أى الرغبة الشديدة فى أن يصبح الإنسان مشهورًا من أجل الشهرة وليس لأى غرض آخر.

ويرى مفكرو النظرية النقدية أن المجتمع الحديث يتسم بعدم الرشد، والقهر، واستلاب العناصر الأساسية للحياة الإنسانية، خاصة القدرة على تغيير البيئة المحيطة وعلى عمل اختيارات جماعية رشيدة بشأن أمور الحياة. ولكن الملاحظ أن المجتمع الحديث يتسم كذلك بسمة الرشد، وهى العملية التى بمقتضاها تصبح المعرفة والأشياء وسائل لتحقيق غايات معينة وليست غايات فى ذاتها. ويرتبط هذا الأمر بظهور أسلوب التفكير التكنوقراطى، الذى يهتم بتحقيق السيطرة على حساب التحرر.

ويسمى المفكرون – الذين يتبنون آراء مدرسة فرانكفورت – الأبنية البيروقراطية الرشيدة التى تتحكم فى الثقافة الحديثة: "صناعة الثقافة". ويرون أن صناعة الثقافة هى المسئولة عن إنتاج ثقافة زائفة تعمل على خداع الجماهير وتخديرهم. ولو كان أتباع مدرسة فرانكفورت على حق، لأصبح من الممكن أن

نجد الشواهد الدالة على أن وسائل الإعلام توجه اهتمامها إلـى توافـه الأمـور، وتصورها كما لو كانت أمورًا مهمة، وبذلك تصرف الانتباه بعيـدًا عـن القـضايا "الحقيقية" التى تجعل الجماهير تنظر بعين ناقدة إلى النظـام الاجتمـاعى والأبنيـة الاجتماعية القائمة. ويستهدف التمرين التالى مساعدتك على تقدير مدى قدرة هـذه الأفكار على الثبات فى مواجهة البحث والتمحيص.

تطبيق – تحليل تقييم	تمرين ٢-٦

على طلاب الفصل أن يقوموا بتجميع الصحف المختلفة التى تصدر على مدى أسبوع. حاول تنويع الصحف التى يتم جمعها، مثل: الصحف ذات القطـع الصغير، والنشرات المنتظمة على صفحة كبيرة واحـدة، والـصحف اليوميـة، والصحف الأسبوعية:

١- تقوم مجموعة صغيرة من الطلاب بعمل تحليل مضمون مبدئى باسـتخدام مجموعة الأسئلة الواردة فيما يلى كأساس لهذا التحليل. قم بتصميم جـدول لتفريغ بيانات تحليل المضمون لمساعدتك على عد وتصنيف النماذج التـى تبحث عنها. وقد يتخذ جدول تحليل المضمون شـكل الجـدول أو الرسـم البيانى (بالنقط) وفيه تكتب فى الخانة الرأسية إلى أقصى اليمين عناصـر السمات المهمة (كرة القدم، عنصر الشهرة، المسلسلات التليفزيونية...إلخ). ويدون فى الخانة العرضية أعلى الجدول أسـماء الـصحف التـى تمـت دراستها. وعن طريق استخدام أى وسيلة للإشارة فى كل خانة إلـى كـم المادة الصحفية المخصصة لكل بند من بنود الموضوعات (مُقـاس مـثلاً بطول المادة بالعمود بالسنتيمترات: كأن يقال مثلاً إن المادة تغطى ١٥سم

من طول العمود). وبعد الفراغ من ذلك يمكنك عمل تحليل سيميولوجى (دلالى) للعلامات/ الرموز الواردة.

ملحوظة: *تعنى السيميولوجيا (أو علم العلامات) دراسة العلامات أو الرموز الدالة فى جميع أشكال الاتصال المعروفة. وتكون العلامة الدالة عبارة عن صورة، أو كلمة، أو تصور معين باد للعيان وله قيمة ظاهرة. أما المدلول عليه (أى ما تشير إليه العلامة الدالة) فهو ما تحت السطح الظاهر، وهو الأمر الذى يعتمد فهمه أو معناه على السياق الذى توجد فيه العلامة الدالة. مثال ذلك أن الإعلان عن سيارة هو الذى يمثل الرسالة الظاهرية البادية على السطح، ولكن الأمر الكامن تحت السطح فهو الترويج لأسلوب حياة معينة وبيعه للناس، وكذلك بيع مجموعة من القيم المرتبطة بملكية سيارة معينة (انظر المزيد عن هذا فى الفصل الثامن من هذا الكتاب). أما التحليل السيميولوجى لصورة أحد المشاهير - مثلاً - فسوف يركز على ما توحى به تلك الصورة من تصور معين لدخل هذا الشخص، وأسلوب حياته، واتجاهاته السياسية...إلخ.*

(أ) ابحث عن العناصر والموضوعات المرتبطة بالثقافة الجماهيرية، مثل: المشاهير، نجو الغناء والرقص، أفراد العائلة المالكة (الإشارة إلى بريطانيا - المترجم)، نجوم التليفزيون، لاعبى كرة القدم، المسلسلات التليفزيونية...إلخ، ثم أجب عن الأسئلة التالية:

- ما النسبة التى تشغلها هذه الموضوعات من كل صفحة، بالمقارنة بما يعد موضوعات "جادة"؟

- ما طريقة عرض مثل هذه المقالات؟ بمعنى كيف استخدمت الصور، وما الموقف أو الرأى الذى تتبناه المقالات المدروسة؟

• ما مقدار التوازن الذى تتسم به هذه المقالات؟

(ب) ابحث عن العناصر والموضوعات "الجادة"، مثل أمور السياسة، وأخبار الجريمة، والحرب والسلام، والاقتصاد...إلخ، ثم أجب عن الأسئلة التالية:

• ما نسبة الموضوعات – من تلك الفئة "الجادة" – التى تتبنى موقف الثقافة الجماهيرية، أى التى تركز على توافه الأمور على حساب الحقائق؟

• ما التفسيرات التى تقدم لمثل هذه الأمور "الجادة"؟

(ج) قارن محتويات صحيفتين مختلفتين، ثم أجب عن الأسئلة التالية:

• ما الصحيفة التى يبدو أنها تفضل توافه الأمور على الأخبار "الجادة"؟

• هل تسمح أى من الصحيفتين للأمور التافهة أن "تتسلل من الباب الخلفى"، بمعنى أنها قد تركز على توافه الأمور فى ثنايا عرضها للموضوعات "الجادة"؟

• تأمل مقالات رئاسة تحرير الصحيفة: إلى أى مدى تشجع كل مقالة منها التفكير النقدى لدى القارئ؟

(٢) قارن بين الأفكار التى تتولد من دراسة إجابات الأسئلة التى أوردناها فيما سبق، مع الأفكار التى تولدت من الإجابات التى توصلت إليها مجموعة أخرى من زملائك (ممن قاموا بأداء نفس التمرين). ثم ناقش الأمور التالية:

(أ) مدى التوافق بين الأفكار التى توصلت إليها؟	تقييم
(ب) إلى أى مدى أدهشتك النتائج التى انتهيت إليها؟	تقييم
(ج) إلى أى مدى تؤيد نتائجك آراء مدرسة فرانكفورت؟	تقييم

تقييم النظرية النقدية

نقاط القوة

١- تضفى النظرية النقدية مزيدا من المصداقية على الرأى القائل بأنه لا يمكن فهم البناء الاجتماعى فى ضوء الاعتبارات الاقتصادية وحدها.

٢- من شأن تركيز مفكرى النظرية النقدية الاهتمام على دور الثقافة فى استدامة قوة الطبقة الحاكمة تحذير الجماهير من الأخطار المحتملة التى يمكن أن تمثلها المؤثرات الثقافية.

٣- عمل مفكرو النظرية النقدية على إثراء الفكر من خلال ما قدموه من كتابات نقدية. فقد أوضحوا أن كل شيء قابل للنقد. ومن شأن هذا أن يفتح الباب للوصول إلى معرفة جديدة يمكن أن تقودنا إلى إحداث تغيير اجتماعى، على العكس من القبول المطلق – دون جدال – للوضع القائم فى المجتمع والثقافة.

٤- قدم مفكرو النظرية النقدية، من خلال ربط العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ببعضها البعض، نموذجا عمليًا مفيدًا لإمكانيات وقدرات التحليل الجدلى.

أوجه القصور

١- يرى النقاد أن مفكرى النظرية النقدية لم يقدموا إسهاما يذكر لعلم الاجتماع، اللهم إلا بعض الانتقادات الخاوية؟

٢- أدينت النظرية بسبب عدم اهتمامها – بالقدر الكافى – بالسياق التاريخى والمقارن الذى تجرى فيه الأمور.

٣- يعتقد البعض أن النظرية النقدية قد بالغت فى إظهار تأثير الثقافة على حساب العوامل الاقتصادية.

٤- تذهب النظرية النقدية إلى أن العوامل الثقافية قد أجهزت على القدرات والإمكانيات الثورية للطبقة العاملة. وهو الأمر الذى لا يوافق عليه الماركسيون التقليديون.

يورجن هابرماس

تمثل نظرية هابرماس J.Habermas تطويرًا مهمًا للنظرية النقدية. وقد ذهب هابرماس (١٩٧٩) إلى أن "عملية الاتصال" هى مفتاح فهم العلاقات والأبنية الاجتماعية فى العالم الحديث. ويؤكد أن الاتصال هو الأداة الأساسية لتحرير الإنسان، وأن المجتمع المعاصر ذو طبيعة قهرية، لأن الاتصال فيه قد تم تشويهه والعبث به. فلم يعد الاتصال تعبيرًا عن الحقيقة، وإنما باتت رسالته هى نشر الإيديولوجيا التى تخدم مصالح الأقوياء فقط. ولكى تتحرر الجماهير يتعين القضاء على السببين الرئيسيين لتشويه الاتصال، وهما: "عمليات إضفاء الشرعية وتبريرها"، و"الإيديولوجيا".

ولقد كان هابرماس متفائلاً، على خلاف رواد مفكرى النظرية النقدية الذين كانوا متشائمين من مستقبل المجتمع. فقد قدم هابرماس رؤية متفائلة قائمة على فكرته عن اليوتوبيا (أو المجتمع المثالى الخيالى). ويعرف هابرماس (١٩٧٠) اليوتوبيا بأنها مجتمع "رشيد" تختفى فيه العوائق التى تؤدى إلى تشويه الاتصال، ومن ثم يمكن تقديم كافة الأفكار وعرضها بصراحة والدفاع عنها فى مواجهة ما يصوب إليها من نقد. وهو يؤكد، على أى حال، أن هناك متسعًا للتفكير النقدى فى مجتمعه المثالى هذا. ويرى هابرماس أنه بعد القضاء على الاتصال المشوه، سوف

تبزغ المعرفة من المجتمع نفسه. ومن شأن التقييم النقدى للآراء المتصارعة أن يضمن لنا أن ما يبدو أنه الحقيقة سوف ينبع من توافق الآراء في المجتمع. ويطلق هابرماس على هذه الحالة اسم "موقف الكلام المثالى"، ويراه مثاليا لأنه ليست القوة أو القهر هو الذى يحدد ما هى الآراء التى ستكون لها الغلبة، وإنما نوعية تلك الآراء ذاتها هى التى تقرر ذلك.

وقد قدم هابرماس (١٩٨٤) تحليلاً مبتكرًا للقهر ردًا على أولئك الذين يأخذون على النظرية النقدية أنها قدمت كمًا من الانتقادات يفوق ما قدمته من إسهامات إيجابية. كما قدم للجماهير - فى ثنايا عرضه لملامح مجتمعه اليوتوبى (المثالى) - الكثير من الأمور التى يمكن أن تتطلع إليها، وأشار كذلك إلى بعض العوائق التى تقف فى طريق تحقيق تلك الطموحات. ولكنه لم ينجح فى تناول مسألة كيفية إزالة مثل هذه العوائق. وكان ماركس قد تنبه قبله بوقت طويل إلى مثل هذا الخطر الكامن، حيث رفض أن يقدم نموذجًا يصور هذا المجتمع اليوتوبى (المثالى) خوفًا من صرف الانتباه عن الحاجة إلى رؤية نواحى القصور فى المجتمع المعاصر، باعتبارها الأساس اللازم لتهيئة الظروف الضرورية لإحداث التغير الاجتماعى.

نظرية الصراع

نظرية الصراع تطوير لأفكار ماركس عن سيطرة بعض الجماعات الاجتماعية. وقد ظهرت هذه النظرية فى بادئ الأمر كرد فعل لكتابات الوظيفيين البنائيين، الذين كانوا يرون أن الحياة الاجتماعية لا يمكن فهمها على الوجه الأفضل إلا من خلال نظريات الإجماع (التوافق). وترى نظريات الإجماع أن المعايير والقيم المشتركة تمثل أهمية حيوية للمجتمع، وتركز اهتمامها على النظام

الاجتماعي القائم على الاتفاقيات الضمنية بين مكونات ذلك المجتمــع، وتــرى أن التغير الاجتماعي يحدث على نحو بطيء ومنظم (انظر فيما يلي موضوع "المجتمع يقوم على الإجماع"). على خلاف ذلك تركز نظرية الصراع اهتمامها على سيطرة بعض الجماعات الاجتماعية على سائر الجماعات، وترى أن الجماعات الاجتماعية إنما تقوم على التدخل والتحكم الذى تمارسه الجماعات المسيطرة عليها، وأن التغير الاجتماعي يحدث بإيقاع سريع وعلى نحو غير منظم عنــدما تــتمكن الجماعــات الخاضعة من الإطاحة بالجماعات المسيطرة (ريتزر، ٢٠٠٨).

ويعد مؤلف رالف دارندورف R. Dahrendorf (١٩٥٩) أشهر الأعمــال فى تراث نظرية الصراع، الذى قدم نظرية مبتكرة عن الصراع الاجتماعي والتغير الاجتماعي. وتتميز نظرية دارندورف بأنها أكثر إحكامًا وتــدقيقًا مــن نظريــات الصراع التى سبقتها. فنحن نعرف أن نظريات الصراع البسيطة تصور المجتمــع وكأنه مسرح معركة حربية يسودها الاضطراب والفوضى، وعلى ذلــك المســرح جماعات متباينة يحارب بعضها بعضًا، وأن تلك الجماعات تتخذ أشكالاً معينــة – فى خضم هذه الصراعات – ثم تبدل من أشكالها مرة ومرات، ويتحالف بعضها مع البعض الآخر، وينقضون تلك التحالفات (كريب Craib، ١٩٨٤). أما دارنــدورف فينظر إلى الصراع من خلال أداة معينة (تعــرف تلــك الأداة فــى عــالم الفــن بالمشكال(*)) تبدل وتنوع وتغير من أشكال الجماعات المتداخلة المتــصارعة مــن أجل القوة والسلطة. ويبدو لنا أن تفسيره لكل من القوة والسلطة متأثر بفكرة ماكس فيبر عن القوة التى تعتمد على الإرغام أو القهر، على حين تقــوم الــسلطة علــى السيطرة المشروعة.

(*) المشكال Kaleidoscope أداة تحتوى على قطع متحركة من الزجاج الملــون مَــا إن تتغيــر أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان. (المترجم)

ويرى دارندورف أن السلطة ذات أهمية حاسمة فى هذا الصدد، ذلك أن مجرد وجود السلطة يكفى سببًا لنشوب الصراع. ويتناول مصادر السلطة وتأثير شتى أنواع السلطات على الأفراد وعلى البناء الاجتماعى. وانتهى من ذلك إلى أن القوة والسلطة هما سبب الشقاق والنزاع، إذ أن حائزى القوة يسعون دائمًا للحفاظ على أوضاعهم، فى نفس الوقت الذى نجد فيه فاقدى القوة يسعون بكل جهد لاكتساب بعض القوة.

ويرى دارندورف أن السلطة تترتب أو تنشأ نتيجة شغل بعض الأوضاع الاجتماعية بعينها، وأنها ليست نابعة من الأفراد أنفسهم. معنى ذلك أن السلطة أمر عابر وأنها تتحدد فى كل موقف اجتماعى من واقع الأوضاع الاجتماعية التى تشغلها. ومن الممكن أن يستخدم فرد ما السلطة فى موقف معين، ولا يستطيع استخدامها فى موقف آخر. ومع ذلك لا يمكن الفصل بين الوضع الاجتماعى والفرد، ومن المحتمل كل الاحتمال أن يتعرض بعض الأفراد لخبرة نشوب صراع بين مصالح الدور (أو الوضع) الذى يؤدونه ومصالحهم الشخصية كأفراد.

وفى رأى دارندورف (١٩٥٩) أن المصالح هى العامل الأهم فى توحيد الجماعات على مستوى قمة البناء الاجتماعى وكذلك عند قاعدة ذلك البناء. وتعرف المصالح بأنها "توجهات تتولد بنائيًا"، ذلك لأنها تنبثق من أفعال الناس الذين يشغلون أوضاعًا اجتماعية معينة. معنى ذلك أن هناك صراعًا بين مصالح من يحوزون القوة ومصالح أولئك المجردين من القوة. وهذا راجع إلى أن حائزى القوة يعملون بكل جهدهم على الحفاظ على الوضع القائم، وأن الأفراد العزّل من كل قوة يسعون لتغيير ذلك الوضع. وهكذا نتبين أن شرعية السلطة تتسم دائمًا بأنها غير مستقرة وغير آمنة.

وقد قدم دارندورف (١٩٥٩) تحليلاً لثلاث مجموعات في المجتمع يمكن أن يستخدم وجودها لتفسير الصراع:

١- أشباه الجماعات: أى الجماعات التى يشغل أفرادها نفس الأوضاع الاجتماعية، ومن ثم تكون لديهم نفس المصالح المرتبطة بأدوارهم.

٢- جماعات المصالح: وهى جماعات موجودة داخل إطار أشباه الجماعات، تتسم بأنها تمارس نفس أنماط السلوك ولديها نفس البناء، وشكل التنظيم، والهدف.

٣- جماعات الصراع أو الجماعات المتصارعة: وهى جماعات مصالح تدخل فى صراع فيما بينها.

ومن شأن هذا التحليل أن يفسر لنا سبب وجود جيوب صراعية صغيرة داخل النطاقات أو الكيانات الكبرى التى تتسم بالتماسك الاجتماعى.

ويربط دراندورف (١٩٥٩) بين الجماعات المتصارعة والتغير الاجتماعى. ويؤكد فى هذا الصدد أن الصراع المكثف يقود إلى التغير الاجتماعى. وإذا استخدم العنف فى مثل هذا الصراع الشديد، فإن التغير الاجتماعى سوف يحدث بشكل مفاجئ. ولكن المؤكد أن إمكانيات إحداث التغير الاجتماعى موجودة دائما وفى كل حين، وذلك لأن شرعية السلطة تتسم - كما ورد آنفا - بأنها غير مستقرة وغير آمنة. وإذا أراد علماء الاجتماع أن يتوصلوا إلى فهم كامل للحياة الاجتماعية، فلابد أن يركزوا اهتمامهم على محاولة التعرف على ما إذا كانت الظروف مواتية لحدوث التغير الاجتماعى، كما يركزوا بنفس القدر على رصد العلاقة بين الصراع والوضع القائم.

الموضوع (E)

الحركات الاجتماعية الجديدة

من الصعب أن نحدد على وجه الدقة متى ظهر مفهوم الحركات الاجتماعية الجديدة. ولكنها ترتبط في الغالب "بسياسات الاحتجاج"، ويبدو أنها مصطلح ابتكره مفكرون ينتمون إلى الجناح اليساري. والسمة الأساسية لذلك النوع من الحركات أنها تقف خارج السياسة المؤسسية للحركات الاجتماعية القديمة، كالنقابات العمالية على سبيل المثال. ولذلك تبدو الحركات الاجتماعية الجديدة بمثابة مواجهة للأسلوب السائد في تصريف الأمور، وتعبير عن مصالح الجماعات التي جرت العادة على تهميشها. كما أنها تمثل نقطة تحول "ثقافي" في عالم السياسة، بمعنى أنها لا تثور فقط من أجل إصدار قوانين جديدة بشأن بعض الأمور، ولكنها تستهدف في الوقت نفسه تغيير تصورات الناس وممارساتهم تجاه الجماعات التي تمثلها تلك الحركات الجديدة.

وتنتشر الحركات الاجتماعية الجديدة في عدد كبير من المجالات المختلفة، كما أنه قد يصعب في بعض الأحيان التمييز بين الحركات الاجتماعية الجديدة والقديمة، إذا اقتصر تعريفنا لها على أنها تعبر عن المهمشين فقط. ويمكن أن يندرج ضمن تعريف الحركات "الجديدة" مثلاً الحركات النسوية وحركات المثليين التي تتحدى النظم والأوضاع الاجتماعية القائمة، والتي نجحت – نسبيًا – في إحداث "منعطف ثقافي" في مجتمعاتها. وربما كانت أقل نجاحًا منها في ذلك حركات الدعوة إلى حماية البيئة، وإن كان يبدو أن الوقت قد حان لكي تتصدر المسرح بزيادة الاهتمام بظاهرة الاحتباس الحراري. أما جماعات حماية حقوق الحيوانات فتعد من الحركات الاجتماعية الجديدة عادة، مع أن هناك

حركات قوية تسعى لنفس الهدف – وهو حماية الحيوان – نجدها ممثلة بين الحركات الاجتماعية القديمة، مثل الجمعية الملكية للرفق بالحيوان RSPCA(*). وهناك بعض الجماعات التي يصعب تصنيفها – كقديمة أو جديدة – كالمنظمات التي تحارب الإجهاض على سبيل المثال. فمع أنها يمكن أن تصنف كحركات "محافظة" من حيث أهدافها، إلا أنها تتخذ موقفًا مناوئًا للموقف القانوني المتبع والمستقر، ومن ثم يمكن اعتبارها ضمن الجماعات المهمشة.

	تمرين ٢-٧
	سوف يمكنك هذا التمرين من أن تقدر إلى أي مدى تصلح أفكار دارندورف عن الجماعات وعن الصراع للتطبيق على المجتمع البريطاني المعاصر. اقرأ الموضوع (E)، ثم أجب عن الأسئلة التالية:
تطبيق	١- من الذي وضع مفهوم الحركات الاجتماعية الجديدة؟
تفسير تطبيق	٢- ما المقصود بمصطلح "الحركات الاجتماعية الجديدة"؟
تفسير تطبيق	٣- ما الأغراض البارزة التي تشترك الحركات الاجتماعية الجديدة في السعي إلى بلوغها؟
تفسير تطبيق	٤- ما نوع الجماعات التي تنتمي إليها الحركات الاجتماعية الجديدة وفقًا لتحليل دارندورف (أي إلى: أشباه الجماعات، أو جماعات المصالح، أو الجماعات الصراعية)؟

(*) RSPCA = Royal Society for the Prevention of Cruelty to Animals.

تطبيق تحليل	٥- لماذا تعد بعض الحركات الدينية الجديدة – مثل أتباع كنيسة التوحيد(*) أو وعى كريشنا (البونيين) من ضمن الحركات الاجتماعية الجديدة؟
تطبيق تحليل	٦- لماذا يندر أن يستخدم مصطلح الحركات الاجتماعية الجديدة للدلالة على الجماعات التى تدافع عن القيم القائمة المستقرة؟
تفسير تطبيق	٧- أى الجماعات التى ذكرها دارندورف (أى أشباه الجماعات، وجماعات المصالح، والجماعات الصراعية) يمكن أن توصف بأنها حركات اجتماعية قديمة؟

العولمة (**)

أشار ماركس إلى العولمة فى البيان الشيوعى (١٨٤٨) ووصف عملية انتشار الرأسمالية الصناعية فى كل ركن من أرجاء العالم، وذلك من خلال السعى إلى تطوير الأسواق العالمية وتنميتها وتشغيل الأيدى العاملة الرخيصة. ولابد أن نفترض أن ماركس كان يرى أن عملية "انتشار الرأسمالية" هذه سوف تنطوى على شكل من أشكال الصراع. وقد وصف البعض العولمة فى صورتها الأولى – الإمبريالية والاستعمار – بأنها كانت عملية تقوم فيها الدول الغربية بنهب موارد

(*) أتباع كنيسة التوحيد Moonies = Unification Church نسبة إلى اسم مؤسسها سن ميونج مون Sun Myung Moon. (المترجم).

(**) انظر عرضاً ممتازاً وموجزاً لمفهوم العولمة، كظاهرة وكميدان بحث، فى: اندجار وسيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية. المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة هناء الجوهرى، مراجعة محمد الجوهرى، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ص ٤٥٤-٤٦١. (المترجم).

وعمالة بلاد أخرى، بالمعنى الحرفى لكلمة النهب. ومن الأشكال الحديثة للعولمة ما أسماه جورج ريتزر (٢٠٠٨) نشر ثقافة مجتمع الماكدونالد(*) فى شتى أنحاء العالم - المتقدم والنامى جميعًا - حيث عملت الولايات المتحدة على وجه الخصوص على نشر ثقافتها وترسيخها المميزة لها بدءًا من "ميكى ماوس"، مرورًا بالكوكاكولا، وانتهاء بأجهزة الكومبيوتر الحديثة. على أن عملية "أمركة" العالم كانت تستند إلى قوة اقتصادية وعسكرية فى الآن نفسه. وقد تمثل استخدام القوة العسكرية فى الإطاحة بالحكومات التى كان يُعتقد أنها تمثل تهديدًا لأمريكا، وقد كانت هذه الممارسة إحدى السمات الأساسية لعالم القرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين، هذا فضلاً عن ممارسات سابقة لهذا الأسلوب من جانب أمريكا فى دول أمريكا الجنوبية. وقد بات من المعلوم اليوم أن العمليات

(*) مجتمع ماكدونالد McDonaldization: صاحب هذا المصطلح هو عالم الاجتماع الأمريكى جورج ريتزر. وهو يعرّفه بأنه العملية التى من خلال تنتشر مبادئ مطعم ماكدونالد لتقديم الوجبات السريعة ويسيطر طابعها شيئاً فشيئاً على قطاعات أكثر من المجتمع الأمريكى. وكذلك مجتمعات العالم الأخرى (انظر كتابه: اكتساب سمات مجتمع ماكدونالد الصادر عام ١٩٩٣). والطريقة التى تعد بها سلسلة مطاعم الهامبورجر الطعام للاستهلاك تؤخذ كمثال لنظرية ماكس فيبر عن "ترشيد العالم المعاصر"، فهذه الشركة تستخدم طرق الإدارة العلمية والتنظيم الدقيق لعمليات الإنتاج الكبير فى المجتمعات الرأسمالية لتضمن للمستهلكين تحقيق توقعاتهم، وخدمتهم بكفاءة، وتقدير ظروفهم بدقة.

فكل فروع الشركة متماثلة فى كل أنحاء العالم بما لا يؤدى إلى أى مفاجآت غير متوقعة أو معروفة للمستهلكين. وطبقاً لما يراه ريتزر، فإن هذه الطرق والتقنيات الرشيدة للإنتاج والاستهلاك بدأت تنطبق على كل قطاع الخدمات ككل. بحيث أصبح لدينا الآن عدداً من الجرائد الهابطة Junk-Journalism (حيث يتم فيها تقديم الأخبار العادية والتافهة فى صورة مقبولة أو مستساغة) كما أن هناك جامعات لها سمات الماكدونالدية McUniversities أيضاً تصيغ مقرراتها ومناهجها بطريقة سابقة التجهيز، وتمنح شهاداتها ودرجاتها العلمية بطريقة تحتوى على القص واللصق السريع كى ترضى كل الأذواق. ويمكن إخفاء الطبيعة الرديئة لتلك المنتجات بتكثيف الإعلان والدعاية، التى تحاول دائماً تغليف هذه المنتجات أو تصويرها فى إطار يجعلها تبدو جديدة. انظر المزيد حول الموضوع فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ١٢٩٢ وما بعدها. (المترجم)

السرية لجهاز الاستخبارات الأمريكية المركزية (CIA) قد نجحت فى الإطاحة ببعض الحكومات التى كانت منتخبة انتخابا ديموقراطيًا فى كل من: جواتيمالا، وشيلى، ونيكاراجوا فى خمسينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. أما النماذج الأحدث من التدخل العسكرى الأمريكى من هذا النوع، كذلك الذى حدث فى أفغانستان وفى العراق، فقد كانت صريحة وعلنية وحظيت بقبول كبير من جانب الدول الصناعية الغربية القوية.

وقد ذهب المفكر الماركسى دافيد هارفى D. Harvey (٢٠٠٥) إلى أن استمرار التفوق الأمريكى – عسكريًا واقتصاديًا – يرجع فى أساسه إلى حرصها على ضمان تدفق إمدادات النفط على المدى الطويل، وهى كما نعلم موجودة فى منطقة الشرق الأوسط. من هنا كان ربط العراق (التى وصفها جورج بوش بأنها جزء من محور الشر) بهجوم القاعدة على أمريكا فى الحادى عشر من سبتمبر، ومن ثم ربطها بالحرب العالمية على الإرهاب، قد نجح فى أن يحدث تأثيرًا مزدوجًا تمثل فى: توفير مبرر للحرب التى جرت فى الشرق الأوسط، وصرف الانتباه عن بعض المشكلات الداخلية فى أمريكا كالانكماش الاقتصادى، وعدم المساواة الاجتماعية، والفقر. وهكذا يمكن النظر إلى "الإمبريالية الجديدة" – من منظور الصراع – بأنها نسخة أكثر حذقًا وبراعة من مرحلة التوسع الاستعمارى، التى شهدت سيطرة اقتصادية وسياسية وعسكرية وإيديولوجية من جانب الدول المستعمرة على حياة بلاد وراء الحدود.

وهناك نماذج أخرى للعولمة تأخذ شكل الشركات التى تنقل عملياتها (الإنتاجية أو التجارية) إلى بعض مناطق من العالم التى تتوفر فيها الأيدى العاملة الرخيصة، وحيث العمال أكثر امتثالاً وطاعة، وحيث الحماية القانونية لممارسات

العمل وظروفه أقل صرامة مما هو معمول به فى الغرب. وقد أصبح انتشار فروع الشركات الكبرى فى بلاد العالم الثالث سمة مميزة لنشاط قطاعات البنوك، وشركات التأمين، وتكنولوجيا الاتصال والمعلومات فى كثير من الاقتصادات الغربية. بل إننا نجد أن بعض الشركات – مثل شركة دايسون للمكانس الكهربائية – قد نقلت جميع أنشطتها الإنتاجية والتجارية إلى الخارج لتستفيد من انخفاض تكاليف الإنتاج وانخفاض أجور العمال.

إلا أن هناك بعض العلماء – مثل فوكوياما (١٩٩٢) وجيدنز (٢٠٠٣) – قد نظروا إلى العولمة بوصفها عملية تسير فى الاتجاهين. فيرون مثلاً أن العولمة يمكن أن تُحدث تأثيرًا إيجابيًا على الثقافات والهويات المحلية. من ذلك مثلاً أن العمل فى فروع الشركات الأجنبية فى الهند يضفى على صاحبه مكانة عالية، حيث تكون بعض الوظائف فى تلك المراكز مرغوبة بشدة، كما أنها تمنح العاملين فيها أجورًا أعلى من مستوى الأجور المحلية، فوق أنها تكفل للعاملين ظروف عمل ممتازة. فى نفس الوقت نجد أن بعض الشركات الهندية الكبرى – مثل شركة "تاتا" لصناعة السيارات – قد استطاعت أن ترسخ أقدامها فى الاقتصاد البريطانى، وأصبح بمقدورها أن تنافس الصناعات الغربية التقليدية فى تطوير وإنتاج السيارات. من هنا ذهب سباى باى (١٩٩٨) إلى القول بأنه رغم أن جذور العولمة قد نمت فى الغرب، فإن المجتمعات غير الغربية أصبحت تمثل الآن جزءًا لا يتجزأ من عملية العولمة الجارية، إلى حد أن ظهرت إلى الوجود عدة مراكز – خاصة فى الهند – تنافس الشركات الكبرى فى الغرب (راجع الفصل الخامس من هذا الكتاب للوقوف على مناقشة أكثر إسهابًا لهذا الموضوع، وانظر كذلك التمرين ٢-٨ لتتدرب على تقييم الآراء المتعارضة فى فهم العولمة).

تمرين ٢-٨	تفسير – تطبيق تحليل – تقييم
قسم صفحة من الورق بالطول إلى عامودين. واكتب على رأس العامود الأول عنوان: "النظرة الصراعية إلى العولمة"، ثم اكتب على رأس العامود الثانى "النظرة ضد الصراعية إلى العولمة". ثم قم باستخدام المعلومات التى قرأتها هنا، وكذلك أى معلومات أخرى عن الموضوع يمكن أن تحصل عليها، واستخلص قائمة تضم أكبر عدد من الآراء ووجهات النظر وصنفها إلى القسمين المشار إليهما (صراعى، أو ضد صراعى). ارجع إلى بعض مواقع الإنترنت الخاصة ببعض الشركات العالمية الكبرى (مثل شركة "تاتا" لصناعة السيارات ib.tatamotors.com and www.dyson.co.uk). ما الطبيعة العالمية لواحدة أو أكثر من هذه الشركات التى قرأت عنها فى تلك المواقع على الإنترنت؟	

تقييم نظرية الصراع

نقاط القوة

١- تمثل نظرية الصراع النقيض الراديكالى لنظرية الإجماع (أو التوافق)، كما أنها تلفت الاهتمام إلى مصادر الصراع فى المجتمع.

٢- وإذا أردنا البناء على النظريات القائمة، يمكن القول بأن نظرية الصراع تكشف لنا عن قيمة المنحى الانتقائى فى فهم الحياة الاجتماعية.

٣- تستطيع نظرية الصراع أن تفسر وتحلل ظواهر الاستقرار الاجتماعى والتغير الاجتماعى، كما أنها تؤمن أن التغير سمة حتمية من سمات الحياة الاجتماعية.

٤- تحاول نظرية الصراع الربط والتأليف بين التحليل على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى (الماكرو) وعلى مستوى الوحدات الصغرى (المايكرو) لكى تقدم تحليلاً أكثر تكاملاً وإحاطة لعمليات الصراع الاجتماعى والتغير الاجتماعى.

أوجه القصور

١- يرى نقاد نظرية الصراع أنها لم تلتفت بالقدر الواجب لموضوعى النظام والاستقرار.

٢- هوجمت نظرية الصراع بوصفها نظرية متطرفة إيديولوجيًا.

٣- كما قيل أيضا إن نظرية الصراع ليست نظرية بمعنى الكلمة، وإنما هى مجرد نقيض للنزعة الوظيفية البنائية (انظر فيما يلى حديثنا عن النزعة الوظيفية البنائية فى هذا الفصل). ومن المثير للسخرية أنه رغم ادعاء نظرية الصراع تأثرها بالماركسية، فقد ذهب بعض نقادها إلى اتهامها بأنها أقرب إلى الوظيفية البنائية منها إلى الماركسية.

٤- تم توجيه النقد إلى آراء رالف دارندورف من عدة نواحٍ. فقد وصفت نظريته – مثلاً – بأنها منصبة على تحليل الوحدات الاجتماعية الكبرى: بمعنى أنها تركز على الأبنية الاجتماعية على حساب الاهتمام بطريقة رؤية الناس للعالم وتفسيرهم له. كما اتهمت نظريته بأنها لا تقدم تفسيرًا وافيًا مقنعًا لتصاعد عملية الصراع فى أثناء التغير الاجتماعى.

<table>
<tr><td></td><td colspan="6">تمرين ٢-٩</td></tr>
<tr><td></td><td colspan="6">انسخ الجدول التالى، ثم استكمل بياناته
من واقع المعلومات التى حصلتها من هذا الفصل.
هل يقوم المجتمع على الصراع؟</td></tr>
<tr><td></td><td>النظريات الأساسية</td><td>الماركسية</td><td>الماركسية الجديدة</td><td>النظرية النقدية</td><td>نظرية الصراع</td></tr>
<tr><td>معرفة
فهم
تطبيق</td><td>• أهم من كتبوا فيها
• الفروض الأساسية للنظرية
• نقاط القوة
• أوجه القصور</td><td></td><td></td><td></td><td></td></tr>
</table>

ما بعد الماركسية

يمكن القول بأن الماركسية أصبحت أمرًا لا لزوم له - إلى حد ما - بعد انهيار الاتحاد السوفيتى السابق وانهيار النظم الشيوعية الحاكمة فى دول الكتلة الشرقية، وكذلك بعد تبنى سياسات السوق الحرة فى تلك البلاد (انظر بست وزملاؤه، ٢٠٠٠). وقد أدى الاتجاه إلى تبنى نظم الحكم الديموقراطية - ذات النمط الغربى - فى تلك الدول وكذلك فى بعض دول الشرق الأوسط؛ أدى إلى

المزيد من الهجر العام للفكر الماركسي. يضاف إلى ذلك ما حدث مما يمكن وصفه بانهيار الطبقة العاملة - خاصة فئة العمال اليدويين - حيث أصبح البناء الطبقي أكثر تفتتًا وتشظيا، ومن ثم بات من الصعوبة بمكان تحديد مواقع الأوضاع الطبقية على خريطة البناء الطبقي الماركسية.

يضاف إلى ذلك أن الأحزاب اليسارية في البلاد الأوروبية قد هجرت الاشتراكية عمومًا، وذلك في سياق محاولتها الاستجابة للتغيرات الاجتماعية والسياسية الحديثة المتعلقة بوضع الفرد ومكانته في المجتمع. ويشير المعلقون في هذا الصدد إلى سياسات الحكومات العمالية في العقدين: الأخير من الألفية الثانية، والأول من الألفية الثالثة التي سارت في المملكة المتحدة - إلى حد كبير - على نفس نهج سياسات حكومات المحافظين السابقة، وكيف أن هذه الظاهرة تستحق الالتفات في هذا الصدد.

المجتمع يقوم على الإجماع

ينطلق علماء الاجتماع الذين يقيمون نظرياتهم في المجتمع على فكرة الإجماع من حتمية وجود اتفاق صريح في المجتمع إذا كان يراد أن تسير أموره بسلاسة وكان المطلوب أن ينصاع الناس عمومًا للقواعد الموضوعة، وأن يتبنى أفراد ذلك المجتمع توجهات وقيمًا متشابهة. ولعله يبدو - في الظاهر على الأقل - أن أسس قيام المجتمع تنهض على وجود أساليب مشتركة ومقبولة من الجميع لتنظيم الحياة التي يعيشونها. ولذلك يمارس الناس أدوارهم ومسئولياتهم بطريقة تكون محل إجماع منهم، على اعتبار أنهم يتفقون بشكل إيجابي على طرق الفعل وأساليب السلوك. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى توفر إجماع عام في المجتمع بحيث لا تصبح هناك ثمة حاجة إلى ممارسة أي قهر.

النزعة الوظيفية

تتجسد النزعة الوظيفية – بصورتها المبكرة – فى أعمال إميل دوركايم (عاش من ١٨٥٨ حتى ١٩١٧)، وهو عالم الاجتماع الفرنسى الذى أثرى النظرية التى أصبحت تعرف فيما بعد باسم النزعة الوظيفية البنائية. وقد كان دافع دوركايم إلى ذلك اهتمامه الفائق بتأثير الأبنية الاجتماعية الكبرى على الأفراد الذين يعيشون فى المجتمع. ولذلك اعتبر أنه من المهم أن يحاول دراسة هذا التأثير دراسة منهجية منظمة، مستعينًا فى ذلك بالبحوث الاجتماعية الإمبيريقية.

وقد استطاع دوركايم (فى كتابه الذى نشر فى أصله الفرنسى عام ١٨٩٥، وصدرت ترجمته الإنجليزية عام ١٩٦٤)[*] استطاع أن يطور عددًا من المفاهيم التى بنى عليها بحوثه الإمبيريقية وأتاحت له أن يعتمد عليها فى تحليل نتائج بحوثه تلك بشكل متسق منطقيًا. وكان أهم تلك المفاهيم وأقواها تأثيرًا مفهوم "الظاهرة الاجتماعية"، الذى حدد أسلوبه فى دراسة المجتمع. وقد استخدم دوركايم مصطلح "الظواهر الاجتماعية" للإشارة إلى الأبنية الاجتماعية والمعايير الثقافية التى تؤثر على الفعل الاجتماعى رغم وجودها مستقلة عن الفرد وخارجة عنه.

وقام دوركايم بالتمييز بين نوعين من الظواهر الاجتماعية هما: الظواهر الاجتماعية المادية، والظواهر الاجتماعية غير المادية. وتتعلق الظواهر الاجتماعية المادية بالمكونات البنائية للمجتمع (كالمؤسسة الدينية، والدولة... وما إلى ذلك)، كما تتعلق بالمكونات البنائية "المورفولوجية" للمجتمع، من قبيل: التوزيع السكانى،

(*) الإشارة إلى مؤلف دوركايم الشهير: قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى، طبعة حديثة، المركز القومى للترجمة، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠١١. (المترجم)

وأساليب الاتصال، ونظم السكنى. أما الظواهر الاجتماعية غير المادية فتتعلق بالمكونات الأخلاقية والثقافية للمجتمع، من قبيل: الأخلاق، والضمير الجمعي، والتصورات الجمعية، والتيارات (والاتجاهات) الاجتماعية.

وقام دوركايم (في مؤلفه الذي صدر عام ١٨٩٣ ونشرت ترجمته الإنجليزية عام ١٩٦٤)(*) بتحليل الجوانب المختلفة للتغير الاجتماعي من خلال نوعي الظواهر الاجتماعية اللذين حددهما. فدرس عملية التحول من المجتمع البدائي إلى المجتمع الحديث، وذلك عن طريق بلورة "نمط مثالي" (أي نموذج نظري يتخذ أساسًا للتحليل) لكل نمط من نمطي المجتمع: البدائي والحديث، ثم قام بتحليل عمليات التغير التي يتضمنها التحول من نمط إلى آخر. ولم يقصر تحليله على المكونات البنائية للتغير (مثل: ممارسات العمل، وعلاقات العمل، والعوامل الاقتصادية)، وإنما سعى – فضلاً عن ذلك – إلى فهم التغيرات التي تطرأ على المستويات الأخلاقية والثقافية.

وخلص دوركايم (في مؤلفه الصادر عام ١٨٩٣/ ١٨٩٤) إلى بلورة النمط المثالي لنمطي المجتمع كالآتي: (١) المجتمع الآلي (البدائي) و(٢) المجتمع العضوي (الحديث). ولا يختلف كلا نمطي المجتمع من الناحية البنائية فحسب، إذ يرى دوركايم أن هذه الفروق البنائية تؤثر على الأوضاع والظروف الأخلاقية والثقافية السائدة، حيث تكون العلاقات مباشرة في جوهرها (أي آلية) ويكون تقسيم العمل شديد البساطة، إذ يؤدي معظم الناس نفس الأعمال المتماثلة في جوهرها. وفي مثل هذا المجتمع يسود أسلوب حياة مشترك ومتشابه في طابعه

(*) الإشارة إلى مؤلف دوركايم المهم، الذي يعتمد على أطروحته للدكتوراه، وعنوانه: تقسيم العمل في المجتمع، انظر عرضاً وافياً لأعمال دوركايم في: محمد الجوهري وزملاؤه، تاريخ التفكير الاجتماعي (الرواد)، دار المسيرة، عمان (الأردن)، ٢٠١١، ص ص ١٢٩–١٨٠. (المترجم)

العام، ويشترك أفراده فى الإيمان بمجموعة من المعتقدات، والطقوس...إلخ. فهذا المجتمع يقوم بناؤه على الإجماع، أو على أخلاقيات واحدة مشتركة (أسماها "الضمير الجمعى") تمثل أساس قيام التضامن الاجتماعى فيه، وتعمل بمثابة الموجه لسلوك الفرد (Slattery, 1991). من هنا يتسم هذا المجتمع الآلى ببناء اجتماعى متجانس إلى حد كبير، وبقدر ضئيل من تقسيم العمل. ويسهم هذا الوضع فى تأسيس التضامن الاجتماعى من خلال جعل الأفراد يتماهون (يتوحدون) مع الآخرين لأنهم يشبهونهم.

وأدرك دوركايم (١٨٩٣/ ١٨٩٤) أنه بتطور المجتمعات واكتسابها الطابع الصناعى، يزداد مقدار تقسيم العمل وتصبح عملية تقسيم العمل نفسها أكثر تعقيدًا. إذ نجد الأفراد يتجهون – باضطراد – إلى ممارسة أعمال أكثر تحديدًا وأضيق نطاقًا وتصبح أعمالهم أكثر تخصصًا. ويصبح أولئك البشر أكثر اعتمادًا على الآخرين فى حياتهم. ومن شأن هذا الاعتماد المتبادل أن يزيد المجتمع تماسكًا، فيظهر التضامن الاجتماعى، حيث يتعاون الناس لكى يضمنوا اعتمادهم جميعًا على نفس الأسس والموارد. وينطوى هذا الوضع على ترسيخ نوع من التوازن بين الحرية الفردية والنظام الاجتماعى. على أن النظام الاجتماعى لم يعد – فى هذا المجتمع العضوى – مستمدًا من مجموعة مشتركة من القيم، وإنما يتأسس على مجموعة من القوانين التى تحدد معالمه.

وتؤكد بعض إسهامات دوركايم الأخرى توجهًا شبيهًا بذلك. من ذلك مثلاً دراسته الشهيرة عن الانتحار (١٨٩٧/ ١٩٥١) (والتى سنعرض لها فى الفصل الثالث من هذا الكتاب) التى تناول فيها العلاقة بين التغيرات البنائية فى المجتمع (أى الظواهر الاجتماعية المادية) والظروف الاجتماعية والأخلاقية السائدة (أى الظواهر الاجتماعية غير المادية). وقد أجرى دوركايم بحوثًا ثقافية مقارنة

وتاريخية واسعة النطاق خلص منها إلى أن بناء المجتمع – فى أى مرحلة من تطوره – يتأثر بدرجة التضامن الاجتماعى الموجود في المجتمع. وقد ساعده ذلك على فهم وتحليل ظاهرة الانتحار.

أما الدراسة الكبرى الأخرى التى أجراها دوركايم فتناولت ميدان الدين، وذلك فى كتابه "الأشكال الأولية للحياة الدينية (١٩١٢/ ١٩٦٥). ويعود اهتمام دوركايم بالدين إلى أنه اعتبره الظاهرة الاجتماعية غير المادية بأوضح صورها. وكان يرى أن الدين يمثل فى المجتمع البدائى تعبيرا مباشرا عن الأخلاق الجمعية، ومن ثم يعد القوة الأساسية المسئولة عن التنظيم الاجتماعى. إلا أنه مع تقدم المجتمع وتحديثه، تتطور العلاقات الاجتماعية، وتصبح الأبنية الاجتماعية أكثر تعقيدًا وتركيبًا. ويعنى هذا أن الدين أصبح مجرد واحدة من القوى الفاعلة فى عملية التنظيم الاجتماعى، ومن ثم مجرد وسيلة – من بين وسائل أخرى – للتعبير عن العواطف الجماعية. ومن وسائل التنظيم التى استحدثت نذكر – على سبيل المثال – القانون والعلم، إلى حد دفع البعض إلى الاعتقاد بأن الدين لم يعد يمارس تأثيرا قويا على المجتمع العلمانى. ولكن دوركايم أكد أن أهمية الدين مازالت قائمة ومستمرة، مدللاً على ذلك بأن معظم الأبنية غير الدينية فى المجتمع تنطوى على بعض القيم المتجذرة أصلاً فى الدين.

ويمكن القول أن تحليل دوركايم للمجتمع (١٨٩٣/ ١٩٦٤) كان يتسم بالتفاؤل بالأساس. وكان يرى أن الاستقرار الاجتماعى يحظى بأهمية فائقة، وكان يثق كل الثقة بأن المشكلات الاجتماعية يمكن حليا ومعالجتها عن طريق الإصلاح وليس عن طريق الأفعال والممارسات المتطرفة (أو الثورية). من هنا وصف المشكلات الاجتماعية بأنها أمراض اجتماعية (أى أعراض باثولوجية)، ما يعنى

ضمناً أنه من الممكن علاجها أو "شفاؤها". وعليه صور عالم الاجتماع بأنه طبيب اجتماعي مهمته علاج الصعوبات أو تخفيف وطأتها عن طريق إصلاح البنية الاجتماعية. بل إنه اقترح إمكان علاج الصعوبات والمشكلات التي تنشأ في مجال العمل (التي اهتم بها كارل ماركس) لو أننا شجعنا العمال على تطوير نوع من الأخلاق الاجتماعية المشتركة. ورأى أن تلك الأخلاق يمكن أن تتحقق عن طريق تأسيس "اتحادات مهنية"، يمكن أن تضم في عضويتها "جميع العاملين في صناعة معينة فيصبحون جماعة واحدة موحدة ومنظمة" (انظر دوركايم ١٨٩٣/ ١٩٦٤، صفحة ٥). ومن شأن تلك الاتحادات أن تحتل مكانة أعلى من النقابات، التي كان دوركايم يرى أنها لا تؤدي إلا إلى تغذية وتعظيم الخلافات بين أصحاب المؤسسات والعاملين فيها.

ثم اهتم دوركايم في مؤلفه الأخير (١٩٧٣) بتأمل كيفية فرض الأخلاق الجمعية على المجتمع. فركز نظره على طريقة استيعاب وهضم (أو استدماج) المعايير الأخلاقية الاجتماعية، وهي التي تعرف بعملية التنشئة الاجتماعية. وقد اعتبر دوركايم أن بعض عناصر المجتمع تساعد عملية التنشئة الاجتماعية مساعدة فعالة، وإن كان قد ركز اهتمامه الأكبر على تعليم الأطفال الصغار. ولهذا نراه يقرر أن النظام التربوي يلعب دوراً حيوياً في الحيلولة دون حدوث المزيد من الانهيار الأخلاقي، وذلك عن طريق تعليمه ممارسات النظام، وتشجيع التوجهات الاستقلالية، وترسيخ الشعور بالولاء للمجتمع. وقد شكلت تلك الأفكار أساس البحوث التي قام بها فيما بعد علماء الاجتماع ذوو التوجه الوظيفي (انظر فيما يلي فقرة "النزعة الوظيفية الجديدة").

تقييم لأعمال دوركايم

نقاط القوة

١- تبنت أعمال دوركايم توجهًا مستقيمًا قدم من خلال نظرية تتسم بالتماسك، تتفوق على ما قدمه غيره من المفكرين النظريين السوسيولوجيين الكلاسيكيين. وتعبر كل كتاباته بوضوح عن مفاهيمه وأفكاره، وتبين كيف يمكن تطبيقها على جملة من المواقف المحددة.

٢- استطاع دوركايم من خلال تطويره لمفهوم الظواهر الاجتماعية أن يفرض إطارًا منهجيًا في دراسة الحياة الاجتماعية. إذ مكنه التمييز الذى قدمه بين الظواهر الاجتماعية المادية وغير المادية من أن يلتفت إلى أهمية كل من الأبنية الاجتماعية والمعتقدات الجمعية فى تحديد طبيعة أى مجتمع.

٣- اعتُبر دوركايم مفكرًا بنيويًا بسبب اهتمامه بتأثير الأبنية المجتمعية الكبرى على أفراد المجتمع، ولكنه حرص – مع ذلك – على الاهتمام بفهم الجوانب الأكثر فردية فى الطبيعة البشرية. وقد مثل عمله الأخير محاولة للتركيز على جوانب المجتمع على المستوى المحدود (المايكرو).

أوجه القصور

١- استأثر مفهوم دوركايم عن الظواهر الاجتماعية بجانب من النقد. إذ اعتبر أنه يشيّئ الظواهر (يعتبرها أشياء). بمعنى أنه أضفى عليها وجودًا مستقلاً لا تحظى به فى الحقيقة. وقد اعتبر النقاد هذا الفهم خاطئًا لأن كل الظواهر ليست سوى محصلة أفعال أو تفاعلات أفراد المجتمع.

٢- وجهت انتقادات حادة إلى دراسة دوركايم عن الانتحار. فقد قيل إنه أخطأ في اعتبار الانتحار "أكثر الأفعال البشرية فردية" وأنه يمكن دراسته بالطرق البنيوية. كما أُدين بسبب استخدامه منهجية موضوعية (المنهج العلمي) في دراسة ظاهرة ذاتية (هي الانتحار).

٣- لم يوجه دوركايم اهتمامًا كبيرًا لدراسة الظواهر على المستوى المحدود (المايكرو)، إذ اعتبرها مجرد منتجات ثانوية للبناء الاجتماعي. كما يرفض علماء الاجتماع التأويليون ما ذهب إليه دوركايم من أن المجتمع لا يمكن فهمه على الوجه الأكمل إلا من خلال فهم القوى الكبرى (الماكرو) وتأثيرها العلى على الفرد.

النزعة الوظيفية البنائية

ظلت الوظيفية البنائية، بصورتها التي تطورت من كتابات إميل دوركايم، تمثل النظرية المسيطرة على علم الاجتماع طوال الفترة من ثلاثينيات حتى ستينيات القرن الماضي. وتعد النظرية الوظيفية البنائية قائمة على مفهوم الإجماع، إذ يرى أصحابها أن المعايير والقيم المشتركة تمثل شرطًا أساسيًا لقيام المجتمع، وكذلك باعتبار أنها تركز اهتمامها على مفهوم النظام الاجتماعي القائم على ترتيبات واتفاقات صريحة، وأخيرًا لأنها ترى أن التغير الاجتماعي يتم بشكل تدريجي ومنظم (برنارد، ١٩٨٣).

ولكي نفهم النزعة الوظيفية البنائية يحسن أن نتعمق في فهم معنى مصطلحي "البناء" و"الوظيفة". يستخدم مصطلح "البناء" عمومًا للإشارة إلى نسيج المجتمع، وأعني به النظم والأنساق الاجتماعية التي تكوّن مادة هذا النسيج. أما مصطلح "الوظيفة" فيعني الدور الذي يلعبه كل نظام اجتماعي في الحفاظ على حياة

المجتمع واستمراره ككل. من هنا تهتم البنائية الوظيفية بالبنية التحتية للمجتمع، وكذلك بالأدوار التى يتعين الاضطلاع بها، وأخيرًا بالحاجات التى يتوجب إشباعها لضمان بقاء هذا المجتمع واستقراره.

وتنطوى البنائية الوظيفية على منظور كلى شامل (ماكرو) فى دراسة الظواهر الاجتماعية، يركز على النسق الاجتماعى فى مجموعه، مع الاهتمام بالأنساق الفرعية التى تنضوى تحته. وينظر البنائيون الوظيفيون إلى الأنساق الفرعية بوصفها كيانات متداخلة تتبادل الاعتماد على بعضها البعض، بحيث تسهم جميعها فى تحقيق مصطلح المجتمع ككل. أما العلاقات الاجتماعية فتتسم بأنها تناغمية وليست صراعية. والحالة الطبيعية لوجود المجتمع هى حالة الاستقرار، حيث يتم الحفاظ على التوازن فى ذلك المجتمع بفضل شتى عناصره التى تتغير لكى تكمل وتدعم بعضها البعض. حقيقة أن البنائيين الوظيفيين يقرون أن التغير الاجتماعى يحدث، ولكنهم يرونه يتم على نحو منظم، وليس بصورة راديكالية وثورية.

ويرى البنائيون الوظيفيون أن علينا أن نفهم كيف تعمل مختلف عناصر النسق الاجتماعى على الحفاظ على المجتمع واستمراره. ومن أهم تلك الأمور ذلك الدور الذى تلعبه هذه العناصر فى دعم النظام الاجتماعى وتحقيق التماسك فى المجتمع. وقد انطلق بارسونز (١٩٥١) – مستلهمًا آراء دوركايم – فى بحوثه من التساؤل عن كيفية الحفاظ على النظام الاجتماعى. وتتمحور نظريته حول نموذج رباعى قام بتطويره بحيث يمثل العناصر الأساسية التى يجب أن تتوفر فى كافة الأنساق الاجتماعية إذا كان مقدرًا لها أن تبقى وأن تستمر. وتلك هى الملامح أو المكونات التى حددها بارسونز فى نموذجه النظرى:

١- **التكيف**: ويعنى القدرة على تسخير الموارد البيئية والاقتصادية من أجل دعم وتوفير وحماية رفاهية البشر الذين يكونون المجتمع.

٢- **تحقيق الهدف:** ويتضمن عمليات التخطيط الاستراتيجي واتخاذ القرارات لرسم معالم الحياة الاجتماعية وتنظيمها.

٣- **التكامل:** ويقوم على خلق ونشر مجموعة من القيم الأساسية لدعم التعاون وتحقيق التماسك الاجتماعي والتقليل من أخطار الصراعات.

٤- **الكمون:** ويتمثل في ضمان استمرار المجتمع عن طريق التكاثر وتوارث الطقوس، والعادات الاجتماعية، والتقاليد وشتى الممارسات الثقافية.

ولكي يؤدي المجتمع وظائفه على النحو الصحيح يتعين أن تسهم سائر أنساقه الفرعية - في إطار البناء الاجتماعي العام - على نحو أو آخر في إشباع احتياجاته الأساسية. ويمكن لتلك الأنساق الفرعية أن تحدث تأثيرات متكاملة، حيث يكون ثمة تداخل كبير بين إسهاماتها المختلفة. وقد حرص بارسونز على إبراز دور القيم الجمعية في توحيد شتى الأنساق الفرعية، وضمان أن تتسم إسهاماتها بالتماسك لا بالتنافر فيما بينها. وقال بوجود ثلاث عمليات تمثل أهمية محورية في تحقيق التزامن المتناغم بين أداء مختلف عناصر المجتمع، وهي: (١) عملية التنشئة الاجتماعية (٢) عملية الضبط الاجتماعي (٣) عملية أداء الدور. وقد قدم سلاتري Slattery ملخصا وافيا لكيفية ترابط تلك العمليات ببعضها:

"يتعين على كل فرد أن يؤدي تشكيلة متنوعة من الأدوار الاجتماعية، مرة بوصفه والدا، أو عاملا، أو مواطنا...إلخ، وعلى الرغم من أن توقعات الآخرين من الفرد تضغط عليه وتدفعه دفعا إلى أداء كل دور من أدواره بفاعلية، كما أن النسق يمكن أن يلزمه إلزاما بالاضطلاع بتلك الواجبات؛ برغم ذلك فإن الكفاءة الحقيقية في أداء الدور إنما تنبع من إيمان أولئك الأفراد بالنسق الاجتماعي وإحساسهم بالولاء له. ويتحقق هذا الدافع "الداخلي" للالتزام من خلال عملية التنشئة الاجتماعية الناجحة، حيث يقوم الوالدان بتربية أولادهم على نحو سليم، فيلقنوهم

القيم والمعايير الأخلاقية السائدة في ذلك المجتمع، بحيث يتشربوها تشربًا تامًا وتصبح جزءًا لا يتجزأ من وعي الطفل، بل وجزءًا من ضميره". (انظر سلاترى، ١٩٩١، صفحة ٢٤٢).

تطبيق – تقييم	تمرين ٢–١٠

حاول أن تكون مجموعة من زملائك لكي تناقش – في ضوء النص المقتبس من سلاترى – مدى اتفاق كل منكم مع الرأى القائل بأن أفضل سند لعملية الضبط الاجتماعى هى التزام الفرد بقيم المجتمع. فكر كذلك كيف يتوقع – من الفرد – الامتثال لقيم المجتمع، ومدى تقبل ذلك منه في مجتمع مثل سنغافورة. وقد كانت سنغافورة مستعمرة بريطانية صغيرة جدًا في الماضى، يعيش فيها ثلاثة ملايين نسمة، أغلبهم ذوو انتماء عرقى صينى، مع نسبة قليلة من أصول ملاوية (من الملايو) وهندية. وقد صارت هذه الدولة اليوم مجتمعًا صناعيًا حضريًا ينعم بالوفرة الاقتصادية، حيث يقترب متوسط دخل الفرد فيه من متوسط دخل الفرد في الولايات المتحدة. ومع ذلك توصف سنغافورة – من النواحى الاجتماعية والسياسية – بأنها ذات نظام "تسلطى معتدل"، بسبب الأساليب التى تتبعها الحكومة في ضبط السلوك الفردى لأبناء شعبها. فلدى الحكومة صلاحيات منع وجود أى معارضة سياسية، وتستطيع حبسهم دون محاكمة، وتلزم بعض أولئك المقبوض عليهم بالإدلاء باعترافات علنية بجرائمهم. وتحظر الحكومة أيضًا أى سلوك يمكن أن يؤدى إلى إثارة توترات عرقية أو دينية، فضلاً عن أنها تملك وسائل الإعلام والاتصال وتديرها. ويتم تشجيع المواطنين الأعلى تعليمًا على إنجاب المزيد من الأطفال بمنحهم حوافز

تتمثل فى تخفيض الضرائب، وذلك انطلاقًا من مفهوم أنهم سوف ينجبون جيلاً متفوقًا. وتعد ممارسات إلقاء المخلفات فى الشارع، أو عدم تنظيف المرحاض العام بعد الاستخدام، أو التدخين أو مضغ اللبان (اللبان محظور هناك) فى مكان عام؛ تعد جميعها ممارسات ضد المجتمع. وفى الماضى كانت الشرطة تقوم بالقبض على الذكور الذين يطيلون شعورهم، حيث يتم قص تلك الشعور. ترى هل يستشعر الأفراد ذلك "الفضل الكبير" الذى يعود عليهم جراء تطبيق مثل هذه القواعد والقوانين فى مجتمع ذى كثافة سكانية عالية، أم أنه يتم فرض هذه القواعد عليهم قسرًا؟

الأفراد، والأدوار، والمجتمع

استخدم بارسونز نموذجه النظرى الرباعى – الذى أشرنا إليه – فى توضيح طبيعة النسق الاجتماعى، الذى عرفه بأنه:

"*مجموعة من الأفراد (الفاعلين) الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض فى موقف ينطوى على عنصر مادى أو بيئى – على الأقل – وحيث يسعى المتفاعلون إلى تحقيق "مستوى أمثل من الإشباع"، وحيث تتسم علاقتهم بمواقف التفاعل ذاتها، وكذلك ببعضهم البعض، بأنها تتم عبر نسق من الرموز المشتركة التى تحددها الثقافة*". (بارسونز، ١٩٥١، صفحتى ٥-٦).

ويرى بارسونز أن الأدوار التى تلعبها الأسرة والنظام التربوى تمثل ضرورة حيوية لتحقيق النظام الاجتماعى والحفاظ على **الوضع القائم**. وقد ذهب بارسونز فى تحليله للأسرة فى المجتمع الأمريكى الحديث (١٩٥٩) إلى أن تلك الأسرة قد حافظت على "وظيفتين أساسيتين لا غناء عنهما" تشترك فى أدائهما

الأسرة فى جميع المجتمعات، وهما: "التنشئة الاجتماعية الأساسية" للأطفال و"العمل على استقرار شخصيات أعضائها من البالغين" (نقلاً عن هارالامبوس وهولبورن، ٢٠٠٤). ثم استطرد بعد ذلك شارحًا ومحللاً بالتفصيل كيف تؤدى الأسرة هاتين الوظيفتين ولماذا تحظيان بتلك الأهمية الكبرى بالنسبة للمجتمع. ولكى نجمل رأيه نقول إن وظيفة التنشئة الاجتماعية الأولية تضمن غرس القيم الاجتماعية فى الطفل، بحيث تصبح جزءًا لا يتجزأ من ضمير الفرد ووعيه، الأمر الذى يؤدى إلى دعم وجود الإجماع على القيم فى المجتمع. أما وظيفة تحقيق الاستقرار – على مستوى الشخصية – فترتبط بعنصر الأمان العاطفى داخل الأسرة، الذى يساعد على التصدى لضغوط الحياة ومواجهتها، وهى التى تصيب الأفراد بالكرب، وقد تدفعهم أحيانًا إلى الاضطراب أو الاختلال.

كما يدرك بارسونز الوظيفة التى يؤديها النظام التربوى فى المجتمع. إذ تمثل المدرسة جسرًا بين الأسرة والمجتمع ككل، حيث يتم فيها إعداد الأطفال للأدوار التى سوف يؤدونها عندما يكبرون. وتحرص المدرسة الأمريكية على أن تغرس فى الطفل قيمتين رئيسيتين هما: قيمة الإنجاز، وقيمة تكافؤ الفرص. وأخيرًا يعمل النظام التربوى على أن "يوزع هذه الموارد البشرية على بنية الأدوار المتاحة فى مجتمع الكبار". (نقلاً عن هارالامبوس وهولبورن، ٢٠٠٤). وهكذا تعمل المدرسة – من خلال اختبار التلاميذ وتقييمهم – على المواءمة بين مواهبهم ومهاراتهم وقدراتهم والوظائف التى تكون أكثر ملاءمة لهم. وبذلك تكون المدرسة هى الآلية الرئيسية لتخصيص الأدوار لأفراد المجتمع.

تحليل - تقييم	تمرين ٢-١١
يرى بارسونز أن النظام التعليمي يؤدى وظيفة حيوية هي انتقاء الأفـراد، وتسكينهم في الأماكن الأكثر ملاءمة لهم فى المجتمع. ومن المفروض أن تؤدى الاختبارات جزءًا من عملية الانتقاء والتسكين هذه. ناقش مــع مجموعــة مــن زملائك الموضوعات التالية، ثم اكتب تقريرًا عن كل موضوع منها: ١- مزايا الاختبارات المدرسية والامتحانات العامة كأداة لتقدير إمكانيات الأفراد وانتقائهم لشغل مواقع العمل في المجتمع. ٢- عيوب الاختبارات المدرسية والامتحانــات العامــة كــأداة لتقــدير إمكانيات الأفراد وانتقائهم لشغل مواقع العمل فى المجتمع. ٣- ما دلالات تلك المزايا والعيوب التي استخلصتها بالنسبة لرأى بارسونز الذى يؤكد أن المدارس تعمل على تعزيز تكافؤ الفرص في المجتمع؟	

النزعة الوظيفية الجديدة

تعرضت النزعة الوظيفية - تاريخيًا - للتراجع خلال سنينيات القرن الماضى عندما بدأت بعض النظريات الأخرى - مثل الماركسية والتفاعليـــة - تكــشف عــن نواحى الضعف الجوهرية فيها، خاصة فيما يتعلــق بفهمهــا لموضــوعات: القــوة، والصراع، والفعل. فقد شهد علم الاجتماع موجة عالية من التغيــر التــى هاجمــت الأساس النظرى لمفهوم الإجماع بصورته في النزعة الوظيفية لبارســونز. غيــر أن كتابات ألكسندر خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى كانت بمثابة حركة إحيــاء للوظيفية اتخذت شكل ما أصبح يعرف باسم "النزعــة الوظيفيــة الجديــدة" (انظــر سوينجوود Swingewood، ٢٠٠٠).

فقد اجتهد ألكسندر لكى يعيد تأسيس علم اجتماع يتبنى توجه الاهتمام بالوحدات الكبرى (الماكروسوسيولوجى) فى إطار النموذج النظرى الوظيفى. فقد نأى ألكسندر بنفسه عن التركيز على العوامل الاجتماعية التى تخلق الاستقرار الاجتماعى والتماسك الاجتماعى وتعمل على استدامتهما، وعمل على إدخال مفاهيم وقضايا القوة، والنضال والصراع فى تحليله للعمليات الاجتماعية ضمن إطار النموذج الوظيفى للمجتمع. كما حرص ألكسندر على أن يربط أفعال الأفراد على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغرى – خاصة عمليات استدماج (أى هضم أو تمثل) الثقافة – بالقوى والعوامل البنائية على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى. وأصبح ينظر إلى وظيفية بارسونز على أنها تعانى نوعًا من القصور فى تفسير وتحليل ارتباط الفعل الفردى (الذى يسميه ألكسندر "الإمكانية" Contingency) بالالتزام بالنظام الاجتماعى. ولأن بارسونز وضع كتبه التى نعرفها قبل ظهور النزعة التفاعلية، فقد جاء تعريفه للفرد فى ضوء الأدوار وأنماط السلوك التى تتخلق أثناء عملية التنشئة الاجتماعية، ولذلك لم يستطع أن يفهم التفاعل الاجتماعى على الوجه الصحيح. أما ألكسندر فقد حاول أن يفسر كيف تعمل "البيئات" – أى النسق الاجتماعى، والنسق الثقافى، ونسق الشخصية – على تطوير الفعل الاجتماعى، وتوليده، وتشكيله. ولاحظ أن تلك البيئات إنما تتخلق من خلال الفعل، كما أن الفعل ينبع من تلك البيئات ويتولد منها، وكل ذلك يتم من خلال عملية انعكاسية تترك مساحة كافية لحرية الإرادة.

وعلى حين ربط بارسونز القيم بالتنظيم المؤسسى للمجتمع، نجد أصحاب النزعة الوظيفية الجديدة يأخذون فى اعتبارهم مفهومًا طوعيًا للفعل، بمعنى أن ذلك الفعل يمكن أن ينبع من شخصية الفرد كما يمكن أن يستمد من الثقافة. ويذهب ألكسندر إلى أن استدماج (هضم) الفرد للثقافة أثناء عملية التنشئة الاجتماعية يمكن أن يؤدى إلى تشكيلة متنوعة من المعانى، ولا يؤدى إلى خلق نسق قيمى واحد

مسيطر (سوينجوود، ٢٠٠٠). غير أن هذا الرأى لا يعالج مشكلة أين تبدأ الثقافة، ولا مشكلة علاقتها بالبنى الاقتصادية والسياسية الكبرى. وهكذا نرى أنه فى الوقت الذى استطاعت فيه الوظيفية الجديدة أن تقطع شوطا فى معالجة الافتقار إلى نظرية فى الفعل تتسم بالكفاءة، إلا أنه مازالت هناك – مع ذلك – بعض نقاط الضعف الجوهرية. ونتيجة لذلك أعلن ألكسندر أن الوظيفية الجديدة لا يمكن أن تكون نظرية مكتملة، الأمر الذى دفعه إلى أن يتجاوزها ويتجه إلى إعلان "حركة نظرية جديدة"، ترتكز على عدد من الاتجاهات والمدارس النظرية الأخرى – كالتفاعلية الرمزية على سبيل المثال – من أجل سد الثغرات التى لم تستطع الوظيفية الجديدة أن تملأها (انظر سايدمان وألكسندر، ٢٠٠١).

تقييم البنائية الوظيفية

نقاط القوة

١- تعد البنائية الوظيفة فى نظر البعض "أهم النظريات فى حقل العلوم الاجتماعية فى العصر الحاضر دون أدنى شك" (حسب رأى نيسبت، نقلاً عن تيرنر وماريانسكى، ١٩٧٩، ص١١).

٢- تتسم مفاهيمها بجاذبية خاصة بسبب بساطتها ولسهولة تطبيقها على المجتمع المعاصر. ومع أن كثيرا من أفكارها قد تبلورت وتطورت من خلال تحليل المجتمع الأمريكى، إلا أنها قابلة للتطبيق كذلك على المجتمع البريطانى الحديث (وعلى مجتمعات غير غربية أيضا – المترجم).

٣- يلاحظ أن النظرية ميسورة الفهم للشخص غير المتخصص فى علم الاجتماع، لأنها تقوم على فكرة النسق الاجتماعى وعلى الأنساق الاجتماعية الفرعية المكونة له، ولأنها تحاول التعرف – بوضوح – على الوظائف التى

تؤديها تلك الأنساق الفرعية لدعم واستمرار النسق الكلى العام. فمن اليسير نسبيًا أن نفهم أن لكل قسم من أقسام المجتمع وظيفة يؤديها لكى يستمر المجتمع فى مسيرته، كما أنه ليس من العسير على أحد أن يقدر - ولو تخمينًا - طبيعة هذه الوظيفة. كما ييسر الأمر أكثر بالنسبة لغير المتخصص أن يقف على نماذج لكيفية تطبيق التحليل الوظيفى على الأسرة وعلى النظام التربوى.

٤- عملت الوظيفية الجديدة على علاج مشكلة عدم اهتمام النظرية البنائية الوظيفية بكيفية تفسير الفعل وفهمه فى علاقته بالنسق الاجتماعى.

أوجه القصور

١- ينصب أشهر الانتقادات الموجهة إلى البنائية الوظيفية على ما تتسم به من سذاجة، ويقصد بذلك عجزها الواضح - أو رفضها - الاعتراف بأن المجتمع أبعد ما يكون عن التجانس وعن الإجماع، وذلك لأنه يضم جماعات ذات مصالح متعارضة، تحاول السيطرة على بعضها البعض.

٢- كما يرى بعض النقاد أن الوظيفية تخطئ فى تأكيدها على أن التدرج الاجتماعى مفيد وظيفيًا للمجتمع وأفراده. وذلك لأنهم يرون أن التدرج الاجتماعى ليس مفيدًا وظيفيًا إلا لأولئك الذين يشغلون أقوى الأوضاع فى المجتمع وأكثرها ثراء، بينما نجده ضارًا وظيفيًا بالنسبة لغالبية أفراد المجتمع.

٣- ويمكن توجيه النقد إلى أصحاب البنائية الوظيفية بسبب عدم التفاتهم إلى قضية: أفكار مَنْ هى التى تشكل أساس الإجماع القيمى فى المجتمع، ومصالح مَنْ التى يخدمها هذا الإجماع. ويرى الماركسيون أن الأفكار أبعد ما تكون عن أن تكون تعبيرًا عن الأخلاق والمصالح المشتركة التى تخدم الوحدة والتماسك، وذلك لأنهم

يؤمنون أن الأفكار التى تشكل "الإجماع القيمى" إنما تكون تعبيرًا عن الإيديولوجيا المسيطرة التى تستخدم لتبرير قوة الطبقة المسيطرة والعمل على استدامتها.

٤- إن الوظيفية تعجز بوصفها نظرية للنسق الاجتماعى عن تقديم تحليل صحيح ومرض للفعل – أو إمكانية الفعل – الاجتماعى.

تفسير – تطبيق	**تمرين ٢-١٢**

استخدم المعرفة التى حصلتها من قراءة هذا الجزء من الفصل عن المجتمع القائم على الإجماع؛ استخدمها فى استكمال نسخة من الجدول التالى الذى يلخص الموضوع:

المجتمع يقوم على الإجماع

النظريات الرئيسية	الوظيفية	البنائية الوظيفية	الوظيفية الجديدة
أبرز من كتبوا فيها			
الفروض الأساسية			
نقاط القوة			
أوجه القصور			

المجتمع يقوم على الفعل الاجتماعى، والتأويل، والمعنى

يرفض علماء الاجتماع الذين يتبنون منظور الفعل فكرة تأسيس أى نظرية فى المجتمع على تصور ينظر إلى المجتمع ككيان كلى واحد. إذ يرى أصحاب

نظرية الفعل الاجتماعى أن هذا الفعل الاجتماعى نفسه هو الذى يخلــق المجتمــع، ويعمل على استمراره، كما يعمل على تجديده وإعادة إنتاجــه. فالبنـــاء الـديناميى (المتغير) للمجتمع يتخلق من خلال الفعل الاجتماعى والتفاعل الاجتماعى فى حياة الناس اليومية التى يعيشون وينغمسون فيها. وأن علم الاجتماع ينبغى أن يقوم على دراسة الطبيعة العملية للتفاعل الاجتماعى، والطرق التى يمارس بها الناس عمليــة خلق المعانى، وذلك لكى يساعدنا على فهم حياتنا. ولهذا يركز هــؤلاء المفكـــرون اهتمامهم على العناصر الصغرى (المايكرو) للتفاعل الاجتماعى.

منظور فيبر

المنظور الفيبرى هو ثمرة الإسهامات النظرية التى قدمها ماكس فيبر (عاش من ١٨٦٤ حتى ١٩٢٠)(*) لعلم الاجتماع. ويتكون هذا الإسهام من شقين: إذ قـــدم رؤية لما يتعين أن يقوم به علم الاجتماع، كما قدم مجموعة من الرؤى والتـــأملات لبعض مكونات العالم الاجتماعى. ويمكن القول أن منظور فيبر فى دراسة العــــالم الاجتماعى يمثل محاولة لتقريب الفوارق بين أولئك الذين يحبذون إجراء البحـــوث والدراسات على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى (الماكرو)، وأولئــك الـــذين يفضلون إجراء البحـــوث والدراســـات علـــى الوحـــدات الاجتماعيـــة الـــصغرى (المايكرو). فقد آمن فيبر (١٩٢١/ ١٩٦٨) أنه من الممكن الاستفادة من الأســـس والمبادئ العامة، وكذلك من البحوث والدراسات التى تجرى على المستوى الفردى. ورأى أن الجمع بين هذين المنظورين يمكن أن يتحقق على الوجه الأفضل عنـــدما يتم تطوير المفاهيم العامة واستخدامها فى إثراء فهمنا للوقائع والأحداث الإمبيريقية الفردية.

(*) ورد بالخطأ فى الأصل الإنجليزى ١٩٣٠ والصحيح هو ما أثبتناه أعلاه. (المترجم)

وهكذا نرى أن فيبر كان يحبذ (١٩٠٣-١٩١٧/ ١٩٤٩) كــلاً مــن الفرديــة والعمومية، ولكنه حرص على أن يؤكد أن اهتمامه الأساس هــو بــالمكون الفــردى للتحليل العام. وقد استهدف فيبر من وراء تحليل البيانات التاريخية التوصل إلــى فهــم الخبرات والأحداث الفردية بواسطة استخدام بعض المفاهيم التى يمكن أن تطبق بــشكل عام على كافة الظواهر الاجتماعية. وكانت أهم تلك المفاهيم وأبعدها تأثيرًا أربعة هــى: الفهم، والعلِّية، والنمط المثالى، والقيم. وسوف نعرض لها على التوالى فيما يلى.

ولعل مصطلح **الفهم** هو أشهر مفاهيم فيبر، ولكنه كان أكثرها مــن حيــث سوء الفهم. وقد استخدم فيبر مصطلح الفهم (بالألمانية Verstehen وبالإنجليزيــة Understanding) (١٩٢١/ ١٩٦٨) للإشارة إلى قدرة عالم الاجتماع على فهــم الظواهر التى يقوم بدراستها. ولكن استخدامات فيبر لهذا المفهوم فى كتاباتــه أدت إلى إثارة بعض اللبس. فلسنا على يقين مما إذا كان مقصودًا بهذا الفهــم المــستوى الفردى (بمعنى فهم المعانى التى يضفيها الأفراد على الظواهر الاجتماعيــة وأثــر تلك المعانى على أفعالهم)، أم أن الفهم هو أداة (أو تقنية) لفهم الثقافة، خاصة تلــك "القواعد التى تتشكل اجتماعيًا والتى تتولى تعريف معنى الفعــل فــى أى مجتمــع" (هيكمان، ١٩٨٣). فأول هذين الاحتمالين قريب من منظور التفاعليــة الرمزيــة، على حين يقترب الاحتمال الثانى من الدراسة السوسيولوجية للوحدات الاجتماعيــة الكبرى (الماكروسوسيولوجيا) فى إطار النزعة البنائية الوظيفية. ومن المتفق عليه اليوم – على أية حال – أن كلا تفسيرى المصطلح صحيح بنفس القدر.

و**العلِّية** هى ثانى المفاهيم المهمة فى أعمال فيبر، وتعنى العلاقة بــين العلــة والمعلول (أو السبب والنتيجة). فقد هيمنت علــى بحــوث فيبــر (١٩٢١/ ١٩٦٨) الرغبة ليس فقط فى معرفة المعنى الكامن وراء التغير الاجتمــاعى، وإنمــا كــذلك الوقوف على السبب وراء هذا التغير. ولعل أشهر تحليلاته فى هذا الإطــار مؤلفــه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" (١٩٠٤/ ١٩٥٨).

ويشير المفهوم الثالث عند فيبر (١٩٠٣-١٩١٧/ ١٩٤٩) وهو "النمط المثالي" إلى صورة نقية للظاهرة يقوم ببلورتها علماء الاجتماع عن طريق الانغماس في تحليل المادة التاريخية. وعلى هذا تفهم الأنماط المثالية بوصفها أدوات إرشادية (تعين على الفهم)، الهدف منها تزويدنا بقوالب للبحث السوسيولوجي، هي عبارة عن نماذج مبالغ فيها بقصد تضخيم جانب معين من الظواهر الاجتماعية محل الدراسة. ورأى فيبر أن تلك الأنماط المثالية – أو القوالب – يمكن مقارنتها بالظواهر الموجودة فعلاً في المجتمع للكشف عن درجة بعدها أو اختلافها عن ذلك النمط. عندئذ يستطيع علماء الاجتماع دراسة الأسباب التي يمكن أن تكون مسئولة عن هذا الاختلاف.

كذلك أولى فيبر قدرًا كبيرًا من اهتمامه (١٩٠٣-١٩١٧/ ١٩٤٩) لمكانة القيم في الدراسة والبحث. ولكنه أكد بقوة على أن القيم لا مكان لها في الدرس الأكاديمي، وأنه من الممكن في علم الاجتماع إجراء بحوث علمية متحررة من القيم. على أن ذلك لا يعني عند فيبر استبعاد القيم كلية من عملية البحث العلمي الاجتماعي، وإنما المقصود فقط استبعادها من عملية جمع البيانات. ومعنى ذلك أن الوضع الأمثل هو الإفصاح عن القيم قبل الشروع في عملية البحث، لأنه عندما يبدأ الباحث عمله يتعين عليه أن يلتزم الموضوعية العلمية لكي يضمن أن تأتي نتائج بحثه متحررة من القيم.

ومع أنه من الصعب أن نوفي آراء فيبر حقها في الحديث عنها في فقرات قليلة لما تتميز به من تعقيد وتركيب، فإنه من المهم تناول بعض أفكاره كي نتبين معًا مدى اتساع أفق اهتماماته العلمية، ومقدار تنوع وثراء ما قدمه للفكر السوسيولوجي من إسهامات. فإذا بدأنا باستعراض آرائه عن تعريف علم الاجتماع، نجد فيبر (١٩٢١/ ١٩٦٨) يذهب إلى أنه يتعين أن يكون علم الاجتماع حقلاً

علميًا، يتقصى موضوع العلّية، ويستخدم أسلوب الفهم التأويلي. فعندما قدم فيبر نظريته عن الفعل الاجتماعي، أكد أنه من المهم التمييز بين الفعل الطوعي (أى المقصود) والفعل غير الطوعي (الذى يمثل رد فعل أو يمثل فعلاً غريزيًا). ورأى أن دراسة الفعل الطوعي هو أفضل أداة توصلنا إلى فهم السلوك الإنساني.

وبرغم هذا الاهتمام المبكر بالدراسة الاجتماعية للوحدات الاجتماعية الصغرى (المايكرو)، نجده يتباعد عن هذا الاتجاه أكثر فأكثر بمرور السنين. ولكنا نجد أن بحوثه عن البناء الاجتماعي تكشف عن عزمه التركيز على الفرد، فى نفس الوقت الذى يهتم فيه بدراسة دور الفعل الاجتماعي فى تشكيل حياة الجماعات الاجتماعية. وقد لاقت تحليلات فيبر (١٩٢١/ ١٩٨١) قبولاً واسعًا لأنها رفضت التفسير الاقتصادى للتدرج الاجتماعي، وركزت بدلاً من ذلك على الجماعات والتكوينات الاجتماعية. وقد حلل فيبر التدرج الاجتماعي فى ضوء الطبقة (أى التنظيم الاقتصادى للمجتمع)، والمكانة (الشرف الاجتماعي الذى يحظى به الفرد أو الجماعة فى المجتمع).

ويمثل إقرار فيبر للحزب كبعد من أبعاد القوة أوضح مثال لرغبته فى فهم المجتمع فى ضوء أفعال أفراده. ويمكن استخدام مصطلح "الحزب" للإشارة إلى الطريقة التى تنظم بها الجماعات الاجتماعية نفسها بهدف تحقيق هدف أو غرض معين. وقد يتشكل الحزب على أساس طبقي، أو على أساس المكانة، أو الجمع بين الاثنين معًا. وأدرك فيبر أن أفعال أعضاء الحزب تلعب دورًا مهمًا فى تحديد مدى نجاح حزب معين فى تحقيق أهدافه. ولكنه عمد – فى الوقت نفسه – إلى التأكيد على أهمية الجانب البنائى للأحزاب. وقد عبر جيرث وميلز عن ذلك (١٩٥٨) بالقول بأن: "الأحزاب هى عبارة عن أبنية تناضل من أجل تحقيق الهيمنة". وهكذا نتبين هنا بوضوح اهتمام فيبر بالبناء على حساب الفرد، كما يتضح من التعليق التالى:

"وهكذا تمثل الأحزاب – عند فيبر – أكثر عناصر نسق التدرج الاجتماعي تنظيمًا. ونلاحظ أن فيبر يفهم الأحزاب بمعنى واسع لا يقتصر فقط على الأحزاب السياسية في الدولة، وإنما يستوعب كذلك تلك التي يمكن أن توجد داخل أي نادٍ اجتماعي. وتمثل الأحزاب عادة – ولكن ليس دائمًا – جماعات طبقية و/أو جماعات مكانة. ولكن أيًا كان أساس تمثيلها، فإن الأحزاب تسعى دائمًا إلى حيازة القوة" (جيرث وميلز، ١٩٥٨).

الموضوع (F)
وصف البعض التغيرات التي طرأت على التركيب الاجتماعي للأحزاب السياسية اليسارية واليمينية، كما وصفوا التغيرات التي طرأت على خصائص الأنشطة النقابية بأنها نماذج للأسلوب "الجديد" في الممارسة السياسية في الديموقراطيات الغربية. ويرى المحللون السياسيون أن جماعات الضغط "ذات الطراز القديم" – كالنقابات العمالية – لم تعد ذات تأثير قوي في مجتمع اليوم. ويقال إن العالم يشهد ظهور أسلوب "جديد" من المشاركة السياسية، حيث ينتقي الأفراد القضايا التي يريدون تبنيها. وينطوي الأسلوب "الجديد" على تراجع الانحياز الطبقي، وتراجع المواقف والاختيارات النضالية، والحملات الداعية إلى التغير الاجتماعي والسياسي مع التأكيد على الجوانب الأخلاقية العامة. كما تشكل التغطية الإعلامية للمناقشات والقضايا السياسية جزءًا من الوعي الشعبي العام بكيفية تأثير السياسات أو نفعها للناس، ومن ثم يتصرفون على نحو أشبه بالمستهلكين الذين يختارون التوجه الذي يتبنونه. كذلك حدثت زيادة في أعداد الحركات الاجتماعية الجديدة، سواء تلك التي تتمحور حول قضايا محدودة معينة، كحركة مناهضة صيد الثعالب، أو تتعلق بمشكلات بعيدة المدى كحركة

السلام الأخضر على سبيل المثال. وقد يعكس هذا الوضع نوعا من عدم الرضا عن النسق السياسى، ويدلنا على رغبة الناس فى ممارسة التأثير على عمليات صنع السياسات من خلال تدخلهم فيها بشكل مباشر.

(المصدر: نقلاً بتصرف عن مارش فى مقاله "فهم المجتمع"، المنشور فى "مجلة علم الاجتماع"، العدد ١٦(٢)، ٢٠٠٦).

تمرين ٢-١٣	
تفسير تطبيق تحليل تقييم	ناقش بالاشتراك مع مجموعة من زملائك الطلاب كيف يمكن أن تعد المادة الواردة فى الموضوع (F) تحديًا – وفى نفس الوقت تأكيدًا – لمفهوم فيبر عن الحزب. تأكد من أنك تفهم المقصود بمصطلحى "تراجع الانتماء النضالى" و"تراجع الانحياز الطبقى". حاول أن تقدم نماذج أخرى من الحركات الاجتماعية الحديثة. وهل يمكن أن تختلف الحركات الاجتماعية الحديثة وفقًا لاختلاف الجماعات حسب العمر، أو النوع، أو الطبقة الاجتماعية أو العجز؟

كما قدم فيبر (١٩٢١/ ١٩٦٨) تحليلاً لأبنية السلطة، حيث ميز بين السلطة التقليدية (أى السلطة التى تستند إلى عوامل تاريخية) والسلطة الكارزمية (أو السلطة الملهمة التى تقوم على الجاذبية الشخصية أو قوة تأثير شخصية الزعيم الكاريزمى – أو الملهم)، وأخيرًا السلطة القانونية الرشيدة (وهى السلطة القائمة على أساس العقل أو القانون). وقد تتبع فى بحوثه ظهور مختلف أشكال السلطة على امتداد التاريخ، حيث خلص إلى اعتبار السلطة القانونية الرشيدة هى أكثر أشكال السلطة انتشارًا فى العالم الغربى المعاصر. وقد قادته تلك النتيجة إلى القيام بتحليل شامل لأبنية الرشد

فى المجتمع. وأشهر مؤلفاته فى هذا الموضوع دراسته الوافية عـن البيروقراطيـة، حيث طبق مفهومه عن "النمط المثالى" بأعلى مستوى من الكفاءة.

وقد أقر فيبر فى دراسته عن البيروقراطيـة (١٩٢١/ ١٩٦٨) بإمكانيـات المنظمات والأبنية البيروقراطية، ولكنه أفصح عن بعض التحفظات فيمـا يتـصل بتأثير تلك المنظمات على الأفراد. فالنظم البيروقراطية – من ناحية – تعتدى على إنسانية العامل وتسىء إليها، كما أنها يمكن – مـن ناحيـة أخـرى – أن تـضر بالمجتمع نفسه، وذلك بسبب المبالغة فى التأكيد على الترشيد كعملية لتحقيق مستوى أعلى من الكفاءة. وكان ما يزعج فيبر أن تنتشر هذه العمليـة خـارج المنظمـات البيروقراطية بحيث تتغلغل عملية الترشيد فى كافة البنى والعلاقات الاجتماعية.

تقييم فيبر

نقاط القوة

١- تدلنا أعمال فيبر على أن التحليل البنائى لا يستطيع وحده أن يقودنا إلـى فهـم المجتمع على النحو الأمثل. ولأنه استطاع أن يجـسّر الهـوة بـين الدراسـة الاجتماعية للوحدات الصغرى والدراسة الاجتماعية للوحدات الكبرى، فقد تمكن من تقديم نظرية فى المجتمع تربط قيمة التحليل العلّى بأهمية الـدوافع الفرديـة للسلوك.

٢- لاشك أن اتساع نطاق اهتماماته العلمية أمر مثير للإعجاب. فقد حرص علـى أن يطبق أفكاره فى دراسة عدد من مجالات الحياة الاجتماعيـة، واسـتطاع أن يحرز نجاحًا ملحوظًا فى ذلك. وقد كانت بحوثه تلك مصدر إلهام لكثيـر مـن الدراسات السوسيولوجية فيما بعد من نواح مختلفة.

أوجه القصور

١- رغم تأكيد فيبر على أن اهتمامه الأساسي كان منصبا على الاهتمام بـــالمعنى، إلا أن أغلب أعماله قد ركزت - في الواقع - على دراسة الأبنية الاجتماعيـــة الكبرى. ولذلك كان هذا التجاور بين كل من القصد والبناء مثيـــرًا للـــبس فـــى أحسن الأحوال، وعصيًا على الفهم في أسوأ الأحوال.

٢- لاشك أن تأرجح فيبر بين الاتجاهات الكبرى في التحليل (الماكرو) والاتجاهات الصغرى (المايكرو) قد جعلت أعماله محلاً للنقد من جانب الفـــريقين. إذ يـــدين البنيويون مفهومه عن "الفهم التأويلي" بسبب افتقاره - في رأيهم - إلى المصداقية الإمبيريقية، كما يعيب أصحاب علم الاجتماع التأويلي على بعض الجوانب البنائية لبحوثه إغفالها لدور الأفراد في التأثير على بيئتهم.

الاتجاهات الماركسية، والوظيفية، والفيبرية في علم الاجتماع كنظريات حديثة

تعد الاتجاهات الماركسية والوظيفية والفيبرية في علم الاجتماع نتاج مرحلة معينة من التاريخ أصبحت تعرف باسم مرحلة الحداثة. وتعود أصول الحداثة إلـــى عصر التنوير الذى عرفه الغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، والذى يقوم على الاعتقاد بأنه من الممكن الوصول إلى معرفة بالعالم مفهومـــة وصـــادقة إمبيريقيًا بتطبيق قواعد البحث العلمي تطبيقًـــا صـــارمًا. وتوصـــف الاتجاهـــات الماركسية والوظيفية والفيبرية بأنها "نظريات كبرى"، بمعنى أنها تقوم على تقـــديم رؤية للمجتمع ككل، ومن ثم يمكن تفسيره وفهمه كأبنية كلية تتبع نماذج واتجاهات معينة على امتداد تطورها وتقدمها.

ويذهب دعاة ما بعد الحداثة إلى أننا قد تجاوزنا الزمن الذى كان يمكن فيه تحصيل تلك المعرفة الدقيقة والصادقة بالعالم، وذلك لأن العالم الذى نعيش فيه أصبح أكثر تنوعا وتشظيا. فلم يعد بوسع أى نظرية عامة أو "كبرى" أو أى بناء فكرى شامل - كالماركسية أو الوظيفية أو الفيبرية - أن تمدنا بتفسيرات للمجتمع فى كليته وشموله. ولهذا أطلق دعاة ما بعد الحداثة على تلك النظريات الكبرى اسم "أنساق التفسير الكبرى"، ويعتبرون أنها لم تعد مقبولة ولا جدوى منها فى محاولة تقديم تفسيرات لطرق عمل مجتمعات بأكملها. وسوف نعود إلى تناول هذه القضايا بمزيد من التفصيل فى الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب.

علم الاجتماع التأويلى

التفاعلية الرمزية

ترتبط "التفاعلية الرمزية" عادة بأعمال جورج هربرت ميد، مع أن بلومر كان أول من استخدم هذا المصطلح فى عام ١٩٣٧. وقد تطور اتجاه التفاعلية الرمزية كرد فعل لنظريات البناء الاجتماعى التى كانت تهيمن على علم الاجتماع منذ بدايات القرن العشرين. وتتمحور اهتمامات أصحاب اتجاه التفاعلية الرمزية - والموثقة فى مصادر لا حصر لها - حول:

(١) التركيز على التفاعل بين الفاعل والمجتمع،

(٢) التركيز على الفاعل وعلى العالم الاجتماعى بوصفهما عمليات دينامية،

(٣) أهمية تفسيرات الفاعلين لذلك العالم الاجتماعى الذى يتفاعلون معه.

وقد استعرض "ميد" أفكاره بشكل واف فى كتابه "العقل، والذات، والمجتمع" (١٩٣٤). واستلهم "ميد" نظريته من مجالين اثنين، المجال الأول هو الفلسفة

البراجماتية، ونعنى هنا ذلك الفرض العام الذى يقول إن الحقيقة إنما تتخلق من خلال أفعال الأفراد وتفاعلاتهم مع بعضهم البعض. ومن هنا كان "ميد" يؤمن أن أى محاولة لفهم المجتمع يجب أن تقوم على أساس دراسة الفعل والتفاعل. أما المجال الثانى الذى استقى منه "ميد" نظريته فهو "النزعة السلوكية"، وهى ذلك المنظور السيكولوجى الذى يقوم على الدراسة العلمية المنظمة للسلوك الإنسانى.

وقد توصل "ميد" إلى تطوير عدد من المفاهيم الرئيسية التى يمكن أن تعيننا على فهم العالم الاجتماعى. فقد حدد فى البداية وجود ظاهرة اسمها "الفعل". وكان ذلك هو المصطلح الذى استخدمه لوصف السلوك الصادر عن الأفراد. وأدرك "ميد" أن "الفعل" لا يحدث فى ظل العزلة، ومن هنا اقترح مفهومًا آخر هو "الإيماءات"، لكى يستوعب بواسطته الجانب الاجتماعى للفعل. واستخدم "ميد" مصطلح الإيماءات للإشارة إلى التفاعل بين الفرد (أى الفاعل الاجتماعى) والآخر (أو الآخرين). وأدرك كذلك أن استجابة الآخر يمكن أن تؤثر على الأفعال التالية الصادرة عن الفرد، واصفًا ذلك بأنه نوع من "حوار الإيماءات". كما وصف كريستوفر (٢٠٠١) عملية التأثير المتبادل (بين الفرد وشريكه فى التفاعل) بأنها نوع من "الرقص" بين الأفراد المتفاعلين. وكانت هذه الرؤية هى منطلق "ميد" لتحليل العلاقة بين الفرد والمجتمع.

كذلك قام "ميد" بصياغة نظرية فى العمليات الفعلية. ولم ينظر "ميد" إلى الذكاء من ناحية القدرة العقلية، وإنما على أساس قدرة الأفراد على التكيف مع البيئة. فالناس لا يستطيعون فقط التكيف ماديًا مع البيئة، وإنما يمكنهم أن يتكيفوا مع بيئتهم رمزيًا أيضًا. وتلك الخاصية هى التى تميزهم عن الحيوانات. فنجد مثلاً كما أن الأفراد يستطيعون أن يغيروا حوارهم استجابة لأفعال المستمعين وردود أفعالهم، كذلك يستطيعون تغيير سلوكهم استجابة لرد الفعل الاجتماعى تجاههم. ويرى "ميد"

أن البشر ينفردون عن سائر الكائنات بسبب قدرتهم على إجراء حوارات داخلية مع أنفسهم يتأملون فيها التفسيرات المحتملة للأحداث أو لمجريات الفعل.

وقد شكلت هذه الرؤية أساس نظرية "ميد" عن الذات. وفيها خطا خطوة أبعد في تطوير فكرته التي تقول إن ردود أفعال الآخرين تجاههم هي التي تشكل المعنى الذي ينسبه الأفراد إلى الأحداث. فقد أثبت وجود "الذات" داخل كل فرد، التي هي نوع من الانطباع الصلب أو الهوية الثابتة التي تتشكل من خلال الفعل والتفاعل داخل المجتمع. ورأى "ميد" أن الذات عملية عقلية واجتماعية في الآن معًا، لأنها تتشكل عن طريق ائتلاف (أو التقاء) الأفكار والآراء التي تبلورت كثمرة للخبرات الاجتماعية والتأمل الشخصي. فالذات تتبلور بفعل عملية تعرف باسم "الانعكاسية" (أو التأمل النقدي)، حيث يستخدم الأفراد ردود أفعال الآخرين كما يستعينون بخبراتهم الخاصة في الحياة لكي يعدلوا ما يمارسوه من فكر وسلوك فيما بعد.

وقرر "ميد" أن الذات تشمل عنصرين هما: الأنا الفاعل (أو I المفرد المتكلم) والأنا المفعول Me. والأنا الفاعلة هي أكثر عناصر الذات شخصية، كما أنها مصدر الدينامية والإبداع. أما الذات المفعولة فترتبط بالاتجاهات السائدة في المجتمع، التي يستدمجها (يهضمها) الأفراد وتعمل على تشكيل سلوكهم. فتلك التوقعات والمعتقدات الاجتماعية هي التي تخلق الفرد الذي يلتزم بالتقاليد والعادات كما عرفه "ميد" في كتاباته. وقد ذهب "ميد" إلى أن عنصري الذات هما اللذان يسهمان في إثراء ملامح الذات، فالأنا الفاعلة هي التي توفر الإبداع والدينامية اللازمين لإلهام الفرد كي يتغير. أما الأنا المفعولة فهي التي تخفف من هذا المسار بفعل المسئولية الواعية.

وقد كانت أعمال "ميد" مصدر إلهام لعدد من الكتّاب، يأتي في مقدمتهم تشارلز كولي، الذي حاول أن يشرح ويطور تحليل "ميد" للذات (انظر جروس،

١٩٩٢ للوقوف على عرض موجز لإسهام كولى فى هذا الـصدد). ويـأتى بعـده جوفمان (١٩٦١)، الذى طور مفهوم المنظور المسرحى فى علم الاجتماع، حيـث شبه الحياة بالمسرح، ومن ثم اعتبر الذات نتاج التفاعـل الـدرامى بـين الممثـل والجمهور. وهناك علماء آخرون – مثل بلومر (١٩٥٤/ ١٩٦٩) – اتخـذوا مـن أفكار "ميد" أساسًا لنقد الدراسة الاجتماعية للوحدات الكبرى (الماكرو) ولنقد المنهج العلمى، ونادوا باستخدام طرق البحث التى تتسم بقدر أكبـر مـن التعـاطف بـين الباحث والمبحوثين، أى "الاستبطان التعاطفى" فى دراسة العالم الاجتماعى.

كما كان إرفنج جوفمان من أبرز علماء الاجتماع وأكثرهم تأثيرًا من خـلال كتاباته وبحوثه التى خدمت الرؤية التفاعلية، والتى أثرى بهـا كتابـات المفكـرين النظريين السابقين، وطور من خلالها منهجًا كيفيًا متميـزًا يقـوم علـى اسـتخدام الملاحظة والدراسة الإثنوجرافية. ومن أول إسهاماته فى النظرية التفاعلية تطويره للمنظور المسرحى، الذى صور العالم كعرض درامى أو مسرحى، يقوم فيه كـل واحد منا – على نحو انعكاسى – بأداء أدواره المختلفة، وفقًا للظروف والملابسات التى يجد نفسه فيها وتبعًا للطرف الذى يتفاعل معه. ومـن تلـك الأدوار: الأدوار العائلية كدور الأب، والأم، والأخ وابن العم أو العمة؛ وأدوار العمل كدور المعلـم، والضابط، وعامل المصنع، وعاملة المقهى، والطبيب؛ والأدوار الاجتماعية كـدور الصديق، والجار، والشخص الذى نعرفه معرفة سطحية، وذلك الـذى نثـق فيـه ونأتمنه. فكل تلك الأدوار يمكن أن تكون جميعًا جوانب لشخـصية واحـدة. وقـد أوضح جوفمان مدى تعقيد كيفية "تقديم" أنفسنا للعالم الخارجى من خلال التفاوض، والتحكم فى الانطباع، والتحايل على الأمور.

وقد انبثقت دراسته لتفاصيل التفاعل الاجتماعى اليومية أثناء ممارسته عملاً صيفيًا – أثناء إعداد رسالته للدكتوراه – كعامل فى فندق فى شيتلاند فـى مطلـع

شبابه، حيث لاحظ خلال تلك الفترة المعانى الثقافية المعقدة الكامنـــة وراء أفعالنـــا وتفاعلنا مع الآخرين. من ذلك ما لاحظه من صور التوتر بين "السكان المحليـــين" وزوار المدينة والتى تبدت فى طرق التواصل المكتومة أو المختلسة من الفـــروق الدقيقة في المعاني، والإيماءات، والتحكم فى نبرة الصوت، والتـــصرفات، والتـــى يبديها أهل مدينة شيتلاند عندما يريدون تعمد الإلغاز أو التعمية فـــى وجـــود زوار المدينة الأغراب. وقد عرض جوفمان جانبًا كبيرًا من تجربته في شيتلاند فى كتابه "تصوير الذات فى الحياة اليومية" (١٩٥٩/ ١٩٩٩)، كما ظهر جانب آخر منها فى بعض أعماله الأخرى على امتداد مسيرته العلمية. وقد أكد فى عمل لاحق له على الأساليب التى يعتمد بها الأفراد على "أطر الفهم" لاستيعاب ما يمكن أن يـــصبح – لولا تلك الأطر – أحداثًا كارثيـــة أو وقـــائع لا معنـــى لهـــا (انظـــر تـــشامبليس Chambliss، ٢٠٠٥). ومع أن هذه الأطر تمثل خطة للتأويل موجودة ســـلفًا، إلا أنه بوسع الفرد أن يختار الإطار الذى يستخدمه فى موقف معين للتوصل إلى فهـــم معنى حدث ما (انظر سنو Snow، ٢٠٠٧).

وفى رأى جوفمان أننا نسهم بشكل إيجابى فى خلق وإعـــادة خلـــق العـــالم الاجتماعي الذى نعيش فيه، وذلك من خلال خبراتنا وتأملنا. وقد أوضح جوفمـــان فى دراسته للمرض العقلى كيف يتم القضاء على "ذات" المريض بـــشكل منهجـــى منظم عن طريق عملية الوصم والعزل فى المصحة. وكان قد عمل فـــى مـــصحة للأمراض العقلية ليجمع المادة العملية لكتابه "المصحات العقليـــة" (١٩٦١) الـــذى حقق شهرة علمية واسعة. وكان هذا الكتاب بمثابة الأساس الذى قامت عليه نظريته العامة عن المؤسسات الشاملة. كما درس جوفمان أساليب إلصاق وصمات معينـــة ببعض أشكال السلوك وببعض الأفراد، وذلك فى دراسته لموضوع الوصم فى عالم الجريمة والمعنون "الغرباء"، وفى دراساته للنوع والإعلان، ودور بعض المعلمـــين فى وصم بعض التلاميذ فى المدارس.

تقييم التفاعلية الرمزية

تتعرض التفاعلية الرمزية عادة للانتقاد بسبب تركيزها على الفعل على حساب البناء الاجتماعى، وهو الأمر الذى يجعلها تتجاهل القوى الرئيسية المهيمنة، مثل: القوة (السياسية)، والصراع، والتغير وما إلى ذلك، وهى الأمور التى كان يمكن أن تعينها بشكل أفضل على تفسير طبيعتها الاجتماعية. ويرى كريب (١٩٨٤) – فى تحليله لقيمة التفاعلية الرمزية – أن قبول هذا الانتقاد إنما يبالغ فى تبسيط الإسهام الذى حققته التفاعلية الرمزية للعلم الاجتماعى. ففى رأى كريب أن جانبًا من قيمة هذه النظرية يكمن فى قدرتها على الجمع بين التجريد النظرى ومرونة التفكير. فانطلاق التفاعلية الرمزية من التفسير الفردى والفعل الفردى فى تحليلها للمجتمع إنما هو وسيلة لتطوير فهم للحياة الاجتماعية متحرر من قيود الفكر البنائى.

ورغم دفاع كريب عن التفاعلية الرمزية فى وجه النقد غير المنصف الذى تعرضت له، فإنه لم يتردد فى إلقاء الضوء (١٩٨٤، ص٧٤) على بعض أوجه القصور فيها التى تضعف من قدرتها على إثراء فهمنا للحياة الاجتماعية، حيث يقول:

" يرى التفاعليون الرمزيون أن الناس كائنات معرفية خالصة، بحيث إننا يمكن أن نفهم أولئك الناس لو فهمنا ما يعتقدون أنهم يعرفونه عن العالم، وما لديهم من معان، وتصورات عن الذات. ولكن هؤلاء الناس لديهم كذلك عواطف وأحاسيس، كما أنه معروف أن هناك بعض العمليات اللاشعورية التى تعتمل فى صدورهم... ولاشك أن أى نظرية عن الإنسان (الشخص) لابد وأن تتناول مستويات مختلفة من الشخصية، ومن العلاقات بين الأشخاص... حقيقة أننا نأتى أفعالاً، ولكننا مع ذلك أكثر من مجرد فاعلين... فطريقة الناس فى تشكيل وتطوير رؤيتهم للعالم يمكن القول بأنها تخضع لقواعد معينة محددة، وأن هناك عمليات

عامة لتأسيس المعنى لم تنتبه إليها التفاعلية فى بحوثها... بل إننا قد نتصور أن تطوير المعانى والرموز نفسها يتم وفق قواعد أو بنية منظمة، حتى ولو كانت تتضمن مع ذلك نوعا آخر من واقع العالم الاجتماعى".

وهكذا يرى كريب أن قيمة التفاعلية الرمزية تتمثل فى كونها نظرية لفهم الأشخاص، ولكنها مع ذلك نظرية غير مكتملة. فهى لا تحاول أن تكون نظرية لفهم المجتمع، مع أنها كثيرًا ما انتقدت لأنها ليست كذلك. ويخلص تحليل كريب إلى أنه إذا أرادت التفاعلية الرمزية أن تسهم بشكل أفضل فى فهم المجتمع، فإنه يتعين عليها أن تبذل جهدًا فى دراسة العلاقة بين عمليات تكوين الفرد من ناحية والبناء المنظم للقواعد والرموز الموجود خارج الفرد من ناحية أخرى. فذلك هو الطريق الذى يمكن أن يقودها إلى فهم واقع العالم الاجتماعى.

تحليل - تقييم	تمرين ٢-١٤
استخدم الأفكار التى أوردها كريب فى العرض السابق، وكذلك المعلومات المتضمنة فى هذه الفقرة، وحدد اثنتين من نقاط قوة التفاعلية الرمزية، واثنين من أوجه القصور فيها. سجل هذا الرأى فى جدول موجز على عامودين.	

الفلسفة الظاهراتية (الفينومينولوجيا)

يتصور الفينومينولوجيون العالم الاجتماعى بأنه يقوم بالأساس على المعنى وعلى تفسيرات الفاعلين الاجتماعيين. ويرجع الفضل إلى هوسرل فى القول بأن العالم يتأسس ويُفهم فى ضوء "خبرات الحواس" أو الخبرات الحسية التى نضفيها عليه. بعبارة أخرى: إن ما نحصل عليه من خبرات سابقة فى تعاملنا مع هذا العالم

نقوم بتطبيقها فى كافة الخبرات المماثلة اللاحقة لكى نفيمها وتكــون ذات مغــزى بالنسبة لنا. وأهم دراسة فينومينولوجية بالنسبة لعلم الاجتماع هى تلك التى قــدمها شوتز (انظر شوتز ولوكمان، ١٩٧٣)، حيــث طبــق الفلــسفة الظاهراتيــة (أى الفينومينولوجيا) فى دراسة العالم الاجتماعى. وينبع عمل شوتز – شأنه شأن "ميــد" – من الاهتمام بالعالم الاجتماعى، ولكن على حين ركز "ميد" على المعنــى، جــاء تركيز شوتز على مفهوم محورى هو "تآلف الذوات" أو إجماع الذوات. وقد استخدم شوتز هذا المصطلح للإشارة إلى شبكة المؤثرات وعمليات الفهم التى تميز العــالم الاجتماعى وتميز الخبرات الفردية أيضا. وكــان يــرى أن تحليــل هــذا العــالم الاجتماعى القائم على تآلف الذوات هو مفتاح فهم المجتمع.

كذلك طور شوتز عددا من المفاهيم. فهو الذى صــاغ مــصطلح "عمليــات التنميط" ليشرح به طريقة تصنيف أو تنظيم السلوك الفردى. فعمليات التنميط عبارة عن تصورات لم تتبلور بعد فى بنية محددة (أى هى مخططات عامــة أو أنمــاط للأفكار)، وهى تستخدم للتواصل مع العالم أو محاولة فهمه. وقــد رأى شــوتز أن اللغة هى الأداة الأكثر مرونة وثراء لتنفيذ عملية التنميط هــذه، ويــصفها بأنهــا: "وسيلة التنميط الحقيقية" (انظر شوتز ولوكمان ١٩٧٣). وتتم عمليات التنميط فــى كافة مناحى الحياة الاجتماعية، كما تستمد عادة من المجتمع وهــو الــذى يقرهــا. ويطور الناس عمليات التنميط ويستخدمونها فى الحياة اليومية ليستعينوا بها علــى فهم خبراتهم. من ذلك مثلاً أنه عندما يلتقى البعض بآخرين للمرة الأولــى يبــدأون بأن يقارنوهم بأناس آخرين سبق أن قابلوهم، ويتخذون من هذه المقارنــة موجهًــا ومرشدا لتصرفاتهم معهم. كذلك قد يعمد الناس إلى استخدام عمليات التنمــيط فــى فهم سلوك فرد معين، وإن كان بعد فوات الأوان عادة، كأن يقال مثلاً: "هــذه هــى عادته دائمًا". كما يمكن أن تستخدم عمليات التنميط لتصنيف الأفراد المتشابهين فى فئات أو تصورات معينة تجمع كل فريق على حدة.

وكما تشير عمليات التنميط إلى الناس، كذلك صاغ شوتز مصطلح "الوصفات" للإشارة إلى المواقف المعيشية. تلك هى القواعد التى لا يلحظها أحد، والتى تحدد استجابتنا للمواقف الاجتماعية الروتينية. وهى نفسها القواعد التى تمنعنا من الوقوع فى الزلات (أو الأخطاء) الاجتماعية. فعندما يسألك أحدهم – مثلاً – عن أحوالك، فإن استجابتك له تتحدد فى ضوء هوية من الذى يطرح السؤال. فإذا كان السائل صديقًا أو زميلاً لك، فإنك قد ترد عليه قائلاً: "بخير، شكرًا، ولكن ما هى أحوالك أنت؟"، أما إذا كان السائل طبيبك – مثلاً – وكان يوجه إليك السؤال أثناء توقيعه الكشف الطبى عليك، فإنك سوف تجيب عليه بكل تفاصيل حالتك، وقد لا يتضمن ردك هذا سؤال الطبيب عن صحته. إنها تلك العادات والتقاليد الاجتماعية (أى الوصفات) التى تشكل طريقة استجابتنا فى مختلف المواقف الاجتماعية.

وعلى الرغم من تصوير عمليات التنميط والوصفات (أو آداب السلوك) كآليات لرسم علاقات الأفراد واستجاباتهم تجاه المواقف الاجتماعية، فإنها تتصف كذلك بالمرونة وعدم الجمود. فالفرد هو الذى يترجم العلاقات والمواقف (أى يستوعبها) ويعدل عمليات التنميط وفقًا لذلك. وهذه القدرة – أو "الذكاء العملى أو الاجتماعى" – التى عرفها شوتز تشبه تحليل "ميد" (١٩٣٤) فى ثنايا مناقشته لتفرد الكائن البشرى.

وقد أثرى هوسرل الفلسفة الظاهراتية بعمل آخر (١٩٣١)، استهدف فيه إرساء معالم توجه فلسفى متحرر من كل التصورات المسبقة لكى يتسنى اكتشاف الجوهر الحقيقى "لعالم حياة" الفرد (انظر سلاترى، ١٩٩١). فمصطلح "عالم الحياة" هو المصطلح الذى استخدمه هوسرل للدلالة على العالم الاجتماعى من وجهة نظر تآلف الذوات. وقد حدد عددًا من السمات الأساسية التى رأى أنها تميز "عالم الحياة" هذا، من بينها: توتر الوعى، الفعل المادى الهادف (أو العمدى)، والكف عن الإنكار، والتواصل بين الذوات، ومنظور زمنى محدد.

الموضوع (G)

عالم الحياة

ماذا يقصد شوتز بمصطلح "عالم الحياة"؟ إنه يعده شكلاً خاصا من أشكال الوعى ينتبه فيه الفاعل الاجتماعى إلى كل الإمكانيات المتاحة فى العالم الواقعى من حوله، وخاصة فى عالم العمل. فعالم العمل هو أخص وأهم مواضع عالم الحياة، إذ إن الفاعل الاجتماعى يستطيع أن يحقق فيه أهدافه ويبلغ ما يصبو إليه من نتائج. فالعمل هو الذى يتيح لأجسادنا أن تتصرف وفقًا لمتطلبات الأشياء المادية من حولنا، وأن نضطلع بتنفيذ الأنشطة الروتينية التى خبرناها وعرفناها مرات ومرات، وأخيرًا أن نشكل تلك الأشياء ذاتها على نحو مخطط وواع لكى نحقق الآثار المفيدة لنا.

ففى بيئة العمل - إذن - نشعر بأنفسنا كبشر مكتملى الوجود، وأن ندخل فى عمليات تواصل وتفاعل مع بعضنا البعض لكى نخلق عالم الحياة الخاص بنا. إلا أننا نلاحظ أنه حتى عندما نتصرف فى عالم الحياة على أساس تآلف الذوات، فإننا نتيقن أننا نسكن عالم حياة خاصا بنا فى جوهره، على الرغم من أننا قد نشترك فى كثير من السمات مع آخرين غيرنا ممن يعايشوننا فى مكان عملنا. فالمؤكد أن فى عالم الحياة الخاص بنا يوجد كثيرون غيرنا، كما أننا - بدورنا - نسكن فى كثير من عوالم حياة أفراد آخرين كثيرين.

تمرين ٢-١٥	
سوف يمكنك هذا التمرين من التعرف على تحليل شوتز بشكل أكثر تفصيلاً. اقرأ الموضوع (G) ثم أجب عن الأسئلة التالية:	
تفسير تطبيق	١- في ضوء الموضوع (G): ما المقصود "بانتباه الفرد لكل الإمكانيات المتاحة"؟
تفسير تطبيق	٢- في رأيك ماذا يقصد شوتز بعبارة: "نشعر بأنفسنا كبشر مكتملي الوجود"؟
تفسير تطبيق	٣- لماذا يا ترى يقع العمل في مكان القلب من عالم الحياة؟
تحليل تقييم	٤- إلى أي حد توافق على الرأي القائل بأننا نشعر "في بيئة العمل" بأنفسنا كبشر مكتملي الوجود؟ (ملاحظة: إلى أي مدى يهيمن دورنا كعاملين على باقي جوانب ذاتنا في مكان العمل؟)
تحليل تقييم	٥- في ضوء ما جاء في الموضوع (G) وضح كيف يتسنى للآخرين أن يكونوا جزءًا منتميًا إلى عالم حياتنا، ويتسنى لنا – في نفس الوقت – أن نكون جزءًا من عالم حياة الآخرين.

كذلك كرس هوسرل اهتمامه لطبيعة المعرفة وبناء الواقع الاجتماعي. وقد اعتبر المفهومين مترابطان لأن المعرفة في نظر هوسرل هي التي تضفي على المجتمع تماسكه، وهي التي تؤطر بنية الواقع الاجتماعي. ويحدد هوسرل نوعين من المعرفة هما:

- المعرفة المشتركة: أى المعتقدات الشائعة عن الحقيقة.

- والمعرفة الخاصة: وهى المعرفة المستندة إلى خبرات شخصية، ولكنها فى الحقيقة متأثرة بالمجتمع.

ومن الأمور المحورية فى تحليله للعلاقات بين الأفراد يبرز مفهوما علاقات "النحن" وعلاقات "الآخرين"، حيث ترتبط الأولى بالألفة والصداقة، وترتبط الثانية بأشكال الارتباط غير الشخصية (أى المؤسسية أو الرسمية). واعتبر أن مدى انتشار كل نوع من هذه العلاقات هو العامل الحاسم فى تحديد طبيعة الواقع الاجتماعى.

بعد ذلك قام كل من بيرجر ولوكمان (١٩٦٧) بتطويز موضوع الواقع الاجتماعى، حيث طبقوا هذا التوجه فى فهم بعض البنى والنظم الاجتماعية. وكان جوهر الرأى الذى أبدوه أنه لا يوجد واقع اجتماعى موضوعى. وإنما الصحيح – فى رأيهما – أن المجتمع وكل مكوناته إنما تتشكل وتتبلور بفعل أدوات وقوى اجتماعية، أى أنها من صنع أفراد ذلك المجتمع. ومن هنا اعتبر كل من بيرجر ولوكمان أن البناء الاجتماعى إنما هو مجرد مجموعة من عمليات التنميط.

ثم تابع بيرجر ولوكمان تحليلهما بتأمل كيف يبدو لنا أن البنى الاجتماعية تتسم بواقع موضوعى أو توصف بأنها ذات وجود موضوعى. وقد أبرزا هنا عمليتين متميزتين تلعبان دورًا مهمًا فى هذا الصدد هما: التشييئ(*)، وإضفاء

(*) التشييء (اعتبار المجرد شيئاً مادياً) Reification: هو خطأ النظر إلى شيء مجرد على أنه شيء مادى، ونسبة قوى سببية إليه، فهو بعبارة أخرى خطأ التشييئ فى غير موضعه. ومن أمثلة ذلك التعامل مع نموذج أو نمط مثالى كما لو كان وصفاً لفرد أو مجتمع واقعى. ويرتبط التشييئ، فى رأى النظرية الماركسية، باغتراب الناس عن العمل ومعاملتهم باعتبارهم موضوعات للاستغلال بدلاً من معاملتهم كبشر. وقد شاع استخدام هذا المصطلح على يد جورج لوكاتش، ولكن المصطلح اتخذ معان مختلفة فى المدارس الفكرية المختلفة فى علم الاجتماع. راجع المزيد فى موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٣٥٠. (المترجم)

الشرعية. وعملية التشيئ هى التى يتم بمقتضاها إضفـاء صفة الوجـود المستقل على بعض الظواهر الاجتماعية (التى هى نتاج أفعال وتفاعلات فردية)، ومعنى ذلك أن تحظى بمكانة مستقلة خاصة بها (وهو عنصر رأينا فيما سبق أنه كان أحد عناصر الفكر الماركسى). أمـا إضفاء الشرعية فهى العملية التى بواسطتها يتم تفسير وتبرير الأبنية النظامية للمجتمع[**].

الموضوع (H)
التحديث والذعر الأخلاقى والغجر
تشهد أوروبا فى أعقاب موجات الذعر الأخلاقى التى تنتابها هجرة واسعة لجماعات الغجر إلى كبريات المدن المعروفة. ويعـانى الأوروبيـون – بطـرق مختلفة – من الكساد العالمى، ولم يجدوا أمامهم سوى هذه الأقليات البالغة الضعف لكى يجعلوا منها سببًا لكل "آفات العصر" التى يعانونهـا. ولا تبـذل الحكومـات القومية – فى أوروبا – جهدًا يذكر لدرء الاتهام عن مواطنيهم من الغجـر، كمـا يقومون بطرد غير المواطنين منهم إلى خارج الحدود. وتدعى كل الحكومات التى تفعل ذلك أن هذا الأمر مشكلة داخلية لا يستطيع الأغراب تفهمها.
والحقيقة أن هذا الأمر قد تكرر على امتداد خمسة قـرون منـذ ظهـرت الدولة القومية لأول مرة. إلا أن هذا الوضع قد شهد تحولاً ما خـلال الـ ٣٥

(**) إضفاء الشرعية Legitimacy, Legitimation: يشير مصطلح إضفاء الشرعية لا إلى عملية تأسيس القوة فحسب، وإنما إلى أمر أكثر أهمية وهو منحها أساساً معنوياً (أخلاقياً). والشرعية (أو السلطة الشرعية) هى ما يتم إسباغه على مثل هذا التوزيع المستقر للقوة عندما يعد صحيحاً. وتمثل مؤلفات ماكس فيبر أهمية محورية لفهم الجوانب المعقدة للعلاقة بين القـوة والشرعية. راجع المزيد فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٨٥٤ وما بعدها. (المترجم)

عامًا الأخيرة. فقد تكتلت منظمات الغجر وتصدت مجتمعة لمقاومة مثل هذه الأساليب، كما أخذت بعض المنظمات الدولية – كالاتحاد الأوروبى – تقف إلى جانب الغجر ضد حكوماتهم القومية...

وفى العاشر من شهر يوليو عام ١٩٩٢ تبنى "مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى" (CSCE)(*) أقوى إدانة – صدرت حتى حينه – للتعصب والعنف العرقى، والإثنى، والدينى. وقد دعمت بعض الحكومات الأوروبية – ومن بينها المملكة المتحدة – هذا القرار (انظر CSCE، ١٩٩٢) الذى ينص على:

" الحاجة إلى وضع برامج مناسبة لمواجهة المشكلات التى تعانى منها جماعات الغجر وغيرها من الجماعات التى تشتهر عادة بأنها رحالة، وذلك من أجل خلق الظروف التى تتيح لهم الحصول على فرص متكافئة فى بلادهم للمشاركة بشكل كامل فى المجتمع، ومتابعة مدى التعاون فى تحقيق هذا الهدف".

ثم حدث فى لندن فى الثامن عشر من شهر أغسطس لعام ١٩٩٢ – أى بعد ٣٩ يومًا بالضبط – أن وقع جون ميجور (رئيس الوزراء البريطانى آنذاك) وثيقة هيلسنكى. ويومها نشرت الحكومة البريطانية ورقة بمقترح يدعو إلى قطع كل المرافق العامة عن المواقع التى يعسكر فيها الغجر، وتشجيع كل "الرحالة" (المقصود الغجر – المترجم) على الاستقرار فى مساكن دائمة، وإيقاع عقوبات قاسية على كل من يقيم فى الطرقات أو الأماكن العامة.

(*) Conference on Security and Cooperation in Europe (CSCE).

تمرين ٢-١٦	
سوف يحفزك هذا التمرين على التعرف الوثيق على أفكار الظاهراتية (الفينومينولوجيا) بشكل مفصل. إذ يركز على ظاهرة اجتماعية معينة (هي الغجر) التي ينسب إليها وجود واقعي موضوعي - أي اعتبارها "مشكلة اجتماعية" - من خلال عملية الذعر الأخلاقي[**]. ويدلنا الموضوع (H) على أن تلك قد باتت هي الهوية الأساسية والحاسمة لجماعات الغجر في نظر المجتمع المحلي الذي يعيشون فيه، غاضين الطرف عن أي إحساس أو تقدير لتاريخهم الخاص وثقافتهم الخاصة. اقرأ الموضوع، ثم أجب عن الأسئلة التالية:	
معرفة فهم	١- ما هو في رأيك المقصود بمصطلح "الذعر الأخلاقي"؟ (ملاحظة: إذا لم تكن تعرف ذلك جيدًا فارجع إلى مقال كوهن المنشور في كتاب لوسون وهيتون، ٢٠٠٩).
تفسير	٢- ما هي في رأيك "آفات العصر" التي يشير إليها الموضوع؟
تطبيق	٣- في ضوء الموضوع المعروض ما هو - في نظرك - أثر قرار "مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي" على أوضاع الغجر؟

(**) الذعر الأخلاقي Moral Panic: عملية استثارة الاهتمام الاجتماعي بقضية ما، تكون عادة ثمرة لعمل أو نشاط المنظمين الأخلاقيين ووسائل الإعلام. وقد استخدم المفهوم - بأقوى صوره المعروفة - ستانلي كوهن في كتابه: الشياطين الشعبية والذعر الأخلاقي، المنشور عام ١٩٧١، للإشارة إلى القلق الذي أثارته أنماط التزين والخلاعة بين الشباب في إنجلترا في منتصف الستينيات، وإن كان المصطلح قد بدأ يُستخدم من ذلك الحين في تحليل ردود الأفعال المجتمعية تجاه العديد من المشكلات المجتمعية الأخرى، بما في ذلك المشاغبات في مباريات كرة القدم، وأعمال البلطجة وإساءة معاملة الأطفال، ومرض الإيدز، والعديد من أنشطة الثقافة الفرعية للمراهقين. راجع المزيد في موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٧٥٧. (المترجم)

٤- ما هي في تصورك "المشكلات" التي تعتقد أن الغجر يعانون منهـا في الوقت الراهن، وتحول دون مشاركتهم مشاركة فعالـة فـي حيـاة مجتمعهم؟	تفسير تطبيق تحليل
٥- في ضوء قراءتك للموضوع السابق ترى ما السبب الـذى جعـل جون ميجور يخالف وثيقة هيلسنكي؟	تفسير تطبيق
٦- ما هي في رأيك دوافع هذا التصرف؟ (ملاحظة: في الوقت الـذى كانت فيه وسائل الإعلام تقدم صورة شديدة السلبية عن رُحَّل العـصر الحديث (أي الغجر)).	تحليل تقييم
٧- إلى أي مدى تتفق مع الرأى القائل بأن الغجـر أضـعف مـن أن يقاوموا جعلهم كبش فداء ومحل اضـطهاد المجتمعـات الأوروبيـة؟ (ملاحظة: ما العوامل التي تضعف وضعهم الاجتماعي؟ مـا الآليـات المتاحة التي يمكن أن تدعم حقوقهم، وما مدى نجاحها في ظل الظروف الاجتماعية السائدة، مثل: الانكماش الاقتصادى العـالمي، الاتجاهـات الاجتماعية - كالتعـصب والتمييـز ضـدهم - وبعـض العمليـات الاجتماعية، مثل: تصنيف الناس في أنماط ثابتة، والتهميش؟).	تحليل تقييم

تقييم الظاهراتية (الفينومينولوجيا)

نقاط القوة

١- تحاول الظاهراتية دعم التفاعلية الرمزية بطريقة مبتكرة، بمعنى الابتعاد عـن قضية الوعي والاتجاه نحو الاهتمـام بتحليـل البنـى الاجتمـاعي الـصغرى (المايكرو) التي تؤثر على السلوك البشرى.

٢- تعتمد الظاهراتية على عدد من المفاهيم المستمدة من مجموعة من التوجهات النظرية، من بينها توجه فيبر (الفعل الاجتماعى)، والماركسية (التشيىء، وعمليات إضفاء الشرعية)، والتفاعلية الرمزية (الانعكاسية، أو التأمل النقدى للذات/ والتكيف). وتحاول الظاهراتية التأليف بين هذه التوجهات فى توجه انتقائى واحد فى دراسة الحياة الاجتماعية.

٣- يسعى الفينومينولوجيون إلى إجراء الدراسات وعمل التحليلات على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغرى (المايكرو) والوحدات الاجتماعية الكبرى (الماكرو)، وإجراء تحليلات بنائية من منظور الفاعل الفردى.

أوجه القصور

١- يرى النقاد أن إنجاز الظاهراتية ليس أكثر من نوع من التشخيص الذاتى للعالم الاجتماعى. هذا فى الوقت الذى تفتقر فيه النظرية وتفسيراتها المختلفة إلى الصدق الإمبيريقى. فهى فى نظرهم أقرب إلى مجموعة من المفاهيم المجردة، منها إلى النظرية المتكاملة المتماسكة.

٢- أدى إنكار وجود واقع اجتماعي أو حقيقة اجتماعية إلى إثارة خلاف شديد. ويرون أن بيرجر ولوكمان (١٩٦٧) قد افتقدا المصداقية بسبب إخفاقهما فى تفسير وجود الأبنية فى كل مجال بشكل شامل. وقد أدى ذلك إلى إضعاف أهمية إسهامهما، كما أدى – عمومًا – إلى إضعاف مصداقية الفلسفة الظاهراتية كتوجه نظرى.

الإثنوميثودولوجيا

يهتم الإثنوميثودولوجيون بالطرق التى يستخدمها الناس فى حياتهم اليوميـــة. فهم يركزون على ممارسة الفعل، وليس على التفكير، بمعنـــى أنهـــم اختـــاروا أن يدرسوا الفعل الإنسانى وليس تفسير المعنى. ولكنهم يدركون تمام الإدراك أن الفعل فى جوهره فعل اجتماعى، لأنه يتأثر بالعالم الاجتماعى. وهم لا يذهبون فى ذلــك إلى حد تبنى الآراء البنائية للوظيفيين البنائيين، ولكـــنهم يؤمنـــون - أكثـــر مـــن التفاعليين الرمزيين - بتأثير المعايير والأعراف الاجتماعية على السلوك.

ويرى أصحاب الإثنوميثودولوجيا أن الفعل الاجتماعى يمثل - إلى حد كبير - استجابة لأشكال الروتين المقنن (المحدد بنائيًا) السائدة فى كل مجـــالات الحيـــاة الاجتماعية. وهكذا يرفضون فكرة التفاعليين التى ترى أن السلوك أفعال انعكاســـية (خاضعة للتأمل النقدى)، واعية و/ أو محسوبة. ويحرص الإثنوميثودولوجيـــون - بدلاً من دراسة المعنى وراء الفعل - على دراسة القواعد "الـــسارية ولكـــن غيـــر الملحوظة" التى تحكم السلوك الإنسانى. فهذه القواعد - فى رأيهـــم - هـــى التـــى تضفى سمة التنظيم على الحياة اليومية.

ويعد جارفينكل أبرز علماء الإثنوميثودولوجيا، إذ كانت أعماله مصدر إلهام لعلماء آخرين ممن قاموا بتطوير النظرية وإثرائها وإكسابها تنوعـــا. وقـــد ســـعت أغلب دراسات المدرسة الإثنوميثودولوجية إلى رفض أو فضح زيف كثيـــر مـــن الممارسات والإجراءات المسلم بها فى العالم الاجتماعى، معتبرين هذا التحـــدى أو الرفض وسيلة للوصول إلى فهم أكبر وأعمق، وسبيلاً للعمل على تنمية المعرفـــة. ولأن موضوع الإثنوميثودولوجيا هو الحياة اليومية، فإنـــه بوســـع أى إنـــسان أن يمارس البحث الإثنوميثودولوجى.

ولكي ندلل على بساطة بعض جوانب الإثنوميثودولوجيا ووضوحها، سوف نستعرض فيما يلي بإيجاز نماذج من تلك البحوث. يمكن القول بأن أي شيء – تقريبًا – يصلحَ أن يكون موضوعًا للدراسة، طالما أنه يتضمن وجود قواعد غير ملحوظة يتأسس عليها السلوك الإنساني. ولذلك يصبح من مجالات البحث الثرية: الانتظام في طوابير أمام شباك تذاكر السينما، والتردد على ماكينة الصرف النقدى (ATM)، وطلب مشروب في إحدى الحانات، بل والتردد على المراحيض العامة. ومع أن أيًا من تلك الموضوعات لم يلفت بعد انتباه الباحثين الإثنوميثودولوجيين، فإن ذلك لا يعني أن ذلك لن يحدث في المستقبل. إذ تدلنا نماذج البحوث التي سنشير إليها فيما بعد على أن الموضوعات التي اختار أولئك الباحثون الإثنوميثودولوجيون دراستها هي موضوعات عادية مألوفة تمامًا.

وأشهر تلك الدراسات التجارب الرائدة التي خرقت مألوف البحوث الاجتماعية، والتي أجراها جارفينكل في ستينيات القرن العشرين. وكان غرضه الأساس من إجراء تلك الدراسات هو اختراق (أو تحدى) نماذج السلوك المتوقع عادة في موقف اجتماعي معين. وأشهر نماذج هذا النوع من البحوث يسجله ما حدث عندما طلب جارفينكل (١٩٦٧) من طلابه أن يعودوا إلى بيوتهم، ويقضوا فترة تتراوح بين ربع الساعة والساعة يزعمون فيها لأهليم أنهم ضيوف (أغراب وليسوا أبناءهم). وقد استهدفت تلك التجربة استكشاف تأثير سلوك الفرد على الآخرين عندما تنقلب الفروض والمعايير السلوكية الشائعة (هي هنا إدعاء ابن الأسرة أنه ضيف – غريب – وليس الابن). وقد أوضح جارفينكل أن انتهاك الأعراف المألوفة يمكن أن يسبب للشخص كربًا عظيمًا وإزعاجًا شديدًا، الأمر الذى يدفع الأفراد إلى مواجهته بالتماس تفسيرات عقلانية رشيدة لهذا التغير (غير المألوف) في السلوك. ومن نماذج ردود فعل الأسر في "دراسة الضيوف" افتراض الوالدين أن ابنهم مريض، أو أنه يعاني من مشكلة معينة، أو أنه فقد صوابه فعلاً. ومن المثير للسخرية فعلاً أن كل ردود الفعل هذه كانت بمثابة استجابة مريحة للآباء من تقبل فكرة انتهاك العرف المألوف.

وليس مما يثير الدهشة أن عالم الأعمال كان الأسرع فى الإقدام على تمويل البحوث التى تسعى إلى الكشف عن التفاصيل والفروق الدقيقة التى تحدث فى مواقف مقابلات راغبى العمل، أو جلسات التفاوض بين مديرى المشروعات الاقتصادية، وإلقاء الضوء عليها ودراستها. بل إن إمكانيات هذا النوع من البحوث قد حظيت بتقدير الجمهور العام، مثلما حظيت باهتمام مؤسسات الأعمال. من ذلك ما حدث عام ١٩٩٦ عندما طلبت الإدارة التعليمية التابعة لمجلس مدينة برمنجهام إجراء بحث (Bozic, 1997) لدراسة الحوارات التى تتم بين منسقى الاحتياجات الخاصة فى المدارس والمتخصصين فى علم النفس التربوى. وكان الأمل من وراء إجراء تلك الدراسة أن تؤدى إلى خلق علاقات عمل أكثر ثراءً وفاعلية. واعتبر أن البحث قد نجح بالفعل فى إلقاء الضوء على بعض المجالات التى يمكن تحسين ممارسة العمل فيها.

الموضوع (I)
عمليات الأداء الجاد والساخر
ربما يدهشك أن تعلم أن بعض المدرسين والأساتذة الجامعيين قد يشعرون بتوتر شديد عندما يقومون "بأداء دورهم" أمام مجموعة من الطلاب أو المستمعين. وقد صرح "كين بلامر" فعلاً أنه فى بداية عمله كأستاذ جامعى شاب كان يتوتر توترًا شديدًا خوفًا من أن يتلعثم، لأنه لم يكن قد تلقى أى تدريب على إلقاء المحاضرات. وسبق أن أوضح جوفمان (١٩٦٩) أننا عندما نشاهد شخصًا ما يؤدى دورًا معينًا، فإننا نميل إلى تصديق ظاهر هذا "الأداء" (أو "الدور الذى يؤدى")، ومن ثم نعتقد أن هذا الذى نراه هو الذات الحقيقية لذلك الشخص. ويمكن القول بوجه عام أن الطلاب يرون أن أساتذتهم "حكماء فعلاً وعلى علم

واسع"، ولذلك يفضلون أن يحافظوا على ذلك الفرق بينهم وبين أساتذتهم فى المكانة، حسبما تؤكد نتائج البحث الذى أجراه جوفمان. إذ من شأن ذلك أن ييسر على كل من الطلاب وأساتذتهم القدرة على التنبوء وعلى توقع مسار هذا الأداء، من هنا فإن قدرًا من الرسمية – حتى وإن تم فى إطار ودى – سوف يؤدى على المدى الطويل إلى ضمان أن يعمل الموقف لصالح الأطراف المشاركين فيه.

غير أن جوفمان يرى أيضًا أن الأشخاص الذين يؤدون دورًا معينًا – كالأساتذة والمعلمين – يمكن أن يشعروا بنوع من التضارب بين الدور الذى يؤدونه وبين حقيقة ذواتهم فى الواقع. ولهذا السبب يبذلون كل الجهد لخلق الانطباعات لدى الآخرين ولكى ينجحوا فى تقديم أنفسهم لهم. معنى هذا أنهم قد يتبنون توجهًا "ساخرًا" من أدائهم هذا نفسه، معتبرين أنه شكل من أشكال "تمثيل دور معين". أما "رهبة المسرح" فقد تنتاب المحاضر أزمة ثقة (فى نفسه)، أو مخاوف من ألا يرقى أداؤه إلى مستوى الوفاء بتوقعات طلابه؛ إنه خوف يشبه ذلك الذى ينتاب من يخلع قناعه.

(المصدر: نقلاً بتصرف عن مقال سوزى سكوت، "التفاعلية الرمزية داخل الفصل"، المنشور فى "مجلة علم الاجتماع"، المجلد ١٦ عدد (٤)، ٢٠٠٧).

تفسير – تطبيق – تحليل – تقييم	تمرين ٢-١٧

١- حاول القيام ببحث إثنوميثودولوجي تختاره أنت (انظر ملحق تمـرين ٢-١ فيما بعد) في أول درس لك أو في أول محاضرة. حاول أن تكتـشف بـشكل منهجي منظم القواعد التي تحكم الموقف. اهتم بملاحظة العلامات التي يمكن أن تدل على تبني مدرسك/ أو أستاذك توجهًا "جادًا" أو "ساخرًا". هـل يـدل مثلاً الزي الذي يرتدونه على محاولتهم الظهور بمظهر المحاضر المحتـرف ذي الخبرة، أي محاولة أداء دورهم بالشكل الملائم؟ هل حـدث نـوع مـن الارتجال عندما تراخى تحكم المحاضر في عملية الأداء؟ هل لاحظت أن لغة التفاعل مع الطلاب كانت لغة من "نوع" معين؟ هل هناك أي دليل على معاناة المحاضر من "رهبة المسرح"؟

٢- كوّن مجموعات صغيرة، ثم قم باختيار أحد الموضوعات الواردة في القائمة التالية، ثم سجل بالتفصيل القواعد التي تحكم السلوك في هذا الموقف. قـارن بأفكارك الخاصة:

(أ) بدء العمل في وظيفة جديدة.

(ب) تجربة الملابس الجديدة في "غرفة القياس" بأحد المحال.

(ج) حفلة رأس السنة الميلادية.

(ء) الاحتفال العائلي بأول دورة شهرية للبنت.

(هـ) تلقي هدية غير مرغوبة.

(و) شراء شيء محرج من الصيدلية.

(ز) شخص "تظن" أنت أنك تعرفه ينادي عليك بصوت عال وسط مكـان مزدحم بالناس.

ملحق تمرين ٢-١	تفسير – تطبيق تحليل – تقييم

حاول أن تجرى بحثك الإثنوميثودولوجى وفقًا للخطوات الموضحة أدناه. وربما يجدر بك – قبل أن تبدأ بحثك – أن تطالع المكتوب عن الدراسات الإثنوجرافية الوارد فى الفصل الثامن من هذا الكتاب.

١- اختر أحد عناصر السلوك الإنسانى أو إحدى الظواهر الاجتماعية التى تعتقد أنها محكومة ببعض القواعد الدقيقة غير الظاهرة.

٢- سجل بدقة أى قواعد "قائمة ولكنها غير ملحوظة" يمكن أن تتصورها متصلة بموضوع بحثك.

٣- قم بملاحظة الموضوع الذى اخترته ملاحظة منظمة. وسجل القواعد الدقيقة غير الملحوظة التى تشكل السلوك/ الفعل. وإذا أتيح لك وقت كاف فلعلك تقوم بأكثر من ملاحظة لنفس الظاهرة، لكى تتوصل إلى مزيد من الوضوح لأفكارك أو لتفسيراتك.

٤- قم بتحليل البيانات التى جمعتها، ودون القواعد التى تبينت أهميتها لموضوعك.

٥- قارن القواعد التى استخلصتها بما كان لديك من أفكار أولية فى بادئ الأمر (والمسجلة فى الخطوة رقم ٢). ما مدى دقة الأفكار التى كانت لديك فى بادئ الأمر؟ وهل كشف بحثك شيئًا غير متوقع أو غير عادى؟ ما هذا الشيء؟ وما أسباب ذلك؟

كما قدم أصحاب الإثنوميثودولوجيا نقدا لعلم الاجتماعى البنائى. إذ رأوا أن أى نظرية اجتماعية تتجاوز مستوى الفرد ستكون قاصرة فى جوهرها. ذلك لأن مثل هذا التوجه النظرى الاجتماعى يعنى أن علماء الاجتماع يفرضون إحساسهم الخاص بالواقع الاجتماعى على العالم الذى يتصدون لدراسته. ولهذا السبب يرفضون أيضا الدراسة العلمية للمجتمع، على أساس أنه من المستحيل أن نتناول بالدراسة الموضوعية مجموعة من الظواهر هى ذاتية فى جوهرها.

تقييم الإثنوميثودولوجيا

نقاط القوة

١- لا جدال فى أن أفكار أصحاب الإثنوميثودولوجيا وبحوثهم تتسم بالإبداع، والطرافة، وقربها من أفهام الجميع.

٢- يبدو أن بحوث هذا الاتجاه النظرى تتميز بعدد من إمكانات الاستخدام العملى. فبوسع مؤسسات الأعمال وغيرها من المؤسسات أن تستخدم الأساليب الإثنوميثودولوجية لتحسين نوعية العلاقات والممارسات فى مجال العمل.

أوجه القصور

١- يذهب نقاد هذا الاتجاه إلى أن البحوث تمت على مستويات صغيرة محدودة، لا تأخذ فى اعتبارها السياق التاريخى والاجتماعى العام.

٢- كما أخذ النقاد على هذا الاتجاه طبيعته البعيدة عن العلمية بُعدا شديدا، بسبب كونها مجرد تفسيرات ذاتية من جانب بعض علماء الاجتماع الذين يدرسون موقفا اجتماعيا معينا.

تمرين ٢-١٨	تفسير – تطبيق تحليل – تقييم

بعد أن فرغت من قراءة الجزء الخاص بـ"المجتمع يقوم على تأويل المعنى" قم بتصميم جدول تلخص فيه النظريات الأساسية المندرجة تحت هذا التوجه (راجع نموذجًا لذلك فى الأجزاء السابقة من هذا الفصل). استخدم الجدول فى تنظيم وترتيب عرض أفكارك، واكتب ملخصًا للحجج التى وردت فى هذا الجزء (بحيث لا يزيد عن ٢٥٠ كلمة). حاول أن توازن – فى عرضك – بين الفروض الأساسية لكل نظرية، فضلاً عن إيجاز نقاط القوة فيها وأوجه القصور التى تعانى منها.

المجتمع يقوم على الهيمنة الذكورية:

النظرية النسوية

للنظرية النسوية تاريخ طويل سواء من حيث محاولة فهم وضع كل من الرجل والمرأة فى المجتمع على المستوى النظرى، أو على مستوى الممارسة العملية من أجل تحقيق المساواة والعدالة للمرأة فى المجتمع. ولكن جوهر التحليلات النسوية واحد فى جوهره ومؤداه: فكرة أن الرجال يستأثرون بنصيب من القوة، والامتيازات، والحرية، والحقوق فى المجتمع أكبر مما تحوزه النساء، وأنهم يستطيعون بفضل ذلك أن يحققوا الهيمنة على النساء فى مجالات عديدة: كالعمل، وقضاء وقت الفراغ، وداخل البيت، وفى مؤسسات التعليم. وترتبط الاختلافات بين توجهات المدارس النسوية المختلفة بتصور مدى التقسيمات والفروق بين النوعين

(الذكور والإناث) وفى طرق التعامل معها. ولكن النسويين جميعًا يؤمنون أن النساء يجب أن تتمتع بحقوق متكافئة فى المجتمع، وأن أى مجال من مجالات المجتمع يقهر المرأة أو يضطهدها لابد أن يتم تغييره.

ويحاول أصحاب النظرية النسوية فهم المجتمع من منظور نسوى، وأن يستخدموا مثل هذه المعرفة بشكل إيجابى بناء لمحاولة مقاومة القهر الواقع على المرأة والتحيز الذى يمارس ضدها فى الحياة اليومية. وكما لاحظ بيلشر Pilcher (١٩٩٣) فإن كلمة "نسوية" ذات أصل فرنسى يعود إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، حين بدأ استخدام كلمة نسوية Feminisme (فى الفرنسية) كمرادف لتحرير المرأة. وتتمحور النظرية النسوية حول النساء من ثلاث نواح:

- تركز على وضع النساء وخبراتهن فى المجتمع.
- تطبق المنظور النسوى فى دراسة العالم الاجتماعى.
- تنتقد "الوضع الراهن" وتعمل على تحسين وضع النساء.

وعلى الرغم من اشتراك النسويين فى السعى إلى هدف واحد، فيما يتعلق ببحوثهم، فإن النسوية ليست نظرية واحدة موحدة. وعلى الرغم من أن البحوث النسوية قد نجحت فى أن تطور منظورها الخاص، فإن النسويين يختلفون فيما بينهم فى ممارسة بحوثهم وترويج آرائهم. ويرجع هذا إلى أن النسويين لا يتفقون على طرق تفسير وتوضيح خضوع النساء، أو على كيفية إمكان تحرير النساء (أبوت ووالاس، ١٩٩٠). والمؤكد أننا نصادف – بدلاً من هذا – مجالاً عريضًا من التوجهات والنظريات النسوية. ويقدم بيلشر (١٩٩٣) تفسيرًا لهذا "التعدد النظرى"، موضحًا أن تزايد الوعى قد نجم عن الفروق والاختلافات بين النساء أنفسهن. وتعود هذه الاختلافات إلى الفروق الطبقية، والإثنية، والعمرية، والجنسية التى

يمكن أن يفوق أثرها أثر النوع فى حياة الفرد. لهذا السبب لم يعد من الملائم الحديث عن نظرية نسوية واحدة. وقد كان للحركة النسوية فضل ظهور وانتشار دراسات النوع الاجتماعى (الجندر) فى حقل علم الاجتماع، وهي الدراسات التى أضاءت الكثير من مجالات حياة النساء وخبراتهن التى كان علماء الاجتماع التقليديون يتجاهلونها أو يعدونها قليلة الأهمية. وقد ظهر مؤخرًا اتجاه جديد يسعى إلى الاهتمام بدراسات الرجال وشئون الذكور عمومًا، وهى التى رافقت ظهور حركات اللاديزم(*)، والشافز(**)، وشباب "المتروسكشوال"(***) Metrosexuals. (راجع باركر وليل، ٢٠٠٥، وسيمبسون، ٢٠٠٧)، التى سوف نعرض لها لاحقًا فى الفصل الرابع من هذا الكتاب.

فما هى ملامح النظرية النسوية التى تميزها أغلب نظريات علم الاجتماع الأخرى؟

أولاً: نمت النسوية من رحم عدد من العلوم الإنسانية والاجتماعية: الأنثروبولوجيا، والقانون، والدين، وعلم السياسة، وعلم الاقتصاد، والتاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم النفس.

(*) اللاديزم Laddism (من lad أى الفتى اليافع أو الشاب) وهى تعبير مستحدث يدل على اتجاهات وسلوك بعض الشباب فى بريطانيا، الذين يسرفون فى احتساء الكحول، ولديهم اهتمامات أساسية بممارسة الرياضة، والجنس، وسماع الموسيقى. (المترجم)

(**) الشافز Chavs كلمة مستحدثة تعد توصيفاً ازدرائياً تطلقه الصحف – البريطانية أساساً – على فئة من شباب الطبقة العاملة الذين يتسمون بالفظاظة والعدوانية، وانخفاض مستوى التحصيل العلمى، ويحرصون على ارتداء أزياء مميزة: كالأحذية الرياضية، والملابس الرياضية، وقبعات لاعبى البيسبول. (المترجم)

(***) المتروسكشوالز Metrosexuals شباب حضرى عموما مغرم بالإنفاق الكثير على ملابسهم وعلى مظهرهم بصفة عامة. ومع أن الشباب المقصود بهذا الاسم قد لا يكون من المثليين جنسياً، إلا أن مظهره الخارجي وسلوكه يشبه كثيراً تصورات الناس عن فئة المثليين، فكأنما يريدون خلق الانطباع لدى الآخرين بأنهم كذلك. (المترجم)

ثانيًا: لا تسعى النسوية إلى مجرد محاولة فهم العالم، ولكنها تسعى إلى استخدام تلك المعرفة لدعم عملية تحرير المرأة وتحقيق المساواة لها.

ثالثًا: أن أساس النسوية سياسي وليس اجتماعيًا، بمعنى أنها أكثر اهتمامًا بالعمل الاجتماعي والسياسي منها بالتنوير.

رابعًا: تعمل النظرية النسوية على جسر الهوة بين الدراسة الاجتماعية للوحدات الصغرى – من ناحية – والدراسة الاجتماعية للوحدات الكبرى، من ناحية أخرى، وذلك لأنها تسهم بإثراء كلا المجالين فكريًا ومعرفيًا.

ونلاحظ أن النظريات التي سنعرض لها في هذا الجزء من الفصل تركز على قضيتين محوريتين: (١) الأسباب أو الاعتبارات التي أدت إلى قهر النساء و(٢) تحري السبل التي يمكن أن تقود إلى تحريرهن. فنجد أن لكل نظرية رؤاها الخاصة لكيفية إجراء البحوث. وسوف نحاول أن نتأمل تأثير النسوية على المجتمع الكبير وعلى مجتمع البحث العلمي في موضع لاحق من هذا الفصل، ولكن بعد أن نفرغ من تناول الأشكال الرئيسية الخمسة للنسوية المعاصرة، وهي: النسوية الماركسية، والنسوية المتطرفة (الراديكالية)، والنسوية الاشتراكية، والنسوية الليبرالية، وأخيرًا النسوية السوداء.

النسوية الماركسية

يستلهم النسويون الماركسيون كتابات ماركس وإنجلز في محاولتهم تطبيق نموذج ماركس عن البناء الرأسمالي على خبرات وأحوال النساء. وتمثل بعض المفاهيم – مثل الخضوع والاستغلال – أهمية فائقة لدى النسويين، لأنهم يرون أنها بمثابة المفتاح لفهم عدم المساواة بين النوعين (الرجال والنساء) في المجتمع

المعاصر. ومع أن النسويين الماركسيين يستمدون إلهامهم من ماركس، فإنهم مع ذلك يوجهون إليه بعض الانتقادات. ويرجع عدم رضائهم هذا إلى عدم اهتمام ماركس بالنساء كجماعة اجتماعية وعدم الانشغال بدراستهن. فكما لاحظ أبوت ووالاس (١٩٩٠، ص ٢١٤):

"لم يهتم ماركس نفسه بوضع المرأة في المجتمع الرأسمالي. فقد رفض ماركس أفكارًا وموضوعات مثل: الأخلاق، والعدالة، والحقوق المتكافئة بوصفها أفكارًا بورجوازية. كما لم يشغل نفسه بالإصلاح، وإنما ركز اهتمامه على التحليل العلمي لاستغلال الطبقة العاملة في ظل النظام الرأسمالي، وعينه على تدمير هذا النظام الرأسمالي.

وقد يبدو أن المفاهيم التي استخدمها ماركس ذات طبيعة محايدة، ولكن المهم أنها تجاهلت كلية بُعد النوع في النظر إلى الأمور. إذ لم يستطع أن يدرك أن النساء تخضع لشكل خاص من القهر داخل المجتمعات الرأسمالية، ولم يقدم تحليلاً للفروق بين النوعين ولا لإيديولوجيات كل نوع".

وبرغم عدم الرضا هذا عن ماركس، فإن النسويين الماركسيين اتخذوا من آرائه وأعماله أساسًا لنظريتهم، حيث ركزوا على فكرة أن الوضع المقهور للنساء يرجع مباشرة إلى الاقتصاد الرأسمالي. فالرأسمالية تؤدي إلى تراكم الثروة، ومن ثم يحرص الرجال على أن يكون لهم ورثة شرعيون يرثون تلك الثروة التي جمعوها. وعلى امتداد التاريخ كان يطلب من النساء أن ينجبن الورثة (الذكور)، وأن يضمن شرعية أولئك الورثة، ومن ثم يتعين إحكام إغلاق البناء الأسري(*).

(*) بما لا يسمح بعلاقات غير شرعية قد تقيمها نساء الأسرة، ومن ثم تحدث عمليات إنجاب غير شرعي تهدد شرعية الوارث، وبالتالي شرعية انتقال الثروة. الخلاصة هي تقييد الحرية الجنسية للمرأة المتزوجة تقييداً محكماً. (المترجم)

وهكذا تتسم الأسرة التى تتكون فى ظل هذا النظام بوجود نسق أدوار يلعب بعضها دور المسيطر وبعضها دور الخاضع. كما يتسم النسق الأسرى بنظام القرابة فى خط الذكور، حيث ينتقل الانتماء وتنتقل الثروة فى خط الذكور. ويتسم كذلك بنظام سلطة الأب، حيث تتركز السلطة فى يد رب الأسرة. ويميز هذه الأسرة علاقات جنسية بين الزوجين فقط، حيث لا يجوز للمرأة أن تتصل جنسيا إلا بزوجها وحسب. أما الرجال فيتمتعون – فى هذه الحالة – بمساحة أكبر من الحرية (الجنسية) بسبب ازدواج المعايير، وبسبب توفر الفرص لديهم لعمل ذلك: حيث تتمحور حياة النساء حول البيت وشئونه، بينما يتحمل الرجال مسئولية إعالة الأسرة، ومن ثم تتاح لهم فرصة العمل خارج المنزل.

ولقد سبقت الإشارة إلى أن النسويين الماركسيين قد استخدموا أعمال ماركس وإنجلز مرتكزًا للحجة التى تمسكوا بها، وهى أن قهر النساء يرتبط بالنظام الرأسمالى رابطة لا انفصام لها. من ذلك ما تذهب إليه باريت (١٩٨٠) من رفض الرأى القائل بأن قهر النساء يمكن تفسيره بنشأة النظام الرأسمالى وحده. وتقدم بدلاً من ذلك تحليلاً يركز على الإيديولوجيا، كما يركز على البُعد الطبقى. وفى هذا الصدد تستخدم باريت مصطلح "الإيديولوجيا الأسرية" للإشارة إلى عملية إضفاء المجتمع مشروعية على بناء الأسرة، بالادعاء بأنها مؤسسة أساسية ذات وجود عالمى شامل.

وتقول باريت إن الإيديولوجيا الأسرية قد نجحت لأنها كانت متسقة مع طريقة تطور العلاقات الأسرية البورجوازية. وكما يلاحظ أبوت ووالاس (١٩٩٠، ص ٢١٦):

"لم يكن هذا الأمر حتميا، ولكنه ظهر خلال عملية تاريخية طويلة عملت فيها الإيديولوجيا على تأكيد الدور الطبيعى للمرأة كيد عاملة داخل المنزل – حيث

تؤدى دورها كزوجة وأم – وأصبح هذا الوضع جزءًا لا يتجزأ من علاقات الإنتاج الرأسمالى. وتستمد تلك الإيديولوجيا بعض جذورها من التصورات قبل الرأسمالية عن مكانة المرأة... ثم تبنتها بعد ذلك الطبقة العاملة المنظمة فى أوائل القرن التاسع عشر. بعد ذلك استقر نظام الأسرة/ وحدة المعيشة فى منتصف القرن التاسع عشر نتيجة التحالف بين النقابات (الطوائف) الحرفية والرأسماليين، حيث اتفق الطرفان على استبعاد النساء من القوة العاملة وعلى أن يتولى الرجال مسئولية إعالة الأسرة".

وقد كان هذا التطور مهمًا، ليس فقط لأنه حبس المرأة فى حدود العمل المنزلى والتبعية الاقتصادية للرجال، وإنما لأن هذا الوضع قسم الطبقة العاملة إلى شطر يعمل بأجر (هم الرجال) وشطر يعمل بلا أجر (أى النساء). وقد كان من نتائج هذا الوضع أن قلل من الإمكانيات الثورية للطبقة العاملة لأن أفرادها انقسموا إلى جماعتى مصلحة مختلفتين. كما عاد بالنفع على النظام الرأسمالى إذ وفر له أيد عاملة رخيصة ومتاحة طول الوقت. ولم يقتصر دور أولئك النساء على كونهن "الجيش الاحتياطى الصناعى"(*)، وإنما كن يضطلعن كذلك بمهمة إنجاب قوة العمل المستقبلية (إنجاب الأطفال) بتكلفة ضئيلة للرأسمالى. وكان يتم تحميل أجر الأسرة على تكاليف الإنتاج، الأمر الذى أضعف من قدرة العامل على الامتناع عن العمل (الإضراب مثلاً) من أجل الحصول على أجر أعلى وعلى

(*) الجيش الاحتياطى الصناعى Industrial Reserve Army: مصطلح مشتق من كتابات كارل ماركس ليشير إلى ذلك القطاع الأسوأ حالاً من البروليتاريا. ويؤدى هؤلاء العمال وظيفتين: الأولى هى تنظيم الأجور والتحكم فيها من خلال التهديد المستتر بالعمالة المتاحة، والثانية توفير العمالة المطلوبة عند حدوث توسعات مفاجئة فى الإنتاج. وكلمسا قل عدد الجيش الاحتياطى هذا كلما ازدادت الأجور، والعكس بالعكس. وقد أثيرت فى السنوات الأخيرة مناقشات واسعة حول دور النساء كجيش احتياطى صناعى. انظر المزيد حول الموضوع فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص٥٧٣ وما بعدها. (المترجم)

ظروف عمل أفضل. كذلك أدرك النسويون الماركسيون الدور الاقتصادى الذى مازالت تؤديه النساء في توفير رعاية صحية مجانية (جراهام، ١٩٨٤) وتوفير "العمل العاطفى المأجور"(*) (دانكومب ومارسدن، ١٩٩٥) لصالح استمرار النظام الرأسمالي.

ولأن المجتمع يمكن أن يتغير بسرعة فى بعض الأحيان، حرص الباحثون أشد الحرص على دراسة دلالات مثل هذه التغيرات. وقد قدم بحث موريس (١٩٩٣) اختبارًا مفيدًا لمدى قابلية انطباق الأفكار التى بلورناها فيما سبق على أحوال النساء في بريطانيا فى تسعينيات القرن الماضى. وقد أجرت موريس دراستها على أربعين زوجًا يعيشون حياة أسرية بزواج أو بدون زواج فى منطقة هارتل بول، وقد تم اختيارهم من سجلات الانتخابات فى تلك الدائرة. وتوصلت تلك الدراسة إلى أنه رغم التغيرات المهمة فى البنية الاقتصادية على امتداد الخمسين عامًا الماضية؛ فإن أدوار كلا النوعين (الرجال والنساء) لم تتغير تغيرًا ملحوظًا. وترجع أسباب ذلك – فى جانب منها – إلى أن العوامل البنائية كفرص العمل، ونظم الرعاية، والثقافة قد عوقت جميعها حدوث مثل هذا التغير.

(*) العمل العاطفى المأجور Emotional Labour: عرّفت أرلى هوخشيلد العمل العاطفى المأجور، فى كتابها: القلب الذى يتم التحكم فيه، الصادر عام ١٩٨٣ بأنه ذلك النوع من العمل الذى يؤدى بالمشاعر كجزء من العمالة بأجر. فالعاملون فى كثير من مهن الخدمات الشخصية – مثل مضيفات الطيران، ومضيفات المطاعم، والسقاة فى الحانات، وما إلى ذلك – يقبضون أجورهم "مقابل بيع عواطفهم". فالعواطف هنا أضحت بمثابة سلعة تباع وتشترى. ويقال إن العالم الغربى يشهد زيادة مضطردة فى أنواع مثل هذه الأعمال، خاصة التى يغلب عليها عمل النساء. انظر المزيد فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٠٣٩ وما بعدها. (المترجم)

الموضوع (J)

نتائج دراسة موريس

فى دراسة موريس لطرق التفاعل بين الزوجين فى الأسر المدروسة، أوضحت أن هناك بعض السياقات المهمة التى يتعين تحديدها. وهذه السياقات سياقات: اقتصادية، وإيديولوجية، واجتماعية. وعند البحث فى كيفية تأثير الظروف الاقتصادية على العلاقات الزوجية؛ لاحظت موريس أن فرص عمل المرأة كانت تخضع لقيدين رئيسيين. القيد الأول يتمثل فى أن قرارات الزوجة لاختيار الوظيفة التى تعمل بها كانت تتأثر بوضع زوجها فى سوق العمل: أين يعمل، أو كم الدخل الذى يحققه للأسرة، أو تغيرات سوق العمل، وما إذا كان ذلك الزوج يعمل أصلاً أم أنه عاطل عن العمل. أما القيد الثانى فيتمثل فى أن سوق العمل المتاح للنساء إنما يكون فى الغالب فى وظائف لبعض الوقت فقط، وهو أمر يمثل مشكلة قاسية، خاصة إذا كان الزوج عاطلاً عن العمل فترة من الوقت. كما لوحظ فضلاً عن ذلك أن أسلوب منح إعانة البطالة آنذاك كان عاملاً مثبطاً للمرأة/ الزوجة فى البحث عن وظيفة ذات دوام كامل.

معنى ذلك – بالتعبيرات الإيديولوجية – أنه مازالت هناك بعض القوى المؤثرة التى تعيد تأكيد ودعم النظرة التقليدية لدور المرأة فى مجال أسرتها وفى مجال عملها. من ذلك مثلاً أنه حتى فى الحالات التى كان فيها الزوج عاطلاً عن العمل وكانت الزوجة تعمل؛ فإن مسئولية إدارة شئون البيت ظلت على عاتق المرأة. يضاف إلى ذلك الحصول على معونات من أقارب المرأة العاملة، ولكن كل ذلك لم يقلل من مسئولياتها المنزلية. وانتهت موريس إلى أن الظروف الاقتصادية المتغيرة (مثل بطالة الرجال) لم توفر السياق الذى يكفى لتغيير توازن القوة بين الزوج والزوجة بشكل أساسى فيما يتعلق بالمسئوليات المنزلية.

تمرين ٢-١٩	
معرفة فهم	سيمكنك هذا التمرين من التعرف على أفكار موريس بمزيد من التفصيل. اقرأ الموضوع (J)، ثم أجب عن الأسئلة التالية: ١- لماذا تتصور أنه من المفيد إقناع المرأة بالعدول عن العمل في وظيفة بدوام كامل؟
تفسير تطبيق	٢- لماذا يمثل نمط رعاية الطفل الذى تكون أمه امرأة عاملة دعمًا للرأى القائل بأن عدم المساواة (بين الرجل والمرأة) لا يرتبط بالعوامل الاقتصادية وحدها؟
تفسير تطبيق تحليل	٣- فى ضوء قراءتك للموضوع (J) لماذا تكون أدوار النوع مقاومة أشد المقاومة لأى تغيرات تطرأ على البناء الاقتصادى؟
تحليل تقييم	٤- إلى أى مدى تعمل نتائج بحث موريس على إضعاف الحجج التى تنهض عليها النظرية الماركسية النسوية؟ قدم مبررات لوجهة نظرك.

تقييم النسوية الماركسية

نقاط القوة

١- تجمع النسوية الماركسية بين التحليل الطبقى الماركسى والاحتجاج الاجتماعى النسوى. وهى بذلك تلفت الانتباه إلى الوضع الاقتصادى الهامشى للمرأة. كما تنبه النساء إلى إمكانية وقوعهن ضحية للاستغلال.

٢- تمدنا النسوية الماركسية بتحليل بنائى لعملية القهر يمكن تطبيقه على كافة مجالات الحياة الاجتماعية. فهى نظرية تقدم تحليلات على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى (الماكرو) تبين لنا كيف يعمل البناء الأساسى للمجتمع – أى الاقتصاد – على تشكيل العلاقات الاجتماعية والخبرات الحياتية.

أوجه القصور

١- يختزل النسويون الماركسيون استغلال المرأة إلى مستوى الاقتصاد وحده. لذلك لا يبدون الاهتمام الكافى بطرق استغلال الرجال للنساء فى المجتمع وفى الأسرة. وعلى الرغم من أنهم يدركون وجود صلة بين العلاقات القائمة على السلطة الأبوية والنظام الرأسمالى، فإنهم لا يفسرون لنا لماذا يقع الاستغلال على النساء دون الرجال.

٢- النسوية الماركسية – شأنها شأن النظريات النسوية الأخرى – تعطى الانطباع بأن النساء عبارة عن جماعة واحدة متماسكة تتشارك وتعيش معًا نفس تجربة الاستغلال. ويصف النقاد هذه النظرة بأنها إغراق فى التبسيط: فالنساء العاملات أو النساء السود قد يشتركن مع العمال الرجال أو الرجال السود فى أمور أكثر من تلك التى تجمعهن من نساء الجماعات الاجتماعية الأخرى.

النسوية المتطرفة (الراديكالية)

القضية الأساسية للنسويين الراديكاليين هى أن خضوع النساء إنما هو ناتج عن نظام سلطة الأب (وهو نظام شائع للقوة يقوم على سيطرة الرجال على

النساء). ففى ظل نظام سلطة الأب تصنف النساء "كطبقة" أو "فئة" أدنى مكانة من طبقة الرجال بسبب نوعهن، وعليه فإن العلاقات بين الرجال والنساء هى فى حقيقتها علاقات سياسية. ولذلك يلاحظ أبوت ووالاس (١٩٩٠) أن النساء يتشاركن نفس المصالح الطبقية لأنهن يخضعن لسيطرة الرجال.

ويرى النسويون الراديكاليون أن كل مجالات الحياة فى المجتمع تتسم بالقهر. فكل مؤسسة أو نظام اجتماعى إنما هو نسق يقوم فيه بعض الناس بالهيمنة على البعض الآخر فيه. كما يوجد فى أكثر أبنية المجتمع محورية، وكذلك فى أنواع الارتباطات القائمة بين جماعات كبرى أو فئات عريضة من الناس؛ يوجد فيها جميعًا نموذج متصل من الهيمنة والخضوع. وأهم تلك النماذج جميعًا – حسبما يرى النسويون الراديكاليون – نموذج (أى نظام) سلطة الأب. ففى ظل نظام سلطة الأب يتعلم الرجال أن ينظروا إلى النساء بوصفهن لسن من البشر، وأن عليهم أن يخضعوهن ويسيطروا عليهن. وتتجلى هذه السيطرة بعدة طرق، ولكنها تؤدى جميعًا إلى قهر الرجال للنساء. ولذلك يعد مفهوم العنف ذا أهمية محورية لفهم هذه السيطرة. ونصادف لدى النسويين الراديكاليين آراء متباينة ومتطرفة فيما يتعلق بمكونات العنف أو مقوماته، ولكنهم يجمعون بكل تأكيد على أن العنف يرتبط بنظام سلطة الأب ارتباطًا لا ينفصم. ويرون أن هذا العنف يمكن أن يكون مستترًا (متخفيًا وراء نماذج معقدة من الاستغلال وأساليب التحكم)، أو يكون سافرًا وظاهرًا يتجلى مثلاً فى أشكال العنف البدنى، والاغتصاب، والإساءة الجنسية، واستغلال المرأة فى الأعمال الإباحية.

الموضوع (K)

الطبيب خير من يعلم

الزيارة الطبية (١)

الطبيب: هل هذا هو الطفل الأول لك؟

المريضة: الثانى.

الطبيب: (ضاحكًا) أنت خبيرة إذن؟

الزيارة الطبية (٢)

الطبيب: تبدين مهمومة بعض الشىء.

المريضة: نعم، أنا قلقة من الموضوع برمته. إذ يبدو أن الطفل صغير الحجم، فأنا أحس أن هذا الجنين أصغر كثيرًا من طفلى الأول، وكانت تزن أقل من ستة أرطال (أى حوالى ثلاثة كيلوجرامات إلا ربعًا). كما أوضحت الأشعة فوق الصوتية أيضًا أن الطفل صغير الحجم بشكل شديد.

الطبيب: هل وزنوه، هل فعلوا ذلك؟

الطبيب الثانى: (دخل لتوه إلى حجرة الكشف): إنهم يتجولون حول معارض الزهور ويزنون المغفلين، فعلاً.

الطبيب الأول: نعم، إنه أمر هين، فعلاً.

الزيارة الطبية (٣)

المريضة: أشعر بألم فى كتفى هذا.

الطبيب: حسنًا، إنها ناحية اليد التى تحملين بها حقيبة التسوق، أليس كذلك؟

الزيارة الطبية (٤)

الطبيب: أعتقد أن كل ما يتعين أن نفعله هو تقرير مدى تقدم الحمل، اسمعى: أنت أصبحت على وشك الوضع. (يقوم بفحص باطنى لها). فعلاً أنت على وشك أن تنفجرى، وقد أعطيتك محفزًا جيدًا لتنشيط عملية الولادة(*). وأعتقد أن كل ما عليك هو أن تدخلى الآن.

المريضة: هل يمكننى الانتظار أسبوعًا آخر، ثم نرى ما سيحدث؟

الطبيب: لاشك أنك قرأت صحيفة سانداى تايمز.

المريضة: لا، لم أقرأها. أنا متزوجة من طبيب.

الطبيب: حسنًا، لقد تقدم الحمل جيدًا منذ الأسبوع الماضى، وقد قمت بفحص الأغشية (الرحم) فحصًا شاملاً مدققًا.

المريضة: ما معنى ذلك؟

الطبيب: لقد مسحت الأغشية، ليس بفرشاة، وإنما بإصبعى. (يكتب فى دفتر مذكراته: "يحدد موعد لعملية الحث – على الولادة).

المريضة: إننى أفضل الانتظار قليلاً.

الطبيب: حسنًا، نحن نعلم أن الجنين قد اكتمل نموه الآن، ولذلك فلا معنى للانتظار. إن الأمراض والوفيات عند الولادة تزداد زيادة سريعة بعد انقضاء ٤٢ أسبوعًا على بداية الحمل. ألم يكتبوا ذلك فى مجلة سانداى تايمز، ألم يفعلوا؟

(**المصدر**: آن أوكلى، "المرأة عند الولادة"، دار نشر أوكسفورد: مارتين

(*) (لإحداث الطلق – المترجم)

روبرتسون، ١٩٨٤).

النسوية الراديكالية هي في الأساس حركة ثورية لتحرير المـرأة. ويـذهب مؤيدوها إلى أنه لا يوجد مجال من مجالات الحياة في المجتمع خال مـن هيمنـة الرجل. وهم يسعون إلى الكشف عن مسببات هذا الوضع، وإلى أن يتخـذوا هـذه المعرفة سبيلاً لتحرير المرأة. وترى فايرستون (١٩٧٤) أن الفصل بـين الرجـال والنساء يستند على أساس بيولوجي، لأنه يتعين على النساء أن يـتحملن مـسئولية رعاية الرضع والأطفال. ولكن فايرستون تدرك - مع ذلك - أن القوى الاجتماعية والإيديولوجية عملت على توسيع دور المرأة كمربيـة لكـي يتجـاوز مجـالات الضرورة البيولوجية.

ثم حدث بعد ذلك أن رفضت البحوث العلمية التفسيرات البيولوجيـة لعـدم المساواة بين النوعين (الرجال والنساء)، ولفتت النظر - بدلاً من ذلك - إلى أهمية العوامل البنائية. فالرجال يقومون بشكل منظم بالهيمنة على النساء في كل مجالات الحياة الاجتماعية. ولم يكن ذلك ممكناً، إلا لأن العلاقات بين الرجال والنساء هـي علاقات قوة مؤسسية، ومن ثم فهي علاقات سياسية في طبيعتها (أبـوت ووالاس، ١٩٩٠) والرجال - كطبقة - يستفيدون من فرص هيمنتهم على النساء. ولذلك يفهم النسويون الراديكاليون عدم المساواة بين النوعين بوصفها ذات طبيعة إيديولوجيـة. ويرون أن كافة المعارف التي تحظى بقيمة في المجتمع هي تلك التي يعدها الرجال مهمة. ويصفون وضع العلم في المجتمع بأنه أفضل مثال على ذلك. كما يرون أن علم الاجتماع مسئول - بنفس القدر - عن دعم الثقافة التي يرسم الرجال معالمها، ويصبغونها بطابع مشوه.

ويرى النسويون الراديكاليون أن حل المشكلات التي تواجهها النـساء فـي المجتمع إنما يكون بالقيام بثورة جنسية، سوف تمكن النساء مـن تكـوين وعـي

مشترك، ورفض الضغوط الواقعة عليهن من نظام السلطة الأبوية، ويشكلن كيانًا "أخويًا" يوحدهن في مواجهة وإدانة هيمنة النظام الأبوى. ومن شأن ذلك أن يمدهن بالقوة اللازمة للهجوم على هيمنة الرجال عند المنبع، أو يزودهن بالموارد الضرورية والعون المتبادل الذى يتيح لهن الانسحاب من عالم هيمنة الرجال، وأن يؤسسن لأنفسهن أبنية اقتصادية، وعائلية، واجتماعية خاصة بهن، تقوم على التقدير المشترك لقيمة المرأة في ذاتها. وتدعو قلة من النسويات الراديكاليات إلى "الانفصال" بين الرجال والنساء، بحيث تستطيع النساء أن يعشن في استقلال يتيح لهن أن يكتشفن طبيعتهن الحقيقية دون أى تدخل من الرجال.

<table>
<tr><th colspan="2">تمرين ٢-٢٠</th></tr>
<tr><td colspan="2">يتطلب منك هذا التمرين التعرف على بعض القضايا التى يثيرها النسويون الراديكاليون. وقد قرأت الموضوع (K) المأخوذ عن كتاب آن أوكلى "المرأة عند الولادة" (١٩٨٠). وهو مستخرج من تسجيل مقابلات تمت بين الطبيب ومريضته التى قامت بإجرائها فى ثنايا دراستها بعنوان "التحول إلى الأمومة"، وكان كل الأطباء الذين شاركوا فى الدراسة من الرجال. اقرأ الموضوع بعناية، ثم أجب عن الأسئلة التالية وأنت وسط مجموعة من الطلاب:</td></tr>
<tr><td>تفسير
تطبيق</td><td>١- ما الأساليب التى استخدمها الأطباء لإضعاف مكانة المرأة؟</td></tr>
<tr><td>تقييم</td><td>٢- هل هناك ثمة مبرر لأى من تعليقات الأطباء؟ إذا كان هناك مبرر أو مبررات، فما هى؟ وما سبب اعتبارها كذلك؟</td></tr>
<tr><td>تقييم</td><td>٣- أى مقاطع الحوار تراها هى الأكثر عدوانية؟ ولماذا؟</td></tr>
</table>

تطبيق تحليل	٤- إذا قدر لك أن ترد على كل طبيب (فى ذلك الحوار)، فما التغييرات التى تقترح عليهم تبنيها عندما يواجهون موقفًا مشابهًا فى المستقبل؟
تحليل تقييم	٥- كيف يمكن استخدام نصوص هذه المقابلات فى دعم حجج ومواقف النسويين الراديكاليين؟

تقييم النسوية الراديكالية

نقاط القوة

١- تمثل النسوية الراديكالية قوة قادرة على تأكيد ودعم قيمة المرأة، وعلى الكشف عن طبيعة عمليات القهر والاستغلال التى تهدد بتقليل تلك القيمة أو العدوان عليها.

٢- حظيت تلك النظرية بالإعجاب بسبب قوتها الجريئة وعنفها فى عرض وجهات نظرها. فالنسويون الراديكاليون يدافعون عن المرأة، ويتحدثون باسمها، كما يعبرون بوضوح عن آرائهم فى التنظيم الاجتماعى، وقهر النوع، واستراتيجيات التغيير.

أوجه القصور

١- وجه إلى النسويين الراديكاليين عدد من الانتقادات. منها أنهم أخفقوا فى تقديم تفسير شاف لطرق قهر الرجال للمرأة واستغلالها. كما اتهموا بأنهم لم ينتبهوا كثيرًا لبعض العلاقات الأبوية فى المجتمعات المختلفة. بل الأكثر من هذا أنهم – فى رأى النقاد – يميلون إلى افتراض أن النساء من شتى الطبقات والأوساط

الاجتماعية يتشاركن فى نفس الخبرات، مع أننا نلاحظ أن التعصب العنـــصرى فى بعض المجتمعات يمكن أن يعرّض النساء السود - مثلاً - لمشاركة الرجال السود خبرات أكثر مما يجمع أولئك النساء مع النساء البيض.

٢- يلاحظ أن الجانب الراديكالى للنظرية جعلها مثارًا للقلق فى بعـــض الـــدوائر، وللسخرية فى دوائر أخرى. ويـــرى بعـــض النقـــاد أن المفكـــرين النـــسويين الراديكاليين قد غالوا كثيرًا فى المناداة بعالم خال من الرجال. فهى بذلك تـــشكل تهديدًا للحياة الاجتماعية بشكلها الذى نعرفه، كما أنها تتجاهل أن هنـــاك كثيـــرًا من النساء اللائى يبدو أنهن سعداء بالعلاقات التى تربطهن بالرجـــال، والتـــى تحظى برضائهن.

النسوية الاشتراكية

سعى النسويون الاشتراكيون إلى التأليف بين أشمل وأهم مدرستين نسويتين، وهما: المدرسة الماركسية، والمدرسة النسوية الراديكالية. وقد أدى ذلك فى الحقيقة إلى تكون نوعين من النسوية الاشتراكية. يركز النوع الأول كلية على قهر المرأة، ومحاولة فهمه بطريقة تجمع بين المعرفة بالقهر الطبقى (المستمدة من الماركسية)، والمعرفة بقهر النوع (المستمدة من النسوية الماركسية). أما النوع الثانى من هـــذا التوجه فيحاول أن يصف ويفسر كافة أشكال القهر الاجتماعى، مستخدمًا المعرفـــة بنظم التدرج الطبقى والنوعى كمنطلق لفهم أنظمة القهر التى لا تكتفـــى بـــالتركيز على الطبقة والنوع وحدهما، وإنما تهتم كذلك بأبعاد: العـــرق، والهويـــة الإثنيـــة، والميل الجنسى، والعمر، والوضع فى سياق التراتب العالمى للأمم.

وتحاول النسوية الاشتراكية تطوير فهم للعلاقة بين نظام سلطة الأب والنظام الرأسمالى، زاعمة أن نظام سلطة الأب يتخذ شكلاً خاصًا فى المجتمعات الرأسمالية

(أبوت ووالاس، ١٩٩٠). ويذهب النسويون الاشتراكيون إلى أن نظام سلطة الأب سابق فى الوجود على الرأسمالية، وبذلك يكون مستقلاً عنها. ففى المجتمعات السابقة على عصر الصناعة تم تهميش النساء بشكل تدريجى وقصر دورهن على العمل داخل المنزل، حيث أصبح الرجال أكثر سيطرة على مجال الإنتاج. ثم استكملت الرأسمالية هذه العملية، فزاد استبعاد النساء من كل مجالات الحياة الاجتماعية. وتأكد دور الرجال وتدعم فى المجال العام، وأصبحت هوية المرأة تُستمد أساسًا من دورها المنزلى وحده.

ويذهب "والبى" (١٩٨٨) إلى أن نظام سلطة الأب قد اتخذ فى ظل النظام الرأسمالى شكلاً مختلفًا عما كان عليه فى عصر ما قبل الصناعة. ففيما قبل الرأسمالية أفاد نظام سلطة الأب رئيس الأسرة الرجل، أما فى ظل الرأسمالية فقد أصبح يعود بالفائدة على الرأسماليين، بما فى ذلك الإضرار أحيانًا بمصالح الرجال أنفسهم. ولكن أبوت ووالاس (١٩٩٠) يلاحظان أن مصالح الرأسمالية ونظام سلطة الأب ليست واحدة. فالرأسماليون يعتبرون النساء مصدرًا لقوة العمل الرخيصة. إذ يستطيعون استغلال مكانتهن المنخفضة بأن يدفعن إليهن أجورًا متدنية، ثم يسارعون إلى "التخلص منهن" فى أوقات الكساد الاقتصادى. ولم يعد هذا الوضع بالفائدة على رئيس الأسرة الرجل، أو على الرجال عمومًا. فقد عمل الرأسماليون على تخليص النساء من واجباتهن المنزلية وأتحْن لهن فرصة الدخول إلى المجال العام. وقد أتاح ذلك للنساء أن يتمتعن بدرجة من الاستقلال المالى، وإن كان استقلالاً محدودًا على أى حال. ولكن كان من شأن ذلك أن قلل من حجم القوة التى يمكن أن تمارس عليهن داخل المنزل. ولكن ذلك بات يعنى فى نفس الوقت أن هذا المصدر السهل والرخيص للقوة العاملة يمثل تهديدًا دائمًا لفرص الرجال فى العمل.

ومن شأن هذا أن يؤدى إلى نوع من تقسيم المجتمع بين الرأسماليين من جهة والرجال من جهة أخرى. فاتخذ الرجال خطوات نحو استبعاد النساء من سوق العمل، أو قصر فرصهن فى العمل على "الأعمال النسائية" فقط. وتواطأ الرأسماليون مع هذا الوضع إلى أن يحدث نقص فى قوة العمل؛ فيقبلون ساعتها على تشغيل النساء على نطاق واسع. وقد ظهر ذلك بجلاء فى الإقبال الواسع النطاق على تشغيل النساء خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. ولكن حياة النساء تغيرت بفعل ذلك تغيرا سريعا، كما يوضح ذلك الموضوع (L) التالى. ولكن بعد أن عاد الرجال من الحرب، تكفلت عملية هيمنة نظام سلطة الأب بإعادة النساء مرة أخرى إلى المجال الخاص داخل المنزل من جديد، أو إلى تلك النوعية من الأعمال التى تعد أكثر ملاءمة للنساء.

الموضوع (L)

من العمل فى الموضة إلى العمل فى المصانع

لم تكن الحرب العالمية الثانية – بالنسبة لبونتى – فرصة للحصول على زوج بقدر ما كانت فرصة لتكوين شخصية مستقلة للمرأة.

فعند اندلاع الحرب العالمية كانت "بونتى" تعمل فى متجر للملابس اسمه "موديليا: للأزياء النسائية الفاخرة". وقد التحقت بالعمل هناك منذ سنتين، بعد أن أنهت دراستها الثانوية، وكانت تعشق الطبيعة الجديدة التى تواجهها كل يوم، رغم أحلام اليقظة التى كانت تراودها بقوة عن الأشياء المثيرة التى كانت تتوقع أن تصادفها فى مستقبل أيامها، من قبيل ذلك الرجل الجذاب الفائق الأناقة الذى كانت تتوقع أن يقتحم حياتها من حيث لا تحتسب، فيصحبها إلى حياة الحفلات الأنيقة، والرحلات البحرية، وسترات الفراء الأصلى الثمينة.

ثم جاءت أيام خلا فيها المتجر من العملاء. وفى أحد أيام الآحاد طُلب من بونتى أن تحضر إلى المتجر لكى تساعد فى عملية جرد محتويات المخزن. وقتها جلس الجميع يستمعون إلى برنامج عن "كيف تحقق أقصى استفادة من الطعام المعلب"، وهم ينتظرون أن يعلن رئيس الوزراء (البريطانى) "بيانًا قوميًا مهمًا". وعندما صرح مستر تشمبرلين: "أود أن أخبركم أنه لم يتم الحصول على التعهد الذى كنا نطلبه (من ألمانيا – المترجم) وأننا أصبحنا فى حالة حرب مع ألمانيا"؛ عندها شعرت "بونتى" برعشة خلف العنق...

لقد راودت "بونتى" أحلام من وراء هذه الحرب، كان ثمة شىء يجذبها بسبب الطريقة التى أزالت بها هذه الحرب حالة اليقين، وفتحت المجال واسعًا على احتمالات جديدة. تقول "بونتى" إنها كانت كمن يقذف بقطعة عملة إلى الهواء، وتتحفز لترى هل ستقع العمل على وجه الكتابة أو الصورة. وبدا كما لو أن شيئًا مثيرًا يوشك أن يحدث لبونتى، ولم يشغلها كثيرًا إن كان هذا الشىء المثير هو قدوم ذلك الشاب الوسيم – المذهل فى وسامته – ساعيًا إليها، أم سقوط قنبلة على رأسها.. المهم أنه يعنى أن الأمور ستتغير على نحو أو آخر...

وكان العام ١٩٤٢ هو الذى شهد أبرز الأحداث فى حياة "بونتى" بين سنوات الحرب جميعًا. ففى ذلك العام تركت متجر موديليا للأزياء، وودعها السيدة كارتر والسيد سيمون وداعًا حارًا، وقالا لها إنهما لا يدريان ماذا سيفعلان بدون عزيزتهما الصغيرة "بونتى"... بعدها انتقلت "بونتى" للعمل فى الصناعات الحربية، حيث عملت – مثل زميلها "بابس" – فى حشو القذائف بالمتفجرات، وذلك فى مصنع راونترى الذى كان يقوم قبل الحرب بصنع اللبان (العلكة) بطعم الفواكه (منتج لا يسبب الهلاك لأحد). ثم كانت وظيفتها الجديدة فى مصنع لإنتاج المعدات الفنية، كان يعمل قبل الحرب فى إنتاج أجهزة كالميكروسكوبات، ولكنه أصبح يعمل بعد الحرب فى صناعة أجهزة التسديد فى البنادق. وكانت مهمة "بونتى" بالتحديد هى اختبار بؤرة الجهاز بعد أن يتم تركيب كل شىء، حيث

كانت في أول عهدها بالعمل فى المصنع تتصنع - وهى تفحص البؤرة - أنها تسدد على الألمان لتقتلهم.. ولكن بعد فترة فقد العمل طرافته، وأصبحت تجتهد لكى تقاوم الحَوَل المؤقت الذى يصيب عينيها آخر اليوم بسبب طول التحديق. ومع بدايات عام ١٩٤٢ كانت بونتى قد سئمت الحرب غاية السأم.

(**المصدر**: كيت أتكنسون، "فى المتحف خلف الستار"، لندن، بلاك سوان، ١٩٩٥، ص ص ٩٢-٩٣).

<table>
<tr><th colspan="2">تمرين ٢-٢١</th></tr>
<tr><td colspan="2">يحكي الموضوع (L) المقتبس من كتاب كيت أتكنسون "فى المتحف خلف الستار" (١٩٩٥) قصة حياة أسرة منذ القرن التاسع عشر وحتى تاريخ تأليف الكتاب. ورغم أن القصة عمل روائى، فإنها تقدم تصويرًا واقعيًا للخبرات التى مرت بها الأسرة منذ بدأ المجتمع عصر التصنيع وأخذت الحياة الاجتماعية تزداد تعقيدًا، وخاصة خبرات وتجارب النساء. اقرأ الموضوع، ثم أجب عن الأسئلة التالية:</td></tr>
<tr><td>١- ما الشواهد الواردة فى الموضوع (L) التى تؤكد تفسير النسوية الاشتراكية لخبرات النساء فى ميدان العمل؟</td><td>تفسير
تطبيق
تقييم</td></tr>
<tr><td>٢- لماذا تعد آراء "بونتى" فى العمل تحديًا لأفكار النسوية الاشتراكية؟</td><td>تفسير
تطبيق
تحليل
تقييم</td></tr>
</table>

ملحق تمرين ٢-٢	تفسير – تطبيق تحليل – تقييم

حاول أن تعثر على إحدى نساء الأسرة أو سيدة صديقة للأسرة تكون قد عملت قبل أو أثناء الحرب العالمية الثانية. ثم قم بإجراء مقابلة معها لكى تستوضح منها إجابات على الأسئلة التالية:

١- إلى أى مدى تعكس خبراتها وتصوراتها عن العمل خبرات وتصورات "بونتى"؟

٢- إلى أى مدى تتفق خبراتها عن العمل مع تفسير النسوية الاشتراكية للمرأة فى سوق العمل؟

ملحوظة: من المهم لكى تتمكن من إجراء مقابلة ناجحة أن تبدأ بتخطيط طبيعة مقابلتك ومسارها، وتحدد سلفًا الأسئلة التى يجب أن توجهها لكى تحصل على المعلومات التى تريدها. وعليك قبل تخطيط مقابلتك وتحديد أسئلتك قراءة موضوع "المقابلات" الوارد فى الفصل السابع من هذا الكتاب. وسوف يعرفك هذا الجزء على مختلف أنواع المقابلة وينبهك إلى بعض النقاط التى يتعين أن تأخذها فى اعتبارك عند وضع أسئلتك.

لذلك تذهب النسوية الاشتراكية إلى أن وضع المرأة لا يمكن فهمه على الوجه الأكمل إلا إذا بذلت محاولات جادة لجسر الهوة بين الهيمنة المؤسسية التى تتم على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى (الماكرو) من ناحية، وخبرات القهر العادية، والخاصة، والمحددة، والعابرة التى تعيشها النساء. فهم يرون أن هذا هو مفتاح التحرر، فهذا الفهم هو الذى سيؤدى إلى وعى عام بين النساء بمصادر الاستغلال ومسبباته، سوف يعمل بدوره على بلورة قوة للتحرر الجمعى.

تقييم النسوية الاشتراكية

نقاط القوة

١- حاول النسويون الاشتراكيون المزج بين أهم أشكال الحركة النسوية وأكثرها تأثيرًا فى نظرية واحدة متماسكة. وقد قدموا فى ثنايا ذلك تحليلاً عظيم الدقة لعدم المساواة أكثر مما يمكن أن تقدمه النزعة الحتمية الاقتصادية، فوق أنه يعطى مصداقية لأهمية الهيمنة الإيديولوجية والاقتصادية على السواء.

٢- كما حاول هذا الفريق من النسويين الاشتراكيين أن يجسر الهوة بين المنظور البنائى والمنظور التأويلى لعدم المساواة. كما أن المفهوم الذى قدموه "لنسق الهيمنة المتعدد الوجوه" يعد محاولة دقيقة متماسكة للجمع بين الخبرة الشخصية والتأثيرات المؤسسية.

أوجه القصور

١- يرى النقاد أن النسوية الاشتراكية لا تمثل سوى تطلعات وطموحات نساء الطبقة الوسطى البيض، وليس تطلعات كافة النساء. فهناك بعض النساء اللائى يتعرضن لقهر غيرهن من النساء، ولذلك فإن سبيلهن إلى التحرر لابد أن يكون فى الحقيقة عبر تحقيق المساواة الحقيقية، وليس عبر تحرر المرأة.

٢- أخفق هذا الاتجاه فى أن يدرك أن النساء قد اقتحمن سوق العمل، وحققن نجاحًا فيه. والحقيقة أننا نجد فى بريطانيا اليوم أن النساء يصبحن - بشكل مضطرد - العائل الرئيسى للأسرة، نظرًا لارتفاع معدلات البطالة بين الذكور (انظر ذلك الجزء من الفصل الرابع من هذا الكتاب عن ما بعد النسوية).

النسوية الليبرالية

النسوية الليبرالية "جماعة أقلية" داخل النظرية النسوية، تتبنى أفكارًا أقل راديكالية (تطرفًا) وأقل إثارة للجدال من الفروع الأخرى للنظرية النسوية. ويرى النسويون الليبراليون أن عدم المساواة بين النوعين (الرجال والنساء) إنما هي نتيجة تقسيم العمل على أساس الجنس. وهم يرون أن المجتمع يحبذ التوجه الذى يحتم وجود مجال عام ومجال خاص، حيث يتركز الرجال أساسًا فى المجال العام، بينما توضع النساء فى المجال الخاص. وتعمل التنشئة الاجتماعية على غرس هذه الأفكار وتدعيمها، بحيث ينمو الأطفال وهم متقبلين – دون أى اعتراض – مكانهم فى سوق العمل المقسم وفقًا للنوع. ومن أدوات التنشئة الاجتماعية التى تزداد أهميتها باضطراد وسائل الإعلام. ويرى النسويون الليبراليون أن الأفراد يتم تدريبهم بواسطة وسائل الإعلام وغيرها من المؤسسات الاجتماعية على أن يمتثلوا لأنماط السلوك التى تؤدى بلا وعى. والصور التى تذيعها وترددها وسائل الإعلام مقاومة للتغير بطبيعتها، لأنها تعكس الاتجاهات الاجتماعية السائدة (تراولر، ١٩٩١). وهكذا يتم – حتى الآن – تجاهل النساء أو تهميشهن فى وسائل الإعلام، ومازال يتم إلغاء النساء رمزيًا بعد ثلاثين عامًا من ظهور النظرية النسوية.

وتختزل النسوية الليبرالية مصدر عدم المساواة بين النوعين فى عملية اجتماعية هى "الانحياز الجنسى للرجل"، وهى عملية شبيهة للنزعة العنصرية، وتتكون فى جانب منها من تحيزات فكرية وممارسات متحيزة ضد النساء، فضلاً عن بعض المعتقدات المسلم بها عن الفروق "الطبيعية" بين الرجال والنساء التى تؤهل كل فريق منهما لأقدار اجتماعية تختلف عن أقدار الفريق الآخر. وقد تناولت برنارد (١٩٨٢) أثر "الانحياز الجنسى للرجل" على النساء. وقادتها بحوثها عن

الزواج إلى نتيجة مؤداها أن الزواج ظاهرة تقوم – ثقافيا وبنائيا – على الانحياز للرجل، حيث تُسند إلى المرأة أدوار أدنى شأنًا وأعمال بغيضة وغير متساوقة (مع أعمال الرجال). وكانت بذلك أول من لفت الانتباه إلى أنه يوجد داخل كل علاقة زواج: "زواجان" في الحقيقة، هما: زواج الرجل، وزواج المرأة. وتقول في ذلك:

"فعلى حين يتمسك (الزوج) بالاعتقاد بأنه مقيد ومثقل بالهموم، بسبب تعرضه لما تفرضه عليه المعايير: السلطة، والاستقلال، وحقه في الحصول على رعاية منزلية، وعاطفية، وجنسية من منزله. في نفس هذا الزواج تلتزم الزوجة بالمطلب الثقافي الذي يفرض عليها أداء الواجب، بينما هي تعيش حالة من الضعف والتبعية والخضوع لوصاية الرجل، والتزام بأن تقدم له رعاية منزلية، وعاطفية، وجنسية، كما تتعرض لعملية "تحلل وغياب" تدريجي تبتعد بها عن شخصية الفتاة المستقلة التي كانت عليها قبل الزواج".

فالزواج إذن شيء عظيم للرجل وسيىء للمرأة، ولن تتوقف هذه الحالة من عدم التكافؤ إلا إذا شعر الزوجان بالتحرر من كافة القيود المؤسسية السائدة، بحيث يتمكنا من التفاوض والاتفاق على أفضل وضع يريدونه لزواجهما، والذي يحقق لكل فرد منهما احتياجاته الفردية ورضائه الشخصي. (برنارد، ١٩٨٢).

وقد اتجهت البحوث الحديثة إلى إعادة النظر مرة أخرى في موضوع الزواج كنظام اجتماعي، للتعرف على ما إذا كانت حالة عدم المساواة بين النوعين (الرجل والمرأة) مازالت قائمة وسائدة، أم أن التغيرات التي حدثت في المجتمع قد أدت إلى أنواع العلاقة المشار إليها من قبل. وقد درس دانكومب ومارسدن (١٩٩٥) تأثير ازدياد عمالة المرأة على حياتها داخل الأسرة. وقد رأيا أن أشكال عدم المساواة الموجودة سلفًا لم تتغير إلا قليلاً، وأنه من المقلق فعلاً أن النساء باتت ترزح أكثر فأكثر تحت وطأة عبء ثلاثي. ويرجع هذا العبء إلى أن "العمل

العاطفى" الذى تمارسه قد زاد لكى يلاحق تزايد الضغوط التـــى يـــسببها المجتمـــع الصناعى المعقد للمرأة. وقد لاحظت دانكومب ومارسدن أن هـــذا اللاتكـــافؤ بـــين النوعين فى السلوك العاطفى قد اعتبره النسويون بُعدًا آخر جديدًا من أبعاد استغلال الرجل للمرأة. كذلك لاحظت البحوث التى أجرتهـــا "لجنـــة الفـــرص المتكافئـــة" (٢٠٠٥) – بوضوح – أن عدم المساواة بين الجنسين تتأكد وتترسخ عندما تنجـــب الأسرة أطفالاً، ويعود كل من الرجل والمرأة إلى أدوارهما التقليدية داخـــل البيـــت وخارجه.

الموضوع (M)
"النقلة" الثلاثية للمرأة تناول جيدنز (١٩٩١) قضية العلاقات الحميمة فى ظل الحداثة المتأخرة. وقد ركز بشكل خاص على العلاقات بين الرجل والمرأة فـــى إطـــار الـــزواج، وكيفية تعرض المرأة لعبء ثلاثى يتمثل فى العمل بـــأجر، وتحمـــل المـــسئولية الأساسية عن الأعمال والمهام المنزلية، ثم ممارسة عمل "عاطفى": دعم وإشباع الاحتياجات الجنسية لأفراد الأسرة. إن انخراط المرأة فى عالم العمل من شـــأنه أن يدفع الزوجين إلى مزيد من الحميمية العاطفية والجنسية التى يتعذر الحصول عليها فى المجال العام. ويحفزهما إلى فعل ذلك تلك الصورة المثاليـــة للـــزواج التى تبثها وسائل الإعلام، وهو زواج يرتكز على الانفتـــاح والمـــصارحة فـــى الأمور الجنسية والعاطفية. على أنه يلاحظ أن كثيرًا من الرجال لا يتجهون إلى مزيد من الحميمية، وإنما يحاولون الإبقاء علـــى هيمنـــتهم الجنـــسية المرتبطـــة بالتصورات التقليدية عن الحميمية.

تمرين ٢-٢٢	
يتطلب منك هذا التمرين الانتباه إلى الجانب العاطفى للعلاقات، وما إذا كنت ترى التفسيرات النسوية معقولة ومقنعة. اقرأ الموضوع (M)، ثم أجب على الأسئلة التالية:	
تحليل تقييم	١- إلى أى مدى تتفق مع رأى جيدنز فى إرجاع عدم رضاء المرأة عن الجانب العاطفى للزواج إلى وسائل الإعلام، وليس إلى الرجل؟
تفسير تطبيق	٢- ماذا تفهم من مصطلح "الانفتاح والمصارحة فى الأمور العاطفية والجنسية"؟
تفسير تطبيق	٣- اذكر ميزتين وعيبين للعلاقة القائمة على "الانفتاح والمصارحة فى الأمور العاطفية والجنسية".
تقييم	٤- إلى أى مدى تتفق مع الرأى القائل بأن رغبة الرجل فى السيطرة تمثل تهديدًا للعلاقات العاطفية الحميمة؟
تقييم	٥- إلى أى مدى تتفق مع الرأى الوارد فى الموضوع السابق بأن وسائل الإعلام هى التى تملك القدرة على رسم صورة الزواج المثالى؟
تحليل تقييم	٦- ما دلالات المصطلح بالنسبة للمخاوف النسوية من اللاتكافؤ فى "العمل العاطفى"؟

ويدعو النسويون الليبراليون إلى حصول المرأة على حقوق متكافئة. وتشمل هذه الحقوق المساواة فى حق الإتاحة (أى حق الالتحاق بالمهن والأعمال التى

يحظر عليها الاشتغال بها حتى الآن)، وكذلك حق تكافؤ الفرص (الحصول على معاملة متساوية). ويلاحظ أبوت ووالاس (١٩٩٠) أن النسويين الليبراليين قد ناضلوا ضد القوانين والممارسات التى تمنح الرجال حقوقًا تمنعها عن النساء، أو التى تستهدف "حماية" المرأة، كما يضغطون على الحكومات أن تدعم التشريعات التى تجرّم التمييز على أساس الجنس وتضمن استمتاع النساء بالمساواة فى التقدير الأدبى والمادى فى مكان العمل.

ولا يستهدف النسويون الليبراليون تطوير فهم دقيق متعمق للأسباب البنائية المسئولة عن استغلال المرأة، وإنما يسعون إلى تحقيق المساواة. ولهذا لم يهتموا كثيرا بتتبع تاريخ القهر الذى تعرضت له المرأة، أو الإطاحة بالنظم الأبوية أو الرأسمالية. ويؤمن النسويون الليبراليون أن عدم المساواة بين الجنسين لن يزول إلا عبر القنوات السياسية، والاقتصادية، والتشريعية. والهجوم المباشر الوحيد الذى يوجهونه يصبونه على "الانحياز الجنسى للرجال"، الذى يتعين مواجهته على كافة الأصعدة. وتنطوى اليوتوبيا (العالم المثالى) النسوية الليبرالية على: حرية الاختيار، حيث يتمتع كافة الأفراد بحرية اختيار أسلوب الحياة الذى يرونه الأنسب لهم، وهم يدركون بيقين أن جنسهم (النوع) لن يكون عائقًا يحجب عنهم أى فرصة متاحة.

تقييم النسوية الليبرالية

نقاط القوة

١- تمثل النسوية الليبرالية أكثر الاتجاهات براجماتية (عملية) فى تناول قضية عدم المساواة التى تخضع لها المرأة فى المجتمع، وربما تمثل أكثر السبل واقعية نحو التغيير. وهذا ما يجعلها الأقرب إلى قلوب غير النسويين، قياسا على النظريات الراديكالية والمتطرفة.

٢- لقد بذل النسويون الليبراليون الكثير من أجل دعم وتأكيد تكافؤ الفرص، كما أوجدت النظرية سياسة اجتماعية تقوم على الترحيب والتقارب. وقدمت عددًا من الرؤى والتوجهات الأساسية التى تتوافق مع المعتقدات السياسية السائدة، من بينها خلق مسارات مهنية للنساء، والمساواة فى حقوق الوالدية، والحاجة إلى تعليم متحرر من التحيز الجنسى...إلخ.

أوجه القصور

١- لا تبدى النظرية النسوية الليبرالية اهتمامًا كبيرًا بظاهرة إخضاع المرأة على امتداد التاريخ. ويعد النسويون الحقيقيون أن ذلك يدل على إهمال صريح للسياق الذى أدى إلى الأنماط التى نعيشها الآن من عدم المساواة الجنسية.

٢- لم يطور النسويون الليبراليون نظرية تتناول خبرات المرأة، أو تناوئ المعرفة "الذكورية السائدة" فى المجتمع. وبدلاً من أن يعمل النسويون الليبراليون على فرض التغير الاجتماعى من موقع قوة، اكتفوا بقبول التنازلات التى قدمها لهم من يسيطرون عليهم.

النسوية السوداء

يمكننا أن نربط ظهور النسوية السوداء ببدايات "الموجة الثالثة من النسوية"، وهى مجموعة من المواقف والآراء النقدية والنظرية قامت بصياغتها الحركة النسائية فى ثمانينيات القرن العشرين، استنادًا إلى قضية الفرق (بين جماعات النساء). وقد أوضح هذا الاتجاه أن غالبية الإسهامات النسوية قبل ١٩٨٠ كانت تنظر إلى النساء كجماعة واحدة. ومن شأن ذلك أن يتجاهل الفروق بين جماعات النساء، والدرجات المختلفة من الهيمنة والاستغلال التى تتعرض لها جماعات النساء المختلفة.

ويؤكد النسويون السود أن النسوية التى تخفق فـــى فهـــم وتنظيـــر التحيـــز العنصرى تكون نظرية معيبة (بيلشر، ١٩٩٣). لهذا يدعون إلى محاولة التعـــرف على التحيز العنصرى بنفس محاولة فهم الانحياز الجنسى للرجال، وإلى تـــصوير تجارب بعض النساء السود فى ضوء "اضطهاد ثلاثى الأبعـــاد"، فهـــن يتعـــرض لاضطهاد مركب من ثلاثة أبعاد إذا كن ينتمين إلى الطبقة العاملة، وكـــن نـــساء، وسودا أيضا. وقد عُرض هذا الرأى فى كتاب بريان وزملائه: "جوهر العرق: حياة النساء العاملات فى بريطانيا" (١٩٨٥)، الـــذى جاء فيه: "إذا كنت سيدة ســـوداء، فعليك أن تبدئى من نقطة الانتماء العرقى". ولدعم هذا الرأى لفتوا النظر إلى طائفة من أنواع الاضطهاد العرقى التى تتعرض لها النساء فى بريطانيا المعاصرة. وفى دراسة أحدث لفت لوسون وزملاؤه (٢٠٠٩) النظر إلى الاضطهاد ثلاثى الأبعاد أو "التشابك المعقد"، الذى يؤثر على فرص الفتيات السود فى تحقيـــق النجـــاح داخـــل المؤسسات التعليمية.

لهذا لا يدهشنا أن يسعى النسويون السود إلى تحدى إيـــديولوجيا الانحيـــاز الجنسى، والوضع غير المتكافئ للنساء، وإنما كذلك تحدى كافـــة نظـــم الـــسيطرة والهيمنة. وتشمل مثل هذه النظم: الانحياز الجنسى للرجال، والتحيـــز العنـــصرى، والانحياز الطبقى، وأصحاب نزعة الجنس الطبيعى، والإمبرياليـــة. كمـــا يلفتـــون الاهتمام بوجه خاص إلى ذلك الوعى الزائف الذى دفع نـــساء الطبقـــة الوســـطى، البيض، المؤمنات بممارسة الجنس الطبيعى إلى استخدام مصطلح "النساء" الـــصلد (عديم الملامح أو التفاصيل) كفئة واحدة فى مواجهة هيمنـــة الرجـــال، متجـــاهلين أعمال الهيمنة التى تقع على نساء أخريات لا يشتركن معهن فى نفس الطبقـــة، أو العنصر أو الميول العاطفية.

ويعتقد النسويون السود أن الطريق إلى تحدى الهيمنة يجب أن يكون من خلال البحوث. فعن طريق دراسة الخبرات الخاصة للنساء السود داخل الأسرة، والنظام التعليمى، وسوق العمل يمكن التوصل إلى فهم مصادر القهر وأسسه. ومن الأمثلة الحديثة لهذه البحوث تحليل بينينا وربنر (١٩٩٢) للشبكات الاجتماعية الباكستانية واقتصاد التهادى؛ ودراسة بتلر (١٩٩٥) عن خبرات الشابات المسلمات اللاتى يعشن فى بريطانيا. وقد أفلحت تلك الدراسة فى أن تلقى الضوء على مشكلة أخرى مؤداها: كما أن النسويين السود يحرصون على التأكيد على أنه لا يجوز النظر إلى "النساء" كمفهوم نوعى متميز، فإنه لا يجوز فى نفس الوقت قصره على "النساء السود" وحدهن. وتطرح تلك النقطة سؤالا عما إذا كان يتعين تعديل مصطلح "النسوية السوداء" لكى يستوعب التنوع العرقى أيضا. ومع ذلك قد يبدو من المعقول – فى الوقت الراهن – الزعم بأن الفروق بين النساء اللاتى ينتمين إلى الأقليات الإثنية قد تكون أقل من ناحية والمجتمع الكبير الذى تنتمى إليه من ناحية أخرى.

تقييم النسوية السوداء

نقاط القوة

١- استطاعت النسوية السوداء أن تلفت الانتباه إلى أن النساء لا يشتركن جميعا – بنفس القدر – فى مظاهر الاضطهاد فى المجتمع.

٢- كما استطاعت أن تخلق حركة أكاديمية أتاحت لعلماء الاجتماع السود أن يستخدموا مهاراتهم لصالح جماعتهم الثقافية، وأن يعبروا تعبيرا رقميا عن حجم الاستغلال الإثنى.

أوجه القصور

١- هناك ثمة خطر فى إبراز الاختلاف بدلا من التشابه، لأن ذلك يمكن أن يـؤدى إلى تفتيت الحركة النسوية وتهديد التحالفات التى يمكن أن تحقق تحرر المرأة.

٢- إن استخدام النسويين السود مصطلح "الأسود" الإجمالى العام يمكن أن يقع فـى خطأ مماثل لخطأ تجاهل الخبرات الخاصة/ المتنوعة لجماعات إثنية معينة الذى مارسه أولئك الذين ينتقدونهم.

الهجوم النسوى على التيار الذكورى فى علم الاجتماع

برغم كل تلك الفروق والاختلافات تتفق الاتجاهات النسوية الرئيسية علـى هيمنة التيار الذكورى على علم الاجتماع. وقـد صـك أبـوت ووالاس (١٩٩٠) مصطلح "التيار الذكورى الرئيسى" أو المهيمن Malestream(*) للدلالة على هـذه الظاهرة، واقتبسا كلمات من آن أوكلى للفت الانتباه إلى المشكلات التى تطرحهـا هذه الهيمنة الذكورية على علم الاجتماع:

" وهكذا يمكن أن يؤدى هذا التوجه إلى صبغ تنظيم علم الاجتماع – كعلم – بصبغة معينة، بحيث يصبح تجاهل النساء نظرة ذكورية منظمة، وليس مجرد خطأ أو تقصير عابر. فالنظرة الذكورية المؤسسة داخل تعريفات المجالات الموضوعية تؤدى إلى تهميش النساء وتحولها منذ البداية إلى مسألة جانبية". (أوكلـى، ١٩٧٤، ص ٤).

(*) المصطلح الإنجليزى تركيب خاص – للتعبير عن المعنـى المـذكور – باسـتخدام الكلمـة الإنجليزية الأصلية Mainstream (الاتجاه السائد) فأحل محـل المقطـع الأول Main كلمـة Male، لكى يؤكد مفهوم سيادة أو هيمنة الذكور. (المترجم)

وقد أبرزت آن أوكلى فى كتابها (٢٠٠٥) وجهة نظرها حول سيطرة "الانحياز الجنسى للرجال" على الجامعات، وعلى البحوث، وعلى علم الاجتماع. فعلى الرغم من التقدم الكبير الذى حققته النساء خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية منذ بدأن الكتابة والبحث، فمازالت الهيمنة الذكورية قائمة فى كثير من مجالات الحياة الاجتماعية.

ورغم وجود تحرك نشط وفعال خلال العقدين الماضيين نحو مزيد من الاهتمام بقضايا المرأة فى البحوث وفى الكتب، تلاحظ أبوت. ووالاس (١٩٩٧)؛ أننا ما زلنا نصادف تعميمات كاسحة لنتائج البحوث التى أجريت على رجال فقط بوصفها تشمل الرجال والنساء معًا، وأن الكتب المدرسية مازالت تدرج قضايا النوع بشكل إضافى وعارض، وليس بوصفها موضوعًا أساسيًا ومحوريًا. ولذلك ترى أبوت ووالاس أنه لكى تحقق النساء المساواة يتعين جسر الهوة التى مازلنا نصادفها فى المعرفة القائمة. وتقدمان ثلاثة اختيارات ممكنة للتغلب على مشكلات هيمنة التيار الذكورى على علم الاجتماع:

- **التكامل**: وذلك عن طريق إزالة التحيز الراهن فى علم الاجتماع، ووضع قضايا المرأة فى صدارة الاهتمام.
- **الفصل**: أى محاولة تكوين تخصص علمى مستقل، تحت عنوان: "علم اجتماع المرأة بقلم المرأة". (أوكلى، ٢٠٠٥، ص ٩).
- **إعادة صياغة الرؤية النظرية**: وذلك عن طريق إدراك الفائدة المتبادلة التى يمكن أن تحققها بحوث التيار الذكورى والبحوث النسوية، ومحاولة التأليف بين التيارين بشكل محكم التماسك.

ويرى أبوت ووالاس (١٩٩٧) أنه برغم احتمال وجود مقاومة من جانب علماء الاتجاه الذكورى فى علم الاجتماع، فإن الاختيار الأخير هو الواعد بتقديم أكبر عون للعلماء النسويين وللمرأة بوجه عام.

النسوية وبحوث علم الاجتماع

" اتسم علم الاجتماع – فى طرق التفكير التى يستخدمها، وفى مناهجه، وأطره النظرية، وموضوعات بحوثه – اتسم بأنه من أكثر فروع الدراسة العلمية انحيازًا للرجال... إذ شكَّل العالم الاجتماعى للذكور عالم علم الاجتماع الذكورى".
(أوكلى، ١٩٨٠، ص ٧١).

تصدى الباحثون النسويون – مثل أبوت ووالاس (١٩٩٠) وأوكلى (١٩٧٩-٢٠٠٥) – بكل قوة لنموذج البحث العلمى الإمبيريقى التقليدى الذى يتبناه أتباع التيار الذكورى فى علم الاجتماع. وقد أصاب هذا النقد لطرق البحث السوسيولوجى التقليدى صميم الأسلوب الذى يتم به إنتاج المعرفة فى علم الاجتماع، إذ قيل إن النساء قد تم استبعادهن من عملية إنتاج المعرفة، ومن أن يكنَّ موضوعًا لتلك المعرفة. فالمنظور التقليدى لدنيا علم الاجتماع ينطلق من رؤية ذكورية، سماها البعض "الانحياز الذكورى لعلم الاجتماع". كما اعترضت أوكلى (١٩٧٩) على الاستخدام غير النقدى "للمنهج العلمى" فى دراسة المجتمع. وأوضحت أنه يجب التصدى لصورة الباحث الرجل الذى يحمل بشرة بيضاء، خاصة فيما يتعلق بكون هذه الصورة جزءا من علاقة القوة بين الباحث والمبحوث. ولاحظت على وجه الخصوص أنه عندما يكون موضوع البحث امرأة، فإن ذلك يهبط بها – كمبحوثة – إلى وضع ثانوى أو خاضع. ولهذا كانت أوكلى تحرص فى أغلب البحوث التى أجرتها عن موضوعات الإنجاب، والحياة المنزلية، والأمومة، والعمل المنزلى؛ كانت

تحرص على معاملة مبحوثاتها كأشخاص متساويات معها فى المكانـــة، تـشاركهن خبراتهن وتتعاطف مع مشاعر المرأة. كما أنها كانت تدافع فى بحوثها عن المنـــاهج الكيفية وتطبقها. وحرصت كذلك فى البحث الذى أجرته عن التحول إلـــى الأمومـــة على إعادة تقدير طبيعة عملية المقابلة كأداة بحث تقليدية. وتبينت أن الكتب الدراســـية توجه قارئها إلى أن يكون منفصلاً عاطفيا، وموضوعيا، ومحايدا فيما يجريـــه مـــن مقابلات، وأن الطبيعة التدرجية لعملية البحث تضر بالبحوث التى تجريهـــا، والتـــى كانت تتضمن أغلبها مناقشات حول موضوعات على أعلى قـــدر مـــن الشخـصية والحميمية. بل إن أوكلى نفسها قد طُــلب منها – أثناء المقابلات التى أجرتهـــا – أن تبدى آراءها. وخلصت من ذلك إلى أن المقابلة يجب أن تكون عملية ذات اتجـــاهين، إذا كان يراد لها فعلاً أن تكشف عن معرفة سوسيولوجية عن المرأة. واكتشفت أنهـــا كونت علاقات وثيقة مع النساء اللائى قامت بمقابلتهن، وكثيرا ما ربطـــت الـــصداقة بينها وبين مبحوثاتها وظلت تحافظ على الاتصال بهن عدة سنوات.

ومع ذلك فقد قالت كلمة تحذير بخصوص مثل هذه الأساليب الكيفية:

"*إن الكلمات التى تكيل المديح للمنـــاهج الكيفيـــة فـــى إطـــار الدراســـات الاجتماعية النسوية وغيرها من الدراسات السوسيولوجية "المناهضة للوضعية"؛ هذه الكلمات تكون مدعاة للقلق أحيانا، إذ أن مثل هذه الطرق تبدو فى ذاتهـــا ضـــمانًا لتكـــــافؤ علاقـــــات القـــــوة بـــــين الباحـــــث والمبحـــــوثين".*
(الكتاب الذى حررته آن أوكلى، ٢٠٠٥، ص ٢٨١).

ونظرا من الصعب تحديد منهجية معينة للبحوث النسوية، ذلك لأن البـــاحثين النسويين لا يتبنون نظرة واحدة على الصعيد المنهجى. ولكن هناك مع ذلـــك مـــا أسماه كيلى (١٩٨٨) مجموعة من المبادئ أو الأسس العامة التـــى انبثقـــت مـــن الممارسة الفعلية للبحوث النسوية:

أولها: الاعتماد على خبرات النساء،

وثانيها: إجراء البحوث التى تعود بالفائدة على المرأة،

وثالثها: معاملة النساء كشريكات إيجابيات فى البحث لهن الحق فى أن يعبرن عن آرائهن وتصوراتهن،

وآخرها: رفض فكرة الموضوعية بالتأكيد على أن الباحث موجود على نفس "الصعيد النقدى" الذى يوجد عليه المبحوثون (وهو ما يعرف باسم "الانعكاسية النقدية").

وقد وجهت أنجيلا ماكروبى بعض الملاحظات النقدية إلى البحوث النسوية فى بداياتها، حيث لم تستطع أن تدرك أنها هى الأخرى كانت معبرة عن الدوائر الأكاديمية القوية، التى استخدمت العجز النسبى لبعض النساء لكى يحسّنوا ويطوروا مسارهم المهنى (انظر على سبيل المثال: ماكروبى، ٢٠٠٨). كما أوضحت أن هناك بعض الاختلافات والتقسيمات الرئيسية داخل "النساء" كمجموعة – وهى فروق وتقسيمات وفقًا للانتماء الإثنى، والانتماء الطبقى الاجتماعى، والعمر – من شأنها أن تؤدى إلى التنوع الكبير فى الخبرات وفهم العالم. إنه من السذاجة – كما يقول مفكرو ما بعد الحداثة – أن نفترض أن ما يربط بين النساء هو مجرد الانتماء إلى نوع واحد فقط.

تمرين ٢-٢٣	
تفسير تطبيق	انسخ نسخة أكبر من جدول التلخيص التالى، ثم استكمله من واقع المعلومات التى طالعتها فى هذا الجزء من الفصل عن المجتمع القائم على الهيمنة الذكورية.

المجتمع يقوم على الهيمنة الذكورية					
النظريات الرئيسية	النسوية الماركسية	النسوية الراديكالية	النسوية الاشتراكية	النسوية الليبرالية	النسوية السوداء
أهم الكُتّاب					
الفروض الأساسية					
نقاط القوة					
أوجه القصور					

محور الامتحان: كتابة مقال

ابدأ أولاً بمراجعة جداول التلخيص التى سبق لك أن أعددتها عن: نظريات الصراع، والإجماع. ربما يحسن بك أن تتصفح تلك الأجزاء من الفصل الخاصة بهذه الموضوعات.

ثانيا: حاول كتابة مقال عن الموضوعين التاليين، مستعينا بالإرشادات الخاصة بكتابة المقال، والواردة فيما بعد.

١- قارن ثم وازن بين نظريتى الصراع والإجماع. (٣٣ درجة)

٢- قم بتقييم الإسهام الذى قدمته كل نظرية منهما فى فهم الحياة الاجتماعية. (٣٣ درجة)

إرشادات لكتابة المقال

إرشادات عامة

١- اقرأ السؤال أولاً ثم فكر فيه بعناية.

٢- أجب عن مختلف عناصر السؤال على نحو متكامل، فلا تكتفى بكتابة أكوام من المعلومات من الكتب الدراسية. وحاول أن تكون المعلومات مناسبة للسؤال.

٣- فكر فى الإجابة وخطط لها جيدا قبل أن تشرع فى الكتابة.

٤- اهتم ببنية المقال:

- يجب أن تتبع إجابتك نمطًا منطقيًا.
- ادخل مباشرة فى الموضوع، واعمل إحالة إلى السؤال فى السطر الأول من الإجابة قدر الإمكان.
- استخدم جملاً رابطة واضحة لتساعدك على تنظيم إجابتك.
- اختم الإجابة بشكل مباشر، تصدر فيه حكمًا وتقدم مبرراتك لذلك.

٥- اهتم بمضمون المقال:

- تأكد من أن كل فقرة مرتبطة بالموضوع.
- خذ الاتساع الكافى لعرض المعلومات.
- لا تقم بوصف الشواهد أو الدراسات، وإنما طبقها على عناصر السؤال.
- قم بتقييم الدليل وأنت تستعرضه.

كيف أتطرق إلى الإجابة عن السؤال؟

التزم بهذه الخطة البسيطة المكونة من خمس نقاط. اهضميا جيدًا وسوف تساعدك على معالجة السؤال بطريقة منهجية.

١- **القراءة**: اقرأ السؤال بعناية.

٢- **التفكير**: فكر بعناية فيما يرمي إليه السؤال تحديدا. وكيف يمكنك أن تستخدم المعلومات التي لديك في الإجابة على الوجه الأفضل؟

٣- **قم بعملية عصف ذهني**: دوّن كل المعلومات/ الشواهد التي تعتقد أنها مرتبطة بموضوع السؤال. وتستطيع دائمًا أن تراجع كافة العناصر فيما بعد.

٤- **التخطيط**: ضع خطة للإجابة:

- ترجم الملاحظات التي دونتها أثناء العصف الذهني إلى سلسلة من الأفكار المرتبة منطقيًا.
- حدد عناصر الفقرة التي ستفتتح بها المقال.
- وحدد أيضًا عناصر الخاتمة.

٥- **الكتابة**: ابدأ الكتابة بعد أن تنفذ الخطوات من ١-٤. بعد ذلك سوف تتبين الشكل الذي ستتخذه إجابتك، ويجب أن تكون مطمئنًا إلى أسلوب معالجتك للسؤال.

هناك أمور كثيرة عليك أن تتذكرها:

هل يمكنك أن تذكرني ماذا ستفعل؟

- التزم بالخطة ذات الخطوات الخمس: اقرأ، فكر، مارس العصف الذهني، خطط، واكتب.

- ابدأ المقال مباشرة: دلل على أنك تفهم السؤال بمختلف عناصره، وسوف تجيب عليه بالمعلومات المناسبة.
- استخدم جملا واضحة للربط بين الفقرات، بحيث يكتسب مقالك هيكلا منطقيا.
- نظم الفقرات وفق بنية محددة: الجمل الرابطة، الشواهد (الواضحة والموجزة)، التفسير (ماذا يعنى ذلك؟)، التطبيق (وإلى أى مدى يرتبط بالسؤال؟)، التقييم (مدى الفائدة، وكيف يؤثر على الرأى؟)، راجع السؤال مرة أخرى.
- اختم الموضوع مباشرة وبقوة: قدم إجابة مستندة إلى أسباب ومبررات تنبع منطقيا من الآراء المعروضة فى المقال.

المفاهيم المهمة

•الإيديولوجيا •الهيمنة •الصراع •الإجماع •الأخلاق البروتستانتية

•نزعة التأويل •نظام سلطة الأب • التيار الذكورى المسيطر

التفكير النقدى

- هل مازال للنظريات التقليدية – كالماركسية والوظيفية – مكان داخل علم الاجتماع الحديث، وهل يسعها أن تساعدنا على تفسير وفهم العالم الاجتماعى المعاصر؟

- هل تعمل النظريات المهتمة بدراسة الفعل والقواعد في المجتمع – كالتفاعلية والإثنوميثودولوجيا – إلى التقليل من مكانة النظريات البنائية أم تمثل استكمالاً ودعماً لها؟
- ما مدى أهمية النسوية بالنسبة لوضع المرأة في المجتمع المعاصر؟

الفصل الثالث

المعارك النظرية

بنهاية هذا الفصل ينبغي أن تكون قادراً على:

- تمييز الأربع معارك الرئيسية التي استحوذت على انتباه علماء الاجتماع التقليديين:

١- معركة الحداثة في مواجهة ما بعد الحداثة - وضع الشواهد الدالة على موقف كل طرف.

٢- البنائية في مواجهة الفعل الاجتماعي.

٣- الرؤية التطورية في مواجهة التحليل الآني (أي تحليل الوضع الراهن)

٤- الوضعية في مواجهة الوضعية المضادة.

- الإحاطة بالحجج التي تستند إليها كل معركة فكرية في جانبيها (أي: فيما تقول به وفيما ترفضه).
- فهم الدلالات الضمنية لهذه الحجج فيما يتصل بالطريقة التي يفهم بها المجتمع ويدرس.
- التعرف على الموقف الذي يتبناه كل منظور فكري في كل معركة من هذه المعارك.
- إعمال الفكر في الخصائص والمزايا النسبية لكل معركة فكرية، وتقييم ما أسهمت به في إثراء فهمنا للحياة الاجتماعية.

مقدمة

زودك الفصل الثاني من هذا الكتاب بمعلومات عن المنظورات الفكرية الأربعة الكبرى في دراسة العالم الاجتماعي. ورغم أن كل منظور منها قُدم بوصفه اتجاهاً/أو منحىً متميزاً ومستقلا، فلعلك لاحظت وجود قدر من التداخل بين بعض هذه الاتجاهات. ويكمن أحد أوجه هذا التداخل في أن كل هذه المنظورات الفكرية "حداثية" في طبيعتها. ونقصد بالحداثية أن كل واحد من هذه الاتجاهات يزعُمْ، وبطريقته الخاصة، أنه قادرٌ على تمثيل الحقيقة فيما يتصل بطبيعة المجتمع، وعلى إظهار هذه الحقيقة من خلال تقديم الدليل. وإنْ كان ثمة شكلاً مختلفاً وأحدث عهداً من أشكال علم الاجتماع – والمعروف باسم ما بعد الحداثة – يُنكر هذه الإمكانية، مُحتجا بأنه لا وجود لما يُمكن اعتباره حقيقةً أو زيفاً، فلا يوجد إلا أشكالٌ مختلفة من الأحداث. وتعرف هذه المعركة الفكرية باسم معركة الحداثة في مواجهة ما بعد الحداثة، وتتركز في قضية وضع الشواهد المؤيدة لموقف كل فريق.

يبدو أن بعض المفكرين يُحبّذون البحث في الجوانب البنائية للمجتمع، كما يبدو أنهم يَرون هذه الجوانب هي المفتاح لفهم الحياة الاجتماعية. على حين يُفضل غيرهم أن يتخذوا من الفرد منطلقا لفهم المجتمع ويُركزون على المعنى، والفعل الاجتماعي والتفاعل بين أعضاء المجتمع. وهذه المواقف الفكرية المختلفة ذات صلة بالمعركة الفكرية الثانية المُقرر أن نتأملها ونمعن النظر فيها في هذا الفصل، وهي معركة البنائية في مواجهة الفعل الاجتماعي.

ولعلّك لاحظت أيضاً أنه يبدو أن بعض المفكرين النظريين يولون أهمية خاصة للتحليل التاريخي، مُشيرين بذلك ضمنا إلى أن المراحل المبكرة للحياة

الاجتماعية تستطيع مساعدتنا في فهم سبب انتهاء المجتمع إلى ما انتهى إليه. ويبدو غيرهم أكثر اهتماما ببحث ظواهر الوقت الحاضر وإعمال الفكر في المؤثرات المعاصرة. وسوف نستعرض هذين الموقفين الفكريين عند مناقشتنا للرؤية التطورية فقي مواجهة نظرية التحليل الآني (أي تحليل الوضع الراهن).

وتُقدّم فكرة محورية أخرى تناولناها في الفصل الثاني من هذا الكتاب أساس المعركة الفكرية الرابعة: وهي معركة الوضعية في مواجهة الوضعية المضادة. وتتعلق هذه المعركة بالسؤال عمّا إذا كان بالإمكان تبنّي طرق البحث المُستخدمة في العلوم الطبيعية بتطبيقها على دراسة العالم الاجتماعي. يميل الوضعيون إلى القول بأن هذا أمرٌ ممكن، وأن علم الاجتماع سيستفيد استفادةً كبيرة من قيامه بذلك. ويعترض مناهضو الوضعية على هذا التصور بشدة، ناظرين إلى أن استخدام المنهج العلمي في علم الاجتماع ليس أمراً عملياً ولا مفيداً.

وسوف نتناول بالتكفير العميق كلّ واحدة من هذه المعارك الفكرية تباعاً: الحداثة في مواجهة ما بعد الحداثة، والبناء في مواجهة الفعل، والتطوري في مواجهة الآني (أو الحاضر)، والوضعية في مواجهة الوضعية المضادة. وسوف نعرض للمُسلّمات الرئيسية التي يستند إليها كل موقف فكري، كما سنحاول تبين أوجه الصلة بين المفكرين الذين استعرضنا أفكارهم في الفصل الثاني وبين المواقف الفكرية التي التزموا بها في كل معركة. وسنناقش دلالات هذه المعارك والرؤى الفكرية بالنسبة لإجراء البحوث، كما سنشير إلى أحد البحوث كمثال على ذلك. ثم نستعرض – أخيرا – الخصائص والمزايا النسبية لكل جانب من جوانب كل معركة فكرية، كما سنقدم أفكاراً موجزة عن فائدة هذه المعارك لعلم الاجتماع بوصفه تخصصا علميا.

للوقوف على عرض أكثر تفصيلاً للحداثة ولما بعد الحداثة ينبغي أن تراجع الفصل الرابع من هذا الكتاب. (معالجة كاملة لموضوع ما بعد الحداثة). فالمعركة الفكرية هنا تتعلق بطبيعة الشواهد المستخدمة وبما إذا كان بإمكان تلك الشواهد – أوليس بإمكانها – أن تؤيد صحة المعرفة السوسيولوجية. ويدّعي كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة التي ناقشناها في الفصل الثاني أنه قادر على تصوير حقيقة الحياة الاجتماعية (أي واقعيا الفعلي) ويحاول أن يُبرر هذه الدعوى من خلال تقديم الشواهد الإمبيريقية الدالة على ذلك. وتميل هذه المنظورات الفكرية، بطبيعة الأمر، إلى الاختلاف فيما يتصل بطبيعة تلك الشواهد ومدى وفائها بالمطلوب، إذ يفضل بعضها الشواهد الأقرب إلى الطابع الإحصائي والكمي، على حين تبتكر اتجاهات أخرى شواهد أقرب إلى الطابع الوصفي والكيفي. ومع ذلك، فإن القول بأن علماء الاجتماع يمكنهم، من حيث المبدأ، تقديم الشواهد التي تؤيد صحة رأيه؛ هذا القول يصدق – في الحقيقة – على جميع المنظورات الفكرية. وهذا القول (أو الحُكم) محوري بالنسبة لفلسفة الحداثة، ولذلك فإننا قد نقول إن المنظورات الفكرية الأربعة الواردة في الفصل الثاني من هذا الكتاب تعد كلّها حداثية في طبيعتها.

الإبستمولوجيا

الإبستمولوجيا هي نظرية المعرفة وهي فرع من فروع الفلسفة، وهو أمر في غاية الأهمية في هذه المعركة الفكرية. والإبستمولوجيا معنيّة بما يُعد دليلاً أو برهانا، أعني بذلك ما الشروط التي لابد من استيفائها لإقرار صدق (أو زيف) المعرفة السوسيولوجية. ويتمثل الموقف الإبستمولوجي لمعظم المنظورات الفكرية الحديثة – كمنظور الفلسفة الوظيفية مثلا – في أن الدليل أو البرهان الإمبيريقي هو المعيار الأساسي لإثبات الصدق.

ويتم توليد الدليل الإمبيريقي من خلال استعمال طرق البحث السوسيولوجية التي تُركز على العوامل الموجودة في المجتمع "القابلة للرصد/أو الملاحظة"، والتي يمكن دراستها. ومن ثم فإن علماء الاجتماع هؤلاء يتعين عليهم أن يُجروا بحوثهم باستعمال طرق البحث الأساسية: كالمقابلات، والاستبيانات، والملاحظة و/أو البيانات الثانوية التي منها الإحصائيات الرسمية، والوثائق واليوميات لتوليد الدليل الإمبيريقي المؤيد/ أو المفنِّد للفرض الذي افترضوه. ومع ذلك، فإن مفكري ما بعد الحداثة يُحاجُّون بأن هذا المعيار (أي الدليل الإمبيريقي) غير مقبول لأنه يُبرر نفسه بنفسه. إذ يتساءل مفكرو ما بعد الحداثة قائلين: "ما هو الدليل الذي يمكننا استخدامه لكي نثبت أن أيّ دليل مبني على الحقيقة؟ ولاشك أنه لا توجد إجابة معقولة على هذا السؤال بطبيعة الحال - فهذا نوع من اللغو أو التكرار اللفظي - ومعناه: قول نفس الشيء مرتين باستعمال كلمات مختلفة. فنحن في حاجة إلى التسليم بما نحاول إثبات صدقه من أجل أن نُثبت صدقه!! والواقع أن مفكرى ما بعد الحداثة يذهبون إلى أن جميع معايير إثبات الصدق (والتي تشمل الشواهد الإمبيريقية، الكمية منها والكيفية، والاتساق المنطقي؛ والتطبيق العملي - وهل لهذا التطبيق من جدوى؟)؛ يقول مفكرو ما بعد الحداثة إن جميع هذه المعايير بطبيعتها تبرر نفسها بنفسها، ومن ثم تكون غير مقبولة لأن هذه المعايير نفسها - تحديداً - هي الأساس الذي يستند عليه البرهان المطروح. وبناء على هذا الزعم ترفض فلسفة ما بعد الحداثة الإبستمولوجيا كما ترفض -بناء على هذا- مفهومي الحقيقة والزيف، وتضع مكان تلك المفاهيم مفهوم النسبية.

ونزعة النسبية هي الموقف الفكري الذي يرى أنه، في غياب البرهان الدال على الصدق، يكون من المحال تقرير ما هو التفسير السوسيولوجي الأفضل أو الأسوأ من غيره. وكنتيجة لذلك، يتعين النظر إلى المجتمع أو إلى الواقع الاجتماعي باعتباره نوعاً من التصور الفكري. فمفكرو ما بعد الحداثة يرون أن المعرفة

بأكملها، أو الحقيقة المزعومة، مرتبطة بالسياق أو الموقف الاجتماعي الذي تُستمد منه. فلا وجود لمثل تلك المعرفة الموضوعية، أو المحايدة، أو المتحررة من القيم. وكل واحد من المنظورات الفكرية المذكورة في الفصل الثاني يفسر طبيعة المجتمع وفقاً لتصوره الخاص، كما أنه لا تُوجد وسيلة موضوعية للاختيار بين هذه المنظورات الفكرية.

تحليل - تقييم	تمرين ٣ - ١

فكِّر في الأنماط المختلفة للمعرفة: المعرفة العلمية، والدينية، والفنية، والبدهية. إلى أي مدىً يمكننا أن نقول إننا "نعرف" شيئا ما؟ اُكتب قائمة بأربعة أمور ترى أنك "تعرف" أنها صادقة أو زائفة. ثم حاول أن تطبق أحد التوجهات الآخذة بما بعد الحداثة على هذا الحكم. وإليك مثالاً لتبدأ به:

العالم مستدير- زودتنا التجارب العلمية والسفر في الفضاء بالبرهان الذي لا يمكن نقضه على أن الأرض كُروية.

يميل مفكرو ما بعد الحداثة إلى الذهاب إلى أن هناك تفسيرات أخرى لهذا الدليل. فوجهة النظر التي ترى أن الأرض كروية تتلاءم مع التصورات العامة لطبيعة الكون، والعلم، والأنساق الاعتقادية على نحو يشبه كثيراً ملاءمة وجهة النظر التي كانت ترى أن الأرض مسطحة أثناء العصور الوسطى مع التصورات العامة للكون والعلم والمعتقدات عندما كانت الكنيسة تُحدد ما هو صادق وما هو زائف (انظر موقع على الشبكة بعنوان: "جمعية الأرض المسطحة" (www.theflatearthsociety.org). فهل رأينا الدليل -فعلاً- على وجود أرض كروية من واقع التجارب التي أجريت، أو من خلال رحلات السفر في الفضاء، هل رأينا هذا الدليل بأعيننا؟

لاحظ كل من هارالامبوس وهولبورن (٢٠٠٤ص ١٩٦٩):

"تؤكد الاتجاهات الفكرية البنائية، كالوظيفة وبعض أشكال الماركسية، على أهمية الطريقة التي يقوم بها بناء المجتمع بتحديد السلوك الإنساني. أما الاتجاهات الفكرية القائلة بالفعل الاجتماعي، والتي تسمى الاتجاهات التأويلية – والتي منها مثلا تلك الاتجاهات التي دعا إليها فيبر، والتفاعليون الرمزيون، والإثنوميثودولوجيون – فتذهب إلى أن البشر هم الذين يخلقون المجتمع من خلال أفعالهم لهم. وهذا التمييز بين الاتجاهين ليس دقيقا ولا قاطعاً، فمعظم المنظورات الفكرية في علم الاجتماع تبدى اهتماما بكل من البناء الاختماعي والفعل الاجتماعي معا، إلا أن معظم المنظورات الفكرية تؤكد عادة على أهمية واحد من جوانب الحياة الاجتماعية على حساب الجوانب الأخرى".

تقدم لنا هذه الملحوظة مُنطلقاً مثاليا لمناقشتنا للبنائية في مواجهة الفعل الاجتماعي. وسيتضح في سياق هذه المناقشة السبب في أن "هذا التمييز ليس قاطعا" والسبب في كون معظم علماء الاجتماع مرغمين على الإذعان بأن موقفهم الفكري المفضل لديهم قد يكون عاجزا عن التكيف/ أو التواؤم مع جميع الظواهر. كما ستظهر هذه المناقشة أن كل موقف فكري أكثر تعقيدا في الحقيقة مما يُراد بنا أن نعتقده.

البنائية

على الرغم من أن النظرة الشائعة للبنائية هي أنها تؤكد على أهمية البناء الاجتماعي على حساب الطريقة التي يتبعها الأفراد في تفسير العالم (أي: تفسير الحياة الاجتماعية)، فإن الأسس التي يرتكز عليها هذا الاتجاه أكثر تعقيدا من ذلك.

وفي ذلك يُقدم كريب Craib نظرة ثاقبة مفيدة في التطور التاريخي للبنائية يتضح منها أن هذا الاتجاه لا ينفرد به علم الاجتماع وحده، بل يعكس صورة التفكير في مجموعة من التخصصات الأكاديمية الأخرى، بما فيها الفلسفة، وعلم اللغة، والتحليل الثقافي، والتاريخ، والأنثروبولوجيا. ورغم أن البنائية حظيت بمكانة العقيدة في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، فإن كريب يرجع جذورها إلى أعمال عالمي الاجتماع الفرنسيين أوجست كونت وإميل دوركايم في القرن التاسع عشر، وإلى أعمال فردنان دى سوسير والمدرسة الشكلية الروسية في النقد الأدبي.

تبلورت البنائية في خضم الاستجابة للحاجة إلى فهم المجتمع في عصر من عصور التغير الاجتماعي السريع. وكان مأمولاً أن يستطيع المفكرون تقديم رؤية لطريقة أداء المجتمع لوظائفه حتى يصير الناس أكثر قدرة على تحقيق النجاح في مواكبة الانتقال من أحد أشكال المجتمع (وهو المجتمع قبل الصناعي) إلى شكل آخر (وهو المجتمع الصناعي). وقد تبنى البنائيون، كمنطلق لتحليلهم للمجتمع، عدداً من المُسلمات الأساسية. وتم استخلاص هذه المُسلمات من عدد من التخصصات العلمية، كما جُمعت معاً لتقديم إطار فكري متماسك لفهم الحياة الاجتماعية.

وكان من الأمور المحورية في هذا الاتجاه المُسلمة التي تقول إن البشر لديهم ملكات/أو قدرات عقلية تمكنهم من فرض النظام على العالم. فالمجتمع يتشكل بواسطة وجود المعاني العامة، والتي لها بناء منطقي أساسيٌ. وهذا البناء لا ينشئه الأفراد أنفسهم (أعني أنه لا ينشأ من داخل الفرد)، بل الأحرى أنه يتم فرضه من قبل المجتمع (أعني أنه يُفرض من خارج الفرد) كما أنه يعكس أبنية الحياة الاجتماعية. ويُسلم البنائيون بأن العقل يبث الروح في الأفكار، إلا أن العقل ليس سوى ثمرة من ثمار المجتمع الذي يوجد داخله هذا العقل. ولذلك قد يتصور الأفراد أنهم يفكرون بعقولهم، إلا أنهم في الواقع مقيدون بالأبنية التي يفرضها المجتمع.

كيف يكون ذلك ممكنا؟ يُعطي المفكرون البنائيون اعتباراً كبيراً لدور اللغة في تشكيل الفكر. وقد كان هذا التصور مادة للجدل منذ مدة طويلة بين علماء النفس (انظر وورف Whorf؛ ١٩٤١، وبرونر ١٩٦٦؛ وفيجوتسكي Vygotsky ١٩٦٢؛ وبياجيه Piaget، ١٩٧٣) الذين سعوا للإجابة على السؤال القائل: "هل تقوم اللغة بتحديد الفكر أم يقوم الفكر بتحديد اللغة؟" وقد تشبَّثَ البنائيون بالجانب الأول من هذا التساؤل، ذاهبين إلى أنه إنْ وافقنا على أن التفكير هو عملية لُغوية، فنحن حينئذٍ نكون أسرى للمجتمع، وذلك لأن المجتمع هو الذي حدَّد بناء اللغة وطبيعتها. فنحن لا نستطيع أن نتصور بأذهاننا إلا ما نستطيع أن نقدمه/ أو نعبّر عنه باللغة، ولذلك يكون تفكيرنا مقيدا بالمُعجم اللغوي وبعلم الدلالة (أي: الفُروق بين المعاني).

وكما يلاحظ جروس Gross (١٩٩٢)، فقد جاء القدر الأعظم من القوة الدافعة وراء الجدل الدائر حول "اللغة والفكر" على يد إدوارد سابير Edward Sapir، وهو عالم لغة وأنثروبولوجي (وهو المتخصص في دراسة المجتمعات والثقافات المختلفة والمقارنة بينها)، وذلك في عشرينيات القرن العشرين، وكذلك على يد بنيامين لي وورف، وهو عالم لُغةٍ هاوٍ، وذلك في أربعينيات القرن العشرين. ويُعطينا الاقتباسان التاليان نكهةً لأعمالهما (أي: فكرة مُعبرة عنيا):

"إننا نرى ونسمع ونعايش الخبرات وغيرها من الأمور بنفس الطريقة إلى حد بعيد جداً لأن عادات مجتمعنا اللغوية تفرض علينا – وبصورة مُسبقة– اختيارات معينة للتفسير. ومن الناحية الفلسفية، يُعد هذا التصور تصوراً متطرفاً، لأنه يُفوض إمكانية فهم الإنسان للعالم الحقيقي". (سابير، نقلا عن جروس، ١٩٩٢).

"إن الفئات والأنماط التي نعزلها عن بعضها في عالم الظواهر لا نعثر عليها فيه لأنها تشخص في وجه كل مُلاحظٍ، إذ إننا نُجزئ الطبيعة تجزيئاً، وننظِّمها في إطار مفاهيم، ونصف الدلالة أثناء قيامنا بهذا العمل. ويرجع ذلك بصورة عامة إلى أننا مشاركون في اتفاقٍ ما يتمثل في نمط لغتنا". (وورف، نقلا عن المرجع نفسه).

كانت هذه الأفكار – ولا تزال – موضوع القدر الأعظم من الجدال والبحث، كما كانت لها دلالات مهمة بالنسبة للبنائية كنظرية. وسيُمكنك التمرين التالي من استكشاف معالم المعركة الفكرية حول اللغة في مواجهة الفكر بمزيد من التفصيل.

تفسير – تطبيق تحليل – تقييم	تمرين ٣ – ٢

يحثك هذا التمرين على استكشاف معالم الدليل الإمبيريقي الذي تمَّ جمعه للبرهنة على آراء سابير وورف، كما يحثُك على إعمال الفكر في مدى صحة البنائية في ضوء هذا الدليل.

١– قُم بالاضطلاع ببحثك في أغوار ما طرحه سابير وورف من أفكار. اكتشف، واقرأ عرضا يتناول المعركة الفكرية حول اللغة في مواجهة الفكر على الإنترنت. سيتعين عليك التفكير في مصطلحات البحث الصحيحة لتعثر على ما تبحث عنه. (ملاحظة: استعمل "جوجل سكولار" Google Scholar، بدلاً من جوجل فقط لتقوم ببحثٍ أكثر تركيزاً).

٢– اكتب حاشية بالأدلة المؤيدة والمعارضة لآراء سابير وورروف، وذلك باستعمال جدول موجز كالجدول الوارد فيما بعد لمساعدتك على ترتيب أفكارك. وقد أدرجت في الجدول بعض المعلومات لمساعدتك على بدء العمل.

المعركة الفكرية حول اللغة في مواجهة الفكر – مُوجز

	سابير	وورف
الأفكار الرئيسية	تعمل عادات مجتمعنا اللغوية على تشكيل قدرتنا على تفسير خبراتنا.	
• الأدلة المؤيدة		
• الأدلة المفندة	.	يستخدم كل من أيزنك Eysenck وكين Keane (١٩٩٠) البحث الذي أجري في موضوع القدرة على وصف الألوان في القول بأن الفكر يؤثر على اللغة.

٣ – ناقش مع واحدٍ على الأقل من زملائك دارسي علم الاجتماع ما إذا كانت المعلومات التي جمعتها تؤثر على مصداقية الفكرة البنائية القائلة بأن العقل ثمرة من ثمرات المجتمع الذي يوجد فيه.

البنائية والأفكار

يرى البنائيون أن العالم الذي نراه حولنا هو محصلة أفكارنا (كريب، ١٩٨٤). ومع ذلك، فإن هذه الأفكار لا يتمّ توليدها بصورة عشوائية، بل هي

تجليات أو مظاهر لبناء المجتمع. ولهذا السبب فإن لها منطقا أساسياً حاكما. ويعتقد البنائيون أن دراسة هذا المنطق الأساسي الحاكم يمكنها أن تزودنا بمعلومات مهمة عن الطريقة التي بها تقوم أفكارنا بإنتاج العالم الذي نعرفه. ويقدم كريب (١٩٨٤، ص١٠٨) كريب مثالاً تطبيقيا لتوضيح هذا المعنى:

"عندما يدّعي ليفي شتراوس أنه اكتشف البناء الأساسي الحاكم لأنظمة القرابة في المجتمع القبلي، فإنه يدّعي أنه اكتشف البناء الأساسي لمصطلحات القرابة، أي للأفكار التي بواسطتها تتناول هذه المجتمعات علاقات القرابة".

من المفترض أن البنائيين يميلون إلى تطبيق هذه المُسلَّمة في أي بحث من بحوث علم الاجتماع. ومن ثم، فإنه في أيّ بحث يستلفت الانتباه إلى المُكونات البنائية لأي جانب من جوانب الحياة الاجتماعية (كالتربية، والدين، والسياسة، والقانون، وما أشبه ذلك)؛ في أي بحثٍ من هذا النوع، يميل البنائيون إلى استعمال هذه المعلومة (أي: هذه المُسلَّمة) كوسيلة لاستكشاف اللغة والخطاب (أي: منطق التبرير العقلي) الذي يُشكل قاعدة هذا الجانب. وبتبني هذا التوجه يبدو البنائيون وكأنهم يسلمون بأن أبنية المجتمع أو أنظمته تعكس – بصورة مُتسقة وموثوق بها – صورة الأفكار المترابطة ترابطاً منطقياً لأعضاء الجماعة.

هنا تكمن إحدى نقاط ضعف التوجه البنائي. إذ يوجد فيه ميل لتجاهل حقيقة أن من المُستبعد أن تكون الأبنية هي المظهر المادي (أي الشكل الملموس) لسائر الأفكار، وذلك بسبب وجود صراعات المصالح بين أفكار الأفراد في المجتمع، ومن ثم فإن الذي يوجد في شكل مادي حسي قد يعكس الخطاب المهيمن أو الأكثر رواجاً وليس تعبيراً عن مجموعة متماسكة من الأفكار. كما أن التسليم بأن كل ما هو موجود ليس سوى انعكاسا لما يفكر فيه الناس ويعبرون عنه في حواراتهم؛ هذا التسليم ينطوي على ميلٍ لتجاهل حقيقة أن الكلام (أي الفكر) والواقع (أي

الممارسة/ أو التطبيق) قد يختلفان عن بعضهما. ويوضح كريب هذه النقطة بالإشارة إلى مثال ليفي شتراوس، مبينا أنه من المُمكن للسلوك القرابي (أي: العلاقات بين الأقارب) أن يختلف عما تريد الأفكار الأساسية التي يتم التعبير عنها في مصطلحات القرابة أن تحملنا على الإيمان به. ولا تعترف البنائية بهذا النقد.

وتمثل الوظيفية البنائية (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب) مثالاً لأحد الاتجاهات البنائية. ففي سعينا لفهم المجتمع، نُولي اهتماما للنظم الفرعية المختلفة للبناء الاجتماعي وللطريقة التي بها تترابط هذه النظم الفرعية بعضها ببعض لتساهم في المجتمع ككل. والنظم الفرعية التي يُنظر إليها باعتبارها نظما فرعية محورية هي: الاقتصاد، والأسرة، والنظام التعليمي، والنظام السياسي، والنظام القانوني، والنظام الثقافي. فكل هذه النظم تتجمع لتخلُق المجتمع، أي: لتخلُق النظام الاجتماعي الكلي. وتعمل جميع هذه النظم الفرعية بصورة متماسكة للوفاء بالاحتياجات الأساسية (أو: المتطلّبات الوظيفية) للمجتمع، كما أن لكل نظام فرعيّ دوراً مُكملاً في أداء الوظائف لمصلحة العناصر الأخرى للنظام الاجتماعي.

معرفة – فهم **تفسير – تطبيق تقييم**	**تمرين ٣ – ٣**

يُساعدك هذا التمرين على بلورة فهم للعلاقة المتداخلة بين النظم الفرعية والبناء الاجتماعي. انسخ الجدول الموجز المبين هنا، وانتفع بالخانات المستوفاة كدليل إرشادي، لكي تكمل الخانات الخالية، وذلك لتوضيح الطريقة التي بها يؤثر كل نظام فرعي في النظام الاجتماعي الكلي ويتأثر به.

تفسير الوظيفية البنائية لدور النظم الفرعية في النظام الاجتماعي الكلي			
اسم النظام الفرعي	ما الإسهام الذي يقدمه للمجتمع ككل؟	على أيّ نحو يتأثر بالبناء الاجتماعي؟	ما النظم الفرعية الأخرى التي يرتبط بها؟ وما طبيعة العلاقة؟
الاقتصاد			يؤثر الاقتصاد في سائر جوانب الحياة الاجتماعية، كما أنه يتأثر بالطريقة التي بها تؤدي النظم الفرعية أدوارها.
النظام القانوني	يؤمّن المعايير المشتركة للسلوك، كما يكفل العقوبات على ارتكاب الأخطاء.		
الدين		يُمكن غرس الاتجاهات والقيم السائدة في الأذهان في صورة العقيدة الدينية.	

النظام التعليمي		-	
الثقافة			يتم توليد الثقافة عن طريق ما في المجتمع من أنساق القيم ومن المعتقدات، كما تسهم الثقافة في إثراء أنساق القيم والمعتقدات هذه.
الأسرة	تقوم بالتنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع ورعايتهم، كما تهيئ للفرد مجالا ينطلق منه للارتباط بالمجتمع الأوسع.		
النظام السياسي			

وتمثل الماركسية البنائية نموذجا آخر للاتجاه البنائي. إذ يزعم الماركسيون البنائيون أن الأبنية الأساسية هي التي تحدد أفعالنا، وأن أفعالنا تقوم بالحفاظ على الأبنية الاجتماعية وتعيد إنتاجها. وهكذا يصبح البشر مجرد دُمىً في يد الأبنية الاجتماعية، والتي تصبح بدورها نوعاً من الآلات التي لا تكف عن الحركة (كريب، ١٩٨٤). وعند الماركسيين، يتمثل المؤثِّر الأساسي داخل البناء الاجتماعي في الاقتصاد. وهذا الوضع له تأثير عام ومسيطر على سائر النظم الفرعية الأخرى، والتي يُنظر إليها بوصفها نُظماً تقوم بدور داعم في إعادة إنتاج البناء الاقتصادي للمجتمع، وتقوم – بصورة أعمّ – بإعادة إنتاج النظام الاجتماعي الكلي، والذي يُنظر إليه أساساً في ضوء الاعتبارات الاقتصادية.

يختلف التفسير الماركسي للبناء الاجتماعي عن التفسير الوظيفي من النواحي التالي:

- يُنظر إلى كل نظام فرعي على أنه يقوم بدور في إعادة إنتاج البناء الاقتصادي.
- يُنظر إلى كل نظام فرعي على أنه يتأثر بالاقتصاد.
- تُساعد الروابط القائمة بين النظم الفرعية على استدامة عمر البناء الاقتصادي وتعزيزه.

معرفة – فهم – تفسير – تطبيق – تحليل – تقييم	تمرين ٣ – ٤
سيمكنك هذا التمرين من التعرف على التفسير الماركسي للبناء الاجتماعي بمزيد من التفصيل:	

١- انسُخ الجدول الموجز المبيّن هنا واستوف البيانات المطلوبة، وذلك بالانتفاع بالخانات الكاملة البيانات.

التفسير الماركسي لدور النظم الفرعية في النظام الاجتماعي الكلي

اسم النظام الفرعي	ما الإسهام الذي يقدمه لإعادة إنتاج البناء الاقتصادي؟	بأية طريقة يتأثر بالاقتصاد؟	ما النظم الفرعية الأخرى التي يرتبط بها؟ كيف تقوم الروابط بتعزيز البناء الاقتصادي؟
النظام القانوني	النظام الاجتماعي ضرورة لازمة للاستقرار الاقتصادي/أو للإدارة المتماسكة للموارد الاقتصادية.		يقوم الدين والتربية بتعزيز القانون من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، والتي تدعو إلى التماسك الاجتماعي/أو الاستقرار الاجتماعي
الدين			
النظام		ينظر إلى التعليم	

التعليمي		- بصفة عامة- على أنه يعكس احتياجات الاقتصاد، كما أن جودة التعليم تتأثر بالموارد المالية المتاحة.	
الثقافة			
الأسرة	تقوم الأسرة بتوفير وتربية القوى العاملة المستقبلية اللازمة للرأسمالي بتكاليف مباشرة قليلة.		
النظام السياسي			

٢- لعلك لاحظت أن هذا الجدول يختلف عن الجدول السابق استيفاؤه والذي كان يتناول أفكار الوظيفية البنائية، حيث تم إسقاط إحدى الخانات:

(أ) أيٌّ جوانب البناء الاجتماعي الذي لم يُعالجه الماركسيون بوصفه كياناً متميزاً؟

(ب) ولماذا اتخذوا هذا الموقف؟

وكما أن البنائيين يدعون لبلورة فهم للعالم الاجتماعي يُركز على الأبنية الكلية والنظم الفرعية، فإنهم يأخذون بهذا الاتجاه عند قيامهم بالبحث. فهُم يجرون بحوثاً واسعة النطاق تتناول وحدات اجتماعية كبرى (ماكرو) لبلورة فهم لهذه النظم أو لهذا المنطق الكامن وراء مجال بحثهم المختار وهدفهم هو استخدام هذا الفهم كأساس لصياغة التعميمات ووضع القوانين الاجتماعية.

الموضوع (A)

انقسام إلى ثلاث شُعب

ويل هتون Will Hutton عالم اقتصاد يكتب في الصحف، كصحيفة الأوبزرفر البريطانية. ويبحث كتابه ذو التأثير الكبير والمعنون "الدولة التي نعيش فيها" (جوناثون كيب، ١٩٩٥)؛ يبحث في التغير الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي المعاصر في بريطانيا.

والتحليل الذي قدمه هتون تحليل إمبيريقي بدرجة بالغة، وأعني بذلك أنه يميل إلى أن يقيم اتجاهه على أساس البيانات التي لا سبيل لإنكارها أو "الحقائق" وليس على أساس أي اتجاه نظري معين....

لقد أصبح المجتمع البريطاني مُستقطباً، هذا ما يقول به هتون، فالفجوة بين الأغنياء والفقراء آخذة في الازدياد، مُحدثة بذلك مستويات مرفوضة ومدمرة من التفاوت/ أو عدم المساواة بين من يمارسون عملاً مضموناً ذا أجر كبير ومن هم على "الهامش"، ممن يتقاضون أجوراً منخفضة أو من يتوجب عليهم الاعتماد على نظام الإعانات المالية التي تصرف لهم منذ فترات طويلة. وكان هذا الاستقطاب ناجماً عن السياسات المالية لحزب المحافظين، خاصة ما نفذ منها

منذ أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، وهي السياسات التي أكدت علـــى أن السوق الحرة (وليست هيئات القطاع العام) هي الأفضل لتحديد "قيمـــة" الأجـــور والسلع، وتحديد طريقة تقديم الخدمات ذات التأثير الأعظم، وأعني بهـــا مـــثلاً: الماء، والغاز، والكهرباء.

ويذهب هتون إلى أن متطلبات السوق الحرة تسببت في إحداث نوع مـــن قوة العمل المُجزأة أو المنقسمة، أي: مجتمع الـــ٣٠- ٣٠ – ٤٠. فالثلاثون فـــي المائة الأولون في قاع التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية، وهم لا يعملون كلية أو يشتغلون بأعمال ذات أجور منخفضة، بجانب كون هذه الأعمال غير مضمونة. والثلاثون في المائة الأوسطون لديهم – في الحد الأدنى – عملٌ مضمون إلى حد ما، ويتمتعون بحياةٍ جيدة. والأربعون في المائة الذين في القمة يشتغلون بأعمالٍ مضمونة ومنتظمة ويعيش بعضهم – على الأقل – معيشة ممتازة إلى حدٍ كبير.

وفي سنة ٢٠٠٣، ووفقاً للبحث الذي نشرته مؤسسة جوزيف راونتـــري Joseph Rowntree ، تبين أن ١٢,٥ مليون فردا كانوا يعيشون في فقر نـــسبي، وهذا العدد يشتمل على ٣,٨ مليون طفلاً، و٦,٦ مليون بالغاً في ســـن العمـــل، وأكثر من ٢ مليون من المتقاعدين. وهذا الوضع قائمٌ على الرغم مـــن الخطـــط الطموح التي نفذتها حكومة حزب العمال للقضاء على الفقر. (بعد انتهـــاء حكـــم المحافظين برئاسة تاتشر – المترجم). (المصدر: نقلا بتصرف عن مقالة تـــري وارد Terry Ward بعنوان "هل هو انقسام ذو ثـــلاث شـــعب؟ فكـــرة مجتمـــع الـــ٣٠-٣٠- ٤٠"، موجز بحث منشور في مجلـــة "علـــم الاجتمـــاع" ٦ (٣)، ١٩٩٧ ومن كتـــاب دنـــسكومبي .Denscombe, M بعنـــوان "تحـــديث علـــم الاجتماع"، ليسستر؛ أوليمبوس، ٢٠٠٤).

	تمرين ٣ – ٥
	سيمكنك هذا التمرين من التعرف على الشكل الذي قد يتخذه التحليل البنائي. اقرأ الموضوع (A) ثم أجب على الأسئلة التالية:
معرفة فهم	١– ما الموضوع الذي يشكل بؤرة اهتمام كتاب هتون؟
تفسير تطبيق	٢– وفقاً للموضوع (A)، ماذا يعني مصطلح "الإمبيريقي"؟
تفسير تطبيق	٣– ما الملاحظة التي يبديها هتون بشأن حالة المجتمع البريطاني؟
معرفة تفسير تطبيق	٤ – ما في رأيك الجماعات الاجتماعية التي قد تجد أنفسها على "الهامش"، أي تتقاضى أجوراً منخفضة وتعتمد على الإعانات المالية من الدولة؟
تفسير تطبيق	٥ – وفقا لرأي هتون، ما الذي تسبب في إحداث الاستقطاب؟
تفسير تطبيق تقييم	٦ – ما هو في رأي هتون الأثر الذي يحدثه الاستقطاب في البناء الطبقي البريطاني؟
تفسير	٧ – حدد ملمحين من ملامح التحليل البنائي يكونان واضحين في

تطبيق	عمل هتون.
تحليل تقييم	٨ – إلى أي مدى تتفق مع رأي هتون القائل بأن الاستقطاب قد حدث فعلا في المجتمع البريطاني؟
تطبيق تحليل تقييم	٩ – ما الذي يدل عليه عدد الفقراء بالنسبة للمجتمع من وجهة النظر البنائية؟
تحليل تقييم	١٠– لماذا قد تخفق السياسات الاجتماعية في تحقيق أهدافها في القضاء على الفقر؟
(ملحوظة: قد ترغب قبل الإجابة في الاطلاع على كتاب كيربي Kirby بعنوان "التقسيم الطبقي والتباين"، ١٩٩٩، حتى تستوعب فكرة بعض علماء الاجتماع عن تركيبة البناء الطبقي البريطاني).	

تقييم البنائية

نقاط القوة

١– المُسلمة القائلة بأن بالإمكان الاستدلال على وجود منطق أساسي أو بنية أساسية انطلاقاً من الدراسة الموضوعية للنظم الاجتماعية؛ هذه المُسلمة تقدم لنا بؤرة اهتمام مفيدة للبحث.

٢– تمثل البنائية محاولة متماسكة لفهم حقيقة المجتمع. فبدلاً من دراسة الظواهر الاجتماعية بمعزل عن بعضها، تقوم البنائية بدراستها في ضوء علاقتها

بالعناصر الأخرى للنظام الاجتماعي أو النسق الاجتماعي الكلي. إن السياق هو الذي يُعطي المعنى للظواهر الاجتماعية المعينة، ولهذا فإن عدم دراسة هذا السياق سوف تفقدنا القدرة على التوصل لرؤية ثاقبة لها قيمتها للظواهر الاجتماعية (ألق نظرة على التمرين رقم ٣ – ٦ للاطلاع على تطبيق للاتجاهات البنائية في دراسة بعض الأحداث الواقعية).

أوجه القصور

١- لا تقدم البنائية تفسيرا وافياً للطريقة التي يقع بها التغير الاجتماعي ولا لسبب حدوثه. وبدلا من الاعتراف بدور الأفراد في تشكيل مصيرهم الخاص بهم، ينظر البنائيون إلى الأفراد باعتبار أنهم يتأثرون بالتحولات الجارية داخل البناء الاجتماعي، ومع ذلك، فإن مصادر هذه "التحولات" قد تركها البنائيون غامضة، ولم يُعطوا إلا اهتماماً ضئيلاً بالطريقة التي تتجلى بها هذه التحولات في عقول وأفعال أعضاء المجتمع.

٢- يُوجه المفكرون من الآخذين بنظرية الفعل الاجتماعي وأصحاب النزعة الإنسانية انتقاداً شديداً لتشبيه البنائيين للأفراد بالدمى (التي يحركها المجتمع). على اعتبار أنه من الخطأ تصوير البشر بوصفهم مُنتجات يصنعها المجتمع. ويرون –على ذلك– أن البشر هم الذين يصنعون المجتمع من خلال الفعل والتفاعلات، وأن المجتمع لا يمكن أن يوجد مُستقلا عن البشر. فهو ليس له وجود قائم بذاته، لأنه بدون البشر لن يُوجد مجتمع.

تقييم	تمرين ٣-٦
	شهدت سنة ٢٠٠٨ الاقتصاد العالمي وهو يمر بأزمة. فقد أصيبت بعض البنوك الدولية الكبيرة بالإفلاس، بعد أن كانت تجني أرباحاً قبل ذلك، وكان ذلك الإفلاس راجعاً أساساً للخسائر الفادحة في القطاع المصرفي الذي يُمول سندات الرهن العقاري. فقد عانت أسواق المال (البورصات) من أضخم خسائر منيت بها على امتداد عدة عقود، كما شبه البعض هذا الوضع بالكساد العظيم الذي وقع في ثلاثينيات القرن العشرين. وتدخلت الحكومات الكبرى في أوروبا وأمريكا لدعم اقتصاداتها، فأقدمت على تأميم بعض المصارف مع تعهد الحكومات بضمان ديون تلك المصارف. ووصفت العناوين الرئيسية للصحف هذا الوضع بأنه "مجزرة تامة"، مع وصف الاقتصاديات الغربية بأنها باتت "على حافة الهاوية". باستعمالك لمعرفتك وفهمك للوظيفية والماركسية كمنظورين فكريين بنائيين، طبق هذين المنظورين على الأزمة الاقتصادية التي حدثت سنة ٢٠٠٨. ووضح كيف يمكن لكل منظور فكري منهما أن يفسر دور الاقتصاد وتأثيره على النظم الفرعية للمجتمع؟

الفعل الاجتماعي

يرتبط هذا الاتجاه الفكري أساساً بالمفكرين التفاعليين الرمزيين، والظاهراتيين، والإثنوميثودولوجيين، وذلك على الرغم من أن بعض عناصر هذا الاتجاه الفكري يمكن العثور عليها أيضا في أعمال ماكس فيبر".

ويقدر كلٌ من الوظيفيين البنائيين والمفكرين الآخذين بنظرية الصراع الدور الذي يقوم به الأفراد في بناء المجتمع. ويؤكد بارسونز (١٩٣٧) على أهمية الاختيار الفردي والمصلحة المتبادلة في تشكيل الفعل الاجتماعي. ويُضفى على هذا الفعل نوعا من الأهمية البنائية لأن من المُفترض أنه يوفر الأساس الذي يقوم عليه الفعل الاجتماعي المستقبلي: فالطريقة التي نتصرف بها كأفراد يشكلها المجتمع الكبير الذي نعيش فيه، وبذلك يمكن القول بأن الأفعال ذات منافع لكل إنسان. لهذا السبب نحرص على الاستمرار في التصرف بطريقة معينة.

وبالمثل يشخص دارندورف (١٩٥٩) التأثير الذى يحدثه السلوك الإنساني في بناء المجتمع. وهو يعترف بأهمية المصالح المشتركة والمصالح المتعارضة في تفسير طبيعة المجتمع، كما يرى أن هذه المصالح تنبع من الأدوار التى يقوم بها الأفراد ومن الطريقة التي تؤثر بها هذه الأدوار في سلوكهم. ويستكشف دارندورف كيفية وسبب ظهور الجماعات المتصارعة عن طريق إمعانه النظر في المصالح المشتركة للأفراد، والتي تعمل كأساس للفعل الاجتماعي. فهو يسعى لفهم هذا الأمر داخل سياق نسقي، وذلك عن طريق أخذه في الاعتبار أثر الظروف الاجتماعية السائدة في حدوث الصراع وفي الشكل الذي قد يتخذه ذاك الصراع. ويرى كريب (١٩٨٤)، أن هذه الأرضية المشتركة هي التي تجعل الوظيفية البنائية ونظرية الصراع مختلفتين عن علم الاجتماع التأويلي.

يرفض أصحاب نظرية الفعل الاجتماعي التفسيرات البنائية للحياة الاجتماعية. فهم يرفضون بشدة تلك المُسلّمة البنائية التي تذهب إلى أن الناس دُمىً تحركهم أفكارهم، وأن أفعالهم لا يقررها اختيارهم أو قرارهم، بل هي مُحصلة البناء الأساسي للأفكار أو منطق الأفكار. ويدلل المفكرون الآخذون بنظرية الفعل الاجتماعي على صحة موقفهم بأن الفعل الإنساني ينبني على أسس تفسيرات الفاعل

الاجتماعي. وهذا التفسير مُستوحىً من الخبرة الاجتماعية ومن أنساق المعاني المشتركة التي تبلورت عبر الزمان من خلال عملية التفاعل. ويستعمل كريب (١٩٨٤، ص٧٢) المماثلة المستمدة من عملية الحوار للتوصل إلى فهم جوهر هذا الاتجاه الفكري فيقول:

"يبدي العالم الاجتماعي نفس صفات التدفق، والتبلور، والإبداع، والتغيير التي تشبه ما نعايشه في حوار (محادثة) يجري بيننا ونحن على مائدة العشاء أو في حانة الشراب. فالواقع أن العالم مؤلف من جملة من الحوارات، الداخلية منها والخارجية".

وثمة عدد من المُسلّمات التي تشكل القاعدة التي يرتكز عليها الاتجاه الفكري للفعل الاجتماعي. وأول هذه المُسلمات أنه ينظر إلى البشر بوصفهم كائنات متفردة نظراً لقدرتهم على التفكير. ويتأثر التفكير بالتفاعل الاجتماعي ويؤثر فيه. ومن خلال الاتصال بالآخرين ومن خلال الخبرات الاجتماعية يصوغ الناس أفكارهم واتجاهاتهم واعتقاداتهم ويُعيدون صياغتها. والتأمل جزءٌ حاسم من هذه العملية، فيه يتفحص الأفراد المسارات الممكنة للفعل وما يترتب عليها من عواقب من خلال آليات المراقبة والمراجعة الباطنية. فهذا التأمل جزءٌ لا يتجزأ من أداء البشر لوظائفهم، حيث يجري باطنيا على مستوى تحت الوعي، بَيْد أنه يقوم – في نفس الوقت – بالتأثير في التفاعل الاجتماعي الذي يجري في العالم "الخارجي" أو العالم "الاجتماعي".

يقوم أصحاب نظرية الفعل الاجتماعي بمحاولة التعرف على المعاني التي وراء السلوك الإنساني في تشكيلة متنوعة من المواقع أو البيئات الاجتماعية. ويُعتبر عملهم محدود النطاق بصفة عامة، كما أنه يُركز على الطريقة التي بها يتفاعل الأفراد مع بيئتهم. ويرى هؤلاء المفكرون أن هذا العمل له أهميته لأنهم يعتقدون أن العالم الاجتماعي لا يزيد عن كونه شبكة من التفاعلات الاجتماعية. فإنه إن لم يقم الأفراد بإضفاء المعاني على خبراتهم، وممارسة الفعل والتفاعل فلن يكون هناك وجود للعالم الاجتماعي.

ويتزايد في الآونة الأخيرة الأخذ بالاتجاه الفكري القائل بالفعل الاجتماعي من قبل الباحثين في علم الاجتماع. وعلى الرغم من أن كثيراً من الباحثين ركّزوا على مجالات جديدة للدراسة، فإن البعض منهم قام بإعادة تناول بعض الموضوعات السابقة إلا أنهم طبقوا منظوراً فكريا مبتكراً فيما يتصل بفهم الشواهد البحثية والتعامل معها.

الموضوع (B)
اللغة والهوية الاجتماعية منذ سنة ١٩٨٧ يقوم روبين ووفيت – بالتعاون مع دكتور سُو ويديكومب Sue Widdicombe (بقسم علم النفس بجامعة أدنبرة) – في سلسة من المشروعات التي تُعنى بالثقافات الفرعية للمراهقين وهويتهم الاجتماعية. ويتناول علم النفس الهوية الاجتماعية والانتساب للجماعة، بصفة عامّة، باعتبارهما نتائج ومحصلات للعمليات العقلية أو المعرفية، في حين يميل علماء الاجتماع إلى النظر إلى العلاقات بين أعضاء الثقافة الفرعية باعتبارها استجابة رمزية جمعية لأشكال التفاوت الطبقي. وكبديل لهذه الاتجاهات التقليدية، يقوم هذان العالمان بالتعمق في دراسة الطريقة التي بها يتم بناء الهويات في إطار اللغة، ودراسة طريقة استخدام هذه الهويات كمصادر للدعم في عمليات التفاعل الاجتماعي. وتعتمد منهجية البحث عند هذين الباحثين على تحليل الحوارات" في علم الاجتماع وعلى "تحليل الخطاب" في علم النفس الاجتماعي. وقد جمعت البيانات المطلوبة لهذه الدراسات من المقابلات المسجلة مع أعضاء الثقافات الفرعية من الشباب، كجماعات "البانك Punks، والبلطجية من "حليقي الرؤوس"، وجماعات ممارسة العنف والخشونة من الفوضويين. وكانت هذه المقابلات قد

أجريت في عدد من البيئات الطبيعية المختلفة، والتي منها مثلاً: شوارع مدينة لندن التي يُعرف أن أعضاء ثقافات فرعية مُعيَّنة يتجمعونَ فيها، وفي الاحتفالات الموسيقية المحلية أو القومية. وقد نُشرت نتائج هذا البحث في كتاب تحت عنوان "لغة الثقافات الفرعية للشباب: الهوية الاجتماعية على صعيد الممارسة" (هارفستر و يتشيف، ١٩٩٤).

(المصدر: المبادرة البحثية، قسم علم الاجتماع، جامعة ساري Surrey، مدير المشروع روبين ووفيت).

	تمرين ٣ – ٧
	سيُمكنك هذا التمرين من التعرف بشكل متعمق على البحوث التي تجري انطلاقاً من منظور الفعل الاجتماعي. يوضح الموضوع (B) كيف يمكن لمنظور الفعل الاجتماعي أن يُقدم رؤى جديدة في موضوع موثق توثيقا جيداً: وهو موضوع الهوية الاجتماعية. اقرأ الموضوع ثم أجب على الأسئلة التالية:
تفسير تطبيق	١– إلى أي مدى يختلف البحث الذي أجراه ووفيت وويديكومب عن الاتجاه الذي يأخذ به علماء الاجتماع التقليديون.
معرفة فهم تفسير تطبيق	٢– ما المنظور الفكري الذي يبدو منعكساً في عملهما؟

تحليل تقييم	٣- ما المخاطر التي قد تنجم عن منهجية البحث التي اختارها هذان الباحثان؟
تحليل تقييم	٤- ما الرؤية التي يقدمها هذا البحث، والتي ما كان يمكن أن تظهر لو أن الموضوع قد درس من منظور بنائي.

تقييم نظرية الفعل الاجتماعي

نقاط القوة

١- من شأن تركيز هذه النظرية على الطريقة التي يكوّن بها الأفراد تصورهم عن العالم، أن تزيل خطر "تشيىء المجتمع"، أعني بذلك أن يُنسب للمجتمع وجود مستقل. وإنما يُنظر إلى المجتمع هنا باعتبار أنه مُنتج تصنعه أفعال الأفراد وتفاعلاتهم. وهذا التصور يضفي أهمية على التأثير الذي يمكن للأفراد أن يحدثوه بمجرد وجودهم.

٢- لا يحاول منظور الفعل الاجتماعي أن يكون بمثابة نظريةً للمجتمع. بل يظل ملتزماً بمُسلماتهِ الأساسية التي تقول إنّ البشر هم نقطة الانطلاق الصحيحة لفهم المجتمع، وتقول إنه ينبغي على هذا الاتجاه أن يبقى عند هذا المستوى. كما أن هذا الاتجاه لا يخلط بين الأمور بمحاولة عبور الفجوة التي بين الأفراد والأبنية الاجتماعية.

أوجه القصور

١- هذا المنظور محدود النطاق، وينقصه وجود إطار تاريخي. ويميل النقاد إلى القول بأنه مما يعيب هذا الاتجاه أنه لا يُدخل في حُسبانه الأبنية الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية والتأثير الكبير الذي تُحدثه في حياة الأفراد.

٢- يميل البنيويون إلى القول بأن المعاني الأساسية التي تشكل الفعل الاجتماعي والتفاعل الاجتماعي إنما يصنعها المجتمع، وأن ما يبدو كبداهة في عقول الأفراد إنما أنشأه المجتمع ولم يخلقه الأفراد.

الاعتراف بالمعنى: الفهم عند فيبر

عند استعراضنا للمعركة الفكرية الدائرة حول البنائية في مواجهة الفعل الاجتماعي، أصبح واضحاً أن من العسير ربط بعض التوجهات الفكرية - ربطاً مُحكماً - بجانب واحد فقط من جوانب هذه المعركة باعتباره مُضاداً للجانب الآخر. وسبب هذا أن الأعمال العلمية التي وضعها المنتمون لواحدٍ من أتباع هذين التوجهين يتضح أنها تتسم ببعض الملامح التي يتصف بها التوجهان كلاهما. ورغم أن المفكرين قد يستهلون تحليلهم انطلاقاً من منظور فكري بعينه، بنائياً كان أم آخذاً بمفهوم الفعل الاجتماعي، فإنهم ينتهون إلى إبداء قدر من الاهتمام بكل من البناء والفعل الاجتماعي. لذلك لا يدهشنا أن يسعى علماء الاجتماع حديثاً لبلورة نظرية اجتماعية تحتوي على فهمٍ لكلٍ من البناء الاجتماعي والفعل الاجتماعي (هارالامبوس وهولبورن ٢٠٠٦).

ويشيع النظر إلى نظرية التشكل الاجتماعي لجيدنز (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب) باعتبار أنها أحدث محاولة لبلورة نظرية اجتماعية تشتمل على الاعتراف بالبناء الاجتماعي والفعل الاجتماعي، وهي المهمة التي بدأها فيبر منذ أكثر من مائة سنة (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب). ويتسم اتجاه فيبر في دراسة العالم الاجتماعي بالتفرد على نحو، حيث سعى للتوفيق بين مَنْ دَعَوا إلى دراسة الوحدات الاجتماعية الكبرى على المستوى الماكرو) ومن دَعَوا إلى دراسة الوحدات الاجتماعية الصغرى (على المستوى المايكرو).

من الأمور المحورية للعملية البحثية عند فيبر مفهومه عن "الفهم" Verstehen، وهو فلسفة تؤكد على أهمية الحاجة لفهم المعاني التي يضفيها الأفراد على الظواهر الاجتماعية، والحاجة للتعرف على القواعد التي يصيغها المجتمع والتي تُحدد معنى الفعل الاجتماعى. وهنا تكمن طريقته فى تناول كلا جانبى الخلاف الدائر بين الفعل والبناء، حيث يمزج المعنى الذي يَعزوه الأفراد للظواهر الاجتماعية بالقواعد التي يقررها المجتمع.

ألهَمَتْ أعمال فيبر عدداً من علماء الاجتماع أن يأخذوا بأفكاره عندما يقومون بتطوير نظرياتهم الخاصة. ويُمكن أن نلمس تأثيره في نظرية الصراع، وفي الوظيفية البنائية، وفي النظرية النقدية، وفي التفاعلية. كما أنه مما لاشك فيه أن أعماله أدَّت بعلماء اجتماع آخرين إلى عبور الفجوة بين البنائية والفعل الاجتماعي عن طريق ابتكارهم لاتجاهات تتسع في نفس الوقت لكلا هذين الجانبين في تحليل الحياة الاجتماعية.

مثال ذلك، أن إيفانز Evans (١٩٩٧) تصف بالتفصيل اشتراكها في البحث الهادف للتعرف على أساليب استخدام الأماكن العامة في المدن، والتصورات المتعلقة بالأمان الشخصي. وقد سعى هذا البحث، والذي موّلَهُ مجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية، إلى الإجابة على عدد من الأسئلة على النحو التالي:

- مَن الذي يستعمل المكان العام في مُدننا ولأي الأغراض؟
- كيف يَخبُر الناس الأماكن العامة المختلفة في الأوقات المختلفة؟
- ما المشاعر التي تُولدها الأماكن المختلفة بالنسبة لمختلف الأفراد؟
- ما الاستراتيجيات التي يستخدمها الأفراد للسيطرة على مشاعر الارتباك، والخوف، والقلق عندما يستعملون الأماكن العامة؟

وتوضح قائمة الأسئلة هذه أن اهتمام الباحثة كان يدور على كلٍّ من القضايا البنائية (والمتمثلة هنا في أنماط استخدام سكان المدينة للأماكن العامة) وقضايا الفعل (خبرات المكان العام والمشاعر التي يولدها في الناس). وقد مَكّنتِ البيانات التي تحصلت عليها إيفانز وفريقٌ بحثها من المقابلات القصيرة (والقائمة على هذه الأسئلة) والتي أجريت في قلب مدينتي شيفلد ومانشستر، مكنتهم من بناء صورة لطريقة استخدام الشوارع أثناء شهر أغسطس سنة ١٩٩٢. ومكنتهم هذه الصورة من بلورة سلسلة من الأسئلة التكميلية من أجل الاستكشاف اللاحق مستقبلاً لاستعمال سكان المدينة للأماكن العامة. وكان هدفهم بلورة فَهْم للاختلاف بين الرجال والنساء في استعمال الأماكن العامة (انظر تمرين ٣ – ٨).

الموضوع (C)
الجنس والمدينة وجد البحث المقدم لأحد مؤتمرات الجمعية الجغرافية الملكية (البريطانية)، والذي عُقد في سنة ٢٠٠٨؛ وَجَدَ أن المُدن والأماكن الحضرية لا تزال تُصمَّم – بصفة عامة – لمصلحة الرجال. وقد افتتحت "إدارة التصميم النسائي"[*] قاعدة بيانات عن موضوع الجنس وبيئة المباني، كما أبدت احتفاء خاصا بالإنجاز الذي

(*) (WDS) Women's Design Service

حققه العمل الذي تقوم به المهندسات المعماريات. وعلى الرغم من ذلك، فإن مديرة هذه الإدارة ويندي دافيز تذهب إلى أن "معظم الأشياء الموجودة في بيئة المباني مُصَمَّمة وفقاً لنموذج رجالي تبعاً لطولهم، ولقوتهم، ولوزنهم، وكذلك تبعاً لحركتهم وهم يتجولون في المدينة. مثال ذلك، أن المقاعد الموجودة في القطارات، والتي حلّت محلها رفوف مائلة بانحدار لا يسهل الوصول إليها إلا لأفراد يزيد طولهم عن الطول المتوسط. وتصمم المراحيض العامة المخصصة للرجال، والأخرى المُخصصة للنساء، بمساحات لها نفس عدد الأمتار دون تمييز، أي بنفس المساحة، مما يعني ضمناً أن للنساء نصف عدد المراحيض إذا قورنت بعدد المباول الموجودة في مراحيض الرجال. ومن المقطوع به أن التخطيط لم يُدخل في حسابه حقيقة أن النساء غالباً ما يصطحبن أطفالاً معهن، وأن الكثيرات منهن يحتجن إلى إرضاع أو تغذية هؤلاء الأطفال الصغار، وقد يكن حوامل، أو قد يكُنَّ في فترة الحيض، وهي سائر جوانب حياة النساء التي قد تتطلب منهن أن يكون لهن بعض الأماكن التي تكفل لهن شيئا من الخصوصية. ومن المجالات الأخرى التي تعتبر في غير صالح النساء في البيئة الحضرية مجال تصميم المنازل، ومجال دور الحضانة، ومجال وسائل النقل العام، ومجال أرصفة الشوارع، ومجال المُتَنَزّهات والحدائق العامة. ووفقاً للدكتورة جيما بيرجس بجامعة كمبردج، فإن مُخططي المُدُن يتجاهلون القوانين الخاصة بالمساواة في التخطيط والتي تمَّ إقرارُها خلال سنة ٢٠٠٧.

ومع ذلك، فإن المهندسين المعماريين في الإدارات المحلية في شرق لندن وفي ساوث يوركشاير سَعَوا بنجاح في إدراج النساء في المبادرات الجديدة، كما أنهم كتبوا وجهات نظرهم في المذكرات التخطيطية لبعض المنشآت. ولعلّ هذا يُساعد على حماية النساء من الانتقاص من حقوقهن في استخدام الأماكن الحسية والجغرافية، على نحو ما كان عليه حالهُن في الماضي.

(المصدر: نقلا بتصرف من مقالة فيف جروسكوب Viv Groskop بعنوان: "الجنس والمدينة"، في صحيفة الجارديان، ١٩ سبتمبر ٢٠٠٨).

تمرين ٣ – ٨	تفسير – تطبيق تحليل – تقييم

فكر في البيئة المبنية في الحيّ الذي تعيش فيه. وحينما تكون في المرة القادمة سائراً أو متجولاً في منطقتك سجل ملاحظاتك عن المكان الذي تُوجد به مواقف العربات، وعن الإضاءة في الشوارع وفي مناطق التسوق، وعن الأرصفة، وعن الأماكن العامة كالمُتنزهات أو المساحات والأماكن الخضراء. هل يصدق على منطقتك القول بأن التصميم المعماري مبنى وفقاً للنموذج الرجالي؟

قم بزيارة موقع الشبكة الخاص "إدارة التصميم النسائي" www.wds.org.uk أو www.gendersite.org.uk للتعرف على المشروعات والأنشطة التي تعكس احتياجات النساء وتطلعاتهن.

الموضوع (D)

مُدُن الرجال: النساء والبيئة الحضرية

على امتداد شهر أغسطس سنة ١٩٩٢، خصصنا أماكن لعمل الباحثين الذين يُجرون المقابلات في مركزي المدينتين أي (منطقة "وسط البلد" التجارية) وفي مراكز التسوق الموجودة خارج وسط المدينة، وذلك في جميع أيام الأسبوع ابتداءً من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثامنة والنصف مساءً. وُجهت التعليمات إلى الباحثين بأن يستوقفوا كل خامس بالغ يمرُّ بهم (ويُعَرَّف البالغ بمن

يزيد عمره عن ١٦ سنة) وأن يجروا مقابلة سريعة مع هؤلاء البالغين. كما طلبنا من الباحثين أن يُسجلوا بعض التفاصيل الأساسية عن الأشخاص الذين فاتحهم الباحثون في الحديث ولكنهم رفضوا أن يشاركوا في البحث. وبذلك كان بوسعنا تكوين تصور عن استخدام الناس للشوارع أثناء ذاك الشهر.

وقد وجدنا أن عدداً من الرجال أكبر من عدد النساء كانوا يستخدمون هذه الأماكن الموجودة في منطقتي وسط المدينة من المدينتين المدروستين في جميع ساعات النهار و الساعات الأولى من المساء، كما وجدنا أن نسبة الرجال والنساء كانت متماثلة بشكل ملحوظ في كِلتا المدينتين. وبالنسبة لكل ١٠٠ رجل التقينا بهم في الشوارع قابلنا ٧٦ امرأة فقط. وكان من الأرجح أن نقابل نساءً أثناء ساعات النهار (من التاسعة صباحاً حتى السادسة بعد الظهر) وكان من الأقل احتمالاً أن نقابل النساء في أول المساء (من الساعة السادسة حتى الساعة الثامنة والنصف مساءً). ففي خلال الساعات الأولى من المساء قابلنا ٣١ امرأة فقط في مقابل كل ١٠٠ رجل. ومن الجدير بالذكر، أيضاً، أن هذا البحث كان قد أُجري أثناء شهر أغسطس، والذي يكون من شأن ساعات النهار الطويلة فيه أن تجعل توقع استخدام المزيد من النساء للأماكن العامة أكبر منه في شهور الشتاء المعتمة.

يمكن لهذه النتائج أن تؤدي بنا كعلماء اجتماع إلى طرح أسئلة تتعلق بالهيمنة الذكورية ومنزلة النساء في المجتمع.

(المصدر: نقلا بتصرف من كارين إيفانز في مقالتها بعنوان "مُدُن الرجال – النساء والبيئة الحضرية" مجلة "علم الاجتماع"، ٦ (٣)، ١٩٩٧).

	تمرين ٣ – ٩
	اقرأ الموضوع (D) الذي يلخص النتائج الأولية للبحث الذي أجرته إيفانز، ثم قم بإتمام المهام التالية:
تفسير تطبيق فهم	١– حدد ودوّن مُلاحظات عن ثلاثة أسئلة إضافية تود طرحها حتى تزيد فهمك للفروق والاختلافات بين الجنسين في استخدام الأماكن العامة. وفي كل حالة، دوّن باختصار سبب اعتبارك هذه المعلومات مفيدة، أعني بذلك ما الذي يمكنها أن تُضيفه أو تُسهم به على وجه الدقة؟
تطبيق تقييم	٢– قارن أسئلتك الإضافية بالأسئلة التي طرحتها إيفانز فعلاً (وكما ذُكرت في الفقرة الأولى فيما بعد) وإلى أى مدى تتفق أسئلتك مع أسئلتها؟

انعكس التزام إيفانز بالتعرف على كل من الجانب البنائي وجانب الفعل الاجتماعي في استخدام سكان المدينة للأماكن العامة؛ انعكس في الأسئلة الإضافية التي طرحتها. وقد تركز الاهتمام على استكشاف:

(١) لماذا يتردّد من النساء على الأماكن العامة في المدن عددٌ أقل من عدد الرجال،

و(٢) لماذا تظلُّ النساء بعيدات عن الأماكن العامة،

و(٣) من الذي يستخدم الأماكن العامة ولماذا؟.

ومن المُحتم أن هذا الاهتمام اشتمل كذلك على التعرف على أنماط استخدام سكان المدينتين للأماكن العامة والمعاني وراء تلك الأنماط. وقد أشار تحليلها للسياق التاريخي الكامن وراء استخدام الأماكن العامة (أعني بذلك، الهيمنة الذكورية المتزايدة على الأماكن العامة منذ بداية عصر التصنيع، مع انحصار

النساء في المجال الخاص)، والتفكير الشعبي في حق النساء، أو عدم حقهن في الحراك، والتأثيرات المؤسسية على التصميم الحضري (مثال ذلك: الهيمنة الذكورية البادية في تخطيط المُدن، وفي الهندسة المعمارية، وفي الهندسة المدنية) وعلى تصورات الأخطار المحتملة.

إن النطاق الشامل للأبعاد التي استكشفتها إيفانز عند إجراء بحثها ليُبين قيمة دمج الاهتمام ذي التوجُّه البنائي مع الاهتمام ذي التوجه القائم على الفعل الاجتماعي في دراسة واحدة. ويُعتبر تقريرها تقريراً جيد التنظيم والتقنين يزيد الوضوح من قيمته، فضلا عن أنه يُبين التأثير المتبادل للعوامل البنائية و العلاقات بين الأفراد في تقرير استخدام الأماكن العامة:

"على الرغم من أن النظرة السائدة في المجتمع قد ترى أن الرجال والنساء يتمتعون بالاستخدام المتساوي لشوارع المدن وأماكنها العامة، فإن نتائج البحث الذي ذكرت معالمه الرئيسية... تحكي قصةً أخرى. فتصميم الأماكن العامة، ومخاوف النساء وقلقهن من المناطق العامة، وإضفاء طابع النوع (الجندر) على أنشطة معينة وأماكن مُعينة باعتبارها رجالية أو نسائية؛ نقول: إن جميع هذه الأمور تُناهض بشدة استعمال النساء لحي وسط المدينة." (إيفانز، ١٩٩٧، ص١٧)

موجز المعركة الفكرية عن البنائية في مواجهة الفعل الاجتماعي

تطبيق	تمرين ٣ – ١٠
أكمل الملخص التالي للمعركة الفكرية حول البنائية في مواجهة الفعل الاجتماعي، وذلك عن طريق انتقاء الكلمات الواردة في القائمة المذكورة فيما بعد لوضعها في الأماكن الخالية. تؤكد البنائية على الـ ________ أو الأبنية التي تُشكل حياة الأفراد.	

يَزعُم البنائيون أن الأفراد لا يملكون ــــــــ، والأحــرى أنهــم محكومــون بالمجتمع. ــــــ الفردي مُقيد بــ ــــــــ المجتمع. ومن ثم فإن الأفــراد ينظر إليهم باعتبارهم ــــــــ وليسوا ــــــــ أفكارهم. تمّ التوسع فــي تطبيق هذا التصور على تحليل الـ ــــــــ. يــذهب البنــائيون إلــى أن ــــــــ ينبغي أن ينصبَّ على فهْم ــــــــ حيث إن هذه هي التــي تؤثِّر على الطريقة التي يعيش بها الأفراد حياتهم ــــــــ وهو ما يعد مثالاً لهذا المنحى الفكري، معتبرين أن ــــــــ هــو البنــاء المــسيطر الــذي ــــــــ كافة جوانب الحياة الاجتماعية و ــــــــ. ترفض نظرية الفعــل وجهة النظر هذه، حيث تذهب إلى أن الأفراد ــــــ الـ ــــــــ بواســطة أفعالهم و ــــــــ مع الآخرين والـ ــــــــ التي يعزونها إلى ــــــــ. الأفراد هم خالقو ــــــــ، ومن ثمّ ينبغي أن يكون الفرد هو نقطة البداية فــي فهم المجتمع ويتعين توجيه الاهتمام للطريقة التي بها ــــــ تتطور المعاني وللطريقة التي بها ــــــ الأســلوب الــذي يتبعــه الأفــراد ــــــــ، ويتصرفون و ــــــ تجاه ــــــ، وهو ما يعــد مثــالاً لهــذا المنحــى الفكري، حيث يذهب إلى أن ــــــــ والتفاعــل يُــشكلان ــــــــ و ــــــــ. وعلى الرغم من أن اثنين ــــــ يمكن تحديدهما، فــإن القــدر الأعظم من بحوث علم الاجتماع في الواقع متأثر بالـ ــــــــ و ــــــــ الفعل، وذلك على الرغم من أن الـ ــــــــ السوسيولوجية تميل إلى التأكيد على أهمية أحد هذين الاتجاهين على حساب الاتجاه الآخــر. ومــؤخرا ســعى أصحاب نظرية ــــــ، مثل ــــــ، سعوا لـ ــــــ البناء/ الفعــل ــــــ، وذلك على الرغم من أن الـ ــــــ كان قد تم إرســاؤها منــذ أكثر من ١٠٠ سنة مضت على يد ــــــ الذي أكد على أهمية الحاجة إلــى "ــــــ" في مجال النظرية السوسيولوجية والبحث السوسيولوجي.

الكلمات الناقصة

• يشكل • معركة فكرية • العالم الاجتماعي • يفسر / يؤول • نسق اللغة •الدُمَى • الحياة الاجتماعية • المنطق الأساسي • البنائية • التأكيد (على أهمية كذا) • الأبنية الاجتماعية • التأثير • الاقتصاد • الأنماط المتشابكة •الجماعات • المجتمعات • وجهات النظر المعارضة • الأنماط • التفاعلية •الرمزية • الفعل • جيدنز • الأسس / أو القواعد • الماركسية البنيوية •يُحدد• الظواهر الاجتماعية • التفاعلات • الخبرات • صناع • خبرات الحياة •المشتركة • المعنى • معاصر • الاجتماعي • يستجيب • "الفهم" • يسوى الخلافات • فيبر • الأفكار • الفكر • المنظورات الفكرية.

النظرة التطورية في مواجهة التحليل الآني

تتعلق هذه المعركة الفكرية بموضوع قيمة دراسة المجتمع على امتداد الزمان، في مواجهة دراسته في لحظة معينة من الزمن. وقد بدا على المفكرين الكبار الذين أسهموا في تطوير علم الاجتماع – وهم ماركس، وإنجلز، وفيبر – بدا أنهم كانوا يحبذون تحليل تطور المجتمع اعتقادا بأن دراسة الماضي والانتقال إلى الوقت الحاضر سيُمكن من فهم العمليات الاجتماعية ومن وضع التنبؤات بشأن ما قد يحدث في المستقبل. وقد نادى المفكرون الآخذون بوجهة النظر التطورية باستعمال التحليل التاريخي في دراسة الحياة الاجتماعية.

وعلى النقيض من ذلك، تعكس التطورات الحديثة في علم الاجتماع نقلة تبتعد عن الماضي وتتجه إلى تأمل ما يجري "هنا والآن" (أي آنيا)، وأعني بذلك أنها تتجه إلى دراسة الوقائع الاجتماعية في السياق الحاضر (الآني) مع النظر إلى

الماضي باعتباره غير ذي صلة –عموماً– بالوقائع والظواهر المعاصـرة. وتُمثـل بعض فروع الحركة النسوية نموذجاً لهذا الاتجاه الفكري. مثال ذلك، أنه يُقـال إن النسوية الليبرالية تُبدي اهتماماً ضئيلاً بالخضوع التـاريخي للنسـاء، بينمـا تهـتم بالطريقة التي تساهم بها النظم القانونية، والاقتصادية، والسياسية الحالية في عـدم المساواة الجنسية، وليس باكتشاف الطريقة التي تطورت بها أمثال تلـك الأنظمـة على امتداد الزمن.

وجهة النظر التطورية

إن الباحثين الذين يأخذون بوجهة نظر تطورية ويعطون الاعتبـار للسـياق التاريخي في بحوثهم يتفقون على عدد من المسلّمات الأساسية:

أولاً: يوجد مُتصل يمتد بين الماضي والحاضر، كما أن التغير الاجتماعي لا يبـدل بناء المجتمع، وكل ما يفعله هو أن يعيد تعريف طبيعة المجتمع فقـط، حيـث يمثل علامةً على الانتقال من فقترة تاريخية (أو "حقبة" تاريخية) إلـى فتـرة أخرى.

ثانيا: نستطيع أن نعرف الكثير عن المجتمع بدراسة العوامل التـي أسـهمت فـي إحداث هذا الانتقال، وأعني: ما الظروف الاجتماعيـة السـائدة التـي كانـت موجودة في ذاك الوقت؟ وما العوامل المساهمة في الحث على هذا التغير؟ وما العوامل المُقيدة التي حدت أو كبحت التغير؟ هل وُجدت ثمة عوامـل محفـزة على التغير أم هل وُجدت عوامل مثبطة للتغير؟ وما الأثر الذي أحدثـه هـذا التغير في الأبنية الاجتماعية والحياة الاجتماعية؟ وبدراسة ملامح التغير يكون بالإمكان تطوير رؤية للأسباب والنتائج. ويُعدُّ ذلك أمراً حيوياً فـي صـياغة فهمنا للطريقة التي بها ظهر المجتمع المعاصر للوجود.

ثالثاً: بدراسة الماضي والحاضر نستطيع أن نُخمن ما يخبئه المستقبل. وينتقل دعاة الهندسة الاجتماعية بهذه الفكرة خطوة أبعد، فيزعمون أننا نستطيع استخدام معرفتنا بالأسباب والنتائج في التحكم في يومنا الحاضر من أجل تحديد صورة المستقبل. ورغم أن هذا يبدو أمراً مشئوماً، فقد يكون لهذه العملية منافع اجتماعية. مثال ذلك، أنه لو درسنا العوامل التي ساهمت في اشتعال الحربين العالميتين ودرسنا كيف تفاعلت تلك العوامل مع القائمين بأمور الحكم في ذلك الوقت لتخلق مسارا معينا لمجريات الأمور، ثم تأملنا في عواقب هذا السلوك، فإننا نستطيع أن نُخَمن كيف كان يمكن منع قيام الحرب. أو بدلاً من ذلك، يمكننا إمعان النظر في كيفية تنفيذ هذه الآليات لإيجاد حل سلمي للصراع. ولهذه الطريقة منافع واضحة بلا شك.

وبصفة عامة، فإن وجهة النظر التطورية يأخذ بها البنائيون، أعني بهم من يهتمون بالوصول إلى فهم للحياة الاجتماعية عن طريق تحليل البناء الاجتماعي والنظم المكونة له. وينظر إلى النظم الاجتماعية على أنها تطورت وأصبحت أكثر تعقيداً بمرور الزمن. ومن ثم، فإنه هناك جدوى لتفحص الماضي لكي نفهم الطريقة التي بها ظهرت هذه الأبنية إلى الوجود. ومن المُسلّمات في هذا الشأن أن الأبنية الحالية قد تطورت من الأبنية السابقة، أعني بذلك أنها صور مُنقحة أو معدلة للأبنية القديمة. أو لعله يمكن القول إنها حلّت محل الأبنية السابقة التي لم تَعُد لازمة بعد أو لم تَعُد قادرة بعد على الوفاء بمتطلبات مجتمع معقد، مما يعني أنها تمثل بدائل.

الموضوع (E)

مبادرة جودة الخدمة في الشرطة البريطانية

شهدت السنوات الأخيرة سلسلة متتابعة من المبادرات المتعلقة بوزارة الداخلية والهيئات الرقابية لرجال الشرطة والتي كانت تهدف إلى تحسين مستوى إدارة الخدمة الشرطية و"تمدينها"، ورفع جودتها. وقد جاء القدر الأعظم من الدافع الذي حفز على القيام بهذه المبادرات من عالم الصناعة والتجارة، وذلك حيث يعتقد أن الممارسات الإدارية الحالية لديها الكثير لتعلمه للشرطة. وعلى الرغم من ذلك، فإن من المُعترف به أن مثل هذه الاتجاهات تحتاج إلى قدر من التعديل كي تتناسب مع بيئة القطاع العام والطبيعة الخاصة للخدمات التي تقدمها الشرطة.

يتخذ هذا المشروع شكل مبادرة لها قضية أساسية واحدة، ألا وهي جودة تقديم الخدمة الشرطية، وبلورة تصور لهذه الجودة، وظهورها وتطبيقها في عينة مُكونة من أربعة من الفرق الشرطية الكبرى. وبناءً على مسوح اجتماعية قائمة على طريقة الاستبيانات، وباستعمال طريقة المقابلات التي أُجريت مع ضُباط ذوي رُتب متعددة، تمت صياغة تقدير لطبيعة ومدى أي تغيرات تحدُث في تقديم الخدمة الشرطية ولما تلتزم به قوات الشرطة من التزامات وما تراعيه من أولويات، ولما بين الحكم المحلي والحكومة المركزية من علاقات نجمت عن المبادرة الخاصة بنوعية تقديم الخدمة الشرطية.

(المصدر: المبادات البحثية، قسم علم الاجتماع، جامعة ساري Surrey، مدير المشروع نيجل فيلدينج)

تمرين ٣ – ١١	
يُمكنك هذا التمرين من التعرف على مثال حديث آخر للبحوث المرتبطة بوجهة النظر التطورية. اقرأ الموضوع (E) الذي يوضح ظروف العمل في المشروع الذي يقوم به أحد علماء الاجتماع بجامعة ساري، ثم قُم بإنجاز المهام التالية في جماعات صغيرة العدد:	
تحليل تقييم	١– ناقشوا: لماذا يبدو أن هذا المشروع يقدم مثالاً تطبيقيا لوجهة النظر التطورية؟
تفسير تطبيق	٢– انتفعوا بالمجلات العلمية/ أو الكتب الدراسية الحديثة لتحديد ما لا يقل عن مثالٍ واحدٍ آخر لبحث تبنيّ اتجاهاً تطوريا. هاتوا تفصيلات كاملة من المراجع واكتبوا ملاحظات مختصرة عن: (أ) هدف البحث. (ب) منهجية البحث المستخدمة. (ج) النتائج الأساسية للبحث. (د) الانتقادات التي توَجّه لهذا البحث.

تقييم وجهة النظر التطورية

تفسير – تطبيق تحليل – تقييم	تمرين ٣ – ١٢
باستعمال المثال البحثي الذي عرضنا له فيما سبق والأمثلة الأخرى التي جمعتها للتمرين رقم ٣–٨ حدد نقطتين من نقاط القوة ووجهين من أوجه القصور في وجهة النظر التطورية. سجل هذه النقاط في جدول مختصر ذي عامودين.	

التحليل الآني

سكّ جيدنز (١٩٨٤) مصطلح "الوصف العرضي" episodic characterization للإشارة إلى البحث الآني، والذي يكمن اهتمامه في استكشاف أحداث عرضية معينة وليس في استكشاف ظواهر مستمرة. ويُشكل عددٌ من المُسلَّمات الأساسية القاعدة التي يرتكز عليها التحليل الآني وهي: ينبغي دراسة الظواهر الاجتماعية داخل السياق الاجتماعي المباشر لها. وينبغي إعطاء الأهمية للمعاني التي يعزوها الأفراد لهذا السياق لأن هذا هو الذي يُشكل سلوكهم. كما أن دراسة ما حدث في الماضي أمر ضئيل القيمة، لأن كل جانب من جوانب العالم الاجتماعي تتم صياغته وإعادة صياغته على يد الأفراد وذلك من خلال تفاعلهم معه. ولتطوير فهمنا لهذه العملية، فإن أنفع الاتجاهات هي أن نستكشف هذه المعاني الأساسية ونستكشف عمليات إسناد هذه المعاني للأشياء والظواهر. وهذا التناول هو الذي سيقدم لنا رؤية ثاقبة للطريقة التي يتم بها بناء تصور عن العالم الاجتماعي من خلال الفعل الاجتماعي والتفاعل الاجتماعي. (انظر تمرين ٣ – ١٣).

من أمثلة البحث الذي أجرى في إطار هذا النوع من الاتجاهات ما قامت به باترسون Paterson (١٩٨٤، نقلا عن بلاك Black وآخرين، ١٩٨٤) التي تناولت بالدراسة المعاني التي تعزوها العاملات في المطبخ لعملهن في مستشفى تعليمي كبير. اختارت باترسون طريقة الملاحظة بالمشاركة (انظر الفصل السابع من هذا الكتاب للوقوف على تعريف هذه الطريقة) بوصفها طريقة بحثها لأنها رأت أنها تتيح فرصة "لدراسة هذه البيئة بنهج يتناقض مع كثير من التحليلات التنظيمية التقليدية، والتي كثيرا ما أهملت أهداف وتعريفات الفاعلين المعنيين". (نقلا عن بلاك وآخرين، ١٩٨٤، ص٢٤٢).

تُقدم باترسون تقريراً إثنوجرافيا للطريقة التي كانت تتبعها العـاملات التـي تناولتهن بالدراسة في "إعداد الطعام"، أعني بذلك : كيف كُن يباشرن مهامّهن فـي إعداد الطعام للمرضى والعاملين في المستشفى. وهي تبـين المعـاني التـي كـن يعزونها لأنواع الطعام التي كان مطلوباً منهن أن يقمن بإعدادها، كما تبين الدلالات الضمنية لذلك بالنسبة للعمل الذي كُن يقمن به وبالنـسبة للطريقـة التـي كانـت زميلاتهن من عاملات المطبخ يتبعنها في النظر بها إليهن فتقول:

"كان غسل الخس عملاً تحاول العاملات تفاديه. فقـد كـان مهمـةً مملـة وتستغرق وقتاً طويلاً كما كانت مهمةً تقصم الظهر، وذلك لأنهـا كانـت تـستلزم الانحناء على حوض منخفض حال الإمساك بكل ورقة خس تحت الصنبور... من هنا كان "غسل الخس" يستدرُ التعاطف من زميلات العمل، وكانـت العاملـة تُعـد ممتازة في قيامها بهذا العمل من تلقاء نفسها، ومن ثم كان الإقدام عليه أسلوبا يؤدي إلى تصنيفها "كعاملة جيدة". نقلا عن بلاك وآخرين، ١٩٨٤، ص٢٤٣).

كما تصف باترسون تصوّر العاملات للأشخاص المختلفين الـذين يتلقـون الطعام الذي قمن بإعداده، وللأثر الذى يحدثه هذا التصور علـى المعـايير التـي يلتزمن بها عند إعداد الطعام فتقول:

"اختلفت المعايير بالنسبة للأطباء ومشرفات التمريض، والذين كانوا يحظون بهيبة اجتماعية كبيرة، وبالنسبة للممرضات والموظفين الفنيين الـذين كـانوا فـي درجة أدنى من درجات الهرم الاجتماعي، وبالنسبة للمرضى الخصوصيين (الـذين يعالجون على نفقتهم الخاصة – المترجم) والذين كان ينظر إليهم باعتبـار أن لهـم تقريبا نفس منزلة الموظفين، وبالنسبة للمرضى "العاديين"، والذين كان ينظر إلـى مكانتهم بوصفها الأدنى بين الجميع". (نقلا عن بلاك وآخرين، ١٩٨٤، ص٢٤٥)

وأخيراً، تصف باترسون الطريقة التي بها يرتبط العمل في "إعداد الطعـــام" ارتباطاً وثيقاً بالصورة الذهنية للعاملات عن أنفسهن فتقول:

"كثيرا ما كان القيام بدور إعداد كميات ضخمة من الطعام يتعارض مع دور مقدم الطعام في البيت، وكان "التوتر الملازم لهذا الدور" أمراً محسوساً، وكان أشد ما يكون الإحساس به بين العاملات الحديثات العهد بالعمل أو بين هــؤلاء اللاتـــي كان أقاربُهن أو أصدقاؤهن من المرضى أيضاً. وكان من العناصر الأخرى لتلــك المشكلة التي تعاني منها العاملات أنه نظراً لأن من النادر أن يصل الطعام الــذي يقمن بإعداده وبصورة مباشرة إلى من يتناوله، فإنه لم يكن يوجد من يمتدحهن على ذلك... زد على ذلك أن العاملات كُن خاضعات لجميع من ســواهن فـــي التــدرج الهرمي لموظفي المطبخ، حيث كن في مستوى منخفض من حيث القوة والمكانـــة" (نقلا عن بلاك وآخرين، ١٩٨٤، ص٢٤٥).

على الرغم من أنه قد يكون متعذرا في بادئ الأمر تقــدير القيمـــة العمليـــة لبحث من هذا النوع، فإن تحليل باترسون لتصورات العـــاملات وللطريقـــة التـــي يباشرن بها مهامهن ينطوي -بالفعل - على دلالات ضمنية عند المهتمين بموضوع توفير الخدمات الصحية، ويعالجون المسائل البنائية الأوسع نطاقاً:

"قد يؤدي الوصف الذي قدمناه إلى ازعاج من يهتمون بعملية تقديم الطعـــام في المؤسسات الطبية (وفي غيرها من المؤسسات)، كما أنه ذو صلة وثيقـــة جـــداً بالمجادلات المهتمة بالمكانـــة المتواضـــعة -عمومـــاً- للوجبـــات الغذائيـــة فـــي المستشفيات، وبما يحدث بصفة دورية من ظهور بعض حالات التـــسمم الغـــذائي الحادة بين المرضى". (نقلا عن بلاك وآخرين، ١٩٨٤، ص٢٤٥).

الموضوع (F)
التحالف الصناعي الأكاديمي: تفاعل الهويات الثقافية يهدف هذا المشروع الذي يموله "مجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية" (البريطاني) إلى تقديم تحليل تفصيلي لعملية التحالف البحثي بين الباحثين الأكاديميين والمشتغلين بالصناعة في مجال التطبيقات الكومبيوترية في هندسة التصنيع. وباستخدام المشروع لطريقة دراسة الحالة الإثنوجرافية، يركز بالتفصيل على عدد قليل من المشروعات التي تقوم على نماذج مختلفة من التحالفات. والمقصود من هذا الأسلوب أن يتيح لنا فهم العوامل الثقافية المؤثرة في مثل هذا التحالف وأن يساهم، من خلال ذلك، في توفير الفهم النظري لتركيب الهويات الثقافية وتفاعلها. (المصدر: المبادرة البحثية، قسم علم الاجتماع، جامعة ساري، مدير المشروع جيوف كوبر Geof Cooper).

معرفة – فهم تفسير – تطبيق تحليل – تقييم	تمرين ٣ – ١٣

اقرأوا الموضوع (F) داخل مجموعات صغيرة العدد، ثم قم بما يلي:

١– ناقشوا لماذا يبدو أن هذا العمل يقدم مثالاً على التحليل الآتي.

٢- استعملوا المجلات العلمية الحديثة/ أو الكتب الدراسية الحديثة في تحديد مثال آخر على الأقل يتبنى اتجاه التحليل الآني. دونوا التفاصيل الكاملة المتعلقة بالمراجع، واكتبوا ملاحظات مختصرة عن:

(أ) هدف البحث.

(ب) المنهج المتبع في البحث.

(جـ) النتائج الأساسية لبحث.

(د) الانتقادات الموجهة للبحث (إن وجدت).

تقييم التحليل الآني

تفسير - تقييم	تمرين ٣ - ١٤

راجع البحث الذي عرضنا له فيما سبق وأي بحث آخر قريب منه، وحدد نقطتين من نقاط القوة ووجهين من أوجه القصور في التحليل الآني. سجل هذه النقاط في جدول مختصر من عامودين.

موجز لوجهة النظر التطورية في مقابل التحليل الآني

تفسير - تطبيق	تمرين ٣ - ١٥

تلخص الفقرة التالية المعركة الفكرية لوجهة النظر التطورية في مقابل التحليل الآني. أكمل هذا الموجز باختيار الكلمات من قائمة الكلمات الناقصة الواردة فيما بعد لتملأ بها الفراغات.

يؤمن البحث الذي يتبنى وجهة نظر ________ بأن أفضل طريقة لفهم الظواهر الاجتماعية هي دراستها على امتداد الزمن. ومن ثم يكرس قدرا كبيرا

من الاهتمام للتحليل الـ ـــــــــــ، والذي يتعقب مسار التطور (أعني به ملاحظة التغيرات التي طرأت على امتداد الزمن) الخاص بـ ـــــــــــ. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنه لا يمكننا فقط من بلورة رؤية للسبب الذي جعل المجتمع على ما هو عليه في وقتنا الحاضر، ولكنه يمكننا كذلك من صياغة ـــــــــــ عن المستقبل. ولعله يكون أشد تطرفاً ذلك الرأي الذي يذهب إلى أن دراسة الماضي والحاضر تتيح لنا أن ـــــــــــ المستقبل. وتتجلى وجهة النظر التطورية في مؤلفات ـــــــــــ (تطور الرأسمالية) و ـــــــــــ (تطور الأسرة) وفيبر (الصلة بين نشأة الرأسمالية والكالفينية) أما التحليل الآني فيفضله أولئك الذين يؤمنون بأن الظواهر الاجتماعية هي محصلة الـ ـــــــــــ بين الأفراد في لحظة محددة أو مرحلة محددة من الزمن. وينبغي أن يستهدف البحث استكشاف الـ ـــــــــــ المنسوب إلى الـ ـــــــــــ الاجتماعي، حيث إن ذلك هو الذي يشكل أبنية الخبرة الاجتماعية. وليس للنظر للماضي جدوى كبيرة لأن أنساق المعاني ليست ثابتة وإنما ـــــــــــ. وإن دراسة أنساق المعاني هذه و ـــــــــــ والطريقة التي تؤثر بها على السلوك يمكن أن يكون لها تطبيقات عملية مهمة. وتمثل مؤلفات ـــــــــــ (عن الذات) ومؤلف جوفمان (عن الملاجئ) وكتابة جارفينكل (عن القواعد الاجتماعية)؛ تمثل نماذج لاتجاه التحليل الآني.

الكلمات الناقصة

• التفاعل • "ميد" Mead • مائعة (شديدة المرونة) • تطورية • تنبؤات • تأثير • ماركس • التاريخي • إنجلز • الظواهر الاجتماعية • فيبر • المعاني • السياقات • التصورات الشخصية.

الوضعية في مواجهة الوضعية المضادة

تُعنى هذه المعركة الفكرية بالتساؤل عما إذا كان ينبغي على علماء الاجتماع أن يتبنوا طرق البحث المستخدمة في العلوم الطبيعية وأن يأملوا أن يُنظر إلى علم الاجتماع بوصفه ذا طابع علمي (انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب). ويذهب الوضعيون إلى أنه سيكون من المفيد أن يربط علم الاجتماع نفسه بالعلم الطبيعي. ولا يوافق مناهضو الوضعية على ذلك، حيث يرون أن العلم الطبيعي وعلم الاجتماع مبحثان معرفيان متميزان لكل منهما مادة بحث مختلفة ومن ثم فإنهما غير متوافقين أو غير متطابقين. وهم يرفضون بشدة الفكرة التي تقول إن مناهج البحث العلمي يمكنها أن تُطبق في البحث السوسيولوجي ويتعين أن يتم ذلك.

<table>
<tr><td colspan="4">ملحق تمرين ٣-١</td><td>تفسير
تطبيق</td></tr>
<tr><td colspan="5">اقرأ ما ورد في الفصل العاشر من هذا الكتاب من فقرات عن الوضعية والوضعية المضادة، وضع قائمة بالمسلمات الأساسية التي تشكل قاعدة هذه الاتجاهات. وقد يكون من المفيد أن تسجل أفكارك في جدول مستنسخ من الجدول المبين أدناه.
الوضعية في مواجهة الوضعية المضادة: موجز الأفكار الأساسية</td></tr>
<tr><td colspan="2">الوضعية</td><td colspan="3">الوضعية المضادة</td></tr>
<tr><td>الكتاب الرئيسيون</td><td>الأفكار الأساسية</td><td>الكتاب الرئيسيون</td><td colspan="2">الأفكار الأساسية</td></tr>
</table>

التقييم

قارن عملك بعمل دارس واحد على الأقل من دارسي علم الاجتماع الآخرين. هل وصلت إلى نفس الفهم لوجهتي النظر المذكورتين في هذه المعركة الفكرية؟

ولا شك أن أشهر مثال لمحاولة تطبيق منهجية البحث العلمي في علم الاجتماع هي ما قام به دوركايم (١٩٥١/١٨٩٧) من استكشاف لمعالم ظاهرة الانتحار. كان دور كايم مدفوعاً برغبةٍ في ترسيخ مصداقية علم الاجتماع باعتباره علماً أكاديمياً. وفي هذا يقول مور Moore (١٩٨٨، ص٢١):

"لو أمكنه (أي: دوركايم) أن يُثبت أن واحداً من أشد الأعمال البشرية اتصافاً بالفردية يمكن أن يقوم به أي كائن إنساني، ألا وهو قتل المرء لنفسه؛ لو أمكنه أن يثبت أن هذا العمل من الممكن تفسيره في ضوء العوامل الاجتماعية فقط، فمن المؤكد أن أي عمل يمكن دراسته بنفس الطريقة".

قام دوركايم بإجراء بحثه بالاعتماد على طريقة البحث الافتراضية الاستدلالية، وهي إطار يشيع تطبيقه على أيدي العلماء عند دراستهم للعالم الطبيعي. وتعني هذه الطريقة أن يتبع الباحثون سلسلة من الخطوات المنظمة منهجيا انطلاقا من أفكارهم الأولية، ومروراً بصياغة الفرض، وجمع وتحليل البيانات، ووصولاً إلى قرارٍ يتعلق بما إذا بالإمكان رفض فروضهم أو تأييدها. ولعل دوركايم كان منجذبا لهذا الاتجاه بسبب طبيعته المنطقية والموضوعية، وهما الأمران اللذان يُعدان مصدر قوة مهيمن عند معالجة موضوع حافل بالطابع العاطفي أو الانفعالي.

معرفة – فهم تفسير – تطبيق	تمرين ٣ – ١٦

١ – قُم بقراءة بعض الكتابات الأساسية عن دراسة دوركايم للانتحار. وسوف تجد هذه الدراسة موثقة في معظم كتب المدخل الرئيسية في علم الاجتماع. دون بالتفصيل تعريفات الأنماط الأربعة للانتحار التي حددها دوركايم، وذلك باستعمالك لنسخة من هذا الجدول الملخص:

موجز لتحليل دوركايم لأنماط الانتحار

نمط الانتحار	الأنومي (اللامعياري)	الإيثاري	القدري	الـ........
السمات المحددة	التزام ثابت وراسخ بعقيدة أو بقضية يؤدي إلى الموت الإرادي			افتقاد التكامل الاجتماعي/أو الاغتراب عن المجتمع الأوسع.
مثال تطبيقي	• موت رفيق العمر • البطالة مع فقدان المكانة الاجتماعية/أو تقدير الذات.		الفتيات الأسيويات اللاتي يعشن في الغرب ولكن تحت قيود مرورنة	

٢ – والآن قم بتصنيف حالات الانتحار المبينة أدناه بإيجاز وفقاً للفئات التي وضعها دوركايم. وما هو السبب الذي كان من شأن دوركايم أن يعلل به الموت في كل حالة؟

الحالة رقم (١): وفاة طبيب مصاب بالاكتئاب

قتل طبيب من الممارسين العموميين نفسه في داخل إحدى المستشفيات العقلية بعد إدانته بقتل ابنته. وكان هذا الطبيب قد زعم -قبل ارتكابه لهذه الجريمة – أنه يسمع أصواتاً تأمره بقتل ابنته. وتلاحظ تقارير الأطباء النفسيين أن لهذا الطبيب تاريخا من الإصابة بمرض الاكتئاب وإدمان الخمر والاعتماد على الغير في الإنفاق عليه.

الحالة رقم (٢): استغاثة من مركز الانتحار

طلب العاملون في أحد مراكز رعاية الشباب المنحرفين في ميلاندز، المساعدة من المسعفين المتطوعين ليوقفوا ذلك المد المتصاعد من حالات الانتحار في السنتين الأخيرتين. ذلك أن عدداً متزايداً من الشباب المنحرفين يقتلون أنفسهم. ويشك العاملون في ذلك المركز في أن عدم توفر إمكانية الاتصال التليفوني ربما أثر على قدرة نزلاء المركز على التحدث بالتفصيل عن مشكلاتهم.

حالة رقم (٣): البدانة؛ وفرط الإرهاق، و"على حافة الهاوية"

قتلت أم شابة نفسها، تاركة طفلا عمره ١٦ شهراً كانت مشغوفةً بحبه. علّق الجيران قائلين إنها عانت قبل ذلك من مرض رُهاب الخلاء(*) وأنها كانت تعيش مع رجل يكبُرُها بسنوات كثيرة وصفوه بأنه "غير صالح للتوظف". وكانت قد ظهرت حديثاً في المحلات التجارية في الحي وعيناها سوداوان وبوجهها خُدُوش.

(*) Agoraphopia: الخوف المرضي من الأرض الفضاء. (المترجم)

علّق مساعد مدير المحل التجاري قائلا إنها في واقع الأمر "تركت نفسها نهبا للموت" في الأشهر الأخيرة كما كانت تبدو خائفة و"على شفا الجنون".

الحالة رقم (٤) إحدى أسر الرعاية يجمعها الموت

عُثر على جُثتي زوجين كبيري السن في مكان مطل على مشاهد جميلة داخل سيارة مليئة بالدخان. لم تقم الشرطة بالبحث عن أي شخص آخر له صلة بهذه المأساة. فقد سبق لهذين الزوجين أن أمضيا سنوات عديدة يعتنيان بطفلهما الصغير الذي كان مصاباً بعجز بدني شديد، والذي مات بعد نوبة صرع منذ ثلاثة أسابيع.

الحالة رقم (٥): بؤس عمال المناجم يضاعف معدل الانتحار

أعرب قسيس عن قلقه من المعدل المرتفع ارتفاعاً غير طبيعي للانتحار في أبرشيته التي انتقل إليها مؤخرا. ويُقرر أنه منذ انتقاله إلى مدينة "نورث إيسترن" المشهورة بمناجم الفحم قام بالإشراف على عدد من جنازات ضحايا الانتحار أكبر مما حدث له خلال الخمسة والعشرين عاما السابقة من خدمته الكهنوتية في لندن وغيرها من الأماكن في بريطانيا. وكان أغلب المنتحرين من عمال المناجم السابقين، والذين يئسوا من الفرار من ذلك القنوط الذي أفسد حياتهم منذ أن حلّت التكنولوجيا المتقدمة محل مناجم الفحم، مما جعل مهاراتهم عديمة القيمة.

ساد الاعتقاد سنوات طويلة بأن بحث دوركايم (١٩٧٠) يُعد مثالا للممارسة المنهجية السليمة وللبحث الجيد في علم الاجتماع. ومع ذلك، وكما يشير إلى ذلك مور (١٩٨٨، ص٢٤) فإن عدداً من الانتقادات التي وجهت إليه ظهرت صريحة في ستينيات القرن العشرين عندما اكتسبت الحركة المناهضة للوضعية قوتها الدافعة، فيقول:

"• كان مفهومه عن التضامن الاجتماعي في غاية الغموض، إذ اعتمد –فقط– على الأفكار البداهية المتعلقة بمعنى التضامن.

• لم يكن ما قدمه من "متغير الدين" و "متغير العائلة" بنفس الوضوح الذي أراد أن يوحي به إلينا. وكيف يُمكن "عزل" هذين المتغيرين بوصفهما قوتين متميزتين تؤثران على الفرد؟

• إن الإحصائيات الرسمية التي أقام عليها بحثه يمكن القول بأنها تعاني من قصور. مثال ذلك، أنه في المجتمعات المحلية الكاثوليكية، والتي يُنظر فيها إلى الانتحار بوصفه خطيئة، يمتنع أطباء الأسرة عن تصنيف حالات الوفاة بوصفها انتحاراً".

معروف أن المفكرين المناهضين للوضعية، ومنهم على سبيل المثال دوجلاس (١٩٦٧) وأتكينسون Atkinson (١٩٧١)، يُدينون اختيار دوركايم لمنهجية البحث العلمي بوصفها غير ملائمة تماماً. فيذهبون إلى أنه في معالجته لمعدل الانتحار كظاهرة اجتماعية يُغفل البعد الشخصي للطريقة التي جُمعت بها الإحصائيات. فحالات الانتحار لا تصنف بوصفها انتحارا إلا عندما يقرر ذلك المُحقق في أسباب الوفيات، أو تقرر المحكمة المنوط بها هذا الأمر، تصنيفها بوصفها حالات انتحار. ومن ثمّ، فإنه قد لا تُسجل بعض حالات الوفياتَ بوصفها انتحاراً لأسباب تشبه ما هو مُبين في الاقتباس المذكور سابقاً. وبالعكس من ذلك، قد يُنظر إلى بعض حالات الوفيات غير الناجمة عن حوادث بوصفها انتحاراً لأن الملابسات المحيطة بالوفاة ملتبسة أو مضللة.

لهذا ينادي مناهضو الوضعية بأن على علماء الاجتماع أن يتحققوا مما وصفه دوركايم نفسه بأنه "أشد الأعمال البشرية فردية"، كما يذهبون إلى أنه ينبغي أن ينصب اهتمام التحليل على طريقة تصنيف حالات الوفاة وليس على عدد حالات

الوفاة المسجلة. يُضاف إلى ذلك أن هؤلاء المفكرين يُحبذون الدراسات المتعمقة في الملابسات المحيطة بالوفاة. إذ من شأن ذلك أن يزودنا برؤية ثاقبة لحقيقة العوامل الممكنة التي تتسبب في أن يقتل بعض الأفراد أنفسهم. ومع ذلك، فلن يكون بالإمكان التعميم انطلاقاً من هذا التحليل لأن كل حالة وفاةٍ حالة متفردة تخص الفرد المعني. أما أن يعمد مناهضو الوضعية إلى تفسير حالات الانتحار الجماعي في ضوء هذه الاعتبارات، أم لا، فإنه أمرٌ محل خلاف.

قدّم بحث دوركايم مثالاً نافعاً لطريقة تطبيق المنهج العلمي على نحو مجد في علم الاجتماع. إلا أنه عن طريق تسليط الضوء على الانتقادات التي وجهت إلى بحثه، يُمكن إدراك جانب من أوجه القصور في الرؤية الوضعية، وهو الأمر الذي يثير تساؤلات عن مدى ملاءمتها كمنهج للبحث يمكن أن يستخدمه علماء الاجتماع. كما أن المنتقدين للمنهج الوضعي يُعارضون استخدامه من خلال لفت الانتباه إلى عجز العلم عن تقديم تفسيرات دقيقة للظواهر الاجتماعية. ويميل مناهضو الوضعية إلى النظر إلى مظاهر عجز العلم باعتبارها مبررا وجيهاً للحفاظ على علم الاجتماع متحرراً من منهجية البحث الوضعية. وسيمكنك التمرين التالي من التعرف على المسار الفكري لهذه الرؤية بمزيد من التفصيل.

الموضوع (G)
العلماء يجعلون الشوكولاته أكثر شوكولاتية(*) **من مراسلنا العلمي** ابتكر العلماء العاملون لحساب أحد المصانع الكبيرة للحلويات حلاً بارعاً لتلك المشكلة القديمة المتعلقة "بجعل الشوكولاته أكثر تركيزا (أي أكثر شوكولاتية). وعن طريق استخدام تقنيات الهندسة الوراثية استطاع العلماء تعديل

(*) أي أكثر تركيزا بالمادة الفعالة للشوكولاتة (المترجم)

تكوين الحبّة التي تُستخدم في إنتاج الشوكولاته. وأصبح بإمكان هذه الحبة الجديدة "السوبر" أن تُنتج المزيد من نكهة الشوكولاته التي يمكن إضافتها إلى منتجات مصنع الحلويات. ومع ذلك ظهرت مشكلة تتصل بهذه العملية وهي أن إضافة هذا الجين (المورث) قد أدت إلى تخفيض القيمة الغذائية للحبة الجديدة. وهكذا، فإنه في الوقت الذي ستكون فيه تجربة تناول الشوكولاته أكثر إمتاعاً مما هي عليه الآن، إلا أن ذلك سيخفض الفوائد المعروفة لتناول الشوكولاته.

تمرين ٣ - ١٧	تفسير - تطبيق تحليل - تقييم

أمعن النظر في السيناريو التخيلي التالي:

أنت مفكر بارز من مناهضي الوضعية تعمل لحساب جماعة ضغط مناهضة للعلم. ويُتوقع من الحكومة أن تجيز قانوناً يحظر كل الموضوعات الدراسية إلا موضوع العلم في المدارس. ولديك فرصة أخيرة واحدة لإقناع الحكومة بألا تصدر هذا القانون. وقد أعددت كلمةً ممتازة تُبين بالتفصيل مساوئ العلم وتُطرى بحماس بالغ فضائل جميع "المباحث المعرفية" غير العلمية. وقد خُصصت لك فرصة لمخاطبة أعضاء الحكومة الحاضرين في مؤتمر الحزب قبل اتخاذ القرار. وعندما تقفز خارجاً من التاكسي وتندفع لتدخل مركز المؤتمر، تُدرك أنك تركت حقيبة أوراقك في قطار المترو. وليس أمامك إلا خمس دقائق فقط قبل أن يبدأ المؤتمر، كما يتوجب عليك أن تُعد في هذا الوقت كلمة عن مظاهر عجز العلم لتبين سبب احتياج المجتمع إلى موضوعات دراسية بديلة وإلى منهجيات بحث بديلة.

ومع مرور الوقت، تُدرك أنك لا تزال قابضاً على نسخة من صحيفة قديمة كنت تقرأ فيها وأنت في المترو. وفي أثناء تصفحك لها وأنت في غاية التوتر باحثاً عن شيء فيها تستلهم منه أفكاراً، تقع عيناك على فقرة صغيرة كتبها مراسل علمي وتدرك أنها قد تكون هي نفس الشيء الذي يلفت الانتباه إلى الطبيعة الطائشة للعلم المعاصر وللصعوبات التي تحول دون ترجمة الاكتشافات العلمية إلى منتجات قابلة للاستعمال وتباع في السوق. وفجأة تتدفق الأفكار وتبدأ خطبة جديدة في التشكل.

تفسير	١- والآن اقرأ الموضوع (G) واكتب مذكرات موجزة عن الموضوعات التالية: (أ) النتائج الرئيسية التي كشف عنها البحث.
تطبيق تحليل تقييم	(ب) إلى أي مدى يمكن الاستفادة بهذه النتائج كدليلٍ يُبين قيمة البحث العلمي؟ (جـ) حال كونك رافضاً للحجج الواردة في هذا المقال، إلى أي مدى يُمكن للمضامين الواردة في هذا المقال أن تكون محل سخرية/أو أن يُنتفع بها في تقديم الدليل على أن "العلم أصابه الجنون"، أعني أنه فاقد للتوجّه، ومتخمّ بالتفاهات على حساب القضايا "الجادة". حاول الانتفاع بهذه المقالة في المُحاجّة بأن العلم لا يستطيع وحده أن يُفسر الحياة الاجتماعية المعاصرة تفسيرا كاملاً، وفي أنه توجد حاجة للتفكير غير العلمي والبحث غير العلمي.

	(ملحوظة: ولعلك تعزز دعواك هذه بذكر مثالين من أمثلة البحوث الحديثة المناهضة للوضعية التي لها تطبيقات عملية ملموسة والتي أحسن تقديمها للناس. وسوف تكون الإنترنت مجالاً مناسباً تبدأ البحث فيه).
تفسير – تطبيق تحليل – تقييم	٢- انتفع بملاحظاتك في كتابة مسوّدة لخطبة تُبين أوجه قصور العلم، وتُبين قيمة الإبقاء على ما في المقررات الدراسية من موضوعات مناهضة للوضعية.

الواقعية والانتحار: الأفراد تحت عجلات القطارات

أسهمت المؤلفات التي قدمها ستيف تايلور S. Taylor (١٩٨٢، ١٩٨٩، ١٩٩٠) على نحو معين في "تجاوز مرحلة" المعركة الفكرية للوضعية في مواجهة الفينومينولوجيا. حيث دعا تايلور إلى استعمال كل من الأرقام الرسمية المتعلقة بالانتحار (ولكن مع النظرة المتحفظة التي تعتبرها أرقاماً لا يُعتمد عليها) واتجاه دراسة الحالة لكي يمكن فهم الانتحار فهما أفضل من الناحية المتصلة بعلم الاجتماع. وفي بحثه الدقيق لحالات الوفاة على شريط مترو الأنفاق بلندن على امتداد فترة سنة وجد – على الرغم من أن ٣٢ شخصاً ماتوا تحت عجلات قطارات المترو – وجد أن أسباب وفياتهم ليست واضحة بتاتاً. ومع ذلك، فقد صُنفت ١٧ حالة باعتبارها انتحاراً، و٥ حالات باعتبارها نتيجة حادثة، بينما صدر بشأن ١٠ حالات أحكام قانونية صريحة بأنها حالات قتل. ووجد تايلور أنه من الأرجح أن تسجل الوفيات باعتبارها انتحاراً إذا كان لهذا الشخص تاريخ من

المعاناة الصحية النفسية و/أو كان يعاني من إخفاق اجتماعي ما. ومن الأمور الحاسمة هنا، أن شهادة الشهود من العائلات والأصدقاء كانت تقوم بدور ما في التكييف القانوني للحالة. ويشير بحث تايلور إلى تأييد وجهة النظر التي ترى أن حالات الانتحار لا يمكن تناولها على النحو الذي تبدو عليه في الظاهر، إلا أنه يحاول كذلك اكتشاف الأبنية الأساسية غير الملحوظة التي تؤدي إلى هذا التكييف القانوني للحالة بوصفها انتحارا. وهذا التفسير يقوم على اتجاه واقعي يأخذ بوجهة النظر التي ترى أن الأسباب الأساسية للظواهر الاجتماعية قد لا يمكن الانتباه إليها وملاحظتها في كل الأحوال. (انظر أعلاه).

تقييم معركة الوضعية في مواجهة الوضعية المضادة

تدعو الوضعية إلى استخدام المنهج العلمي في دراسة العالم الاجتماعي. ويُفترض في الوضعية أن مثل هذا المنهج يقدم منحىً منطقيا ومنظما وموضوعيا (أي: متحرراً من القيم) في إجراء البحوث. ويُفترض أنه عن طريق الاختبار الدقيق والصارم للفروض من خلال الوسائل المقررة، يستطيع علماء الاجتماع أن يُميطوا اللثام عن القوانين التي تحكم العالم الاجتماعي والتي تماثل تلك التي يكتشفها العلماء بالنسبة للعالم الطبيعي.

وكان مناهضو الوضعية يُصرون على أن الأسلوب العلمي لا يمكن تطبيقه في دراسة العالم الاجتماعي. فهم يتصورون أن العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي مختلفان اختلافاً بعيداً يحول دون السماح بدراستهما بنفس الوسائل. يضاف إلى ذلك أن من المعترف به أن أي بحث هو بحث ذاتي لا محالة لأن الباحثين لا يستطيعون فصل أنفسهم عن القيم التي يؤمنون بها. ويؤيد مفكرو الوضعية المضادة البحث من خلال دراسات الحالات الفردية المحدودة النطاق. إذ يرون أن هذا هو السبيل الوحيد الذي به يمكن جمع بيانات ذات مغزى.

ويتبنى الاتجاه الواقعي في الدراسة العلمية موقفا أكثر براجماتية (عملية) بالقول بأنه يمكن أن يكون "تطبيق المنهج العلمي" في علم الاجتماع نافعاً إلى حد معين، وأنه – لذلك – لا يجوز أن يُنبذ تماماً، إلا أنه يتوجب ربطة كذلك بطرق البحث الكيفية للكشف عن العلل أو الأسباب الأساسية للسلوك (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب للاطلاع على المزيد من التفاصيل).

محور الامتحان: كتابة مقال

هذا القسم مصمم لمساعدتك على تطبيق ما حصلته من معرفة مستمدة من هذا الفصل وعلى شحذ تقنياتك في كتابة المقابل.

بالنسبة للاختبار، فقد وضعت إحدى المُدرسات سؤالا واحداً كاختبار في مادة النظرية الاجتماعية لطلبتها. ولم تكن المدرسة واثقة من أنهم سوف يقدرون على الإجابة على هذا السؤال لأنها كانت قد أمضت سنة ونصف السنة تُدرس لهم مادة الأسرة و مادة التربية، ولأنها لم تفسح مجالا لتدريس مناهج البحث إلا قبل امتحان نصف الترم (الفصل الدراسي) بأسبوع فقط.

انظر إلى السؤال الذي وضعته واقرأ الإجابة التي كتبها أحد طلبتها.

الأسئلة

صف وقيم واحدة من المعارك الفكرية التالية:

١– معركة البنيوية في مواجهة الفعل الاجتماعي.

٢– معركة الوضعية في مواجهة الوضعية المضادة.

٣– معركة النظرة التطورية في مواجهة التحليل الآني.

إجابة أحد الطلبة

يؤمن الوضعيون أن علم الاجتماع ينبغي أن يكون موضوعاً نافعا ومطابقا لمقتضى الحال. ولا بد أن مناهضي الوضعية يتخذون موقفا سلبيا(*). إذ يظنون أن علم الاجتماع يتعين أن يكون علماً غير نافع وبائسا. وفي وقتنا الحالي تُعد هذه المعارك الفكرية أمراً مهماً، وأنا أنوي أن أقدم وصفا وتقييما للوضعية والوضعية المضادة، والبنيوية في مواجهة الفعل والنظرة التطورية في مواجهة التحليل الآني. أوه! لقد لاحظت الآن فقط أن اللفظ المعاكس للوضعية هو الوضعية المضادة إلا أن من المحتمل أنهم (أي: مناهضو الوضعية) يفكرون كما يفكر السلبيون negativists، ولكنهم يُسمّون باسم مختلف. إنني أتذكر أنني قُمت بهذا العمل في الفصل. لقد كان درساً جيداً بالفعل لأن مدرسنا كان مدرسا باحثا، وقد انطلق جرس الإنذار بنشوب حريق فانطلقنا خارجين من الفصل. وإنه لأمر رائع تماما أن أكون أنا نفسي مدرساً، ولكنني مصاب بحساسية مرضية من الطباشير، والآن، أين توقفت في معالجتي لهذا الموضوع؟ وأنا لا أعني أنهم يستعملون الطباشير عن قصد، فالأمر كُله أن الأقلام وأجهزة عرض الشرائح هي التي تجعل من الكتابة كابوساً. يا خبر! لم يبق أمامي سوى خمس دقائق.... ولذلك خيرا لي أن أواصل الإجابة على السؤال.

(*) هذه الإجابة مفروض أنه كتبها طالب. وقد استخدم الطالب كلمة وضعي Positivist (التي تحمل معنى وضعي، والمعنى اليومي العادي: إيجابي)؛ استخدمها مبرزا معنى "إيجابي"، لكي يبرز أن مناهضي الوضعية "سلبيون". وهو بذلك ينقدهم ويبين اتخاذهم موقفا مناقضا للوضعيين (أو الإيجابيين). فهذه كلها لعبة لغوية بسيطة رأيت إيضاحها لكي لا تحدث كلمة "سلبيا" لبسا لدى القارئ. (المترجم)

والآن أقول، إن هذه المعارك النظرية من الأمور المهمة، وأنا عازمٌ على وصف وتقييم الوضعية والوضعية المضادة، والبنائية في مواجهة الفعل الاجتماعي، والنظرة التطورية في مواجهة التحليل الآني. فالبنيويون يتصورون أنه ينبغي علينا أن نرتدي ملابس ضيقة لنمنع انحدار الأمة. وهم فرع من حزب اليمين الجديد مع كاتبهم الكبير مارشلاند. ووجهة النظر المضادة للبنيويين هي وجهة نظر دعاة التمزق، الذين يتصورون أن المجتمع قد تصيبه القشعريرة الشديدة من البرد ويرتدي معاطف "البونشو" (الواقية من المطر) لأن المجتمع يتهاوى كله بأية حال. وهذا الموضوع له صلة بجينيس وهو أحد مشاهير علم الاجتماع، والذي قدم من كاليفورنيا، على ما أظن، أو ذهب إلى كاليفورنيا لفترة قصيرة، أو شيء من هذا القبيل.

ويشبه التحليل الآني ذلك البرنامج التليفزيوني الذي تقدمه "سيو لولي" والذي تقوم فيه تلك المرأة الشقراء المسماة "آليس" بإجراء المكالمات التليفونية مع الناس ومحاولة إقناعهم بمسألة توفير النقود عن طريق ارتداء السراويل الداخلية المصنوعة من المطاط الذي يُشبه الجلد. ولابد أن تكون النظرة التطورية هي المضادة للتحليل الآني، وعندما لا تكون مُتقبلاً لبرامج التليفزيون فإنك تجلس بالمنزل على أمل أنه سيتبلور في ذهنك فهم للمجتمع. والثوريون هم أصحاب وجهة النظر الثالثة، والتي لم يرد ذكرها في السؤال، ولكنهم يُعدُّون معارضين على نحوٍ ما لأنهم يفكرون بطريقة مختلفة.

لذلك، وبعد اطلاعي على جميع جوانب هذه المعارك الفكرية، فإني أتصور أن مزيجا من كل وجهات النظر هذه يمثل أفضل الحلول.

عفوا.. انتهى الوقت

معرفة – فهم تفسير – تقييم	١– حاول أن تحدد عشرة أخطـاء تقليديـة ممـا يـشيع فـي الاختبارات ويكون هذا الطالب قد وقع فيها.
معرفة فهم تفسير تطبيق تحليل تقييم	٢– بعد أن تتعلم من هذه الأخطاء، أجب علـى هـذا الـسؤال بنفسك. تذكر أنه مطلوب منك أن تركز على واحـدة فقـط من هذه المعارك النظرية، وليس كلها. قبل أن تبدأ الإجابة، قد يكون من المفيد أن ترجع إلى النصيحة المقدمة في نهاية الفصل الثاني من هذا الكتاب عن أسلوب كتابة المقال. وإن كنت عازماً على محاولة تنـاول المعركـة الفكريـة "ب"، فسيكون من المفيد أيضاً أن تقرأ المادة العلمية المتصلة بها والواردة في الفصل العاشر من هذا الكتاب (انظر الوضعية في مواجهة الوضعية المضادة).

مفاهيم مهمة
• الحداثة • ما بعد الحداثة • البنيوية • الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة) •الفعـل الاجتماعي • الفهم (عند فيبر) • التحليل الآني • الوضعية • الوضعية المضادة.

التفكير النقدي
• إلى أى مدى يمكن القول أن هذه المعارك الفكرية الأربعة ينفي بعضها بعضا؟   • فكّر في أساليب يمكن بها ربط عناصر من التراث الفكري لكـل مـن هـذه

المواجهات المختلفة لخلق اتجاه فكري آخر في دراسة المجتمع. وهل تُعد بعض أجزاء التحليل السوسيولوجي للمجتمع أكثر أهمية من الأجزاء الأخرى، أعنـــي بذلك، هل البناء أكثر أهمية من الفعل؟

• نظر البعض إلى فلسفة ما بعد الحداثة، بشكل ما، علـــى أنهـــا تحـــلّ محـــلّ المنظورات الفكرية السوسيولوجية الأكثر تقليدية. إلى أي مدى توافق على ذلك؟

الفصل الرابع

النظرية المعاصرة

عندما تفرغ من دراسة هذا الفصل يتعين أن تصبح قادراً على ما يلي:

- التعرف على سبعة تفسيرات للمجتمع تتبناها النظريات المعاصرة:

١- اليسار المعاصر.

٢- الواقعية.

٣- اليمين الجديد.

٤- ما بعد الحداثة.

٥- ما بعد النسوية ونظرية العرق النقدية.

٦- نظرية السلوك الجنسي ونظرية الشذوذ.

٧- نظرية العجز.

- معرفة الفروض الأساسية خلف كل اتجاه من هذه الاتجاهات.
- تقديم أمثلة من البحوث السوسيولوجية بقصد إيضاح تطبيقات كل اتجاه منها.
- تمييز أوجه القوة وأوجه القصور في كل اتجاه، وتقييم الإسهام الذي قدّمه كل اتجاه في التفكير الاجتماعي والبحوث الاجتماعية.
- فهم النزعة الانتقائية التي تركز عليها النظرية الاجتماعية المعاصرة.

مقدمة

يتطور علم الاجتماع بوتيرةٍ سريعة. ففي الوقت الذي لاتزال فيهِ الفروض والمُسلّمات النظرية – التي تعمّقنا في النظر فيها في الفصل الثاني من هذا الكتاب، والخاص بالنظرية التقليدية – لاتزال توفّر أُسُس هذا الموضوع، إلا أن علماء الاجتماع سعَوا، في السنوات الأخيرة، في تطوير أساليب جديدة لتحليل العالم الذي نعيش فيه. وقد استلهم أغلبهم المنظورات الفكرية الأربعة الكبرى، وذلك رغم أن آخرين سَعوا لتطوير أفكارٍ سبق أن تغاضى عنها أو أهملها بعض علماء الاجتماع السابقين.

وسوف يقوم هذا الفصل بإمعان النظر في الاتجاهات الفكرية المعاصرة. ولا يَعني ذلك أن هذه الاتجاهات هي وحدها النظريات الجديدة التي تَمَّ تطويرُها، ولكن هذا الاختيار هنا سوف يهتم بإبراز المذاق الخاص لتلك الاتجاهات الجديدة التي يأخُذ بها علم الاجتماع، كما يركز علي دلالات هذه الاتجاهات بالنسبة لأنواع البحوث التي يُجريها العلماء في وقتنا الراهن.

اليسار المعاصر

أوضح مُور Moore(١٩٨٨)، أن اتجاه اليَسار المعاصر قد ظهر نتيجة الاستياء من التفسيرات السوسيولوجية الراهنة لأسباب الجريمة والانحراف في المجتمع. وفي ذلك يقول:

"تَبلور "اليسار المعاصر" في بريطانيا انطلاقاً من البحوث التي أجراها، تايلور Taylor، ووالتون Walton و يونج Young في مجال "علم الإجرام الجديد"،

كما تبلور كذلك انطلاقاً من أعمال "مركز الدراسات الثقافية المعاصرة" (*) بجامعة برمنجهام... ويربط هذا الاتجاه بين المنظور البنائي للماركسية التقليدية وبين كثير من استبصارات نظرية الوصم، وخاصةً تلك الاعتقاد بأن أيَّ فهم للمجتمع لابُدَّ أن يتضمن وعياً بالمدارك الحسية للأفراد وبأهمية ردود الأفعال المجتمعية تجاه الأفراد الذين يعدهم المجتمع منحرفين" (مور، ١٩٨٨، ص ٧٧).

وعلى الرغم من أن اتجاه "علم الإجرام الجديد" كان قد تم تطويره ليساعدنا في فَهْم الجريمة، فإن من الممكن تطبيق بعض أفكارهِ الأساسية على مَجالات أخرى في الحياة الاجتماعية.

ويحاول التحليل الذي يُقدمه اليسار المعاصر أن يتفحص عدداً من القضايا في وقتٍ واحد، وذلك نظراً للشعور بأنه لِكى نطور فهماً كاملا، فلا بدّ من توسيع مجال اهتمام البحث ليستوعب كلا من سمات الوحدات الاجتماعية الكبرى وسمات الوحدات الاجتماعية الصغرى، كما يأخذ في اعتباره التفاعل الذي يَحدث بين المستويين. ويسعى التحليل الذي يقدمه اليسار المعاصر إلى فهم هذه الظاهرة نفسها – أعنى بذلك: هذا النوع أو تلك القضية قَيْدَ الدراسة، وما يحددها من سِمات وملامح خاصة، وما إلى ذلك. ومع هذا، فإن هذه الظاهرة لا تُدْرَس وحدَها بمعزِل عن غيرها، كما أن الباحثين يبذلون اهتماماً بالسياق البنائي الذي يُوجَدُ فيه موضوع الدراسة. ويحاول مفكرو اليسار المعاصر استكشاف الطُرق التي بها تقوم جوانب البناء الاجتماعي، وأبرزها الاقتصاد، بالتأثير على القضية محل الدراسة.لهذا، فإنهم إذا قاموا بإجراء تحليلٍ للجريمة، أو التعليم، أو الأسرة، فإنهم سيستكشفون –لا مَحَالةَ– الأثر الذي يُحدثه البناء الاقتصادي على موضوعهم الذي اختاروا تحليله.

(*) Centre for Contemporary Culture Studies.

كما أن التحليل الذي يُقدمه اليسار المعاصر يُولي اهتماماً بعوامل التفاعل بين الأشخاص التي قد تؤثر على الموضوع قيد الدراسة. إذ يولي هذا التحليل اهتماما لكل من العوامل الفردية – أعنى بذلك، التأثير الذي يُحدثه الدافع الفردي والاختيار الفردي، وما إلى ذلك – وذلك إلى جانب العوامل المجتمعية بالطبع – وأعنى بها: ردّ فِعل المجتمع تجاه ظواهر معينة، ومدى اختلاف ردود الفعل الاجتماعية من حيث نتائجها، والأسباب التي تفسر لماذا تقوم ردود الأفعال المجتمعية بإحداث هذه النتائج.

كما يوجه الاهتمام كذلك للعوامل التاريخية، والسياسية والثقافية التي قد يكون لها تأثير بنائى أساسى على القضية المدروسة. وقد ينظر إلى أمثال تلك العوامل باعتبار أنها متأصلة في بناء المجتمع وأن تأثيرها لا يرجع بالضرورة إلى أن تأثيراً مباشراً على الموضوع مَحلّ الدراسة، وإنما لأنها تُشكل السياق التاريخي، والسياسي والثقافي الذي توجد فيه هذه الظواهر.

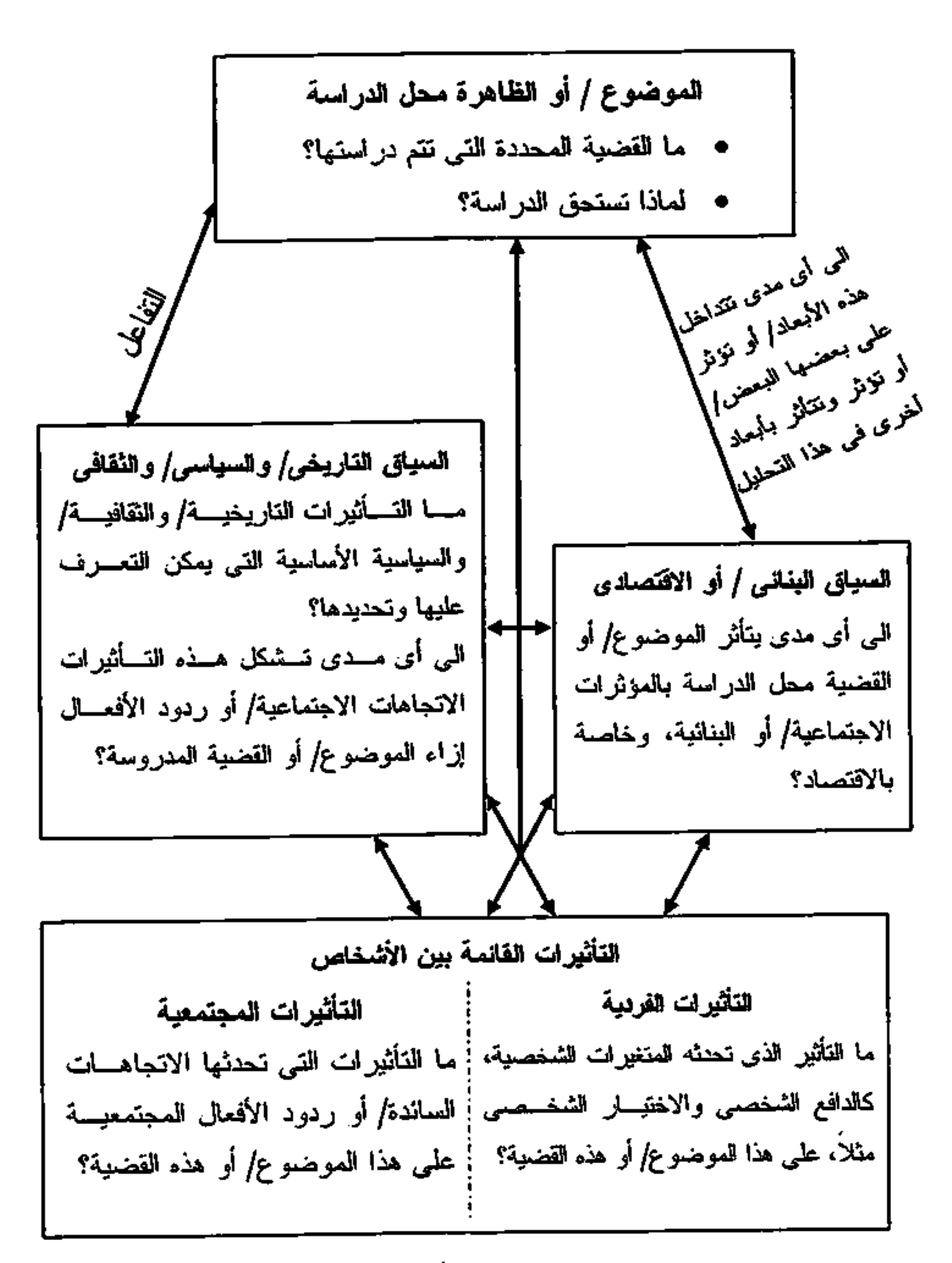
ويقصد مفكرو اليسار المعاصر أننا لو قررنا أن نصل إلى فهم كاملٍ لجانبٍ من جوانب الحياة الاجتماعية، فمن الأهمية أن نستكشف التفاعل القائم بين جميع القضايا المذكورة من قبل. فعندئذ فقط يصبح بمقدورنا تقدير كيف تتضافر كل العوامل لتقدّم تفسيراً مترابطاً منطقياً للظاهرة مَحلّ الدراسة.

ونعرض فيما يلي للتحليل الذي يقدمه اليسار المعاصر وذلك في شكل تخطيطيّ (الشكل ٤/١) يبسط –بوضوح– القضايا التي يهتم بها المفكرون والتفاعل القائم بينها. ويقدم هذا الشكل التخطيطي مُنطلقاً مفيداً في تطبيق اتجاه اليسار المعاصر في دراسة بعض جوانب الحياة الاجتماعية.

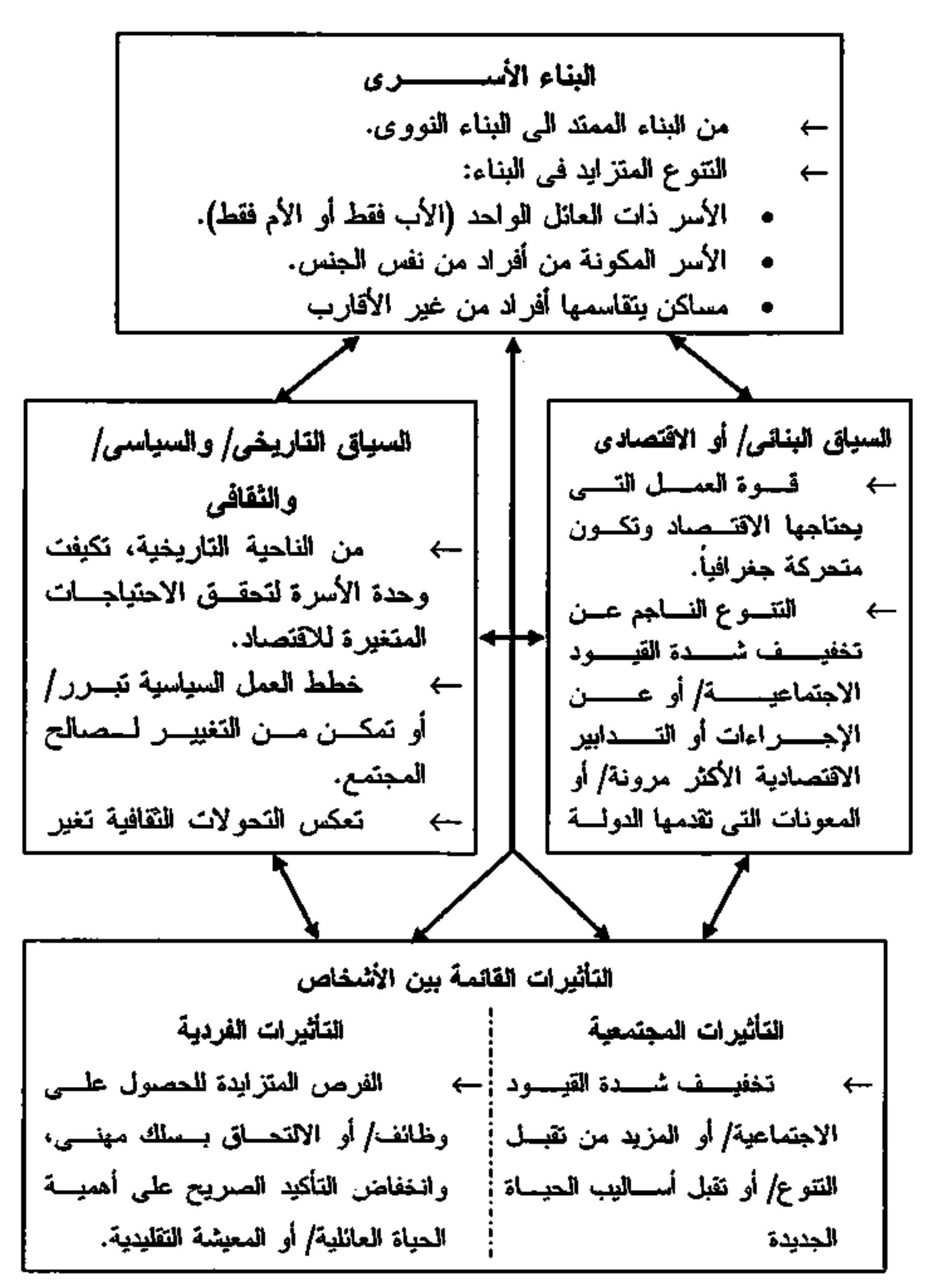
ولمزيد من التعمق في استكشاف هذا الاتجاه، سوف نلقي نظرة مُوجزة على الطريقة التي بها يساعدنا هذا النموذج في فهم البناء المتغير للأسرة في العصور

الحديثة. فقد حاول كثير من علماء الاجتماع (ومنهم على سبيل المثال ويليام جود Goode، ١٩٦٣؛ وأندرسون Anderson، ١٩٧١؛ ويونج Young وويلموت Willmott، ١٩٧٥)؛ حاولوا استكشاف أبعاد التغير الأسري على امتداد الزمن، إلا أن معظم التحليلات اتجهت إلى التركيز على تفسيرات أُحادية فليس على تفسيرات متعددة الأوجه. وكنتيجة لذلك، تتعرض معرفتنا وفهمنا للكيفية التي بها تغير البناء الأسرى لشيء من التفتت والتشظي. والأمر المفقود – في هذه المحاولة الاستكشافية– هو التفسير الشامل للبناء الأسري المتغير الذي يُدخل في اعتباره تأثير العوامل البنائية، والمجتمعية، والعوامل الخاصة بالعلاقات بين الأشخاص، والعوامل التاريخية، والسياسية والثقافية بجانب التفاعل بين هذه العوامل جميعا. ويتيح لنا (شكل ٢/٤) أن ندرك التأثيرات المختلفة التي تساهم في إحداث التغير، وأن نتعرف على ما بين هذه العوامل المختلفة من تداخل وتأثير متبادل.

ويُبين هذا المثال كيف يُمكن للأفكار الواردة في تحليل اليسار المعاصر أن تساعدنا في بلورة فهمٍ للبناء الأُسري المتغير وقد سلفت الإشارةُ من قبلُ، إلى أن هذا المنحى أو الاتجاه كان قد تم تطويره في مبدأ الأمر لتعزيز فهم الجريمة، لذلك فإنه، من حيث المبدأ على الأقل، ينبغي أن يكون هذا الاتجاه أكثر سهولةً في تطبيق هذه الأفكار على موضوع الجريمة.



شكل ٤-١ عناصر التحليل عند أصحاب اليسار المعاصر



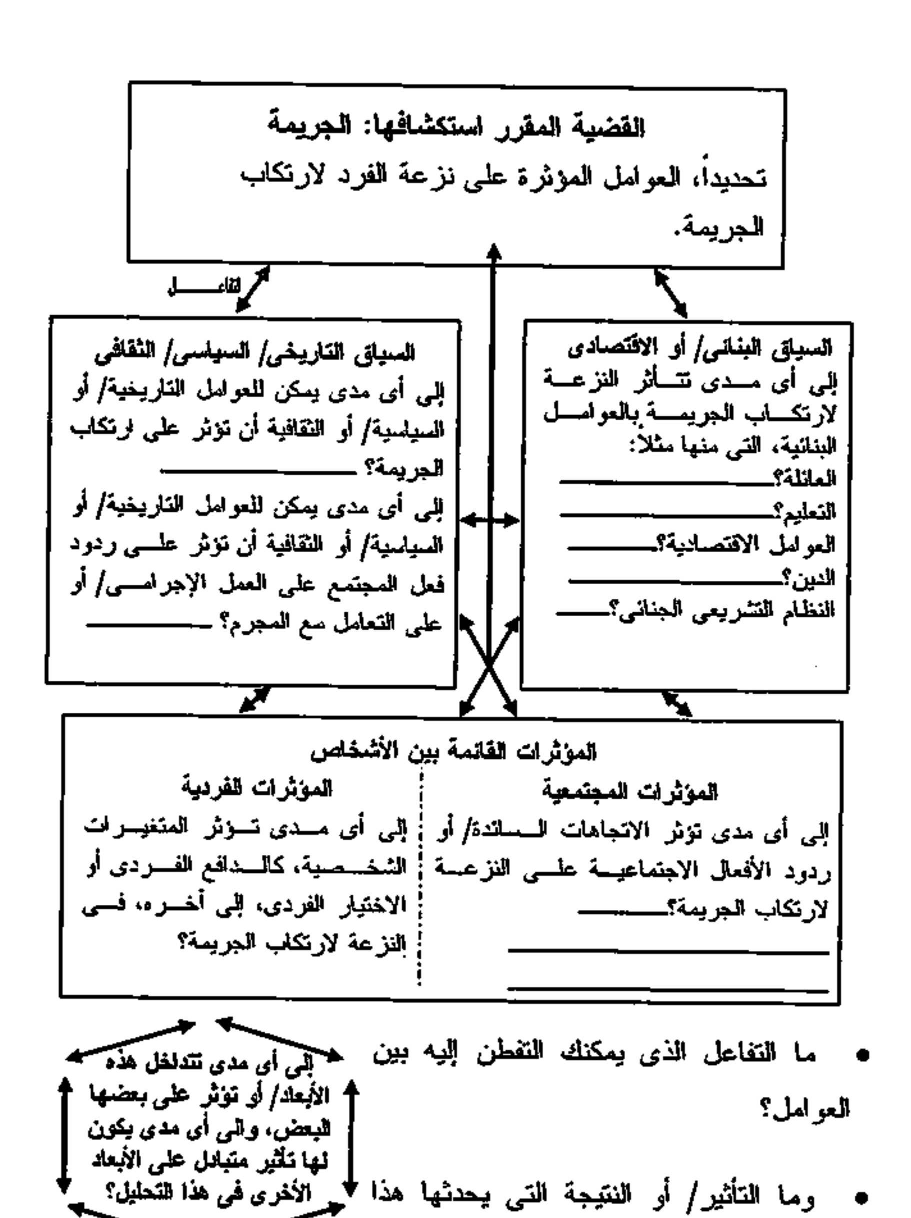
شكل ٤ – ٢ تحليل اليسار المعاصر للبناء الأسرى المتغير

	تمرين ٤-١
معرفة K[*]	سوف يساعدك هذا التمرين على إمعان النظر في الطريقة التي يترجح أن يتبعها مفكرو اليسار المعاصر في تناول تحليل الجريمة.
فهم U تفسير E	(١) انسخ المخطط البياني الوارد أدناه، وأكمله بالإجابة على الأسئلة الموضوعة داخل كل صندوق.
تطبيق A	(٢) وبعد أن تقوم باستيفاء تساؤلات هذا المخطط البياني يتوقع أن تتكون لديك رؤية واضحة لطبيعة ومقومات تحليل اليسار المعاصر للجريمة. تحقق من مدى فهمك لكل تلك العناصر بالقراءة عن اتجاه اليسار المعاصر في معالجة موضوع الجريمة وذلك بالرجوع إلى أحد الكتب الدراسية لعلم الاجتماع ذات الصلة بهذا الموضوع، مثال ذلك:كتاب تي. لوسون T.Lawson وتي. هيتون T.Heaton بعنوان "الجريمة والانحراف" Crime and Dviance، سلسلة "علم الاجتماع القائم على تنمية المهارات" Skills-based Sociology (٢٠١٠) التي صدر من خلالها كتابنا هذا.

(*) تشير الحروف إلى أوائل مسميات المهارات والقدرات التي يفترض أن ينميها ويطورها مثل هذا التمرين. وقد ورد شرحها باستفاضة في الفصل الأول من هذا الكتاب ونعيد إيرادها للتذكرة:

- معرفة = K (Knowledge)
- فهم = U(Understanding)
- تفسير = I (Interpretation)
- تطبيق = A (Application)

وسوف نقتصر فيما يلي على إيراد الكلمات العربية فقط. (المترجم)



- ما التفاعل الذى يمكنك التفطن إليه بين العوامل؟
- وما التأثير/ أو النتيجة التى يحدثها هذا التفاعل؟

شكل ٤ – ٣ تحليل اتجاه اليسار المعاصر للجريمة

تقييم اليسار المعاصر

نقاط القوة

١- يُعتبر اليسار المعاصر أسلوبا عمليا يتسم بالتماسك المنطقي ويجمع بين كل من:الاتجاه البنائي واتجاه الفِعل.

٢- من الممكن اختصار الأفكار المتصلة بالجريمة إلى خطوات تحليلية أساسية، ويمكن تطبيقها على غيرها من مجالات الحياة الاجتماعية.

أوجه القصور

١- التسليم بأن السلوك تُحركه الدوافع، وأنه يتضمن قدراً من الاختيار. ويذهب بعض المفكرين البنويين إلى رفض هٰذا الرأي، زاعمين أن الأفراد مُجرد دُمى تحركها قوى البناء الاجتماعي، وأنه ليس لهم إلا تأثير قليل على حيواتهم الشخصية.

٢- يَرفض النقاد تأكيد اليسار المعاصر على أن التفسيرات قد يتعين أن تكون مُعقدة للغاية، وذلك لأن التفسيرات المُعقدة قليلة الفائدة عند مَن يسعون لاستعمال النماذج النظرية في تطوير فهمٍ للحياة الاجتماعية.

الواقعية

يقوم الاتجاه العام الذي يتخذه المفكرون الواقعيون من علم الاجتماع على القول بأن أبنية المجتمع ونظمه ومؤسساته تتمتع بوجود قائم وراء وجود الأفراد

الذين يستحدثونها وينتجونها.فالأبنية والنظم والمؤسسات موجودة، إلا أن حضورها ليس بالضرورة حضوراً ملموساً أو مرئيا، ومع ذلك فإنه من الممكن الإحساس بها.

وفي وقتٍ أحدث، ظهرت الواقعية كرد فعلٍ نظري للجدال الدائر بين الوضعية والنزعة المضادة للوضعية: إذ يسعى الواقعيون إلى التوفيق بين هذين الموقفين الفكريين المختلفين عن طريق طرح مَنحى جديد لتحليل المجتمع يشتمل على الإفادة من العناصر الموجودة فيهما معاً. وقد تطورت الواقعية من خلال الأعمال التي كتبها كل من: كيت Keat وأوري Urry(١٩٧٥)، وباوسون Pawson (١٩٨٩) ولايدر Layder (١٩٩٠، ١٩٩٣)، الذين بذلوا جهوداً في التأليف بين العناصر النافعة في كلٍ من الوضعية والوضعية المضادة بأسلوب مترابط منطقياً.ويُقدم كلارك ولايدر (١٩٩٤، ص٧) الرؤية التالية:

"ترى الواقعية، شأنها شأن الوضعية، أنه توجد بعض الدروس المستفادة من العلوم الطبيعية، وترى، تبعاً لذلك، أن بالإمكان الانتفاع ببعض طرق البحث في تلك العلوم. من ذلك – على وجه الخصوص – أن الاهتمام بالكيفية التي ينجم عنها ظهور العمليات والأحداث الاجتماعية؛ يعد أحد الأسئلة المهمة التي يتعين على علماء الاجتماع أن يجيبوا عنها. وبالمثل، فإن الاهتمام بالطبيعة الموضوعية لبعض جوانب المجتمع يُعد عنصرا أساسيا من عناصر الواقعية يقترب بها من نموذج العلم الطبيعي. ومن ناحية أخرى، تُقر الواقعية بأن الكائنات البشرية ليست أشياءً مادية تشبه تلك الأشياء التي يدرسها العلماء الطبيعيون. فالأفراد من البشر ليسوا مُجرّد قوالب تصوغها العوامل الاجتماعية "الخارجية" وإنما هم أشخاص فاعلون يمتلكون الوعي ويحددون مقاصدهم بأنفسهم، ومن ثم فهم يقومون بكلٍ من خَلْقِ وإعادة خلق العالم الاجتماعي".

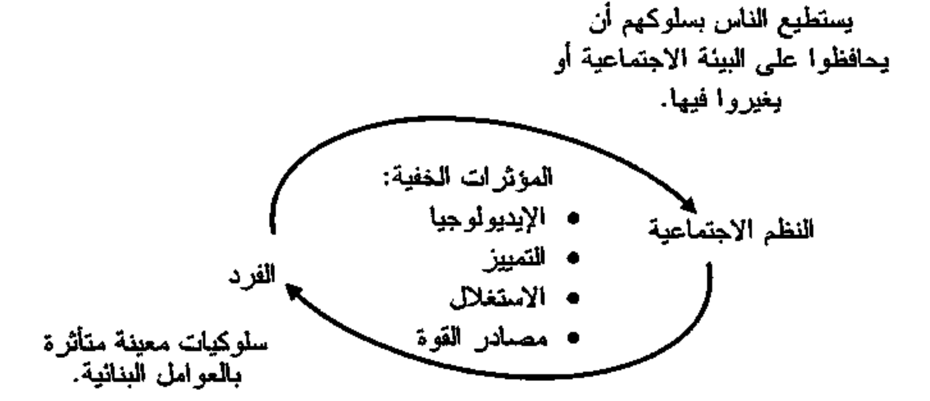
وللواقعية عدد من السمات المتميزة التي تشتمل على ما يلي:

- فهي تُركز على طبيعة المجتمع ككل وليس على العناصر التي يتكون منها.
- ويجمع تحليلها بين الاهتمام بالتفاعل والنظم الاجتماعية (كالاقتصاد، والنظام السياسي، والدين).
- وهي تهتم بجوانب المجتمع التي قد يغفل عنها الناس ولكنها تكون ذات تأثير بالغ على التفاعل بين الفرد والمجتمع.

ويهدف التحليل الذي تقدمه الواقعية إلى استكشاف الأسباب الأساسية للظواهر الاجتماعية. وللمساعدة على تحقيق هذا الهدف، حاول أصحاب النزعة الواقعية أن يطوروا نماذج للعمليات السببية التي تمارس تأثيرها تحت سطح الأحداث.وهم متنبهون إلى أن نماذجهم هذه ينبغي -كذلك- أن تكون قادرةً على التكيف مع العوامل السببية، والتي منها مثلا الإيديولوجيا، والثقافة، وعلاقات القوة. ويُبين الشكل ٤-٤ الطريقة التي تتلاءم بها هذه الأفكار مع بعضها. والنموذج العام الذي ترتكز عليه الواقعية مُستمدة من موقف فلسفي (أنطولوجي) متعلق بالطبيعة الأساسية للظواهر الاجتماعية. ويتجاوب هذا الموقف الفلسفي مع مفهوم رايت ميلز C. Wright Mills عن الخيال السوسيولوجى، الذى قدمه في كتابه المعنون بنفس هذا التعبير (١٩٥٩)، والذي يمكن شرحُهُ باستعمال المثال التالي:

افترض أنك في أحد المطارات تنتظر رحلة طيران لقضاء عطلتك الصيفية. فهذه خبرة غير ملحوظة تماما، مع أنها تحدث لملايين الأفراد. فإذا ألقيت نظرة على ما حولك، فمن المرجّح أن ترى عدداً من طائرات الركاب النفاثة مُصطفّةً إلى جانب مبنى صالة الركاب. ونحن جميعاً قد رأينا طائرات، كما أن كثيرين منا قد

سافروا على متن إحداها؛ فالطائرات جُزء من خبراتنا اليومية، وهو جزءٌ من المُستبعد أن نتوقف للتفكير فيه كثيرا. ومع هذا، فلو أننا انتقلنا إلى ما وراء هذه الخبرة اليومية التي لا نلتفتُ إليها وتأملنا ما يُسميهِ ميلز "الخيال السوسيولوجي" فإننا نستطيع حينئذ أن نبدأ في الإحساس بوجود بعض الأبنية والعمليات السوسيولوجية الأوسع نطاقاً والتي تمثلها هذه الطائرة. مثال ذلك، أن الطائرات موجودة كجزء من النظام العولمي للإنتاج الذي تكون فيه الشركات العابرة للقوميات مملوكة لأفراد يقومون بإدراتها أو التحكم فيها، والذين يَغلُبُ أن يكونوا من الرجال البيض الأثرياء. ومن شأن هذا الوضع أن يثير قضايا الطبقة الاجتماعية، والإثنية، والنوع الاجتماعي داخل نظام رأسمالي شامل. كامل أن الطائرة تمثل العولمة والتطوير باعتبارهما شكلين للثقافة ووقت الفراغ على امتداد الزمن. ومع ذلك، فإن هذين الشكلين، وخلافاً لما عليه الطائرة والمطار، لا يكونان متاحين للملاحظة والخبرة. ذلك أن الرأسمالية، والعولمة، والأبنية الطبقية، وما إلى ذلك من الأمور موجودة، إلا أنها بسبب كونها ظواهر بنائية، ولأنها تُشير إلى أنظمة معقدة للعلاقات الاجتماعية، فإننا لا نستطيع أن نتعرف عليها وندركها من خلال خبراتنا اليومية المباشرة. يُضاف إلى ذلك، أن ما نخبره فعلا في حياتنا اليومية هو ثمرات أو آثار هذه الأبنية والعمليات الأساسية؛ فالطائرات والمطارات موجودة كنتيجة للنظام الرأسمالي في الإنتاج والاستهلاك. وتُعد وجهة النظر هذه إلى الظواهر الاجتماعية، والتي ترى أن هذه الظواهر تتسبب في إيجاد الملاحظة والخبرة المباشرتين إلا أنه لا يمكن معرفتها من خلال الملاحظة والخبرة المباشرة؛ نقول تُعَدُّ وجهة النظر هذه أمراً جوهريًا في الفلسفة الواقعية.



شكل ٤-٤ :الاتجاه الواقعي في فهم الحياة الاجتماعية

ولكن، إذا لم يكن بالإمكان أن نعايش الظواهر الاجتماعية ونفهما بصورة مباشرة، فكيف يمكننا أن نصفها ونشرحها، إذ كيف تستطيع معرفة أشياء لا تراها؟ هذا هو السؤال الذي تجيبُ عليه النظرية الاجتماعية. فلكي "تعرف" الأبنية والعمليات الأساسية، فإننا بحاجة إلى تصويرها في شكل النماذج النظرية. وتوجد أمثلة كثيرة لذلك داخل علم الاجتماع، فالاغتراب، واللامعيارية، والوعي الجَمعي وما إلى ذلك من الأمور، لا يُمكن مُلاحظتها بالطريقة التي يُمكن بها ملاحظة الأشجار، والعربات والطائرات، إلا أننا نستطيع أن نفهم طبيعتها في سياق النظريات ذات الصلة الوثيقة بها. ومُوجز القول، أن الحياة الاجتماعية، في منظور النزعة الواقعية، يمكن تقسيمها إلى مجالين: المجال الأول يشير إلى حياتنا اليومية التي نعرفها ونخبرها بصورة مباشرة، بينما يشير المجال الثاني إلى الأبنية والعمليات الأساسية التي تُعد ستارة خلفية لخبراتنا في المجال الأول، إلا أنها موجودة وراء نطاق الملاحظة المباشرة (انظر تمرين ٤-٢).

كان للنزعة الواقعية تأثير على الجَدَل الدائرة حول ما إذا كان بوسع علم الاجتماع أن يكون علماً (أي:كالعلوم الطبيعية). ويعترف مُعظم علماء الاجتماع أن أصحاب النزعة الواقعية قدموا إسهاما نافعاً لهذا الجدال (انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب للمراجعة).

كما يمكننا أن نلمس تأثير الواقعية في دراسة الجريمة والانحراف، حيث سَعَت مجموعة من علماء الاجتماع لتكييف الآراء والمُسلمات المبدئية للواقعية في تقديم اتجاه جديد في دراسة السلوك الإجرامي.ويُسَمِّي هذا الاتجاه نفسه "واقعية اليسار الجديد"، مُعترفاً بأصولهِ الفكرية إلا أنه يُعلن مفارقته الجذرية للتيار الرئيسي في الفكر السوسيولوجي.وتسعى واقعية اليسار الجديد لسد الفجوة بين أفكار اليسار المتطرف عن الجريمة، والتي تُركز ِعلي البناء الاقتصادي، وبين أفكار اليمين الجديد، والتي تستعمل أضعف أعضاء المجتمع (غير المرغوب فيهم) ككِباش فِداء لمعظم الأعمال الإجرامية في المجتمع.وقد تلقَّت واقعية اليسار الجديد تأييداً قويا من علماء الاجتماع، وعلماء الجريمة، والسياسيين، إلا أنها كانت – كذلك- موضعاً لنقدٍ شرس.

	تمرين ٤-٢
تحليل تقييم تطبيق	في ضوء المثال السابق عن المطار وعن الرحلات الجوية، وضح معنى "الواقعية". فكِّر في ثلاثة أمثلة إضافية لأبعاد المجال الأول والمجال الثاني لحياتنا الاجتماعية.

	تمرين ٤-٣
تفسير تطبيق	أكمل الموجّز التالي للواقعية باختيار الكلمات الناقصة من بين الكلمات المُدرجة في السطور التي تلي هذا النص: تحاول الواقعية أن تجمع بين أفضل سمات الـ ________ والـ ________. وتركز الواقعية على ________ ككُلٍ وليس على العناصر الصغيرة التي يتركّب منها، وتحاول الواقعية أن تجمع بين الاهتمام بـ ______ و ______ من عناصر المجتمع، والتي منها مثلاً، الاقتصاد، والسياسة، والدين، وما إلى ذلك ________. وتهتم الواقعية بجوانب المجتمع التي قد لا تكون واضحةً للباحث إلا أنها تحدث تأثيراً بالغا. وقد طورت الواقعية ______ لتفسر الأسباب الـ ______ للظواهر الاجتماعية. وقد تم تطويع الواقعية وتطبيقها على دراسة ________. ويحاول الاتجاه المُسمَّى "واقعية الـ ______" أن يُفسر الجريمة في ضوء ثلاثة مفاهيم ذات ارتباطٍ متبادل ببعضها، و________، ورغم ترحيب بعض علماء الجريمة وبعض السياسيين بهذا الاتجاه، فإنه تعرض لـ ______ شرس.ورغم أن واقعية اليسار الجديد تُقدم تفسيرات ______ معقولة، فإنها لاتزال مُطالبةً بأن تَوليٍّ اهتماماً كافيا لـ ______ مختلف أوجه التواؤم مع ______ والحرمان. فإن تفعل الواقعية ذلك، فإنها سوف تنعم بأشعة مجدها المتألقة.

	الكلمات الناقصة:
	• اليسار الجديد • التهميش •الوضعية• المجتمع• النماذج التفسيرية• الثقافات الفرعية• عدم العدالــة• المعــاني • الحرمـــان النـــسبي• الجريمة• أساسيّ• مؤسسي• بشري• الوضعية المضادة• الأســـباب• نقد• بنائيّ• دوافع• الفعل•دقيق.

اليمين الجديد

يُعَدُّ "اليمين الجديد" اتجاهاً اجتماعياً – سياسيا ظهر كمنظور متطرف في مجال الرعاية والسياسة الاجتماعية. وقد استمد هذا الاتجاه توجيهاته من الفلسفات التي ارتبطت بحكومات تاتشر في سنوات الثمانينيات من القرن العشرين. فقد تَبَنّى بعض مفكري هذه الحقبة، ومنهم مارسلاند Marsland (١٩٨٩) مثلاً، تَبَنّى أفكار اليمين الجديد في تفسير الفقر. وسوف نُدقق النظر في آراء مارسلاند لاحقاً. وبادئ ذي بَدء، سيكون من المفيد أن نستكشف المُسَلَّمات الأساسية لتفكير اليمين الجديد.

يَرَى نُقّاد اتجاه اليمين الجديد أنه اتجاه مُعادٍ للفقراء. وذلك لأنه يبدو وكأنه يلوم المحرومين على ماهم فيه من حرمان. مع أن المجتمع يعد مسئولاً –إلى حد ما– عن الحرمان الاجتماعي لأن هناك بعض الآليات التي تعمل على الإبقاء على الأفراد في حالة من التبعية والاستضعاف، وليس لتشجيعهم أو إلزامهم بمواجهة ما يقابلهم من صعوبات وأن يُحسنوا أوضاعهم.

ويشيع بين مفكري اليمين الجديد رأي مفاده أن توفير برامج الرعاية في بريطانيا يخلق الفقر، وذلك لأن الأفراد الذي يعانون الحرمان يعمدون إلى الاعتماد على عطايا الدولة بدلاً من أن يتحمّلوا المسئولية عن وضعهم الاقتصادي. فالدولة

تخلقُ وتُبقي على ما يُطلقُ عليه مصطلح "ثقافة الاعتماد أو التبعية"، أي الاعتقاد بأن الاعتماد على عطايا الدولة أمرٌ لا غضاضة فيه، بل أمر مرغوبٌ فيه. ويؤيد مفكرو اليمين الجديد إحداث هَزة جذرية يُعاد بها تنظيم نظام الرعاية المعمول به لضمان ألا تتواطأ الحكومة مع الفقراء لتُبقي عليهم فقراء (انظر تمرين ٤-٤).

الموضوع (٨)

اتجاه اليمين الجديد إزاء السياسة الاجتماعية

المبدأ الأساس لليمين الجديد هو أنه ينبغي تحرير الناس من قيود التنظيم الذي تفرضه الدولة بمقدار ما يتوافق ذلك مع الحفاظ على النظام السليم. وحيث تحاول الدولة أن تدير حياة الناس، لا ينجم عن ذلك سوى الضرر الاجتماعي. والسبب في ذلك هو أنه، بدون المنافسة وبسبب النصيب غير العادل الذي تتمتع به المنظمات الخاصة، تؤدي أنشطة الدولة دائما إلى القصور العجز. ويصدق هذا الكلام على سياسة الرعاية كما يَصدقُ على أي مجالٍ آخر للنشاط.وبدلاً من زيادة الضرائب إلى مستويات عالية للوفاء بتكاليف دولة الرعاية، ينبغي أن يكون دافعو الضرائب أحراراً في إنفاق مالِهم على المؤسسات الخيرية التي يرغبون في دعمها.مثال ذلك، أنهم قد يرغبون في تقديم عطاء "للفقراء المستحقين"، أي لمن يكونون عاجزين عن العمل بسبب نقصٍ ليسوا مسئولين عنه، وليس للفقراء "غير المستحقين" الذين لا يهتمون بالبحث عن العمل والمساهمة في المجتمع. ويذهب اليمين الجديد إلى أنه بدلاً من استغلال الدولة كوسيلة لتزويد المستهترين بما يعيشون به، فإن القدر الذي يقدمه الأفراد بصفتهم الشخصية من خدمات بجانب ما تقدمه الدولة من خدمات الرعاية، وخدمات التقاعد، هو أكفأ طريقة لتنظيم الجهد المبذول في مجال الرعاية.

	تمرين ٤-٤
تفسير تطبيق	اقرأ الموضوع (A) وأجب على الأسئلة التالية: ١- كيف يتأثر الرأي المؤيد لكفاءة المنظمات الخاصة "بأزمة الائتمان الحادة سنة ٢٠٠٨"؟
معرفة فهم تفسير	٢- حدد مجموعة من الأفراد يمكن إدراجهم ضمن فئة: (أ) الفقراء المستحقين، (ب) الفقراء غير المستحقين.
تحليل تقييم	٣- إلى أي مدى توافق على أن الضرائب المنخفضة يمكن أن تؤثر على النزعة الطبيعية لتقديم المعونة للفقراء؟
تقييم	٤- ما الصعوبات التي يمكن أن تظهر إذا اعتمدت المنظمات الخيرية على الهبات التطوعية وحدها؟
تحليل تقييم	٥- إلى أي مدىً يُمكن أن يكون تبني سياسات اليمين الجديد في صالح الحكومة؟

مع أن سياسات اليمين الجديد لم تبدأ في التغلغل في التفكير السوسيولوجي والتأثير عليه إلا في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، إلا أنه ليس من العسير أن نعثر على أمثلة من البحوث القائمة على أفكار اليمين الجديد. وأشهر تلك الأمثلة ذلك البحث الذي كتبه مارسلاند (١٩٨٩)، وطبَّق فيه فلسفة اليمين الجديد على دراسة الفقر. ويلتزم رأيه التزاماً وثيقا بالأفكار المحورية التي أوضحناها سالفاً،

على نحو ما يبدو في مهاجمته "لتوفير الرفاهية الشاملة" أي تقديم خدمات "الرعاية الواسعة النطاق لجميع الناس"، والتي تقوم الدولة بتوفيرها وتُخصص لمواجهة الاحتياجات الأساسية للسكان جميعاً.

يتوسع مارسلاند في رأيه ليُصور سياسة التوفير الشامل للرعاية على أنها مسئولة عن كثير من المشكلات الاجتماعية، بما فيها مُشكلة البطالة طويلة الأمد، وجرائم الشوارع، وقصور التحصيل الدراسي للطلبة، وظهور الأسر ذات العائل الواحد. والسبيل الوحيد لخلاص هذه الطبقة لن يتحقق إلا بإلغاء خدمات الرعاية التي تقدمها لهم الدولة.فبمجرد أن يتحرر الفقراء والمحرومون من "الأفكار الخاطئة "والسياسات المدمرة" التي يفرضها عليهم رجال الحكومة ذوو النزعة الأبوية، والاشتراكيون، وذوو الحظوة من أعضاء طبقة المهنيين الجديدة، كالعاملين في مجال الخدمة الاجتماعية مثلاً، فمن المؤكد أنهم سيصبحوا -حقا- على أول الطريق نحو استعادة عافيتهم الاقتصادية والاجتماعية. ولهذا يرى مارسلاند أن إصلاح نظام الرعاية يتعين أن يكون كالتالي:"بدلاً من أن يكون الهدف إعادة توزيع الموارد بالأسلوب الاشتراكي الذي يُدمر نفسه، ينبغي أن يكون الهدف هو تقديم المساعدة الفعالة لمن هم في حاجة فعلية إليها، وذلك بجانب العودة إلى الاعتماد على النفس بأسرع ما يمكن"(المرجع السابق، ص٥٥).

تسببت هذه الأفكار المثيرة للخلاف في توجيه الانتقاد إليها ممن ليسوا مستعدين لتقبل فكرة لوم الفقراء على فقرهم. فنجد -مثلا- أن جوردان Jordan (١٩٨٩) قد عارض مارسلاند بصورة مباشرة، ذاهباً إلى أنه إذا كان هناك وجود لما يسمى ثقافة الفقر، فإن السبب في ذلك يرجع إلى أن نظام الرعاية يُخضعُ الفقراء إلى الحد الذي يصبحون فيه مُهَمَّشين بعيداً عن المجتمع كما يصيرون عاجزين عن أن يُقدموا إسهاماً اقتصادياً له.ويُقدم لنا هجوم جوردان على مارسلاند رؤية مثيرة للاهتمام عن أوجُه القصور في نظرية اليمين الجديد.

وعلى الرغم من كل هذا النقد، فقد استطاع تفكير اليمين الجديد أن يستحوذ على خيال علماء الاجتماع الحريصين على تبني منظورٍ فكريٍّ مختلفٍ في تحليل المشكلات الراهنة التي تشغل بال الناس. فقد أصبح هذا الاتجاه معروفاً بالتسلطية الاجتماعية، والتي تحاول أن تُحدث تأثيراً أخلاقيا في المجتمع عن طريق الدعوة إلى أشكالٍ معينة من السلوك أو الفعل التي تعد في رأيهم مرغوبة لأنها تخدم الصالح العام. وتعتنق التسلطية الاجتماعية فكرة اتباع ما هو تقليدي وفكرة الامتثال، كما أنها تعتبر الراديكالية (أي النزعة المتطرفة) أو النزعة الابتكارية (الأصالة) تمثلان تهديد خطيرا "للوضع القائم". إنها تسعى لتأكيد القيم المشتركة عن طريق التأكيد على المشاركة في تحمل المسئولية، وعلى القوانين والأحكام الأخلاقية الصارمة من أجل ردع الأفراد عن التقصير في الطاعة والإذعان.

وقد انتفع علماء الاجتماع بهذا الاتجاه في المساعدة على تطوير فهمهم للتغيرات البنائية في المجتمع.ويمكن القول أن هذا المنظور الفكرى قد أثر تأثيرا كبيرا على من يسعُون إلى فهم حقيقة الأسرة، لأن تأثيره أسهل تحديدا. ففي أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من القرن العشرين أعلن السياسيون المحافظون أن ظهور الأسرة ذات العائل الواحد كان مرتبطاً -بشكل ما- بالحالة المنحدرة للمستوى الخُلُقي للأمة. وقد سلط اتجاه اليمين الجديد الضوء على الطبيعة "المرضية" للأسرة ذات العائل الواحد وعلى صلتها بنظام خدمات الرعاية التي تقدمها الدولة. وكان يُنظر إلى هذا الوضع باعتباره مجالاً مشروعاً للاهتمام نظراً للزيادة المضطردة في أعداد مثل هذه الأُسَر، خاصة تلك الأسر الناجمة عن أُمُومَة غير المتزوجات وعن ارتفاع معدلات الطلاق.

وقد زودَنا السياسي اليميني الكبير سير كيث جوزيف بقدر كبير من تفسير الدافع الكامن وراء هذه النظرة "المرضية" للأسرة ذات العائل الواحد، حيث يذهب إلى القول بأنَّ:

أصبح التوازن السكاني في بلــدنا – أي فــي ثروتنـــا البــشرية – مُهــددا بالخطر... بسبب كثرة أعداد من يعولهم أفراد من غير الأكفاء، هــم فــي الغالــب الأعم من النساء الشابات غير المتزوجات والمنتــسبات للطبقتــين الاجتمــاعيتين الرابعة والخامسة. لقد كان أطفالهن يعانون شتى المشكلات، وسيصبح مــنهن فــي المستقبل أمهات غير متزوجــات، وســيكون مــنهم المنحرفــون والنــزلاء فــي إصلاحياتنا، وتلاميذ مؤسساتنا التعليمية ذات المستوى المتدني، ومنهم من ســيقبع في سجوننا، أو يقيم في دور الضيافة المخصصة للمنحرفات (صحيفة الجارديــان، ٢١ أكتوبر ١٩٧٤).

ثم حدث في وقتٍ قريب – خلال السنوات الأولــى مــن القــرن الحــادي والعشرين – أن استلفتت جمَاعات أخرى انتباه الناس لورودها في تقارير أجهــزة الإعلام، وهي الجماعات التي جسَّدت نظرة اليمين الجديد لجماعاتٍ معينة بوصفها جماعات مرضية. إذْ تم الربط بين جماعات "إن إي إي تــي" NEETs (*) (وهــذه الكلمة اختصار لعبارة معناها:الشباب غير الملتحقين بتعليم أو وظيفة أو تــدريب)، نقول :تم الربط بين هذه الجماعات والجريمة، كما ربــط ســويل Swale (٢٠٠٦) تعريفه لهويتهم بالكتابات المبكرة لتشارلز موراي Charles Murray . وقد وصفت جماعات إن إي إي تي بأنها "قبيلة جديدة" (وينيــت Winnett، ٢٠٠٥) أو بأنهــا طبقة دنيا، أصابتها لعنة بسبب امتناعها عن العمــل، ولكونهــا مجموعــة مــن الشحاذين الذين يبحثون عن المعونات المالية، ولكونها مكونة من آبــاء وأمهــات عزّاب (أي أرباب أسر ذات عائل واحد) ولا يملكون أي أهلية للقيام بهذه المُهمّــة. وإن من الأهمية أن نلاحظ ذلك التعصب الطبقي الذى هو جزء متأصل في صــميم القدر الأكبر من تفكير اليمين الجديد. فتسمية الطبقة العماليــة "بــالأجلاف"، وفئــة

(*) (Young people) Not in Education, Employment, or Training.

"عديمي التعليم والوظيفة والتدريب"NEETs، و"البلطجية"، تمثـل بوضـوح شـديد وجهات نظر "الفهم الشائع"عن الطبقة العمالية، بجانب الخطر المحتمل الذي تُعرض المجتمع له.

سيطر اتجاه اليمين الجديد على الفكر السياسي بشأنِ الأسـرة فـي أوائـل التسعينيات من القرن العشرين وفيما بعدها، بجانب أن حكومة حزب العمال أخذت في أواخر التسعينيات من القرن العشرين وأوائل الألفية الثالثة بكثير مـن الأفكـار المحورية لليمين الجديد. وكان من الأمور ذات الأهمية الخاصـة تخـوف اليمـين الجديد من الأثر الذى يُمكن أن تُحدثه زيادة عدد الأسر ذات العائـل الواحـد فـي رفاهية الدولة. وقد أدَّى هذا إلى ظهور طائفة من المقالات (التي لا يستند معظمها إلى أدلة تؤيدها) في وسائل الاتصال عن الفتيات الشابات اللاتي يتعمدن أن يحملن لكي تتاح لهن فرصة الحصول على مسكنٍ يوفره المجلس المحلي لتفادي الأحكـام القضائية بالوصاية. ورغم أن قدراً كبيراً من فكر اليمين الجديد فيما يتصل بالأسرة في ذاك الوقت كان موضعاً للانتقاد الشديد (انظر فونيكس Phoenix، ١٩٨٨)، إلا أن الأمر قد وصل ببعض من عارضوا هذا الفكر بقوة إلى الإقرار بأن له قيمة ما. من هؤلاء مثلاً: مكروبي McRobbie (١٩٨٩)، الذي سلم في ثنايا تعليقـه علـى الدلالات السلبية لتفسير ظاهرة الأسرة ذات العائل الواحد بوصفها ظاهرة مرضـية – سَلَّمَ بأنه "ليس من الحكمة، مع ذلك، أن ننتهي، وبسبب رغبتنا في نـزع الـصفة المرضية عن أمومة الفتيات الصغيرات، إلى القول بأن هذا الوضع لا ينطوي على أي مشكلات.

وفي وقت أحدث تم تطبيق اتجاه اليمين الجديد على قضية الأطفـال داخـل الأسرة فنجد "واج"Wagg (١٩٩٢) يُقدِّم تحليلاً للعلاقة بين الطفولة والسياسة فـي بريطانيا الحديثة يوضح فيه كيف تمَّ اسـتغلال صـورة "الطفـل" لخدمـة بعـض

الأغراض السياسية. وهو يطرح قضيةً مفادها أن اليمين الجديد صوّر الأطفال في صورة كانت هشة وضعيفة، لكي يكشف حقيقة حشدٍ كامل من الجماعات ويُعرضهم للمحاسبة الدقيقة والمساءلة.

في المنظور الفكري لكثير من ناشطي اليمين الجديد، تَعرضت الأسرة للخطر على أيدي مجموعة من "الأعداد من الداخل"- كمصوري الصور الإباحية، ومروجي المخدرات، والمدرسين اليساريين والأطباء الذي يصفون للفتيات الصغيرات تناول أقراص منع الحمل. هؤلاء الأعداء من الداخل هم الذين دمروا "الحياة العائلية"تدميراً مباشراً، ودمروا السلطة التقليدية للوالدين على الأطفال (نفس المرجع السابق).

لم تغب أمومة المراهقات عن بال اتجاه اليمين الجديد. إذ يرى هذا الاتجاه أن الأعداد المتزايدة للنساء الصغيرات في المملكة المتحدة ممن لديهن أطفال أنجبنهم خارج نطاق الزواج؛ إنما يمثل أحد المؤشرات الرئيسية لثقافة الاعتماد على الغير ولانهيار القيم الأسرية. وقد سعى سياسيون ومفكرون من اليمين الجديد إلى سحب ما يُقدّم لأمثال تلك المجموعات من المعونات والدعم التي توفرها برامج الرعاية.

ويذهب نُقاد فكر اليمين الجديد إلى أن مثل هذه العبارات المذكورة سابقا- وبعيداً عن كونها تمثل محاولة لحماية النسيج الخُلُقي للمجتمع -إنما هي شواهد على الرغبة في التضحية ببعض الجماعات "المتطرفة"التي يمكن أن تُشكل خطراً يُهدد النظام الاجتماعي السائد.وثمة نزعة مشابهة يمكن "أن نتبينها في تحليل اليمين الجديد للجريمة (فان دن هاج Van den Haag، ١٩٧٥، وويلسون Wilson، ١٩٧٧، وفريدمان Friedman، ١٩٨٠)، وهي النزعة التي أُدينت بسبب صرامتها في تحميل المسئولية عن الإجرام للجماعات المستضعفة، أو المحرمة أو العاجزة في المجتمع أو للجماعات التي تتحدى الوضع القائم.

تقييم اليمين الجديد

نقاط القوة

١- من المؤكد أن هذا الاتجاه يحدد -على وجه الدقة- الأسباب المباشرة للمشكلات الاجتماعية ويحاول أن يقترح لها الحلول. وهو بهذا المعنى يُمثل نظرية عملية إلى حدٍ بعيدٍ جداً.

٢- من شأن الأخذ باتجاه اليمين الجديد في حل المشكلات الاجتماعية أن يؤدي - من الناحية النظرية على الأقل- إلى خفضٍ هائل للإنفاق العام. ومن شأن ذلك أن يكون أمراً محبباً، للمسئولين عن إدارة ميزانيات برامج الرعاية وتطوير الحلول ذات التكلفة المعتدلة لمشكلات المجتمع.

أوجه القصور

١- يقدم اتجاه اليمين الجديد صوراً نمطية للفقراء ويختلق كباشَ فداءٍ لكي يحملها المسئولية عن مشكلاتِ المجتمع. ويبدو أنه يُحمّل الفقراء مسئولية فقرهم، وذلك على الرغم من دعاواه التي يزعم فيها عكس هذا -أعني دعواه بأن توفير الرعاية الشاملة من شأنه أن يخلق سكانا معتادين الاعتماد على الغير.

٢- يذهب النقاد إلى أن فلسفة اليمين الجديد، وبعيداً عن كونها اتجاها براجماتيا تدفعُه الرغبة في الإصلاح الاجتماعي، هي - في الواقع - حيلة إيديولوجية لنقل المسئولية عن الفقر وغيرِه من المشكلات الاجتماعية من الحكومة إلى الناس.

ما بعد الحداثة

شَعَر الباحثون بالتأثير ما بعد الحداثي في علم الاجتماع مُنذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين. وكان قد تَمَّ عرض معظم الأساس الفكري لما بعد الحداثة في ثنايا المناقشات النابعة من فلسفة ما بعد البنيوية (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب). وتُمثل ما بعد الحداثة رَدَّ فعلٍ نقديا لكثير من المُسَلَّمات الأساسية التي قام عليها علم الاجتماع التقليدي. والواقع أن أفكار ما بعد الحداثة أفكار صريحة تماماً، إلا أن اللغة والخطاب اللذين يستعملهما مفكرو ما بعد الحداثة جعل من الصعوبة على الآخرين أن يفهموا أفكارهم. ولا تقدم ما بعد الحداثة نظرية متماسكة للحياة الاجتماعية، ولكنها تقدم مجموعة من التفسيرات للحياة المعاصرة في الجزء الأخير من القرن العشرين وفي القرن الواحد والعشرين. ومن الأمور المحورية في هذا الاتجاه تلك المُسَلَّمة الأساسية بأن العالم الموجود في وقتنا هذا (أي العالم ما بَعْدَ الحداثي) يختلف عن العالم الذي سبقه (العالم الحديث). وسوف نمعن النظر في الآراء التي تدور حول هذه المُسلَّمة في الفصل الخامس من هذا الكتاب، بَيْدَ أننا نُركز هنا على الموقف النظري الذي تبناه المفكرون ما بعد الحداثيين.

يتخذ المفكرون ما بعد الحداثيين من أفكار عُلماء الاجتماع التقليديين مُنطلقاً لتحليل المجتمع. وبينما يعترف مفكرو ما بعد الحداثة صراحةً بأن نظريات علم الاجتماع الكلاسيكية تختلف عن بعضها البعض (والواقع أن هذه سمةٌ مهمة في تحليلهم)، إلا أن هذه النظريات جميعا تتفق على قبول ثلاث مسلمات أساسية. وإن هذه المسلمات هي التي تُميز النظريات التقليدية باعتبارها مُنتجاتٍ للعصر الحديث. فالمفكرون ما بعد الحداثيين يرون أن لفظ "حديث" لفظ مُحدَّد جداً. فهو يشير إلى الفترة الممتدة من حركة التنوير (وهي الحركة التي ظهرت في القرن الثامن عشر)

وحتى أواخر القرن العشرين. فلفظ "حديث" يُستعمل بالارتباط مع "الحداثة"، والذي يشير في نظر المفكرين ما بعد الحداثيين إلى أساليب معينة في التفكير في العالم ترجع أصولها إلى حركة التنوير، وفي مقدمتها الإيمان بالتفكير العقلي وتطبيق المعرفة العلمية في فهم وتفسير العالم الاجتماعي (براون Brown، ١٩٩٦). ويؤمن المفكرون ما بعد الحداثيين بأن النظرية السوسيولوجية التقليدية مُنتج من منتجات العصر الحديث، كما أن هذه الرُؤية هي التي تُشكل الأساس الذي يقوم عليه نقدهم للنظرية السوسيولوجية التقليدية.

وكما أشرنا سابقاً، يرى مفكرو ما بعد الحداثة أن علم الاجتماع الحديث يرتكز على ثلاثة معتقداتٍ أساسية، وهذه المعتقدات هي:-

(١) أن من الممكن والمرغوب فيه توليد المعرفة الموضوعية (أي غير المتأثرة بالقيم أو المحايدة)، والتي يمكن البرهنة على صدقها عن طريق الدليل الإمبيريقي.

(٢) أن هذه المعرفة، والمُكتَسَبة من خلال التطبيق المنهجي للإجراءات الصارمة، يمكن الانتفاع بها في فَهْم وتخفيف حدَّة المشكلات الاجتماعية.

(٣) أن هذه المعرفة يمكن تعميمُها حتى تُقدم رؤية للمجتمعات بأكملها وللأبنية والعمليات الموجودة داخل هذه المجتمعات.

من النظرة الأولى، يبدو التفسير ما بَعْدَ الحداثي للحداثة مُضلِّلاً. انظر أولا إلى القضية الأولى من هذه القضايا الثلاث. فليس كل نظريات علم الاجتماع ترى أن إنتاج المعرفة الموضوعية، والقابلة للبرهنة عليها، والصادقة أمرٌ ممكن أو مرغوبٌ فيه. فعناصر علم الاجتماع عند ماكس فيبر وعلم الاجتماع التأويلي بأسْرِه يرفضان كلاهما الإصرار على أن علم الاجتماع ينبغي أن يهتم بتوليد المعرفة

الموضوعية من خلال البحث الإمبيريقي. **ثانيا:** ليس كل علماء الاجتماع ممن يدعون إلى استعمال الإجراءات المنهجية والصارمة لجمع البيانات (انظر المناقشة التي تدور حول الحركة المضادة للوضعية في الفصل الثالث من هذا الكتاب). ولا هم مُتفقون على أن الهدف الأساسي لعلم الاجتماع ينبغي أن يتمثل في تطوير رؤى يمكن استعمالها في معالجة المشكلات الاجتماعية وفي تحقيق التغيير الاجتماعي (انظر ما ورد في الفصل الثالث من هذا الكتاب في القسم الذي يتناول "تحليل ما هو موجود هنا والآن"). **والقضية الثالثة** مثار خلاف أكثر. فليس كل علماء الاجتماع ممن يدعون إلى تفسيرٍ بنيوي للحياة الاجتماعية، لكن يبدو أنهم جميعاً يطرحون مُسَلَّمةً ضمنية مُؤداها أن تفسيرهم للحياة الاجتماعية هو التفسير الأكثر قابلية للتطبيق وأنه يُقدم الإسهام الأكبر في فهم طبيعة العالم الاجتماعي.

وبتنحية ما سبق ذكره من اعتراضات على التفسير ما بعد الحداثي لعلم الاجتماع التقليدي؛ بتنحية هذه الاعتراضات جانباً لِلحظة، سوف نفاجأ عندما نكتشف كيف أنها تطرح تحدياً مباشراً لعلم الاجتماع الحديث. ويلخص براون (١٩٩٦، ص٢٣) الموقف الفكري المابعد الحداثي في ثلاثة أضدادٍ محورية للمُسلَّمات الحداثية هي:

١- النسبية :لا يوجد شيء يُعتبر معرفة صادقة (أو غير صادقة).

٢- موت الموضوع:المعرفة كقيد وليس تحريراً.

٣- النظريات الكبرى غير مقبولة.

وهذا الموجز يُقدم الإطار الخاص بالنظرية الاجتماعية الما بعد الحديثة. بالبحث في **النقطة الأولى**، يرفض مفكرو ما بعد الحداثة محاولات علماء الاجتماع التقليديين تطوير مجموعة من المعارف الموضوعية التي يمكن الانتفاع بها في فهم

الحياة الاجتماعية. وهم يزعمون، بدلاً من ذلك، أنه لا توجد حقيقة موضوعية خلف المعنى الاجتماعي، ومن ثمَّ فإن المعرفة بأسرها ذات صلة بالسياق والأبنية. وتُعتبر جميع المحاولات التي بذلها علماء الاجتماع التقليديون في جمع البيانات الإمبيريقية لتطوير القاعدة المعرفية لهذا العلم؛ تُعتبر محاولاتٍ غير موفَّقة وعديمة الجدوى. فهم لا يمكن أن يتوصلوا إلا إلى فهم صورة واحدة للأحداث، وذلك في حين أن هذه "الحقيقة" الواحدة الموجودة تتكون من عدة صورٍ ورؤى مُتنافسة بجانب احتوائها على تفسير الأحداث والظواهر الاجتماعية. ويُوجه مُفكرو ما بعد الحداثة انتقاداتهم إلى الوضعية بصفةٍ خاصَّة، وهي اتجاه فكريٌّ حديث يدعو إلى الدراسة المنهجية للعالم الاجتماعي باستعمال الوسائل العلمية. ويُستعمل مفهوم "التفكيك"عند مُفكري ما بعد الحداثة (أي:النقد الداخلي) لإضفاء الصحة على دعواهم بأن المعرفة بأجمعها نسبية (انظر براون، ١٩٩٦، حيث المزيد من التفاصيل).

ثانياً: فيما يتصل "بموت الموضوع" يُشير مفكرو ما بعد الحداثة إلى أن الحداثة تضفي قدراً كبيرا من الصدق على جمع المعرفة المحايدة غير المنحازة، وعلى تطبيق هذه المعرفة في مجال تخفيف حدة المشكلات الاجتماعية. وهم بإشارتهم هذه، يطرحون مُسلَّمةً مُفادها أن المعرفة التي يبنون عليها تدخلهم الاجتماعي معرفة صائبة. ومع ذلك، وبعد إدخالنا في الاعتبار أن ما بعد الحداثة تعترض على الطبيعة المُطلقة للمعرفة، فإن أيّ تغيير اجتماعي أو أيّ حل للمُشكلات تتمُّ الدعوة إليه إنما ينبُعُ من تفسيرٍ واحدٍ من التفسيرات الكثيرة –الممكنة– للمشكلة، وهي التفسيرات التي قد يكون عددها لا نهائيا (أو من السرديات التي تدور حول هذه المشكلة). ويستعمل مُفكرو ما بعد الحداثة مفهوم "موت الموضوع" للإشارة إلى عجز بعض الباحثين المتخصصين عن

الوصول إلى فهم صارم أو مُلزم للحياة الاجتماعية وعن تحديد موقع الإصلاح الاجتماعي داخل سياق موضوعي أو واقعي.

ثالثاً: يذهب مفكرو ما بعد الحداثة إلى أنه لا يصح لعلم الاجتماع أن يفترض أن المعرفة التي يصل إليها يمكن التوسع فيها بتطبيقها على سائر المجتمعات وعلى مختلف الأبنية والعمليات التي تتألف منها هذه المجتمعات (المرجع السابق نفسه). ويتّسق هذا الرأي منطقياً مع تأكيدهم السابق على أنه لا وجود للمعرفة الموضوعية. فإذا كانت المعرفة لا تعكس إلا سردية واحدة من عدد من السرديات الممكنة، فمن الواضح حينئذ لماذا يكون تعميم هذه المعرفة وتطبيقها على نطاق أوسع عملاً لا معنىً له. لذلك يُدين مفكرو ما بعد الحداثة النظريات الكبرى بوصفها نظريات غير مقبولة. وهم يَعنون بذلك أن التفسيرات الكلية أو الشاملة التي يَدَّعي علماء الاجتماع التقليديون أنهم يوفرونها لنا ليست صادقة و لا يُعْتَدُّ بها، وذلك لأنها غير ممكنة أساساً. وعادة ما يتم ربط عبارة "وفاة السردية" بهذا الخط في التفكير. والإشارة هنا مُوَجهة إلى ما أصاب التفسيرات الشاملة الواسعة النطاق (أو قل القوانين الاجتماعية) من الهبوط من الجنة (بمعنى تَدَنّي المنزلة) وهي التفسيرات التي يدافع عنها علماء الاجتماع المُحْدَثون. ويرى مفكرو ما بعد الحداثة أن أمثال تلك "السرديات الكبرى" لم يعد هنا حاجة إليها في العالم ما بعد الحديث لأن التفكير ما بعد الحداثي كشف أوجُه قصورها.وسوف تتم الاستزادة من استكشاف تفاصيل هذه القضية في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

ومن واقع هذه الانتقادات المُوجَّهة للحداثة يمكننا تحديد الخصائص المميزة لما بعد الحداثة. أوّلْ ذلك، أنه في حين أنَّ علماء الاجتماع التقليديين يسعون لتجاوز نطاق نسبية المواقف والظروف الاجتماعية، ولتأسيس موقف عقليٍّ ما يمكن من خلاله بيانْ "الحقيقة" وتشخيصها، يؤمن مفكرو ما بعد الحداثة بالتنوع والتشظي.

وتتمثل دعواهم في أنه لا توجد "حقيقة موضوعية" وراء المعاني الاجتماعية.فالأوصاف التقريرية والتعريفات ليس لها مرجع موضوعي أو خارجي. إذ هي عناصر في نَسقٍ سَائبٍ غير مُحكم من الصور التي يتمُّ إنتاجها وإعادة إنتاجها من خلال وسائل الاتصال الجماهيري. فمن خلال الإعلانات والمسلسلات التليفزيونية، وغيرها من أشكال الثقافة الجماهيرية، يؤُولُ أمرُ هذه الصور في الواقع إلى أن تقوم بتحديد معالم "الحقيقة" للمُشاهدين. فالناس يعيشون في عالمٍ اصطناعي تَخلُقه وتحدُد معالمه العمليات الثقافية لوسائل الاتصال الجماهيري.

وكما بَيَّنا سابقاً، فإن مفكري ما بعد الحداثة يتنبَّهون إلى أن الحقيقة في وقتنا هذا يَغلُبُ عليها أنها من صنع وتشكيل وسائل الاتصال وأجهزة الثقافة الجماهيرية. ونلمس تفسيراً لذلك في التحليل ما بعد الحداثي للثقافة الشعبية، والذي يؤكد على أن أهمية الأسلوب والصورة تفوق وظيفة المُنتَج ومَنفعتَه. وسنحاول استكشاف هذه القضية في التمرين ٤-٥ في موضع لاحق من هذا الفصل.

من المبادئ الأخرى لما بعد الحداثة:رفض البحث والتنظير اللذين يركزان على موضوع مُحدد "التركيز على الموضوع". وبدلا من ذلك يدعو مفكرو ما بعد الحداثة إلى الانتقائية النظرية، والتي بمقتضاها تُستَعَار الأفكار من طائفة من التوجهات النظرية لتوفير أساس الخطاب والجدل النظري. والأمر الذي ألهَمَهُمْ ذلك الرأي: هو رفضهم للسرديات الكبرى. وكما يشرح ذلك ليوتار Lyotard قائلاً:"بتبسيط الأمر إلى أقصى حد، فإني أُعَرِفُ ما بعد الحَداثيِّ بأنه عَدَمُ تصديق السرديات الكبرى...هيا بنا نَشُنُ الحرب على الاتجاهات "الشمولية" والنظرات الكلية.. هيا بنا نُفعِّل الاختلافات (ليوتار، ١٩٨٤، صفحة ٢٤ من المقدمة، وصفحة ٨٢).وبناءً على ذلك، فإن ما بعد الحداثة تستوعبُ طائفةً من التوجهات النظرية المختلفة:"ليست المعرفة ما بعد الحديثة أداةً للسلطات أبداً، إنها تجعل حساسيتَنا للاختلافات أكثر دقة ورهافة وتُعزز قدرتنا على تقبُّل "اللاقياسي".(المرجع السابق ص٢٥ من المقدمة).

ومن الأمور المحورية في نظرية ما بعد الحداثة رغبتها في هدم أو تفكيك الحدود الفاصلة بين التخصصات العلمية وفروع هذه التخصصات، وخلق منظور فكري متعدد التخصصات ومتعدد الأبعاد يقوم بتوليف أو تركيب الأفكار المستخلصة من طائفة متنوعة من الحقول والمنظورات الفكرية الموجودة داخلَ تخصصٍ علمي ما (ريتزر Ritzer، ٢٠٠٨). وبالمثل، فإنه في مجال دراسة الحياة الاجتماعية يدعو مفكرو ما بعد الحداثة إلى إزالة الحدود التي تقسم المجتمع إلى قطاعات.

ويُصرُ مفكرو ما بعد الحداثة على أنه يتعين على علم الاجتماع أن يتجاوز نطاق المرحلة الحديثة ويَدخل المرحلة ما بعد الحديثة. ويتفق كلٌ من ليوتار (١٩٨٤) وبودريار Baudrillard (١٩٨٣) على أنه – كرد فعل لوفاة السرديات الكبرى – توجد حاجة لبلورة "سرديات صغيرة محدودة". وأعنى بذلك :تصورات ذات مستوىً منخفض ولكنها تنطوي على فهم تفصيلي للحقائق المتعارضة أو للسياقات الاجتماعية المتعارضة. وببلورة أمثال تلك السرديات، تصبح جميع الظواهر الاجتماعية على قدم المساواة من حيث صلاحيتها كموضوعاتٍ للدراسة يُعتَدُّ بها، ولا تبقى أي ظاهرةٍ منها خارج نطاق النظر والتقييم النقدي. ويقتضي ذلك وجود نظريات فكرية سابقة الوجود، لا تُفسر إلا بوصفها نصوصاً فحسب، وكما هو الحال مع التفسيرات البلاغية المنمقة التي يقدمها المفكرون أصحاب النظريات (براون، ١٩٩٠). ومن شأن هذا الموقف أن يطلق أيدي مفكري ما بعد الحداثة في هدم حجية النظريات وفي مهاجمة ما تحظى به من منزلة ممتازة. ولهذه الموقف بعض الدلالات المهمة:فهو "يؤدي إلى رؤية للعلم بصفة عامة، ولعلم الاجتماع بصفة خاصة، باعتباره"حواراً بين العلماء/أو المتحدثين (براون ١٩٩٠). وفي مثل هذا الحوار المتحرر من الغموض والخفاء، يكون المفكرون أحراراً في اقتباس الأفكار من بعضهم بعضاً في محاولاتهم لخلق تشكيلة متنوعة جديدة من النظريات التركيبية (ريتزر، ٢٠٠٨).

إن جزءاً مهمًا من دراسة الحياة الاجتماعية أن تُدْرَس طبيعة النظرية السوسيولوجية نفسها. لذلك، فإن المفكرين ما بعد الحداثيين لا يكتفون بالسعي لتحليل المجتمع فحسب، بل يسعون كذلك إلى دراسة النظرية السوسيولوجية نفسها دراسة منهجية.وهذا الأمر هو الذي يفسر انشغالهم الشديد بأوجُهِ قصور النظريات السوسيولوجية التقليدية، كما يفسر ما يلحظه ريتزر (١٩٩٢) من اهتمامهم "ببلورة حلقات ربط بين كل من الماركسية، والنظرية النقدية، والنظرية النسوية، والنظرية الاجتماعية ما بعد الحديثة، وغير ذلك من مختلف تيارات النظرية الاجتماعية النقدية، وذلك من أجل حل المشكلات النظرية والسياسية التي تواجهنا اليوم".

تأثير ما بعد الحداثة

بعد هذا العرض الموجز لبعض الأفكار الأساسية لما بعد الحداثة، فإن من المهم الآن استكشاف الأثر الذي أحدثته ما بعد الحداثة في النظرية الاجتماعية وفي البحث الاجتماعي.

شهدت السنوات الأخيرة من ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته عدداً هائلاً من محاولات تطبيق أفكار ما بعد الحداثة على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية. وقد وُجِّهَ مُعظم تلك الجهود لبلورة فهم للثقافة الجماهيرية (انظر ستريناتي Strinati، ١٩٩٢، وسوجرو Sugrue وتايلور Taylor، ١٩٩٦)، وذلك على الرغم من وجود محاولات شهيرة كذلك لتطبيق أفكار ما بعد الحداثة في التحليلات الخاصة بمجال الصحة (سنيور Senior، ١٩٩٦)، وفي مكان العمل (وارد Warde، ١٩٨٩)، وفي العلاقات (جيدنز Giddens، ١٩٩٠)، والتنظيمات (كليج Clegg، ١٩٩٢) والتكنولوجيا الجديدة (تاترسول Tattersall، ١٩٩٧). بالإضافة إلى ذلك، يلاحظ براون (١٩٩٦) التأثير الذي أحدثته ما بعد الحداثة في دراسة علم الاقتصاد، وقطاع الأعمال، والتعليم، والدولة.

ولم يقتصر القدر الأكبر من تلك البحوث على مجرد السعي لفحص قابلية مُسلّمات ما بَعْد الحداثة للتطبيق، بل سعت كذلك لاستكشاف دعوى ما بعد الحداثة أنّ المجتمع ما بَعْدَ الحداثي قد ظهر للوجود فعلا، وأنه متميز عن المجتمع الحديث السابق عليه. وتَسْعَى هذه المحاولات للربط بين تحليل ما لهذا الموضوع قيد الدراسة من السمات الحديثة وما بعد الحديثة وبين إيضاح جدوى مفاهيم ما بعد الحداثة، كمفهوم السرديات الكبرى، ومفهوم الخطاب، ومفهوم التشظي، وما إلى ذلك (انظر سنيور، ١٩٩٦). كما أن بوسع مفكري ما بعد الحداثة بدورهم استخدام بحوث علم الاجتماع، كهذا البحث مثلاً، لتقدير مدى صدق أفكارهم، أو معتقداتهم تلك (إن جاز التعبير).

الموضوع (B)
ما بعد الحداثة والثقافة الجماهيرية في أحد مجتمعات ما بعد الحداثة يُبرز سترِيناتي (١٩٩٢) خمسة ملامح أساسية لما بعد الحداثة لها دلالاتها الضمنية بالنسبة لتأثير الثقافة الجماهيرية على الأفراد وعلى الحياة الاجتماعية، هي: ١- **انهيار التمييز بين الثقافة والمجتمع:** ظهرت الثقافة الجماهيرية كعامل مؤثر له شأنه في الثقافات ما بَعْدَ الحديثة، وذلك لأنها تتغلغل في الوعي، مُؤثرة بذلك على أنماط الاستهلاك. إذ أن صور الثقافة الجماهيرية تخترق وسائل الاتصال وتسهم في دعم وتأكيد رؤيتنا السائدة للمجتمع الذي نعيش فيه. ٢- **الاهتمام بالأسلوب على حساب المضمون:** لقد أصبحنا مهووسين بالصور التي يعرضها علينا المصممون، حتى إننا أصبحنا لا نشتري المنتجات لمنفعتها أو لقيمتها في ذاتها، ولكن لأننا نستجيب للافتة (التي عليها

اسم المنتج) المُلْصقَة عليها. فالصورة أهم من المادة ونحن مُهَيَّئُون لدفع مبالغ كبيرة للحفاظ على الصورة.

٣- **تحطيم الفارق بين الثقافة الراقية (الفن) والثقافة الجماهيرية:** ويتجلى ذلك بأوضح صوره في عالم الإعلانات، حيث تُسَوّق المنتجات من خلال نوعٍ من مَزْج الثقافة الجماهيرية والثقافة الراقية.ويتمُّ القضاء على الفوارق التقليدية بين ثقافة النخبة "الراقية" والثقافة الجماهيرية "الشعبية".

٤- **التشوش فيما يتصل بالزمان والمكان:**ساعد تطور أنظمة الاتصالات ووسائل المواصلات فائقة السرعة على تقليص العالَم، من حيث الزمان والمكان كليهما.إذ بات بوسعنا الحصول على المعلومات المتعلقة بأحداث العالم الحقيقية التي تقع في أماكن نائية، وعلى نحوٍ أشدَّ سرعةً مما كان يحدث في الماضي.كما أصبح بإمكاننا السفر إلى أماكن بعيدة بصورة سريعة نسبياً، وكثيرا ما نسافر إلى بيئات تُعتَبر – مع ذلك – شبيهةً ببعضها البعض بدرجة ملحوظة.

٥- **انهيار السرديات الكبرى:** لم نعد متأكدين من أي معرفة في هذا العالم، والذي أصبح يمثل مكانا للمخاطر والفُرصِ المجهولة، إلا أنه لا يمكن تفسيره أو فهمه بأى معنى له مغزاه.فلا وجود "للحقيقة" التي يمكن للفن والثقافة أن يُمثلاها، ومن ثَمَّ لا يمكن للثقافة أن تكون "مُمثلة" لحقيقة أساسية ما. ونتيجة لذلك، تتحول الثقافة والفن إلى أفكارٍ تُقتَبس من مَصادر مختلفة، ولا يُقدّمان أنفسهما كفن "حقيقي" أصيل، ولكنْ "ككولاج Collage (أي لوحة أو عمل فني قائم على تجميع مقصوصاتٍ مُختلفة ثُم لصقها على أرضية اللوحة أو العمل الفني).

	تمرين ٤-٥
تفسير تطبيق تحليل تقييم	سيُمكّنك هذا التمرين من استكشاف كيف تستطيع أفكار ما بعد الحداثة أن تساعدنا في بلورة فهمٍ ما للثقافة الجماهيرية.اقرأ الموضوع (B) وقم بالعمل التالي: تُعدُّ الظواهر التالية جُزءاً مألوفاً من الحياة الحديثة. تأمّل هذه القائمة بدقة ثم حاول تحديد أيِّ سمات ما بعد الحداثة التي أوْجَزناها في الموضوع (B) (أرقام ١-٥) التي يمكن أن تنطبق بأفضل الوجوه على هذه الظواهر: • الجماهيرية التي تحظى بها برامج الواقع التليفزيونية مثل برنامج "الأخ الكبير" وبرنامج "العامل المجهول" The X Factor وبرنامج "بريطانيا الموهوبة" وهي البرامج التي يُصبح الجمهور فيها جزءاً من "العَرْض". • مشاركة المشاهير في برامج الغناء، والرقص، و"المعيشة في الغابات والأماكن الخطرة أو البعيدة والغريبة"، والتي يقوم فيها الجمهور بالحكم على أدائهم. • سلاسل الفنادق العالمية التي لها نفس الزخارف ونفس الأسلوب في كل مكان يتصادف أن يوجد فيه واحد من هذه الفنادق. • استغلال الموسيقى الكلاسيكية للترويج لمباريات كرة القدم، والتي منها مثلاً مباريات كأس العالم. • برامج "البوب" أو البرامج الشعبية، والتي تقفز من موضوع إلى موضوع قفزات سريعة ومفاجئة مع ظهور الصور المتحركة المندفعة للأمام والخلف واضحة على شاشة التليفزيون.

- اقتباس أواسيز/ فرانز فرديناند Oasis/Franz Ferdinand لبعض أفكار فرقة "البيتلز" (فرقة الخنافس) وغيرها من الفرق الموسيقية في ستينيات القرن العشرين، أو للأجناس الموسيقية المتعددة الطبقات التي يستعملها فنانو "الراب" و "الهيب هوب".
- أرقام المبيعات الضخمة للمياه المُعبَأة في زجاجات والتي تحمل علامات تجارية معينة، مثل ماركة بريبه، وإيفيان.
- التقارير الإخبارية الحيَّة (المباشرة) المبثوثة من مناطق الحروب، كأفغانستان، والخليج، وكوسوفو، والعراق.
- سيادة "شبكة أخبار الكابل" Cable News Network، و"تليفزيون سكاي" الواضحة في شتى وسائل الاتصال العالمية.

لم يقتصر تأثير ما بعد الحداثة على ميدان البحوث في علم الاجتماع، إذ يمكن أن نلمس تأثيرها في النظرية الاجتماعية أيضا. ذلك أن بإمكاننا الآن أن نميز أمثلةً للنظريات التقليدية التي سعت للاستجابة للتحديات التي طرحها مفكرو ما بعد الحداثة، بحيث يصبح بوسع هذه النظريات أن تقدم تحليلاً مناسباً وهادفا للمجتمع في أواخر القرن العشرين. فنجد مثلا "وود"Wood (١٩٨٦) يوضح التأثير الذي أحدثه "لاكلاو" Laclau" و "موف"Mouffe (١٩٨٥) في تطوير نظرية ماركسية ما بعد حديثة. إذ يلاحظ "وود"(١٩٨٦، ص٤٧) كيف أن هذا الاتجاه يَختلف عما كان موجوداً من قبل، فيقول: "يوافق هذا العمل على تركيز فلسفة ما بعد الحداثة على مجال اللغويات، ودراسة النصوص، والخطاب. ومن ثم يقر انتزاع علم الاجتماع من قاعدته المادية بحيث يؤول به الأمر إلى أن يَفكك المجتمع كلية إلى أن يصير إيديولوجيا أو "خطابا".

وبصورة مشابهة، تقوم ولبي Walby (١٩٩٤) بتطبيق رؤية ما بعد الحداثة على تحليلها للنوع الاجتماعي، مُلقيةً الضوء على أوجه القصور في النظريات الكلية أو الشمولية في النظر إلى نظام السلطة الأبوية والتعصب العرقي، والرأسمالية، وهي تنتقد ما بعد الحداثة لكونها قليلة المنفعة لمن يَسْعون لفهم علاقات النوع الاجتماعي في أواخر القرن العشرين، فتقول: "لقد بَلَغَ التشظي مدىً بعيداً، مؤديًا بذلك إلى نوعٍ من إنكار أهمية أبنية القوة، ومؤديةً للاتجاه نحو نزعةٍ إمبيريقية محضة (المرجع نفسه، ص ٢٢٥). وسوف نُولي موضوع تأثير ما بعد الحداثة في فِكر الحركة النسوية مزيداً من الاهتمام عندما نتناول النظرية المعاصرة التالية فيما يلي.

تقييم ما بعد الحداثة

نقاط القوة

١- تُعدُّ ما بَعْدَ الحداثة محاولة أصيلة لاستيعاب طائفةٍ متنوعةٍ من التغيرات التاريخية والثقافية ضمن إطار نظري واحد.

٢- أصبحت ما بعد الحداثة قوةً مُؤثرة تكمُن وراء تحليل بعض المجالات المختلفة للحياة الاجتماعية.

٣- فرضت ما بعد الحداثة نوعاً من إعادة تقدير بعض النظريات القائمة، فاستلهمتها بعض النظريات الكلاسيكية التي قامت بمراجعة بعض مُسلَّماتها الأساسية، واتجهت إلى التجاوب النقدي حتّى تُطور تحليلاً أكثر إقناعا للحياة المعاصرة.

أوجه القصور

١- الحقيقة أن أفكار ما بَعد الحداثة بسيطةٌ في جوهرها، ولكن اللغة التي يستخدمها كتاب ما بعد الحداثة وخطابهم ليس من اليسير فهمهما. إذ ينظر البعض إلى ما بعد الحداثة باعتبارها تحليلاً مُجرداً لا يُقدم إلا النذر اليسير في المساعدة على فَهم المشكلات العملية للحياة اليومية.

٢- بإعلان ما بعد الحداثة عن "موت الموضوع"، فإنها تنتقص من قيمة الإسهامات التي قدَّمها من تعرضوا لمعالجة المشكلات الاجتماعية. يذهب جدينز Giddens (كما وَرد في تاترسول Tattersall، ١٩٩٧) إلى أن رَفْضَ السرديات الكبرى (أي النظريات الشاملة) أمرٌ لا جَدوىً منه، ويَرى أنه ينبغي على المفكرين ما بعد الحداثيين أن يعترفوا بأوجه القصور في جُملة المعرفة الموجودة وأن يَسْعَوا للبناء عليها.

٣- يذهب النقاد إلى أن ما بَعْدَ الحداثة تُعْتَبَر في "تركيزها على الموضوع" إنما تشبه الفلسفات الأخرى التي تُدينُها. إن مفكري ما بعد الحداثة – وهم يُبسِّطون فلسفتهم للعامَّة – لابد وأنهم يُسلِّموا بأن أفكارهم هذه يمكن الانتفاع بها في تعزيز فهم الحياة في القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين. وهذا الوضع يجعلهم عُرْضَةً لنفس النقد الذي يوجهونه للآخرين. وهذا التناقض الموجود في نظرية ما بعد الحداثة يتعذر إخفاؤه إلى حدٍ يدعو للارتباك والحرج.

دفاعاً عن الحداثة

يبدو أن ما بعد الحداثة قد اختزلت الأوصاف والتحليلات التي قدمها علماء الاجتماع إلى سرديات أو حكايات لا تزيد في درجة صدقها عن الحكايات التي

يرويها أي شخص عادي.ويستعمل مفكرو ما بعد الحداثة مصطلح "السرديات" أو مصطلح "الحكايات" لتأكيد نظرتهم التي ترى أن الحقيقة الاجتماعية يتم بناؤها من خلال اللغة أكثر من كونها موجودة في نوعٍ ما من الشكل الموضوعي الذي يمكن اكتشافه أو وصفه من خلال طرق البحث العلمية الاجتماعية. فيوجد من "الحقائق" عددٌ مماثل لعدد الأبنية التي تُصَاغ فيها هذه الحقائق – فالكلُّ "حكايات"، ولا يمكن البرهنة على أن أي حكاية منها أفضل من الأخريات – بما فيها تلك الحكايات التي يرويها علماء الاجتماع! فليس لدينا مرجع خارج نطاق اللغة التي يمكننا استعمالها لإضفاء الشرعية على "معرفتنا السوسيولوجية للمجتمع" أو على الروايات التي يحكيها إخباريونا (أي:الفاعلون الاجتماعيون). كما أن العالم "الحقيقي" الذي نرغب في التعرف عليه و فهمه في النظرية الاجتماعية هو الوسيلة التي بها نبني هذا العالم! وبالمثل، فإن الإبيستمولوجيا يتم عرضُها كمشروع ذاتي التبرير قائم على مبادئ غير مُؤكدة. (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب). وإن أمثال تلك الآراء لا تمثل، في أقلِ تقدير، نموذجاً لعلماء الاجتماع الراغبين في وصف العالم الاجتماعي وتفسيره.

ودفاعاً عن الحداثة وعن علم الاجتماع الحديث تبعاً لذلك، يمكننا القول بأنه لم يكن بوسع ما بعد الحداثة أن تُوجه مثل هذا الانتقاد إلى علم الاجتماع إلا عن طريقٍ واحد فقط هو طَرْحُ خيارين زائفين تماما، هما:

١- إمّا أن نكون قادرين على تقديم معرفة عن المجتمع يمكن اختبارها والتحقق منها موضوعياً (وهو ما تذهب إليه الحداثة) وإمّا أنه يتوجب علينا أن نتقبل النسبية الكاملة (وهو ما تذهب إليه ما بعد الحداثة).

وعلى ذلك، إمّا أن تكون الأوصاف والتحليلات الاجتماعية أحكاماً علمية (أي يمكن البرهنة عليها باستعمال الإبيستمولوجيا) وإما أن تكون نسبية تماماً (أي لا يمكن الحُكم القطعي بتفضيل أي منها). ومع ذلك، ربما يحسن بنا أن نُعمل الفكر في القضيتين التاليتين:

(أ) إن الافتقار إلى البرهان المُطلق بالمعنى الإبيستمولوجي لا يعني أن تقديم الشواهد (الواقعية) من خلال البحث السوسيولوجي ممارسة عديمة القيمة. ذلك أن بعض الأوصاف التي يُوصَفُ بها العالم الاجتماعي تكون أكثر دقة – من الناحية الفعلية – من غيرها. مثال ذلك، أن إشارةً إلى الحرب العالمية الثانية لها مصداقية أكبر من إشارة إلى الحرب الانجليزية – الاسكتلندية سنة ١٩٩٨، وذلك يرجع –تحديداً– إلى أنه لم تحدث أي حربٌ بين انجلترا واسكتلندا في تلك السنة. وبالمثل، فإن الحُكم بأن الانجاز التعليمي للتلميذ مُرتبط – إلى حدٍ ما – ببيئته الاجتماعية – الاقتصادية، وهو الأمر الذي يؤيده الدليل الإحصائي المطابق لهذا المعنى؛ نقول: إن هذا الحكم يستحق أن يؤخذ بمزيد من الجدية عمّا يُؤخذ به حكم آخر تتم صياغته بصورة ساذجة. ومعنى ذلك –بتعبيرٍ آخر– أنه ليس لزاماً علينا أن نُسلم بالنسبية حتى لو كنا نسلم بأنه لا وجود لليقين المطلق. إذْ أن بالإمكان وجود وسيلة بها نستطيع إطلاق أحكامٍ عن الظواهر الاجتماعية تجعلنا نقترب – فعلاً – من التفسيرات العلية أو السببية لما يحدث. فنحن **نعلم** أن جوانب حياتنا الصحية، ورخائنا، وتعليمنا، مثلا، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموقعنا الاجتماعي – الاقتصادي في المجتمع.

(ب) بالإضافة إلى ذلك، تعد ما بعد الحداثة فلسفة "إبيستمولوجية" في حد ذاتها، إذ أنها تزعم الصدق للادعاءات التي ترددها، وهو الأمر الذي تُنكره على الآخرين. فما بعد الحداثة –إذن– تناقض نفسها.

٢- وإما أن نتقبل إمكانية التقدم الاجتماعي الناجم عن التدخل البشري المعتمد على المعرفة السوسيولوجية، وإما يتعين علينا أن نتخلّى عن أي تفكير في تحسين الأحوال الاجتماعية.

ولكن إذا كان باستطاعتنا القول بإمكانية إصدار الحكم الفاصل بين التفسيرات المختلفة، بناء على الأدلة والشواهد التي تقدمها (كما جاء في فقرة (١) سابقا)، فإن هذا يُوحي بوجود حركة ننتقل بها من تفسيرٍ أقل ملاءمة إلى تفسير أكثر ملاءمة، وذلك حتى لو كان مفهوم الدليل "المطلق"مفهوماً إشكاليا (انظر تمرين ٤-٦).

لهذا السبب، لا تكون حصيلة البحث الإمبيريقي في أسباب الانحراف، مثلاً، لا تكون مساوية أبدا للرأي الذي يبديه أيُّ امرئ، قد يتصادف أن تقابله في الشارع، كما أنه بالإمكان -نظراً لذلك- أن يُستفاد بها كأساسٍ لإحداث تغييرات في السياسة الاجتماعية وفي نظام التشريع الجنائي. لذلك، فإن علم الاجتماع الحديث يتيح لنا أن نشارك المجتمع بأسلوب إيجابي وسياسي، وذلك في حين أن نسبية ما بعد الحداثة تبدو وكأنها تقتضي ضمنا النزعة التشككية وعدم المشاركة السياسية.

	تمرين ٤-٦
تحليل تقييم تفسير	ماتت الأميرة ديانا على نحوٍ مأساوي في حادثة تَحطُّم عَربتها في باريس يوم ٣١ أغسطس ١٩٩٧. ومنذ ذلك الوقت شاع التخمين في سبب هذه الحادثة. إذْ يذهب البعض إلى أن موتها هو في الحقيقة جريمة قتل. وأشار البعض بإصبع الاتهام إلى العائلة الملكية البريطانية نفسها كمسئولة. وهاجم آخرون الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى لإفراطها في تغطية كل تحركاتها. وقد وجد التحقيق القضائي الذي استغرق ١٨ شهراً وانتهى في فرنسا في سنة ١٩٩٩، أعقبته تحريات طويلة للشرطة في بريطانيا انتهت في سنة ٢٠٠٦، ثم تلتها تحقيقات طويلة انتهت في سنة ٢٠٠٨؛ وجدت هذه التحقيقات والتحريات جميعا أنه لا يتوافر دليل على دعاوى المؤامرة. وانتهى تحقيق هيئة المحلفين إلى أن الأميرة ديانا

"قُتلت على نحو غير مشروع بسبب الإهمال الجسيم في قيادة عربتها على يد سائقها هنرى بول، بجانب ملاحقات المصورين الباباراتزي (المصورين المتخصصين في ملاحقة المشاهير لالتقاط صُور خاطفة لهم –المترجم). ومع ذلك، فَقَدْ اتضح فقدان عَينات من فحوص الدم وغيرها من الأدلة الطبية الشرعية، وأدى ذلك إلى المزيد من التخمينات حول أحداث يوم ٣١ أغسطس ١٩٩٧.

استعمل الإنترنت لقراءة بعض التقارير عن هذه التحقيقات والتحريات، وحاول أن تجيب على السؤال التالي:

هل من الممكن معرفة حقيقة ما حدث في وفاة الأميرة ديانا؟ (لاحظ أن هذا السؤال لا يطالبك بأن تثبت هذه الحقيقة – إنه يسألك عمَّا إذا كان من الممكن إثبات هذه الحقيقة أم لا).

ما بعد النسوية

يُشير مصطلح ما بعد النسوية إلى حالة الحركة النسوية في أواخر تسعينيات القرن العشرين وأوائل سنوات القرن الواحد والعشرين. تختلف بعض القضايا وبعض مجالات الاهتمام المثارة اليوم عن تلك التي سادت التفكير في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. ويذهب البعض إلى أن هذا الاختلاف يشكل مَعلماً للحقبة ما بَعْدَ النسوية، والتي تتسم "بالاعتقاد بأن المعارك القديمة قد كسبتها النساء: إذ أنهن قد حققنَ المساواة في المجالات الاقتصادية، والسياسية، والقانونية، مما يترتب عليه أن يجعل النظرية النسوية نظرية مهجورة من الناحية العملية". (كلارك Clarke، ١٩٩٦). ومع ذلك، فإن هذه النظرة المتفائلة إلى التغيرات التي طرأت على وضع النساء في المجتمع لا يشيع الأخذ بها دائماً، وذلك من واقع الشواهد

المتصلة بقضايا ومجالات: العمل، والأجر العادل/أي المماثل لأجر الرجل، والعمل المنزلي، ومسئوليات رعاية الأطفال، والعُنف الأُسَرِي، وجرائم الاغتصاب.

إن الأيام التي كان يفترض فيها أن يكون للحركة النسوية جدول أعمالٍ كبير والذي عالج كثيراً من هذه القضايا وغيرها التي تتراوح بين قضية الفرص المتكافئة في مكان العمل وتوفير المرافق الجيدة لرعاية الأطفال والحملات المناهضة للدعارة وللعنف الجنسي/ والتحرش الجنسي؛ نقول: يبدو أن هذه الأيام قد أصبحت فعلاً جزءا من الماضي، وذلك بعد ظهوَر بدعة "قوة البنات" Girl Power وغيرها من مخترعات وسائل الاتصال (المرجع نفسه). ورغم ذلك فإنه لا تزال توجد في وقتنا هذا مجموعةً متنوعة من الحركات النسوية (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب للاطلاع على مناقشة لهذا الموضوع)، حيث يُوْجَدْ بينها الهدف المشترك لتحسين الوضع السيئ للنساء في المجتمع. ويَنْظُرْ البعض إلى "النساء" وفقاً لرؤية موحدة أو متجانسة – أعني بذلك أنهن يعانين جميعا خبرة الاستغلال المشتركة، وهو الوضع الذي يقوم بتحديد موقعهن في المجتمع. ومن السمات المهمة للتحليل النسوي مفهوم "نظام سلطة الأب"، وهو مصطلح يُستخدم للإشارة إلى إيديولوجيا سيطرة الذكور التي سادت جميع المؤسسات كما سادت الحياة الاجتماعية.

واجهت الحركة النسوية في الأوقات الأحدث ثلاثة تحديات كُبْرَى ساعدت على تغذية النقاش الدائر حول ما إذا كان لهذه الحركة ثمة أهمية في القرن الواحد والعشرين أمْ لا. والتحدي الأول هو الشواهد التي يوفرها البحث العلمي، والتي تؤكد وجود تَحسُّنٍ ملحوظ في بعض جوانب الوضع الاقتصادي والاجتماعي للنساء (انظر ويلكنسون، ١٩٩٤؛ EOC، ٢٠٠٥؛ وانظر فيما بعد). والتحدي الثاني هو ما يسميه كلارك (١٩٩٦) "الردة المضادة للنسوية"، ويقصد بها إحدى الحركات

ذات الدافع السياسي التي تهدف إلى النيل من مكانة الحركة النسوية ونقض أوجه التقدم التي حققتها النساء. وينبع التحدي الثالث من صعود شأن ما بعد الحداثة، والتي طرحت نقداً للنظريات السوسيولوجية "الحديثة"، بما فيها النظرية النسوية. وسوف نمعن النظر في دلالة كل واحدٍ من هذه التحديات تباعاً.

نَجَمَ القدر الأكبر من الدافع إلى إثارة النقاش حَوْل الوضع المُتحسن للنساء من البحث الذي أجرته ويلكنسون (١٩٩٤) عمَّا تُسميه: "زلزال النوع" (أي : الزلزال في مجال العلاقات بين الرجال والنساء كنوعين اجتماعيين)، وهو ظاهرة اجتماعية تُحدِث انقلاباً في اتجاه قرونٍ من اللامساواة بين الرجال والنساء. إذ تميز ويلكنسون عدداً من الطرق التي بها تتفوق النساء في وقتنا هذا على إنجازات الرجال في سوق العمل. فَقَدْ توقفت المقالات المنشورة في وسائل الإعلام في مُنتصَف تسعينيات القرن العشرين عن تسليط الضوء على الوضع السيئ للنساء وبدأت في التركيز على الصعوبات التي يواجهها الرجال في سُوق عملٍ تتزايد سيطرة النساء عليه باضطراد. ويلاحظ سميث Smith وتوماس Thomas(١٩٩٦)، وهما يستشهدان بالبيانات الواردة في "المسح التَّتَبُّعي للأسرة البريطانية"؛ يلاحظان أن تغير الأوضاع في الاتجاه نحو النساء العاملات بأجر يتزايد سنةً بَعْدَ أخرى. وعلى النقيض من ذلك، ارتفعت البطالة بين الرجال إلى مستويات قياسية، كما أُرغم الرجال على إعادة النظر في دورهم في سوق العمل، وهو الأمر الذي أدَّى ببعض المؤسسات البحثية، كمعهد دراسات السياسات مثلاً، إلى تسليط الضوء على هذا التمييز الذي يواجهه الرجال. كما أشارت مؤسسة EOC (٢٠٠٥) إلى مجالات معينة نجحت فيها النساء، وإلى العدد المتزايد في عضوات البرلمان، حيث بلغت نسبتهن ١٩,٧% سنة ٢٠٠٥ بالمقارنة بنسبة ٤,٣% في سنة ١٩٧٥، و٤٢% من المحامين الإناث سنة ٢٠٠٥ بالمقارنة بنسبة ٧% سنة ١٩٧٥، وأشارتْ إلى حقيقة أن الفتيات يحرزن نتائج أفضل في الشهادات الدراسية SATs (مع وجود بعض

الاستثناءات) وفي شهادة إتمام الدراسة الثانوية وكذلك في المستوى الممتاز من تلك الشهادة، وأنهن يشكلن في الوقت الحالي أغلبية الطلبة الجامعيين في التعليم العالي. ويعزي هذا التقدم في وضع النساء إلى معالجة مشكلة التمييز المباشر منذ تطبيق "قانون الأجر العادل"، وقانون "التمييز الجنسي" الصادرين سنة ١٩٧٥.

استغل أمثال هذا البحث المشتركون في حركة الردة المضادة للحركة النسوية، فذهبوا إلى أن الحركة النسوية حركة اجتماعية عفا عليها الزمن وهجرها الناس، وأنها ليس لها إلا صلة واهية ببريطانيا المعاصرة. ومع ذلك فإن علماء الاجتماع يميلون إلى مخالفة هذا الرأي. إذ أن القدر الأعظم من الشواهد التي تقدمها بحوث علم الاجتماع (انظر باسكول Pascall، ١٩٩٥، للاطلاع على مراجعة لبعض هذه الشواهد والأدلة) يبين أن النساء لا زلن يُعانين سُوء الأوضاع في أماكن العمل، وذلك فيما يتصل بالأجور، والتَرقّي، ومعاشات التقاعد. كما تبين تلك الشواهد أنه في الوقت الذي قد تكون الأحوال فيه تحسنت في بعض المجالات، فقد حدث نكوص وارتداد في مجالاتٍ أخرى. وقد أدّت المبادرات الإصلاحية، والتي منها مثلاً مبادرة توفير الرعاية للنساء داخل الحي السكني الذي يقمن فيه، أدّت إلى أن أصبحت النساء يَحمِلْن عبئاً مضاعفاً يتمثل في البحث عن عمل بأجر، فضلا عن تحمُّل مسئوليات الأسرة. وفي حالاتٍ كثيرة تسبب ذلك في تراجع النساء إلى المجال الخاص كما جعلهن تابعات ومَعُولات مرة ثانية. وقد تأثرت هذه العملية باللامساواة في مكان العمل.

تُركت النساءُ ليتدبرْن أمورهن في هذه الاتجاهات المتضاربة: إذ يقمن برعاية أطفالهن، ويعتنين بكبار السن من الأقارب. ويُعتبر هذا الوضع ثمناً مرتفعاً تدفعُهُ النساء إزاء استمرارهن في ممارسة العمل والتقدم في المهنة بمعناها التقليدي. ولا شك أن التوقعات الثقافية هي المسئولة عن جعل هذه الالتزامات تقع

على عاتق النساء أكثر مما تقع على عاتق الرجال. إلا أن التمييز في العمل يُعدُّ عاملاً آخر: ففي مُعظم الأسر تتقاضى النساء أجوراً أقل من أجور الرجال، وفي ظل هذه الملابسات يُسَيطر المنطق الاقتصادي في تحديد أولوية "العمل"، للرجل أم للمرأة. (باسكول، ١٩٩٥، ص٦).

وفيما يتصل بأنماط العمل التي تقوم بها النساء خارج المنزل لا تزال تُوجد فروق وحدود جنسية ملحوظة، حيث نجد النساء تتركز وظائفهن في المجال الاجتماعي وفي مجال الرعاية. بل إن الأمر وَصَلَ في التعليم العالي إلى أن أصبح الفتيات والشبان يتجهون إلى المجالات التقليدية وإلى المجالات المهنية التقليدية. وفي مكان العمل، يترجح أن تعمل النساء في وظائف لبعض الوقت فقط – وذلك بنسبة ٧٨% (وفقاً لما جاء في بيانات المؤسسة البحثية EOC) وهو الأمر الذي يتضمن تشغيلهن في نوعيات أعمال معينة، وإخضاعهن للخصومات المتصلة بدخلهن من العمل، والخصومات المتصلة بمعاشات التقاعد. كما يتضمن قلة فرص حصولهن على التدريب والتطور الوظيفي. وبالمثل، فإن الأموال التي تكتسبها النساء من العمل في كافة المجالات المهنية أقل من الأموال التي يكتسبها الرجال (مجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية (ESRC)، في مطبوعته الصادرة بعنوان "المجتمع اليوم"، ٢٠٠٥.

يعترف علماء الاجتماع، وبصورة متزايدة، بأن تجميع سائر النساء معاً في فئة واحدة لم يَعُد أمراً ملائماً. فقد بدأ الكُتاب في الإقرار بأن الفروق التي بين النساء، والتي تنجم مثلاً عن انتماءاتهن الطبقية أو الإثنية، قد تكون أكبر بكثير من الخبرات الشائعة التي تنجم عن الجنس أو النوع الاجتماعي. فالأجر المنخفض، والفقر، والمؤهلات التعليمية المنخفضة، والعمل ذو المنزلة المتدنية؛ هذه كلها أمور تشيع بين النساء اللاتي ينتمين لجماعات معينة من الأقليات، كالجماعات ذات

الأصل الباكستاني والبنجلاديشي(*). ولا يعتبر هذا الدليل ولا هذه الآراء بالأمر الجديد. فكما لاحظنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، ظلت النسويات السود زمناً طويلاً معترضاتٍ على فكرة النوع الاجتماعي هو العامل الرئيسي في تشكيل الخبرة الاجتماعية وأن النساء جماعة متجانسة لا اختلاف بين أعضائها. وترى النسويات السود أن أشكال معاناة النساء السود من النزعة العنصرية يشتركن فيها مع الرجال السود بقدرٍ أكبر مما يشاركن به النساء البيض. ومؤخرا أصبح من الأمور بالغة الأهمية أن النسويات قد أُرغمن على إعادة تقييم نظرياتهن وعلى تعديلها لتتكيف مع تنوع الخبرات الذي عرفته النظريات الكلية والشاملة التي تتناول اللامساواة بين الجنسين (انظر فيما بعد).

وبالعودة إلى التحدى الثاني الذي يواجه الحركة النسوية، وهو المتمثل في حركة الردة المضادة للنسوية؛ تُلاحظ ويلكنسون (١٩٩٤) نوعاً من العُزوف المتزايد، خاصة بين النساء الشابات عن التماهي مع الحركة النسائية. ويُعد هذا الأمر مثيرا للدهشة إلى حدٍ ما لأن استطلاعات الرأي العام تُظهر أنَّ أغلبية النساء لا يعتقدن أن الاتجاهات إزاء النساء قد تغيرت للأفضل أو أن التحيز الجنسي ضدهن قد ضعُفت قُوته. ويقدم كلارك (١٩٩٦، ص٢٣) تفسيرا ممكنا لهذا، فيقول:

إن ما حدث في ثمانينيات القرن العشرين من تنامي اليمين الجديد، مع تأكيده على القيم التقليدية للأسرة وعلى الأدوار الجنسية، يمكن اعتباره – كذلك – جزءاً من حركة الردة المضادة للنسوية جُزءاً من التحولات التي حدثت في حياة النساء. ونسبت حملة رئيس الوزراء (الأسبق) جون ميجور، والتي شعارها "العودة للأصول" Back to Basics؛ نَسَبت للأسرة النووية صفاتٍ مثالية وعَزَتْ كثيراً من المُشكلات الاجتماعية إلى زيادة عدد الأسر ذات العائل الوحيد، وهي الأسر التي تَوَجه النساءُ الأمور في أغلبها.

(*) المؤلف يقصد سوق العمل في بريطانيا (المترجم).

يبدو أن الحركة النسوية، وبعيداً عن استخدامها للقوة السياسية في تحرير النساء؛ يبدو أنها ساهمت في إخضاع النساء لأنها جعلتهن كَبْشَ فداء لمشكلات المجتمع. فإن يكن الأمر كذلك، فإن من شأن النسويين أن يذهبوا إلى أن من الأهمية الآن -كما كان من قبل- أن يقاتلوا من أجل حقوق النساء ومن أجل الحرية الجنسية، كما أن الحركة النسوية أضافت -في الواقع- قوةً جديدة لحملات خاصة تهتم بقضايا حقوق النساء، كقضية الاغتصاب داخل نطاق الزواج، والفصل الجائر من الوظيفة نتيجة للحمل، وتجارة الجنس والصور الإباحية وجرائم القتل بين أعضاء الأسرة. وقد حظِي نجاح أمثال تلك الحملات بقَدْرٍ كبير من الشهْرة والذيوع، كما أن القانون حافظ على هذا النجاح من خلال التغييرات التي أُدخِلَتْ على القانون الخاص بالقتل بين أعضاء الأسرة، وتجريم الاغتصاب في نطاق الزواج، ومن خلال التعديلات التي أُدخلت على تشريعات العمل بقصد حماية حقوق النساء الحوامل. وإنَّ من الأمور التي لا تزال تستحق الملاحَظة أن القضايا الشهيرة والمرفوعة أمام المحكمة الصناعية لاتزال تتضمن قضايا يَتَوجَّبُ على النساء فيها أن يكافحنَ من أجلِ الحصول على أجرٍ عادل (مساوٍ لأجور الرجال)، وهي قضايا لا ترفعها النساء على أصحاب الأعمال فقط، بل يَرفَعْنها كذلك على نقابات العمال اللاتي يتبَعْنَها، وهي النقابات التي كثيرا ما تمثل عمال القطاع العام.

يبدو أن هذا الوضع – فضلا عن التأثير الهائل الذي أحدثته الحركة النسوية في الثلاثين سنة منذ بدايتها – يمثل إرثا محرجا للحركة المضادة للنسوية يُوقعها في الحيرة والارتباك. وكما يؤكد كلارك (١٩٩٦، ص٢٣)، فإن النسويين لم يقتصر دورهم على إحداث تغيير بنائي فقط، ولكنهم أسهموا كذلك في إحداث تغيير في الاتجاهات، وإن هذا التغيير قد يكون هو الإسهام الأكثر أهمية والأدلُّ على حيوية هذه الحركة:

حققت الحركة النسوية إنجازاً هائلاً على امتداد السنوات العشرين السابقة(*)، وهو ذلك التغيير الذي أحدثته في وَعي النساء. فالأهداف الأساسية لهذه الحركة النسائية: وهي حرية الإنجاب، والأجر العادل، والتمكين من رعاية الطفل، والتحرر من الإيذاء الجنسي؛ هذه الأهداف تَلْقَى الدعم والتأييد من جانب أعداد ضخمة من النساء اللاتي قد لا يعتبرن أنفسهن من أتباع الحركة النسوية.

تُقدم وولبي Walby (١٩٩٤) رؤية نافعة للتحدي الثالث، وهو المتمثل في الأثر الذي أحدثته ما بعد الحداثة في الحركة النسوية. إذ تبحث وولبي المُسَلَّمات الأساسية لما بَعْدَ الحداثة وتميز الطريقة التي بها استُغِلَّتْ هذه الأفكار في الهجوم على النسوية. وهي تتخذ تعريفها الشخصي لما بَعْد الحداثة كمُنطلَق لهذه المناقشة:

إنني أستعمل مفهوم "ما بعْدَ الحديث" للإشارة إلى التغيرات التي أفضت إلى التشظِّي على عَدد من المستويات المختلفة، ابتداءً مِنَ الواقع الاجتماعي المحسوس وانتهاءً بأنماط التحليل الاجتماعي. وإنني أزعُم أن هذه التغيرات تجمعها سمات مُشتركة. فأنا لا أرى أن ما بَعْدَ الحداثة مُجرد فلسفة تأتي بعد الحداثة من الناحية الزمنية. وإنما تنطوي على نوع من التصنيف التحليلي لبعض الموضوعات الأساسية الحالية في العلم الاجتماعي المعاصر، وهو العلم الذي يتمثل مظهره الرئيسي في التشظي (وولبي، ١٩٩٤، ص ٢٢٦).

ثم تستطرد قائلة إنه في الوقت الذي تسهم فيه بعض القضايا التي يُثيرها مفكرو ما بعد الحداثة بتقديم زاد فِكري للنسويين، فإن ما بعد الحداثة قد اشتطت كثيراً في هذا السبيل. وتَبْني وولبي مناقشتها على قاعدة من ثلاثة من المؤكَّدات الجوهرية لما بعد الحداثة وهي:

(*) محسوبة في عام ١٩٩٦ (تاريخ كتابة كلارك). (المترجم)

(١) أن مفهوم "النوع الاجتماعي"، ومفهوم "العرقِ" ليس لهما قيمة وأن الرأسمالية غير مُنظمة؛

(٢) وأن التنظير القائم على الأفكار البنيوية "لنظام سلطة الأب" و "الرأسمالية" غير مقبول؛

(٣) وأنه لا يوجد مكان للسرديات الكبرى في التفكير السوسيولوجي المعاصر ولا في الحياة الاجتماعية.

ترفض وولبي التصور الأول، فمع أنها تقر بأن العلاقات الاجتماعية الخاصة بالنوع الاجتماعي، والإثنية، والطبقة قد تغيرت، إلا أن مفكري ما بعد الحداثة قد اشتطوا فعلا عندما حاولوا رَفض أمثال تلك المفاهيم واستبعادها تماما. وتعترف وولبي بأنه رغم الإقرار الشائع بالفروق الموجودة بين الجماعات الإثنية وبين النساء، فإنه يُوحِّد بينهم وضعهم السيئ بالقياس إلى وضع الرجال. كما تؤكد على أنه على الرغم من أن الرأسمالية في القرن الواحد والعشرين قد أعيد تعريفها فتغيرت بعض معالمها، فإن نفوذها لا يزال ملحوظا: "إن النوع الاجتماعي والإثنية، أو بتعبير أدق، نظام سلطة الأب والنزعة العنصرية، لا يزالان قوتين اجتماعيتين مؤثرتين، وإن الرأسمالية لم تضعف قبضتها رغم شكلها الجديد" (المرجع نفسه، ص٢٢٦)

وفيما يتصل بالتصور الثاني، تقرر وُولبي أن النقاد ما بعد الحداثيين بلَغ بهم الشطط إلى تأكيد الاستحالة الحتمية وعدم جدوى دراسة موضوع عدم المساواة بين الرجال والنساء كنوعين اجتماعيين. وتقول : مع أنه من المعقول التأكيد على أن العلاقات بين الرجال والنساء يمكن أن تتخذ عدداً لا نهائيا من الأشكال، إلا أنه يوجد في الواقع بعض السمات المتكررة بشكل شائع، فضلا عن قدر كبير من الاستمرارية التاريخية:

يحظى تعبيرا "المرأة" و "الرجل" باستمرارية تاريخية وانتشار واسع في شتى الثقافات، برغم وجود بعض الاختلافات، ولكنها استمرارية كافية تسمح باستعمال هذين اللفظين. ومن الأمور الواردة أن نسأل عما إذا كانت علاقات النوع الاجتماعي (أي العلاقات بين الرجال والنساء بصفتهما نوعين اجتماعيين) لها بالفعل استمرارية نمطية تكفي لصياغة التعميمات والأحكام العامة التي تصدُق على امتداد قرن أو قرنين من الزمان وتنطبق على الأوضاع في قارةٍ أو نحو ذلك، أم لا. ومع أنه ليس بالإمكان الإجابة على هذا السؤال على المستوى النظري، فإنني أميل للذهاب إلى أن مثل هذا التعميم هو – من الناحية العملية- أمرٌ ممكن. إذ يُوجَد في نظام سلطة الأب ما يكفي من السمات المشتركة وما يكفي من الروابط المتبادلة المنتظمة ما يجعل الكلام عنه مفهوماً. (المرجع نفسه، ص٢٢٩).

مع ذلك، فإن وولبي، ورغْمَ شغفها بالتعميم، تبين بوضوح أنها لا تدعو إلى عَوْدةٍ "للإطار الفكري الشمولي للماركسية التقليدية، والتي حاولت أن تطوي جميع أشكال اللامساواة الاجتماعية تحت شكل اللامساواة الطبقية (المرجع نفسه، ص٢٧). وبدلاً من ذلك، فإنها تقترح القيام بتحليل التأثير المتبادل (أي:العلاقة المتبادلة) بين الأنساق الثلاثة للعرق، والطبقة، والنوع الاجتماعي.

وفي النهاية، فإن وولبي تجعل الدعوة لصياغة النظريات أمراً خارج نطاق السرديات الصغيرة والمحدودة التي يدعو إليها مفكرو ما بعد الحداثة. وهي تذهب إلى أن من الممكن ومن المرغوب فيه تطوير سردياتٍ كبرى (أي بلورة نظريات عامة) عن الحياة الاجتماعية، لأن مثل هذه النظريات مهمة لتطوير فهم عالمي حقيقي للامساواة الاجتماعية بين الرجال والنساء. وباعتمادها على أعمال مفكري نظرية النظم العالمية (انظر ما في الفصل الخامس من هذا الكتاب من فقرة تتحدث عن العولمة) وعلى أفكار النسويين العاملين داخل هذا الميدان (ميز Mies،

١٩٨٦؛ وميتر Mitter، ١٩٨٦)، تدعو وُولبي (١٩٩٤، ص٢٢٧) إلى القيام بتحليل عالمي للعلاقات بين الرجال والنساء في مواجهة التحليل القومي أو المحلي لهذه العلاقات، حيث تقول:

إنني أدعو إلى مَنظُور فكري دولي. إذ أنه ليس بالإمكان فهم الطبقة، ولا فهم العرق، ولا فهم النوع الاجتماعي داخل بلد واحد فقط. فنحن نعيش داخل نظام عالميّ، لا تحده الدول القومية ذات السيادة إلا بصورة هامشية فقط. ومع ذلك، فإن هذا النظام العالمي ليس نظاماً واحداً فقط للرأسمالية (كما يميل والرستين Wallerstein إلى القول به)، بل هو كذلك نظام للعنصوية وللسلطة الأبوية".

إلام يُسلم هذا الحال الحَركة النسوية؟ لقد سَعَى الكتاب النسويونَ للتجاوب بأسلوب مَرن مع التحديات التي تواجههم. وسوف يستمر الباحثون منهم في استكشاف الوضع السئ للنساء في المجتمع، كما أن الكفاح من أجل الإصلاح الاقتصادي، والسياسي والقانوني لصالحهن سوف يتواصل بلا ريب، حتى وإن كان ذلك على المستوى المحلي وليس المستوى القومي. ومع ذلك، سوف تحاول النظرية النسوية أن تسمو فوق المشهد المحلي والمشهد القومي وأن تقوم بإجراء التحليلات على المستوى العالمي لقضية اللامساواة بين الجنسين (سواستي ميتار Swasti Mittar، ١٩٨٦). وسوف تستلهم بعض أعمال النسويين الفكر ما بعد الحداثي، وإن كان هذا لن يعني التقبُّل التام لمُسلَّمات ما بعد الحداثة.

والأرجح أن النسويين سوف يَسْعون للتوفيق بين أشكال التناقض الداخلي وأوجه قصور النظريات المتعددة التي يعتنقونها، وأن يجمعوا أكثر الأفكار خصوبة واتصالاً بأفكارهم في تركيبةٍ واحدة (أبوت Abbot ووالاس Wallace، ١٩٩٠). والأمر المؤكد أن نضالهم لتوطيد دعائم المساواة بين الجنسين، باعتبارها أساس المساواة في المجتمع، سوف يستمر:

"إن الأمر الذي لابد منه هو نوع من المراجعة الفكرية الشاملة للمعرفة السوسيولوجية وللطرق التي بها يتم إنتاج تلك المعرفة. وسبب ذلك أنه ليس من قبيل المصادفة أو الشيوع أنّ النساء يتعرضن في نطاق علم الاجتماع للتجاهل، أو التهميش أو لتشويه الصورة، بل هو مُحصلة التأسيس النظري لهذا العلم. ذلك أن علم الاجتماع ذا التيار الذكوري قصّرَ في مواجهة الرأي الذي يذهب إلى أن النساء محدودات القدرات بحُكم الطبيعة وأن دورَهُن هو مُحصلة للضرورات البيولوجية التي لا سبيل لإنكارها.وقد ترَتبَ على ذلك أن المفاهيم التي تمت بلورتها لتنفيذ البحث السوسيولوجي، والقضايا التي ظنّ علماء الاجتماع أنهم يبحثونها، قد تجاهلت النساء.ولتقديم المعرفة السوسيولوجية الصحيحة، فإنه لابد من إعادة صياغة هذه المفاهيم وهذه القضايا، بحيث تصبح النساء موضوعاً محوريا تدور عليه اهتمامات هذا العلم". (المرجع السابق).

تستعمل دورثي سميث (١٩٩٠) مفهوم "علاقات السيطرة" لإعادة بلورة التصور العقلي للفكرة التي تقول إن بالإمكان أن يُقال عن كل العلاقات الاجتماعية بأنها مُشبَعة بطابع النوع الاجتماعي. وتذهب سميث – انطلاقاً من خطاب ماركسي – إلى أنه بدءا من الأنظمة الضابطة المسيطرة كالحكومة، وقطاع الأعمال، والقانون، وانتهاءً بما في حياتنا اليومية من ممارسات وعمليات نقوم بها في حياتنا العائلية، وفي التعليم وفي العمل، فإن اضطهاد النساء يجري ترسيخه كما أن إخضاع النساء يجري العمل على استمراره والحفاظ عليه. وتستعمل سميث فكرة المجال العام والمجال الخاص للحياة الاجتماعية لتبين كيف يتم إخفاء "علاقات السيطرة" في كثير من الأحيان إلا أنها تظل رغم ذلك آليات ووسائل فعالة للقهر. وهي ترى أن الأبعاد "النصية" (أي المتمثلة في نصوص مكتوبة) لعالم الحياة اليومية (كطلبات الحصول على معونة من الدولة، وملء استمارات الضرائب، ودخول الامتحانات)؛ ترى أن هذه الأبعاد إنما هي أدوات لإخضاع الناس لقوة

الطبقة الحاكمة أو الدولة على صعيد حكومي يعمل على الحفاظ على كلٍّ من اللامساواة بين الجنسين واللامساواة بين الطبقات. كما اعتمدت سميث على الظاهراتية (الفينومينولوجيا) في القول بأن وجهة نظر النساء (والأقليات الإثنية، والمثليين، وغيرهم من الجماعات) ليست مُجرد مسألة تعريف تقوم بتحديده أنواع الخطاب المسيطرة، بل تتضمن بجانب ذلك تصورات ذاتية وغير عقلانية عن النساء. وتقوم النساء والرجال "بأداء دور"النوع الاجتماعي في حياتهم اليومية اعتماداً على المُسلَّمات الفردية والجمعية التي تدور حول معنى كون المرء رجلاً أو امرأة (سميث، ٢٠٠٥).

وهذه حاشية أخيرة عن نقص اهتمام الشابات ونقص التزامهن بالحركة النسوية، وتتناول هذه الحاشية الدور الذي لعبته وتلعبُهُ وسائل الإعلام في صياغة مداركنا لحقيقة النسوية. ففي سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين قُدمت صورة سيئة للنسويات الراديكاليات، فأُطلق عليهن وصف "حارقات السوتيانات"(*) من كارهات الرجال.وفي تسعينيات القرن العشرين سادت الصورة التي تمثل المرأة النسوية التي ليس فيها ما يدل على الأنوثة، والتي تتبرأ من مظاهر ما قد يعنيه كون المرأة مرأةً عند كثير من النساء، مثل ارتداء الحلي واستخدام أدوات الزينة أو البقاء متحررة من تبعات رعاية الطفل. وباقتراب التسعينيات من نهايتها، وفي بداية القرن الواحد والعشرين أصبحت الفكرة القائلة بأن النساء يستطعن منافسة الرجال وفقاً لشروطهم وأن يفزن في هذه المنافسة؛ أصبحت جُزءاً مما تبثه وسائل الإعلام من رسائل مثيرة.وكانت الفكرة التي تتحدث عن المرأة العاملة كشريكٍ مساوٍ للرجل العامل من الأفكار المُنتشرة السائدة، كما أن حقوق الأمومة والمساعدات الحكومية المقدمة للأمهات ظلت تتحسن على امتداد التسعينيات وسنوات العقد

(*) حمالات الصدر النسائية (المترجم).

الأول من القرن الحالي. وزاد عدد النساء في البرلمان، وفي المهن الراقية، وبرزت ظاهرة النساء الناجحات في وسائل الإعلام وفي مجال الترفيه (كفرق موسيقى البوب المكونة من الفتيات مثل فرقة "سبايس جيرلز Spice Girls) كما برَزت ظاهرة "الليديهات الصغيرات" Ledettes (أي: حاملات لقب الليدي Lady الصغيرات السن – في بريطانيا). فهذا كله أصبح شيئاً معروفاً بمساعدة وسائل الإعلام نظراً لأن النساء شَغَلْن مكانهن – بصورة نهائية – جنباً إلى جنب الرجال في المجتمع. ومع ذلك سوف نتبين – بعد مزيد من التدقيق – أن نماذج الأدوار المذكورة كانت في الواقع نماذج تقليدية إلى حدٍ ما وأنها لم تسهم بشيء في إظهار ما تعانيه النساء من نقصٍ في المساواة في كثيرٍ من مجالات الحياة الاجتماعية. وتوحي الصورة ذاتُ الطابع الجنسي التي تقدم بها كثيرات من الفنانات الشابات أن "مُديري أعمالهنّ"يؤمنون أيضا بهذا المنظور التقليدي لطبيعة دور المرأة في المجتمع. وأدّى الإعجابُ الشديد بالمشاهير والاستعمال المتزايد لجراحات التجميل من جانب النساء؛ أدى ذلك إلى المزيد من تعزيز الصور التقليدية لدور النساء ولِمَا ينبغي أن تكون عليه أجسام النساء.

يُضاف إلى ما سبق أنه تم تسليط الضوء كذلك على الاستغلال الجنسي والإيذاء الجنسي، إذ كان المعدل المنخفض لإدانة جريمة الاغتصاب سبباً للقلق الذي استمرَّ على امتداد سنوات كثيرة. ولكننا نجد أنه على الرغم من حدوث تغيرات فى تعامل الشرطة مع حالات الاغتصاب وفي طرق تداول المحاكم لتلك القضايا؛ لم يحدث إلا تحسن طفيف في هذا الشأن. فقد تضاعف عدد "مراقص الأحضان"(*) في المملكة المتحدة إلى ٣٠٠ فيما بين سنة ٢٠٠٤ وسنة ٢٠٠٨. ووفقاً لما كتبته آندي بلوكسهام A.Bloxham في صحيفة "الديلي تلجراف" في شهر

(*) Lap Dancing Clubs أي التي يُباحُ فيها للفتى والفتاة الاحتضان أثناء الرقص. (المترجم)

يونيو ٢٠٠٨ فإنه يتم الآن اتخاذ إجراءات عملية لإعادة تصنيف أمثال تلك المراقص بوصفها أماكن "للقاء الجنسي" دفع إليها ما يشوب القوانين التي تُرخص بفتح هذه المحلات من مظاهر عدم الدقة، وهي الأماكن التي تُعدُّ -إلى حد ما- مشابهة لبيوت الدعارة المُرخَّصة قانوناً أو "مراقص التعري" (التي تخلع فيها الراقصة ملابسها قطعة قطعة).

دراسات الرجال والذكورة

شهد جُزءٌ من حقبة ما بعد النسوية اهتماما متزايداً بقضية الذكورة وتحليلاً لها من جانب علماء الاجتماع مما أدّى إلى ظهور دراسات الرجال. ويوضح باركر Parker وليل Lyle (٢٠٠٥)، أن ظهور الرجال كمُستهلكين في سوق الموضة والأناقة ومستحضرات التجميل في سبعينيات القرن العشرين قد تسبب في إثارة مناقشة واسعة على المستويين الأكاديمي والشعبي عن طبيعة الذكورة. وقد شهدت الثمانينيات بصفة خاصة ظهور "الرجل اليوبي" Yuppie (أي الشاب، ومن هو في سن أكبر، ممن يتنقلون بين المهن المختلفة)، وظهور "الرجل الجديد" أي نمط الرجل ذي الاهتمام الأكثر بالأسرة، والعاطفي الحساس، الذي يحرص على العناية بأطفاله ويشارك في أداء الأعمال المنزلية.كانت كلتا هاتين الشخصيتين الذكوريتين من النوع ذي الميول الجنسية الطبيعية، إلا أنهما لم تستمرا إلا أجلاً قصيراً لا بسبب أي تغيرات دائمة في مفاهيمنا عن الذكورة، هذا إن كانت هاتان الشخصيتان قد وُجدتا أصلاً في أي شكل ذي دلالة.

وقد أدّى "الاختفاء" الظاهري لهذين المثالين لأشكال الذكورة إلى ظهور نمطين آخرين للرجال هما: نمط الرجال "الفتيان" Lads، ونمط الرجال "ذوي الميل للاستعراض الجنسي في عربات المترو"metrosexuals. وقد اتسمت ثقافة الرجال

"الفتيان" ببعض مظاهر الذكورة المفرطة في تقليديتها - وهي السمات التي تغلب على رجال الطبقة العاملة- كالإفراط في شرب الخمر، والإغراق في التمتع باللذات، وبُغض النساء، والنزعة المعادية للنسوية. من ناحية أخرى كان أصحاب الميل إلى الاستعراض الجنسي في عربات المترو مشغولين بمظهرهم، وبمتابعة الموضة، وباختياراتهم الخاصة لأسلوب حياتهم، كما كانوا يتصفون بالمزيد من السمات الأنثوية، فهم باختصار على عكس الرجال "الفتيان". وقد أدت هذه التطورات إلى ظهور اتجاهٍ جديد في دراسة الذكورة التي كان لها أساس راسخ في علم الاجتماع، كما انتفعت هذه التطورات بالفكر القائم على أُسس الحركة النسوية في بحث قضية "النوع الاجتماعي" كجُزء من بنية العلاقات الاجتماعية في المجتمع.

معنى ذلك أن بحوث علم الاجتماع قد تناولت من منظور ذكوري موضوعات تتعلق بجانب مما برهن بعض النسويين التقليديين على وجوده من مخاوف تتصل بالنوع الاجتماعي، بجانب بعض القضايا التي منها مثلا قضية التنشئة الاجتماعية، والصور النمطية الثابتة، وعلاقات القوة، وتوقعات الأدوار ونحو ذلك من قضايا. فمسائل من قبيل: كيف يتم تربية وتنشئة الصبيان للقيام بأدوار ذكورية، وما هي الصور النمطية الثابتة التي تمثل علامة يُعرف بها الصبيان والرجال، وما هو دور الرجل في الأسرة، وفي التعليم، وفي العمل في القرن الواحد والعشرين المتغير؛ مثل هذه المسائل تناولها بالدراسة بعض علماء الاجتماع مثل فرانسيس Francis (٢٠٠٠)، وماك آن جيل Mac an Ghaill (١٩٩٢) وكونوللي Connolly(٢٠٠٦). فالبحث العلمي الاجتماعي يقوم - وبصورة متزايدة - بتحرِّي حقيقة نماذج أو أنماط الأدوار الذكورية المقبولة والمستقرة اجتماعيا ويحاول فهم حقيقة ركائز معنى كون المرء ذكراً، ويقدم صورة واضحة للسلوك الذكوري في المجتمع الحديث.

وقد أثبت البحث الأنثروبولوجي والإثنوجرافي أن المعايير الثقافية تلعب دوراً له شأنه في تحديد ما هي الطرق المُتفق عيها في مجتمع معين بخصوص "كون المرء ذَكَراً بالغاً" (جيلمور Gilmure، ١٩٩٠). ورغم أن جيلمور يذهب إلى أن كثيراً من المجتمعات تُعرِّف الذكورة بطرقٍ متشابهة، فإنه تُوجد -كذلك- فروق لها شأنها بين المجتمعات في هذا الصدد. مثال ذلك أن إبداء مظاهر المحبة بين رجل ورجل تعتبر من المُحَرَّمات في مجتمع المملكة المتحدة (باستثناء ما يحدث في ظروف خاصة كما هو الحال عند إحراز هدفٍ بركلة لكرة القدم) إلا أنها شائعة في بلادٍ أوروبية أخرى مثل تركيا واليونان. وتوجد كذلك مجتمعات لا يتمُّ فيها تعيين حدود فاصلة بين سلوك الذكور وسلوك الإناث بصورة واضحة كل الوضوح.

اعترض كونيل Connell (٢٠٠٠) على استعمال أي من التفسير البيولوجي أو التفسير الثقافي للذكورة منفردا. إذ يذهب إلى أنه ينبغي استعمال العوامل البيولوجية والعوامل الثقافية مُجتمعةً معاً لنفهمَ طبيعة الشخص داخل إطارَ سياقه الاجتماعي. ويعتبر دور الرجال في بعض الألعاب الرياضية مثالاً للطريقة التي بها يرمُز النشاط البدني للذكور ويُضفي معنى على كون المرء رجلا. كما أن بإمكان الرجال أن يغيروا من مكانتهم الذكورية اعتماداً على السياق الذي يكونون فيه: في المنزل، أم في العمل، أم مع أصدقائهم، وهلم جرا.

ذهب مسرشميت Messerchmidt (١٩٩٥) إلى أن بالإمكان وجود شكلين من الذكورة يختلفان من حيث النمط والسمات.الشكل الأول هو "**الذكورة المهيمنة**"، والقائمة على السيطرة على النساء وتحقيق المكانة الاجتماعية العالية من خلال العمل، أو الألعاب الرياضية أو حيازة القوة (السياسية). وهذا النمط مرغوب بشدة بالقياس إلى النمط الثاني، وهو "**الذكورة الخاضعة**" المرتبطة بالرجال المنتمين لجماعات الأقليات العرقية أو إلى فئة المثليين.

كما تناول علماء الاجتماع موضوع "تحقيق أو إحراز" الذكورة، أي:كيف يكتسب الرجال الطابع الذكوري وكيف يعرّفون أنفسهم في المجتمع.وفي بحثه عن الذكورة في المدارس الابتدائية أثبت كونوللي (٢٠٠٦) أن الصبيان يدخلون المدرسةَ وهم يحملون داخلهم بالفعل طرق التفكير المتعلقة بالذكورة، وبالأنوثة، وبالإثنية. وقد يستمد الصبيان طُرق التفكير هذه من المنزل، أو الجيران، أو النماذج السابقة للأدوار أو حتى من تأثرهم بوسائل الإعلام وألعاب الكومبيوتر الشائعة. ولهذه الطرق في التفكير عواقب مهمة بالنسبة لتطوير العلاقات في المدرسة. وقد لاحظ كونوللي كيف كانت أفكار الصّبيان عن "الذكورة المُفرطة" تتجلّى بوضوح حتى في سن صغيرة تماماً، وذلك من أجل إحراز مكانة عالية. وقد بدا أن إظهار الصرامة، وانتفاء صفة طالب العلم، والتفوق في لعب كرة القدم؛ بدا أنّ هذه الأمور تُكسب الفتى احترام زملائه له كما تجعله جذاباً الفتيات. ومع ذلك، ينبهنا كونوللي كذلك إلى تجنب معاملة الذكور كجماعةٍ متجانسة، وذلك لأن بحثه يُثبت وجود فروق لا يُستهان بها – مثلا – في مفاهيم الوظائف بين صبيان الطبقة الوسطى وصبيان الطبقة العاملة.

كما قامت الدراسات التي أجريت في مجال جرائم الرجال بتحليل دور الذكورة في تحديد من الذي يتورط في الجريمة والانحراف، كما حللت الفروق في الدلالات التي تضفيها على السلوك الإجرامي مختلف جماعات الرجال. فبعض الأمثلة الشائعة للجريمة الرجالية، كجريمة "النصاب" في أسواق المال، ليس من المحتم حتى أن يُنظر لمرتكبها على أنه مُخادع أو مجرم، وذلك لأن البيئة –التي قد يكون قادما منها– تضفي عليه شيئا من الحماية المستمدة من النمط الثابت التقليدي للمجرم من الرجال.

والأمر المهم لاعتبار المرء ذكراً يمكن أن يكون مائعاً ومُتغيرا، وذلك وفقا لاعتبارات السن، والمكانة الاجتماعية، والإثنية، والسلوك الجنسي، والطبقة الاجتماعية. يُضاف إلى ذلك أنه بمرور الزمن تتغير أنماط العلاقات الاجتماعية مع ما يصحب ذلك من ضرورة تغير المنظور الخاص بمعنى أن يكون الإنسان ذكراً أو أنثى، وبما يعد سلوكاً ذكورياً وسلوكاً أُنثويا. ويُعتبر عالم العمل مثالاً لهذه التغيرات باعتبار أن النساء يُشكلن في أوقاتنا هذه نصف القوة العاملة، حتى وإن كُن يعملن -غالبا- في أعمال مؤقتة، إذ لم يَعُد للرجال مُستقرٌ ثابتٌ مضمون في كثير من المجالات المهنية كما كان لآبائهم. ولم يَعُد الرجال يقومون بدور العائل الوحيد أو الرئيسي في كثير من الأحوال. فقد تغير سوق العمل الصناعي تغيراً يجاوز نطاق معرفتنا مُنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، كما تغيرت – تبعاً لذلك- الحقائق التي تسببت في ظهور التقسيمات بين الجنسين في المجتمع.

يتمثل جزءٌ من منظور ما بعد النسوية ومنظور ما بعد الحداثة -فيما يتعلق بالنوع الاجتماعي- في مفهوم التكوين الشخصي للأنوثة والذكورة. فالرجال والنساء لديهم مجال من الاختيارات تتصل بالطرق التي يُكوِّنون بها هوية النوع الخاصة بكل فرد منهم. مثال ذلك أن بَتلَر Butler (١٩٩٠) ذهبت إلى أن النوع الاجتماعي هو الأداء، فالسلوك يتمُّ إظهاره تبعا لطبيعة المكان الذي نكون موجودين فيه، والعمل الذي نقوم به والأفراد الذين نكون معهم. وهي ترى أنه لم يَعد ينبغي على المجتمع أن ينظر إلى الرجال والنساء بوصفهما جنسين منفصلين ومتميزين عن بعضهما، بل ينبغي علينا أن ننظر إلى النوع الاجتماعي باعتباره مدى واسعا من العمليات التي بها يمكن للرجال أن يتخذوا لأنفسهم سماتٍ كانت قبل ذلك مرتبطة بالنساء كالعناية بمظهرهم، كما يمكن للنساء أن تتبنى صفاتٍ مرتبطة

بالرجال كالعدوان ومتابعة النجح والتقدم في السلك المهني. وتساعد الثقافة الجماهيرية وما يرتبط بها من شخصيات تظهر في وسائل الإعلام – كشخصية جوك وان Gok Wan– في زيادة دعم هذه التغيرات. وقد استُعمل لفظ "التجاوز" أو "التخطي" لوصف عملية العبور المذكورة فوق الحدود الفاصلة بين هُويّتي النوع الاجتماعي (الهوية الذكورية والهوية النسائية) (لايفسي Livecy ولوسون Lawson، ٢٠٠٥).

انتقدت ليتش Leach (١٩٩٤) التحليلات التي قُدمت في مجال الذكورة والتي تعتمد على التفسيرات السوسيولوجية والثقافية لأنها لا تستطيع أن تقدم إلا فهماً جُزئيا لدور هوية النوع الاجتماعي في المجتمع. وتذهب ليتش إلى أنه لا يمكن فهم الذكورة بوصفها هوية النوع الاجتماعي إلا باعتبارها تركيبة مؤلفة من عناصر اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وإيديولوجية. ويُعتبر البُعد الخاص بمفهوم "العائل" – الذي هو من أبعاد الذكورة– جُزءاً من احتياج الرأسمالية الصناعية لخلق قوة عمل مطاوعةٍ لها وتتحمل مسئولية إعاشة أسرها. كما أن دور العائل (الذي يوفر الطعام لأسرته) يُضفي الشرعية على التقسيم الجنسي للعمل، والذي يعزز من استمرار الخضوع الاقتصادي للنساء، ومن الناحية الإيديولوجية، تحافظ الذكورية التقليدية كذلك على الاضطهاد الجنسي للنساء، وذلك لأنها تتسم بصفات: الانحياز الجنسي للرجل وبُغض المرأة، والعدوانية، ورُهاب الجنسية المثلية، وكذلك الممارسات السلوكية التي تعزز هذه الإيديولوجيا: كممارسة العنف داخل الأسرة، والعنف الجنسي ضد النساء. وتذهب ليتش إلى أن الذكورة والأنوثة يمثلان جانباً من بنية أوسع للقوة السياسية والعمليات الاجتماعية التي تحافظ على سيطرة الرجال، وأنه لا يمكن فهمهما إلا في ضوء هذين الاعتبارين.

	تمرين ٤-٧
تطبيق تحليل تقييم	استخدم المعرفة التي حَصَّلْتها عن المنظورات الفكرية النسوية المذكورة في الفصل الثاني من هذا الكتاب، ثم اكتب فقرة مختصرة تشرح فيها كيف ينظر كل اتجاه من اتجاهات الفكر النسوي إلى التكوين الاجتماعي للذكورة. مثال ذلك، أن النسويين الماركسيين قد يرون أن الرأسمالية خَلقت شكلاً معينا للذكورة مرتبط بالحفاظ على الاقتصاد الصناعي بالإضافة إلى أنه يؤدي إلى اضطهاد النساء.ومن ثم تكون سيطرة الرجال مرتبطة ببنية وتنظيم المجتمع الذي يجعل للرجال مصلحة في استمرار نظام جائر قائم على التفرقة. وبالتأسيس على المعلومات المُقدمة في هذا القسم، اكتب – على الأقل– عن نقطتين من نقاط القوة ونقطتين من أوجه القصور في نظرية ما بعد النسوية.

نظرية العرق النقدية

حدثت – بالتوازي مع ظهور ما بعد النسوية – تطورات مشابهة في النظريات التي تتناول العِرق والعُنصرية. وبالاعتماد على بعض النظريات السوسيولوجية كنظرية ما بعد الماركسية وما بعد البنيوية، وكذلك بالاعتماد على التأثيرات الوافدة من خارج نطاق علم الاجتماع؛ طورت نظرية العرق النقدية اتجاهاً في تناول العِرق والعُنصرية. كان التأكيد في علم الاجتماع الأمريكي منصبًا على الطريقة التي بها لم تَكُن التدابير القانونية والاجتماعية محايدة فيما يتصل

بالعرق، إنما كان يتم التلاعب بها من جانب النخب الاجتماعية والاقتصادية حتى يخدموا مصالحهم (انظر ما تسودا Matsuda وآخرين ٢٠٠٣). وعلى وجه التحديد، لم تكن المحاكم الأمريكية نزيهة فيما يتصل بلون البشرة، كما كان يُدَّعى في كثير من الأحيان، بل كانت تفسر القانون ليتناسب مع احتياجات عصر معين، مثال ذلك قيامها بإعادة تعريف الجماعات أو الفئات الاجتماعية كأقليات في ضوء حاجة الاقتصاد. والحق أن مجمل الفكرة التي تقول إن الولايات المتحدة أصبحت نزيهة أو محايدة فيما يتصل بلون الإنسان – مستشهدين على ذلك بانتخاب باراك أوباما رئيسا – هذه الفكرة تعرضت للهجوم من مفكري النظرية النقدية للعرق باعتبارها ستاراً تمويهياً يُطيل من بقاء العُنصرية في أشكال جديدة (انظر بونيلا سيلفا Bonilla Silva، ٢٠٠٣).

كان من الأفكار الرئيسية في نظرية العرق النقدية أنه ليس بالإمكان التفكير في العرق بمعزلٍ عن الهويات الأخرى. إذ الأحرى أن الإثنية تقوم بدورها عند تلاقي خطوط الهويات الأخرى مما يخلق الاستعداد للمشاعر المتضاربة في الأفراد بسبب تَشابك الولاءات أو بسبب دخولها في توتر مع بعضها البعض. والهويات الموجودة على خط التلاقي المذكورة هي : هوية الطبقة، وهوية السلوك الجنسي، وهوية الدين، وهوية النوع الاجتماعي، وغير ذلك من أنواع الهويات.لهذا السبب كان من المهم عند علماء الاجتماع أن يتيحوا لأصوات الأقليات الإثنية (وأصوات الأغلبيات الإثنية) أن تكون مسموعة، وذلك بغرض أن يتم التعبير عن خبرات إنزال الاضطهاد بالآخرين، وخبرات تَلَقِّي الاضطهاد من الآخرين (انظر دلجادو Delgado وستيفانيك Stefaneic، ٢٠٠١). ومع ذلك، يذهب مفكرون آخرون من أصحاب نظرية العرق النقدية إلى أنه لا يكفي إعطاء الأقليات المضطهدة الفرصة للتعبير عن نفسها، لأن نظرة محدودة النطاق كهذه النظرة يمكن أن يُفضي إلى نتيجةٍ مفادها أن التمييز العنصري في آخر مراحله قبل زوالهِ. ويرى براون

Brown وآخرون (٢٠٠٣) أن مظاهر اللامساواة البنائية ليست أحداثا تاريخية فقط بل يتواصل وجودها ويتم استبقاؤها على مرّ الزمان في المجتمع الأمريكي، وأنه لابد من كشف العنصرية على حقيقتها ومعالجتها في مجال الإسكان، ومجال التعليم، ومجال الاقتصاد.

من الأمور التي تركز عليها نظرية العِرق النقدية أن تكون ذاتَ نطاق عالميّ. فقد نقل مفكرو هذه النظرية بؤرة الاهتمام البحثي من الوضع القومي للجماعات الإثنية، كجماعة الأمريكيين السود في الولايات المتحدة، بقصد دراسة وفهم موضوع العرق والعنصرية في سائر أنحاء العالم وعلى امتداد التاريخ. وتُعتَبَر عمليات الإمبريالية، وتصفية الاستعمار، والاستعمار الجديد من الأمور المحورية لفهم تطور القومية الإثنية (أي ذات الأساس الإثنى)؛ والتي تتجلَّى في أماكن مختلفة مثل كوسوفو، ورواندا، وسري لانكا (انظر، على سبيل المثال، داردر Darder وتورس Tores، ٢٠٠٤).

نظريات السلوك الجنسي ونظرية الشذوذ

نَبّه علماء الاجتماع منذ زمن بعيد إلى أن المجتمعات لديها أنماط، وقواعد وضوابط قوية تحكم السلوك الجنسي. فالقوانين، والأديان، ونُظم الأسرة تسعى كلّها لضبط النشاط والسلوك الجنسي. وكان كتاب فوكو بعنوان "تاريخ السلوك الجنسي" (١٩٧٩) نقطة انطلاق مؤثرة داخل علم الاجتماع فيما يتصل بطرق التفكير في السلوك الجنسي. فنحن من خلال بنية اللغة تتكون لدينا طُرُق بعينها نُدرك بها معنى الجنس الذي ينظم في هذه الحالة باعتباره جزءاً من علاقات القوة في المجتمع، والتي منها – مثلاً – تلك العلاقات القائمة على أساس النوع الاجتماعي. يذهب فوكو إلى أنه أثناء القرن التاسع عشر كان الحديث الجنسي يتم بطرق سلبية

وتم إعادة تنظيم السلوكيات الجنسية على أساس التصنيفات الجديدة (المرتبطة بالطب النفسي) ونظمت داخل الأنماط الجديدة لعلاقات القوة. (من المفاهيم المهمة في كتابات فوكو مفهوم "الخطاب". والخطاب عبارة عن مجموعات من الأفكار واللغة يتداوله الناس عادة من خلال النظم التي تؤشر على حقيقة التفكير المسيطر في ذاك الوقت بالذات. ونحن قد نفكر في أنواع الحوار الطبي، والخطاب المتعلق بعلم الجريمة، وأنواع الخطاب العلمي، وكذلك أنواع الخطاب الجنسي وغيرها من أنواع الخطاب).

إنجازات المناقشات المهتمة بطبيعة السلوك الجنسي إلى مؤلفات المفكرين النسويين وإلى التراث النسوي منذ أيامه الأولى، إلا أنها لم تخل من النزاع والجدال. ويرى النسويون الراديكاليون أن السلوك الجنسي باعتباره واحداً من الطرق الرئيسية التي بها يسيطر الرجال على حياة النساء ويتحكمون فيها. فوق هذا المنظور الفكري، نجد الرجال يستغلون الجنس بأشكال مختلفة كآلية يمكن بواسطتها إخضاع جميع النساء للرجال. فالرجال هم الذين يغتصبون الإناث، ويسيئون معاملة النساء ويتحرشون بهن، ويمتلك الرجال صناعة الجنس. المتمثلة في الكتابات والصور الإباحية وفي تجارة الجنس، كما أنهم يشترون الكتابات والصور الإباحية ويستعملونها، ويدفعون الأجور للعاهرات. والرجال هم الذين يرتكبون الانتهاكات الجنسية وهم الذين يقتلون من أجل الجنس. ومن الأمور المحورية في هذا الفكر النسوي تصوير كيف أن حياة النساء محفوفة دائما بالعنف الجنسي، أو غارقة فيه كما يرى البعض. إذ توجد سلسلة خطيرة من الخبرات الجنسية التي هي جزء من حياة كل امرأة، كالصور الإباحية المنشورة في المجلات المعروضة في مَحال بيع الصحف، والمُلصقات أو "البوسترات" المُعلَّقة في أماكن العمل، والملاحقة الخفية، والمكالمات التليفونية البذيئة، والتحرش الجنسي في أماكن العمل، ومطالبتها بالحرص إذا كانت خارج المنزل بعد حلول الظلام، والتعرض للاغتصاب من قبل

الصديق (في المواعيد الغرامية)، والإكراه الجنسي. وقد شن النسويون الراديكاليون حَملاتٍ لمناهضة هذه الأشكال من الاضطهاد مُنذ سبعينيات القرن العشرين كما حدثت تغييرات منها – مثلا – التغييرات في مواد القانون الخاصة بالتحرش الجنسي، فضلاً عن إنشاء مراكز استقبال حالات الاغتصاب والوحدات التخصصية في أقسام الشرطة للحد من معدلات الإدانة المرتفعة بتهمة الاغتصاب.

ومع ذلك، فليس كل النسويين مُتفقين على هذه الآراء، كما أنهم يرون أن التأكيد على العنف الجنسي والكتابات والصور الإباحية يصرف قدراً كبيراً جداً من الاهتمام بعيداً عما في الحياة اليومية من قضايا واقعية كقضية وضع النساء في سوق العمل. ويذهب آخرون إلى أن التركيز على سيطرة الرجال على مجال الكتابات والصور الإباحية يتعامل مع النساء كضحايا سلبيات، وبذلك قصَّر في إدراك أن النساء قد يكُنَّ أكثر تبايناً واختلافاً وتَعرُضاً لتهييج الشهوة.

	تمرين ٤–٨
تحليل تقييم	قدم تقييما للفكرة التي تقول إن السلوك الجنسي إنما يُحدده الرجال على وجه العموم. فكِّر في الصور اليومية التي تظهر في وسائل الإعلام والتي يميل كثير من الناس لأخذها مأخذ التسليم، والتي تقدم صورةً لرؤيةٍ واتجاهٍ مُعيَّنين لطبيعة دور المرأة في المجتمع. وتحتوي صحف التابلويد (الشعبية)، والمجلات، والمجلات الرجالية كمجلة "جو" Go مثلا؛ تحتوي –بصفةٍ منتظمة – على صُور لنساء شبه عاريات. وكثيرا ما تحتوي أفلام الفيديو التي تَعرض موسيقى البوب الشبابية على صورٍ لمُطرباتٍ يرتدين ثياباً مثيرة جنسيا، وهُن يرقصن بطريقة جنسية سافرة. فهل توجد نظائر لذلك بالنسبة للرجال؟

السلوك الجنسي الطبيعي والجنسية المثلية

اعتُبر اشتهاء الإنسان للجنس الآخر هو المعيار المقبول في المجتمع، وذلك نظراً لطبيعة الأدوار التي يقوم بها النساء والرجال ضمن العلاقات القائمة على اشتهاء الجنس الآخر والتي تحكمها "الطبيعة" في الغالب الأعم، حيث يكون الرجال مسيطرين، ومبادرين وإيجابيين، وتكون النساء خاضعات، وسلبيات، وثانويات. وقد كانت الأصول الأولى للاتجاه السائد في علم الاجتماع تتبنى هذا التصور، وخاصة في بحوثه التقليدية عن الأسرة مثلاً. يناقش روبين Rubin (١٩٨٩) "التدرجات الهرمية للجنس"، والتي تقف على قمتها علاقات الزواج الأحادي المستقرة القائمة على اشتهاء كل جنسٍ للآخر والتي تهدف لإنجاب الأطفال. والخطاب الجنسي في هذا الكتاب واضح تماماً، ومع أنه قد أُلف في سنوات الثمانينيات من القرن العشرين فإنه سيكون من الطريف أن نعيد قراءته اليوم مجددا.

وعلى امتداد الجزء الأكبر من القرن العشرين كان السلوك الجنسي المثلي مما يُعاقب عليه القانون في معظم البلاد الأوروبية وفي الولايات المتحدة. ويرجع هذا الموقف إلى التأثر بالبحث العلمي في القرن التاسع عشر، والذي صنَّف الجنسية المثلية باعتبارها ذات طبيعة مَرَضية وأنه لا يمكن فهمها إلا في ضوء الاعتبارات الطبية التي من شأنها أن تسعى للوصول إلى "علاج"هذا المرض، ولهذا كان القَدرُ الأعظم من الجنسيين المثليين "أغراباً" منبوذين يعيشون مُتخفين، وكانوا يتعرضون للأذى والإهانة، ويتعرضون – من جانب المجتمع – للاضطهاد، ويُعاملون كمُختلفين ومُدانين. إلا أنه مع ظهور المزيد والمزيد من الدلائل التي تشير إلى تفشي الجنسية المثلية (تقارير كينزي Kinsey Reports؛ ١٩٤٨، ١٩٥٣؛ همفريز Humphrys، ١٩٧٥؛ بلامر Plummer، ١٩٨١) بدأت الحملات

التي حاولت الاعتراض على الخطاب السائد، والسعي لإحداث تغييرات في القوانين والممارسات التمييزية، والسعي كذلك للاعتراف "بحقوق الشواذ جنسياً". وقامت إحدى حركات الشواذ في سنوات السبعينيات من القرن العشرين ببدء عملية تغيير الصور الذهنية والتعصب المناهض لمجتمع الشواذ، ونتج عنها حصولهم على الحقوق المتساوية في القانون، وانتهى الأمر إلى إقرار "زواج الشواذ" في القانون المدني بالمملكة المتحدة.

وفي نطاق العلوم الاجتماعية، ومع زيادة تقبُّل المجتمع للجنسية المثلية، حدث هذا النمو المترابط في دراسة الحياة الجنسية للوطيين والسحاقيات. وكان بلامر واحداً من أوائل الباحثين في هذا الميدان بكتابيه اللذان مهدا الطريق من بعده، وهما كتاب "الوصمة الجنسية" (١٩٧٥) وكتاب "تكوين الجنسي المثلي الحديث" (١٩٨١). وفي وقتٍ أحدث قدم قصص حياةٍ وتقارير وصفية لخبرات بعض الأفراد الشواذ في كتابه "الظهور والعلانية" (بلامر، ١٩٩٢، ١٩٩٥). وفي ثمانينيات القرن العشرين أصبحت هذه القضية معروفة – بصورة أعمَّ – باسم "نظرية الشذوذ"، إلا أنه من المحتمل أنها ازدادت رسوخاً في العمل الذي قدمه سيدجويك Sedgewick (١٩٩٠). ورغم تزايد القبول العام للجنسية المثلية في المجتمع، فإنّ نظرية الشذوذ تذهب إلى أن قدراً كبيراً من النظرية والممارسة السوسيولوجية مازال ينحاز لجانب السلوك الجنسي الطبيعي ويتعصب ضد الجنسية المثلية. كما تذهب هذه النظرية إلى أن الموضوعات والمجالات السوسيولوجية الشائعة كالأسرة، والتربية، والتدرج الطبقي للمجتمع لاتزال مشدودة في اتجاه السلوك الجنسي التقليدي. وأصبح المفهوم المتعلق بالطرق التي بها نتصور النوع الاجتماعي في أذهاننا أحد الاهتمامات الأساسية في نظرية الشذوذ. كيف نفهم طبيعة النوع الاجتماعي المزدوج والنزعة الجنسية المزدوجة؟ هل من الممكن أن يكون النوعان الاجتماعيان الذكر والأنثى واقعين على طرفي مُتصلٍ يحتوي على

سلسلة وتشكيلة متنوعة من السلوكيات الجنسية التي تتدرج بين هذين الطرفين؟ هل بوسع الأفراد تغيير هوياتهم الجنسية وإعادة تعريفها؟ هل يحتمل أننا قد نحمل في داخلنا ميولاً جنسية متعددة في نفس الوقت؟ تلك هي بعض الأسئلة المهمة التي طرحتها نظرية الشذوذ والتي يتواصل تحولُها في وقتنا هذا إلى جزء من التيار السائد فى علم الاجتماع. كما أنه يجري تطوير نوعٍ من "إثنوجرافيا الشذوذ" التي بدأت مع كتاب بلامر (١٩٩٥) ولا تزال مستمرة في أعمال الآخرين، (انظر لامبفسكى Lambevski، ١٩٩٩). ويقاوم الكثيرون من مفكري نظرية الشذوذ الحصر الذي تتضمنه هذه التسمية، ويسعون إلى توسيع مجال هذه النظرية لتعلو على كل الهويات الجنسية. مثال ذلك أن بيونتك Piontik (٢٠٠٦) ذهب إلى أن نظرية الشذوذ لم تكن مهتمة بالجنسية المثلية **في حد ذاتها**، ولكنها كانت اتجاهاً نقدياً لأي اعتقاد تقليدي، وهو الأمر الذي أتاح للباحثين انطلاقا منها أن يتشككوا في الاتجاهات والسلوكيات المُسلَّم بها في المجتمع.

حدَّد ستاين Stein وبلامر (١٩٩٤) السمات المميزة لنظرية الشذوذ باعتبارها تتضمن استعمال القوة الجنسية في كثير من مجالات الحياة الاجتماعية (بما فيها تلك المجالات التي لم تجر العادة على النظر إليها باعتبار أنها تحتوي على السلوك الجنسي) وذلك بغرض الفصل التام لنوع من الحياة الجنسية المطابقة للمعايير والقائمة على السلوك الجنسي الطبيعي (اشتهاء الجنس الآخر) عن الجنسية المثلية المنحرفة. وهذا الضبط الدقيق للحدود الفاصلة لما هو مقبول يمكن أن يحدث في الحفلات الموسيقية (موريس Morris، ٢٠٠٣) كما يشيع في الثقافة الجماهيرية (سوليفان Sullivan، ٢٠٠٣). يضاف إلى ذلك أن نظرية الشذوذ ترفض الفكرة التي مفادُها أن الجنسية المثلية حالة من حالات الوجود التي خُلق الإنسان عليها وتتصف بالثبات والدوام، وإنما هي بالأحرى عملية من عمليات الفعل أو الممارسة. وبذلك تكون الحدود الفاصلة بين الشاذ جنسيا والسَّوي جنسيا قابلة للنفاذ

والاختراق وليست صلبة، كما أن الفرد المثلي يكون أَميل لفكْرة التنقُل منه للثبات والاستمرار في ممارسة الفعل التقليدي. وهكذا تختلف نظرية الشذوذ عن دراسات اللوطيين والشواذ، وهي الدراسات التي توافق على التعريف الثنائي للناس إلى شخص طبيعي وشخص شاذ. وعلى النقيض من ذلك تسعى نظرية الشذوذ إلى استكشاف مَدى كون هذين السلوكين الجنسيين كليهما خاضعين لعلميات التشكيل والضبط بصفة مستمرة (جيفني Giffney، ٢٠٠٤).

وكما حدث بالنسبة لحركة الردة بالنسبة للنزعة النسوية، واجهت نظرية الشذوذ قدرا من المقاومة والانتقاد لا يُستهان بهما. فيذهب أنصار النزعة التقليدية إلى أن النوع الاجتماعي لا يزال هو أساس الهوية وأساس المجتمع وأساس النظام الأخلاقي. وكانت العودة إلى القيم الجنسية المتوارثة أحد الموضوعات الأساسية التي يتكرر ظهورها باستمرار في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة بدعم من الدين المسيحي والدين الإسلامي اللذين يرفضان ممارسة الجنس قبل الزواج أو خارج الزواج، وتدريس الجنس في المدارس والجنسية المثلية.

تقييم نظرية الشذوذ

نقاط القوة

١- تقدم هذه النظرية بُعداً جديداً لعلم الاجتماع يجعل هذا الموضوع أكثر شمولاً، كما تهتم بحياة الأفراد الذين تعرضوا للتهميش قبل ذلك في المجتمع وفي علم الاجتماع على السواء.

٢- أتاحت هذه النظرية إمكانية دمج دراسة وفهم مجتمع المثليين في المجالات الراهنة لعلم الاجتماع كمجال الثقافة والهوية، ومجال الأسرة، والزواج ووحدات المعيشة، وعلم اجتماع العمل وما إلى ذلك.

٣- لهذه النظرية مجال اهتمام دائم الاتساع، وذلك مع ظهور مجالاتٍ جديدة للاهتمام بصفة مستمرة. (انظر دورية "دراسات السلوك الجنسي" Sexualities على سبيل المثال).

أوجه القصور

- إن احتمال انضواء هذه النظرية ضمن التيار السائد وحصولها على هذه المكانة باعتبارها أحد مجالات الدراسة، لهو احتمال محدود بسبب ضيق نطاق اهتمامها الذي يتركز على الجنسية المثلية في مقابل النزعة الجنسية الطبيعية.
- وتوجد أوجُه قصورٍ في نطاق هذا المجال مما لا يفيد – إلا قليلاً – فيَ منع ما تتعرض له الأقليات الجنسية من اضطهاد وإيذاء مستمرين.
- يتعرض المشاركون في حملات الدعوة إلى الجنسية المثلية – على الصعيدين القومي والعالمي – وكذلك أصحاب نظرية الشذوذ للنقد من زاوية المؤهلات الأكاديمية.

نظرية العجز (البدني)

يُقدم موقع الموسوعة الجماهيرية "ويكيبديا" تعريفاً قائماً على "الفهم الشائع" للعجز البدني باعتبار أنه "نقص في القدرة بالنسبة لمقياسٍ أو معيار شخصيٍّ أو جمعي" (www.wikipedia.org./wiki/Disability) موضِّحاً بذلك كيف أن التصورات الشائعة في الحياة اليومية عن هذا المفهوم تصورات معيبة، وأنها لا تشتمل بالضرورة – وبصورة دقيقة– على المعنى الكامل للعجز، كما أن لهذا التعريف معان ضمنية سلبية تتمثل في عبارة "نقص أو افتقاد للقدرة".

يُقدم "التصنيف الدولي لأداء العمل، والعجز والصحة" (ICF)(*) الذي وضعته مُنظمة الصحة العالمية قائمة بتسعة من مجالات أداء العمل التي من الممكن أن تتأثر بالعجز (البدني)، وهي: مجالات التعلُّم وتطبيق المعرفة، والمهام والمهارات العامة، والاتصال، والتنقل، والعناية الشخصية، والحياة المنزلية، والعلاقات الشخصية والحياة الاجتماعية. وترتكز رؤية العجز البدني التي ترى أنه صفة سلبية على مثل هذه التعريفات والتصنيفات. كما أن هذه الرؤية تغفل عن أخذ رؤى، وآراء وأصوات العاجزين في الاعتبار. وقد أوجز رئيس الوزراء السويدي السابق أولوف بالم Olof Palme الاتجاه العام الذي يشيع في كثيرٍ من المجتمعات إزاء العجز باعتباره تفكيراً على مستوى ما تحت الشعور في العاجزين وغير العاجزين بوصفهما صنفين منفصلين، وذلك في حين أنه ينبغي النظر إلى الأفراد العاجزين باعتبار أنهم يمثلون وضعاً "مختلفاً" من أوضاع الحياة يمكن التكيف معه من خلال استراتيجيات التفكير والأفعال. ويُنظرُ في السويد إلى فقد البصر على أنه ظرف ثانوي يمكن التغلب عليه إلى حد كبير من خلال تزويد فاقدي البصر بالمُعدات والتجهيزات الحساسة للَّمس. كما ظهر علم اجتماع العجز، والذي أسهم فيه أفراد من العاجزين فعلا ممن لهم خبرات بالمعوقات والتمييز والظلم الذي يواجهه الأفراد العاجزون في المجتمع.

وقد تعرضت المنظورات الفكرية أو النماذج السابقة في رؤية العجز للرفض - بصورة عامة - من قِبل نظرية العجز، ومنها مثلاً نموذج المأساة/ الإحسان الذي صوّر الأفراد العاجزين كضحايا للظروف القاسية وكمستحقين للشفقة. كما رُفض النموذج الطبي الذي طرح الرؤية التي مفادها أن العجز ناجم عن الإصابة أو المرض أو الظروف الصحية وأنه - لذلك - مشكلة تَخُص الشخص العاجز

(*) ICF= The International Classification of Functioning, Disability and Health.

وحده.ووفقاً لهذه الرؤية، يحتاج الشخص العاجز إلى التدخل الطبي والرعاية على يد المتخصصين حتى يستطيع أن يسيِّر أمور حياته. وتنصب بؤرة اهتمام "المعالجة"-أساساً- على جعل حياة المرضى "حياة طبيعية/ أو عادية" إلى أن يُقاربوا الشفاء أو يقهروا هذا العجز، ومن ثم يمكنهم المشاركة في المجتمع. ويستعمل كلا هذين المنظورين إلى العجز اصطلاحات ازدرائية في تناول المصابين بشكل من أشكال الإعاقة، كما يعامل المصابين بأشكال العجز كأغراب. ومن ثمَّ فإن هذين المنظورين مرفوضان عند علماء الاجتماع.

ينظر النموذج الاجتماعي إلى "العجز" كمشكلة ذات نشأة اجتماعية المجتمع هو الذي تسبب في إيجادها (شكسبير Shakespeare، ٢٠٠٦). فالنظر إلى العجز كصفةٍ أو نعتٍ للفرد مرفوض بصورة عامة، وقد استبدلت به الفكرة التي تقول إن الذي خلق هذه المشكلة هو البيئة الاجتماعية والتصورات الثقافية. ويعتبر الفعل الاجتماعي الذي يؤدي إلى الاحتواء التام لمن لديهم حالات عجزٍ في المجتمع؛ يعتبر هو البُعد السياسيّ لهذا النموذج. ومن ثمَّ، فإنه توجد قضيةٌ من قضايا حقوق الإنسان ذات صلة بتعاملنا مع العاجزين وبسلوكنا تجاههم.ويقود توم شيكسبير مشروعاً لتزويد الوالدين اللذين ينتظران طفلا بالمعلومات المستخلصة من الفحص التليفزيونى للأجنة قبل الولادة للتعرف على الحالات المرضية التي منها مثلاً متلازمة داون (أي مرض العتة المنغولي)، واستسقاء النخاع الشوكي، حتى يستطيعوا اتخاذ قرارات قائمة على مجموعة متنوعة من المصادر التي من ضمنها المعلومات المُستقاة من الأفراد العاجزين أنفسهم.

تقوم نظرية العجز بعَملِها باستعمال النموذج الاجتماعي للعجز، كما أن لها جذورها الماثلة في الحملات المناهضة للتمييز التي نظمها العاجزون أنفسهم. ويتمثل جزءٌ من نظرية العجز في الاعتراض على إيديولوجيا وممارسات "مجتمع

ذوي الأجسام السليمة" وفق طُرقٍ متعددة. وتعتبر إعادة التفكير في تصميم وإنشاء المباني واحدة من المجالات التي تُركز عليها نظرية العجز، وفي وقتنا هذا ومن خلال الضغط الذي تبذله جماعات العاجزين لابُد أن تكفُلَ التطبيقات الخاصة بتصميم الأبنية سهولة الدخول إليها لمن يستعملون الكراسي المتحركة، ولابد أن تحتوي على تجهيزات أو تسهيلات للمصابين بأشكال أخرى من العجز كضعف البصر وضعف السمع، ومن هذه التسهيلات مثلاً وضع السَمَّاعات في دور السينما. كما تَحسَّنَ الوصول إلى الريف عن طريق توفير الطرق والبوابات الملائمة للكراسي المتحركة لكي تشمل ممَرات المُشاة العمومية. ومن المجالات الأخرى لهذه النظرية الاعتراض على لغة "القادرين" وصورهم الذهنية، واتجاهاتهم، وأنماطهم الفكرية الثابتة، أي استعمال مصطلحات غير تمييزية كاستخدام مصطلح "مستخدم الكُرسي المتحرك" بدلاً من "المعتمد على الكرسي المتحرك" مثلاً. كما اعترضت هذه النظرية على الاستعمال اللاشعوري للكلمات الازدرائية مثل كلمة "مُعوق" (أو معاق) وكلمة "مُتخلِّف" وكلمة "أعرج" أو "مشلول" التي تدلُّ على الأفكار النمطية الثابتة.

وتنال الجمعيات الخيرية الخاصة بالعاجزين نصيبها – كذلك – من الانتقاد إذ إنه إمَّا أن يكون جامعوا الأموال لإنشائها أو مديروها أو موظفوها التنفيذيون من غير العاجزين، وهو الوضع الذي لا يُمثل الجماعة التي أُنشئت الجمعية الخيرية من أجلهم، و/أو تعمل هذه الجمعيات على استدامة ثقافة الشفقة/ السلبية/المأسوية التي تُشَكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع. وكان لبعض هذه الجمعيات أسماء لها طابع تمييزي سافر: مثال ذلك أن الجمعية المُمثلة للمصابين بالشلل المخي SCOPE كانت تُسَمَّى حتى سنة ١٩٩٤:"جمعية المصابين بالشلل التشنجي". وقد كان التعليم مجالاً آخر يعتمد – بصورةٍ مختلف عليها– على النموذج الطبي للعجز عندما "يُشخص"الأطفال باعتبارهم مصابين بصعوبات في التعلم: كالتوحُّد/أو

الفصام الطفلي وخلل القراءة، ومرض اضطراب فرط الحركة مع نقص الانتباه ADHD(*) وغير ذلك من أشكال العجز التي قد تضعف تطورهم التعليمي. والمُراد هنا -للمرة الثانية- أن التدخل الذي يصدر من الممارسين أشباه الطبيين كعلماء النفس التربويين سوف يساعد المُدرسين على "التعامل الناجح"مع هذه الحالات في فصول الدراسة.

وتلتزم نظرية العجز التزاماً قويا بشن الحملات السياسية الخاصة بالقضايا المتعلقة بالحقوق المتساوية في التوظف، والإسكان، والتعليم، وكذلك الحقوق المتساوية في التمكن من الانتفاع بالبيئة، ومرافق وقت الفراغ والترفيه، ووسائل النقل، والمباني، والتمثيل (انظر تمرين ٤-٩)

	تمرين ٤-٩
تطبيق تحليل تقييم	راجع بعض مواقع الإنترنت الخاصة بالمساعدات الخيرية المقدمة للعاجزين، وإلى المادة الدعائية، والوسائل المستخدمة لجمع المال، وصور العاجزين، وحملات التليفزيون، كحملة "أطفال محتاجون". قدم رأياً نقدياً لاتجاهات هذه الحملات: ما هو نموذج العجز الذى توجد منه أمثلة أكثر عدداً في المادة التي وَصلت إليها؟ (إن جمعية "أطفال محتاجون"هي جمعية خيرية بريطانية تجمع المال في برنامج تليفزيوني يُعرض مرة واحدة في السنة يضم كثيرا من الشخصيات الشهيرة على المستوى القومي. يرأس الجمعية تيري ووجان Terry Wogan، وتهدف لعلاج طائفة من قضايا الأطفال. ويتم في هذا البرنامج حث الجمهور على إيداع الأموال أثناء مشاهدتهم للأمسيات التي يقوم فيها المشاهير بالغناء، والرقص وأداء اسكتشات بلهاء. وعادة ما يجمع هذا البرنامج ملايين كثيرة من الجنيهات يتم توزيعها على الجمعيات الخيرية في سائر أنحاء المملكة المتحدة.

(*) ADHD = Attention Deficit Hyperactivity Disorder.

	تمرين ٤-١٠
تفسير تطبيق تحليل تقييم	في ضوء المعرفة التي حصّلتها من قراءتك لهذا الفصل، أكمل نسخة من الجدول التالي بتقديم موجز للإسهام الذي قدمته النظريات المعاصرة لفهم الحياة الاجتماعية.

موجز النظريات المعاصرة

	اليسار المعاصر	اليمين الجديد	النزعة الواقعية	ما بعد الحداثة	ما بعد النسوية	نظرية الشذوذ	نظرية العجز
• الفكرة الرئيسية							
• الكتاب الأساسيون							
• الدراسات الأساسية المطبقة							
أمثلة لها							
• نقاط القوة							
• أوجُه القصور							

محور الامتحان : كتابة مقال

يتطلب العمل في حل هذا الاختبار تكوين فرق، كل فريق من اثنين من الطلاب. يقوم كل فريق بوضع "خطة" للإجابة على الأسئلة التالية.استعمل هذه الإجابات في اختيار سؤال واحد و"الإجابة" عليه وحده بالتفصيل. أجب على سؤال آخر مختلف من بين الأسئلة التي اختارها زميلك، وبمجرد تصحيح هذه الإجابات بمعرفة الأستاذ، يمكنك أن تتبادل الإجابات مع زملائك وتتعلم من كل عمل قدمه غيرك.

١- (إنني أعرف "ما بعد الحداثة" باعتبارها الشك في السرديات الكبرى) (ليوتار، ١٩٨٤).

(أ) قدم وصفاً تفصيلياً للمُسلَّمات الأساسية لما بعد الحداثة والركائز التي تقوم عليها هذه المُسلمات.

(ب) بالرجوع إلى المنظورات الفكرية المعاصرة الأخرى، حاول تقديم تقييم نقدي للإسهام الذي قدمته ما بعد الحداثة لفهم الحياة الاجتماعية في أواخر القرن العشرين.

المنظورات الفكرية السوسيولوجية

٢- قارن وبين وجوه التضاد بين "اليسار المعاصر" و "اليمين الجديد".

٣- قيّم الرؤية التي تذهب إلى أن صعود المنظورات السوسيولوجية المعاصرة تومئ إلى هبوط النظريات الكبرى في علم الاجتماع.

٤- لم يَعد مناسباً الحديث عن علم الاجتماع، إنما عن علــوم الاجتمــاع. قــيِّم الادعاء بأن التنوع المعاصر أدّى إلى تدمير علم الاجتماع التقليدي.

مفاهيم مهمة
• الواقعية • اليسار المعاصر • اليمين الجديد • ما بعد الحداثة • نظرية الشذوذ • نظرية الإعاقة • ما بعد النسوية.

التفكير النقدي
• هل توافق على أن "الأصوات الجديدة" في علم الاجتماع – مثل نظرية الشذوذ ونظرية الإعاقة – تجعل التوجهات التقليدية زائدة عن الحاجة؟ • هل قامت المرحلة "ما بعد النسوية" بالمعالجة الملائمة للقضايا التي تَهُمُّ النساء في القرن الواحد والعشرين؟ • إلى أي مدى جَعَلت الأحداث العالمية الحديثة المهمة كالحرب فــي العــراق، والركود الاقتصادي العالمي سنة ٢٠٠٨، جَعَلت ما بعــد الحداثــة منظــوراً مُفلساً.

الفصل الخامس

القضايا الخلافية المعاصرة

بنهاية هذا الفصل ينبغي أن تكون قادراً على:

- معرفة القضايا الخلافية الفلسفية الرئيسية المهمة في علم الاجتماع المعاصر:
  ١- ما بعد البنيوية في مواجهة النزعة المضادة للبنيوية.
  ٢- الصياغة البنائية أو الفعل في مواجهة البناء.
  ٣- الحداثة في مواجهة ما بَعد الحداثة.
  ٤- النظريات الكلاسيكية والنظريات المعاصرة للعولمة.
  ٥- علم اجتماع المجتمع في مواجهة علم اجتماع الذات.
  ٦- مجتمع المخاطر.
- تمييز ما أسهم به الكُتاب الأساسيون في كل قضية خلافية على حدة.
- إيجاز المُسلمات الأساسية التي ترتكز عليها كل قضية خلافية على حدة.
- تقييم مدى صدق كل قضية خلافية في ضوء النقد الموجَّه إليها.
- التأمل في دلالات هذه القضايا الخلافية بالنسبة لمستقبل علم الاجتماع.

مقدمة

كما أن النظرية الاجتماعية قد تطورت، كذلك تطور النقاش السوسيولوجي واتسع. ورغم أن القضايا الخلافية التي أوجزنا القول فيها في الفصل الثالث من هذا الكتاب لا تزال ذاتَ أهمية محورية بالنسبة لهذا الموضوع، فإنه قد ظهرت قضايا خلافية جديدة. وقد اتخذت كثير من هذه القضايا الآراء التقليدية منطلقا لها، مثال ذلك أن ما بعد البنيوية لها جذورها الممتدة في البنيوية، كما انبثقت نظرية الصياغة البنائية من الخلاف بين نظريتي الفاعل والبناء، وهكذا. واستُلهمت نظريات أخرى من التطورات الجديدة في النظرية الاجتماعية، كما حدث في قضية الخلاف بين الحداثة وما بعد الحداثة والقضايا المتعلقة بالعولمة. ويهدف هذا الفصل إلى استكشاف القضايا المعاصرة بطريقة واضحة ودقيقة تُمكنك من بلورة فهم سديد للمناقشات الراهنة ومن إمعان النظر في دلالاتها بالنسبة لمستقبل علم الاجتماع.

ما بعد البنيوية

تستمد ما بعد البنيوية أصولها من الكتابات التي قدمها البنيويون في مجال طبيعة اللغة (انظر الفصل الثالث)، وتسعى للتجاوب مع النقد الذي وجّهه ما بعد الحداثيين إلى المعرفة المُطلقة. وكما عرضنا في الفصل الثالث، فإن البنيوية تقدم تحليلاً للحياة الاجتماعية يقوم على طبيعة اللغة بالأساس. حيث ذهب ليفي شتراوس (١٩٦٧) أبرز دعاة البنيوية إلى أن اللغة تنشأ من المجتمع، وإلى أنها عامل مؤثر مُقيِّد وليست عاملاً محررا. وقد رفض شتراوس دعاوي المفكرين الآخذين بنظرية

الفعل الذين ذهبوا إلى أن ما يميز الكائنات الإنسانية باعتبارها مختلفة عن الحيوانات هو قدرتها على استعمال اللغة. وبدلاً من ذلك ذهب شتراوس إلى أن البشر لا يتحكمون في اللغة، بل هي التي تتحكم فيهم. وقد سعى ما بعد البنيويون إلى البناء على أساس هذا الرأي، وخاصةً فوكو.(انظر مؤلفه الصادر ١٩٦٥).

وتَمثّل العامل المؤثر الثاني في تطور ما بعد البنيوية في فلسفة ما بعد الحداثة. ومن القضايا الخاصة ذات الصلة بموضوعنا هذا، رفضُ ما بعد الحداثة لدعوى الحداثة بأن المعرفة الموضوعية موجودة وأن بالإمكان الكشف عنها من خلال الدراسة المنهجية الدقيقة. وبدلاً من ذلك يذهب المفكرون ما بعد الحداثيون إلى أن المعرفة لا تعدو أن تكون مسألة تفسير أو تأويل، أعني بذلك، أنها مجموعة من السرديات أو الصُور المختلفة للحقيقة الاجتماعية. فالمعرفة ليست واقعاً اجتماعيا ولكنها "خيال"اجتماعي. وقد تمسك ما بعد الحداثيون بهذه الفكرة وحللوا المجتمع في ضوء كيفية قيام السرديات المتنافسة بتحديد العالم الاجتماعي و"خبرة" الأفراد بالمعرفة.

من هنا تتضمن وجهة النظر ما بعد البنيوية دعويين رئيسيتين: (١) الأولى: أن اللغة تُشكل الفكر وتصوغُ الخبرات الحياتية، (٢) والثانية أن المعرفة لا تزيد عن أن تكون عدداً بالغ الضخامة من الرؤى والصور المختلفة للواقع. وتُشكل القوة الكامنة في اللغة والطبيعة النسبية للمعرفة نقطة البداية في تحليل فوكو للمجتمع.

وكما لاحظ جونز Jones (١٩٩٣)، فإن كتابات فوكو تمثل ردَّ فعلٍ مباشر لدعاوى ليفي شتراوس المتعلقة بطبيعة اللغة.ومع ذلك يسعى فوكو لتطوير أفكار ليفي شتراوس في اتجاه له دلالته: ويقول في ذلك:

"رغم موافقته على الحجية اللغوية للقصص الحياتية للبشر، فإن فوكو يتجاوز أنواع الأفكار التي قدمها ليفي شتراوس باستعمال طريقتين. أولاهما، أنه

يرفض فكرة وجود سمات عامة ترتكز عليها كُل اللغات. وثانيتهما، أنه معني بصورة مبدئية بممارسة القوة التي يتضمنُها إقرار الناس لِلُغة واستعمالهم لها".

إن رفض فوكو لوجهة نظر ليفي شتراوس القائلة بأن اللغة ذات طبيعة عامة شاملة إنما يعكس التأثير ما بعد الحداثي في عمله. إذ يتبنى فوكو نظرة رحبة إلى اللغة، فلا يستعمل هذا اللفظ للإشارة إلى التحدُث بلهجةٍ ما أو بلُغةٍ أم معينة (كالإنجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية، أو اليابانية، أو ما إلى ذلك)، بل للإشارة إلى طُرُقٍ مُحدَّدة في التفكير في هذا العالم وفي التحدُث عنه (نفس المرجع). ومن المُحال بالنسبة لمثل تلك الظاهرة أن تكون لها قواعد ترتكز عليها، وذلك بسبب وجود عددٍ كبيرٍ من طرق التفكير في هذا العالم وطرق التحدُث عنه. لذلك يتبنَّى فوكو مصطلح "الخطاب" للإشارة إلى هذه الظاهرة. فهو يرى أن الحوار له دلالته لأنه يُجسد شكلاً من أشكال المعرفة. فكل "خطاب"يُمثل صورة مختلفة للواقع ويُزودنا بطريقة من طرق معرفة الواقع.

وحقيقة الأمر أن فوكو يطرح الآراء التالية: (١) إننا لا نستطيع إلا أن نتكلم باستعمال كلماتٍ موجودة بالفعل، و (٢) إننا لا نستطيع إلا أن نفكر وفقاً للأفكار الموجودة فعلاً، و (٣) إننا لا نستطيع إلا أن نتواصل مع الأخرين إلا من خلال المفاهيم الشائعة والمعاني المُشتركة الموجودة فعلاً. وبذلك يكون واقعنا مُركبا من الآليات الموجودة مسبقا والتي تهدف لمساعدتنا على الاتصال به. وبالاتصال بعالمنا من خلال الخطاب، نقوم بتحصيل المعرفة وتطبيقها. ونظراً لوجود عدد كبير من طرق التفكير في الجوانب المختلفة للعالم والتحدُث عنها، ونظراً لأن هذه "الخطابات" تزودنا بالمعرفة، فلا يمكن وجود المعرفة المُطلقة لأن المعرفة متوقفة على الخطاب.

يستعمل فوكو مفهوم الخطاب في تحليله للمجتمع. ومما سبق، يبدو أن عالم الخطاب إنما هو أداة تحرير. إذ يوجد عددٌ لا نهائيٌ من أنواع الخطاب، وبفضل ذلك يكون الأفراد أحراراً في تطوير معرفتهم كما يشاؤون، وتكون المعرفة كلها متساوية من حيث مدى الصحة لأنه لا توجد حقيقة مُطلقة. ومع ذلك، وبعيداً عن كون هذا الحوار أداة لتحرير الإنسان، يذهب فوكو إلى أن الخطاب يُمكن أن يكون أيضا أداة قهر، ومن هنا انطلق من هذه الفكرة ليبلور تحليله لممارسة القوة في المجتمع.

يذهب فوكو إلى أن القوة تنجُم من الطرق التي بها يتم إقرار اللغة واستعمالها. فبمجرد إقرارها، تكون اللغة ذات قوة مطلقة وشاملة وتجرد مستعملها من أية قوة إذ يصبح معتمدا عليها في الاتصال بالواقع أو الارتباط به ويصبح كل من الإبداع، والخيال، ونهج الفكر البشري؛ تصبح كلها مقيدةً بالخطاب المستخدم.

حيث إننا مُجبرون على المعرفة بواسطة أنواع الخطاب، فإنها هي التي تمارس القوة علينا. فتحديد مَن نكون: أي تحديد ما نتصوره، وما نعرفه وما نتكلم عنه؛ هي أمور يتم إنتاجها وبلورتها من خلال أنواع الخطاب التي ندخل فيها والخطابات التي نستعملها. ومن ثم، فإن "الذات"- أي الفاعل المبدع، صاحب الاختيار الحر والمسئول وحده عن التأويل – والموجودة في مركز نظرية الفعل (وفي قلب بعض الفلسفات كالوجودية مثلا) لا يصبح لها وجود. فذاتية الأفراد وهويتهم – أي ما يفكرون فيه، وما يعرفونه وما يتكلمون عنه – إنما تخلقها أنواع الخطاب التي يدخلون فيها. (جونز، ١٩٩٣).

وعند بلورته لتحليل القوة في المجتمع، رأى فوكو أن دراسة التاريخ أمر مهم. ومن خلال التحليل التاريخي شعر أن من الممكن حل مسألة كيف ولماذا يؤول الأمر بمختلف أنواع الخطاب إلى الإقرار بها حين يحدث لها ذلك (نفس المرجع). وكان يرى أن المهم استكشاف أثر مختلف أنواع الخطاب على المعرفة وعلى الفكر.

ورغم أن أعمال فوكو تتسم بالتنوع، فإن الموضوع الأساسي الذي يـــربط بين معظم تحليلاته يرتبط برغبته في توثيق الطريقة التي بهـــا ينبثـــق الخطـــاب ويظهر إلى الوجود وفقا لتطور التنظيم الاجتماعي والأبنية الاجتماعية. فقد تغلغل الخطاب في البناء الاجتماعي وقام بتعريف الأساس المعرفي للمجتمع في أزمنـــة معينة. مثال ذلك أن فوكو، وفي تحليله التاريخي لتطور علم الطب النفـــسي فـــي كتابه بعنوان "الجنون والحضارة" (١٩٦٥) أخذ يتعقب خطوات تطـــور خطـــاب الصحة العقلية السائد في المجتمع. فعمل على تسليط الضوء على مسألة: كيـــف كان للتغيرات في التفكير في طبيعة الحالة العقلية دلالاتهـــا الـــضمنية بالنـــسبة للطريقة التي كان ينظر بها إلى المرضى العقليين في المجتمع، وبالنسبة لطبيعـــة العلاج الذي يتلقونه. ويلاحظ فوكو أن "المجانين"أثناء عصر النهضة (الرينسانس) كان لهم نفس حقوق العقلاء.ومع ذلك، فقد حدث بعد هذا العصر، وأثناء القـــرنين السابع عشر والثامن عشر، أن آل الأمر بالعقل (أي الرشـــد) إلـــى أن أخـــضع الجنون (أي اللارشد) وأصبحت مسئولية العقلاء أن "يُساعدوا" المجانين. وبـــذلك يرى فوكو أن علم النفس إنما هو بمثابـــة ســـلاح أخلاقـــي مُوجّـــه لإضـــطهاد المُعرّضين للمرض العقلي وضعاف العقول.

وتتجلى أفكارٌ مشابهة لذلك في الأعمال الأخرى لفوكو، وهي الأعمال التـــي تُركز على الطرق التي يعمل بها الخطاب على توفير المعرفة التي يمكن استعمالها للسيطرة على الأفراد والجماعات الاجتماعية. وقد تباعد عمله الأخير عن البنيويـــة والخطاب ليُركز على الرابطة بين القوة والمعرفة. ويقوم تحليله على تأكيد أن القوة والمعرفة تقتضي إحداهما الأخرى. ويُقدم كتابـــه بعنـــوان "الانـــضباط والعقـــاب" (١٩٧٩) تحليلا للحياة في السجون، يمثل نموذجاً لهذا التوجه. وهو يطرح في هذا

الكتاب تحليلاً مُعقدا لما يُطلق عليه لفظ "تكنولوجيا القـوة الانـضباطية" -أو قـوة الضبط- والتي بها يتصور الناس أن نـسقاً مـن القـوى المحـدودة النطـاق (أو الصغرى) ينتشر خلال الحياة الاجتماعية ويتغلغل فيها ويساهم في نمـو مجتمـع انضباطي معين: "وفي نهاية الأمر تكون معظم الأنظمة الكبرى قد تأثرت".ويتساءل فوكو بأسلوب بلاغي فيقول: "هل يدهـشنا أن تتـشابه الـسجون مـع المـصانع، والمدارس والثكنات، والمستشفيات، والتي تتشابه كلهـا مـع الـسجون؟" (١٩٧٩، ص٢٢٦). وفي النهاية، يذهب فوكو إلى القول بظهور نظام للحجز (تقييد الحرية) ينتقل فيه الانضباط من النظام العقابي/ أو النظام القـضائي لينتـشر فـي الكيـان الاجتماعي بأكمله (١٩٧٩، ص٢٩٨).

هكذا تبدو الصورة التي يرسمها فوكو صورة كئيبة. وهو يذهب، كما يذهب البنيويون، إلى أن اللغة، وبعيداً عن كونها مصدراً للتعبير الإبداعي، تعد شكلاً مـن أشكال القهر. فطرق التفكير في جوانب الحياة وطرق التحدُث عنهـا (أي أنـواع الخطاب المختلفة) إنما تُنتجها هذه الحياة، وحيث إننا لا نستطيع أن نفكر أو نتحدث إلا بأمثالِ تلك الطرق فإننا نظل دائما أسرى الخطاب (جرب حـل تمـرين ٥-١ للوقوف على تطبيق لهذا المفهوم). ولأن الخطاب هو الذي يشكل المعرفة، الأمـر الذي تكون له دلالاته المهمة بالنسبة للطريقة التي يتحكم بها في المجتمع. وربمـا تكون الصورة الأشدُ كآبة في هذه الرؤية كلها، تلك التي قدمها في عمله الأخيـر، والتي يبدو فيها أنه يرفض الخطاب مُفضلاً عليه قضية العلاقة بين المعرفة القـوة. وهو هنا يقتفي أثر عملية ترشيد القوة عن طريق الوسـائل البيروقراطيـة لخلـق مجتمع أكثر كفايةً، واتزانا، وانضباطاً.

الموضوع (٨)

خصخصة التعليم

قامت حكومة حزب العمال في أواخر تسعينيات القرن العـشرين بإعـادة المدارس القائمة في تمويلها وإدارتها على المنح إلى السلطة المحلية لتكون تحت رقابتها. ومع ذلك، فإن أشكالاً مختلفة مما أسماه بول Ball(٢٠٠٠) خصخـصة التعليم قد ظهرت عندئذ إلى الوجود. ففي السنوات المبكرة من القـرن الواحـد والعشرين استطاعت المدارس أن تعلن عن مسابقات للحصول علـى "الوضـع التخصصي" في مجالات بعض الموضوعات الدراسية، كـالإدارة، وتكنولوجيـا المعلومات والاتصال ICT، وفنون الأداء، والفنون البصرية، والعلوم، وما إلـى ذلك.وبمجرد اعتماد هذه المدارس من الدولة، اسـتطاعت أن تجتـذب تمـويلاً إضافياً من الحكومة. كما حدثت هذه الزيادة في عدد المعاهد العلمية الخاصة في عدة مُدن، وذلك برعاية بعض الشركات الخاصـة كـشركة رج فـاردي Reg Vardy، وشرة سامورث برذرس Samworth Brothers، فضلا عـن بعـض المنظمات الدينية، والقطاع التطوعي والأفراد من المُحـسنين وفـاعلي الخيـر. ورغم أن الحكومة تزعم أن تلك المعاهد العلمية (الأكاديميات) تعمل بتمويل من الدولة، إذ تدعمها السلطة المحلية بالرّعاة الذين يقومون بتأسيس هذه المـدارس وإدارتها، فلا شك أنه أصبح يُنظر إلى هذه التطورات بوصفها زيادة في التنـوع والاختلاف الموجود في النظام التعليمي. ومع ذلك لم تعدم من يوجه إليها النقـد. وقد أقامت الحكومة تبريرها لهذه الكثرة في أنواع المدارس على أساس أنها تقدم سبلا متنوعة لتوفير الخدمات التعليمية والوفاء بمطالب أولياء أمور الطلبة فـي حرية اختيار نوع المدرسة. وتبدو هذه التدابير الجديدة في تناقض صـارخ مـع الوضع الذي كانت فيه معظم المدارس في السابق، حيث كانت ذات طابع شمولي يستوعب الطلاب من شتى المـستويات الذهنيـة المختلفـة، ويخـدم مختلـف التخصصات التعليمية.

	تمرين ٥-١
	سوف يتيح لك هذا التمرين تطبيق الأفكار التي أوضحناها في الحديث عن قضايا الخلاف بين البنيوية وما بعد البنيوية. اقرأ الموضوع A، وناقش وسط مجموعات صغيرة الأسئلة التالية:
تفسير **تطبيق**	١- ما الدليل الوارد في الموضوع A والذي يؤيد فكرة ظهور خطاب جديد في مجال التعليم في القرن الواحد والعشرين؟
تحليل **تقييم**	٢- ما طبيعة هذا الخطاب؟
تفسير **تحليل** **تقييم**	٣- ما طبيعة الدلالات التي ينطوي عليها؟
تطبيق **تحليل** **تقييم**	٤- من بين التغيرات الأخرى التي حدثت في مجال التعليم في القرن الواحد والعشرين إدخال المستوى المتميز A في التخصصات التطبيقية، وشهادة الثانوية المهنية، والدبلومات التخصصية، والمنهاج الدراسي للصفوف من الرابع عشر حتى التاسع عشر. وضح كيف يمكن أن يكون لهذه السياسات علاقة بقضية الخلاف بين البنيوية وما بعد البنيوية؟

في الوقت الذي وضعت فيه ما بعد البنيوية بصمتها على علم الاجتماع، فإنه لم يُسمح لها أن تمضي في طريقها بدون اعتراض عليها. فقد رفض مناهضو البنيوية دعواها بأن البشر مكبلون بقيود الخطاب والمعرفة. من ذلك محاولة دوجلاس Douglas وجونسون Johnson (١٩٧٧) إلقاء الضوء على اعتراضات الوجوديين على البنيوية. ويُعرف دوجلاس وجونسون علم الاجتماع الوجودي بأنه دراسة الخبرة الإنسانية بكل أشكالها في هذه الحياة. ويرتكز النقد الوجودي المُوجّه لمفكري ما بعد البنيوية على أساس أنهم على الرغم من تأكيدهم على أن البشر مقيدون في بعض الأمور، فإنهم يؤكدون أن القيد يمكن أن يتعايش مع الحرية: فيقولان: "الإنسان متنوع، وقابل للتغير، وغير مؤكد، ونزّاع للخلاف، ولا يملك إلا حرية جزئية فقط في اختيار ما سوف يفعله وما سوف يصير إليه، وذلك لأنه يتوجب أن يكون كذلك في عالمٍ متنوعٍ، وقابلٍ للتغير، وغير مؤكد، ونزّاع للخلاف"(دوجلاس وجونسون، ١٩٧٧، ص١٤). وبقبول هذه الرؤية، يرفض علم الاجتماع الوجودي أي رؤية أُحادية (هي هنا الرؤية البنيوية) للحياة الإنسانية.

تقييم ما بعد البنيوية

	تابع تمرين ٥-١
تقييم	حدد اثنين من نقاط القوة واثنين من أوجه القصور في ما بعد البنيوية. انتفع بتقييمات البنيوية (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب) وتقييمات ما بعد البنيوية (انظر الفصل الرابع) لتساعدك في ذلك. دون أفكارك في جدول من عمودين.

التشكل البنائي

ظهر مفهوم التشكل البنائي من داخل الخلاف التقليدي في علم الاجتماع بين البناء والفعل (انظر في الفصل الثالث من هذا الكتاب الفقرة التي تتناول البنيوية في مواجهة الفعل الاجتماعي). ثم تزايد اهتمام علماء الاجتماع بتطوير طُرقٍ لاستيعاب هذا التناقض الظاهر في إطار تحليلٍ متماسك للبناء الاجتماعي. فالتشكل البنائي يجمع بين كونه قضية خلافية وكونهِ نظرية في الوقت نفسه. فهو دعوى تتمحور حول ما إذا كان باستطاعتنا أن نفكر في المجتمع في ضوء العلاقة بين الفعل والبناء الاجتماعي أم لا، كما أنه يقدم نموذجاً لتحليل المجتمع في ضوء هذه العلاقة. فمفهوم التشكل البنائي مُجرد محاولة من سلسلة محاولات لحل الخلاف بين البناء والفعل، على نحو ما سنرى فيما بعد. ومع ذلك، فلعل هذا المفهوم هو أقوى المفاهيم تأثيراً في علم الاجتماع، كما أن الذي طوره هو عالم الاجتماع، البريطاني أنتوني جيدنز Anthony Giddens.

يومئ مفهوم التشكل البنائي عند جيدنز (١٩٨٤) إلى نوع من رفض مزاعم البنيوية وما بعد البنيوية. وذلك على نحو ما يوضح "نيو New" (١٩٩٤، ص٤) فيقول:

"ظلّ جيدنز في مناهضته لكلٍ من البنيوية وما بعد البنيوية مُصراً – بصورة ثابتة – على أن المجتمعات إنما تتكون من الفاعلين القادرين على تحصيل المعرفة، والذين تكون مراعاتهم للقواعد الاجتماعية فعلاً وليست مجرد ردّ فعل (١٩٨٤، ص٢١). وتؤكد "نظريته في التشكل الاجتماعي" (١٩٨٤، ص١٧٠) على أنه في الوقت الذي يكون فيه المجتمع خارجياً بالنسبة للأفراد – الذين قام هذا المجتمع بتشكيلهم– فإن إبداعهم الذي يتم من خلال أفعالهم هو الذي يُعيد إنتاج هذا المجتمع وهي الأفعال التي تغيره كذلك."

وبهذا تعترف نظرية التشكل الاجتماعي بالتفاعل بين الأفراد والأبنية في تشكيل العالم الاجتماعي أو الحياة الاجتماعية.ولا يقتصر جيدنز على رفض نظريات البناء الاجتماعي بسبب أنها تفسيرات أحادية للمجتمع، بل يرفض كذلك الاعتماد على نظريات الفعل وحدها.ويرجع سبب ذلك، عند جيدنز، إلى أن أفعالنا تتأثر بالسمات البنائية للمجتمعات، إلا أننا في نفس الوقت نقوم بإعادة خلق السمات البنائية، ونقوم أحياناً بتغييرها وتبديلها) عن طريق أفعالنا.

إن كان هذا الكلام يبدو مُجرداً بعض الشيء؛ فإن هارلامبوس Harlambos وهولبورن Hollborn (٢٠٠٤) يقدمان مثالاً تطبيقياً لتوضيح هذه المسألة، وهو مثال مُستمد من كتابات جيدنز نفسه:

"تمثل اللغة الإنجليزية بناءً في نظر جيدنز، بوصفها مجموعة من القواعد المتعلقة بطريقة التواصل، والتي تبدو مُستقلةً عن أي فرد. ولا يمكن تغيير قواعد الإنجليزية النحوية ولا مُعجمها ببساطة عندما يريد أعضاء المجتمع ذلك. ومع ذلك، فإنْ قُدر لتلك اللغة أن يُعاد إنتاجها، وإن قُدر لها أن تبقى، فلابد أن يتحدث بها الأفراد أو يكتبون بها بالطرق التي تتبع قواعدها الراهنة.ومن ثم يقول جيدنز: "عندما أنطق بجملة إنجليزية منطبقة على قواعد اللغة، فإنني بذلك أساهم في إعادة إنتاج اللغة الإنجليزية ككُل.وتعتمدُ بنية اللغة أساساً على القواعد التي يضعها الأفراد الذين يستعملون هذه اللغة. وغالبُ الأمر أن المتحدثين المختلفين باللغة الإنجليزية سوف يتّبعون قواعد الإنجليزية وسوف تتحقق إعادة الإنتاج. ومع ذلك، فإن ذلك ليس بالأمر الحتمي الذي لا مَفر منه. فاللغات تتغير، والكلمات الجديدة تُخترع ويتم قبولها عن طريق استعمالها، وتُنسَى بعضُ الكلمات القديمة وتسقط في ركن الإهمال. وبهذا الشكل يستطيع الفاعلون البشريون – وعن طريق أفعالهم – أن يغيروا الأبنية الاجتماعية وأن ينتجوها كذلك. (هارلامبوس وهولبورن، ٢٠٠٤، ص٩٦٩).

	تمرين ٥-٢
تطبيق	سيمكنك هذا التمرين من التعرف على مدى صدق آراء جيدنز عن بنية اللغة في ضوء الفكر العلمي المعاصر. اقرأ الموضوع B وأجب على الأسئلة التالية: ١- فكر كيف يمكن أن يُفسر جيدنز محتويات هذا الموضوع "B"، وانتفع بالأسئلة التالية في مساعدتك على صياغة أفكارك: (أ) ما الدليل الذي يتضمنه هذا النص المستخلص والذي يُدعم رأي جيدنز في أن اللغة عبارة عن مجموعة من القواعد المستقلة، عن الفرد؟ (ب) كيف يوضّح هذا الموضوع رأى جيدنز بأن الإنجليزية لغة يُعيد إنتاجها من يتحدثون بها؟ (جـ) كيف يمثل هذا الموضوع دعماً لرأي جيدنز بأن إعادة إنتاج اللغة ليس أمراً مُحتَماً لا محيص عنه؟
معرفة فهم تطبيق	٢- ما الذي تفهمه من المقولة التي تُؤكد عليها إيتشيسون Aitchison (في الموضوع "B") من أن "ما في وقتنا الحاضر من كلمات نابية تتعرض لعملية غسيل"؟
تقييم	٣- إلى أي مدى توافق على وجهة نظر إيتشيسون؟

	تابع تمرين ٥-٢
تطبيق تقييم	قارن أفكار جيدنز عن اللغة بأفكار كل من: ١- ليفي شتراوس (انظر ما جاء في الفصل الثالث من هذا الكتاب (ص ص٩٠-٩٥) عن التشكل البنائي). ٢- فوكو (انظر الفقرة السابقة عن ما بعد البنيوية). وميز في كل حالة: (أ) أوجُه التشابه بينها. (٢) وأوجه الاختلاف بينها.

الموضوع (B)

كيف يعرف الأطفال قوانين اللغة بفطرتهم

محاضرة رايث Reith

في ثالث محاضرة لها في قاعة رايث Reith، والتي تميزت بارتفاع مستواها التخصصي الدقيق عما كان عليه حال محاضرتيها السابقتين، تحدثت جين إيتشيسون لَيلة أمس عن الطريقة التي بها يكتسبُ صغار البشر لغاتهم.

وفي تلك المحاضرة قامت البروفسيرة إيتشيسون – وهي أول من شغلت كرسي أستاذية روبرت ميردوخ Rupert Murdoch للغة والاتصال بجامعة أكسفورد – بحبك خيوط شبكتها اللغوية بتوجهٍ جديدٍ ومثير.

وباستشهادها بعالم اللغة إريك لينبرج Eric Lenneberg، والذي وَصفت كتابة المعنون "الأُسس البيولوجية للغة" والمنشور سنة ١٩٦٧ بأنه "أحد المعالم الكُبرى"، أكّدت أن اللغة مَركوزة -فعلاً- في فطرة الأطفال التي خلقوا بها.

"يتكلم الأطفال بسهولة بالغة لأنهم بفطرتهم يَعلَمون مُسبقا ما هي عليه طبيعة اللغات". وكما هو الحال في شبكة الإنترنت، يكون الإطار العامُ مُبرمجاً برمَجةً مُسبقة".

وتستطرد قائلة أن الأطفال لا يستوعبون اللغة دائما بصورة صحيحة من المرة الأولى. فقول الطفل مثلاً: "إن الدُمية تَغلق عَيني هي" (بدلا من قوله: تُغلق عينيها)، وقوله: "إن مُدَرّسي قد أمسك الأرانيب الصغيرة" (بما في هاتين الجُملتين من أخطاء في النطق وقواعد اللغة). وهكذا يمثل هذان القولان مثالين للكلام الفعلي المُبرمج بيولوجيا، وهو الكلام الذي سوف يقوم الأطفال لاحقاً بتصحيحه بَعد تعلّمهم القواعد من الأحاديث التي تدور حولهم.

أشارت الأستاذة إيتشيسون كذلك إلى اللغوي الأمريكي ناعوم تشومسكي، وهو واحدٌ ممن انتفعت بأعمالهم لتعضيد آرائهم وبذلت جُهدها في تبسيط أفكارهم. وقالت إن تشومسكي لا يقتصر فقط على الإيمان بأن اللغة هبة بيولوجية منحت للأطفال، بل يؤمن كذلك بأنهم يملكون وسائل التمييز بين نَمطٍ لغوي و آخر.

وقالت إن الطفل قادرٌ اكتشاف ما إذا كان "يتعامل مَع لغة لها نمطٌ يشبه اللغة الإنجليزية، والذي يضع الأفعال قبل المفعولات، أمْ يتعامل مع لغةٍ تشبه نمط اللغة التركية التي تعكس هذا الترتيب.

ومن المؤكد أن اللغة تصير أداةً للتعبير عن الاختلافات بين الأجيال. وهنا أحالت الأستاذة إيتشيسون الكلام إلى الفكرة المحورية لمحاضرتها الأولى – وكانت عن مظاهر الإزعاج التافهة المتعلقة باللغة – وأشارت إلى أن الآباء والأمهات كثيراً ما يريدون من أبنائهم أن يستعملوا ما يُسمى "اللغة الإنجليزية القياسية التي تتحول فجأة إلى مباراة مُوحلة بين الجيلين، وذلك هو ما يحدث في إنجلترا على الأقل".

ويَغلب على المراهقين أنهم يرغبون في الكلام بطريقة تشبه طريقة زملائهم، "مع احتمال أن يَركل بعضُهم بَعْضاً عند اللقاء". وكما تقول الأستاذة إيتشيسون، فإن المراهقين يؤكدون ما بينهم من جمال الرفقة والعفوية عن طريق السباب والشتائم. وهذه الظاهرة ليست مقصورة على المراهقين وحدهم.

وقالت، وهي تشير بلا شك إلى بعض المؤلفات مثل كتاب جيمس كلمانز الحائز على جائزة البوكر العالمية، والذي عنوانه: "منذ مَتى حدث هذا؟، منذ متى؟؛ قالت: "إن الكلمات النابية توجد بأعداد كبيرة في بعض الكتابات الحديثة كأسراب النحل". ولكنها تضيف قائلة:"إن ما يشيع في وقتنا الحاضر من كلمات نابية تجري عليها عملية غسيل، وهو نوع من التلاشي التدريجي للمعنى، والذي يَحدُثُ في كل التغيرات التي تلحق بتطور دلالات الألفاظ".

وتماماً كما حدث للأَيْمان التي يُقسم فيها باسم الله، والتي كانت محل اعتراض واسع خلال القرن الماضي، إلا أنها في وقتنا الحاضر فَقَدَتْ قدرتها على أن تصدم المستمع، "فإن ما يشيع في أيامنا هذه من الكلمات النابية والكلمات الجنسية لم تعد تفزع الكثير من الناس". فقد ضَعُفَ معناها بصورة واضحة، وذلك لأن ارتباطها الأصلي بالجنس وبالبراز أخذ يَخفت بالتدريج.

تانكو فاراداراجان Tanku Varadarajan

(المصدر: تانكو فاراداراجان، جريدة التايمز، ٢١ فبراير ١٩٩٦).

يستكشف تحليل جيدنز (١٩٨٤) للنظام الاجتماعي كُلاً من البنية و"الفعل". ويبين بالتفصيل كيف أن العلاقة القائمة بينهما هي التي تشكل النظام الاجتماعي. وعند إمعانه النظر في مسألة البنية والفعل، يلقي جيدنز الضوء على فكرتين محوريتين مهمتين هما: (١) إلى أي مدى يستطيع كُلٌ من البنية والفعل أن يسهم في الحفاظ على النظام الاجتماعي و (٢) إلى أن مدىً يستطيع كلٌ منهما الإسهام في التغيير أو "التحول" الاجتماعي. كما يُدخِلُ في حُسبانه ما لتحليله هذا من دلالات تتعلق بالخلاف بين حرية الإرادة والجبرية.

يبدأ جيدنز بالتصور الذهني للبناء الاجتماعي ويرسم الخطوط الرئيسية للطريقة التي يحافظ بها على النظام الاجتماعي ويُغيره. ويميز جيدنز في تحليله للبناء الاجتماعي ملْمَحيْنِ أساسيين له هما: "القواعد" و "الموارد". ويستعمل في ذلك مُصطلح القواعد للإشارة إلى الإجراءات والأساليب الروتينية التي تُشكل أساس التفاعل اليومي. ومع ذلك يرى جيدنز أن مثل هذه القواعد ليست ثابتة وإنما هي دينامية – أي إنها عُرْضة للمراجعة من خلال الأنماط الجديدة من التفاعل. والقواعد إما أن يكون بالإمكان إعادة إنتاجها (أي الحفاظ عليها) أو تغييرها (أي: تحويل شكلها)، وذلك اعتماداً على ما إذا كانت أنماط التفاعل هذه تظل باقية على حالها أم تتغير.

ولإعطاء مثالٍ على ذلك نقول:في خمسينيات وستينيات القرن العشرين لم يكن من الضروري على من يُسافر راكباً عربته أن يستعمل حزامَ الأمان، ومن ثَم كان يتم إعادة إنتاج "القواعد" التي يتضمنها السفر بالسيارات من عقْدٍ إلى العقد الذي يليه. إلا أنه حدث في الستينيات، وبسبب وعي الجمهور الزائد بخطر حوادث

الطرق، أن أصبح استعمال حزام الأمان إلزاميا بحكم القانون. لهذا السبب تمَّ تغيير قواعد السفر بالعربات لأن "استعمال حزام الأمان" أصبح سمة أساسية لهذه العملية.

وليس من الضروري تمثيل القواعد في صورة قانون. ففي وقتٍ مَضَى كان من المعتاد أن يتنازل الشبان عن مقاعدهم بالحافلات لكبار السن. غير أنه حدث في السنوات الأخيرة أن تسبَّبت الاتجاهات المتغيرة في تآكل هذه الممارسة، بحيث أصبح هذا السلوك في أيامنا هذه هو الاستثناء وليس القاعدة. ذلك أنه حدث نوع من "التحول"(التغير الواسع المدى). فلم يَعد الحقُّ في مقعدٍ بوسائل النقل العامة مُحدداً وفقاً للسن أو لاحترام السلطة. ولكن بَدلا من ذلك تقضي القَاعدة – في وقتنا الحاضر – بأنَّ شَغل المقعد يُعد نوعا من الحيازة – على الأقل في أثناء فترة رحلة الحافلة!

أما العنصر الأساسي الثاني عند جيدنز – وهو "الموارد"- فمن الممكن كذلك إعادة إنتاجه أو تَغييره عن طريق الفعل الإنساني. والموارد هي الوسائل التي بها يتم تعريف البنية المادية والبنية الاجتماعية للمجتمع. ويتمُّ تحويل الجوانب المادية للمجتمع عن طريق الفعل الإنساني إلى موارد – مثال ذلك، أن الأرض تُصبح موردا من خلال زراعتها. وبالمثل، تُصبح العلاقات الاجتماعية بمثابة مورد عندما يستخدمها الأفراد لفرض السيطرة على الآخرين، ذلك أن السُلطة لا تصبح موردا إلا عندما يمارس شخص ما نفوذه على شخصٍ آخر.

وفي تحليلِه للفعل الاجتماعي أو ما يسميه :"التأثير" agency، يستعمل جيدنز مفهوم "ثنائية البناء" ليعكس الطريقة التي بها يُؤثر الأفراد في الأبنية ويتأثرون بها. وهو يذهب إلى أن بوسع الأفراد أن يساعدوا في إعادة إنتاج الأبنية وفي تغييرها من خلال أفعالهم. فهُم يُعيدون إنتاج المجتمع عندما يتصرفون روتينياً بطرق يرسمها المجتمع – أي بإعمال القواعد البنائية. وهم -كذلك- يُعيدون إنتاج المجتمع عندما ينتفعون بموارد المجتمع بالطرق المتوقَّعة منهم.

ومع ذلك، فإن لديهم القدرة – أيضاً – على التدخل في المجتمع عن طريق تطويرهم لأنماط جديدة من التفاعل، وتغييرهم لقواعد المجتمع وموارده. ولا يترجَّح حدوث هذا التدخل في كثيرٍ من الأوقات، وذلك لأن البشر – في نظر جيدنز – في حاجة ماسَّة إلى القدرة على التنبُّؤ (بالعواقب) وإلى الرُّوتين المنتظم في عمل الأشياء. وقد اعتبر جيدنز هذه الرغبة في "الأمْن الوجودي"حاجةً إنسانية أساسية.ومع ذلك، فإن الأفراد ليسوا مُقيَّدين تماماً لأن التغيير يَظل دائما أمرا وارداً. وقد تقوم الأبنية الاجتماعية بتحديد الاختيارات المُتاحة للأفراد على امتداد حيواتهم، إلا أن قِيَمَهم، ومعتقداتهم، وقُدراتهم، وخبراتهم هي التي تُشكل الاختيار الذي يقررونه.

ولا يكتفي جيدنز في تحليلهِ للتأثير (أو:الفعل) بلفت الانتباه إلى العواقب العمدية للفعل، والتي تنجم عن عملية الاختيار؛ بل يقر بالعناصر البنائية الواقعة خارج نطاق سيطرة الفرد والتي يمكنها أن تؤدي إلى عواقب غير مقصودة.

يعترف جيدنز (١٩٨٤) بأن لَدى الأفراد تلك القدرة الفريدة على التأمل في أفعالهم وعلى تغيير سلوكهم التالي (أي:"التدخل") في ضوء عملية التغذية المرتدة. ويُسمى هذه العملية: الانعكاسية (أو التأمل النقدي). وهي ليست محصورة في الأفراد فقط – فالجماعات الاجتماعية لديها القدرة – كذلك– على التأمل في القضايا البنائية وفي التدخل في ضوء هذا التأمل. ومن ثَمَّ، فإن جيدنز يضع نوعاً من التمييز بين التأمل الشخصي واتخاذ القرار الذي هو أمر معهود في حيواتنا اليومية (كالحال في قرار المرء بأن يتزوج أو لا يتزوج) والتأملية الاجتماعية، والتي بمقتضاها يتخذ الأفراد أعضاء الجماعات الاجتماعية أو السياسية الأوسع قرارات مبنية على المناقشات، كأن يقرروا مثلا ماذا يفعلون حيال قضية الاحتباس الحراري على مستوى العالم. (تشيجنل Chignell وأبوت Abbot، ١٩٩٥).

وننتقل الآن إلى عرض رؤية جيدنز للنظام الاجتماعي، والذي يُعد مفهومه عن التشكل البنائي من الأمور المحورية في هذه الرؤية. إذ نجد جيدنز (١٩٨٤) يُعرف النظام الاجتماعي بأنه ممارسات اجتماعية يُعاد إنتاجها، أو بأنه "علاقات يُعاد إنتاجها بين الفاعلين أو بين كيانات اجتماعية تنتظم في صورة ممارسات اجتماعية رتيبة"، (جيدنز، ١٩٨٤). فالنظم الاجتماعية ليس لها بناء إلا أنها تكشف عن وجود بعض الخواصّ البنائية. فهي غير موجودة في حدود زمانية أو مكانية، ولكنها تتخلقُ على نحو ديناميكيّ من خلال الممارسات التي يُعاد إنتاجها (أعني بذلك من خلال القواعد/ والموارد). ومع أنه من الممكن أن تكون بعض النظم ثمرة الفعل العمدي المقصود، فإن جيدنز يؤكد بقوة على حقيقة أن مثل تلك الأنظمة يَغلبُ عليها أن تكون هي النتائج غير المُتوقعة للفعل البشري.وقد تُصبح هذه النتائج غير المُتوقعة ظروفا لا يتنبّه لها أحد للفعل وللتغذية المرتدة التي تعود إليه. وقد تقاوم هذه الظروف المحاولات الرامية لإخضاعها للسيطرة، ولكن الفاعلين يواصلون – رغم ذلك – جُهودهم لفرض مثل تلك السيطرة.

وهكذا يزود مفهوم "التشكل البنائي" جيدنز بوسيلة لدمج الفعل مع البنية. وما يترتب على هذا الدمج هو رؤية للنظام الاجتماعي تتميز بالاعتماد المتبادل بين الفعل والبناء (أعني بذلك:الثنائية) وليس تسلط أحدهما على الآخر (أي:الازدواجية). لذلك ليس من العجيب أن يكون ردّ فعل جيدنز على الخلاف بين حرية الإرادة والجبرية القول بأن السلوك الإنساني ليس محكوماً بالكلية بالقوى الخارجية (وهو فحوى الجبرية) كما أنه ليس إرادياً بالكلية (وهو فحوى مذهب الإرادة الحرة). وبدلاً من ذلك يرى جيدنز أن القيد الخارجي المُطلق أمرٌ نادر، وأن القيود الموجودة في المجتمع يمكن التوفيق بينها عن طريق الاختيار الفردي. إذ أنه من الممكن –في جميع الأحوال تقريباً– "التصرف على وجه آخر"، أي فعل شيء مختلف. ومن ثمَّ فإن القيود –في رأي جيدنز – لا تحكُم الأفعال بصورة جبرية، بل تقوم بعملها عن طريق "وضع حدود لنطاق الخيارات المتاحة لفاعل ما"(هارالامبوس وهولبورن، ٢٠٠٤، ص٩٧١).

	تابع تمرين ٥-٣
معرفة فهم	قبل الانتقال إلى إمعان النظر في التأثير الذي أحدثته كتابات جيدنز في مفهوم التشكل البنائي، سيكون من المفيد أن نُلخص الأفكار الرئيسية. وبإمكانك القيام بذلك عن طريق الإجابة على الأسئلة التالية: ١- إلامَ يشير مصطلح "التشكل البنائي"؟
تطبيق	٢- كيف يستعمل جيدنز اللغة كمثال يُوضح به رأيه المتعلق بالاعتماد المتبادل بين الفعل والبناء؟
تطبيق	٣- كيف يتمثل جيدنز الصورة الذهنية للنظام الاجتماعي؟
معرفة فهم	٤- ما الجانبان اللذان حددهما جيدنز من جوانب البناء، وما هما الوظيفتان الأساسيتان اللتان يقوم هذان الجانبان بهما؟
معرفة فهم	٥- ما الفعل (أو التأثير)؟
تطبيق	٦- إلى أي مدىً تُوجد صلة بين الفعل والبناء؟
معرفة فهم	٧- ما المقصود من مصطلح الانعكاسية (التأمل النقدي)؟
تحليل تقييم	٨- لماذا تُعدُّ الانعكاسية مفهوماً محورياً للغاية في تحليل جيدنز؟

تطبيق تحليل تقييم	٩- إلى أي مدى تختلف "الازدواجية" dualism عن "الثنائية" Duality؟ وأيُّ هذين الرأيين يأخذُ بهِ جيدنز؟
تحليل تقييم	١٠- ما الدلالات الضمنية الموجودة في التحليل الفكري لجيدنز فيما يتصل بالخلاف بين حرية الإرادة والجبرية؟

من الصعوبة أن نُحصي مقدار التأثير الذي أحدثته كتابات جيدنز لأن نظريته في التشكل البنائي تتصف بالتجريد إلى حدٍ كبير. ومع أنها تُقدّم بوصفها نمطاً للتحليل له إمكانياته الكامنة فيه، إلا أنه لم يَسعَ لتطبيق أفكاره في البحوث الإمبيريقية. ومع ذلك فإنه يلفت الانتباه إلى الأعمال التي تقدم أمثلةً لثنائية الفعل/ والبناء. وأحد هذه الأعمال كتاب ويليس Willis بعنوان "تَعلُّم العمل"(١٩٧٧)، والذي يرى جيدنز أنه يُبيِّن كيف أن الأبنية يتم إعادة بنائها، عن طريق أفعال الفاعلين بوصفها نتائج لأفعالهم غير مقصودة من جانبهم. شاهد ذلك أنه بتَخلي شباب العمال عن التعليم، نجد أنهم أصبحوا يختارون لأنفسهم وظائف زهيدة الأجر ولا مستقبل لها، الأمر الذي يجعلهم عاجزين عن تغيير حيواتهم.

	تمرين ٥-٤
تطبيق تقييم	يزعم جيدنز أنه إن قُدر لعلم الاجتماع أن يتقدم خارج نطاق التقسيم بين الفعل والبناء، فإن ذلك يتطلب إجراء المزيد من الدراسات من نوعية تلك التي قام بها "ويليس" ليُبين كيف أن الأبنية يتم إعادة إنتاجها على أيدي الفاعلين الإنسانيين الهادفين.ومن الأمثلة الأخرى أعمال أيلين

باركر Eileen Barker عن الدين، وخاصة كتابها بعنوان "تكوين العضو في الطائفة المُونية"The Making of a Moonie (*) (١٩٨٤) مع إدخالنا في الاعتبار أن جيدنز بدأ في الصياغة النظرية لمفهوم التشكل البنائي في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، فمن الممكن أن يكون قد توفر – ومنذ ذلك التاريخ- المزيد من الدراسات. ابحث في الكُتب الدراسية والمجلات العلمية كمجلة علم الاجتماع "Sociology Review" وحاول أن تستخرج بعض الأمثلة البحثية المعاصرة التي تتطابق مع النمط المثالي عند جيدنز. اكتب ملاحظات مُوجزة عن: ١- خلفية الدراسة أو سياقها. ٢- منهج البحث/ أو مناهج البحث الأساسية المستخدمة. ٣- نتائج الدراسة الأساسية، وبصفة جوهرية: ٤- لماذا تقدم هذه الدراسة مثالاً لتحليل التشكل البنائي على صعيد الواقع الإمبيريقي.	

تقييم التشكل البنائي

لاشك أن كتابات جيدنز عن التشكل البنائي قد أثارت الكثير من الانتقادات، ولكن كما يلاحظ تشيجنل وأبوت (١٩٩٥، ص١٤) حين يقولان: "إن من شأن جيدنز نفسه أن يفزع إذا لم توجد أيُّ قراءةٍ نقدية لملاحظاته". ويبدو أن القدر الأكبر من النقد

(*) نسبة إلى المبشر البروتستانتي الكُوري المولود سنة ١٩٢١، ومؤسس كنيسة التوحيد صن ميونج مون Sun Myung Moon (المترجم).

الموجّه للتشكل البنائي قد جاء من آرشر Archer (١٩٨٨)، وذلك على الرغم من أن آخرين (مثل أبوت، ١٩٩٤، وكريب Craib، ١٩٩٤؛ ونيو New ١٩٩٤) قد سايروها في بعض انتقاداتها. ونلاحظ أولا أن النقد قد وجه إلى جيدنز لمغالاته في التأكيد على الاعتماد المتبادل بين البناء والفعل (أي: الثنائية). وتذهب آرشر إلى أن رفض "الازدواجية"معناه العجز عن رؤية الفروق والاختلافات المهمة بين الفعل والبناء، والتعرف على حدود إمكانيات تحليل العلاقة التي بينهما:"انتهى الكثيرون بسرعة فائقة إلى نتيجة مُفادُها أن المهمة تتمثل في كيفية النظر إلى كِلا وَجهي نفس الميدالية(*) في نفس اللحظة. ولاشك أن هذا الموقف يتجاهل إمكانية فحص ما بينهما من تفاعلٍ متبادل بمرور الوقت، (آرشر، ١٩٨٨، ص١٢ من مقدمة الكتاب).

نلاحظ ثانياً أن الفكرة القائلة بأن القيود تستطيع أن تكون قوة تمكين (لأن الأفراد يستطيعون اختيار المسار الذى يريدونه من مَسارات الفعل) هذه الفكرة لم يستقبلها المفكرون الاستقبال اللائق. إذ يشير "نيو" New (١٩٩٤، ص ص ٤-٥) - وعلى نحو منطقيّ مقبول - إلى أنه ليس صحيحا أن كل الأفراد أحرار في الاختيار على قدم المساواة، بحيث يكون بعضهم أكثر خضوعاً للقيود بينما يكون بعضهم الآخر أكثر قدرةً على اختيار أفعالهم.

"يؤكد جيدنز على اتساع مفهوم الفعل، وعلى ثنائية التقييد/ والتمكين، ويبتعد في تأكيدهِ عن الطرق التي بها يقوم موقعُنا من البناء بتحديد الخيارات المتاحة لنا، كما يَبْتَعد عن الطريقة التي بها يقوم موقعنا من البناء بتحديد قدرتنا على تغييره".

يرتبط بذلك وجة ثالث من وجوه الانتقاد، يتمثل في أن جيدنز غالى في التأكيد على قدرة الفاعلين الاجتماعيين على تغيير الأبنية بمجرد تغييرهم لسلوكهم. وتستشهد آرشر بحالات متعددة لم تُؤدِّ تغييرات السلوك التي حدثت فيها إلى إحداث تغييرات في المجتمع بسبب بعض أوجه القصور أو عدم الكفاءة الموجودة في البنية التحتية

(*) هكذا فى الأصل، ونحن نقول فى الحديث والكتابات المعاصرة: "وجهي العملة" وليس الميدالية. (المترجم)

للمجتمع. مثال ذلك، ما حدث في حرب الخليج سنة ١٩٩١، إذ على الرغم من أن صدّام حسين كان يرغب في السيطرة على الكويت، وبذلك يُغير علاقات القوة في الشرق الأوسط، فإن جيشه لم يكن كفؤاً لذلك، ولهذا السبب أُجبر صدام على التخلي عن سيطرته على الكويت. ومن الأمور التي تستدعي السخرية، أنه في سنة ١٩٩٨ قدمت الأمم المتحدة مثالاً آخر للفشل في حمل العراق على الإذعان لاتفاقيات نزع السلاح الدولية وفي إحداث التوازن في القوة العسكرية. وقد كانت الحرب التي أعقبت ذلك في سنة ٢٠٠٣ هي ردُّ الفعل العسكري الذي قامت به الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة وغيرهما من البلاد الأوروبية لإجبار العراق على الإذعان للأوامر الغربية على الرغم من عدم وجود دليل على وجود أسلحة الدمار الشامل في العراق. وعلى الرغم من ذلك فإن نظام الحكم المذكور قد تم تدميره، وانتهى الأمر إلى إعدام صدام حسين، وفرضت "الديمقراطية "ذات الطراز الغربي على العراق. وهذا المثال الأخير قد يقدم الدليلَ على القُدرة على تغيير البناء بالقوة.

وتختلف آرشر – كذلك – مع جيدنز في دعواه بأن الموارد المادية لا يكون لها وجود فاعل إلا عندما يختار البشر أن يستثمروها وينتفعوا بها (هارالامبوس وهولبورن، ٢٠٠٤).وتبدو هذه الدعوى هُراءً لا معنىً لها لأن الموارد الطبيعية كانت موجودة قبل وجود الجنس البشري وسوف تظل موجودة حتى لو انقرض الجنس البشري، وذلك بشرط ألا يُفرط الناس في استغلالها خلال تلك الفترة.فالسيطرة البشرية على البيئة الطبيعية المادية سيطرة محدودة.

وقد أبديت بعض الملاحظات ذات الطابع العملي، إذ وُجه النقدُ إلى جيدنز لإفراطه في استعمال اللغة المعقدة للتعبير عن أفكاره الخاصة بمفهوم التشكل البنائي. وقد يذهب الساخرون إلى أن أفكاره في جوهرها أفكار مباشرة تماماً وإلى أن استعماله للُغة الغامضة الطنَّانة يجعل من أفكاره الواضحة أفكاراً عصية على الفهم (انظر تمرين ٥–٥)

	تمرين ٥-٥
تفسير تطبيق تحليل تقييم	حدد – على الأقل – وجهين من أوجه القوة ووجهين من أوجه القصور في مفهوم التشكل البنائي عند جيدنز. سجل أفكارك في جدول من عمودين. فكِّر في بعض تطبيقات التشكل البنائي على حياتك اليومية الشخصية.ويقدم جيدنز مثالاً عن شُرب قَدح من القهوة– وهو نشاط يبدو في ظاهره نشاطا هيناً عادياً وشائعاً ومن السهل فهمه، إذ ما أن تبدأ في التفكير النظري في هذا الأمر حتى تتحقق من دلالاته العامة الشاملة. ضع الآراء التالية في حُسبانك: • يُزرَعُ البُنُّ في أجزاء مُعينة فقط من العالم تتميز بالطقس المناسب لزراعته، ولهذا لابُد من نقلِه من أماكن أخرى كثيرة، مثل كولومبيا، والبرازيل، وكينيا. ومن هنا يكون للعالم المتقدم علاقة بمن يزرعون حبوب البن ويحصدونها من المراهقين والأطفال الفقراء الذين يتعرضون للاستغلال في كثير من الأحيان. وليس لشعوب العالم المتقدم سوى صلة ضعيفة بهذه البلاد عدا رغبتنا في شراء البن الذي تزرعُهُ وشرب القهوة المصنوعة منه. • للقهوة في الغرب دلالة وأهمية ثقافية: فنحن نلتقي بأصدقائنا لنتناول القهوة، ونذهب إلى المقاهي لشُرب القهوة، ونأخُذُ فتراتٍ راحة لشرب القهوة أثناء العمل. وأحيانا ما تكون الدلالة الثقافية أكثر اتصالاً بقواعد السلوك الاجتماعي منها بفعل شرب القهوة.(*)

(*) من ذلك دخول شرب القهوة كجزء من تقاليد الضيافة في مصر وكثير من البلاد العربية. فتقديم القهوة عنصر مهم من هذه التقاليد العربية. وينظم العرف موعد تقديمها (في أثناء الزيارة) وأسلوب الضيف في الاستجابة لها. وفي بعض المجتمعات العربية (خاصة البدوية)

- يُعد الكافيين – الذي تحتوي عليه القهوة – عقَاراً مُسبباً للإدمان بدرجة معتدلة، فإذا تناولنا القهوة بجرعاتٍ متكررة وكبيرة، فإنَّ ذلك يمكن أن يُؤثر على صحتنا. فلماذا لا نعتبر فعل تناول الكافيين في نفس خطورة تناول العقاقير الأخرى المسببة للإدمان كالسجاير، والحشيش وحبوب النشوة؟.

هل تستطيع الآن أن تفكر في أمثلةٍ أخرى يمكنك أن تُطبّق عليها نظرية التشكل البنائي؟

نظرية شبكة الفاعلين(*)

هي نظرية بديلة لنظرية التشكل الاجتماعي طوَّرها المفكرون المنتقدون لاتجاه جيدنز والذين يتبنون رؤى مُستمدة من علم العلامات/ أو السيميولوجيا ومن غيره من التخصصات العلمية الأكاديمية كالعلم الطبيعي والجغرافيا. وتنطلق هذه النظرية من المقدمة التي تقول أن الأفراد لا يوجدون إلا داخل علاقات تربطهم ببعضهم (ومن هنا سُميت النظرية "نظرية شبكة الفاعلين")، إلا أنها تختلفُ عن النظريات الأخرى في أنها تدرج في هذه الشبكات الأشياء المادية ولا تقصرها على الأفراد الآخرين فقط. وليس للكائنات البشرية صفاتٌ أو سمات جوهرية لا تنفكُ عنهم، كما أنه لا وجود لأشياء مثل الأبنية. والأحرى أن "الفاعلين الاجتماعيين" لا يُوجدون إلا في

يكون تقديم "دور" من القهوة بعد فترة طويلة من الزيارة إيذانا للضيف بإنهاء زيارته، وطلب المغادرة. كما أن رفض الضيف – في صعيد مصر، وفي غير مصر – شرب القهوة المقدمة له مؤشر على وجود ضغينة في نفسه أو عداوة تجاه مضيفه. ويعد تناوله القهوة بعد فترة علامة على زوال تلك الضغينة أو زوال العداوة. وهناك أمثلة وتفاصيل كثيرة عن شرب القهوة في السياق الثقافي الشعبي العربي. راجع محمد الجوهري (محرر)، موسوعة التراث الشعبي العربي (تحت الطبع).(المترجم)

(*) Actor-Network Theory (ANT)

داخل الشبكات وما تضمه من أفراد وأشياء مادية. وبرفضهم لجميع "أشكال الازدواجية"؛ يرفض المفكرون أصحاب نظرية شبكة الفاعلين ثنائية البناء – والفعل، ويركزون بدلا من ذلك على طبيعة الشبكات التي يَدخُلُ فيها الأفراد والأشياء بصفة مؤقتة أو بصفة أكثر استدامة. ويُنظر إلى الشبكات باعتبارها عمليات؛ أي أنشطة تتكون من العلاقات بين "العناصر الفاعلة" (من البشر ومن العناصر المادية) الذين يؤدون أدوارهم على نطاق محلي فقط (وليس على نطاق مجتمعي) وعلى أساس عملي (وليس على أساس نظري) (كراوفورد Crawford، ٢٠٠٥).

لهذا السبب تُعدُّ الشبكات في مواجهة مستمرة مع توقع التفكُك، وذلك لأنها لا توجد إلا في إطار من العلاقات القائمة بين الأفراد والأشياء الموجودين داخل هذه الشبكة. وتكتسب الشبكات القدرة على طول البقاء بسبب احتفاظها بشكلها وهي تتحرك في خلال الزمان وعبر المكان، إلا أنها تكون في الوقت نفسه عرضة للتفكك في أي لحظة.(انظر "لو" Law وهيثرينجتون Hetherington، ٢٠٠٢). وبإدراجهم للأشياء المادية داخل الشبكات، يذهب المفكرون أصحاب نظرية شبكة الفاعلين إلى أن الأشياء المادية "تفعل فعلها" أيضاً داخل الشبكات، ويحدث ذلك إلى درجة أن أشياء كالأبسطة(*) تحمل رسائل تتصل بعلاقات القوة داخل شبكةٍ ما. كما يعتقد فضلا عن هذا أن النمو الانفجاري للمنتجات التكنولوجية الجديدة كالإنترنت قد غيّرت عمليات الشبكات بتوجُهٍ "ما بعد اجتماعيّ" Postsocial . وقد ذهب كنور – سيتينا Knorr-Cetina (٢٠٠٧) إلى أن النزعة الاجتماعية التقليدية (أي حُب الاختلاط بالآخرين) يجري "تفريغها تماماً"، لأن الشبكات – التي يعتبر فيها البريد الإلكتروني، ولوحات المفاتيح، ومواقع الشبكة "ذواتٍ فاعلة" أساسية – لا تتطلب

(*) يمكن أن تضم إلى قائمة "الأشياء"المؤثرة في علاقات الأفراد:الأزياء عموما، والمجوهرات، والساعات، والسيارات، واليوم: التليفون المحمول...إلخ. (المترجم)

سوى أقلّ قدر من التفاعلات المباشرة. ويتمثّل التحدي الذي يواجهه علماء الاجتماع في تحليل هذه الشبكات لاستكشاف الأشكال الجديدة للنزعة الاجتماعية التي يترجحُ أن تنبثق من داخل الشبكات ما بعد الاجتماعية. ولما كانت أطروحاتهم لتفسير الشبكات بدت مُعقّدة، فقد ذهب أصحاب نظرية شبكة التفاعل إلى أن هذه التفسيرات تتناسب مع التعقُّد الذي تتصف بهِ الحياة الاجتماعية، كما أن هذه التفسيرات المذكورة تُحرر علم الاجتماع من القيد المتمثل في نظرية البناء والفعل.

الحداثة في مواجهة ما بعد الحداثة

يتعلق هذا الجدل بتطور ما بعد الحداثة (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب) وبما إذا كان قد حدث تغيُّر من نمطٍ مجتمعي إلى نمط آخر أم لا، أي: من النمط "الحديث" إلى النمط "ما بعد الحديث". والمُصطلحان المستعملان لاستيعاب ملامح نمطي المجتمع المذكورين هما "الحداثة" و"ما بعد الحداثة. وتُشير الحداثة إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية والظروف الاجتماعية ابتداء من عصر "التنوير" تقريباً حتى انقضاء جانب كبير من القرن العشرين. وتُشير ما بعد الحداثة إلى طبيعة الظروف الاجتماعية في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين.

ولا يقتصر الجدل الدائر بين الحداثة وما بعد الحداثة على مجرد الاهتمام بما إذا كانت ثمة تغيرات قد حدثت فعلا أم لا، بل يهتم كذلك بما إذا كان بالإمكان رؤية هذه التغيرات تؤذن بظهور عهدٍ جديد، ومتميز عن العهد القديم، أم أنها ليست سوى دليل على تطور المجتمع. لذلك، توجد ردود أفعالٍ متعددة على الدعوى القائلة بأن الحداثة تُظللنا. أولاً، يوجد من لا يؤمنون بأنّ التغيرات التي شخصها ما

بعد الحداثيين بنفس الأهمية أو الانتشار كما يُراد لنا أن نتصور. لذلك، يُفترض أن المجتمع يحتفظ بكثير من سمات "مرحلة" الحداثة. **ثانيا**، يُوجد من يُقرون بحدوث تغيرات مهمة إلا أنها لا تعدو – في نظرهم – أن تكون قد تطورت من داخل المجتمع الراهن (أو: الحديث) ولم تتطور استجابةً لنقدٍ وُجه إليها. ومن ثم، فإن مجتمع أواخر القرن العشرين وأول القرن الواحد والعشرين لا يعدو أن يكون صورة أرقى ثقافة وأكثر تعقداً من المجتمع الذي كان من قبل. **ثالثا**، يوجد مَنْ يؤمن بأن أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين تتميز برفض المُسلَّمات التي قام عليها المجتمع الحديث، الأمر الذي كان إيذانا ببزوغ نظام اجتماعيٍّ جديد:هو ما بعد الحداثة. وقَبل استكشاف مدى سلامة هذه الآراء، يهمنا أن نتعرف بدقة على التغيرات التي حدثت في المجتمع فعلا..

ترتبط الملامح الرئيسية للمجتمع الحديث بثلاثة من مجالات الحياة الاجتماعية هي: الاقتصاد، والسياسة، والثقافة.

*"**فالاقتصاد** الحديث كان يتصف بتنامي الممارسات الرأسمالية، والتي منها مثلاً الإنتاج بهدف الربح، والاعتماد على الابتكار والتجديد التكنولوجي، وعلى قوة عمل يتزايد تقسيمها وتتقاضى أجوراً عن عملها.*

*وكانت **السياسة** الحديثة تقوم على انتشار البيروقراطيات المركزية والممارسات الحكومية، وتقوية الدولة القومية، وظهور وتعاظم الدور السياسي للأحزاب الديموقراطية. وكانت **الثقافة** الحديثة تؤمن بالمعرفة الفنية والتكنولوجية على حساب التراث. وتعرض الدين للنقد من جانب بعض التوجهات العقلية. فالحداثة مرتبطة بسيادة الفكر والمعرفة العلميين العقليين.*

	تابع تمرين ٥-٣
تطبيق تحليل تقييم	لا يدهشنا - بالنظر إلى ملامح المجتمع الحديث - اتجاه علماء الاجتماع الكلاسيكيين إلى تطوير ما طوروه من الاهتمامات. عُد إلى الفصل الثالث من هذا الكتاب وحدد ثلاثة من علماء الاجتماع الذين يبدو أن الدافع وراء تقديم أعمالهم كان حاجتهم إلى تقديم وصف وتفسير مفصل للأفكار المحورية التي بسطنا القول فيها من قبلُ. سجل أسماءهم وأشر إلى السبب الذي يجعل مؤلفاتهم تكشف عن اهتمامٍ بجانبٍ أو أكثر من جوانب الحداثة. ومن الممكن أن يساعدك الجدول التالي في أن تبدأ عملك وأن تصوغ أفكارك بوضوح.

اهتمام علماء الاجتماع الكلاسيكيين بالحداثة - موجز

عالم الاجتماع	ملمح الحداثة	الإسهام
فيبر	السياسة	انصب اهتمامه على تطور الرأسمالية وبيان الآثار التي أحدثتها في عملية الإنتاج وفي علاقات العمل. (إشارة للمساعدة: ابحث في أحد المؤلفات عن البيروقراطية) (إشارة للمساعدة: ابحث في أحد المؤلفات عن الدين)

لقد أثرت الحداثة فعلا على كل مجالات الحياة الاجتماعية.ويمكن القول بلغة الاقتصاد، مثلا أن المجتمع الحديث أصبح مجتمع الإنتاج الكبير والاستهلاك الواسع النطاق، ومجتمع رأس المال المشترك والعمل المُنظم. وتُمثل فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبا والولايات المتحدة (في الفترة من ١٩٤٥ حتى حوالى عام ١٩٧٣) نموذجاً لأمثال تلك الممارسات. وقد طبع هنري فورد بإسهامه في هذه الفترة من خلال إنتاجه الكبير للسيارات؛ طبع العلاقات الاقتصادية بطابعه إلى حد أن ظهر للوجود مصطلح "فوردي"(*) Fordist ليشخص هذه الممارسات الخاصة بالإنتاج والاستهلاك الاقتصاديين الحديثين.

وباستعمال اللغة العملية، فإن المجتمع كان يتميز بوجود دولةٍ تدخلية، وبالتوظف الكامل، وإدارة الطلب، والاستثمار الحكومي في الصحة والتعليم. وقد كانت سنوات الأربعينيات من القرن العشرين مرحلة مهمة بالذات بالنسبة للأفكار الحديثة، لأنه في هذه الفترة تحملت الحكومة البريطانية مسئولية تعليم ورَخاء الأُمة

(*) الفوردية Fordism يشير هذا المصطلح كما عرفه أنطونيو جرامشي إلى شكل من أشكال التنظيم الإنتاجي يقال أنه من السمات المميزة للرأسمالية المتقدمة كما يعبر عنه نظام هنري فورد لإنتاج السيارات بأعداد كبيرة. ويؤدي هذا النظام إلى تضافر العمل والإدارة طبقا لمبادئ الإدارة العلمية (التايلورية) مع إعادة التنظيم الواسعة النطاق لعلميات الإنتاج والتسويق، متضمناً خط تجميع متحرك، ومنتجات قياسية (موحدة المواصفات)، وتحريك للطلب عن طريق حزمة تتكون من الأسعار المنخفضة، والأجور المرتفعة، والإعلان، وخدمات الائتمان للمستهلكين. وذهب جرامشي إلى أن المستويات العليا للإنتاج لا يمكن الحفاظ عليها إلا عن طريق "الدفع المستمر... والإقناع".ويقدم النظام الفوردي (الفورية) للعمال أجوراً مرتفعة ومستويات مرتفعة من الاستهلاك في مقابل انخراطهم في نظام مكثف للعمل. وبعد الأزمات الاقتصادية التي شهدتها السبعينيات والثمانينيات والتي ارتبطت بالتغيرات في التنظيم الاجتماعي والفني للإنتاج، وبعد ولوج ما يسمى بالمجتمع ما بعد الصناعي ذهب البعض إلى أن الفوردية قد أصابتها أزمة قاضية، ومن ثم فقد تبعها النظام الذي أطلق عليه: ما بعد الفوردية" والذي يقوم على نظم الإنتاج المرن. ويحمل هذا المصطلح الجديد معان مختلفة طبقاً للسياق الذي يستخدمه فيه الكاتب. راجع المزيد في: موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه، ص ص ١٠٩٠ – ١٠٩٣. (المترجم)

عن طريق إقرارها لنظام يتألف من التعليم الإلزامي لجميع الأطفال في سن التعليم، والخدمات الصحية القومية، ودولة الرعاية.

ومن الناحية الثقافية، تَزايد تأثُر الفن والعمارة بالعقلانية أو الرشد والعلم.وتحوّل الاهتمام من الزخرفة الجمالية إلى البراجماتية (العملية) الميكانيكية. وبدلاً من أن يؤكد الفن والعمارة على الطراز والأسلوب والجاذبية البَصَرية أو المادية، أصبح يؤكد على المنفعة الوظيفية. وتعتبر بنايات الشُقق المرتفعة التي سادت مُدن بريطانيا من التراث المميز للحداثة، وكذلك جراجات السيارات متعددة الطوابق ولوحات "الفن الحديث"المرسومة على قماش القنّب (الكنفاه) والتي تجمع التراب في معارض الفن المعاصر. وقد سيطر الفكر العلمي على أفكارنا ومعتقداتنا فيما يتصل بطبيعة العالم المادي، والطب، والتكنولوجيا، والتقدم.

إن بالإمكان استكشاف ما بعد الحداثة بالرجوع إلى ما أوردناه من قبلُ من سمات الحداثة. ويزعم مفكرو ما بعد الحداثة أن مُعْظم الجوانب الأساسية للحداثة، إن لم يكن كُلّها، قد اختفت.فالعمليات الاقتصادية قد تغيرت تغيراً حاداً في ضوء التطورات التي حدثت في التكنولوجيا وفي علاقات العمل. كما نجد أن الإيديولوجيات السياسية كالقومية ومسئولية الدولة (عن رعاية المواطنين) قد أفسحت الطريق للخصخصة والمسئولية الشخصية. وشهد عالم الثقافة انفجاراً للأفكار المضادة للحداثة ابتداءً من ستينيات القرن العشرين فما بعدها مع ظهور الأشكال الجديدة في الفن والعمارة، وهي الأشكال التي زعموا أنه تم تطويرها لمناهضة تأثيرات المجتمع الحديث التي جردت الإنسان من إنسانيته. وبالمثل، دَعت الحركة المضادة للوضعية إلى نبذ المعرفة العلمية العقلانية التقليدية وإيثار أنماط البحث الإنسانية عليها.

الموضوع (C)

تعريف ما بعد الحداثة؟

ثمّة فارق يتعين تحديده بين فلسفة ما بعد الحداثة (وهي النظرية التي ترى أننا في وقتنا الحالي نعيش في مجتمع ما بعد حديث) وحياة ما بعد الحداثة (وهي الظروف المُعَاشة فعلاً في دَولةٍ ما بعد حديثة).

وبتعبير آخر، تهتم ما بعد الحداثة بما عليه حال المجتمع ما بعد الحديث فعلاً. وتُعتَبَر المجتمعات ما بَعد الحديثة مختلفة ثقافيا عن المجتمعات الحديثة في كون بؤرة اهتمام ما بعد الحداثة ليستُ منصبّه على الحقائق الثابتة والراسخة، ولكن على صورة الأشياء العابرة والسطحية. فالأمر المهم من الناحية الثقافية ليس التعبير عن حقيقةٍ أساسيةٍ ما، إنما هو الشيء المهجور (المتروك)، والجديد، والجماهير. وهكذا تحطمت الحدود الفاصلة بين مجالات الحياة الاجتماعية، كالحدود بين الفن والإعلان مثلاً.

وفي الاقتصاد، يختلف المجتمع ما بعد الحديث بشكلٍ ملحوظ عن المجتمع الحديث. وأخذت أنماط العمل ما بَعْد الفوردية التي ظهرت حديثا تنبذ خط الإنتاج الحداثي، وتفضل عليه نوعاً من العمل المرن، الذي يقلل من دور وأهمية نقابات العمال، كما يتضمن تغيراً يبتعد عن التصنيع ويتجهُ إلى صناعات الخدمات. وقد وُصف هذا التطور بأنه رأسمالية غير منظمة، وذلك لأن الشركات الضخمة تُعطي الشركات الأصغر منها حقوق القيام بما تقوم به من أنشطة روتينية، حيث تقدم هذه الشركات الأخيرة أُجوراً مُنخفضة لعمالها، وتُوظّف عدداً كبيراً من العمال المؤقتين والخارجيين.

ويتمثل التعبير السياسي عن هذه التطورات في النزعة المحافظة الجديدة، وفي افتقار الأسواق المالية إلى النظام، وفي إدخال مصادر التمويل الخاصة في مجالات كانت الدولة تديرها قبل ذلك، كخدمات الرعاية مثلاً. وقد تمّ ذلك

بغرض تقليل الضرائب وللسماح لدافعي الضرائب بحرية إنفاق نقودهم كما يحبون (أي حق الاختيار). ويتمُ الاحتفاظ بالانضباط المالي من خلال التحكم في توفير رؤوس الأموال، وأصبح ينظر إلى أي إجراء للمزيد من تنظيم صانعي الثروة باعتباره شيئاً رديئاً.

	تمرين ٥-٦
معرفة فهم تقييم	سوف يُمكنك هذا التمرين من التعرف على هذه الأفكار بمزيد من التفصيل. اقرأ الموضوع (C) ثم أجب على الأسئلة التالية: ١- ما الذي يعنيه مصطلح "ما بعد الفوردية"Post-Fordism وما دلالته بالنسبة لجدل الحداثة/ وما بعد الحداثة؟
تطبيق تحليل تقييم	٢- كيف يُمكن للنسويين (انظر الفصل الثاني، والفصل الرابع) أن يفسّروا تأثير الحداثة؟ هل من الممكن أن ينظروا إلى ما بعد الحداثة باعتبارها ظرفاً أفضل؟
معرفة فهم	٣- إلامَ يُشير مصطلح "الرأسمالية غيرُ المُنظَّمة"؟
معرفة فهم	٤- ما الفكر الذي ترتكز عليه النزعة المحافظة الجديدة؟

تطبيق تحليل تقييم	٥- كيف يمكن لجيدنز (انظر ص ١٦٦) أن يستعمل نظرية التشكل البنائي في تفسير فلسفة النزعة المحافظة الجديدة في خفض الضرائب التي تدعم حق الخيار (انظر الفقرة السابقة من هذا الفصل)
تقييم	٦- ما التفسير البديل الذي يمكن تقديمهُ لتخفيضات الضرائب؟
تطبيق فهم	٧- ما المنظور الفكري المعاصر الذي يتماشى مع الأفكار القائلة بالمسئولية الشخصية للفرد عن رفاهيته، وبالتخلُص من الخدمات الحكومية المُقدَّمة للمواطنين (انظر الفصل الرابع)؟
تحليل تقييم	٨- لماذا يُنظرُ إلى الموضة والصورة، والنزعة الاستهلاكية والاستهلاك الكبير باعتبارها مرتبطة بما بعد الحداثة ارتباطاً لا انفكاك له؟
تفسير تطبيق	٩- حدّد أيَّ علماء الاجتماع الذي قام بتحليلِ الثقافة الجماهيرية، مُتخذاً المُسلَّمات الرئيسية لفلسفة ما بعد الحداثة نقطة انطلاقٍ له؟ (انظر الفصل الرابع).
تطبيق	١٠- هات مثالاً للطريقة التي بها انهار الحد الفاصل بين الإعلان والفن؟

	تمرين ٥-٧
تطبيق تحليل	باستعمالك للمعرفة التي حصلتها من خلال إجابتك على الأسئلة السابقة، ومن قراءتك لهذا القسم من الفصل، انسخ ثم أكمل الجدول التالي، موضحاً الفروق الأساسية بين الحداثة وما بعد الحداثة.

الحداثة وما بعد الحداثة – موجز للملامح الأساسية		
	الحداثة	ما بعد الحداثة
الفترة الزمنية		أواخر سبعينيات القرن العشرين
الاقتصاد	"النظام الفوردي" الإنتاج الكبير العمل بأجر التكنولوجيا الصناعية تقسيم العمل	
السياسة		النزعة المحافظة الجديدة/ الهندسة البشرية الخصخصة إلغاء مركزية المسئولية نظرية النقود النزعة المالية المحافظة
الثقافة	الاهتمام بالعلم/ والعقل التأكيد على الأهمية الوظيفية للمنفعة/ والآلية/ الترشيد، مثال ذلك: العمارة المرتفعة والفن الحديث.	

كان لفلسفة ما بعد الحداثة وجدل الحداثة وما بعد الحداثة تأثير لا يُستهانُ به على علم الاجتماع المعاصر. مثال ذلك، أننا رأينا في الفقرة السابقة من هذا الفصل كيف حرص جيدنز على أن يتجاوب مع هذه الآراء. كما أن النسويين قد أمعنوا النظر في المعاني الضمنية لفلسفة ما بعد الحداثة ودونوا ذلك في مؤلفاتهم (انظر وولبي Wolby، ١٩٩٤)، كما جرت مؤخرا عدة محاولات لاستكشاف معالم قضية الحداثة في مواجهة ما بعد الحداثة، نجدها في دراسات عن مختلف جوانب الحياة الاجتماعية (انظر سترناتي Strinati، ١٩٩٢، وسوجريو Sugrue، وتايلور، Taylor، ١٩٩٦؛ ونترسول Tattersall، ١٩٩٧). وقد ركّز جانب كبير من هذه المؤلفات على الثقافة، وهو الأمر الذي لا يدعو للدهشة إذا أدخلنا في الحُسبان أن ما بعد الحداثة الثقافية أصبحت أساساً لنظريةٍ اجتماعيةٍ كاملة. وتسهم التحليلات المعاصرة للثقافة بقسط وافر في جدل الحداثة وما بعد الحداثة لأن معظم الكُتّاب يريدون أن يتبينوا ما إذا كانت الثقافة تتسم ببعض السمات المميزة لما بعد الحداثة أم لا.

ويقدم ستريناتي (١٩٩٢) إسهاماً مهمًا في فهم فلسفة ما بعد الحداثة والثقافة الشعبية، إذ يستكشف طبيعةَ الثقافة الشعبية في أواخر القرن العشرين داخل إطارِ ما بَعْدَ حداثي. وهو يتخذ من السمات التي تميز فلسفة ما بعد الحداثة مُنطلقاً لتحليله ويستعملها في تمييز الميول ما بعد الحديثة في الثقافة الشعبية. ويرى أن ظهور أمثال تلك الميول قد يشير إلى تطور مجتمع ما بعد حداثي.

يميز ستريناتي عدداً من الميول البازغة حديثاً في الثقافة الشعبية، والتي من شأنها أن تعكس التأثيرات ما بعد الحداثية. وهو يلاحظ الميول ما بعد الحداثية في الفن والعمارة، ويُقدم أمثلةً للمباني التي تبدو أنها تُمثل رفضاً لنسق التفسير الذي يميز نمط التشييد العمراني العقلاني العلمي التقليدي للفراغ المبنى. كما نجده يركز على ما يحدث في صناعة السينما من انتقال نحو الأفلام التي تؤكد على أهمية

الأسلوب والمظهر البصري على حساب المضمون، والشخصية، والحكاية، والتعليق.وفي التليفزيون، يلاحظ ستريناتي الاتجاه إلى إنتاج الصور والمعلومات العادية للحياة بالنهار والليل تضمُّ شذرات ومقتطفات من أماكن أخرى، إذ يلاحظ أنه يتم تركيب البرامج على أساس تقنيات/أو أساليب الكولاج (فن القص واللصق) وأوجُه التشابه الظاهرية (المرجع السابق، ص٥). وفي الإعلان، ينبهنا لوجود نقله في اتجاه تسويق الأسلوب على حساب الجوهر والمضمون، وللتشابك بين الثقافة الرفيعة والثقافة الشعبية لترويج بيع السلع. وفي الموسيقى توجد ميول مُشابهة، نلحظها في اتجاه موسيقى البوب المُصنَّعة للابتعاد عن الأصوات الموسيقية الجديدة والمتميزة. ويذهب تيركل Turkle (١٩٩٦) إلى أن وسائل الاتصال تمثل عالماً يحاكي الواقع، ونحن نتماهى بسرعة كبيرة مع الصور والعلامات التي تعرضها وسائل الاتصال أكثر مما نفعل مع العالم الحقيقي الذي نعيش فيه. فالعالم ما بعد الحديث يتضمن "ثقافة المحاكاة"Culture of simulation.

وفي رأي ستريناتي، أن الميول الثقافية لا تحدث وحدها في معزلٍ وإنما تعكس التغيرات الكبيرة في المجتمع. وهو يميز ثلاثة ميولٍ بنائية يراها ذات دلالة وأهمية.

أولاً: ظهور المجتمع المشبَّع بوسائل الاتصال، وهو الأمر الذي زاد المكانة الجماهيرية للثقافة الشعبية زيادة عظيمة:

آل الأمر بالعالم إلى أنه أصبح يتألَّف من شاشات وسائل الاتصال والمنابر والمنافذ الثقافية، مثل: أجهزة التليفزيون، وأجهزة العرض البصرى VDU، والفيديوهات، وأجهزة الحاسب، وألعاب الكومبيوتر، وأجهزة الاستيريو الشخصية، والإعلانات، والحدائق الترفيهية والمولات (مراكز التسوق) التجارية، و"رأس المال أو الرصيد الزائف"، والنقود التي تظهر في صورة مجموعة من الأرقام على شاشة العرض المضيئة؛ كما أصبحت هذه الأشياء جزءاً لا ينفكُّ من الميل إلى الثقافة الشعبية ما بعد الحديثة (نفس المرجع، ص٦)".

ثانيا: يلاحظ ستريناتي أنه قد ظهرت وظائفُ جديدة وأسواق استهلاكية جديدة كنتيجة للأهمية المتزايدة لكلٍ من الاستهلاك ووسائل الاتصال في المجتمعات الحديثة. وقد قامت وسائل الاتصال – بصفة أساسية– بخلق احتياجات استهلاكية لا يمكن إشباعها إلا عن طريق التوسع في مهنٍ معينة، كمهنة الصحافة ومهنة الإعلان مثلاً، وهي المهن المُؤثرة في تطور الأساليب والقيم، والإيديولوجيات الجماهيرية. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما يَظهر في المجلات الجماهيرية من أعمدة الإعلاناتِ التجارية، كالإعلانات التي عنوانها "السلع المثيرة والسلع غير المثيرة"، والتي لا تقتصر على إعطاء بيانات عن السلع ولكنها تعزز اتجاهات الموضة كذلك.

ثالثاً: يذهب ستريناتي إلى أن بعض التغيرات ذات الدلالة التي حدثت في المجتمع قد أدّت إلى تآكل المصادر التقليدية للهوية الجمعية والشخصية، والتي منها مثلاً: الطبقة، والعائلة، والدين، والنقابات العمالية، وما إلى ذلك. ويُعزي هذا – عموماً– إلى عملية تُعرف "بالعولمة الاقتصادية"، ويقصد بها ذلك الميل إلى إنتاج وتمويل وبيع السلع والخدمات دون أي اعتبار لحقائق الدولة القومية والمجتمعات المحلية، بل بالقفز فوقها، وتخطي نطاقها. وهكذا يترك الأفراد يعيشون في فراغٍ يتعين ملؤه، وهو فراغ ليس فيه مصدرٌ ذي دلالة للهوية. وهذا الوضع يتركهم عُرضة لمخاطر التفاهات السطحية في وسائل الاتصال وللاتجاهات العابرة في الثقافة الجماهيرية، مما يزيد من تعريض إحساسهم بالاستقرار للخطر، ويؤدي إلى تعريض استقرار المجتمع – بدوره – للخطر:

"تعد هذه الاتجاهات الحديثة جُزءًا من المُشكلة، وليست جزءا من الحل.فهي تشجع السطحية دون الاهتمام بالجوهر، وتشجع نزعة الشك دون الإيمان، وتشجع التعطش للتغير المتواصل دون ضمان التقاليد المستقرة، وتُشجع رغبات اللحظة دون حقائق التاريخ". (المرجع نفسه، ص٧).

يرى ستريناتي أن الثقافة الجماهيرية أصبحت ما بعد حداثية لكي تعكس الميل نحو فلسفة ما بعد الحداثة في المجتمع. ومع ذلك، فإن السؤال عمًا إذا كانت هذه السمات المميزة لفلسفة ما بعد الحداثة كافية للدلالة على هجوم ما بعد الحداثة أم لا، قد تركه ستريناتي من غير إجابة. لنأخذ ذلك كله في الاعتبار، ثم ننتقل إلى تأمل الآراء المتعددة المطروحة في هذا الجدل:

١- أننا أصبحنا نعيش في ظل حقبة ما بعد الحداثة.

٢- إن التغيرات التي شخصها المفكرون ما بعد الحداثيون ليست بنفس الأهمية ولا بنفس الانتشار الذي يريدون منًا أن نصدقه.

٣- صحيح أنه قد حدث تغير اجتماعي لا يُستهانُ بهِ، إلاّ أنه حَدَثَ بطريقة تطورية وليست ثورية.

وفيما يلي نحاول مناقشة كل رأيٍ من هذه الآراء تباعاً.

هل نعيش حقا في ظل حقبةٌ ما بعد حداثية؟

يرى، ليوتار Lyotard (١٩٨٤)، وجيمسون Jameson (١٩٨٤) وبودريار Baudrillard (١٩٨٣) أن التطورات الأخيرة في المجتمع ذات دلالة تكفي للإشارة إلى فجرِ جديدِ لحقبة ما بعد حداثية. وينظَرُ إلى المجتمع ما بعد الحديث باعتبار أنه مختلفٌ في طبيعته اختلافاً نوعياً عن المجتمع الحديث، يؤشر لقطيعة مع الماضي والانتقال إلى مستقبل جديد يتسم بالتنوع والتشظي. وفي هذا المجتمع الجديد ترفض الحقيقة الاجتماعية الموضوعية ويؤثر عليها رؤية للعالم الاجتماعي باعتباره نظاماً اجتماعياً مرناً مُكوناً من الصور والأفكار التي يُنتجها ويعيد إنتاجها الأفراد المتفاعلون مع هذا العالم الاجتماعي والمعايشون له.

وكثيرا ما يتم توضيح مفهوم الصور، والمرونة، والاختلاف ما بعد الحداثي بالإشارة إلى تَشَبُّع المجتمع المتزايد بوسائل الاتصال. فإدخال البث عبر الأقمار الصناعية والتكنولوجيا الرقمية قد خلق منظورا عولميا لاستخدامنا لوسائل الاتصال الجماهيرية. وأخذ الفاصل بين العالم الحقيقي ووسائل الاتصال في التلاشي بصورة متزايدة كما يذهب إلى ذلك بعض المُعلقين مثل بودريار (١٩٨٨): فنحن نرى الواقع من خِلال وسائل الاتصال سواءً أكان ذلك في ضوء التغطية الإخبارية، أو الأحداث الرياضية، أو تليفزيون الواقع، أو خيارات أسلوب الحياة. فالحرب في العراق كانت تُمثل أمامنا على شاشات تليفزيوناتنا "لحظة حدوثها" في ظاهر الأمر. وهكذا ندفع دفعا للاعتقاد بأن ما نراه هو الأحداث كما تَقع عبرَ الفترات الزمنية وفي الأماكن الأخرى من العالم، فأصبح لدينا إحساس بالواقع المُفرط؛ فمعرفتنا بالعالم مُستمدَّة من الصور التي تعرضها وسائل الاتصال وليس من الخبرة المباشرة. ومع ذلك يميل النُقاد إلى القول بأن وسائل الاتصال المعاصرة ليست صرح يشيده الصحفيون، والمحررون، ومُلاك شركات وسائل الاتصال كروبرت ميردوخ مثلاً.

ليس التغير بنفس الأهمية التي يتصورها مفكرو ما بعد الحداثة

يستشهد المعترضون على التصور القائل بحدوث تغير اجتماعي جذري، بأمثلة تاريخية لظواهر مشابهة لذلك، كان يُنظر إليها في حينها على أنها ذات دلالة اجتماعية عظيمة، إلا أنه آل بها الأمر في النهاية إلى أن رُفضت بوصفها بدعاً أو أشكالاً ذات مراحل عابرة. وهذا الرأي هو ما يقول بهِ تاترسول Tattersall (١٩٩٧، ص٢٣):

"يُعتبر ليوتار من بين المقتنعين بأن التطورات الحديثة تدل على مَقْدِم عَصر ما بَعْدَ حداثي. ومع ذلك، فإن بالإمكان النظر إلى هذه التغيرات التي نتبين عند تأملها أنها أمور تتصل بالأسلوب أو الدرجة أكثر من كونها تتصل بالنوع؛ فالشباب لم يُظهر أبداً اهتماما كبيرا بالماضي، والثقافة تم تسليعها (عُوملت معاملة السلع) وأصبحت تباع مُنذ اختراع المطبعة، وكانَ التلغراف يُعدّ تقدما كبيرا في تكنولوجيا المعلومات مثلما أصبح الكومبيوتر الآن، وفرضت الحركة الفنية المُسمّاة "بالدادية"(*) تحدياً جوهرياً في مجال الثقافة أكثر من أي شيء حدث منذ ذلك الوقت.

لا جديد تحت الشمس، وقد تكون ما بعد الحداثة نوعاً من الوهم – لا يزيد عن كونه خرافة مُركبة – وقد يكون الذي خلق هذا الوهم نوعٌ من الأداء البالغ الحساسية لألعاب اللغة الغامضة.وإذا قال أحدهم إن هذا الوهم يفتقد أي حقيقة ملموسة، حسناً، فماذا سوى ذلك يمكنك أن تتوقعه من مفهوم اخترعه فلاسفة كليوتار، ممن ينكرون إمكان التوصل إلى إدراك للواقع من خلال العمليات العقلية".

إذا راجعنا الأفكار الأساسية لما بعد الحداثة، فمن الممكن إلقاء المزيد من الشكوك على المزاعم التي تقول إنَّ حِقبة جديدة قد بدأت في الظهور. ورغم أن كثيراً من الملامح التي شخصها مُفكرو ما بعد الحداثة تبدو أنها سمة لأواخر القرن

(*) الدادية: Dadaism ;Dada حركة أدبية وفنية فوضوية نشطت في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية بعد الحرب العالمية الأولى. رفضت القيم الأخلاقية والجمالية التقليدية إلى حد العدمية والعبث، ولكن دعوتها إلى الحرية والتلقائية في الخلق الفني مهدت السبيل لظهور أنماط جديدة من التعبير، وبخاصة لظهور السريالية surrealism والتعبيرية التجريدية abstract expressionism. أنشأها تزارا Tzara عام ١٩١٦ في زيورخ بسويسرا، ومن أبرز ممثليها أرب Arp وأرنست Ernst ودوشان Duchamp وغروس Grosz وبيكابيا Picabia وغيرهم. وقد انضوى معظمهم تحت لواء السريالية في ما بعد. و "دادا"dada تعنى في الفرنسية الحمار الخشبي الذي يمتطيه الأطفال. وقد وقع شعراء هذا المذهب على تلك اللفظة الفارغة مصادفة، في معجم فرنسي ألماني فوجدوا فيها خير معبر عن عبثيتهم وسارعوا إلى اتخاذها علماً على مدرستهم الفنية. انظر، موسوعة المورد، بيروت، ١٩٩٠، مجلد ٢٣ ص٤٤. (المترجم)

العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين، فإن غيرها من الملامح تُعَدُّ محلَّ خِلاف. مثال ذلك، أن مفكري ما بعد الحداثة يزعمون أن الاقتصاد قد نبذ الإنتاج الكبير الفوردي وفضّل عليه أنماطاً مرنةً في التشغيل وقوةَ عملٍ مرنة. ومع ذلك فإنه يوجد كثير من الممارسات الفوردية التي لا تزال فعالة حتى الآن.

وفي السياسة، تُظهر النزاعات التي شخصها مفكرو ما بعد الحداثة علاماتٍ على الرجوع إلى الأوضاع السابقة. مثال ذلك، أن حزب العمال الجديد في بريطانيا يبدو مُفضلاً للمزيد من تدخل الدولة في إدارة الأصول المملوكة للقطاع الخاص. ومن الشواهد على ذلك تدخل الحكومة في الامتياز الممنوح للسكك الحديدية والمُخصَّص لإدارة قطار "يوروليتك"(الأوروبي) فائق السرعة، "وتأميم"بنك نورثرن روك، وبنك برادفورد وبنجلي بعد أن أوشكا على الانهيار عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨. يُضاف إلى ذلك أنَّ التسييس المتزايد والتحكم الحكومي المركزي المتزايد في المناهج الدراسية والتعليم وفي سياسات الرعاية أيضا يمكن تفسيرها كنوع من الرجوع إلى نمط الدولة التدخلية التي كانت قائمة في أربعينيات القرن العشرين.

وأخيراً، وكما بيَّن تاترسول قبل ذلك، فإن المُوضات والبدع أو التقاليع كانت على الدوام ملمحاً خاصاً من ملامح الثقافة، ولعلَّها ستظل كذلك في المستقبل. لذلك فإن بالإمكان أن يَدل الاتجاه الراهن لاستكشاف وتجديد أساليب الموسيقى القديمة والأغاني العاطفية القديمة على وجود رغبةٍ في جعل الماضي جذاباً للأجيال المعاصرة وميسوراً لها، وليس على التجاور المقصود للأساليب الفنية في جنسٍ فني ما بعد حداثي.

حدوث التغير التطوري

والرأي الثالث مفاده أن التغير قد حدث فعلا، إلا أنه لا يدلُّ على فجر حقبة جديدة، بل هو مُجرد شكلٍ أكثر تقدماً للحقبة الحالية. وقد نبذ مفكرون عديدون الفكرة القائلة بأننا ندخل في عهد ما بعد حداثي. وكما يلاحظ تومبسون Tompson (١٩٩٢)، فقد يكون أشدُّ النُّقاد عنفاً لهذه الفكرة هم الماركسيون التقليديون (انظر كالينيكوس Callinicos، ١٩٨٩)، والذين يسعون لإعادة تأكيد التراث الاشتراكي الثوري لأسبقية السياسة القائمة على أساس طبقي في مواجهة مَنْ يعتبرونهم "المراجعون"(*) أو أنصار "العصر الحديث" الذي يتسم بالمزيد من التعددية:

إن الانتقادات التي يوجهها كالينيكوس إلى فكرة "العصر الحديث"وحقبة ما بعد الحداثة تضُم أفكاراً مُفصلة عن مدى الانحدار الذي وصل إليه الإنتاج الكبير الفوردي، وعمّا إذا كانت النزعات الثقافية ما بعد الحداثية مختلفة أيَّ اختلاف عن الحداثة من عدمه. وهو يشتد في هجومه على الفكرة التي تقول بوجود نُقلة حاسمة من حقبة حديثة إلى حقبة ما بعد حديثة، وذلك على الرغم من أن الهجوم على الفكرة الأكثر اعتدالا والقائلة بالتغير التدريجي جاء أقلّ حسماً". (تومبسون، ١٩٩٢، ص٢٣٩).

ويتخذ الماركسيون الجُدد موقفاً أقلَّ تطرفاً، يعترفون فيه بأننا نشهد في السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين تطورات مهمة على امتداد نطاقِ الخبرة الإنسانية بأكملها (تاترسول، ١٩٩٧). وهم لا يرون في هذا الأمر مؤشرا على بداية حقبةٍ جديدة، بل الأحرَى أنه يَدُلُّ على ظهور شكل أكثر تعقُداً للحداثة. ويتبني كثير من الكُتّاب هذه الرؤية، مستخدمين في وصفها مجموعة من المصطلحات:

(*) لفظ يطلقه الماركسيون على الخارجين على العقيدة الماركسية، فالمراجعة ليست سوى تهمة يوصم بها من يناقش أو "يراجع" الأساسيات. (المترجم)

"يفضل بعض المفكرين – خاصة الماركسيين الجدد- مصطلحات معينة كمصطلح "الرأسمالية المتأخرة"، ومصطلح "رأسمالية المرحلة الثالثة"؛ يفضلونها على مصطلح ما بعد الحداثة. أما الصيغة التي قدمها جيدنز وهي "الحداثة المتطرفة"، مع أنه يقول فعلاً أننا "قد دخلنا في عالمٍ جديد ومُزعج من الخبرة. ويوافق جيمسون على وجود ثقافة ما بعد حداثية متميزة، إلا أنه يؤكد أنها ليست سوى "منطق الرأسمالية المتأخرة". (المرجع نفسه، ص٢٣).

إن رفض بعض النقاد لما بعد الحداثة، لا يعني أنهم ينبذون بالضرورة جميع المفاهيم المرتبطة بهذهِ الفكرة. مثال ذلك، أن تأثير العولمة أصبح موضوعاً محوريا للجدل بين كثير من علماء الاجتماع المعاصرين، بمن فيهم جيدنز. ذلك أن جيدنز رغم اختلافه عن مفكري ما بعد الحداثة، والذين يعتبرون العولمة سبباً ونتيجةً لما بعد الحداثة، فإنه يعتبرها ملمحاً مُميزاً للحداثة.فقد دخلنا مرحلة الحداثة العليا أو الأخيرة، والتي تدل على الانتهاء الجذري للتراث على المستوى العالمي. فالحداثة أصبحت كوكبية في وقعها وتأثيرها، إذْ تقوم جميع أجزاء العالم بتشكيل عناصر نظامٍ مُعَولمٍ للحداثة (سكوت، Scott، ١٩٩٢).

	تمرين ٥-٨
تطبيق تحليل معرفة فهم	يُقدم الجدول التالي موجزاً بوجهات النظر الأساسية في جدل الحداثة وما بعد الحداثة. وهو يحتوي على عددٍ من الأخطاء المقصودة. استعمل المعرفة التي اكتسبتها في التعرف على هذه الأخطاء وتصحيحها. قم بنسخ الجدول واكتب المعلومات الصحيحة داخل مربعات أو براويز. وسوف يكون ذلك نوعاً من المساعدة المفيدة لك في مراجعة مقررك الدراسي مستقبلا.

جدل الحداثة وما بعد الحداثة: مُوجز لوجهات النظر الأساسية

وجهة النظر	الكتاب الأساسيون	الآراء الأساسية
الحداثة	ليوتار بودريار	تعرض المجتمع للتغير في ثلاثة مجالات للحياة الاجتماعية هي: ١- الاقتصاد – ما بَعد الفوردي ٢- السياسة – إلغاء المركزية/ الخصخصة. ٣- الثقافة – سريعة الزوال: الموضة/ الصورة. تعكس الميول الموجودة في كل مجال اتجاهات أوسع نطاقاً في المجتمع الكبير. وقد دخلنا في حقبة ذات سماتٍ متميزة. والمجال الأشدُّ تأثيراً من مجالات الحياة هو الثقافة. ويشكل الاتصال الجماهيري والثقافة الجماهيرية ركيزة التحولات الاقتصادية والسياسية كما يُحددان الواقع الاجتماعي.
ما بعد الحداثة	تاترسول وولبي كالينيكوس	لقد دخلنا مرحلة تاريخية داخل حِقبة أوسع نطاقاً ولم ندخل عهداً جديداً. وقد حدثت تطورات مهمة في مجالات اجتماعية كثيرة، وذلك على الرغم من أن هذا يدل على شكلٍ الحداثة أكثر تعقيداً ولا يدل على اختفائها وحلول ما بعد الحداثة محلها. وقد أطلقت أسماء عديدة عليها، من قبيل: الحداثة العليا،

		"الرأسمالية المتأخرة"، و"رأسمالية المرحلة الثالثة". ويوافق جيمسون على وجود ثقافة ما بعد حداثية متميزة "المنطق الثقافي للرأسمالية المتأخرة"، إلا أنه يؤكد على أن هذا الحكم ليس عاماً فلا ينسحب على المجتمع ما بعد الحديث، أي إنه لم تتسبب هذه الثقافة في صنع ما بعد الحداثة.
الحداثة وبدائلها	جيدنز جيمسون	"التغيرات" التي شخصها المفكرون ما بعد الحداثيون ليست بنفس الانتشار ولا الأهمية اللذين يريد هؤلاء المفكرون أن يجعلونا نؤمن بهما: ١- من الناحية الاقتصادية: لا يزال الإنتاج الكبير سائداً، كما أن الرأسمالية لم تصبح "غير منظمة". ٢- من الناحية السياسية:التغير الحديث في نظام الحكم في الولايات المتحدة أدّى إلى ميلاد جديد للتأميم وللتدخل المركزي للدولة. ٣- من الناحية الثقافية: ليست الموضة والتقاليع بالأمر الجديد، وهما تبدوان أنهما تتخذان شكل الدورات التاريخية . فإن كان للتغيرات وجود فهي تغيرات في "الأسلوب أو في الدرجة وليس في النوع". "فلا جديد تحت الشمس". وما بعد الحداثة أسطورة مُركّبة.

من الموضوعات الأساسية الشائعة في الكتابة ما بعد الحداثية أنه ليس للتراث مكان في الحياة المعاصرة وأن الناس في وقتنا هذا أصبحوا أكثر اهتماما بالتقاليع والمُوضات القصيرة العمر منهم بالسمات الراسخة للمجتمع. وبافتراض أنّه ظهر للوجود مجتمع ما بعد حديث، فلابد أن يُوجد دليلٌ على نَبذ التراث إيثاراً للتفاهات عليه. ومن شأن ذلك أن يشكّلَ تهديداً لوجود المؤسسات التراثية ما لم تختَرْ هذه المؤسسات أن تقدم صُورةً لنفسها أكثر مُعاصرةً.

وهذا الموضوع الأساس موضوع مألوف، وقد أخذ الاهتمام يتركز مؤخرا على العائلة المالكة البريطانية لأنه يبدو أن الرأي العام، وكما تذكر ذلك وسائل الاتصال الجماهيرية، يبدو أنه ينادي بأن تقوم الملكية بتحديث نفسها وبالاقتراب من الشعب. ويثير هذا الوضع أسئلة مهمة عما تحاول الملكية أن تمثّله، وعما إذا كانت لا تزال ذات أهمية من عدمه، وإذا كانت ستخون أصولها التاريخية لو أنها أقدمت على "تحديث"نفسها أم لا. (انظر التمرين ٥-٩).

الموضوع (D)
العائلة المالكة (البريطانية) وما بعد الحداثة
يمكن القول بوجه عام أن الملكة والعائلة المالكة يجذون أنفسهم بوصفهم التجسيد الحي للتراث في مأزقٍ ما. ومع أنهم حَدّدوا موقعهم باعتبارهم الأداة الرابطة لعناصر المجتمع، فقد أجادوا القيام بدورهم عندما كانت تسود الأفكار القائلة بضرورة النظام والاستقرار والاستمرار. أما في هذا العالم الما بعد الحديث السريع الحركة، والذي يكون للصورة والمظهر الخارجي فيه أهمية أكبر من الجوهر أو الواقع المحسوس، فإن الملكية قد تكون في خطرٍ بوصفها تمثل

نوعاً من المفارقة التاريخية (أعنى بذلك أنها أصبحت خارج العصر). وقد سلطت الأضواء على هذا الأمر من خلال ما أبداه الناس من رُدود أفعالٍ على استجابة العائلة المالكة لوفاة الأميرة ديانا. وقد عبَّرَ بعض أعضاء الجمهور عن وجهة النظر التي ترى أن العائلة المالكة قد أظهرت مدى بُعدها عن مشاعر الناس وعدم إحساسها بها. ويتمثل أحد الحلول الممكنة في ضرورة قيام العائلة المالكة باستخدام استراتيجياتٍ علاقاتٍ عامةٍ أفضل لتقديم صورتها للعالم ككل.

تمرين ٥-٩

تقييم

سوف يُمكنك هذا التمرين من إمعان النظر في بعض القضايا المُثارة من قبل.اقرأ الموضوع (D) وناقش المسائل التالية وسط مجموعة صغيرة العدد من زملائك:

١- إلى أي مدى تعكس ظاهرة ديانا التعليقات التي تتعرض للثقافة ما بعد الحديثة؟

(ملحوظة:انتفع بالأسئلة التالية لتساعدك في صياغة مناقشتك).

- هل كانت ديانا تتمتع بالشعبية لأنها كانت تجسد التفاهات أو الاهتمامات السطحية؟
- هل نَجمَت شعبيتها من رفضها "المرح" للقواعد والتقاليد المُتّفق عليها من قبل؟
- لو فرض أن ديانا لم تكن موجودة، هل كان سيُسمح للملكية أن تستمر بدون اعتراضٍ على التراث؟
- هل كانت ديانا أميرة ما بعد حديثة؟

تحليل تقييم	٢- هل ينبغي على العائلة الملكة أن "تُحدّث" نفسها استجابة للرأي العام؟ (ملحوظة: أعمل فكر في القضايا التالية: • ما مخاطر هذا التصرف؟ فكر في الطبيعة سريعة الزوال للثقافة ما بعد الحديثة. • ما دلالات هذا التصرف بالنسبة للسيادة البريطانية ولبريطانيا كدولة قومية؟)

تقييم الحداثة / وما بعد الحداثة

	تمرين ٥-١٠
تفسير تطبيق	يحاول النص التالي أن يتبين الإسهام الذي قدّمه هذا الجدل لعلم الاجتماع المعاصر. هاتِ الكلمات الناقصة في القائمة المذكورة بَعْدُ: **أشكال إعادة بناء ما بعد الحداثة، أو العصر الحديث** رأى معظم المفكرين الذين كتبوا عن ______ أنها نوع من الفترات ______ التي تُفسحُ فيها الـ ______ القديمة الطريق للنظم الأحداث، وذلك كما حدث في التغير والتحوُّل من ______ إلى الإنتاج الـ ______؛ فالخدمات تتفوق باستمرار على ______؛ والـ ______ التي تتخطى الحدود القومية آخذةٌ في الازدهار، و"المجتمع المدني" آخذٌ في التوسع كما أنه يتحول إلى مجتمع أكثر ______، ليس فقط فيما يتصل بالجماعات الـ المختلفة والـ ______، بل كذلك فيما يتصل بـ ______ الحياة الاجتماعية، والتي يكون فيها للناس العاديين في المجتمعات الصناعية مجالٌ أكبر من

الأوضاع والمراكز والـ ــــــــ المتاحة لهم في حيواتهم اليومية والـ ــــــــ. وتوجد آراء مختلفة فيما يتصل بمدى ما وصلتْ إليه هذه التغيرات (وخاصة فيما يتصل بما إذا كانت هذه التغيرات تنطبق فقط على البلاد الصناعية والـ ــــــــ ثلثي الناس في تلك البلاد). وتختلف الآراء كذلك حوّل ما إذا كانت هذه التغيرات قابلة لأن تُصنف تحت المنطق القائل بمرحلة جديدة للـ ــــــــ. ومع ذلك، وإذا نحينا جانباً السؤال عما إذا كان ممكناً التنبؤ بمرحلة مستقبلية في الطريقة التي يتخيل بها الناس هذا المشروع، فلا ريب أن التحليلات الخاصة بما بعد الحداثة أو ــــــــ تحاول أن تُطور ــــــــ فئات جديدة تكون أكثر تلاؤماً مع ما للحياة الاجتماعية من ثراءٍ في تغير الأشكال والألوان، كما تكون قد نجحت في إثارة مجادلات جديدة ومُثيرة (منقولة بتصرُّف من تومبسون، ١٩٩٢). **الكلمات الناقصة (المطلوب أن توضع مكانها):** • المستهلك • اجتماعي • مفاهيم• يتفوق على• الفوردي• متعدد الأشكال• العامل •الرأسمالية العالمية• الهويات• أنظمة الإنتاج• أساليب الحياة •ما بعد الفوردي • التعدد • التطور الاجتماعي • التصنيعي • العائلة •حركة التنوير • معاصر • المنظمات •الانتقال • ما بعد الحداثة •العصر الحديث.	

العولمة: عالم واحدٌ أم مجتمع من الدول؟

"من الآن فصاعداً، لن يقع أمرٌ على كوكبنا ويكون حدثاً محليا فقط" (أولريش بك U. Beck، كما ورد في ما سيونيس Macionis وبلامر Plummer، ٢٠٠٥).

فقد أصبحت العولمة أحد المجالات التي تتزايد أهميتها لدى علماء الاجتماع. إذ لا يقتصر أمرها على أن من المستطاع استكشافها كموضوع في حد ذاته، بل يضاف إلى ذلك أن تأثيرها يُشكل سمةً بارزة في كثير من المناقشات تناولناها من قبل. وسوف تناقش هذه الفقرة تعريف العولمة، وبعض سماتها الأساسية، والنظريات التي تتناول أسباب العولمة وما تنطوي عليه من دلالات. وينبغي أن يمكّننا ذلك من أن نقرر ما إذا كان من الأنسب في وقتنا هذا أن نفسر المجتمع وفقاً للتصورات العالمية، وليس وفقاً لما تفرضهُ الحدود البنائية أو الجغرافية من قيود. يُضاف إلى ذلك، أننا سوف نُمعن النظر في السؤال المتعلق بما إذا كانت الدولة الإقليمية (ذات النطاق الإقليمي المُحدد) كفّت عن كونها وحدةً أساسية في الشئون العالمية أو بما إذا كانت لا تزال لها مكان في السياسة الحديثة من عدَمه.

قدم الدارسون تعريفات كثيرة للعولمة (انظر على سبيل المثال والرشتاين Wallerstein، ١٩٩١؛ ماكجرو McGrew، ١٩٩٢؛ وسكلير Sklair، ١٩٩٣؛ وروبنز Robins ١٩٩٧)، إلا أن هذه التعريفات تبدو – في جوهرها – متشابهة.وتُعرّف العولمة بوصفها عملية يتم بمقتضاها تحطيم الحدود القومية والدولية عن طريق النشاط الاقتصادي، والسياسي، والثقافي الذي يجري على مستوى العالم بأسره. ويُعزَى هذا الوضع إلى ظهور الشركات عابرة القوميات، والتقسيم الدولي الجديد للعمل، وتطور شبكات الاتصال العالمية (سكلير، ٢٠٠٣).

والعولمة عملية نسبية – بمعنى أن أثرها ليس شاملاً، كما أن الناس في المناطق المختلفة سيلمسون آثار العولمة بطرقٍ مختلفة. ولا تظهر العولمة بصورة منطقية أو ضرورية داخل مدى زمنيٍ مُحَدَّد، وذلك لأن تطورها مرتبط بالظروف الاجتماعية السائدة في كل مجتمع. ونظراً لأن أثر العولمة يبدو أكثر وضوحاً في العالم الغربي، فقد زعم بعض الكتاب أن العولمة خِبرة غربية وليست خبرة كوكبية فعلاً. ومع ذلك، فقد ذهب بعض النقاد إلى أن ما يجعل العولمة خبرة كوكبية فعلاً

هو ما يكون للتطورات التي تحدث في منطقة من العالم من تأثيرات على منطقة أخرى. ورغم أن الأقاليم قد لا تبدو متأثرة بالعولمة بصورة مباشرة، فإنها تتأثر من خلال علاقاتها بالبلاد الأخرى في العالم.

ورغم وجود قدر لا يستهان به من الاختلاف بشأن أسباب العولمة ودلالاتها الضمنية، فإن علماء الاجتماع يعترفون فعلاً بوجود عدد من السمات المميزة التي يبدو أنها تعكس صورة العولمة، على نحو ما يتضح من النص التالي:

- *"الحراك المتنامي عبرَ الحدود (أي: حراك البضائع، والسلع، والمعلومات، والاتصال، والمنتجات، والخدمات، والبشر).*
- *التغيرات في الحياة الاجتماعية والحياة الثقافية، وتزامن وجود الكيانات الاقتصادية القومية في نفس الوقت (أعني بذلك أن قطاع الأعمال الدولي يتم توجيهه في مناطق زمنية مشتركة).*
- *الأهمية المتزايدة للمعرفة والمعلومات في الاقتصاد العالمي المتغير".*

أشار ماسيونيس وبلامر (٢٠٠٥) إلى ست سمات أساسية للعولمة (انظر كذلك تمرين ٥-١١).

١- تغيير حدود التعاملات الاقتصادية.

٢- الاتصال المتوسع في شبكة عولمية واحدة.

٣- خلق ثقافة كوكبية.

٤- الأشكال الجديدة للحوكمة (أو السيطرة) الدولية.

٥- وجود وعي بالمشكلات العالمية المشتركة.

٦- خلق مجتمع المخاطر.

	تمرين ٥-١١
تفسير - تحليل تطبيق - تقييم	هاتِ مثالاً لكلٍّ من النقاط الستة التي أشار إليها ما سيونيس وبلامر.

السمات الكوكبية والسمات المحلية

وجه الباحثون قدرا عظيما من الاهتمام لدراسة العلاقة بين السمات الكوكبية الآخذة في الظهور والسمات المحلية الراهنة. وصفة "المَحَلي"هي الأخرى مفهومٌ نسبيٌ في الكتابات التي تتناول موضوع العولمة. وهذه الصفة لا تشير حرفياً إلى المجتمع المحلي، بل إلى النقيض التام للكوكبي. ومن ثَمَّ فإنه قد يُحتمل أن يشار بالمَحَليِّ إلى الموقع المُحدَّد، أو الإقليم، أو الأمة، أو حتى إلى مَجَالٍ متعدد القوميات من مجالات النشاط (سكلير، ١٩٩٣). وقد سَعى الكتاب لاستكشاف مدى استجابة "المَحَليّ" "للكوكبي" حتى يتأكدوا من أنه لم يُطرح جانباً في أثناء عملية العولمة. مثال ذلك، أن المُدُن تحاول أن تُسوقَ أنفسها باعتبارها مواقع مُفَضلة، فتستغل ماالديها من أصول وموارد لتجتذب الاستثمار الصناعي والتجاري إليها، كما تجتذب الأنشطة العامة المتحركة كالمؤتمرات والمُلتقيات، والأحداث الرياضية المهمة، ومتاحف العلوم، وحدائق الملاهي، والمعارض وما إلى ذلك (روبنز، ١٩٩٧).

وفي نفس الوقت، كانت المقاومة المحلية للعولمة مَحلَّ اهتمام ظاهر. مثال ذلك، أن بعض الجماعات تسعى للحفاظ على هويتها الثقافية المتفردة في مواجهة الضغط المتزايد عليها لِتَبنّي هويةٍ كوكبية. وقد تَسبَّبت العولمة في شن الحملات الثقافية النشيطة للدفاع عن الهويات المحلية والخاصَّة (روبنز١٩٩٧). يُضاف إلى

ذلك، أن الحملات المحلية للدفاع عن الإقليم والثقافة تُعدُّ سمةً مميزة لمقاومة الطلب العالمي على الأخشاب والطعام، خاصة في منطقة الغابات المطيرة في حوض الأمازون. ومن الأمثلة على ذلك شعب الكايابو Kayapo – من سُكان البرازيل الأصليين – والذي يعيش من قديم الزمان في منطقة الغابات المطيرة بالبرازيل. فهم خبراء في الانتفاع بوسائل الاتصال الدولية والشخصيات الشهيرة الدولية – مثل ستينج Sting – التي يستعينون بها ليجعلوا قضيتهم المرفوعة ضد شركات قطع أشجار الأخشاب والمزارعين من مُربي الماشية في الأمازون. وقد نجحوا في حماية الأراضي التي تعيش عليها قبيلتهم عن طريق إنشائهم لإحدى المحميات، كما نجحوا في الضغط على الحكومة لتدعم قضيتم. ومن المُتفق عليه أن شعب الكايابو يملك أرضه ويستطيع أن يمنع الجماعات الأخرى من استغلالها.

نظريات العولمة

قدّم ماكجرو (١٩٩٢) تمييزاً نافعاً بين التفسيرات الأُحادية والتفسيرات المتعددة الأسباب للعولمة. فالتفسيرات الأُحادية (انظر والرشتاين، ١٩٨٤؛ وجيلبين Gilpin، ١٩٨٧؛ وروزينو Rosenau، ١٩٩٠) تُميز عاملاً رئيسياً واحداً باعتباره المسئول عن ظهور العولمة. أما التفسيرات المتعددة الأسباب فتميل إلى التركيز على التأثيرات التي تُحدثها مختلف العوامل المتشابكة (انظر روبرتسون Robertson، ١٩٩١؛ وسكلير، ١٩٩١؛ جيدنز، ١٩٩٢). وقد وُجّه قَدرٌ من الاهتمام إلى دراسة العلاقة المتبادلة بين هذه العوامل، إلا أن تأثير العولمة قد حظي بقدر أعظم من الاهتمام.

ويذهب والرشتاين (١٩٩١)، وهو أحد أنصار نظرية النظم العالمية (والتي تقول بالترابط بين النظم القومية للحكم، والاقتصاد، والاتصال، وما إلى ذلك)؛ نقول

يذهب والرشتاين إلى أن العولمة مرتبطة بديناميات الرأسمالية التاريخية. فمنطق الرأسمالية التاريخية، عند والرشتاين، هو بالضرورة منطق عالمي في مداه وتأثيره (ماكجرو، ١٩٩٢). ويتصور والرشتاين العولمة بوصفها عملية اقتصادية بصورة عامّة. وبينما قامت الرأسمالية بخلق نظام اقتصادي عالمي بالتدريج، فإن البناء السياسي يَظَلُّ على مستوى الدولة القومية كما يظل الحُكم بيد الدولة ذات السيادة. ويحتفظ الاقتصاد العالمي بالبنية الجائرة غير العادلة التي تُميز الرأسمالية بصورة واضحة عَبْرَ العصور..

ومع ذلك لا ينظر إلى هذه البنية بوصفها ذات تدرج هرمي. وبدلاً من ذلك، يُقدِّم والرشتاين تحليلاً جغرافياً لتوزيع القوة، يُحدِّد فيه مكان القوة الاقتصادية الأساسية في موقع القلب، ومكان القوة الأقل تَقَدماً في المناطق شبه الهامشية والمناطق الهامشية. ولكل من هاتين القوتين دورها الذي تقوم به لتحافظ على التكامل الشامل لهذا النظام. ومع ذلك، فإن هذا الوضع لا يَلْقَ قبولاً عاماً من كل أقسام العالم المختلفة، بل قُوبلت العلاقات الاقتصادية الكوكبية بالمقاومة على مستوى عالمي في صورة الحركات المضادة لذلك التنظيم الدولي الجديد، نذكر منها على سبيل المثال: الحركات البيئية، والحركات الاشتراكية، والحركات القومية (ماكجرو، ١٩٩٢). وفي نظر والرشتاين أن هذه المقاومة بجانب صراع المصالح هما اللذان سيؤديان إلى انهيار الاقتصاد الرأسمالي العالمي في نهاية المطاف.

ويرى فريدمان Friedman (٢٠٠٠) أن المجتمعات الغربية لم تتسبب في إحداث العولمة على وَجْهِ الدِّقة، إنما خلقت صُورة أمريكية منها. فقد آل الأمر بالولايات المتحدة، ومن خلال "العلامات التجارية" العالمية ابتداءً من الكوكاكولا وماكدونالدز وانتهاء بأنظمة الكومبيوتر والميكي ماوس، إلى أن تصبح قوة اقتصادية، عسكرية، ثقافية، اجتماعية دولية.

ويُقدم روزينو (١٩٩٠) وجهة نظر مختلفة عن سبب العولمة، يُحدد فيها موقعها داخل المملكة التكنولوجية. ويتمثل المفهوم الأساسي عنده في "الاعتماد المتبادل الكوكبي"، والذي ظهر كنتيجة للاختراقات التكنولوجية الباهرة. وهو يقدم رؤية للعالم الذي تتخطى فيه شبكات المواصلات وشبكات المعلومات المتقدمة الحدود الفاصلة بين الدول. وقد يكون نقل مكان بعض المشروعات الصناعية والتجارية، كشركة دايسون Dyson للمكانس الكهربائية، وشركة روفر Rover لإنتاج السيارات، وكذلك نقل مراكز الاتصال التليفوني الخاصة بالبنوك وشركات التأمين؛ نقول: قد يكون نقل مكان هذه الشركات والمراكز من المجتمعات الصناعية الغربية إلى الشرق الأقصى وشبه القارة الهندية أمثلة على ذلك الاعتماد المتبادل، إلا أنه قد يُفسَّر – في الوقت نفسه – في ضوء استغلال العمالة الرخيصة في تلك البلاد. وقد أدَّى ذلك إلى تغيير شكل الوضع الإنساني على الجبهتين – الجبهة الصناعية والجبهة السياسية. ويرى روزينو أن المجتمع ما بعد الحداثي أخذ يظهر للوجود وأن السياسة الدولية قد حلَّتْ محلها السياسة ما بعد الدولية – وهي حقبة يتوجب على الدول القومية فيها أن تتقاسم خَشبة المسرح العالمي مع المنظمات الدولية، والشركات عابرة القوميات، والحركات عابرة القوميات. فالدولة لم تَعُد الوحدة الأساسية للشئون العالمية (ماكجرو، ١٩٩٢، ص٧١).

وخلافاً للكتاب السابقْ ذكرهم، يرى جيدنز (٢٠٠٣) أن العولمة لها أكثر من عامل تسبَّبَ في ظهورها. وهو يرى أن للعولمة أربعة أبعاد: نظام الدولة القومية، والنظام العسكري العالمي، والتقسيم الدولي للعمل، والاقتصاد الرأسمالي العالمي. والعولمة، في نظر جيدنز، هي إحدى ثمار الحداثة في حد ذاتها، كما أنها ترتبط بالفكرة التي مَفادها أننا جميعاً نعيش في عالم واحد. ولكل عامل تأثير متميز على العولمة كما أن تأثيره يتوقف على العوامل المؤسَّسية وما يترتب عليها من نتائج. ويعلق ماكجرو (١٩٩٢، ص٧٢) قائلاً: *وهكذا، فإن منطق وتناقضات الاقتصاد*

العالمي الرأسمالي تؤثر على سُرعة نمو العولمة الاقتصادية ونمطها، وفي نفس الوقت، فإنه في نطاق النظام القائم بين الدول، يكون شكل "عالمية الدولة القومية" هو المسئول عن خلق عالم واحد (جيدنز، ١٩٨٧، ص٢٨٣). وبالمثل، فإن"عولمة القوة العسكرية" (جيدنز، ١٩٩٠، ص٧٥). ترتبط بمنطق النزعة العسكرية، بينما يتوقف التقسيم العالمي المتغير للعمل على منطق النزعة الصناعية".

يكمن اهتمام جيدنز في استكشاف الصلات المتبادلة بين هذه العوامل، وكذلك في استكشاف ما يترتب عليها من نتائج بالنسبة للعولمة كعملية. فقد رأى المراقبون – كهارفى مثلاً (٢٠٠٥)- أن غزو العراق في سنة ٢٠٠٣ على يد القوات الأمريكية، والبريطانية، والاسترالية، والبولندية، والدانماركية؛ رأوا أنه بمثابة شاهد على الصلات المتبادلة بين الحاجة إلى تأمين مصادر الثروة الصناعية المتزايدة النُدرة كالبترول مثلاً، والقوة العسكرية، وفرض أشكال مُعينة للحُكم "كالديموقراطية بدلا من الديكتاتورية". فهذه "الإمبريالية الجديدة" (أو الاستعمار الجديد) يُمكن رؤيتها بوصفها صورةً أكثر رُقياً وتعقيدا للكولونيالية القديمة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي الصورة التي تستخدم فيها السيطرة الإيديولوجية جنباً إلى جنب القوة الاقتصادية، والعسكرية، والصناعية، والسياسية.ومن ثمّ، فقد تم تبرير الحرب في العراق عن طريق ربط جميع المسلمين بالهجوم الذي وقع على مركز التجارة العالمي في نيويورك سنة ٢٠٠١.

إن التحليل المتعدد الأبعاد الذي قدمه روبرتسون (١٩٩١) للعولمة يستوعب بداخله الجوانب الاقتصادية، والسياسية، والثقافية للعولمة. وهو ينادي باستكشاف كلّ جانبٍ على حدة بصفته قوةً مُؤثِّرة، وذلك لأن لكلّ جانبٍ منطقاً متميزاً. وقد استعمل مصطلح "العولمة"بطريقةٍ مفيدة في وصف العملية التي بها تستجيب المجتمعات المحلية للتغيرات الكوكبية بصورة متميزة. ويُوضح ماسيونيس وبلامر

(٢٠٠٥) المثال الذي مفاده أن الطعام التايلاندي قد أصبح طعاماً مُعولماً إلا أنه يتم تكييفيه كما أصبح يتميز تبعاً للمكان الذي يؤكَلُ فيه.فالطعام التايلاندي يختلف من لندن، إلى نيويورك، إلى بانجكوك، ودُبي.ومن الأمور التي يهتم بها روبرتسون اهتماماً خاصاً، الطريقة التي بها تجعل العولمة بعض مظاهر الحياة الحديثة ذات طابع عالمي (كالدولة القومية، والإنتاج بنظام خطوط التجميع، والموضات الاستهلاكية وما أشبه ذلك) بينما تقوم في نفس الوقت بتعزيز التفرد (مثال ذلك أنها تعزز انبعاث النزعة القومية من جديد وتُعزز الهويات الإثنية).

ويقدم سكلير (١٩٩٣) تفسيراً آخر متعدد الأسباب للعولمة، حيث يركز على الممارسات عابرة القوميات. ويذهب سكلير إلى أن العَوْلَمي يعني ما هو أكثر من مُجرد "العلاقات بين الدول". (المرجع نفسه، ص٩) ويُعَرف الممارسات عابرة القوميات على النحو التالي:

"هي الممارسات التي تصدر عن فاعلين لا ينتمون لدول أو عن فاعلين عبر حدود الدول. ويتم تمييز هذه الممارسات بصورة تحليلية في ثلاثة مجالات: المجال الاقتصادي، والمجال السياسي، والمجال الثقافي – الإيديولوجي. وتتسم كل واحدة من هذه الممارسات بمؤسسة رئيسية. فالشركات عابرة القوميات(*) هي أهم نظام بالنسبة للممارسات الاقتصادية العابرة للقوميات، والطبقة الرأسمالية عابرة القوميات(**) هي أهم نظام بالنسبة للممارسات السياسية عابرة القوميات، وثقافة، وايديولوجيا النزعة الاستهلاكية هي أهم نظام بالنسبة للممارسات الثقافية – الإيديولوجية عابرة القوميات". (المرجع نفسه، ص٩).

(*) TNC =Transnational Corporation.

(**) TCC = Transnatinal Capitalist Class.

هذا النموذج الفكرى يتجاوز نطاق التركيز على الدولة باعتبارها عاملاً محورياً، وذلك وفقاً لما يقول به جيدنز من أنه لا يمكن فهم العولمة إلا فى ضوء القوة الاقتصادية للشركات عابرة. القوميات، والتنظيم السياسى للطبقات عابرة القوميات، والتحكم فى وسائل الاتصال العالمية "لتتولى ترويج ثقافة وإيديولوجيا النزعة الاستهلاكية فى جميع أنحاء العالم، (سكلير، ١٩٩٣، ص٩). يضاف إلى ذلك أن توطين الشركات وقطاع الأعمال وما لهما من قوة مُؤثرة ونفوذ في بقاع "العالم الثالث"من المواقع الصناعية وبالعكس يُعدُ واحدةً من ظواهر القرن الواحد والعشرين التي يتزايد انتشارها باستمرار.

العولمة والرياضة

تُعد الرياضة مجالاً يوضح تأثير العولمة توضيحا جيداً. فبينما كان من المعتاد أن يُنظر في الماضي إلى الرياضة كجزء من نسيج المجتمع المحلي – كفريق كرة القدم المحلي مثلاً – نجدها أصبحت في وقتنا هذا جُزءا من عملية العولمة. فأهل القمة من الرياضيين يتحولون إلى نجومٍ فائقين (سوبر ستارز) دوليين ذوي ثروات ضخمة يجوبون أنحاء العالم يتبعُهم مؤيدوهم ومشجعوهم. وقد أدت تغطية وسائل الاتصال الجماهيرية للأحداث الرياضية الدولية المهمة مثل: كأس العالم، ومباريات ويمبلدون (للتنس)، وفورميولا ون (لسباق السيارات)، والألعاب الأوليمبية، وذلك بجانب الإعلان عن المنتجات التجارية ورعايتها وبيعها، كل ذلك أدّى إلى جلب ساحة الرياضة وإدخالها في غرفة المعيشة لكل إنسان. والشركات التي لها تأثير مهم على الطبيعة العالمية للرياضة وهي شركة سكاي Sky، وديزني، وكوكاكولا، ونايكي Nike وكثير غيرها، بالإضافة إلى الترويج الجذاب القوي للسلع الرياضية، نقول؛ كل ذلك يُعدُ جُزءا من عَولمة الرياضة والأحداث الرياضية المهمة. وقد كان

العرض الباهر للمسابقات الأوليمبية لعام ٢٠٠٨ في بكين بالصين وحصد الصين العدد الأكبر من ميداليات الدورة، كان ذلك بمثابة إعلان للعالم عن موقع الدول النامية والشيوعية كلاعبين كبار في ساحة الرياضة الدولية. (انظر ماسيونيس وبلامر، ٢٠٠٥، وتمرين ٥-١٢ للقيام بنشاط إضافي).

	تمرين ٥-١٢
تطبيق تحليل تقييم	أدخل على موقع أوليمبياد لندن سنة ٢٠١٢ على الشبكة واعرف من يقوم برعاية هذه المباريات. ما الذي تجنيه هذه الشركات عموماً، وما الذي يُحفزها لتتكفل بنفقات دعم هذه المباريات؟ قدّم تقييما نقدياً لما تحظى بهِ شركات كوكاكولا، وماكدونالدز، وكادبوري من قبولٍ لدى الناس كرُعاةٍ للمباريات.

العولمة والدين

أدى تزايد الوصول إلى الكومبيوتر وتكنولوجيا المعلومات وتزايد استعمالهما، إلى عَولمة الدين كما يذهب إلى ذلك بعض علماء الاجتماع. فالإنترنت مصدر للمعلومات عن المُعتقد الديني والقيم الدينية، كما أن البعض يستعملونها كبديل مَحَليٍّ للتعبير عن التديُّن، كحضور الصلوات في الكنيسة مثلاً (ليون Lyon، ٢٠٠٠). كما أن استعمال مواقع الشبكة في تجنيد الأتباع وبث الروح فيهم على أيدي مجموعة متنوعة من الجماعات الدينية آخذٌ في التنامي والزيادة. يُضاف إلى ذلك، أن بالإمكان أن تصدق هذه الزيادة في النزعة الاستهلاكية على التعبير الديني. إذ أن الناس يمكنهم أن يأخذوا باتجاه قائم على "الاختيار ثم الجمع بين المختارات" فيما يتصل بتحديد المظاهر الدينية التي يتبعونها أو التي يؤمنون بها. وهذا الوضع يُشير – عند ليون ٢٠٠٠ – إلى أن الدين يَمر بأشكالٍ من التغير

والتنوع في العالم ما بَعد الحديث ولكنه لا يَضعُف. وهو يقدم المثال الدالّ على مدى تكيُّف الدين مع المجتمع ما بَعد الحديث في وصفه لمشاهد "حملة يوم الحصاد" في ديزنيلاند بكاليفورنيا، وهي المشاهد التي فيها تقوم مجموعة من المُبشرين بأداء أدوار تمثيلية – حيث يَعظون ويُغنون– وهم يُجسّدون مشاهد الخلاص المسيحي في هذه المَملكة الخيالية الشهيرة. وهكذا لم يعد الدين محصوراً داخل البيئات، أو المؤسسات، أو الحدود التقليدية.

الكولونيالية العكسية

"الكولونيالية العكسية" هو المصطلح الذي استعمله جيدنز (٢٠٠٣) ليصف الطرق التي بها يكون للكيانات الاقتصادية غير الغربية، والتي كانت قبل ذلك منسوبة للعالم الثالث؛ يكونُ لها تأثير على البلاد الغربية التي كانت تقوم من قبل بعملية العولمة. ويتمتع القرن الواحد والعشرون بالذات، وكما يرى باراكو Baracco (٢٠٠٦)، بجو عالميّ متميز خالٍ من الأحقاد القومية، وذلك لكون آسيا والصين هما القوتين الاقتصاديتين القويتَين اللتين دمغا السوق العالمي ببصمتيهما.ويكفي أن تلقى نظرة على ماركات الملابس التي ترتديها لترى الدليل على البراعة التصنيعية الفائقة لكل من الهند والصين. ويُعتبر نقلُ الشركات الأوروبية الناجحة إلى مواقع العالم الثالث، بجانب التأثير المتزايد للشركات الهندية والتصنيع الصيني في أوروبا؛ يُعتبر هذان الأمران من الشواهد على العولمة العكسية.

وقد تؤدي هذه التطورات إلى أمركةٍ أقلّ – وليست أكثر – في القرية الكونية. كما يشير باراكو إلى بُزوغ "ثقافة عصرية عالمية" ترجع أصولها إلى النظم والأنساق العالمية وليس إلى أمم بعينها أو إلى مجتمعات محلية مُحددة. ومن الراجح أن تكون هذه التطورات ذات طبيعة "فوضوية، عشوائية"، وأن تكون مستقلة عموماً عن إرادة أي قومية على حدتها أو أي مؤسسة تجارية بمفردها.

	تمرين ٥-١٣
معرفة فهم تطبيق	ارسم صورة أكبر للجدول المذكور هنا وأوجز الأفكار الرئيسية المتعلقة بأسباب العولمة. قد يكون من المفيد إعادة قراءة كل نظرية وتدوين ملاحظات مُختصرة قبل انتهائك من كتابة جدولك. وبمجرد استيفائه، فإنه سيوفر لك أداة مَرجعية سريعة عندما تصل للمراجعة.

أسباب العولمة – موجَز للأفكار الرئيسية		
النظريات أحادية السبب		
والرشتاين (١٩٨٣)	روزينو (١٩٩٠)	جيلبين (١٩٨٧)
النظريات متعددة الأسباب		
جيدنز (١٩٩٠)	روبرتسون (١٩٩١)	سكلير (١٩٩٣)

دلالات العولمة بالنسبة للمجتمع

بصرف النظر عن سبب (أو أسباب) العولمة، فإنه من المعترف بهِ عموماً أن العولمة تتسم بقدرٍ لا يُستهان به من التعقد. ويتصل هذا التعقد بوجهة النظر التي ذكرناها قبل ذلك عن الطبيعة النسبية للعولمة. فالعوامل السببية لا يَنتج عنها عملية عَولَمة كُلية وشاملة يشارك عن طريقها كل إنسان في العالم في خبرة مُشتركة بالعولمة و/أو أن العولمة لها خصائص ثابتة ومحددة. فالعولمة أكثر تعقيدا من ذلك، كما أن تأثيراتها تكون ذات طبيعة "ديناميكية"، وأغنى بذلك:أنها تكون نسبية

في المكان والزمان. والعولمة عملية جدلية لأنها لا تأتي بمجموعة ذات طابع عام من التغيرات التي تعمل في اتجاه مُوحد، بل تتكون من نزعات واتجاهات تتعارض مع بعضها البعض. (جيدنز، ١٩٩٠، ص١٦٤).

وهكذا يكون من المنطقي أن تُوجد تفسيرات مختلفة فيما يتصل بالدلالات التي تنطوي عليها العولمة، وهي التفسيرات التي يُوحي بعضها بأننا نقترب من الوصول إلى مجتمعٍ كوكبي أو عولمي (برلموتر Porlmutter، ١٩٩١؛ مودلسكي Modelski، ١٩٧٢)، بينما يذهب بعضها الآخر إلى أن العولمة قد أفضت إلى نوعٍ من تفتيت العالم إلى مجموعة من الدول. ويحدد مكجرو (١٩٩٢) أربعة تصوراتٍ للعولمة، يُقدّم اثنان منها تأييداً لفكرة وجود مجتمع عالمي واحد، كما يُوحي اثنان بأن العولمة ليست منتشرة بنفس الشلك وبنفس القدر في كل مكان وأن الدولة القومية والنظام القائم بين الدول مازالا هما الوضعان السائدان.

خمسة آراء في العولمة

١- **المجتمع العالمي**: يقدم برلموتر (١٩٩١) رأيا مَفادهُ أن العولمة تفضي إلى مجتمع عالمي. ويتضمن هذا الرأى نبذا للفكرة القائلة بأن العالم مُنظّم في صورة دول قومية متميزة عن بعضها، والتي تذهب – في مقابل ذلك – إلى سيادة نوع من "المصير المشترك" للجميع. ويتوسع كُتابٌ عديدون في وصف ملامح هذه "الحضارة الكوكبية". شاهد ذلك، أن ما نشهده في وقتنا هذا من أنماط شاملة للتفاعل العالمي، وللوعي العالمى، والتي ترتبط بتعميق القيم العالمية (والتي منها مثلا: نزعة العناية بالبيئة، وحقوق الإنسان، والبقاء على قيد الحياة) فمثل هذه الأنماط تشير إلى واقعية المجتمع العالمي"(مودلسكي، ١٩٧٢، ص٢٢٧).

٢- **الاقتصاد العالمي الرأسمالي**: ويُقدم والرشتاين (١٩٨٤) تفسيراً مختلفاً للطبيعة الكوكبية أو العالمية للمجتمع. فهو يرى أنه يوجد الآن اقتصاد عالمي رأسماليٌ وحيد، وأن هذا البناء الاقتصادي يؤثر على العناصر المكونة لهذا الاقتصاد (وهي:الدول، والأفراد، والمجتمعات المحلية والأُسر) (مكجرو، ١٩٩٢، ص٧٩).وقد قامت التكنولوجيا الجديدة بتوسيع نطاق الرأسمالية وزيادة قدراتها، ولم يعد بوسع سوى قلة قليلة أن تعيش بعيدا عن هذا البناء الاقتصادي العالمي. ومثل هذه القلة إن فعلت ذلك فسوف تتعرض لخطر التهميش. وهكذا تكون الرأسمالية العالمية عملية متناقضة، إذ تَضُمُّ إليها بعض الناس، وتستبعدُ البعض الأخر. وأصبح من الأمور المحورية بالنسبة للاقتصاد العالمي الرأسمالي الواحد وجود الشركات عابرة القوميات (سكلير، ١٩٩٣)، والتي يتزايد استغلالها للعلاقات عابرة القوميات وللفرص الصناعية في تعظيم أرباحها وزيادة قوتها الاقتصادية. فقد أفسحت الحدود الإقليمية القومية التي كانت تحد من التجارة والإنتاج في الماضي؛ أفسحتِ الطريق للممارسات عابرة القوميات في الاقتصاد الرأسمالي العالمي.

٣- **التشظي**: يذهب روزينو (١٩٩٠) إلى أنه بعيداً عن وجود نظام عالمي قائم على أساس التماسك عابر القوميات أو التماسك الإنساني العام، فإن العالم أصبح متشظياً بسبب العولمة. ففي وقتنا هذا يوجد صنفان من المجتمعات: مُجتمع للدول، يتكشف عن العلاقات والمصالح التقليدية التي طَبعَت بطابعها العلاقات الدولية على امتداد عددٍ من السنين (وهي العلاقات المتمحورة حول الدولة)، وعالم متعدد المحاور من الجماعات عابرة القوميات ذات المصالح المختلفة، والمتصارعة في بعض الأحيان، يوجد كله خارج سيطرة أي دولة قومية. ويشتمل المجتمع العالمي على التفاعل بين هاتين الجماعتين، إلا أن العلاقات بينهما مضطربة أكثر منها مستقرة، وكنتيجة لهذا فإن النظام العالمي يبدو أنه آخذ في التفتت والانهيار.

٤- **الواقعية:** أما وجهة النظر الرابعة فيطرحها جيلبين (١٩٨٧)، الذي ينبذ الفكرة القائلة بأن الارتباط المتبادل بروابط وثيقة يَعني بالضرورة أننا أصبحنا في مجتمع عالمي فعلا.إذ يرى جيلبين أننا إنْ تجاهلنا الدولة القومية، فإن احتمالات حدوث الصراع والقلاقل سوف تتزايد. فالمجتمع العالمي، وبصرف النظر عن كونه عالماً يحقق قدرا عظيما من التحرر، إلا أنه عالم مُتقلِّب تتحكم فيه المواجهة بين المصالح المتعارضة. وبهذا الشكل يطرح جيلبين وجهة نظر "واقعية" للعولمة، مُعتبراً نظام الدول الكوكبي نظاماً لسياسة القوة يكون فيه الصراع وافتقاد الأمن هما المعيار السائد (مكجرو، ١٩٩٢، ص٨٤). وينبذ جيلبين وجهة النظر التي تذهب إلى أن ثمة حضارة كوكبيةً آخذةً في الظهور وأن التطور الاقتصادي الكوكبي يقوم بخلق بنية تحتية كوكبية فعلاً.كما ينبذ نظام الدولتين (العظميين)، حيث يميل إلى تفضيل استمرار نظام الدولة القومية. وهو يَستلفت الانتباه إلى قصر عمر التجارب العولمية على امتداد التاريخ، كما يُسلِّطُ الضوء على أن بقاءها على قيد الحياة يتوقف على ظروف معينة تدفع إلى ذلك، كما أن مُستقبلها يبدو أقل تأكيدا وضمانا من مستقبل الدولة القومية، إذا أدخلنا في الحسبان ما تتصف به علاقات القوة من طبيعة عابرة ومؤقتة.

٥- **الثقافة الكوكبية الجديدة:** يذهب باراكو (٢٠٠٦) إلى أن العولمة وصلت إلى مرحلة متميزة في تاريخ العالم اتسمت بوجود شبكات اقتصادية/مالية، وسياسية، وثقافية مترابطة فيما بينها. ويمكن النظر إلى هذه الروابط المتداخلة مُتمثلة فيما تَتسبب فيه الأحداث التي تقع في بلدٍ ما/ أو في قارةٍ ما من نتائج "صادمة" تؤثر على بقية أنحاء العالم. كما أن الارتباطات القائمة بين أعضاء القطاع المصرفي الدولي قد ظهرت بصورة جلية في الأزمة الاقتصادية التي

بدأت سنة ٢٠٠٨ (ومازالت بعض ملامحها قائمة).

وقد تَيَسَّر إنشاء هذه الشبكات بفضل التطور الكبير في تكنولوجيات الاتصال الإلكتروني. وقد أصبح يسودُ العالم شعورٌ أكثر قوة بعالمية هذه الشبكات مع صعود كيانات آسيا الاقتصادية في القرن الواحد والعشرين. ويعتقد باراكو أن السيطرة الأمريكية آخذة في الانحدار وأنها ستكون عرضة لتحديات عديدة في المستقبل. وهو يزعم أننا سوف نعيش قريبا في نظام عالمي يتسم بأنه "عالم منفلت"(*) وليس عالما يغلب عليه الطابع الثقافي الأمريكي. وقد كان للركود الاقتصادي الذي بدأ بأسواق الملكية العقارية (وذلك تحديدا في أسواق تمويل تمليك المساكن والعقارات) في الولايات المتحدة؛ كان له – يقيناً – عَوَاقب اقتصادية هائلة على الأسواق المالية على امتداد الكرة الأرضية، كما أدى إلى إفلاس بنوك عديدة وإلى ركود عالمي سنة ٢٠٠٨. ومن المؤكَّد أن الاعتماد على النظم الأمريكية في القوة، والمال، والحُكم، أخذ يتعرض بسبب ذلك لضغط متزايد، كما أنه وفقاً لما قاله باراكو يعد بمثابة "تحد خطير" لسيطرة الولايات المتحدة.

	تمرين ٩-١٤
تفسير تطبيق	ارسم صورة أُخرى أكبر للجدول التالي وقدّم مُوجزاً لأوجه النظر الخمسة التي طُرحت بشأن العولمة.

(*) المصطلح هو عنوان كتاب شهير من تأليف أنتوني جيدنز ترجمه إلى العربية الدكتور محمد محيي الدين، وصدر عن دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٦. (المترجم)

الدلالات الضمنية للعولمة – موجز للأفكار الأساسية

عالم واحد		
الحضارة العالمية برلموتر:	وجهات نظر خمسة بشأن العولمة	المجتمع العالمي الرأسمالي والرشتاين
روزينو: العالم ذو الشعبتين	باراكو: الثقافة العالمية الجديدة مجتمع من الدول	جيلين: الدول العالمية

تقييم العولمة

للخلافات الدائرة حول العولمة دلالاتها المهمة بالنسبة للطريقة التي نرى بها المجتمع. فحتى يومنا الحاضر، كانت محاولات فهم المجتمع تقوم على أساس المُسلَّمة التي تقول إن المجتمع وحدة كاملة مترابطة ومتماسكة ونظام اجتماعي متكامل. والواقع أن المجتمع يصبح – لهذا السبب – غير متميز عن الدولة القومية (مكجرو، ١٩٩٢، ص٦٣). ومع ذلك، فإنه بسبب ظهور القُوى عابرة القوميات، والعلاقات الكوكبية، والتكنولوجيا الممثلة في سائر أنحاء العالم، تتزايد في وقتنا الحالي صعوبة دراسة الدولة القومية بدون إدخال المشهد العالمي في الحُسبان. وكنتيجة لذلك، تساءل بعض الكتاب (ومنهم مثلا مكجرو، ١٩٩٢؛ وسكلير ١٩٩٣؛

وروبنز، ١٩٩٧) عمّا إذا كانت توجد حاجة لإعادة تقييم مفاهيمنا عن المجتمع (وعن الدولة القومية تبعاً لذلك):

"لو أن العولمة كانت تقوم بإعادة تشكيل العالم "كمكانٍ واحد - كما يميل الكثيرون إلى القول بذلك - فإنه ستصبح النتيجة المنطقية لذلك هي نقل بؤرة اهتمام المشروع السوسيولوجي، وذلك بالابتعاد عن الاهتمام "بالمجتمع" و"الدولة القومية" والاتجاه - بدلا من ذلك - نحو التركيز على "المجتمع العالمي" الآخذ في الظهور. وسيكون هذا التحول في الاهتمام شرطا لفهم الظرف الإنساني المعاصر على نحو صحيح" (مكجرو، ١٩٩٢، ص٦٤).

والملاحظ أن قدراً كبيراً من النقاش الدائر حَول تغيير بؤرة اهتمام علم الاجتماع قد ركز على طبيعة الدولة القومية. فقد زعم البعض أن الدولة القومية جُردت من وظائفها وأنها لم تَعُد تقومُ بدورٍ محوريٍّ في العلاقات الدولية (جيمسون، ١٩٩١)، بينما يذكر غيرهم تحول جدول أعمال الدولة القومية للتركيز على المشكلات الدولية (بل، Bell، ١٩٨٧)، والتي منها مثلاً مُشكلة البيئة، والمخاطر التي يحتمل أن تُهدد تماسك العالم واستقراره، وأنشطة الشركات عابرة القوميات، وما أشبه ذلك. شاهد ذلك أن الدولة القائدة أنشأت مُنتديات لمناقشة تلك الأمور بشكل مكثف ووثيق. مثال ذلك، أن مؤتمر قمة الثمانية الكبار G8 يُعطِي الدول الأكثر ثراءً وقوة في العالم الفُرصة لمناقشة قضايا العالم.

إلا أنه من غير الواضح تحديد ما إذا كان هذا الوضع يقدم الدليل على وجود سياسة عالمية، أمْ أنه يعكس "تدويل" الدولة، حيث تُفسح الاهتماماتُ القوميةُ للدولة المجال للقضايا الدولية، كما تُعالج في ظله الاهتماماتُ القومية بالنظر إلى الأهداف الدولية (كايزر Kaiser، ١٩٧٢). كما أن من العسير تقرير ما إذا كان هذا الوضع مرحلة من مراحل الانتقال من السياسة القومية إلى السياسة العالمية، أم أنه ليس سوى مجموعة من العلاقات التيِ تعكس الحاجة لمعالجة القضايا "المحلية" (أي القومية) والقضايا "العالمية"(أي الدولية) في نفس الوقت. وسيستمر الكُتّاب - بلا

شك - في الجدال والاختلاف حول ما يمكن أن يكون للعولمة من تأثيرات على دور الدولة القومية ووظائفها.

والملاحظ أن للعولمة تأثيرات منتشرة على كل صعيد، إلا أن فهم نتائجها وآثارها أمر عسير. وتبدو أسباب العولمة أسباباً مختلفة، كما تتوقف طبيعة ما تحدثه من آثار على نوعية الظروف "المحلية" السائدة. وتأثيرات العولمة غامضة، وقد طُرحت تفسيرات مختلفة لذلك. وبصرف النظر عن أيٍّ هذه التفسيرات هو المقبول، فإن علماء الاجتماع سيواصلون - بلاشك - استكشاف الجوانب الاقتصادية، والسياسة، والثقافية للعولمة ليتأكّدوا مما إذا كان من الضروري "تغيير بؤرة اهتمام المشروع السوسيولوجي" لمصلحة علم اجتماع عالمي واحد. ويبدو أن بزوغ ثقافة ذات توجهات عالمية متسامحة – بدلاً من ثقافات الدول القومية المنفردة - سيكون هو السمة المميزة للقرن الواحد والعشرين، كما يرى باركو (٢٠٠٦). ومن المحتم أن هذا التطور سيكون تطوراً فوضوياً"غير منضبط الإيقاع ولا يُمكن التنبؤ به، إلا أنه سوف يكتسب قوة دفع مع دخول الصين، ودول آسيا الأخرى، ودول من القارات الأخرى في النظام العالمي. وعندها قد يُصبح هذا التطور خارج نطاق السيطرة، كما تنبأ بذلك جيدنز، كما أنه قد يسير في اتجاهاتٍ مختلفة، ولكن كما أثبتت أزمة الائتمان العالمية في سنة ٢٠٠٨ (التي أشعلتها أزمة ديون الرهن العقاري بالولايات المتحدة)، فإن ما يَحدُث في مكانٍ ما من العالم ستكون له عواقبه التي يتردد صداها في معظم أنحاء العالم الأخرى.

علم اجتماع المجتمع أم علم اجتماع الذات؟

رأينا على امتداد هذا الفصل كيف أن الحياة المعاصرة تفرض تحدياتٍ جديدة عل من يحاولون دراستها. وكانت إحدى الأفكار المحورية التي برزت في القسم

السابق تلك التي تتساءل عما إذا كان من الملائم لعلم الاجتماع أن يواصل دراسة المجتمع، أم أنه في حاجة إلى إعادة صياغة مفاهيمه للتكيف مع التغيرات العالمية التي ظهرت حديثا. وقد ركزنا في الفصول السابقة على ما إذا كان من الملائم دراسة أبنية المجتمع أم دراسة أفعال الأفراد وتفاعلاتهم ممن يُشكلون هذا المجتمع. وتوجد حديثاً محاولات لتسوية هذا الخلاف عن طريق الدعوة إلى تحليل العلاقة الدينامية بين الفعل (action or agency) والبنية (انظر بورديو، ١٩٨٤؛ وجيدنز، ١٩٨٤؛ وهابرماس، ١٩٨٧؛ وآرشر، ١٩٨٨). وقد ركّزت أمثال تلك المحاولات على أهمية الفعل في تطوير فهم حقيقة البنية.وقد بلغ من شدة تركيزها على ذلك الموضوع أن بَدأت بعض الأفكار النابعة من هذا البحث في تغيير اتجاهات كل من التنظير السوسيولوجي والبحث السوسيولوجي معا. فبدلاً من التركيز على علم اجتماع المجتمع، أصبح الاهتمام يتزايد بعلم اجتماع الذات. وسوف تُشكل هذه النقطة أساس المناقشة في القسم الأخير من هذا الفصل. ويرجع كريب Craib (١٩٩٤، ص١٢) الاهتمام "بالذات" Self، إلى تأثير مؤلفات جيدنز؛ فيقول:

"بينما كان أنتوني جيدنز يُطور نظريته عن التشكُّل البنائي، وجدنا المجلات العلمية لعلم الاجتماع حافلة بالأبحاث التي تناقش ما كان يقوم به من تطوير لهذه النظرية، ثم إنه نشر في سنة ١٩٩١ أوّل كتاب من كتابين صدر بعنوان "الحداثة وهوية الذات"(*)، والذي أعقبَهُ بَعْدَ عام كتاب "تحوُّل الحميمية"(**). وهو الكتاب الذي... سَعَى لإمعان النظر في طبيعة الذات، والعواطف، والحميمية، والهوية في ظل الحداثة المتأخرة (التي تسمى عادة ما بعد الحداثة)".

يقوم التحليل الذي قدّمه جيدنز (١٩٩١) للذات على الأعمال السابقة للمفكرين

(*) A. Giddens, Modernity and Self Identity, 1991.
(**)A. Giddens, Transformation of Intimacy, 1992.

من أصحاب النزعة التفاعلية الرمزية، كميد Mead مثلاً (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب لمراجعة الموضوع)، ولكنه يختلف عنها من عدة نواح ففي حين تميز "ميد" عمليتين داخل الذات، هما عملية "الأنا" "the I" وعملية "إيّاي" "the Me" (بمعنى: الفاعل والمفعول، أو المؤثِّر والمُتأثر – المترجم)، ولم يُبد إلا اهتماما يسيراً بطبيعة الذات حال كونها مستقلة عن هاتين العمليتين؛ في مقابل ذلك يركز جيدنز على الذات وحدها، وعندما يفعل ذلك فإنه يُطبق عدداً من المفاهيم المُستمدة من عمله السابق عن الحداثة، وذلك باعتبار أن أهم مفهوم هو الانعكاسية، فجيدنز يفسر الذات باعتبارها مُتصفة بالانعكاسية (أي التأمل النقدي للذات) التي تنجُم عن عمليات التفكير فيما نقوم به من أفعال، وفيما نتخذه من قرارات وخيارات (كريب، ١٩٩٤). وهكذا يتبين أن الذات دينامية وليست ثابتة، كما أنها نسبية وليست مُطلقة.

وكما تنجم الذات من الانعكاسية، كذلك يَنجمُ المجتمع منها. ويعتمد جيدنز على فلسفة التفاعلية الرمزية ليُقدم صورة عامة للمجتمع باعتباره المظهر الذي يتجلى فيه الفعل والتفاعل. ويرى جيدنز أن مجتمع الحداثة المتأخرة هو مجتمع انعكاسي أيضاً. إذ ليس بالإمكان أن تظل جذور شيء مترسخة في الماضي فحسب؛ فلا بُدَّ من اختراعه وإعادة اختراعه على الدوام في الحاضر. ومن الأمور الحاسمة في هذا الشأن عمليات إعادة الإنتاج وتغيير الأشكال (التحول) والتي تنبع من الفعل والتأثيرات البنائية (انظر القسم الذي يتناول نظرية التشكُّل البنائي في موضع سابق من هذا الفصل). وعلى ذلك، فإنه لكي يتسنى الحفاظ على المؤسسات والعلاقات والممارسات الاجتماعية فلابد وأن يكون لها ما يُبررها، إذ يتم اختبارها في ضوء ما يطرأ من ظروف ومعلومات جديدة. فليس بالإمكان أخذ شيء مأخذ التسليم. والملاحظ أن الحداثة المتأخرة ذات طبيعة عابرة سريعة الزوال، وكنتيجة لذلك يواصل الأفراد الانشغال بعملية تقدير الفعل وإعادة تقديره في ضوء ما يتلقّونه من رَجعِ الصدى الناجم عنه (أي من رد فعل الآخرين بشأنه). وكما يُلاحظ كريب (المرجع نفسه، ص١٤)، فإن لهذا عواقبه بالنسبة للذات: فنحن مشغولون على

الدوام بعمليات تكوين أنفسنا وإعادة تكوينها، إذ لا يمكننا أبداً أن نأخذ أيّ شيء مأخذ التسليم؛ فعلينا أن نبرر لأنفسنا وللآخرين ماذا نكونُ وماذا نقوم بعمله".

الموضوع (E)
فقدان الشهية للطعام: مرض الحداثة المتأخرة يتوسع جيدنز في تحليلِه ليستوعب الفعل الذي به يسيطر المرءُ على جسده. وهو ينظر إلى فقدان الشهية للطعام باعتباره مَرضاً مُميزاً للحداثة المتأخرة، كما يفترض أن فقدان الشهية للطعام طريقة بها يستطيع الأفراد أن يُكونوا أنفُسهم ويُعيدوا تكوينها ليغيروا الصورة التي يقدمونها للآخرين. ومن الممكن أن يبدأ مرض فقدان الشهية بالرغبة في إنقاص وزن الجسم، حيث يأخذ الفرد في حساب السُعْرات الحرارية واجتناب أنواعٍ معينة من الطعام وينتهي بالجوع الفعلي، وذلك حين يحاول الضَّحية أن يخرُط جسده داخل شكل "مثالي". ويرتبط مرض فقدان الشهية أكثر ما يرتبط بالنساء، إلا أن بالإمكان أن يكون الرجال من ضحاياه كذلك، حيث يستجيبون لضغوط الحداثة المتأخرة عن طريق تقييدهم لمقدار ما يتناولونه من الطعام. وبهذا يكون الطعام طريقة بها يستطيع الأفراد أن يسعوا للتحكم في حيواتهم، والتي يشعرون دائماً أنها خارج نطاق سيطرتهم.

تمرين ٥-١٥	
يُمكّنك هذا التمرين من استكشاف ظاهرة مرض فقدان الشهية وأن تمعن النظر في مدى سلامة أفكار جيدنز. اقرأ الموضوع E، وأجب على الأسئلة التالية: ١- ما الدليل الموجود في الموضوع E ويُدعم وجهة نظر جيدنز	**تطبيق**

	بأن مرض فقدان الشهية شكل من أشكال التحكم في الصورة الشخصية للفرد؟
معرفة فهم تقييم	٢- ما التفسير الآخر –أو التفسيرات الأُخرى- التي من الممكن تقديمها لبداية الإصابة بمرض فقدان الشهية؟ (تنبيه:يمكنك إجراء بحثٍ ما في المكتبة العامة، أو ربما على الإنترنت، وذلك لتحديد العوامل الأخرى المرتبطة ببداية الإصابة بمرض فقدان الشهية).
تحليل تقييم	٣- ما الرأي الذي تتصور أنه يفسِّر مرض فقدان الشهية على نحو أكثر إقناعاً؟ولماذا؟
تحليل تقييم	٤- لماذا قد يذهب البعض إلى أن تحليل جيدنز لمرض فقدان الشهية أكثر انطباقاً على المريضات (الإناث) من المرضى (الذكور)؟ قدم الأسباب التي تبرر إجابتك. (تنبيه: فكر من الذي يكون واقعاً تحت ضغط اجتماعي أكبر ليحافظ على صورة معينة لجسده)؟

وقد حرص جيدنز (١٩٩٢) من خلال تحليله للذات، أن يلقي الضوء على طبيعة الحميمية. وهو يوضح أن العلاقات في مجتمع الحداثة المتأخرة قد تعرضت لنوع من التغير نظراً لأن بعض العوامل التي كانت تعمل على ترسيخها في الماضي قد تم نَزْعُها والتخلص منها. مثال، أن منع الحمل يعني في وقتنا الحاضر أن العلاقات الجنسية لم تعد تفضي بالضرورة إلى الإنجاب، ومن ثم فإنه قد أعيد تعريفها بوصفها آلية الحميمية. والحقيقة أن تفسير جيدنز للحميمية مثير للاهتمام. فهو يراها بمثابة توازن يجمع بين الاستقلال الفردي، والمشاركة، والثقة. وتتسم

علاقات مجتمع الحداثة المتأخرة "بالمساومة على الجهد"، وهي المساومة التي بواسطتها يتفاوض الشركاء على تسوية الخلافات والتغلب على الصعوبات. وبهذا الشكل فإن العلاقات – شأنها شأن الذات- تقتضي عمليات تقدير وإعادة تقدير مستمرة للنتائج الممكنة. ويختلف هذا الوضع عن وضع العلاقات في الماضي عندما كانت تستمر راسخة بنائياً في مواجهة الصعوبات والمشكلات الطارئة، فقد كان الناس يكتفون بتحمل الصعاب دون مواجهتها وعلاجها بصورة دينامية من خلال عمليات التفاوض وإعادة التقدير.

ويرى جيدنز (١٩٩٢) أن الالتزام الذي تجسدهُ العلاقات في وقتنا الحالي مختلف عن نوعية الالتزام في الماضي. فالالتزام اليوم يعني الاعتراف بمظاهر الشكوك والصعوبات التي تكتنف علاقةٍ ما. إلا أن الالتزام – رغم ذلك- يكون ميَّالاً للمخاطرة بسبب ما يُقدمه من إشباع نفسي، ولو في المدى المتوسط على الأقل (كريب، ١٩٩٤، ص١٤). وباستعمال نوع من التشبيه بعملية المراهنة، يبدو الأمر وكأن أكثر العلاقات نجاحاً هي العلاقات التي يتم فيها أخذ كافة الاحتمالات في الاعتبار، ثم تتم المراهنة على أكثر الاحتمالات أمنا وضمانا. أما العلاقات غير الناجحة فهي تلك العلاقات التي لا يُراعي فيها كل الاحتمالات الممكنة مراعاة تامة، أو يُوجد فيها نوع من المراهنة الفاشلة، أي على خلاف ما تدل عليه الاحتمالات.

ويؤكد تحليل جيدنز (١٩٩٢) للعلاقات تأكيداً شديداً على الاستقلال الفردي وعلى تحقيق الذات. ويتمُّ التعامل مع العلاقات وتوظيفها لتنفع الشركاء بالطريقة التي تناسبهم على أفضل وجه. وليست هذه الفكرة بجديدة. فقد كان علماء النفس الاجتماعيون يُميزون أهمية العمليات التي منها مثلاً عملية التوازن وعملية العدالة المحسوسة في العلاقات مُنذ سنوات الخمسينيات في القرن العشرين. شاهد ذلك أن ثايبوت Thibaut وكيلي Kelley (١٩٥٩) وباتباعهما لنموذج التبادل الاجتماعي

اقترحا نموذجاً من أربع مراحل للعلاقات يقوم على أساس المبادئ الاقتصادية، وأعني بذلك الخسائر والفوائد المحتملة. وقد تم التوسُّع في هذا النموذج لاحقاً في نظرية العدالة (ولستر Walster، وآخرون، ١٩٧٨) للتأكيد على أهمية التوازن طويل الأمد في توزيع المكافآت الحوافز، وذلك بدلاً من المقايضة قصيرة الأجل و"العادلة" بصورة مباشرة (بانيارد Banyard وهايس Hayes، ١٩٩٤). وبتطبيق هذا الاتجاه الفكري على العلاقات، يميز وولستر وآخرون أربعة مبادئ للعلاقات العادلة، هي: (١) يحاول الناس تعظيم المكافأة وتقليل الخبرات غير السارة؛

(٢) قد يتم اقتسام المكافآت بطرق مختلفة، فقد تطور جماعةٌ ما أو يطور رفيقان/ أو زوجان نظامهما "العادل"الخاص بهما؛

(٣) تتسبب العلاقات الجائرة (أي غير العادلة) في إحداث مِحنة شخصية؛

(٤) سوف يحاول شخص ما مرتبط بعلاقة جائرة أن يستعيد العدالة لهذه العلاقة، وكُلَّما زاد الجور، كُلَّما زاد الجهد الذي سوف يَبذُلُهُ للقيام بهذا العمل.

ومع ذلك يختلف تحليل جيدنز (١٩٩٢) عن تحليل علماء النفس الاجتماعي، فهو لا يرتكز فقط على الجُور أو الظلم في المكافأة، بل يُركز كذلك على الظلم في القوة داخل العلاقات. كما أنه يحاول أن يفهم حقيقة العلاقات، ليس من حيث وضعها في هذا المكان وفي هذا الوقت، بل يحاول – كذلك – فهم احتمالاتها بالنسبة للمستقبل. وهو يتنبأ بعلاقة مثالية تُوجد حيث تسود الديموقراطية، وحيث يتمُّ التخلُّص من مظاهر الظلم البنائية التي تساهم في إحداث الجَور. ويُعدُّ دور الذات في هذه العملية دوراً مهمًا. ولكي تُصبح العلاقات "نقية وخالصة"، فلا بدّ من تقليص كافة الفوارق الاقتصادية والسيكولوجية بين الجنسين. وإنَّ بإمكان الانعكاسية أن تساهم في هذه العملية، وذلك لأن الذات تقوم – بصورة متزايدة – بخلق وإعادة خَلق العلاقات المتوافقة التي لا مكان فيها للظلم والاستغلال.

وقد تسببت كتابات جيدنز (١٩٩٢) عن الحميمية في توجيه التعليقات النقدية إليه، كما تعرضت الصورة التي رسمها للذات للخلاف. فجيدنز يعني أن العلاقات المثالية هي تلك العلاقات التي توجد حيث تسود الديموقراطية، وحيث تكون المساومة على الجهد التي تكلل فيها المساومة بالنجاح. ومع ذلك، يطرح هذا التصور مشكلات لو أننا أخذنا به باعتباره الأساس الذي يقوم عليه فهم العلاقات في المجتمع الأوسع. مثال ذلك، أن جيدنز يقدم صورة للمجتمع باعتباره يتكون (أي يتم تعريفه وتطويره) من خلال التأمل الإنساني (الإنعكاسية) والمؤسسات الاجتماعية بوصفها مُنتجاً إنسانياً. فالتأكيد هنا على دور الفرد في تكوين وإعادة تكوين المجتمع. ويذهب النقاد إلى أن هذا التصوُر يُنكر دور الفعل التعاوني في تشكيل المجتمع. فهو يقدم صورة أنانية للذات لا تهتم إلا بما يمكنها الحصول عليه من العلاقات، مع قلة اهتمامها باحتياجات الآخرين ومصالحهم. وهذا يتعارض مع وجهة نظر علماء الاجتماع الآخرين (فيبر وماركس، ودوركايم)، والذين يرون أن تحقيق الذات البشرية (أي تعظيم الإمكانية البشرية) إنما ينبع من الوعي الجمعي والمسئولية المتبادلة. وهم، شأنهم شأن جيدنز، يعترفون بالدور الذي يتعين على الفرد أن يقوم به، إلا أن تفسيرهم يختلف عن ذلك إلى حد ما. ففي نظرهم، أن الفرد لا يكون مدفوعاً بالرغبة في استغلال العلاقات لتحقيق مكسب شخصي. إذ الأحرى أن الأفراد يُنظمون سلوكهم من خلال أخلاقياتهم الخاصة، كما أن قراراتهم وأفعالهم تكون قائمة على أساس التعاون أو المساومة من أجل تحقيق المكاسب المتبادلة.

وقد أثارت آراء جيدنز (١٩٩٢) عن الحميمية نقاشا حول طبيعة الذات وحول الفعل الإنساني. وتُقدِّم هذه الآراء - والنابعة من كتابته عن التشكل البنائي - أفكاراً عميقة جديدة مثيرة للاهتمام في جانب من جوانب الحياة الاجتماعية لم يتعرض للدراسة - عموماً - حتى الآن. ورغم أن علم الاجتماع التأويلي تعمَّق في النظر في الدور الذي يؤديه الأفراد في تشكيل المجتمع، فإنه مع ذلك يتعين عليه أن

يتعمق في استكشاف خبايا الدوافع الكامنة وراء الفعل البشري. وقد بدأ جيدنز في معالجة هذا الموضوع في مؤلفاته. ورَغْم توجيه النقد إليه، فإنه لا يوجد شكّ كبير في أن بعض السمات التي شخص بها العلاقات الحديثة سمات صحيحة. فكثيراً ما تحتوي المجلات ذات الانتشار الجماهيري على نصيحة عن "كيف تحصل على أقصى ما يمكن الحصول عليه من العلاقات". وإنّ من العسير معرفة ما إذا كان هذا الدور يعد إيذانا باستهلال اتجاهٍ عامٍ في السلوك بغرض "المساومة على الجهد" في العلاقات، أم أنه لا يَعدو أن يكون نتيجةً تعقُبُ ظهور هذا الاتجاه. والأمر الواضح هو أنه على الرغم من أن رؤية جيدنز للفرد كانت محلا للنقد لأنها تصوره بصورة أنانية أو متمركزة حول الذات، فإنها رؤية معترَف بها في الثقافة الشعبية. فإذا أدخلنا في الحُسبان قوة وسائل الاتصال الجماهيرية في أواخر القرن العشرين، فإنه إنْ حَدَثَ أنْ لَقِيَ مسارٌ متمحورٌ حول الأنا - لتحقيق الذات الإنسانية - تأييداً أو مناصرةً، فإن من المُرجَّح أن يتحول إلى حقيقة واقعة، وذلك بصرف النظر عن المزاعم التي تقول إنه يُمهش دور الاعتماد المتبادل والمسئولية المدنية.

	تمرين ٥-١٦
تفسير تطبيق تحليل تقييم	باستعمال المعلومات المقدَّمة في النص المذكور أعلاه، اكتُب فقرة تُلخص الإسهامات التي قدمها جيدنز لفهمنا للذات. ميز وجها واحداً على الأقل من أوجُه القوة، ووجها من أوجُه القصور في عمله. حاول أن تصل إلى حُكم على ما في عملهِ من دلالات ضمنية بالنسبة لمستقبل النظرية السوسيولوجية.

تقييم علم اجتماع المجتمع أم علم اجتماع الذات

تُعد كتابة جيدنز عن علم اجتماع الذات كتابة مثيرة للاهتمام، إلا أنها لا تُعلن عن وفاة علم اجتماع المجتمع. ففي مؤلَّفه عن الحميمية في الحداثة المتأخرة، يتخذ من الفرد مُنطلَقاً لفهم الطريقة التي يتكون بها المجتمع. ومع ذلك، يَظلُّ تطوير فهم للمجتمع في السياق الأوسع للتشكل البنائي يحظى بنفس القدر من الأهمية. ويعترف علماء الاجتماع - من أمثال جيدنز - بأنه بدلاً من التورُط في الخلافات التقليدية حول الاتجاهات الفكرية والفلسفات، فإنه ينبغي الأنتفاع بها بوصفها نقاط انطلاقٍ لمزيدٍ من التنظير والبحث. ويبدو أن التحليل السوسيولوجي في أواخر القرن العشرين مكرَّسٌ للاتجاهات الجديدة في البحث والهادفة للوصول إلى فهمٍ أفضل للمجتمع. وحتى لو فُرضَ أن المشروع السوسيولوجي تتم إعادة إنشائه، وأن "المجتمع" تتم إعادة صياغة صورته الذهنية لتعكس الاتجاهات المعاصرة، فسيظل المجتمع على الدوام في مركز علم الاجتماع، وسيستمر الاهتمام مُرَكَّزاً على الطريقة التي بها تترابط الذات، والفعل والبناء في علاقاتٍ متبادلة فيما بينهم لتُنشيء ذلك المجتمع.

مجتمع المخاطر

تأثر علم الاجتماع منذ التسعينيات من القرن العشرين بفكرة/ أو مفهوم "المخاطرة" في المجتمع. والواقع أننا نستطيع وصف السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين بأنها "مُتخمةٌ بالمخاطر". وانطلاقاً من كلٍ من المنظور الفردي والمنظور الاجتماعي يمكننا أن نزعُم أن "المخاطر" جُزءٌ من الحياة نفسها. فقد نُعرِّضُ صحتنا للخطر عن طريق التدخين أو قد نتعرض للخطر الواقع علينا من

البيئة التي نعيش فيها من خلال التلوث، أو من خلال المُبيدات الموجودة في الطعام أو من خلال حوادث المُرور. وهذه الأمثلة جوانب لحياتنا اليومية مألوفة للغالبية العظمى منا. ويميز جيدنز (١٩٩٩) نمطين من المخاطر: الأول هو المخاطر الخارجية التي تأتي من "خارجنا"، أي من الطبيعة، والنمط الثاني هو المخاطر المصنوعة التي تتسبب الكائنات البشرية نفسها في إيجادها.

يصف "أولريش بيك" Ulrich Beck (١٩٩٢) هذه المخاطر باعتبارها سِمة مُميزة لنوع من "الحداثة الجديدة" في المجتمع وليس لنوع من ما بعد الحداثة، وهو تَصورّ ذهني للمجتمع يرفُضه "بيك". إذ يَزعُمْ "بيك" أنه بينما كنا فيما مَضَى نَضَع ثقَتنا بالعلم والعلماء ليُحسنّوا مستوى حياتنا، فإنه لم يَعُد لدينا الآن مثل تلك العلاقة الإيجابية أو ذلك الاعتقاد الإيجابي. وسبب ذلك أن الفكرة القائلة بأن العلم سيُفْضي بنا إلى مستقبلٍ ذهبي يتم فيه القضاء عل كافة الأمراض قد انهارت وتحطمت. ذلك أن القرن الواحد والعشرين يتسم بالمزيد والمزيد من عدم اليقين بشأن المستقبل. فالتغير السريع والمتواصل على المستوى العالمي وعلى المستوى المؤسّسي يُؤثر على الطُرق التي بها نُثَبّت دَعَائم هَوياتنا الفردية ونحافظ عليها. ومن ثمَّ يُوجد تفاعلٌ مُعقَّد بين التغير على مستوى المجتمع ككُل، وبين عوالمنا الاجتماعية التي تَخُصُّ كلَّ فردٍ منا، فقد يكون من الممكن السيطرة المباشرة على بعض جوانب حياتنا، مثال ذلك ما إذا كنا نتورط في سلوكٍ يجلب علينا المخاطر كالتدخين مثلاً، بينما تكون الجوانب الأخرى خارج نطاق سيطرتنا بشكلٍ ما، كالاحتباس الحراري على مستوى العالم أو التلوث. وحتى مع وجود هذه الأمثلة فإننا نستطيع أن نرى كيف أن أفعالنا الفردية تُحدِثُ تأثيراً على المستوى المجتمعي الكلي أو حتى على المستوى العالمي. والفرق بين الماضي والحاضر في رأي "بيك"(١٩٩٢) هو أن الكوارث والأخطار الحديثة قد زادت غموضاً في طبيعتها عما كانت عليه في الماضي، وأنها لذلك أصبحت أعصى على الحل.

ولهذا أصبح الأفراد أكثر تشاؤما فيما يتصل بالمستقبل، وأصبحوا يَسْعون لمنع المصيبة والخطر أكثر مما يسعون لتحقيق "الخير". فقد انتقلنا من مجتمع قائم على الطبقة إلى مجتمع يُواجه فيه كلُ إنسانٍ منا الخطر، وتتمثل فيه القوة الدافعة للمجتمع المعاصر في الأمان (ومنع الخطر).

تتطلب إدارة الخطر "ممارسة الانعكاسية" بما تعنيه من إعادة التفكير وتقليب وجوه الرأي على كلٍ من المستوى الفردي والمستوى المؤسسي. وهذا يعني أننا نقوم بصورة مستمرة بإنشاء دعائم شبكاتنا الاجتماعية وإعادة إنشائها، و تجديدها والحفاظ عليها. وفي الماضي كان يوجد ما أسماه جيدنز "اليقينيات الأونطولوجية (أو الوجودية)، وهي: المجتمع المحلي، والحياة العائلية، والزواج، والعمل؛ وهي المجالات التي كان يتم تعريفنا بواسطتها، إلا أنها لم تَعُد توجد بأي معنى ثابت أو دائم (انظر تمرين ٥-١٥). وليس لدينا الآن معرفةٌ أو فهمٌ واضح لمعاني هذه الجوانب من حياتنا، لذلك فإننا نصنَعُ (أي: نصُوغ) أنفسنا ونُعيد صياغتها حتى نتغلب على مشكلات التغير المتواصل. إن "الانعكاسية" هو الاسم الذي أعطاه جيدنز للبحث عن الأمان الأونطولوجي (الوجودي) بسبب غياب المعالم التقليدية التي ساعدتنا في الماضي على تعريف أنفسنا وتحديد موقعنا داخل سياقٍ ثقافي مُعين.

إن نظرية المخاطرة في جوهرها محاولة لفهم التغير الاجتماعي في العالم المعاصر. ويُعد استعمال التكنولوجيا المتقدمة – التي تتحدى المفاهيم التقليدية للزمان والمكان لكي تُغير شكل الاتصال بين البشر – مثالا للظواهر التي يتعين أن نأخذها في اعتبارنا ونتأملها. فالتليفونات المحمولة، وأجهزة الكومبيوتر والتكنولوجيا الرقمية، مما ظهر منذ مدة قصيرة نسبياً، لم يكن أحدٌ يسمع عنها؛ ومن المؤكد أن الناس في سنوات ستينيات وسبعينيات القرن العشرين لم يكونوا قد عرفوها في سنوات عمرهم وهم شباب. أما الجيل الأصغر سنا فإنهم لا يعرفون الحياة بدون مثل هذه التكنولوجيا؛ فالحقيقة أنهم يُعرفون أنفسهم وفقا لامتلاكهم أجهزة الآي بودز i Pods والآي فونزi Phones والإم بي ثري MP3 وما أشبه

ذلك. ومن ثم يتضح مدى عمق تأثير التغير على هويتنا. ونظراً لأن الأفراد يقومون بانتقاء خيارات "أسلوب حياتهم" من بين هذا العدد الكبير للأشياء المُتاحة فإنهم بهذا يقومون بتقدير حسابات الخطر، أو يقومون – حسب صياغة جيدنز بالدخول في "اشتباكٍ إيجابي مع الخطر". ومن المهم أن هذا الوضع يُوضح أيضاً وجهة نظر جيدنز عن ثنائية البناء، حيث يتسبب البناء في إحداث الفعل كما يُعزز الفعل أو يُعيد إنتاج البناء الذي يَحدث الفعل داخله.

وقد ذهب فرلونج Furlong وكارتمل Cartmel (١٩٩٧) إلى أن الشباب يشغلون موقع الصدارة في مجتمع المخاطر. فهم يُعايشون المجتمع المتصف بأشد صفات التنوع والتحدي والتغير، والذي تنتشر فيه الفُرص والتهديدات على امتداد طريقهم نحو سن النضوج، فأساليب حياة الشباب تعكس مرحلة التحول الطويلة نحو النضج وما يرتبط بها من سلوك يُعرضهم للخطر كتعاطي المخدرات، والإسراف في شرب الخمور والجنس غير الآمن، وهي الأمور التي وصفها كيلي Kelly (١٩٩٩) بأنها "مناطق وحشية".

	تمرين ٥-١٧
تفسير تطبيق تحليل تقييم	حاول استخدام مفهوم جيدنز عن اليقين الأونطولوجي (الوجودى) عمليا. ضع قائمة بالجوانب الرئيسية لهويتك الشخصية. عندما تفكر في نفسك، ما سماتُك المحدَّدة لك والتي تعرف بها، مثل: جنسك، نوعك الاجتماعي، إثنيتك، عمرك، طبقتك الاجتماعية؟ هل يُعدُّ موقعكَ الجغرافي مهمًا عندك؟هل يُعَدُّ وضعك التعليمي أحد عناصر تعريف هويتك – هل أنت بالغٌ أم طفل؟ وبمجرد أن تقوم بذلك رتب هذه السمات والعناصر المميزة تبعاً لأهمية كل منها. وفي النهاية، قارن قائمتك هذه مع قائمة مناظرة لشخص أكبر منك سناً أو أصغر منك سنا

من أعضاء أسرتك.هل يوجد تغير في أهمية السمات التي ذكرها أفراد مختلفون في أوقات مختلفة من حياتهم؟	

تقييم مجتمع المخاطر

رغم وجود عناصر من الحقيقة البديهية في فكرة مجتمع المخاطر يمكننا جميعاً أن نتبينها وأن نفهمها على كُلٍ من المستوى الفردي والمستوى المجتمعي، فلابد من التساؤل عما إذا كان هذا المجتمع ظاهرة جديدة من عَدمه. إذ أن من السهل وصف المجتمعات الماضية بأنها كانت أكثر خطورة. وتتأكد هذه الحقيقة على وجه الخصوص فيما يتصل بالصحة، كما تدلنا على ذلك أي مُراجعة لإحصائيات أمد الحياة المتوقع. وهل المخاطر بنفس الضخامة التي يميل بعض المعلقين لأن يجعلونا نعتقد بها؟ وهل كان الأطفال في الماضي، حين كانوا يلعبون خارج بيوتهم في الشارع أو في الحديقة العامة، هل كانوا معرضين لخطورة أكثر مما يتعرضون له حالياً، أم هل يعد إبراز هذه الخطورة على هذا النحو تصوراً تسببت وسائل الاتصال في غرسه في العقول؟ إن بالإمكان الانتفاع بالنظرية الاجتماعية كأداة في هذا السياق لتقديم منحىً نقدي لفهم هذه الجوانب من حياتنا اليومية.

محور الاختبار: كتابة مقال
اعتمد على الأساليب والمهارات التي اكتسبتها في الفصول السابقة، واختر واحدة من المناقشات المعاصرة الست التي تناولناها من قبل، ثم: ١- صف القضايا الرئيسية التي أثيرت في هذا النقاش. ٢- قيم الإسهام الذي قَدَّمَته هذه المناقشة في إثراء فهمنا للمجتمع.

(تنبيهات: إما أن تنتقي مناقشة تشعر أنك مستريح لها، بمعنى المناقشة التي تثق أنك تستطيع تحديد الدعاوى الرئيسية المطروحة فيها وتَفَهُّم دلالاتها/ أو تأثيرها، أو بدلاً من ذلك، اختر مناقشة تريد أن تُحسِّن من مستوى فهمك لها).

الوصف التفصيلي

١- اُذكر بوضوح المناقشة التي اخترتها وحدد وجهات النظر المُتميزة التي تمَّ التعبير عنها في ثنايا النقاش.

٢- بيِّن بالتفصيل كل وجهة نظر على حدة بالإشارة إلى أهم الكُتاب الذين تناولوها وإلى البحوث المؤيدة لها/ أو التحليل المُطبَّق لها (حسب الأحوال).

٣- قدِّم مُوجزاً مختصراً (من جُملتين أو ثلاث) للأفكار المحورية البارزة التي تظهر من بين ثنايا وصفك التفصيلي.وسوف يساعدك ذلك على التركيز بصورة أكثر وضوحاً عندما تُمعن النظر في الدلالة الضمنية لهذه المناقشة أو تأثيرها.

التقييم

١- لماذا ظهر هذا النقاش؟ وما الأمر الذي كان يرجى تحقيقه من ورائه (مثال ذلك، توضيح الأفكار الحالية عن المجتمع، أو تقديم رؤية عميقة جديدة، وهكذا)؟

٢- أمْعِن النظر في وَقْع كل وجهةِ نظرٍ تباعاً.تَحاشَ أن تكرر ذِكر الأساس المنطقي الذي سبق أن تناولته بالمعالجة في وصفك التفصيلي لوجهات النظر. قُم – بدلاً من ذلك- بالتركيز على ما قدمته هذه المناقشة من إسهامات. وهل قدمت رؤىً عميقة لها قيمتُها؟ كيف ذلك؟ ولماذا؟

٣- اجمع هذه الأفكار معاً. ووضح هل تساعدنا الأفكار التي أُثيرت في هذه المناقشة على أن نفهم المجتمع فَهماً أفضل؟ كيف ذلك؟ ولماذا؟

حاول كتابة ما مجموعه حوالي أربع صفحات. قسِّم وقتك بصورة ملائمة بين جُزئَي هذا السؤال لتعكس الفرق بين الجوانب الخاصة بكل جزءٍ منهما. إذا احتجت إلى مزيد من المساعدة، فارجع إلى الإرشادات الخاصة بكتابة مقالٍ والواردة في نهاية الفصل الثاني من هذا الكتاب.

مفاهيم مهمة

• ما بعد البنيوية • التشكل البنائي • الحداثة • ما بعد الحداثة • العولمة • المحلية المعولمة glocalization • المخاطر.

تفكير نقدي

- طبِّق نظريات العولمة على الأزمة الاقتصادية العالمية التي بدأت سنة ٢٠٠٨ بإفلاس عدة بنوك وانهيار سوق التمويل العقاري في الولايات المتحدة.
- إلى أي مدىً توافق على أننا نعيش في مجتمع "مخاطر"؟ وهل كانت المخاطر موجودة دائما في المجتمع؟
- هل يصلُح مفهوم التشكل البنائي – على نحو ما – في حل الانقسام الثنائي التقليدي بين البناء والفعل في علم الاجتماع؟

الفصل السادس

مفاهيم البحث

بنهاية هذا الفصل، ينبغي أن تكون قادراً على:

- أن تتعرف على أهمية المفاهيم الأساسية التي يأخذُ بها علماء الاجتماع في عملهم وأن تفهمها.
- وأن تسلِّط الضوء على نماذج البحوث التي تأثرت فيها القرارات البحثية بالاعتبارات التي تقتضيها مفاهيم مُعينة.
- ولأن تتنبه لأنواع البيانات التي قد يجمَعُها علماء الاجتماع ولأسباب اختيارهم لها.
- وأن تفهم القضايا الخلافية المتعلقة بالجدل الدائر حول طبيعة الحقائق الاجتماعية.

مُقدمة

حتى الآن ينبغي أن تكون قد اكتسبت فهما للمنظورات الفكرية التقليدية والمعاصرة وما تختلف فيه من أمور أساسية. وقد صُـممت الفصول التالية بحيث تبني على هذا الأساس. وبقراءتك لهذه الفصول واستكمالك للتمرينات سوف تُصبح على اطلاع ودراية بما للبحوث من مفاهيم ومناهج تقليدية، وسوف تُبلورُ فهماً لما أحدثه الفكر السوسيولوجي المعاصر من أثر على بحوث علم الاجتماع.

من المهم لكي تقوم ببحث في علم الاجتماع أن تتنبّه لبعض المفاهيم المهمة التي تؤثر على البحث السوسيولوجي وأن تفهمها فهماً تاماً. فعلم الاجتماع – كأي موضوع آخر– يتضمن تعلُّم لغةٍ جديدة. والأمر المهم في لغة البحث السوسيولوجي هو أن كل جزء من هذه اللغة الخاصة يشير إلى شيء محدد ذي طبيعة خاصة تماماً. لذلك يتوجب على أي إنسانٍ يحاول أن يتمكن من البحث في علم الاجتماع أن يتأكد أولا من أنه يفهم المعنى الدقيق لكل مفهوم على حدة.

وهذا الفصل يشرح العناصر الرئيسية للمفاهيم البحثية التي يشيع استعمالها أكثر من غيرها. وقد أوردنا تعريفات وأمثلة لكل مفهوم، كما أدرجنا تمرينات لتمكينك من اختبار فهمك لحقيقة هذه المفاهيم.ويتمُّ تقييم كل مفهوم من حيث أهميته في البحث السوسيولوجي. كما أولينا اهتماماً بأنماط البيانات التي قد ينتفع بها علماء الاجتماع في بحوثهم، وكذلك حرصنا على إلقاء الضوء على المفاهيم والتقنيات (الأساليب الفنية) التي تساعد علماء الاجتماع على انتقاء الأفراد الذين يتقرر إدخالهم في البحث. وينتهي هذا الفصل باستعراض واحدة من المناقشات شديدة الأهمية في علم الاجتماع، وهي تلك التي تدور حول طبيعة الحقائق الاجتماعية. وترتبط هذه القضية الخلافية بالأفكار التي سبق أن تناولناها في الفصل السابقة عن الطرُق التي يتبعها مختلف علماء الاجتماع في الصياغة الفكرية للمعلومات التي يجمعونها وفي تأويلها (انظر المناقشة التي تناولت دوركايم في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وكذلك المناقشة الخاصة بالفلسفة الوضعية في الفصل الثالث).

الاهتمامات البحثية الأساسية

الثبات (المنهجي)

يُشير الثبات (المنهجي) إلى قُدرة نتائج البحث على الصمود أمام إعادة الاختبار. فإذا قيل إن البحث يتسم بالثبات، فإن هذا معناه أنه إذا كرره باحث آخر (أي أعيد تنفيذه

تحت ظروف بحثية مطابقة) فإنه سوف يتوصل إلى نتائج مطابقة. ويقول كوليكان Coolican (١٩٩٤) في إيجاز محكم إن الثبات يشير إلى نوع من اتساق القياس في الوصول إلى نفس النتائج في مناسبات مختلفة ولكنها قابلة للمقارنة".

ويكون الثبات مهما إذا كان البحث يستهدف صياغة تعميمات. فإن تأكد الباحثون أن بحثهم ثابت منهجيا، فلا يصبح ثمة خطر في تبَنيهم لنمط اتفاقي أو اتجاه معين كشفت عنه العينة التي درسوها واستخدامها ركيزة للوصول إلى استدلالات أو فروض تتعلق بالمجتمع الذي تنتمي إليه عينة الدراسة.

أما إذ تمَّ إجراء البحث مرتين تحت نفس الظروف البحثية وجاءت النتائج غير متماثلة، يصبح من الخطورة عندئذ القيام بالتعميم. وإذا تم إجراء البحث مرة واحدة فقط ولم يَجْرِ التحقُقُ من صحةَ النتائج (أي الاختبار المزدوج)، فليس من الحكمة استعمال هذه النتائج في عمل استدلالات أو صياغة فروض. ومع ذلك، فإذا أدخلنا في الحسبان الضغط الواقع على علماء الاجتماع ليستكملوا بحوثهم بسرعة وعلى نحو غير مكلف (انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب) سوف نجد أن الكثيرين منهم يفعلون ذلك في الواقع.

الموضوع (A)

دراسة العرق

تُقرر طالبة جامعية تدرس علم الاجتماع أن تبحث موضوع "الإثنية" في بحثها الذي ستقدمه لأستاذها، وذلك لأنها على دراية بموضوع "الثقافة والهوية". كما أنها تريد أن تفعل شيئاً مختلفا بعض الشيء عن المشروعات المعتادة فتختار مجال علم الاجتماع البيئي. وتقرر أن تقوم بإجراء مسح اجتماعي صغير عن الإثنية وتدوير المُخلفات، لكي تكتشف ما إذا كانت توجدُ فروق ثقافية في عادات التدوير من عدمه.

ولهذا فكرت في إرسال استبيانات كأداة لجمع المادة العلمية، تكون رخيصة التكاليف نسبيا. كما تفكر في إجراء بعض المقابلات، إلا أنها لم تجد في الواقع الوقت اللازم لتنظيم تلك المقابلات، وذلك لما تعلمه من أن تنفيذ المقابلات يستغرق وقتاً طويلاً جداً. وفجأة تلمع في ذهنها فكرة:إنها تستطيع أن تذهب إلى المتجر الكبير الجديد الموجود خارج المدينة وتقوم – فقط- بإحصاء عدد الأفراد الذين يطرحون زجاجاتهم الفارغة في وعاء الزجاجيات الموجود فى الساحة المخصصة لانتظار السيارات في منطقة المتجر. وبفضل ابتكارها لتصنيفات بسيطة لفئات الجماعات الإثنية المختلفة (سوداء، بيضاء، وأُخرى)، استطاعت أن تحصل على بيانات سريعة سهلة لن تنفق وقتاً طويلاً في تحليلها. يصف مُعَلِّمها هذه الطريقة بأنها ملاحظة غير مشاركة مقننة، وذلك على الرغم من أنها لا تفهم لماذا يَعُدُّها المعلم ملاحظة غير مشاركة مع أنها سوف تُشارك في هذه الملاحظة بالجلوس داخل سيارتها في موقف العربات. ولاشك أن الأستاذ سيسعده أن تذكرت تلميذته شيئاً علَّمها إياه على أية حال.

وفي اليوم التالي، وبعد ارتدائها قلنسوة تُغطي رأسها وعُنقها حاكتها لها أُمُّها لتحفظها من برد الشتاء، إتخذت لنفسها موقعا في موقف السيارات وبيدها لوح مثبت عليه كمية من الأوراق للكتابة. بعد انقضاء ساعة استطاعت أن تُحصي عدد (٢٠) شخصاً: (١٥) من السود، و(٣) من البيض، و(٢) من فئة (أخرى). وقد اضطرت إلى تصنيف الشخصين الأخيرين بأنهما من فئة (أخرى)، لأنهما كانا مُتغطيين تماماً بتلفيعة حول الرأس، ويرتديان قُبعتين وقُفازين من الصوف حتى إنها لم تستطع فعلاً أن تتعرف على أصلهم الإثنى، كما أنها بحاجة إلى بعض الأشخاص في فئة (أخرى) حتى تصبح البيانات أكثر إمتاعاً في تحليلها.

ونظراً لشعورها بالبرد الشديد، رأت أن تسرع بالدخول إلى المتجر لتتناول فنجانا من القهوة، و"تخترع" عدداً قليلاً من الأفراد الذين يفترض أنهم استخدموا وعاء حفظ الزجاجات الفارغة أثناء وجودها داخل المتجر. بعد نصف ساعة أخرى تُقرر أن يومها كان حافلا بالإنجاز وتقرر الانصراف. وأثناء عبورها الطريق إلى محطة الأوتوبيس تقع عيناها على مجموعةٍ أخرى من صناديق تدوير الزجاجات لم تكن تدري أنها موجودة. إنها لا تعد هذا أمرا مهما، فخلاصة الأمر أن نسب الأفراد الذين سوف يستعملون هذه الصناديق ستكون هي نفس نسب الأفراد الذين استخدموا الصناديق الموجودة في ساحة انتظار العربات. تقفز إلى داخل الأوتوبيس، وهي واثقة من أنها قد جَمَعَت بيانات ثابتة منهجياً.

بعد أسبوع من تلك الواقعة، تفرغ من كتابة بحثها. وتنقل مقالة منشورة في مجلة "مراجعات في علم الاجتماع" Sociology Review لوضعها في القسم الخاص باستعراض التراث في بحثها ثم تعمد بَعدَ ذلك إلى كتابة نتائجها. وترسم شكلا توضيحيا دائريا لتعرض فيه بياناتها: ٢٦ من فئة "السُود"، و ٢٤ من فئة "البيض"، و ١٤ من فئة ألوان "أخرى"، حيث بلغ العدد الإجمالي للعينة ٥٤ فرداً. تكتبُ شارحة: يتضح من هذه البيانات أن الأسيويين يتميزون بصفة خاصّةً بالوعي البيئي، بينما لا يقوم أبناء جُزر الهند الغربية (بخليج المكسيك) ولا الصينيون بتدوير الزجاجات لأنهم لا يشربون كثيراً من الخمر. ومع أن النساء أفضل في التدوير من الرجال البيض، إلا أنهن لَسنَ في مستوى جودة أبناء جزر الهند الغربية. وفي سعادة بعملها، تختتم شرحها بالقول – في جرأة واضحة- بأن بحثها قد انتهى إلى اكتشاف" فروق واضحة ولها دلالتها بين عادات التدوير لدى الجماعات العرقية المختلفة، حيث اتضح أن الأسيويين هم الجماعة العرقية الأكثر حفاظاً على البيئة". وبعد أن وضعت القلم، لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تبتسم ابتسامة عريضة. فالمهم في النهاية أن مُعلمها قال إن البحث السوسيولوجي بحث عسير حقاً!

تمرين ٦-١	
هذا التمرين مصمم لكي يجعلك تفكر في أهمية "الثبات" في البحث السوسيولوجي. وقد تعمدنا المبالغة في هذا السيناريو لنوضح بعض المشكلات التي تنْجم عن صياغة التعميمات باستخراجها من بيانات غير ثابتة منهجيا. اقرأ الموضوع (A) وأجب على الأسئلة التالية:	
١- في ضوء ما تعرفه عن الثبات (المنهجي)، إلى أي مدى كان هذا البحث ثابتاً من الناحية المنهجية؟	تفسير تطبيق
٢- ما الملاحظات في طريقة جمْعها للبيانات التي تترك علامة استفهام على الثبات المنهجي لهذه البيانات؟	تطبيق تحليل
٣- إلى أي مدىً كان ينبغي عليها أن تُعمم الأحكام المستخرجة من البيانات التي جَمعتها؟	تقييم
٤- ما النتائج التي يُمكنك أن تستخرَجها؟	تحليل تقييم
٥- لو فُرض أنك تُعيد تصميم هذا البحث لتزيد من درجة ثباته، فما التغييرات التي ستدخلها عليه؟ ولماذا؟	تقييم تحليل

الصدق

يشير مصطلح الصدق إلى مدى ما تقدمه نتائج البحث من صورة حقيقية أو صادقة للموضوع المدروس.فإذا قيل إن البحث صادق، فمعنى ذلك أنه يقيس فعلاً ما يُراد قياسه، وأنه يُعطي رؤية دقيقة لمجال البحث، أي أنه "يُقدم صورة تعكس الواقع تماما كالمرآة".

والصدق أمر مهم إذا كان الباحثون يسعون للحصول على رُؤيةٍ متعمقة للأفراد، أو الجماعات الصغيرة، أو المواقف والأوضاع. وحين يستطيع الباحثون أن يضمنوا أن بحثهم صادق، فإنهم يَستطيعون الوثوق بأن نتائجهم تُصور بالفعل ما تتصف بهِ القضية المدروسة من خصوصية وتفرُّد. وإذا افتقد البحث الصدق، فمعنى ذلك أن الباحثين لا يُمكنهم أن يَضمنوا أن نتائجهم تعكس صورة الحقيقة.

إن من الصعوبة البالغة ضمان الصدق المطلق (أي الكلي) فى البحث السوسيولوجي لأنه من المُحتم أن جميع الموضوعات تُدرس انطلاقاً من منظور/أو رأي علماء الاجتماع القائمين بالدراسة، وأنه مهما كان مقدارما يحاولون بذله من التعاطف (أي تحقيق الفهم المتبادل) مع مَن يُجرون معهم مقابلاتهم بشأن القضية أو الموضوع محل البحث، فإنهم لا يستطيعون أبداً أن ينفذوا إلى باطن شخصية إنسان آخر أو يشعروا بأحاسيس إنسانٍ آخر.مثال ذلك، أنك قد تجمع معلومات لها اعتبارها عن الفجيعة بفقد الأحباب (كاليُتم بفقد الآباء والأمهات، والثُكْل بفقد الأبناء)، وتتحدث مع المُبتلَينَ بهذه الفجائع ومع المُستشارين النفسيين في هذا المجال، إلا أنك ما لم تكن قد مررت بتلك الخبرة، فلن تستطيع أن تدرك تماماً كيف يكون الشعور بها.

وتزداد عملية إثبات الصدق تعقيدا بسبب أنه حتى لو مر فردان بنفس الخبرة، فليس من اللازم أن يفهماها أو يستجيبا لها بطريقة مماثلة. فالفروق الفردية، والتي منها العوامل الجينية، والوراثة، والثقافة، والقابلية للتأثر بالعوامل البيئية وما أشبه ذلك؛ كل هذه الأمور تقوم بدورها لتجعل تفسير الفرد للمواقف واستجابته لها أمراً متفرداً.

ويتعين على علماء الاجتماع الذين يهمهم صدق بحوثهم أن يكونوا مدركين لحقيقة أنه من المحتمل ألا يظفروا أبداً بصورة كاملة للحقيقة. وفي أفضل الأحوال لن يُمكنهم إلا أن يقتربوا منها فقط، وذلك عن طريق التأكد من أن وصفهم للأحداث يعتمد اعتماداً شديداً على تصورات للجماعة موضوع الدراسة وعلى تفسيراتها للمواقف.

الموضوع (B)
مواجهة الحزن (البلاء) ليس بمقدور أحد أن يجعلك مهيأ لموت عزيز عليك، مهما كان مقدار قراءتك عن هذا الموت أو حديثك عنه. وحتى عندما تعلم أن هذا الموت وشيك الوقوع، وذلك بسبب طول مدة مرض هذا الشخص العزيز أو الانهيار الحاد فى حالته، يظل هذا الموت مفاجئاً لك. وتُعد الانفعالات التى يثيرها الموت شديدة الاختلاط بشكل عجيب، كما أنها تسبب نوعاً من الشعور بالذنب. ذلك أن جزءاً منك يصرخ بداخلك لوعة على مصابك (ما أشد أنانية هذا الشعور؟) وقد يشعر جزء آخر منك بالراحة النفسية بسبب انتهاء الألم الذى كان يقاسيه هذا العزيز. فالانفعالات المباشرة ليست وحدها الانفعالات الغالبة هنا. فكثيراً ما يتم إخفاء الاضطراب الهائل وراء وجه حزين تلقى به الناس، وهو الموقف الذى تتصور

فيه أنك تعرف كيف ينبغى أن تتصرف فيه وكيف ينبغى أن يكون إحساسك فـى أماكن اللقاء العامة، إلا أن هذه التصرفات والأحاسيس الظـاهرة قـد لا تكـون مماثلة للأفكار والتصرفات التى تستشعرها فى خلوتك وأنت فى صحبة نفسك. وقد تضبط نفسك متلبساً بالنظر حولك لترى كيف يتغلب الآخـرون علـى هـذا المصاب. فالقضية الحاسمة ليست فى قيامك بتقييم سلوك من تختلف طريقتهم فى مواجهة الحزن (أو البلاء) والتعامل معه عن طريقتك. ولكن ليكن شعارك الذى تلتزم به هو "عمل كل ما بوسعك لكى تؤدي ما عليك أداؤه".

	تمرين ٦-٢
	هذا التمرين مصمم لكى يجعلك تفكر فى أهمية الصدق فى البحث السوسيولوجى. ويقدم الموضوع (B) وصفاً خيالياً لاستجابة أحدهم لفقـد عزيز لديه. والمعلومات كتلك المعروضة فـى الموضـوع (B) مـن المرجح أن يستعملها عالم اجتماع يدرس خبرة الحزن (أو البلاء) ولكنه غير قادر على جمع البيانات الأصلية، أو أنه اختـار ألا يجمعهـا مـن مصدر أصلى حى. ويطلق على البيانات التى يجمعها فرد أو هيئة ثـم يدرسها آخرون مصطلح البيانات "الثانوية". اقرأ الموضوع وأجب على الأسئلة التالية:
فهم تطبيق	١- ما جوانب هذا التقرير التى تجعله صادقاً من الناحية المنهجيـة، أى تجعله صورة للحقيقة؟

<table>
<tr><td>تحليل
تقييم</td><td>٢- ما نقاط القوة وأوجه القصور فى هذا النص المستخلص، وذلك من حيث فائدته لعالم الاجتماع؟ سوف يساعدك جدول كالجدول التالى على تنظيم تفكيرك. وقد أدرجنا بعض المداخل لتساعدك على بدء الإجابة.

تقييم البيانات الصادقة

نقاط القوة | أوجه القصور
١- يعطى صورة حقيقية لخبرة أحد الأفراد الشخصية. | ١- لا يمكن تعميمها
٢- | ٢-
٣- | ٣-</td></tr>
<tr><td>تقييم</td><td>٣- إلى أى مدى يعد تقرير كذلك التقرير الوارد فى الموضوع (B) صادقاً؟</td></tr>
<tr><td>تطبيق</td><td>٤- ما المصادر الأخرى التى يمكنها أن تزود عالم الاجتماع ببيانات عن خبرة المرض؟ وأى هذه المصادر يمكن اعتباره مصدراً صادقاً؟</td></tr>
</table>

تمثيل بيانات العينة لمجتمع البحث

يشير تمثيل البيانات إلى المدى الذى تبلغه البيانات المجموعة من عينة بحثية (أى مجموعة الأفراد الذين اختيروا لإجراء الدراسة عليهم) فى تقديم "صورة مرآة" للمجتمع الذى تنتمى إلى هذه العينة عموماً. وتوصف البيانات بأنها ممثلة إذا

كانت النتائج المتحصلة من عينة البحث تعكس بقدر مقبول كافة الاحتمالات التى قد تحدث لو أجريت الدراسة على مجتمع البحث بأكمله.

ويكون تمثيل البيانات أمراً مهماً إذا أردنا إصدار الأحكام العامة أو التعميمات. فإن كان الباحثون واثقين أن بحثهم ممثل فإنهم سيكونون أكثر ثقة فيما يتصل بتوسيع نطاق استدلالاتهم أو فروضهم المستخرجة من عينة البحث هذه وتطبيقها على مجتمع البحث.

وفى العادة، إذا أراد علماء الاجتماع أن تكون مادة بحثهم ممثلة للمجتمع، فإنهم يستخدمون أساليب وإجراءات معينة لاختيار العينات. وتشتمل هذه الأساليب على انتقاء جماعة العينة التى تتوفر فيها كافة الاحتمالات، كما تعكس هذه العينة – بصورة تناسبية – كافة الموجودين فى المجتمع الأوسع. وبدون ذلك، فإن أى تعميمات يتم التوصل إليها ستحتاج إلى الحذر والحرص الشديدين فى تفسيرها، حيث يمكن أن تكون هذه البيانات غير ممثلة ومن ثم قد تؤدى إلى فروض/ أو استدلالات غير دقيقة. ومع أن أساليب اختيار العينات ليست كلها أساليب تمثيلية، فإنها لا تزال ذات نفع لعلماء الاجتماع بالنسبة لتحقيق أغراض معينة.

الموضوع (C)
"هل هى وسائل اتصال خاصة برجال الطبقة المتوسطة"؟
خلفية البحث
بعد أن درست موضوع "التحيز" فى وسائل الاتصال الجماهيرى، ولما كانت لى مصلحة خاصة فى مواصلة العمل بإحدى المهن فى مجال وسائل الاتصال، فقد استقر رأيى على أننى بحاجة إلى دراسة أفكار نموذج الهيمنة،

وأعنى بذلك أن التحيز فى وسائل الاتصال ينبع من الصحفيين الذين يقومــون – وبناءً على ما يتمتعون به من وضع اجتماعى ممتاز – بتقديم رؤية واحدة للعالم. ونظراً لأن وسائل الاتصال الجماهيرى مجال ضخم، ولأن من العسير اختبــار أفكار نموذج الهيمنة بشكل عام وشامل، قررت أن أركز على الزعم القائل "بأن المشتغلين بوسائل الاتصال من أبناء الطبقة المتوسطة فى الغالب، ومن النــاس الميسورين". فلو استطعت العثور على ما يؤيد هذا الافتراض (أى هــذا الحكــم الموضوع تحت الاختبار)، فمن شأن ذلك أن يثبت صدق أفكار نموذج الهيمنة.

اختيار العينة

قررت جمع البيانات من جماعتين: (١) من يعملون حاليــاً فــى وســائل الاتصال، و(٢) المتقدمين للالتحاق ببرامج جامعية فى مجال دراســات وســائل الاتصال، ومجال الاتصالات، ومجال الصحافة، وما أشبه هذه الدراسات. فمــن شأن ذلك أن يزودنى برؤية تكون ممثلة لخلفية العاملين فى وسائل الاتصال (أى لبيئتهم الاجتماعية). وعلى هذا قمت بتصميم استبيانين – استبيان لكل جماعة – أسأل فيهما عن أسباب رغبتهم فى دخول مجال وسائل الاتصال، وعن نــوعهم الاجتماعى، وعن مؤهلاتهم، وعن خلفياتهم الطبقية الاجتماعية، وعن طموحاتهم المهنية، وما إلى ذلك.

قام عمى الذى يعمل لصحيفة "بورنموث إيكــو" Bournmouth Echo بتوزيع ١٥ نسخة من الاستبيان الأول على الأفراد الذين يعرفهم فى قسم الشئون المالية وفى قسم الرياضة فى هذه الجريدة. وترك عدداً قليلاً من الاستبيانات فى غرفة استراحة العاملين للصحفيين الذين يعملون بالأقسام الأخــرى، ليــستوفوا الإجابة عليها أثناء فترة راحتهم لتناول الشاى. وكنت فى ذلك الوقــت مواظبــاً على حضور مقابلات للنقاش فى الجامعة لاكتسب قسطاً من المعرفة فــى أحــد

مقررات وسائل الاتصال، لذلك أخذت معى نسخاً من الاستبيان الثانى. وفى ٤ مقابلات (تمت فى كنت Kent، وبريستول Bristol، وإكستر Exeter، وبرايتون Brighton)، تمكنت من الحصول على ٢٠ استبياناً استوفى الطلبة الإجابة عليها. وكان المرشحون منهم للقبول فى "كنت" خاصة ممن قدموا لى يد المساعدة، حيث أجلوا حضور الجزء المخصص من وقت المقابلة للمناقشة الجماعية، لكى يتمكنوا من استيفاء بيانات استبياناتهم.

	تمرين ٦-٣
	الموضوع (C) نص خيالى مختلق مستخلص من مشروع بحثى لدارس لعلم الاجتماع. قم - بالانتفاع بمعرفتك وفهمك لمفهوم "تمثيل البيانات للمجتمع" - بتفسير هذه المعلومات، وقيم مدى كون بحث هذا الطالب ممثلاً لمجتمع الدراسة. استخدم الأسئلة التالية لإرشادك:
تفسير تطبيق	١- إلى أى مدى حاول الدارس أن يجعل بحثه بحثاً ممثلاً؟
تفسير	٢- ما عيوب التصميم التى أضعفت صلاحية هذه الدراسة لتمثيل مجتمع البحث.
تحليل تقييم	٣- لماذا يكون من الصعوبة البالغة أن تحصل على بيانات ممثلة لتختبر الفرض القائل بأن "العاملين المهنيين فى مجال وسائل الاتصال هم من الناس الميسورين من أبناء الطبقة الوسطى غالباً؟

التقنين

يشير مصطلح "التقنين" إلى الطبيعة النظامية والمنهجية للبحث. وحين يوصف بحث بأنه "مقنن"، فإن هذا يعنى فى العادة أنه يتبع خطوات وإجراءات منطقية ويلتزم ببعض الضوابط لضمان أن أى إنسان يحاول تكرار هذا البحث سيتبع نمطاً مماثلاً تماماً.

وأصدق مثال على التقنين هو البحث التجريبى الذى يجرى تحت ظروف المعمل (انظر القسم الذى ورد فى الفصل السابع من هذا الكتاب عن المنهج العلمى)، حيث يتم ضبط كافة الإجراءات ضبطاً صارماً ويتم اتباعها بأسلوب منهجى حتى يمكن اختبار الفرض التجريبى (أى: الحكم/ أو التنبؤ) اختباراً دقيقاً. وبمجرد الانتهاء من اختبار التنبؤات واستخراج النتائج، فلابد من تكرار البحث حتى يتم البرهنة على ثبات البيانات (انظر القسم السابق عن الثبات). وعندما تتبع الأساليب الإجرائية المقننة يصبح من السهل نسبياً تكرار هذا البحث (أى إعادة إجرائه تحت نفس الظروف أو تحت ظروف مشابهة). فإذا كانت الأساليب الإجرائية غير مقننة فلا يمكن للباحثين أبداً أن يكونوا على ثقة مما إذا كانت البيانات التى تم جمعها فى ظروف مختلفة أو على يد أعضاء آخرين مختلفين من فريق المشاركين فى هذا البحث؛ مما إذا كانت هذه البيانات قابلة لعقد المقارنة بينها بصورة مباشرة أم لا.

	تمرين ٦-٤
تفسير تطبيق تحليل تقييم	يتطلب منك هذا التمرين أن تقيِّم أهمية التقنين في البحث السوسيولوجي. اقرأ الفقرة التالية ثم أجب على الأسئلة التي تليها. قارن أفكارك بأفكار غيرك من دارسي علم الاجتماع وقدر مدى موافقتك لأفكارهم. تقرأ في مصدر ما أن نسبة الأطفال في إجمالي سكان المملكة المتحدة قد انخفضت، وأن معدلات الخصوبة قد هبطت على امتداد أوروبا، وأن أعداداً متزايدة من النساء أصبحن يؤثرن عدم الإنجاب. ويبدو هذا الموضوع مجالاً بحثياً ممتعاً يزيد من فهمك لما للحياة الأسرية من أنماط واتجاهات متغيرة. لذلك تقرر أن تقوم بإجراء مسح سريع لاتجاهات النساء نحو إنجاب الأطفال. ولما كان الوقت محدوداً فإنك تعتمد على المساعدة التي يقدمها لك أربعة من أصدقائك، ويكون جميعهم من الطلاب ولكن اثنان منهم فقط هم يدرسون علم الاجتماع. وتقرر أن تقوم بإجراء مقابلات قصيرة شبه مقننة. حيث يقوم كل واحد منكم بإجراء مقابلتين تستغرق الواحدة ١٥ دقيقة مع مجموعة متنوعة من المتطوعات والصديقات. وسوف يزودك هذا بقدر كبير من البيانات التي تحللها وتستخرج منها التعميمات.
تفسير تطبيق	١- لماذا سنحتاج إلى تقنين عملية جمع البيانات في هذه الحالة؟
تفسير تطبيق	٢- ما الخطوات التي ستتخذها لتقنين عملية جمع البيانات؟

تفسير تطبيق	٣- ما المشاكل التى ستحدث إذا لم تتخذ هذه الخطوات؟
تحليل تقييم	٤- إذا ارتبت فى أن البيانات التى جمعتها لم تتبع الإجراء المقنن، فما التدابير الوقائية (أو الاحتياطات) التى ينبغى عليك اتخاذها عند تحليل البيانات وعرض النتائج؟
معرفة فهم تفسير تطبيق	مستحضراً فى ذهنك الاعتبارات التى أوردناها من قبل، صمم دليل مقابلة مقنن (أى قائمة أو سلسلة منطقية من الأسئلة المناسبة) لمقابلة مقننة يمكن استعمالها فى جمع نوعية البيانات التى تهمك. ولتقوم بذلك العمل، سوف تحتاج إلى الاطلاع على المعلومات الخاصة بتصميم المقابلات وإجرائها الواردة فى الفصل السابع من هذا الكتاب.

التعميم

إذا كان حجم وتركيب عينة ما ممثلين لكافة الأفراد الذين تعنى بدراستهم، فإن بالإمكان أن يُقال عن نتائج بحث هذه العينة أنها تنطبق على مجتمع البحث الأوسع، أى أن بالإمكان تعميم هذه النتائج. "فالأحكام المستمدة من دراسة عينة من الأفراد الذين يتسمون بسمات خاصة يمكن تطبيقها على كافة من يتسمون بهذه السمات" (لوسن Lawson وجارود Garrod، ٢٠٠٩). وعلماء الاجتماع لن يتوافر لهم الوقت الكافى أو الموارد المالية الكافية لدراسة كل الأفراد الموجودين فى مجتمع البحث الكبير، لذلك فإنهم يستخدمون عينات ممثلة صغيرة العدد من الأفراد تعكس صورة مجتمع البحث الكبير محل الدراسة كوسيلة ملائمة - من حيث التكلفة - لدراسة المجتمع ككل.

الموضوعية

يشير مصطلح الموضوعية إلى مدى تحرر البحث من التحيز الشخصى أو الرأى الشخصى. ويذهب الوضعيون (انظر الفصلين الثالث، والعاشر من هذا الكتاب) إلى أنه ينبغى على البحث أن يسعى بكل السبل ليكون موضوعياً ومتحرراً من القيم (أى الأحكام القيمية بالخير والشر، أو الجمال والقبح، وما أشبه ذلك) (انظر ما يلى). فإن أخفق البحث فى تحقيق هذا الهدف فلن تكون له قيمة كبيرة لدى الباحثين. كما يذهب الوضعيون إلى أنه لكى يكون الحكم موضوعياً فلابد أن يتأسس على الوقائع والحقائق لا على الرأى.

ويذهب الواقعيون (انظر الفصل العاشر) إلى أنه مع أن من المرغوب أن يحاول الباحثون أن يكونوا موضوعيين، إلا أننا – نجد فى الواقع – أنه يكاد يكون من المستحيل استبعاد الرأى تماماً من البحث العلمى. وسبب هذا أن علماء الاجتماع بشر فى النهاية، وأن آراءهم، واتجاهاتهم، ونظراتهم الشخصية الخاصة بهم وما إلى ذلك من الاعتبارات تشكل جزءاً لا يتجزأ من "ذاتهم"، ومن ثم لا يمكن تجاهلها (انظر الفصل التاسع). وللتغلب على هذه المشكلة يرى الواقعيون أنه ينبغى على علماء الاجتماع أن يتبنوا توجهاً منهجياً منطقياً فى البحث يحقق أكبر قدر من الموضوعية ويقلل الطبيعة الذاتية للبحث إلى أقصى حد.

تمرين ٦–٥	
فسر الجمل التالية مستفيداً بمعرفتك بمفهوم الموضوعية؛ ما الجمل التى يمكن أن يطلق عليها "موضوعية"؟ وأيها التى ليست كذلك؟ وهل توجد جمل يصعب تصنيفها؟ أدخل كل جملة فى جدول مكون من ثلاثة أعمدة، وضعها تحت العناوين الآتية: "جملة موضوعية"، "جملة	

<table>
<tr>
<td>

تفسير

تطبيق

تحليل

تقييم
</td>
<td>

غير موضوعية"، "جملة يصعب تصنيفها":

١- بعد الاطلاع على توقعات الطقس، فمن المحتمل أن تمطر السماء اليوم.

٢- لقد رأيت سحباً مثل هذه السحب قبل ذلك، أظن أنه ستهب عاصفة الليلة.

٣- تدل البيانات الموجودة فى دليل الاتجاهات الاجتماعية (دليل إحصائى) على أن ٧٥ فى المائة من العمال غير المهرة و٣٢ فى المائة فقط من البالغين من ذوى المهن الراقية ممن هم فوق سن ٧٥ سنة ليس لديهم أسنان طبيعية.

٤- من الواضح أن أسنان العمال اليدويين غير المهرة، تسقط لأنهم لا ينظفونها.

٥- العمال اليديون غير المهرة يزداد احتمال فقدهم لأسنانهم أكثر من العاملين بالمهن الراقية.

٦- النساء يتناولن الشيكولاتة أكثر من الرجال.

٧- ثمانية من كل عشرة ممن يقتنون القطط وعبروا عن نوع من التفضيل قالوا إن قططهم تفضل تناول غذاء القطط ماركة Whiskas.

٨- الصبيان الصغار أرجح احتمالاً لأن يكونوا عدوانيين أكثر من الفتيات الصغيرات.
</td>
</tr>
</table>

الذاتية

يشير مصطلح "الذاتية" إلى مقدار ما يعكسه البحث من الآراء والأفكار الشخصية لعالم الاجتماع. وعلى حين يرى الوضعيون أن الذاتية نزعة غير علمية ومن ثم فهي غير مرغوب فيها، يرى المفكرون المناهضون للوضعية (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب) – كالواقعيين مثلاً – أن البحث عملية ذاتية لا محالة. ومع ذلك لا يعتقد مناهضو الموضوعية – وخلافاً للواقعيين – أن على البحث أن يسعى ليكون موضوعياً بقدر الإمكان.

ولا يوافق المناهضون للوضعية على أن الموضوعية مرغوب فيها في البحث، حيث يذهبون إلى أنه ما لم يهتم الباحث بالفرد، أو الجماعة أو الموقف الذي يدرسه، فلا أمل له أبداً في أن يفهم ما يجرى فهماً تاماً. إذ يقر مناهضو الوضعية أن البحث العلمى الاجتماعى عملية ذاتية. وهكذا تنبع الذاتية من البحوث المناهضة للوضعية لأن التعاطف (أى الفهم المتبادل) أمر لابد منه للبيانات الصادقة (أى الحقيقية أو الصحيحة).

الموضوع (D)
المقابلات المتعمقة غير الرسمية من الاستراتيجيات التى يتبناها الباحثون الكيفيون المهتمون بالتنقيب العميق داخل ما للفرد من معان ونوايا وتصورات تتصل بالحياة الاجتماعية؛ يختارون استراتيجية إجراء مجموعة مكثفة من المقابلات غير الرسمية (الحرة). وخلافاً للمقابلات الأكثر رسمية (المقننة)، تكون الأسئلة المستخدمة فى المقابلات

غير الرسمية ذات نهايات مفتوحة، كما أنها تتيح للمستجيبين الوقت والظروف ليطوروا أجوبتهم بصورة كاملة في سياق حوار متبادل (مع الباحث). فمن خلال رجوع الباحث لمن يجرى معهم المقابلة مرة بعد مرة، يستطيع متابعة الخطوط المهمة للبحث والتأكد من أنه فهم فهماً تاماً ما يقوله الشخص الذى يجرى معه المقابلة. وتصل قوة العلاقة التى يمكن أن تظهر فى مثل تلك الأنواع من المقابلات إلى حد تحول علاقة الباحث بالمبحوث إلى نوع من الصداقة القوية على نحو يفوق المقبول أو المسموح به. ويقتضى هذا الخطر وجوب تنبه الباحث دائماً لهدف هذه المقابلات وأن يذكر نفسه باستمرار بالطبيعة السوسيولوجية لهذه الحوارات المتبادلة.

	تمرين ٦-٦
	سيمكنك هذا التمرين من استكشاف معالم مفهوم الذاتية بمزيد من التفصيل. اقرأ الموضوع (D) ثم أجب على الأسئلة التالية:
تفسير تطبيق	١- لماذا تكون المقابلات التى تستعمل الأسئلة ذات النهايات المفتوحة والتى تتسم بالمزيد من الحوار؛ لماذا تكون أكثر عرضة للاتصاف بالذاتية؟
تقييم	٢- إلى أى مدى يمكن للمقابلات غير المقننة والمفرطة فى روح الصداقة (بين الباحث والمبحوثين) أن تقدم بيانات بحثية ذات قيمة؟
تقييم	٣- لماذا يمكن أن يؤدى التعاطف مع المبحوثين إلى التشكيك فى صدق البحث؟

أنواع البيانات

البيانات الأولية (أو الأساسية)

توصف البيانات بأنها "أولية" إذا كان من جمعها هو عالم الاجتماع بنفسه لخدمة هدف بحثي محدد. وتجمع هذه البيانات وفقاً لتصميم يضعه عالم الاجتماع مسبقاً، كما يتم تحليلها وفقاً لهذا الهدف البحثي. ومن أمثلة البيانات الأولية: الإحصائيات، والأجوبة على المسوح الاجتماعية، وسجلات تدوين المقابلات، والأجوبة على الاستبيانات، وسجلات تدوين بيانات الملاحظات، والتاريخ الشفاهي، والمادة المدونة من أشرطة التسجيل الصوتية، وما إلى ذلك.

من الممكن أن تستغرق عملية جمع البيانات وقتاً طويلاً وتتكلف تكاليف باهظة، كما أنه من الممكن دائماً الظفر بالوصول إلى المعلومات المطلوبة، إلا أنه بمجرد الحصول عليها، يمكن للبيانات الأولية أن تكون متعددة الاستعمالات. مثال ذلك، أن بالإمكان تقسيم المعلومات "الخام" (أى التي لم تعالج بعد)، وتصنيفها، وإعادة تصنيفها، كما يمكن عرضها كإحصائيات وصفية باستخدام: الوسط الحسابي، والوسيط، والمنوال ، والنسب المئوية، وما إلى ذلك. كما يمكن عرض البيانات في أشكال بيانية (كالأشكال التوضيحية الدائرية ولوحة الأعمدة البيانية، والمدرجات التكرارية، والمضلعات التكرارية (خرائط العلاقات التنفيذية)، وما إلى ذلك، حيث يتم تفسيرها عن طريق تحليل المضمون، كما يتم تصنيفها أو تلخيصها. وتمكن مثل تلك العملية علماء الاجتماع من تفسير هذه البيانات ومن فحص الأنماط والاتجاهات أو الأفكار المحورية التي تبرز من المادة.

وبإمكان الإحصائيات الاستدلالية (كالاختبارات الإحصائية على سبيل المثال) كذلك أن تستعمل لاختبار الفروض من واقع تلك البيانات. وبإمكان أمثال تلك الاختبارات أن تتبين ما في البيانات من اختلافات وفروق، ومن ارتباطات،

وعلاقات اقتران. كما أن بالإمكان عقد المقارنة بين هذه النتائج باستعمال جداول القيم الحرجة لتقدير دلالة هذه النتائج (من الوجهة الإحصائية). ومن المرجح أن يستخدم هذه الاختبارات علماء النفس وعلماء الاجتماع المهتمون بفحص بعض علاقات السبب والنتيجة باعتبارها علاقات مناقضة للاتجاهات الاجتماعية العامة.

يمكن للبيانات الأولية أن تتخذ تنويعة من الأشكال، وذلك بناء على ما يتبناه البحث من أساليب في جمعه لها (انظر الفصلين السابع، الثامن للوقوف على عرض لتقنيات البحث)، وبناءً على نوع المعلومات (انظر فيما بعد) التي يحتاج إليها عالم الاجتماع للقضية محل الدراسة. ويتعين على علماء الاجتماع أن يكونوا عند استخدام البيانات الأولية متنبهين لاحترام خصوصية أفراد عينة هذا البحث. وتوجد خطوط إرشادية صارمة لتشكيل هذا الجانب من جوانب البحث السوسيولوجية (انظر الفصل التاسع). وتتزايد أهمية مراعاة حقوق المبحوثين بتزايد استعمال تكنولوجيا المعلومات في تحليل البيانات للأغراض البحثية. فعلماء الاجتماع قادرون على تحليل البيانات باستخدام أجهزة الكومبيوتر المتقدمة التي تعمل بحزم البرامج المتقدمة في مجال الإحصائيات والرسوم البيانية، وذلك بافتراض أن لديهم التمويل اللازم للقيام بذلك التحليل.

تمرين ٦-٧	تحليل تقييم

سيزودك هذا التمرين بتدريب على تقييم مدى فائدة البيانات الأولية. انسخ وأكمل الجدول التالي وأجب على الأسئلة التي تعقبه. وقد أدرجنا مثالين لمساعدتك على بدء الإجابة:

تقييم البيانات الأولية:

المزايا	العيوب
١- ستكون هذه البيانات بالمواصفات التى يرغب فيها علماء الاجتماع.	١- تستغرق عملية جمع البيانات التى تستخدمها بنفسك وقتاً طويلاً.
٢-	٢-
٣-	٣-

١- ضع قائمة بأكبر عدد يمكنك أن تتصوره من المجالات البحثية التى لن تكون قادراً على جمع البيانات الأولية فيها بنفسك. قدم ما يبرر صحة إجابتك.

٢- اختر مجالاً واحداً من قائمتك وناقش ما الخيارات الأخرى التى يمكن أن تكون متاحة لك لجمع البيانات.

٣- قيم المزايا النسبية لهذه الخيارات، ثم ما عموماً تلك الخيارات التى يمكن أن تكون أكثرها ملاءمة/ أو فائدة؟

قيم المزايا النسبية للأساليب التى عرضنا لها من قبل، بالمقارنة مع استعمال البيانات الأولية فى حالة إمكان الحصول عليها.

البيانات الثانوية

توصف البيانات بأنها "ثانوية" إذا جمعها شخص آخر غير الباحث السوسيولوجى، ولم يكن جمعها مقصوداً به تحقيق أهدافه البحثية بصفة خاصة، بمعنى أن الباحث الاجتماعى يستعمل بيانات موجودة بدلاً من جمعه لمعلومات

"خام". فإن استعمل عالم الاجتماع (أ) نتائج عالم الاجتماع (ب) فهو حينئذ يستعمل بيانات ثانوية. ومن أمثلة البيانات الثانوية تلك البيانات التي ينشرها "مكتب الإحصائيات السكانية والمسوح الاجتماعية"، والأرقام الواردة في دورية "الاتجاهات الاجتماعية"، والبيانات الواردة في "المسح الاجتماعي لضحايا الجريمة"، والوثائق واليوميات الشخصية، والصور الفوتوغرافية، والمواد المنشورة في وسائل الإعلام، وما إلى ذلك.

من الممكن أن تكون البيانات الثانوية نافعة جداً إذا كان الباحثون غير قادرين على الظفر بالوصول إلى المصادر التي يتحتم أن يجمعوا منها ما يخصهم من بيانات. فإن احتاج الأمر إلى مقادير كبيرة من البيانات تستخرج من عينات كبيرة الحجم، أو تقرر جمع البيانات عن موضوعات حساسة، فمن المحال أحياناً أن يعتمد علماء الاجتماع على أي شيء آخر غير البيانات الثانوية المستمدة من أمثال المصادر التي ذكرناها قبل ذلك. وقد يكون من الأسرع والأرخص نسبياً استعمال البيانات التي سبق جمعها. وقد يكون من الملائم لو أن البيانات الأصلية عرضت و/أو حللت في القالب المطلوب، إلا أن الأمور لا تسير كذلك دائماً.

ففي بعض الأحيان لا تكون المعلومات الحيوية مدرجة في تلك المصادر، أو تكون الطريقة التي صنفت بها البيانات أو عرضت بها غير مفيدة. ومن الصعوبة إعادة معالجة البيانات التي سبق جمعها، خاصة وأن من المستبعد جداً أن يكون الباحث على دراية بكيفية جمع البيانات الأصلية. كذلك، وبسبب مرور الزمن، قد لا تكون البيانات مناسبة أو نافعة بعد، أو قد لا تكون حديثة بدرجة تكفي للانتفاع بها في البحث.

	تمرين ٦-٨
تفسير تطبيق تحليل تقييم	باستعمالك للمعرفة التى حصلتيا من الفقرات السابقة، ارسم جدولاً به عامودان وضع فيهما قائمة بنقاط القوة وأوجه القصور التى فى البيانات الثانوية. قارن جدولك مع جدول دارس آخر لعلم الاجتماع لتعرف ما إذا كنتما قد سلطتما الأضواء على نفس العوامل، أم لا.

البيانات الكمية

تتخذ البيانات الكمية صورة الأرقام، والإحصائيات، وما أشبه ذلك. إذ يتم التأكيد على كم (أى: مقدار) المعلومات أكثر من التأكيد على جوانبها النوعية أو سماتها الكيفية (من حيث العمق/ أو التفصيل) بحيث يمكن تحديد الأنماط والاتجاهات و/أو الارتباطات، وحتى يمكن صياغة تعميمات منها. وبصورة عامة، كلما زادت عملية جمع البيانات تقنيناً (أى: ضبطاً وتنظيماً) كلما زاد احتمال أن تكون هذه البيانات كمية. والبيانات الكمية مفضلة - عموماً عند المفكرين البنائيين والوضعيين (انظر الفصل الثالث) الذين هم معنيون بالموضوعية، والتحليل النسقى، والتحليلات على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى.

تتسم البيانات الكمية عموماً بأنها بيانات ثابتة منهجياً لأنها تعد صورة أو انعكاساً للواقع أكثر منها تعبيراً عن الرأى، وذلك على الرغم من أن وجهة النظر هذه محل خلاف. كما أننا سنناقش فيما بعد فى القسم الذى يتناول طبيعة الحقائق الاجتماعية. وخلاصة القول، أن البحث الذى يكون ثابتا منهجياً سيؤدى إلى نتائج متماثلة إذا تكرر إجراؤه. فإن كان البحث مقننا وكانت البيانات المجموعة تتخذ

الصورة الرقمية أو الإحصائية، فلن يكون ثم مجال كبير للانحراف بين أحد البحثين العلميين والبحث التالى له. مثال ذلك، إذا سُئلت: "ما هو سنك؟" فى أحد الاستبيانات واخترت النطاق العمرى المناسب (كأن يكون ما بين ١٦ سنة و١٨ سنة مثلاً). وإذا أُعيد إجراء البحث بعد ذلك بأسابيع قليلة فالراجح أنك ستُعطى نفس الإجابة (ما لم تكن قد كذبت فى البداية، أو تكون قد وصلت حالاً إلى يوم ميلادك التاسع عشر!).

وعلى النقيض من ذلك، إذا سُئلت سؤالاً أقل تحديداً، كأن تُسأل مثلاً: "ما شعورك كمراهق؟"، فإن إجابتك ستكون أقل تقنيناً، كما أن ما تقوله قد يكون متوقفاً على ما تشعر به ساعتها. وفى هذه الحالة، إذا أُعيد إجراء البحث بعد ذلك بأسابيع قليلة فقد تجيب عليه بصورة مختلفة، وقد يرجع ذلك إلى أن رأيك قد تغير، أو لأنك لا تستطيع أن تتذكر ما قلته فى المرة الأولى. إن مثل هذا التساؤل سيؤدى إلى إجابة منخفضة فى درجة الثبات ولكنها مرتفعة فى درجة الصدق (أى تعبيرها عن الحقيقة)، باعتبارها تقدم لنا بيانات كيفية (انظر فيما بعد).

	تمرين ٦-٩
تطبيق تقييم	هذا التمرين مصمم ليساعدك على تقييم فائدة البيانات الكيفية. طبق المعرفة التى حصلتها من الفقرات الواردة من قبل لتملأ الفراغات الموجودة فى الفقرة التالية: تعتبر البيانات الكمية مفضلة عموماً لدى ــــــ وــــــ الذين يهدفون إلى تحديد ــــــ وــــــ، وهو ما يساعدنا على فهم مختلف جوانب البناء الاجتماعي. ومع أن البيانات الكمية مرتفعة فى

ـــــــــ، فإنها منخفضة فى ـــــــــ. وتكون هذه البيانات فى ـــــــــ وشكل، وبذلك لا تزودنا بصورة متعمقة فى الواقع. وأكثر ما تُستعمل البيانات الكمية فى الظروف التالية لتستقصى القضايا التالية: ـــــــــ.	

البيانات الكيفية

تتخذ البيانات الكيفية صورة التعليقات، والمادة المدونة (كتلك الخاصة بالمقابلات مثلاً)، والمحاورات والنصوص المكتوبة وما إلى ذلك. وفيها يتم التأكيد على ما للمعلومات من طبيعة كيفية أو نوعية (أى على ما فيها من عمق/ أو تفصيل) وليس على ما لها من صفة كمية (أى: ما يتصل بالمقدار) وذلك بقصد الحصول على صورة تفصيلية للموضوع المدروس. وعموماً، فإنه كلما كانت عمية جمع البيانات أقل تقنيناً، كلما زاد احتمال أن تكون هذه البيانات كيفية. وتُعد البيانات الكيفية - بوجه عام - مفضلة عند المفكرين المناهضين للوضعية وعند المفكرين أصحاب نظرية الفعل (انظر الفصل الثالث)، وهم المفكرون المهتمون بالتحليل الذاتى، المعبر عن المعانى بالنسبة للوحدات الاجتماعية الصغرى (الميكرو).

وتُعد البيانات الكيفية مرتفعة فى درجة الصدق لأنها تحتوى على معلومات مفصلة وعميقة عن حالات متفردة. ولهذا السبب تكون هذه البيانات منخفضة فى درجة الثبات المنهجى. فإذا أُعيد إجراء البحث الكيفى، حتى وإن كان ذلك فى ظروف قابلة للمقارنة، فمن غير المحتمل أن نحصل على نتائج متماثلة. وسبب هذا أن هذه المعلومات قائمة على الرأى بدرجة أكبر من استنادها إلى الحقائق، ولأن الإجابات معرضة للتأثر بالاختلاف بين الأفراد، بينما تكون الحقائق أقل اتصافاً بهذه الصفة. ونكرر القول مجدداً إن هذا الخط فى التفكير - مع هذا - محل خلاف، كما أننا سنزيده تقصياً فى القسم الذى يتناول "طبيعة الحقائق الاجتماعية".

	ملحق تمرين ٦-٢
معرفة فهم	ننقل فيما يلى استبياناً عن عادات شرب الخمر. وهو مصمم لجمع معلومات كمية، كما أنه مقنن لكى يمكن إدراج كل الإجابات داخل فئات معينة بغرض تسهيل عملية التحليل. ولكل فئة كودها (مثال ذلك أن ١/١ تعنى السؤال رقم ١، والإجابة رقم ١) وهو الأمر الذى يحول الإجابات إلى قيم رقمية للتحليل باستعمال الكومبيوتر. اقرأ الاستبيان بعناية ثم قم – منتفعاً بمعلوماتك عن البيانات الكيفية – باستيفاء المهام التالية. ينبغى عليك أن تقرأ القسم الذى يتناول تصميم الاستبيان فى الفصل السابع من هذا الكتاب قبل أن تبدأ الإجابة. **ما رأيك فى الشراب؟** (من فضلك ضع علامة أمام الإجابة التى تناسبك)
	١- ما سنك؟
	(١/١) تحت ١٦ سنة (٥/١) من ٢٦ – ٣٠ سنة (٢/١) من ١٦ – ١٨ سنة (٦/١) من ٣١ – ٤٠ سنة (٣/١) من ١٩ – ٢١ سنة (٧/١) من ٤١ – ٥٠ سنة (٤/١) من ٢٢ – ٢٥ سنة (٨/١) من ٥١ – ٦٠ سنة
	٢- ما عدد مرات تناولك للخمر؟
	(١/٢) أكثر من مرة في اليوم (٤/٢) قليلاً

(٢/٢) مرة واحدة في اليوم (٥/٢) نادراً (٣/٢) ثلاث مرات في الأسبوع (٦/٢) لا أشرب أبداً	
٣- ما نوع الخمور التي تشربها؟	
(١/٣) باكاردى (٤/٣) سنيكبايت (٢/٣) روم آندبلاك (٥/٣) هوبرزهوتش (٣/٣) برونود (٦/٣) نوع آخر	
٤- ضع علامة على الجملة التي توافق عليها بأكبر قدر من الموافقة.	
(١/٤) شرب الخمر يساعدنى على الاسترخاء. (٢/٤) شرب الخمر يجعلنى على قدر أكبر من الثقة بالنفس. (٣/٤) أنا لا أشرب الخمر إلا لأن أصدقائى يشربونها. (٤/٤) عندما أكون مجهداً فإن أتوق إلى جرعة من الخمر. (٥/٤) أنا لا أحب شرب الخمر، إنه يشعرنى بالاكتئاب. (٦/٤) أظن أننى أفرط في الشراب وهذا أمر يقلقنى.	
١- حدد أكبر عدد يمكنك تمييزه من العيوب فى تصميم هذا الاستبيان. وما التعديلات التى يمكنك إدخالها لتصحيح هذه العيوب؟ ٢- لماذا تكون البيانات الكيفية التى يتم الحصول عليها من الاستبيان ذات فائدة محدودة؟ ٣- هل توجد أى أسئلة تستحق الاحتفاظ بها إذا أخذت باتجاه فى جمع البيانات أقل تقنيناً؟ قدم مبررات لرأيك هذا.	

	تمرين ٦-١٠
تحليل تقييم	اكتب تقييمك الشخصي للبيانات الكيفية. ستحتاج للاعتماد على المعرفة التى حصلتها من الفقرة المذكورة سابقاً. وقد يكون من المفيد أن تنتفع بالفقرة التى تتناول تقييم البيانات الكمية كدليل يرشدك فى صياغة إجابتك. وعندما تنتهى من هذا العمل، قارن تقييمك بتقييم دارس آخر – على الأقل – من دارسى علم الاجتماع.

استخدام عدة طرق بحثية

يتبنى علماء الاجتماع توجهاً عملياً (براجماتياً) فى أغلب الأحوال عندما يبدأون اختيارهم لطرق البحث. فهم يختارون طرق البحث التى يتوافر لهم ما يناسبها من الوقت، وموارد التمويل، والمساعدين المتاحين لاستكمال مشروع بحثى كبير أو بحث محدود على وجه فعال. وقد يتضمن هذا الاختيار إيثارهم لطرق البحث التى تجسر هوة التقسيم القائم بين البيانات الكمية والبيانات الكيفية أو التقسيم القائم بين البيانات الأولية والبيانات الثانوية (فتقيم جسراً يصل بين هذه النوعيات من البيانات). وقد يختار غيرهم من علماء الاجتماع تشكيلة متنوعة من الطرق ليتغلبوا بذلك على نقاط الضعف الكامنة أو المتأصلة فى استعمال طريقة بحث رئيسة واحدة، سواء أكانت طريقة كمية أم كيفية. وقد يرغب بعض هؤلاء الباحثين فى الاعتماد على مدارس التراث النظرى التى تفضل الأخذ بالنظريات القائلة بالبناء والفعل فى تفسير المجتمع. ولذلك سوف تعكس قراراتهم بشأن طرق البحث هذا التنوع فى التفسيرات.

انتقاء المشاركين فى البحث

المفاهيم

المعاينة/ أو سحب العينة

تعنى المعاينة عملية اختيار الأفراد الذين يشاركون فى البحث (المبحـــوثين). ومن الواضح أن على الباحثين أن يكونوا انتقائيين. فليس بالإمكان أن يقدروا علـــى إدراج كل إنسان فى بحثيم، كما أنه قد لا يكون من الملائم أن يفعلوا ذلـــك. فمـــن شأن ذلك أن يكون باهظ الكلفة ومستنفذاً للوقت، كما أن من شأن هذه البيانـــات أن تكون فوق قدرتهم على معالجتها أو التعامل معها. ونظراً لهذا الـــسبب، يـــستعمل علماء الاجتماع مجموعة من أساليب جمع الأفراد الذين سيجرى عليهم البحث.

مجتمع البحث

يشير مصطلح "مجتمع البحث" إلى جميع أعضاء الجماعة التى يهـــتم بهـــا الباحث. مثال ذلك، أنه إن كان الباحث مهتماً ببحث خبرات النساء المتعلقة بـــسوق العمل، فإن مجتمع البحث سيتكون من جميع النساء اللاتـــى يعملـــن. إلا أن هـــذه المجموعة من النساء ستكون أكبر من أن يمكن للباحث أن يستوعبها كلها فى بحثه، لهذا ينتقى الباحث مجموعة أصغر عدداً من مفردات هذه المجموعة الكبيرة التـــى يستهدف دراستها.

العينة

"العينة" مصطلح يُستعمل للإشارة إلى المجموعة الأصغر عدداً من الأفراد الذين تم انتقاؤهم من مجتمع البحث المستهدف دراسته. ومع ذلك، وكما يشير كوليكان Coolican (١٩٩٤)، فإن العينة قد لا تتكون من أفراد من البشر. شاهد ذلك، أن عالم البيولوجيا قد يكون مهتماً بدراسة نوعية نباتات الكرنب في حقل معين، وفي هذه الحالة سوف يتم اختيار عدد من نباتات الكرنب لتشكل عينة البحث، بينما تمثل جميع نباتات الكرنب الموجودة في هذا الحقل مجتمع البحث في هذه الدراسة.

إطار المعاينة أو إطار اختيار العينة

لكي يكون اختيار العينة اختياراً ممثلاً (أعني بذلك أن يعكس بدقة صورة لمجتمع البحث المستهدف) فلابد له من الحصول على – أو تطوير – قائمة شاملة بالأفراد الذين يكونون مجتمع البحث المستهدف. وتسمى هذه القائمة "إطار المعاينة". ويضفي إطار المعاينة هذا نوعاً من التنظيم على عملية المعاينة. وسبب ذلك أن الأفراد المذكورين في هذه القائمة هم وحدهم الذين يكون لهم صلة بالبحث ومن ثم يشكلون مجموعة متماسكة من بينها يتم اختيار العينة. ولكي يكون إطار المعاينة دقيقاً لابد أن يشتمل على جميع الأعضاء الذين يمكن أن يكونوا أعضاء في مجتمع البحث المستهدف. فإن كانت هذه القائمة غير كاملة أو غير دقيقة، فقد لا تعكس العينة صورة مجتمع البحث المستهدف.

حجم العينة

من المهم للباحث أن يولى حجم العينة المستعملة فى الدراسة عناية بالغة. فالعينات الصغيرة قد تُفضى إلى نتائج متحيزة نظراً لوجود فرصة كبيرة للتمثيل غير المتناسب. وإذا صيغت التعميمات باستخراجها من نتائج البحث فقد تعطى صورة مضللة. وبإمكان الأحجام الكبيرة للعينة أن تقلل فرصة تحيز المعاينة، كما أن من المرجح أن تكون النتائج أكثر دقة. ومع ذلك، فمن النادر أن تستخدم العينات ذات الحجم الكبير جداً، وذلك بسبب القيود التى يفرضها الوقت والمال. وقد يعارض البعض استعمال العينات الكبيرة الحجم جداً لأن بإمكانها أحياناً أن تحجب بعض التأثيرات الدقيقة ذات الطابع الخاص، كما أنها قد تحجب كذلك نقاط الضعف فى تصميم التجربة (انظر كوليكان، ١٩٩٤، للوقوف على مناقشة لهذه الجزئية).

يقوم علماء الاجتماع المتخصصون بتنويع أحجام عيناتهم تبعاً للغرض الذى يبغونه من بحثهم. وعندما يتطلب الأمر صياغة أحكام عامة، يصبح من المرغوب فيه أن تكون العينة مكونة من ٢٠٠ مفردة على الأقل. وبالنسبة لمقرر دراسى من المستوى الممتاز، يكون من الملائم أن يستعمل الدارسون عينة يتراوح عددها بين ٣٠ و ٤٠ مفردة. إذ أنه باستعمال عينة أقل من ذلك سيكون من العسير صياغة أحكام عامة، وباستعمال عينة أكبر عدداً لن يعود البحث ذا تكلفة اقتصادية معقولة (أى: لن يكون ذا نتائج تتناسب مع التكلفة العالية) ولن يعود ناجحا من حيث التكلفة الزمنية أيضاً.

أنواع المعاينة

المعاينة المنتظمة فى مقابل المعاينة العشوائية

قبل أن يختار الباحثون عيناتهم، لابـد أن يقـرروا الـنمط الـذى سـوف يستخدمونه من أنماط المعاينة. ويكون التمييز الرئيسى بـين المعاينـة المنتظمـة والمعاينة العشوائية. وتتضمن المعاينة المنتظمة توظيف تقنية/ أو أسـلوب محـدد لهيكلة أو "هندسة" هذا الاختيار من أجل استيفاء معايير أو توقعات محددة مقـررة سلفاً. وتتضمن المعاينة العشوائية توظيف التقنية التى تتضمن أن تتاح لكل فرد فى مجتمع البحث المستهدف فرصة مناسبة وعادلة لأن يتم اختياره. وفيما يلـى يـتم تقليب وجوه النظر فى نمطى المعاينة المذكورين.

الاختيار العشوائى للعينة (المعاينة العشوائية)

يستعمل الباحثون الاجتماعيون مجموعة من تقنيـات أو أسـاليب اختيـار العينات لانتقاء جماعة مناسبة لإجراء البحث عليها. ومن الناحية الإحصائية، يعـد أسلوب العينة العشوائية هو الأسلوب الأدق. وتعرف بأنها العينة التى يكون لجميـع أعضاء مجتمع البحث فرصة مساوية للاختيار ضمن العينة. وقد يبدو هذا الأمـر سهلاً، إلا أنه فى الواقع يكون من العسير جداً الوصول إلى عينة عشوائية حقـاً. إذ يحتاج الباحث للعثور على طريقة لانتقاء عينة بحيث يكون أى اختيار يتم فيها غير قابل للتنبؤ به فيما يتصل بأى تتابع سابق للأحداث. ولـيس بمقـدور البـاحثين أن يعتمدوا على المتطوعين لأن ذلك يقلل ما يتصف به الاختيار العشوائى للعينة مـن طبيعة "غير قابلة للتنبؤ بها"، إذ سوف يحدث حينئذ إدخال أو إدراج منتظم لهـؤلاء الذين يضعون أنفسهم فى المقدمة.

بعض طرق الاختيار العشوانى للعينات

الاختيار اليدوى: نعرف هذه الطريقة بشكل واضح من النظام المستخدم فـى اختيار أرقام سحوبات اليانصيب الأهلى (فى بريطانيا). وفيه توضع أرقام معينة فـى وعاء ما، ثم يتم خلطها ببعضها، ثم يتم التقاط بعـضها وإخراجها. ومـن الأمـور الحاسمة فى هذه الطريقة، أن تكون كل الأرقام غير مرئية من جانب القائم بالاختيار، وأن لا توجد طريقة للتنبؤ بأى هذه الأرقام التى سيقع عليها الاختيار. وكل مـا هـو مؤكد، أن تتاح – من الناحية الإحصائية على الأقل – لجميع الأرقام فرصة معقولـة ومتساوية لأن يشملها الاختيار. ومن النماذج الأخرى لهذه الطريقة: استخراج بعـض الأرقام من إحدى القبعات، وكذلك استخدام كرات البنجو Bingo (وهى لعبـة حـظ ومقامرة) المرقمة التى يتم اختيارها بتعريضها لنفخة هواء، وأشباه ذلك.

جداول الأرقام العشوائية: وتتضمن هذه الطريقة اسـتعمال مجموعـة مـن جداول الأرقام العشوائية لاختيار إحدى العينات. ولأن هذه الأرقـام يـتم توليـدها عشوائياً، فإن من الممكن أن يتحرك الباحث أفقياً أو رأسياً على امتداد خطوط هذه الجداول ليلتقط منها مجموعة من الأرقام. ويعطى لكل عضو من أعضاء مجتمـع البحث المستهدف رقم يستخرج من بين تلك الأرقام الممثلة فـى جـداول الأرقـام العشوائية. ويشكل هؤلاء الأعضاء المختارين عينة البحث.

العينات المستخرجة بالكومبيوتر: وفيها يتم إدخال أسماء الأفراد الموجودين فى مجتمع البحث المستهدف فى الكومبيوتر، ويستعمل برنامج الأرقـام العـشوائية لتوليد قائمة عشوائية بالأفراد الذين يكونون عينة البحث.

الطرق غير العشوائية

يمكن القول بأن كثيراً من طرق اختيار العينات تُعد غير عشوائية، حيث لا يكون لكل مفردة فرصة متساوية فى أن يشمله الاختيار. وبدلاً من ذلك، يتم تنظيم المعاينة بحيث تتاح لأفراد معينين فرصة أن يشملهم الاختيار أكبر مما هو متاح للآخرين. وقد يرجع سبب ذلك إلى أنهم يتسمون بسمات أو صفات تهم الباحث. ويمكن فى أحوال بديلة أن تصمم العينة بحيث تعكس مجموعة متميزة موجودة فعلاً فى مجتمع البحث. وقد يُختار الأفراد بناءً على ما هو مُتاح أو ميسور للباحث. وفى مثل تلك الحالات يكون من الراجح أن يتوافر للأفراد الذين سبق لهم أن اتصلوا بالباحث أو من يكونون معروفين للأفراد الذين سبق اختيارهم فرصة أكبر ليشكلوا جزءاً من العينة أكثر مما هو متاح لغير المعروفين للباحث.

المعاينة الحصية (عن طريق الحصص): وتتضمن هذه الطريقة تحديد صفات أو سمات معينة فى مجتمع البحث المستهدف، وتصنيف أفراده إلى فئات. وبعد ذلك يتم سحب عينة تتكون من عدد محدد من المبحوثين من كل فئة، وبنفس النسب التى يوجدون بها – تقريباً – فى مجتمع البحث. وهذه الطريقة، والتى يشيع استعمالها من قبل الباحثين فى مجال التسويق، تتضمن التحقق من تحديد أى هذه الفئات هى التى تنطبق على الأفراد، كما تتضمن الحصول على البيانات من هؤلاء الأفراد. ويتوقف جمع البيانات عندما يتم جمع كافة المعلومات المطلوبة من هذا العدد المحدد من الأفراد، كأن يكونوا مثلاً: ١٠ من الرجال، و١٠ من النساء، و١٠ من الصبيان، و١٠ من الفتيات وهكذا.

المعاينة الطبقية: هذه الطريقة نوع خاص من أنواع اختيار العينات، حيث يقسم مجتمع البحث المستهدف إلى شرائح أو طبقات، كأن يقسم مثلاً تبعاً للطبقة

الاجتماعية، أو السن، أو دخل الأسرة. ويتم اختيار عدد من الأفراد من بين أفــراد كل طبقة ليمثلوا شريحتهم فى الدراسة. وهذا الأسلوب يضمن لجميع المجموعــات الميمة أن تُمثّل تمثيلاً مستقلاً. وبإمكان ذلك أن يزيد الدقــة ويقلــل مــن الوقــت، والجيد، والتكلفة عن طريق تخصيص عينات ذات أحجام صغيرة. مثال ذلــك، أن من المعروف أن الفقر أشد شيوعاً بين المسنين، والمتعطلين، والأسر ذات العائــل الواحد، لذلك فإن البحث الذى يتناول عواقب الفقر يمكنه – بسهولة – تمثيــل كــل واحدة من هذه الشرائح فى العينة بصورة مستقلة كجزء من مسح اجتمــاعى عــن الفقر فى مجتمع البحث ككل، وهو الأمر الذى من شأنه أن يــسمح بتقليــل حجــم العينة، إذ أن الباحث سيكون قد ضمن تمثيل الجماعات الأشد تأثراً بالفقر فى عينــة البحث (آبركرومبى وآخرون ١٩٨٤).

اختيار العينة بطريقة كرة الثلج: يشيع استعمال هذه الطريقة عندما لا يكون من اليسير أن يلتقى الباحث بمجتمع البحث المراد دراسته، أو أن يحدده سلفاً. وهذه الطريقة تتضمن سؤال الأفراد الذين يعرفونهم بالفعل أن يطلعوا أصــدقاءهم علــى هذه الدراسة ويطلبوا منهم الالتقاء بالباحث. ويشيع استعمال هذه الطريقــة عنــدما يكون مجتمع البحث المستهدف ذا طابع سرى أو يتسم بالتكتم فيما يتصل بالعضوية الجمعية فيه لأسباب قانونية أو أخلاقية. وقد تستخدم المعاينة بطريقة كــرة الــثلج للالتقاء – مثلاً – بمتعاطى المخدرات، أو الأفراد الذين يكونون أعضاء فى أقليات ذات ميول جنسية خاصة أو أقليات دينية.

طريقة اختيار العينة المريحة (أو السهلة) أو الميسورة: من الناحية العمليــة، يستعمل كثير من الباحثين ومعظم الطلاب الذين يقومون بالبحث، يستعملون طريقــة المعاينة المريحة أو الميسورة، والتى تتضمن اختيار عينة من بــين أقــرب الأفــراد لمتناول الباحث. ورغم ما وُجه إلى هذه الطريقة من انتقاد بأنها غير ممثلة لمجتمــع البحث، فإنها تُعد طريقة سريعة ومواتية لتوفير مشاركين فى البحث (مبحوثين).

عينات المتطوعين: كثيراً ما تستعمل عينات المتطوعين في الأقسام الجامعية التى تقوم بإجراء البحوث. وفيها ينشر إعلان عام يطلب فيه متطوعون للمشاركة فى مشروع بحثى، وقد يتم ذلك عن طريق تعليق بطاقة بهذا الإعلان على لوحة للإعلانات. ويطلق على من يتطوعون اسم "عينة المتطوعين" لأنهم قرروا – بصفة شخصية – أن يقدموا أنفسهم للمشاركة فى هذا البحث، كما أن عالم الاجتماع (المشرف على هذا البحث) لا يكون له إلا سيطرة محدودة على هذه العملية. ولا تُعد هذه الطريقة عشوائية لأنه لا يتاح فيها لكل إنسان فرصة معقولة وعادلة لإدراجه فى العينة. إذ أنه لن يفكر فى الاشتراك إلا من أتيح لهم فرصة مشاهدة هذا الإعلان أو سمعوا عنه.

	تمرين ٦-١١
تفسير تطبيق تقييم	انسخ الجدول التالى واستكمل ولخص الصفات الخاصة (المزايا والعيوب) لكل طريقة من طرق اختيار العينات. وقد قدمنا لك بعض الأمثلة لتساعدك على بدء الإجابة. ارجع إلى أحد الكتب الدراسية إذا تحيرت فى الأمر.

الصفات والمميزات الخاصة بمختلف طرق اختيار العينة

الطريقة	المزايا	العيوب
• العشوائية	أقل احتمالاً لأن تأتى بعينة متحيزة	(للاستكمال)
• الحصية	(للاستكمال)	قد تؤدى إلى عينة غير ممثلة

		لأن الحصة قد تملأ بأفراد متماثلين، مثال ذلك أن بإمكان مجموعة من الفتيات المراهقات اللاتى خرجن للتسوق معاً أن يملأن حصة مستهدفة تتكون من ١٠ من الشابات.
• الطبقية		من الأمور المعقدة والمستنفذة للوقت عملية تحديد الشرائح والطبقات وأن تختار العينات الممثلة لمختلف المجموعات الفرعية لمجتمع البحث المستهدف.
• عينة كرة الثلج	بإمكان هذه الطريقة أن تتيح الالتقاء بالأفراد الذين لا يمكن مقابلتهم من خلال الوسائل التقليدية.	(للاستكمال)
• العينة المريحة	(للاستكمال)	(للاستكمال)
• عينة المتطوعين	(للاستكمال)	(للاستكمال)

طبيعة الحقائق الاجتماعية

خلفية الموضوع

ثمة شيء من الاختلاف فى الرأى داخل علم الاجتماع بشأن صحة أو مشروعية التعامل مع البيانات الكمية بوصفها "حقيقة". وتعود جذور هذا الاختلاف إلى كتابات إميل دوركايم. وينظر الكثيرون إلى دوركايم باعتباره أحد الأباء المؤسسين للوضعية (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب)، وذلك على الرغم من أن النقاد يذهبون إلى أن هذا الرأى يسيء تفسير أعماله، وإلى أن دوركايم يعد - فى حقيقة الأمر - واقعياً.

ولا يعد دوركايم متفرداً ولا استثنائياً فى اعتماده على الحقائق الاجتماعية وإيمانه بها. ويوضح ذلك توماس بورونسكى Tomas Boronski (١٩٨٧) فى كتابه بعنوان "علم اجتماع المعرفة"، حيث يقول: "يمكن القول أن معرفتنا ببريطانيا الصناعية الحديثة وصورتها التى فى أذهاننا تعد - إلى حد بعيد - حصيلة كم هائل من المعلومات الإحصائية التى نستقيها من وسائل الإعلام ومن التقارير الرسمية التى تصدرها الحكومة". فالقدر الأكبر من "الحقيقة" إنما يتم إنشاؤه لنا فى واقع الأمر، وذلك لأن البيانات التى ترتكز عليها صورنا الذهنية هى ثمرة للأفعال والسلوكيات الصادرة عمن يجمعون هذه البيانات ويقدمونها.

الموضوع (E)
استعمال وإساءة استعمال الإحصائيات فى كل سنة تعد الحكومة "إحصائيات التقويم القياسى" عن كل مدرسة تنفق عليها الدولة في إنجلترا وويلز. وتعتبر هذه الإحصائيات نتائج الاختبارات

التى اجتازها كل طفل من أطفال المدارس فى مراحل محددة من مسارهم التعليمى. والهدف من هذه النشرة هو تزويد أولياء الأمور بمعلومات عن أداء المدرسة حتى يستطيعوا أن يقوموا باختيارات مبنية على معلومات عندما يختارون المدارس التى يرسلون إليها أطفالهم. ومن النتائج غير المقصودة لنشر هذه الإحصائيات أن الصحف تميل للتركيز على مسألة "الأفضل" و "الأسوأ" من واقع هذه الأرقام، إذ تنشغل ببيان "أفضل" المدارس و"أسوأها" فى إنجلترا وويلز. ونلاحظ بالنسبة لتلك المدارس التى تلصق بها التهمة، ومن ثم يلحق بها بوصفها "أسوأ" المدارس، فإن بالإمكان أن تكون آثار ذلك النشر مدمرة لها، وذلك لأنها ستحرم من إقبال التلاميذ وتفقد الإيراد، وبهذا الشكل تقع فريسة حركة حلزونية من الهبوط والانحدار.

	تمرين ٦-١٢
	سيمكنك هذا التمرين من تطوير مهاراتك فى التحليل النقدى وفى التعرف على صحة التعامل مع البيانات كحقائق اجتماعية. اقرأ الموضوع (E) ثم أجب على الأسئلة التالية:
تفسير تطبيق	١- تنشر الحكومة ما جاء من النتائج الواردة فى النشرة الرسمية: "إحصاء التقويم القياسى" عن جميع المدارس؛ تنشرها على موقع الشبكة الخاص بإدارة مدارس الأطفال والعائلات (www.dcsf.gov.uk). استخرج من هذا الموقع أى المدارس ذات الأداء الأعلى وأيها ذات الأداء الأدنى فى السنة الحالية.
تحليل تقييم	٢- قدم بعض الأسباب التى تفسر لماذا تنشر الحكومة النتائج الخاصة بالمدارس على موقعها على الشبكة.

٣- إلى أى مدى توافق على أن الإحصائيات المنشورة فى نشرة "إحصاء التقويم القياسى" تمثل "الحقيقة"؟ (ملاحظة: هل توجد أى وسيلة يمكن أن تجعل هذه الإحصائيات ملتبسة – أعنى بذلك أن تجعلها غرضة للتأويل؟ وإلى أى مدى أنت واثق من صياغة استدلالات أو مسلمات أو صياغة تعميمات تستخرجها من أمثال تلك البيانات؟).	تحليل تقييم

الاعتراضات التقليدية على مفهوم "الحقيقة الاجتماعية"

تنطوى معالجة البيانات بوصفها حقيقة اجتماعية على درجة الخطر. وفى ذلك يزعم الظاهراتيون (انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب) أنه من غير المناسب بالمرة أن نتصرف بهذا الشكل لأن البيانات التى يجمعها البشر تكون مُعرَّضة حتماً للتفسير الذاتى أو الشخصى. إذ أن الباحث يؤثر على الطريقة التى بها تُجمع البيانات وتُفسر. وقد أدت هذه النظرة بجولدنر Gouldner إلى القول فى مقالته بعنوان: "المينوطور المضاد[*]: أسطورة علم الاجتماع المتحرر من القيم" (جولدنر، ١٩٧٣) بأنه كما أن هذا الثور وهذا الرجل اللذين يكونان هذا المينوطور الخرافى لا يمكن فصلهما عن بعضهما، فإن الحقائق والقيم لا يمكن فصلهما عن بعضهما فى البحث السوسيولوجى. وهو بذلك يعنى أن البيانات التى تجمع فى البحث السوسيولوجى ليست حقائق موضوعية، وذلك لأنها مُعرضة للتأثيرات الشخصية للباحث. كل ما فى الأمر أنها تتنكر فى صورة الحقيقة الموضوعية.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن دوركايم ليس عالم الاجتماع الوحيد الذى كان "ضحية خداع" الاعتقاد بوجود الحقائق الاجتماعية. هل تذكر وجهة نظر

(*) المينوطور: حيوان خرافى نصفه على هيئة رجل ونصفه الآخر على هيئة ثور. (المترجم)

بورونسكى التى يرى فيها أن الإحصائيات تسود حيواتنا اليومية؟ ذلك أن قدراً كبيراً مما يلقى الاهتمام فى الساحة السياسية، ومن ثم يلقى الاهتمام فى وسائل الإعلام، إنما يحدث بسبب ردود الأفعال التلقائية للبيانات الإحصائية.

الموضوع (F)

الوالدون العزاب

يدور اهتمام الناس اليوم بقضية والدية العزاب حول "الخسائر" الاجتماعية، والاقتصادية، والأخلاقية للأعداد المتزايدة للعائلين العزاب. ففى سنة ١٩٨١ وُلد ٩١٠٠٠ طفل خارج نطاق الزواج فى بريطانيا. وفى سنة ١٩٩١، ارتفع هذا الرقم إلى ٢٣٦,٠٠٠ طفل. وفى أواخر تسعينيات القرن العشرين شاع فى الناس جميعاً ذعر معنوى شديد من معدل أمومة المراهقات خاصة، وذلك بعد أن وصل عدد المواليد الأحياء لأمهات دون العشرين إلى ما يزيد عن ٤٥,٠٠٠ مولود فى سنة ٢٠٠٤.

زد على ذلك، أن زيادة أعداد العائلين العزاب من صغار السن قد ارتبطت فى المناقشات العامة والأكاديمية بارتفاع مستويات الجريمة والفوضى والاضطراب، والمشكلات التعليمية، وبالضعف العام للمجتمع.

إن الصورة التى فى أذهان الناس لأطفال مثل هذه الأسر، والتى تُعزى – عموماً – إلى الأمهات المراهقات "المهملات" غير المتزوجات؛ هذه الصورة لا تؤيدها الحقائق. إذ أن ما يقرب من ٥٠ فى المائة من العائلين العزاب هم من المطلقين، وأن ثلثهم فقط هم الذين لم يسبق لهم الزواج أبداً، وأن ما يقرب من ٥ فى المائة فقط من العائلين العزاب هن من المراهقات. والأكثر من ذلك، أن الأرقام الواردة فى نشرة مكتب الإحصاء القومي ONS تبين أن أعداد العائلين

العزاب كانت فى أوائل سنوات السبعينيات من القرن العشرين – وهى الحقبة التى يراها الناس الحقبة الذهبية للأسرة النووية – كانت أعداد العزاب العائلين فى تلك السنوات أعلى مما كانت عليه فى أوائل سنوات القرن الحادى والعشرين. وقد ذهب بعض علماء الاجتماع، ومنهم نورمان دنيس Norman Dennis والأستاذ هالسى A. H. Halsey إلى أن غياب الأب الذى يتحمل المسئولية يكاد يكون صورة حتمية لظهور الأطفال أصحاب هذه المعاناة. ويؤمن هالسى بأن: "جميع الدراسات الجادة تُثبت – فى المتوسط – أن الأطفال الذين لهم آباء وأمهات يتصرفون تعليميا، وبدنياً، وانفعالياً، وسيكولوجيا واجتماعياً على نحو أفضل مما يكون عليه الأطفال الذين لهم آباء وأمهات عزاب أو متنازعون". ويأخذ غيرهم بوجهة نظر مختلفة إذ تذهب سيو سليبمان Sue Slipman من "المجلس القومى للأسر ذات العائل الواحد" إلى أن تزايد أعداد العائلين العزاب يوحى بأن "النساء وجدن أنهن يستطعن مواصلة الحياة بدون الرجال، وبأنهن يؤثرن أن يكن كذلك لأن الذى يحتجن إليه هو العلاقة المناسبة وليس العائل الذى يتولى الإنفاق". ويذهب دنكان Duncan (٢٠٠٦) إلى أن بحثه الكيفى، والأبحاث الكيفية الأخرى، تبين – بصورة فعلية – النتائج الإيجابية للعائلين العزاب من الشباب، وخاصة الأمهات منهم، والذين يستفيدون من وضعهم هذا كنقطة تحول فى حيواتهم "تحثهم" على مواصلة التعليم وعلى التوظف. ويواصل القول فيذكر أن ما للسياسة السلبية من دلالات ضمنية تتصل بالوالدين أو العائلين العزاب، بجانب الصورة التى تعكسها وسائل الإعلام لهذه السياسة باعتبارها "كارثة"؛ يقول إن هذه الدلالات قد فهمت على وجه غير صحيح. (المصدر: منقول بتصرف من مقالة جون ويليامز John Williams بعنوان "العائلون العزاب"، فى مجلة "علم الاجتماع" العدد ٤(٤)، ١٩٩٥، ومقالة سيمون دنكان بعنوان "ما الذى جرى للعائلين المراهقين"، مجلة "علم الاجتماع" العدد ١٦(١، ٢٠٠٦).

تقييم	تمرين ٦-١٣
	اقرأ الموضوع (F)، الذى يحلل ظاهرة "العائل الأعزب" ويعطى انطباعاً بأن قدراً ما – على الأقل – من هذه المشكلة يمكن أن يُعزى إلى التفسير الخاطئ للإحصائيات لا أن ينظر إليه باعتباره "مرضاً اجتماعياً آخذاً فى التفاقم". يلقى هذا الموضوع ظلاً من الشك على صحة التعميم المستمد من البيانات الإحصائية، وهو بذلك يسترعى الانتباه إلى عالمين اجتماعيين بارزين، هما نورمان دنيس وهالسى، اللذان يبدوان غافلين عن الخطر الكامن فى استخلاص النتائج من مثل هذه البيانات التى يقدمها مكتب الإحصاء القومى. أُكتب تقييماً نقدياً لدعاوى دنيس وهالسى، معتمداً فى ذلك على معرفتك بأوجه القصور فى معالجة البيانات كحقيقة اجتماعية. بإمكانك القيام بهذا العمل فى صورة خطاب موجه إلى واحد من عالمى الاجتماع هذين، أو فى قالب أكثر تقليدية، وبحيث يكون مناسباً لجزء من عمل مكتوب أو لإجابة على أحد الامتحانات.

البيانات كتصور أو تكوين اجتماعى

فى ضوء الدعاوى القائلة بوفاة الوضعية وصعود النموذج الفكرى المضاد للوضعية (أى: النموذج الخاص بطريقة جمع الأفكار، وطريقة التفكير – الفصلين الثالث والعاشر من هذا الكتاب) يزداد شيوع النظر إلى البيانات كتصورات أو تكوينات اجتماعية وليست كحقائق اجتماعية. وينبع هذا الخط الفكرى من الدعوى الظاهراتية التى يقول بها بيتر بيرجر Peter Berger وتوماس لوكمان Thomas

Luckman والتى مفادها أن جميع المعارف الموجودة فى المجتمع إنما تخلقها معانى وتعريفات الواقع التى يؤمن بها الناس فى هذا المجتمع. وتختلف المعرفة المشتركة من مجتمع إلى مجتمع ومن ثقافة إلى ثقافة لأنها تعكس "عالماً من المعانى" له أصوله الاجتماعية المستمدة منها (أى الأفكار المشتركة الخاصة بالكيفية التى ينبغى أن يُفهم بها العالم). ويبلور توماس بورونسكى (١٩٨٧) هذا الرأى، مشيراً إلى أن إنشاء المعرفة أو تشييدها وتشكيلها يُعد مصدراً مهماً من مصادر القوة:

" إن جمع الإحصائيات الاجتماعية... ليس مجرد مجهود أكاديمى، كما أنها لا تقرأ انطلاقاً من قصد مجرد/ أو نية خالصة. فهى المواد الخام التى تستعملها الحكومات لبناء سياساتها، والتى بدونها تصبح الحكومات عاجزة عن اتخاذ القرارات فى المسائل التى منها مثلاً كم عدد المدارس التى يجب أن تبنيها أو كم عدد الأطباء الذين يتعين عليها أن تعدهم. فعلى أساس البيانات الموجودة يستطيع صانعو السياسة أن يحددوا المشروعات المتعلقة بالاحتياجات المستقبلية للمجتمع".

يصف بورونسكى كيف تكون الإحصائيات الاجتماعية مصدر قوة لهؤلاء الذين يسيطرون عليها. فيوضح – مثلاً – أنه عن طريق حجب المعلومات أو إطلاقها بأسلوب انتقائى، تستطيع الحكومات أن تفند مواقف خصومها وأن تؤثر على إدراك السكان للأداء الاجتماعى والاقتصادى للدولة. ويصل الأمر ببورونسكى إلى أن يزعم أنه بسبب سيطرة الحكومات على الهيئات المسئولة عن جمع البيانات، كإدارة الإحصائيات الحكومية فى بريطانيا مثلاً، فإنها تكون قادرة كذلك على التأثير فى الطريقة التى بها تُجمع الإحصائيات الرسمية.

ويمثل ما ذكرناه آنفاً دعماً للفكرة القائلة بأنه ينبغى أن تعامل الإحصائيات بكل حذر. وتحظى هذه الفكرة بالمزيد من التعزيز من جانب ما يقدمه إيرفين

وآخرون (١٩٧٩) من وصف للكيفية التى بها يتم انخراط الإحصائيين الحكوميين فى التشكيل الاجتماعى للمعرفة (انظر تمرين ٦-١٤):

" إن الطرق والمفاهيم الموضوعة والمستخدمة فى الإحصائيات الرسمية إنما تُشكلها أنواع السياسات التى يرغب فى التركيز عليها من بيدهم السلطة السياسية فى الدولة، كما تُشكلها ما يساور بالهم من مشاغل واهتمامات. فهذه المشاغل والاهتمامات هى التى تُحدد - بصورة جزئية على الأقل - أى الظواهر التى يتقرر بحثها بوصفها "مشكلات اجتماعية" وأيها التى يتم تجاهلها".

وبناء على ما سبق ذكره، يتضح أن أى معلومات يقدمها المسئولون عن الإحصائيات الحكومية لا تمثل تصويراً موضوعياً للواقع، بل هى تفسير شخصى أو ذاتى للأحداث. وهو ما يثير السؤال عما إذا كان بالإمكان النظر إلى الإحصائيات الرسمية بوصفها محايدة، أو عما إذا كانت تعكس صورة متحيزة (أى أُحادية الجانب أو منقوصة) للأحداث. ولهذا الأمر دلالاته الضمنية البعيدة الأثر عند علماء الاجتماع الذين يؤسسون فهمهم للقضايا الاجتماعية الرئيسية (كقضية التوظف، والبطالة، والإسكان، والطلاق، والجريمة، والفقر، والصحة والرعاية، والتحصيل الدراسى، والمناورات السياسية، والتشرد وما إلى ذلك) على ما هو متاح من الإحصائيات الرسمية.

الموضوع (G)
الهوة فى الأجور بين الجنسين فى سنة ١٩٧٥ بدأ تنفيذ "قانون الأجر المتكافئ" بهدف منع أصحاب الأعمال من إعطاء النساء أجوراً أقل من أجور الرجال عن العمل الذى له نفس القيمة. وفى ذلك الوقت كانت أجور النساء اللاتى يعملن كل الوقت تقرب من

٣٠ فى المائة من أجور الرجال. وفى سنة ٢٠٠٣ كانت هذه الفجوة قد ضاقت إلى أن صارت ١٨ فى المائة. وبالنسبة للسنة الضريبية ٢٠٠٢/٢٠٠٣ كان متوسط الأجور السنوية المصروفة للمستخدمين الدائمين الذين يعملون كل الوقت ٢٥,١٧٠ جنيهاً إسترلينيا، منها ٢٨,٠٥٥ جنيهاً إسترلينيا للرجل و ٢٠,٣١٤ للمرأة.

ومع ذلك فإن الرقم الظاهر ١٨ فى المائة (الذى يمثل الفجوة بين أجور النساء وأجور الرجال) لا يكشف عن الصورة الصادقة للتفاوت فى الأجور. فهذه الأرقام مبنية على الأموال المكتسبة من أعمال مستديمة، ولا تدخل فى حسابها ما تعمله النساء من عدد ساعات أكبر وأعمال إضافية. فقد كان متوسط الأجور الأسبوعية للمستخدمين فى وظائف مستديمة فى سنة ٢٠٠٣ هو ٣٩٥ جنيهاً إسترلينياً للمرأة و٥٢٥ جنيهاً إسترلينياً للرجل - فبذلك كان أجر النساء يساوى ٧٥,٤ فى المائة من أجور الرجال.

	تمرين ٦-١٤
تفسير تطبيق	١- ابحث عن موقع "لجنة الفرص المتكافئة" على الإنترنت (www.eoc.org.uk) واستطلع الوضع الحالى فيما يتصل بدخول الرجال والنساء.
تفسير تطبيق	٢- ما الدلالات الضمنية لهذا الوضع بالنسبة للنساء اللاتى يعملن فى وظائف مؤقتة (لبعض الوقت) بالإضافة إلى الدخل المنخفض؟
تحليل	٣- ما الطرق الأخرى التى يمكن أن ينظر بها إلى الأموال المكتسبة من العمل (الأجور)؟ إلى أى مدى يمكن أن تختلف النتائج عندما

تقييم	ننظر إلى الأموال المكتسبة على امتداد العمر؟
تحليل تقييم	٤- بصورة عامة، ما المشكلات التى تكشفها الإحصائيات الخاصة بالدخل؟

التفكير الراهن فى موضوع طبيعة الحقائق الاجتماعية

أضافت التطورات الجديدة فى الفكر السوسيولوجى بعدا مثيراً للاهتمام إلى الجدل الدائر حول طبيعة الحقائق الاجتماعية. شاهد ذلك، أن ما بعد الحداثة (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب) تسلط الضوء على وفاة السرديات الكبرى وعلى قبول النسبية والتشكل الاجتماعى للمعرفة. وعلى وجه التحديد، فإن ما بعد الحداثة، فى معارضتها للحداثة فيما تُسلم به من وجود المعرفة الموضوعية الصحيحة، ومن أن هذه المعرفة أمر مرغوب فيه، وفيما تُسلم به من مصدر مثل تلك المعرفة (وهو البحث المنهجى الصارم فى دقته وغير المتحيز) وفى تسليمها بالقدرة على التعميم المستمد من البنية وتطبيقه على كل المجتمع؛ نقول: إن ما بعد الحداثة، فى معارضتها للحداثة فى هذه الأمور، من شأنها أن تبدو وكأنها توفر الدعم والتأكيد للدعوى الظاهراتية بأن المعرفة لا تعدو أن تكون محصلة "عوالم المعانى" المشتركة بين الناس فى المجتمع.

ومن الأمور ذات الأهمية الشديدة فى الفكر ما بعد الحداثى مفهوم "التفكيك"، والذى عرفه فيل براون Phil Brown (١٩٩٦) بأنه "نمط خاص من التحليل الهادف للكشف عن التناقضات والسمات الظنية الكامنة فى القضية محل البحث والتفكير". ويُظهر تفكيك "الحقائق الاجتماعية"، وبصورة أعم، يظهر تفكيك النظرية الاجتماعية الحديثة عموماً، أن كل شيء قائم على مسلمات غير مؤكدة. وهذا يؤدى

إلى النتيجة التى مفادها أن أى إنتاج للمعرفة الظاهرة الصحة أمر محال. فلا وجود للحقيقة الموضوعية: "فما هو صادق أو حقيقى على أحد جانبى جبال البيرينيه[*] يمكن أن يكون هو الزيف بعينه على الجانب الآخر" (باسكال، نقلاً عن جونز، ١٩٩٣). وبدلاً من ذلك، فإن أشكالاً متعددة من الحقيقة تتنافس لاجتذاب انتباه علماء الاجتماع. فإذا عُولجت هذه الفكرة بنظرة متشائمة فإنه يبدو أن هذا الوضع سيكون إيذاناً بنهاية علم الاجتماع. وكما يوضح براون (١٩٩٦) قائلاً: "نظراً لأنه لا وجود للمعرفة الموضوعية، فلا يمكن أن يوجد أساس عقلى للتدخل. إن المعرفة لا تستطيع أن تحرر أحداً والتمركز حول الذات يتقوض وينهار كما أنه قد أعلن عن وفاة الذات".

إن رأى بورونسكى بشأن قوة الإحصائيات يتأكد على يد مفكرى ما بعد الحداثة. ومع ذلك، فإنه بدلاً من القول بأن المعرفة لها القدرة على تشكيل **"تفسيرنا"** للواقع أو الحقيقة فإنه ينظر إليها باعتبارها تُشكل **"الحقيقة المطلقة"**. ويرى مفكرو ما بعد الحداثة أنه بدلاً من القول بأن الناس هم الذين ينتجون المعرفة، يتعين القول بأن المعرفة هى التى تنتج الناس لأنها تشكل مفهومنا الذاتى عن أنفسنا – أو تشكل هويتنا – كما تشكل أفكارنا وأفعالنا. إن الموافقة على وجود النظريات الكبرى أو الدراسة الاجتماعية للوحدات الكبرى (الماكرو) إنما يعنى الوقوع ضحية خداع "السرديات الكبرى" (وهو مصطلح نقدى يستعمله مفكرو ما بعد الانطباعية للنظريات واسعة النطاق التى تدعى لنفسها – زيفاً – وضع الحقيقة).

ونتيجة لتأثير فلسفة ما بعد الحداثة ازداد تحول الجدل الدائر حول طبيعة الحقائق الاجتماعية إلى جدل قوى متماسك. وتوجد روابط واضحة بين فلسفة ما بعد الحداثة والفلسفة الظاهراتية، شاهد ذلك أن كلتا الفلسفتين ترى أن الحقيقة ذات

(*) سلسلة جبال أوروبية شهيرة. المترجم

منشأ وتكوين اجتماعى. ومن الأمور التى تسترعى الاهتمام، أنه على حين ينبذ مفكرو ما بعد الحداثة السرديات الكبرى عن الرأسمالية التى اقترحها ماركس، ربما ينبغى عليهم أن يعترفوا بأنه فى كتاباته عن الدين قد انتبه إلى التفسير الاجتماعى للمعرفة الدينية.

محور الامتحان: الأسئلة المُقَنَّنَة

يتيح لك التمرين التالى الفرصة لتحاول الإجابة على سؤال من نوعية أسئلة الامتحانات. اقرأ الموضوع (H) والموضوع (I) بعناية قبل أن تبدأ الكتابة. ولكى تجيب على الأسئلة فقد تحتاج إلى الرجوع إلى المعلومات التى سبق عرضها فى هذا الفصل. (ملحوظة: بالنسبة للسؤال رقم ٣ والسؤال رقم ٤ يحسن بك أن تخطط للإجابتين عليهما بعناية قبل أن تبدأ الكتابة. فهذا التخطيط سوف يكفل لإجابتك أن تكونا منظمتين بصورة جيدة، كما يكفل للمعلومات التى تقدمها أن تكون وثيقة الصلة بالسؤال الذى تجيب عنه. كما أن من المهم أن تقسم وقتك إلى أجزاء حتى تستطيع أن تُمضى وقتاً أطول فى معالجة الأسئلة التى تحتاج لمزيد من الإجابات التفصيلية.

١- ما المقصود من مصطلح "العينة"؟

٢- ما الفرق بين العينة العشوائية والعينة غير العشوائية؟

٣- صف وقيِّم نوعى البيانات التى يترجح جمعها بواسطة طرق البحث التى بيناها فى الموضوعين الواردين أدناه.

٤- فى ضوء المعلومات الواردة فى الفقرات والمعلومات الموجودة فى مصادر أخرى، حاول تقييم مدى مشروعية معالجة البيانات بوصفها "حقائق" اجتماعية. (٢٠ درجة).

الموضوع (H)

المسوح الاجتماعية

يتم إجراء المسح الاجتماعي في فترة معينة من الزمن ولذلك فإنه لا يؤدى إلى دراسة التغير الاجتماعي. وحتى عندما يتم إجراء مسوح اجتماعية متكررة على نفس الموضوع (كالإحصائيات السكانية) فإن مقدار المعلومات المتعلقة بالتغير الاجتماعي يكون مقداراً محدوداً. مثال ذلك، أنه ما لم تطرح نفس الأسئلة تماماً التي طُرحت كل ١٠ سنوات، فإن هذه البيانات لن تكون حينئذ قابلة للمقارنة بصورة مباشرة. وقد تطرح المسوح أسئلة عن الماضي لتبحث ولتظفر بفيم ما للتغير الاجتماعي، إلا أنه ما لم تكن الأسئلة واقعية بصورة مباشرة (عدد الأطفال، تواريخ الميلاد وما أشبه ذلك) فإن الإجابات تكون معتمدة على الذاكرة، وهو الأمر الذي يستلزم الحذر والتدقيق من أجل تأكيد الثبات المنهجي لهذه الإجابات. ذلك أن ما يمكن تأكيده عن طريق المسوح المتكررة هو البيانات المتعلقة بالتغير الاجتماعي على المستويات العالية للسكان ككل أو على مستوى جماعات اجتماعية معينة.

الموضوع (I)

مناقشة الخبرة

عند القيام بالبحث العلمي الدقيق للقضايا الشخصية أو الحساسة، تكون نوعية البيانات التي يتم جمعها ذات أهمية قصوى. فالبيانات التي تجمع من خلال عمليات المرة الواحدة – كما يحدث في حالة الاستبيان – تكون غير

ملائمة للوصول إلى عمق المعلومات التى من شأنها إضاءة هذه القضية. وتتمثل الصعوبة الأولى بالنسبة للباحث فى اختيار عينة تكون ممثلة للجماعة محل الدراسة ككل. ويتعين تعزيز الثقة بين الباحث والمبحوثين عندما يتقرر الإفصاح عن الأمور والمسائل الحساسة، وهذا الأمر يحتاج إلى وقت ومجهود من جانب الباحث، وكلما زاد الوقت الذى يسمح الشخص الذى تجرى مقابلته لتخصيصه لمقابلة الباحث، كلما زاد رجحان جمع معلومات كاشفة لحقائق الأمور. ومع ذلك، فإنه توجد هنا مشكلة فى تحليل مثل تلك البيانات ذات الأبعاد العميقة تتمثل فى أن اختيار المادة التى يتقرر تقديمها يكون وفقاً لأهواء الباحث وميوله، كما أن من المحتمل أن تؤثر تحيزات الباحث الشخصية فى الطريقة التى يعرض بها وجهات نظر المبحوث (الشخص الذى أجرى مقابلة معه).

مفاهيم مهمة

- الثبات المنهجى
- الصدق
- دقة التمثيل (تمثيل العينة لمجتمع البحث)
- التقنين
- الموضوعية
- الذاتية
- الكيفى
- الكمى
- التعددية المنهجية
- استعمال ثلاث طرق بحث
- طرق المعاينة (اختيار العينات)
- العشوائى/ وغير العشوائى.

التفكير النقدى
• إلى أى مدى توافق على أن التمييز بين جمع البيانات الكمية والكيفية قد حلت محله فكرة التشكل البنائى والبحث النسوى؟ • هل بإمكان علم الاجتماع أن يكون موضوعياً بأية حال؟ • هل يوجد رأى يطالب بالانتفاع الدائم بالبيانات الثانوية كما يُنتفع بالبيانات الأولية؟

الفصل السابع

تقنيات البحث

بنهاية هذا الفصل ينبغي أن تكون قادراً على:

- التعرف على تقنيات البحث التي يشيع استعمالها من جانب علماء الاجتماع وإعطاء تعريف لكلّ تقنية على حدة.
- إعطاء أمثلة للدراسات البحثية التي تستخدم كلّ تقنية على حدة وفهم الأساس المنطقي وراء اختيار هذه الطريقة في كل حالة على حدة.
- التحديد الدقيق لمزايا وعيوب كل تقنية.
- تقييم الخصائص والمزايا النسبية لتقنيات البحث.
- التمييز بين التقنيات التجريبية وغير التجريبية.
- التمييز بين التقنيات الكمية والتقنيات الكيفية مع إعطاء أمثلة لكل منهما.

مقدمة

لكي تستطيع أن تفهم حقيقة البحث السوسيولوجي الذي أجراه الآخرون أو أن تقوم بتنفيذ ما يخصُّك من مشروعات، فإن من المهم أن تتوافر لديك معرفة كافية بمجموعة التقنيات المتاحة لعلماء الاجتماع، وبمبررات اختيار الطريقة

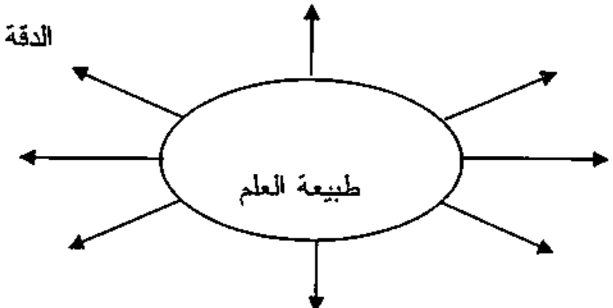
والمزايا النسبية لتقنيات البحث. ويستعرض هذا الفصل بعض أشيع طرق البحث استخداماً، مع تقديم تعريفاتٍ وأمثلة لكل طريقة. كما أنه يتضمن بعض التمارين لتدريبك على التفسير و التطبيق لتمكينك من اختبار فهمك لهذه الطرق المختلفة. ونحن نوصيك بتحليل مزايا وعيوب كل طريقة وتقييم مزاياها النسبية. وقد أولينا بعض الاهتمام للاتجاهات المعاصرة في استخدام تقنيات البحث، وذلك على الرغم من أننا نقدم معالجة موسعة لهذا الموضوع في الفصل الثامن من هذا الكتاب. ويبدأ هذا الفصل بالتركيز على التمييز بين الطرق التجريبية والطرق غير التجريبية، وينتقل بعد ذلك للتفكير في طبيعة الطرق الكمية والكيفية.

المنهج العلمي

إن استعمال الطريقة العلمية في علم الاجتماع أمر يدعو إليه الوضعيون (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب للاطلاع على استعراضٍ للأساس المنطقي وراء استخدامها)، وبذلك على الرغم من أن كثيراً من النقاد يتشككون في صحتها في البحث السوسيولوجي. وسوف نتطرق في الفصل العاشر من هذا الكتاب إلى استعراض الخلاف الدائر حول جدوي هذه الطريقة. أما الآن، فسوف يتركز الانتباه على طبيعة منهج البحث العلمي.

طبيعة منهج البحث العلمي

يُوجد إجماع عام على أنه لإطلاق صفة "العلميّ"، فإنه ينبغي أن يتسم منهج البحث بالعناصر الأساسية التي تحدد مفهوم العلم (انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب للاطلاع على مناقشة أوفى لعلم الاجتماع والعلم).

	تمرين ٧-١
معرفة فهم تفسير تطبيق تحليل تقييم	باستعمالك لمعرفتك بالعلم وبمنهج البحث، فكِّر في أكبر عدد ممكن أن تفكر فيه من الكلمات المرتبطة بالعلم، وسجلها على رسمٍ تخطيطي تنسَخهُ من الرسم التخطيطي هنا. استعمل هذه الكلمات لتكوّن منها تعريفاً واضحاً للعلم.وعندما تفرغ من هذا العمل، اختبر تعريفك بمقارنته بالتعريف المقدّم في النص الوارد أدناه، وقدّر مدى اتفاق هذين التعريفين.  العلم نظام منهجي، شديد الدقة، يتسم بالانضباط ويهدف لفهم وجمع المعرفة عن الأحداث داخل العالم الطبيعي. فإن كان لطريقة بحث هذه الصفات فإن بالإمكان الحكم بأنها "علمية". وإنَّ أصدق مثال للطريقة العلمية هو التجربة.

خصائص التجربة

لمصطلح "التجربة" معنىً مُحدد عند العلماء الاجتماعيين. فهو يشير إلى عمليةٍ تتميز بالبحث المنهجي المنظم، الدقيق والمنطقي الذي يتم تحت ظروفٍ منضبطة (وعادة ما يتم في بيئةٍ معملية). وحيث يكون الهدف الأساسي للبحث هو

معالجة مُتغيرٍ مستقل(أي معالجة عاملٍ قائم بذاتِه) والقياس الدقيق لما يرتبط به من تأثيرٍ يُحدثه في مُتغيرٍ آخر مختلف إلا أنه تابع (أي في عاملٍ يُفترَض أن له به صلة). ويُنظر إلى التجارب باعتبارها موضوعية وقابلة للتكرار (انظر الفصل السادس من هذا الكتاب للاطلاع على استعراض لهذه المفاهيم)، ومن ثم تكون على درجة عالية من الثبات المنهجي ولكنها تكون منخفضة في درجة صدقها الإيكولوجي (أعني بذلك، أن النتائج المستخلصة منها لا تُمثل بالضرورة "موقعاً من مواقع العالم الفعلي"، ومن ثم فإنها قد لا تعكس الحقيقة).

أنماط التجربة

توجد ثلاثة أنماط رئيسية للتجربة: النمط المعملي، والميداني، والطبيعي. وسوف نُعمل الفكر في كل نمطٍ من هذه الأنماط تباعاً.

التجارب المعملية

كما يشير هذا الاسم، فإن مصطلح "التجربة المعملية"ينطبق على البحث الذي يأخذ بالسمات المميزة للتجربة التي تتم في بيئة متفردة ومنضبطة تصطنع مناخ المعمل.

ويلاحظ أن التجربة المعملية لا تُستخدمُ كثيراً من جانب علماء الاجتماع، إذ يرون أنه من غير الملائم أن تُدرس الحياة الاجتماعية بمعزل عن سياقها الواقعي. أعنى بذلك، داخل الحدود والقيود التي يفرضها المكان المخصص للاختبار الاصطناعي. وبدلاً من ذلك، نجد علماء الاجتماع -وخاصةً الوضعيين منهم- أشدُ ميلاً لاختبار الفروض من خلال البحث المقارن. ويزداد رجحان استخدام التجريب (أي القيام بالتجربة المعملية) بواسطة علماء النفس، إذ يقصدون من ذلك اختبار تنبؤاتهم بدقة وبلورة فهمهم للسلوك الإنساني.

يقدم الموضوع (A) مثالاً غير مشهور في الوقت الحاضر عن التجريب في البحث الاجتماعي. وقد أجرى هذه التجربة أحد علماء النفس الاجتماعي الأمريكيين، وهو ميلجرام Milgram (١٩٧٤)، والذي كان مهتما بموضوع الطاعة، كما كان يريد اختبار الأفكار المتعلقة بمدى ارتباط الطاعة بالقوة والمكانة الاجتماعية للأفراد الذين يصدرون الأوامر أو التعليمات وأولئك الذين يطيعونها (انظر تمرين ٧-٢). ومن النادر أن يجأ علماء النفس الاجتماعي إلى التجريب المعملي لبلورة النظريات نظراً لأنهم "مهتمون بتلك الجوانب من السلوك الإنساني التي تتضمن الأفراد وعلاقاتهم بالأفراد الآخرين، وبالجماعات، وبالمؤسسات وبالمجتمع ككل" (فلاناجان، ١٩٩٤). لذلك، فإن علم النفس الاجتماعي لديه الكثير مما هو مشترك مع علم الاجتماع التأويلي.

الموضوع (A)
التجريب المعملي – مليجرام تعد التجربة المعملية التي أجراها ميلجرام واحدةً من أشهر الأمثلة ذكراً في هذا النوع من البحوث. فقد كان مليجرام مهتماً بالمدى الذي يمكن أن يصل إليه الفرد في طاعته لشخصٍ ذي سلطة، هو في حالتنا هذه، العالم الذي يُجري التجربة المعملية. وقد أُخبِر الأفراد المبحوثون أن العالم يُجري بحثا علميا عن تأثيرات العقاب على التعلم، وأنه عندما يُخطئ المشارك في التجربة في إجابته لأي سؤال، يتعين على المبحوث أن يُطلق صدمةً كهربائية على هذا المشارك، والذي يتظاهر حينئذ بأنه تأثّر بالصدمة. وقد استمر أغلبية المبحوثين في إطلاق "الصدمات" على هؤلاء المشاركين حتى عندما كان الجهاز يشير إلى أن الكهرباء تُطلَق على مستوىً خطير. وكانت النتيجة التي توصّل إليها أن كثيراً

من الناس مُهيئون لتنفيذ الأوامر الصادرة من شخصٍ ذي سُلطة، حتى لو وُجد احتمالٌ للتعرض لخطر الموت، وذلك طالما كان المبحوثون ينظرون إلى هذا الشخص ذي السلطة بوصفه يملك صلاحيات إصدار مثل هذه الأوامر.

تمرين ٧-٢	
فهم	اقرأ الموضوع (A) وأجب على الأسئلة التالية:
تحليل تقييم	١- ما هي في رأيك المزايا الخاصة التي ظفر بها مليجرام من استعماله للطريقة المعملية في هذا البحث؟
تقييم	٢- إلى أيِّ مدىً يتفق هذا البحث مع التفكير الوضعي؟
تحليل تقييم	٣- لماذا يميل أغلب علماء الاجتماع للاعتراض على استعمال مثل هذه التقنية؟

ملحق تمرين ٧-١	
	اقرأ القسم الخاص "بالأخلاق" في الفصل التاسع من هذا الكتاب، ثم اكتب تقييماً نقدياً للبحث الذي أجراه ميلجرام (الموضوع (A))، وهو البحث الذي تعرَّض لنقد شديد انطلاقاً من أُسُس أخلاقية (معنوية).
تفسير تطبيق	١- ما الجوانب التي يمكن اعتبارها غير أخلاقية في هذا البحث؟
تحليل تقييم	٢- هل المنافع المُستفادة فيما يتعلق بنتائج البحث تفُوق خسائره الأخلاقية؟

ينبغي أن تقدّم إجابتك بأسلوب خطاب رسمي مُرسل إلى الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA(*)، وهي المنظمة المهنية المسئولة عن تنظيم سلوكيات وممارسات علماء النفس. ولتأكيد صدور هذا الرأي عنك شخصيا، يحسن أن يرسل إلى عنوان هذه الجمعية التالي: الجمعية الأمريكية لعلم النفس. ١٢٠٠، الشارع السابع عشر، N.W (حي شمال غرب). واشنطون (العاصمة)، الرقم البريدي ٣٦ ٢٠٠٠. الولايات المتحدة الأمريكية.	

تمرين ٧-٣	
طبق المعرفة التي حصّلتها حتى الآن في تكملة الوصف التالي للتجارب المعملية: تُعتبر التجارب المعملية من التجارب المرغوب فيها لأنها تتيح للبحث أن يكون ـــــ ـــــ من أجل تأسيس علاقات ـــــ وـــــ. وفي العادة، تحتوي هذه التجارب على ـــــ الخاص بالمتغير ـــــ وقياس دقيق للتغيرات التي تحدث في المتغير الـ ـــــ ومع أن الـ ـــــ يميلون إلى استعمال الـ ـــــ ـــــ، فإن من النادر أن يستعمل الـ ـــــ الـ ـــــ الـ ـــــ ـــــ، لأنها تبدو غير ملائمة لدراسة السلوك الإنساني	**معرفة** **فهم** **تفسير** **تطبيق**

(*) American Psychological Association.

خارج نطاق ــــــــ ــــــــ. بل إنه من الأرجح أن يفضل الــ ــــــــ هذه التجارب، الذين يهتمون بتأسيس الــ ــــــــ والــ ــــــــ التي يرتكز عليها الــ ــــــــ الــ ــــــــ.

وحتى في مجال ــــــــ، نجد أن انتشار الــ ــــــــ آخذ في التراجع، وذلك نظراً للــ ــــــــ الذي يدور حول البحث غير المشهور في وقتنا الحاضر الذي أجراه عالم الــ ــــــــ ــــــــ في القرن العشرين ــــــــ، وهو الأمر الذي أثار التساؤلات حول ــــــــ الــ ــــــــ الــ ــــــــ. وإذا استُعملت هذه التجارب في وقتنا الحاضر، فالأرجح أن الذين يستعملونها هم ــــــــ ــــــــ، لأن هؤلاء الباحثين يعتمدون - بصورة عامة - في تكوين معرفتهم على اختبار الــ ــــــــ المستمدة من ــــــــ ــــــــ التي تحاول تفسير الــ ــــــــ ــــــــ ــــــــ المسئولة عن ــــــــ ــــــــ التي لا تراها العين البشرية.

التجارب الميدانية

يُشير مُصطلح "التجارب الميدانية" إلى البحث الذي يُجرَى في بيئة طبيعية خارج نطاق حدود وقيود المعمل، إلا أنه يحتوي - مع ذلك - على العناصر التي تجعل التجربة مُتفردة، أعني بذلك، أنه يحتوي على استخدام متغيرٍ مستقل للتمكن من الحكم على التغير اللاحق الذي يطرأ على المتغير الآخر الذي يفترض فيه أن له به صلة (أي: المتغير التابع). وبإجراء هذه التجربة خارج نطاق المعمل، يصبح بوسع الباحثين تقليل الطابع الاصطناعي لموقع البحث، وبذلك يزيدون الصِّدق أو المصداقية الإيكولوجية للبحث (أي: انطباق نتائج البحث على الحياة اليومية). إذ

يصبحون قادرين على اختبار الفروض داخل "عالم حقيقي" أكثر تلاؤماً مع مادة بحثهم. ويعود بنا هذا إلى مسألة ذكرناها في موضع سابق من هذا الفصل، وهي أن من النادر أن يُجري علماء الاجتماع تجارب معملية لأنهم يعتبرون من غير الملائم أن تُدرس الحياة الاجتماعية داخل نطاقٍ منعزل محصور.

ومع ذلك، فإن للتجارب الميدانية عيوبا بالتأكيد. فالدقّة التي تكون ممكنة في بيئة المعمل المنضبطة، يقل احتمال إحرازها في أحد مواقع الحياة الحقيقية. إذ يكون بإمكان كثير من العوامل أن تتدخل في البحث وتؤثر على كلٍّ من صحة النتائج وثباتها المنهجي. مثال ذلك، أن بالإمكان حدوث نوع من "الخلط أو التداخل". ويعني ذلك أن نتائج البحث قد لا تكون راجعة إلى معالجة الباحث للمتغير المستقل وتحكمه فيه، بل إلى عاملٍ ما غير مقصود وغير داخل في الحُسبان، ممّا قد لا يكون الباحث مُنتبها له. لهذا السبب يتعذّر تكرار الدراسات الميدانية – لأنه لا يتوافر فيها للباحث السيطرة على العوامل البيئية. وليس من الراجح أن نحصل على نفس النتائج حتى لو أُجري البحث داخل ظروف "قابلة للمقارنة".

الموضوع (B)
بيجماليون(*) في حجرة الدراسة
من الشواهد الممتازة للتجربة الميدانية دراسة روزنتال Rosenthal

(*) بيجماليون Pygmalion في الميثولوجيا اليونانية ملك قبرص الذي وقع في غرام تمثال للإلهة أفروديت. وقد اخترع الشاعر الروماني أوفيد رواية أكثر تعقيدا فقال إن بيجماليون، وكان نحاتا، صنع تمثالا عاجيا يصوّر المثل الأعلى لجمال المرأة ثم وقع في غرام ما أبدعت يداه، فتوسل إلى الإلاهة فينوس أن تنفخ فيه الحياة ففعلت. وجاء في "الإنيادة" Aeneid للشاعر الروماني فيرجيل أن بيجماليون كان ملك صُور وأنه قتل زوج أخته ديدو Dido ففرّت إلى ساحل إفريقيا حيث اشترت من أحد زعمائها المحليين قطعة من الأرض وبنت عليها مدينة قرطاجة. نقلا عن موسوعة المورد (المترجم).

وياكوبسون Jacobson (١٩٦٨). لتوقعات المُدرّس، والتي عنوانها "بيجماليون في حجرة الدراسة". فمن خلال بحث سابق لهما أجرياه على فئران المعمل، بلورا نظرية مفادها أن نوعية التعلُّم وجودته تتوقف على معتقدات الشخص القائم بالتدريس. وقد توسعا في تطبيق هذه النظرية على واحد من مواقف الحياة الواقعية، وذلك بزيارتيهما لمدرسة أمريكية أولية (أساسية)، وهما يدّعيان أنهما قد ابتكرا اختباراً جديداً من شأنه أن يتنبأ بمن هم التلاميذ الذين سوف "يتفوقون" دراسياً في غضون السنة التالية. وقد تم اختبار هؤلاء الأطفال من حيث مستوى ذكائهم، كما قام الباحثان باختيار عينة عشوائية منهم (انظر الفصل السادس من هذا الكتاب) باعتبار أن من المحتمل أن "تتفجر" موهبتهم. وقد علم المدرسون بذلك، عن طريق "الاستماع مُصادفة" لحوار دار بين هذين الباحثين القائمين بالتجربة.

بعد ذلك بثمانية أشهر تم اختبار الأطفال مرة ثانية باستعمال نفس اختبار مستوى الذكاء. وعُرف الـ ٢٠ في المائة من التلاميذ الذين تم اختيارهم كعينة عشوائية بالمجموعة التجريبية، وعُرف الـ ٨٠ في المائة المتبقون بالمجموعة الضابطة – أي: المجموعة التي تُستعمل للمقارنة مع المجموعة التجريبية. وعندما حلل روزنتال وياكوبسون الدرجات التي حصل عليها الأطفال الذين أُعيد اختبار مستوى ذكائهم، وجدا فروقاً ملحوظة في الأداء بين المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة. فقد تحسن مستوى الأطفال في المجموعة التجريبية تحسناً كبيراً. وقد اعتبرت هذه النتيجة دليلا على أن بإمكان توقعات المدرسين أن تُؤثّر تأثيراً مباشراً على أداء التلاميذ. وقد أسميا هذه الظاهرة [هكذا] " النبوءة ذاتية التحقيق"[*] (أي التي تحقق نفسها بنفسها). فقد بدا الأمر وكأن التلاميذ قد حسنوا

(*) نبوءة ذاتية التحقيق Self - Fulfilling Prophecy : مفهوم أدخله ميرتون إلى علم الاجتماع، يتفق مع النظرية الشهيرة المبكرة لصاحبيها وليام اسحاق توماس والقائلة بأن الناس عندما يحددون المواقف على أنها حقيقة واقعة، يترتب على ذلك أن تصبح حقيقية فعلاً. ويعتبر ميرتون أن "النبوءة ذاتية التحقيق" تعد عملية أساسية ومهمة في المجتمع، مشيرا إلى أن البدء بتعريف موقف ما تعريفا زائفا يستدعي سلوكيات جديدة مترتبة على هذا التعريف، تحيل هذا

من أدائهم الدراسي لأن الباحثين القائمين بالتجربة قد سبق أن "تنبآ" بأنهم سوف يتصرفون كذلك. بتصرف نقلا عن كتاب ب. بانيارد P.Banyard وإن.هايس N.Hayes، علم النفس – النظرية والتطبيقات، لندن، تشابمان، هول، ١٩٩٤).

تمرين ٧–٤	
تفسير تطبيق	اقرأ الموضوع (B) الذي يلخص تجربة أخرى مشهورة، ثم أجب على الأسئلة التالية. والمفروض أن يساعدك ذلك على بلورة فهمك للتجارب الميدانية. ١– ما المتغير "المستقل" و ما المتغير "التابع" في هذه الدراسة؟
تفسير تطبيق تحليل	٢– كيف أمكن "خلط" الأمور في هذه التجربة – أي: كيف تأثرت تأثراً معاكساً بالمؤثرات المجهولة/ أو غير المقصودة؟
تفسير تطبيق تحليل	٣– ما الانتقادات الأخلاقية التي يمكن توجيهها إلى هذه الدراسة؟ (ملحوظة: قد يكون من المفيد الاطلاع على القسم الذي يتناول موضوع "أخلاقيات البحث"، في الفصل التاسع من هذا الكتاب).
تحليل	٤– إذا كنت مهتما بعلم الاجتماع التربوي، و "بالنبوءة ذاتية التحقيق"

التصور الزائف إلى أن يصبح حقيقة. فتلك السلوكيات تطيل أمد التصور الخاطئ. انظر المزيد في موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص١٤٣٦ (المترجم).

تقييم	بالذات، وكنت مُنجذباً لتكرار هذا البحث، فما هي الاعتبارات التي ينبغي أن تراعي عند اتخاذ قرارك؟

التجارب الطبيعية

إذا طرح أحدهم السؤال التالي قائلا:"متى لا تكون التجربة تجربة؟"، فإن الإجابة المحتملة ستكون:"عندما تكون تجربةً طبيعية"! فبعد أن علمتَ أن العامل الذي يجعل التجربة متفردة هو التحكم في المتغير المستقل من أجل تقدير أثره على المتغير "التابع" (الذي يُفترض أنه مرتبطٌ به)، وبعد أن علمتَ أن هذا التحكم يقوم به الباحث، فإننا نأتي الآن إلى نمطٍ ثالثٍ من التجارب، وهو النمط الذي سيبدو مناقضا لهذه التجربة!

تتضمن التجارب الطبيعية دراسة الأحداث (وهي المتغيرات المستقلة) التي غيرت -بشكل كبير- عوامل مهمة (وهي المتغيرات التابعة). وفي هذه الحالة لا يتمُ التحكُم العمْديُ في المتغير المستقل بواسطة الباحث. وإنما يحدُث بدلاً من ذلك تغيُرٌ ما في المجتمع، عادةً ما يكون نتيجة لحَدَثٍ طبيعيٌ، أو سياسي، أو اجتماعي، أو اقتصادي، ويعالج الباحث هذا الحدث باعتباره متغيراً مستقلاً فَحَسْبُ، ويقوم بدراسته على هذا الأساس.وباستكشاف معالم هذا التغير، يكون بالإمكان بَلورة نتائج تتعلق بهذا السبب.

وكما أشار بانيار وهايس (١٩٩٤)، فإن النموذج الكلاسيكي للتجربة الطبيعية هو ما حدث نتيجةً لتقسيم ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ونظراً لتقسيم ألمانيا إلى ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية، كان لزاماً على النظام التعليمي، والذي كان قبل ذلك نظاماً مُوحَّداً، أن يتكيف مع نظامين اقتصاديين وبنيتين اجتماعيتين مختلفتين تمام الاختلاف. لذلك كان بإمكان علماء التربية أن يدرسوا

الفروق بين هذين النظامين التعليميين من حيث السياق الاقتصادي والاجتماعي لكل منهما، آخذين فى الاعتبار أن المتغيرات السابقة أصبحت محكومة ومحددة بالفعل. وقد تُقدم عملية إعادة توحيد ألمانيا سياسيا فُرصة مماثلة – وإنْ تكن في الاتجاه المعاكس – لإجراء تجربة طبيعية على المدى البعيد.

ويلاحظ عموما أن التجارب الطبيعية آخذة في الازدياد من حيث شيوع استعمالها في دراسة ما تنطوي عليه القرارات السياسية من دلالات ضمنية. مثال ذلك، أنه في السنوات الأخيرة أعطى قدرٌ كبير من الاهتمام بالمشاكل التي فرضها "فيروس نقص المناعة البشري. (HIV – أي: فيروس الإيدز) وبالطريقة التي تُتَّبَع لمنع حدوث المزيد من الإصابات به. وقد غيّرت بعض قوات الشرطة سياستها تجاه تعاطي المخدرات فغضّت بصرها عن بيع أدوات الحقن.وقد درس بيتس Pitts وفيليبس (١٩٩١) نتائج هذا التصرف عن طريق استقصاء أنماط المُشاركة في استعمال أداة الحقن – وهو عاملٌ مهم جداً في نشر فيروس الإيدز. وقد وُجد أن الاتجاه البراجماتي الجديد للشرطة قد أدّى إلى ظهور "الدُور الآمنة" Safe Houses التي يكون تعاطي المخدرات فيها أقلّ خطورةً بسبب سهولة توافر الأداة النظيفة للحَقن.ومن شأن هذا الوضع أن يجعل المشاركةَ في استعمال أداة الحقن أقل احتمالاً. وقد كان هذا البحث ذا قيمة كبيرة في تسليط الضوء على هذا الاتجاه الجديد في ضبط الأمور والذي تتخذه الشرطة إزاء مُشكلة اجتماعية يعاني المجتمع منها منذ أمد طويل. كما أنه وفر حصيلة من المعلومات القيمة التي تتيح الحكم على سلامة التغيرات في بعض القرارات السياسية.

ولأنها تُقدم أعلى درجة من الصدق الإيكولوجي من بين جميع التقنيات التجريبية، تكون التجارب الطبيعية أرجح التجارب لأن يستعملها علماء الاجتماع. فالحياة الاجتماعية يمكن دراستها في موقعها الطبيعي، وبدون أن يُقْطَعَ اضطرادها

شيء عموما، وهو ما يعني أنّ من الراجح أن البحث يقدّم صورةً للحقيقة، وليس صورةً مختلفةً اصطناعيةً إكلينيكيةً للأحداث. كما أن بإمكان التجارب الطبيعية أن تعتَبر موضوعية عن حقٍّ لأن المتغير المستقل لا يتحكّم فيه الباحث تحكُّما مباشراً، بل يتغير بوصفه نتيجةً للظروف الطبيعية (راجع حديثنا السابق)، لذلك لا توجد سوى فرصة ضئيلة أمام الباحث ليتدخَّل في مسار الأحداث. ومع أن اختيار الموضوع إلى تتقرر دراسته يتضمن عنصراً ذاتيا، فإنه -فيما عدا هذا الشأن- ينبغي للبحث، ولو من الناحية النظرية على الأقل، أن يكون "متحرراً من القيم"(انظر الفصل السادس من هذا الكتاب)

تقييم المنهج التجريبي في علم الاجتماع

نقاط القوة

١- تكون التجارب دقيقة، كما أنها تتيح لنا دراسة علاقات السبب والنتيجة دراسة منهجية منظمة.

٢- أن بالإمكان صياغة التنبؤات، كما أننا نستطيع اختبار هذه التنبؤات بمقابلتها بالواقع. ويتيح المنهج التجريبى للباحث جمع البيانات الكمية. ومن شأن ذلك أن يجعل من الممكن تعميم النتائج التي تُستَخرَجُ من العينة على مجتمع البحث بأكمله.

٣- يدعو الوضعيون إلى استعمال التجارب كجزء من المنهج العلمي لأنهم يعتبرون العلم مفتاح التقدم. ويُمكِّننا استعمال التقنيات العلمية من كشف الغطاء عن الأنماط التي تحكم السلوك الإنساني، ومن ثم تُمكِّننا من تطوير القوانين الاجتماعية.

أوجه القصور

١- تكون التجارب اصطناعية ومن ثم تكون غير ملائمة لدراسة البشر، وذلك لأن الحياة لا يمكن رؤيتها محصورةً داخل المعمل معزولة عن سياقها الواقعي الحي. فالسلوك الإنساني إنما يمثل مُحصلة التفاعُل بينَ البشر والبيئة، وينبغي أن يُدرس بهذه الصفة.

٢- أننا لا نستطيعْ – حتماً – تعميم النتائج التي نخرج بها من البحث. فهذه النتائج قد تكون ثمرة العملية التجريبية (كتوقعات الباحث نفسه، والخواص التي تتصف بها شروط التجربة، ونحو ذلك) ومن ثم لا تكون هذه النتائج دليلا على وجود علاقة حقيقية.

٣- يميل المفكرون المُضادّون للوضعية إلى رفض استعمال التجارب والتزام المنهج العلمي في علم الاجتماع. فهم يميلون إلى القول بأن البشر كائنات متفردة وأنه ينبغي دراستهم باستخدام الطرق الكيفية المتعمقة التي تنتبه بكل دقة للفروق الفردية بين الأفراد.

طرق البحث غير التجريبية: الطرق الكمية

المسوح الاجتماعية

تُعَدُّ المسوح الاجتماعية نماذج واسعة النطاق من البحث السوسيولوجي تتضمن في العادة توليفة من تقنيات البحث، وذلك على الرغم من أن الأداة الأساسية لجمع البيانات هي الاستبيان المُقنّن عادةً. وهذا الاستبيان يمكن استيفاء بياناته عبر البريد أو وجها لوجه في صورة مُقابلة مقننة. وتهدف المسوح

الاجتماعية إلى عمل دراسة دقيقة للأنماط والاتجاهات الاجتماعية على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى (الماكرو).

ويمكن أن يكون لبيانات المسح الاجتماعي آثارها المتعلقة بالسياسة الاجتماعية. مثال ذلك، أن النتائج المستمدة من "المسح البريطاني للجريمة"، وهو دراسة واسعة النطاق لضحايا الجريمة أجرتها وزارة الداخلية البريطانية، يمكن أن تؤدي إلى تطوير بعض السياسات الجديدة الخاصة بالقانون والنظام. وبالمثل، فإن المقدار الهائل من البيانات التي تجمع من المسوح الاجتماعية القومية كإحصاء السكان (وهو الاستبيان الذي يصدر كل عشر سنوات وتلتزم كل أسرة في بريطانيا باستيفاء الإجابة عليه بموجب القانون). هذه البيانات يمكن أن تزود الحكومة بالمعلومات الحيوية التي لا غناء عنها لوضع سياسات الإصلاح الاجتماعي. مثال ذلك، أن البيانات المتعلقة بالصحة والمُستمدة من الإحصاء السكاني لسنة ١٩٩١، والتي أظهرت العلاقة بين الدخل المنخفض والمرض، يمكنها أن تقدم الأساس لمنح الامتيازات الضريبية لهؤلاء الذين يختارون تَلَقِّي العلاج الخاص (أي على نفقتهم الخاصة) داخل منظومة المستشفيات الوطنية، وذلك بقصد تمويل الطلب المتزايد على منظومة المستشفيات الوطنية المذكورة.

وقد حاول كثير من علماء الاجتماع استخدام المسوح الاجتماعية كطريقة بحث أولية، على الرغم من أن بحثهم كان محدود النطاق بالمقارنة مع حجم التغطية الضخم للإحصاء السُكاني. مثال ذلك، أن بيتر ويلموت Peter Willmott (١٩٨٧) أجرى مسحاً اجتماعيا محدود النطاق لدراسة دور الأصدقاء، والجيران، والأقارب في حيوات الأفراد من مختلف الطبقات الاجتماعية. وقد وفر هذا المسح -بصورة عامة- بيانات كمية، مُستمدة من مقابلات مقننة (بعد ملء استمارة استبيان)، ثم حُللت هذه البيانات للتوصل إلى دلالاتها الإحصائية. وقد جُمعت بعض

البيانات الكيفية عبر قسمٍ من هذا الاستبيان عن "معنى الصداقة" بقصد زيادة درجة مصداقية البحث.

يصفُ روز Rose وجرشوني Gershuny (١٩٩٥) فوائد المسوح الاجتماعية، زاعمين أنها "طريقة محورية للاستقصاء الاجتماعي"، وأنها تساعدنا -بشكل خاص- على فهم العمليات على امتداد الزمن. فهي تسلط الضوء -بصفة خاصة- على أهمية المسوح الاجتماعية المقارنة الدورية أو المتكررة، وأعني بذلك تلك المسوح التي تستكشف معالم الظواهر الاجتماعية في أوقاتٍ مختلفة من الزمن كمصدرٍ للبيانات الثانوية التي تُقدَّم لعُلماء الاجتماع الذين يقومون باستقصاء التغير الاجتماعي.

ومن أمثلة هذه المسوح "المسح العام للأسرة"، وفيه تطرح – في كل سنة يجري فيها- نفس الأسئلة على عيناتٍ أخرى من السكان. ومع ذلك، فإن هذا الإجراء وحده يتيح إجراء التحليل الواسع النطاق (أي: الخاص بالاتجاهات العامة) لأن نفس الأفراد لم يُستخدموا في جمع البيانات عنهم من سنة لسنةٍ أخرى. وهنا تكون المقارنات على مستوى الوحدات الصغرى أو على مستوى الحالات الفردية، أمراً غير ممكن. وللتغلب على أوجُه القصور في مثل ذلك البحث، يرى روز وجرشوني (١٩٩٥) أنه ينبغي على علماء الاجتماع أن يُوَجهوا اهتمامهم إلى المسوح الاجتماعية الطولية (أي التتبعية)،حيث تجمع البيانات من نفس الأفراد في أوقاتٍ مختلفة متتابعة من حياتهم.

ويمكن لدراسات الأفواج (والتي فيها تتم متابعة عينة من الأفراد على امتداد فترة عدة سنوات من خلال رصد أوضاعهم بانتظام وَجَمْع البيانات عنهم)؛ يمكن لهذه الدراسات أن تكون أسهل وأنفع مصدر للبيانات التتبعية (الطولية) الثانوية. ومن نماذج هذه الدراسات: "الدراسة القومية لتطور أحوال الأطفال"، والتي تتابع أحوال مجموعةٍ من الأفراد ابتداءً من ميلادهم سنة ١٩٥٨، والدراسة الأحدث

بعنوان "المسح السكاني للأسر البريطانية[*] والذي أجري على عشرة آلاف فرد تم سحبُهم (أي:انتقاؤهم) من الأسرة الممثلة لباقي الأسر في شتى أنحاء بريطانيا.وقد أُجريت مقابلات مع مفردات هذا البحث الأخير كل سنة من سنوات تسعينيات القرن العشرين بواسطة مجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية وجامعة إسكس.

تمرين ٧-٥	
تفسير تطبيق تحليل تقييم	في عرضِهما لموضوع المسوح الاجتماعية وضع روز وجرشوني قائمة بمزايا استخدام البيانات التتبعية (الطولية): ضع جدولاً من عمودين ودون فيه أكبر عدد يمكنك أن تتصور أنه يندرج تحت بند "المزايا". وفي العمود الثاني (والمعنون بكلمة "الفوائد/ أو المنافع) اشرح السبب في كون كل ميزةٍ نافعة أو مفيدة للباحثين.

العولمة والبحث

في السنوات الأخيرة زادت العولمة (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب) مجال البحث السوسيولوجي زيادة كبيرة. فقد أدّت تكنولوجيا المعلومات المتوافقة بصورة متزايدة إلى أن سهّلت على الباحثين – وبنقرة على لوحة مفاتيح الكومبيوتر – أن يخوضوا داخل البيانات الدولية والعالمية وأن يُجروا بحوثهم على مثل هذين المستويين. إذ أن من الأمور المعترَف بها أنه لم يعُدْ مُلائماً أن تُدرس الظواهر على المستوى القومي في الوقت الذي تُعدُّ الدولة القومية فيه جُزءاً من المجتمع العالمي وليست مجتمعا منعزلاً يعيش في جزيرة منقطعة. شاهد ذلك، أن جيدنز Giddens(١٩٩٠) يُسلِّط الضوء على أثر العولمة على الخبرات الشخصية:

(*) B H P S = The British Housholds Population Survey.

فالأحداث التي تقع في أماكن نائية يمكن أن يكون لها في وقتنا الحاضر عواقب مباشرة تؤثر على حيواتنا اليومية. وتمكننا المسوح الاجتماعية من فهم ما يسودُ العالم من مَنَاخٍ اقتصاديٍ وثقافي ظَهَرَ حديثاً مع زوال الحدود القومية.

تقييم المسوح الاجتماعية

نقاط القوة

١- تُسهل المسوح الاجتماعية جمع البيانات الكمية (وجمع البيانات الكيفية على مستوىً أقل) على نِطاقٍ واسع وعلى مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى. ويُمكن تقدير ما في هذه البيانات من أنماط واتجاهات لتساعدنا في فهم العوامل التي تشكل السلوك الإنساني.

٢- تُنتج المسوح الاجتماعية بياناتٍ من شأنها أن يعتبرها الوضعيون بيانات ثابتة منهجياً. كما يرون أن بالإمكان الانتفاع بها في توسيع نطاق التعميمات أو الاستنلالات بنقلها من عينة البحث وتطبيقها على مجتمع البحث الأكبر. ويتيح ذلك إجراء المقارنات المحلية، والإقليمية، والقومية، والدولية، كما يُمكن بصورة متزايدة من إجراء المقارنات العالمية بين مجموعات البيانات.

٣- تقتضي الطبيعة التتبعية (الطولية) لبعض المسوح الاجتماعية تمكين علماء الاجتماع من دراسة التغير الاجتماعي على امتداد الزمن، وذلك من حيث أسبابه ومن حيث نتائجه بالنسبة للمجتمع ولأعضائه.

٤- لا تقتصر بعض المسوح الاجتماعية، وأعني بها دراسات الأفواج، لا تَقتصِر على مساعدتنا على دراسة الظواهر الاجتماعية والتغير الاجتماعي على المستوى العام أو المجتمعي فقط، بل وعلى المستوى الفردي وعلى امتداد الزمن (وجهة النظر التطورية).

أوجه القصور

١- تعتمد المسوح الاجتماعية بشكل مكثف على البيانات الكمية، وعلى مُعالجة هذه البيانات بوصفها "حقائق اجتماعية". وقد تلقى هذا الاتجاه انتقاداً شديداً من مفكري الاتجاهات المضادة للوضعية، كما أن الاعتماد على البيانات المُستمدَّة من الاستبيانات أمر فيه خلاف، وذلك لأن الاستبيانات لا تخلو من أوجه القصور.

٢- نظراً للتكلفة الكبيرة التي يتطلبها إجراء البحوث الواسعة النطاق التي تستخدم أسلوب المسح الاجتماعي، يزداد احتمال اعتماد علماء الاجتماع على البيانات الثانوية المستمدة من المسوح الاجتماعية السابقة. ومن ثَمَّ يعتمد تفسيرهم للواقع -عموماً- على بيانات شخصٍ آخر. وحتى لو اتخذوا موقفاً فكرياً نقدياً، فإن بالإمكان أن تخدعهم البيانات الملتبسة في دلالاتها.

٣- يذهب المفكرون المناهضون للوضعية إلى أنه من غير الملائم اعتمادُ طرق البحث واسعة النطاق الخاصة بالوحدات الاجتماعية الكبرى في دراسة البشر. وبدلا من ذلك يدعون إلى استعمال طرق البحث الخاصة بالوحدات الاجتماعية الصغري التي تستوعب جوانب التفرد والخصوصية التي يتسم بها الأفراد.

الاستبيانات

تطرح الاستبيانات مجموعة من الأسئلة بوصفها وسيلة لجمع البيانات. وتوجد أنواع متعددة من الاستبيانات، والتي تختلف في درجة تقنينها (أي: استبيانات مُقننة، واستبيانات شبه مقننة، واستبيانات غير مقننة). وتشمل نماذج الاستبيانات: الاستبيانات البريدية التي يرسلها الباحث وتُعاد إليه بعد استيفائها،

والاستبيانات المباشرة أو وجهًا لوجه التي يتمُّ استيفاؤها بواسطة الباحث في حضور المستجيب. كما يُمكن توزيع الاستبيانات على الأفراد بصورة شخصية ويتم جمعها منهم بعد استيفائها. وفي هذه الحالة لا يشرف الباحث عادة على عملية ملء الاستبيان بنفسه، وذلك على الرغم من أن من المفيد أن يفعل ذلك، حيث يمكنه مثلاً توضيح ما قد يغمض على المستجيب، وما إلى ذلك.

وتطبق الاستبيانات عادة على إحدى عينات البحث حتى يكون بالإمكان صياغة التعميمات والاستدلالات التي تصدق على مجتمع البحث الأوسع. لهذا السبب، يكون اختيار العينة عاملاً مهمًا في البحوث التي تجري بأسلوب الاستبيان. ومن المرغوب فيه عادة اختيار العينة من خلال عملية منطقية دقيقة. ويُتاح للباحث خمس طرق رئيسية لاختيار العينات (انظر الفصل السادس من هذا الكتاب)، أعني بذلك طريقة المعاينة العشوائية، والمعاينة وفق ما تتيحه الظروف، والمعاينة بالحصص (الحصية)، والمعاينة الطبقية، وطريقة كرة الثلج. وفي بعض الأحيان يسعى الباحثون في طلب متطوعين للمشاركة في البحث، وهؤلاء المتطوعون يُطلَق عليهم مصطلح: عينة "الاختيار الذاتي".

استعمل كثير من علماء الاجتماع الاستبيانات في بحوثهم. مثال ذلك، أن يونج Young ويلموت Willmott (١٩٦١)، في دراستهما الممتازة عن الحياة الأسرية في لندن، استخدما الاستبيانات في استقصاء أحوال الشبكات الأسرية واستكشفا مدى التمازج الشديد بين المجتمع المحلي، والاقتصاد، والعائلة. وفي هذه الحالة يتخذ جمْع البيانات شكل المقابلات المُقننة، وتُطبَّق الاستبيانات على المستجيبين بواسطة عضو من أعضاء فريق البحث. واستعمل أوبريان O'Brien وجونز Jones (١٩٩٦) طريقة مماثلة في بحثهما التتبُّعي عن مدى ما وصلت إليه الحياة الأسرية للطبقة العاملة من تغير منذ بحث يونج وويلموت الذي أُجرى قبل أكثر من ثلاثة عقود.

ومازالت الاستبيانات تمثل طريقة مهمة في استقصاء الرأي العام فيما يتصل بالظواهر الاجتماعية. ومن أمثلة ذلك بحث موريسون Morrison (١٩٩٤) عن تقديم الإعلام للتقارير عن الحرب. فقد شرع موريسون، مدير البحوث في معهد دراسات الاتصال بجامعة ليدز – وذلك ضمن دراسة كبيرة عن حرب الخليج – شرع في الفحص الدقيق للتصورات الذهنية لدى مشاهدي التليفزيون عن تلك الحرب. وقد بحث بصفة خاصة الطريقة التي كانوا يحكمون بها على ما يعرضه التليفزيون من مشاهد الموت والإصابات بعد الهجوم الجوي على ملجأ "الأميرية" في بغداد سنة ١٩٩١. كما تضمن هذا الجهد العلمي استقصاء للطريقة التي كان يحكمُ بها الأطفال على الحرب ولما إذا كانت قد سبَّبت لهم القلق، كما ورد في التقارير في ذلك الوقت.

(C)الموضوع
من جزر الفوكلاند إلى الخليج – دراسة علم الاجتماع للتقارير الإعلامية عن الحرب
دُعيت للاجتماع عشرٌ من جماعات المناقشة المكونة من أفراد بالغين، وقُسمت تبعاً للسن، والطبقة، والجنس، وكانت موزعة جغرافياً بين شمال إنجلترا، وميدلاندز (أواسط بريطانيا) وجنوب إنجلترا. وعرضت عليهم مشاهد إخبارية تليفزيونية للهجوم على هذا الملجأ، وكانت هذه المشاهد مكونة من نشرات الأخبار المسائية الأخيرة لمحطة البي بي سي BBC والآي تي إن ITN والقناة الفرنسية الأولى TF1. كما عُرضت على المشاهدين مشاهد إخبارية من محطة دبليو تي إن WTN، والتي وردت إلى صالة الأخبار في محطة ITN،

ولكنها لم تُذع لأنها اعتُبرت مرعبة بدرجة مُفرطة. فقد أظهرت الأفلام الإخبارية لمحطة WTN صوراً مُقرَّبة للجثث المحترقة.

ولا يستطيع المرء أن يُعمِّم الحكم الذي يستخلصه من جماعات المناقشة لِيُطبقهُ على مجتمع البحث بجملته، ولكننا قمنا - بجانب المناقشات الجماعية المركزة - بإجراء مسح اجتماعى على المستوى القومي. وكان هذا المسح قائماً على أساس تحديد أماكن عينة عشوائية أولية مُكوّنة من ٨٨ منطقة مرقّمة اختيرت من قائمة، وداخل نطاق كل عينة كانت الحصص تُقسم تبعا للسن، والجنس، والدرجة الاجتماعية، وكانت جميع الحصص متشابكة مع بعضها من أجل ضمان تمثيل مجتمع البحث تمثيلاً دقيقاً. وأجريت مقابلات مع أكثر من ألف من البالغين، في بيوتهم، وبمتوسط ٥٥ دقيقة للمقابلة.

أدرنا كذلك أربع جلسات مع جماعات المناقشة، منها اثنتان في شمال انجلترا، واثنتان في جنوب انجلترا، مع الصبيان والفتيات الذين تراوحت أعمارهم من ١٠-١٢ سنة ومن ١٣-١٥ سنة. كما أننا أدرجنا ٢١٢ طفلا تتراوح أعمارهم من ٩ سنوات إلى ١٥ سنة في المسح القومي الذي أجريناه. وهؤلاء الأطفال تمّ سحْبُهم من نفس العينة كما حدث مع عينة البالغين الرئيسية، مع تقسيم الحصص تبعا للسن والجنس. وكان هذا الاستبيان أقصر بدرجة كبيرة من الاستبيان الذي أجاب عليه البالغون، حيث كان لا يستغرق استيفاؤه إلا ١٠-١٥ دقيقة.

(المصدر: دافيد موريسون، مقالة بعنوان : "من جُزر الفوكلاند إلى الخليج- دراسة علم الاجتماع للتقارير الإعلامية عن الحرب"، مجلة علم الاجتماع Sociology Review ٣(٣)، ١٩٩٤).

	تمرين ٧-٦
	سوف يُمكنك هذا التمرين من التعرف على بحث موريسون بمزيد من التفصيل. اقرأ الموضوع (C) ثم أجب على الأسئلة التالية:
معرفة فهم تفسير تطبيق	١- لماذا كان من المهم أن تُقسَّم العينة تبعاً للسن، والطبقة، والجنس والمنطقة الجغرافية؟
تحليل تقييم	٢- إلى أي مدى توافق على أن المشاهد الإخبارية للضربة الجوية التي عُرضت في نشَرات الأخبار المسائية الرئيسية على قناة BBCو ITN، والقناة الفرنسية الأولى كانت ممثلة لوسائل الإعلام في تقديمها لتقاريرها عن هذا الحادث؟
تحليل	٣- ما القضايا الأخلاقية التي أثارها عَرْض المَشاهد الإخبارية لقناة WTN؟ ولماذا كان ينبغي على موريسون أن يكون متنبها لهذا الأمر؟
تفسير تطبيق	٤- لماذا ذهب موريسون إلى أن "المرء لا يمكنه أن يعمم الآراء والأحكام التي أثيرت في المناقشات الجماعية ليُطبقها على مجتمع البحث بأكلمه"؟
تقييم	٥- إلى أي مدى يمكنك أن توافق على أن "عينة عشوائية أولية من أماكن مختلفة" كانت أكثر الطرق فعاليةً في اختيار المستجيبين الذين يشاركون في تنفيذ هذا البحث؟

٦- ما العيوب الناجمة عن استيفاء الاستبيانات عَبرَ المقابلات المقننة التي تُجرى في بيوت البالغين؟	تحليل تقييم
٧- لماذا ترى أن فئتي السن من ١٠-١٢ سنة ومن ١٣-١٥ سنة قد تم اختيارها لغرض إجراء المناقشات الجماعية لموضوع أثر التغطية الإعلامية لحرب الخليج على الأطفال؟	معرفة فهم تفسير تطبيق
٨- ما المزايا المترتبة على سحب المجموعة الثانية من المستجيبين الأطفال (من ٩-١٥ سنة) من نفس الأسر باعتبارها العينة الرئيسية للأطفال؟	تقييم فهم تفسير
٩- لماذا استُخدمت طريقة المعاينة بالحِصص (الحصية) هنا؟	تطبيق
١٠- ما المزايا والعيوب التي يمكن أن تنجُمُ عن إعطاء الأطفال استبياناً أقصر؟	تقييم

وضع الاستبيان

عند التعليق على موضوع مزايا الاستبيانات، يُشارُ في كثير من الأحيان إلى أنها وسيلة سهلة وسريعة وفعالة في جمع البيانات. ومع أن هذا قد يكون صحيحاً إذا قارنّا الاستبيانات بالطرق الأكثر طولاً منها كالمقابلات، والملاحظة وما يشبه ذلك، إلا أنه يُعَدُّ مُضللاً إلى حدٍ ما لأن هذه العملية لا تكون سريعةً إلا بَعد أن يتم وضع الاستبيان المناسب.

وعادة ما تحتاج الاستبيانات إلى أن تصَمَّم وتكتب لخدمة أهداف بحثية مُحدَّدة في الذهن، وقد يكون ذلك عملية شاقة تتطلب خبرة ومهارة كبيرتين. وفي أحيانٍ كثيرة، بمجرد تقديم مُسوَّدة للاستبيان يتمُّ القيام بمحاولة استطلاعية لتمكين الباحثين من اختبار هذا الاستبيان. وهذا بدوره قد يستغرق وقتاً، خاصةً إذا استُعْمِلت طريقة إرسال الاستبيان بالبريد، حيث تُتَّهمُ هذه الطريقة بأنها ذات معدلات مُنخفضة في الاستجابة (١٠-١٥ في المائة فقط هم الذين يَرُدُّون على الاستبيانات) كما أنها مُتَّهَمة بوجود حالات تأخير في إعادة إرسال المستجيبين للاستبيانات بعد استيفائها.

ويمكن أن تُصاغ الاستبيانات في قالب أو نموذج معين، أعني بذلك أن يكون بها مجموعة من الصناديق (أي المربعات) التي يحتوي كل واحد منها على واحدة من الإجابات المحتملة، حيث يؤشر المبحوث بعلامِة على الصندوق الذي يمثل الإجابة المختارة. ويشيع استخدام هذا النموذج عند مَنْ يرغبونِ في الحصول على بيانات كمية تكون ذات درجة عالية من الثبات (انظر الفصل السادس من هذا الكتاب). وهذان الأمران مترابطان لأنه كلَّما زادت درجة تقنين الاستبيان، كلما قلت درجة التنوع والاختلاف في الإجابة عليه. ذلك أنه ينبغي – ولو من الناحية النظرية على الأقل – ألاَّ يوجد إلاَّ اختلاف طفيف بين الاستيفاء الأوَّلي وأيِّ نُسخة مُكرَّرة من نفس الاستبيان. ومن الشائع تفضيل الاستبيانات المُقنَّنة ذات الإجابات سابقة التكويد من جانب الباحثين الذين يرغبون في تحليل بياناتهم باستخدام مجموعة من حزم البرامج الإحصائية المُعَدّة للعلوم الاجتماعية والمتاحة حاليا لأغلب أنظمة الكومبيوتر، ومن أمثلة هذه البرامج: برنامج Logistix، وبرنامج PASW-X، وبرنامج PASW-PC وإكسل Excel، وما إلى ذلك.

تتضمن الاستبيانات شبه المُقننة توليفة من اختيارات الإجابة المحددة سلفاً بجانب بعض الأسئلة الحُرة أو المفتوحة. ومن شأن ذلك أن يتيح للمستجيبين أن يُعبروا عن أنفسهم، بين الفينة والأخرى، بدون التقيُد بالإجابات المُقرَّرة سلَفاً. كما أن بإمكان ذلك أن يزيد درجة صدق الاستبيان، إذ إنه عندما يتاح للأفراد فُرصة للتعبير الحر، يزداد رُجحان أن تُقدم هذه البيانات صورة صادقة. وقد يؤدي إدراج الأقسام الخاصة بالإجابات الحرة في الاستبيان إلى أن يجعل تحليله بواسطة الكومبيوتر أكثر صعوبة، نظراً لأن البيانات الكيفية لابد من معالجتها جنباً إلى جنب البيانات الكمية. ومع ذلك، فإنه يجري حالياً، وبصورة متزايدة، تطوير بعض حزم البرامج الكومبيوترية لتحليل المضمون، وهذا على الرغم من احتمال أنها لا تزال تستغرق وقتا طويلا، لأنه لا بُد من إدخال البيانات قبل أن يتسنى بدءُ التحليل.

مع أن بعض تقارير البحوث السوسيولوجية تسلط الضوء على وجود قالب ثالث للاستبيانات – ألا وهو الاستبيان غير المُقنَن – فإن من العسير تصور إمكان مدى استيفاء مثل هذا القالب للتعريف المذكور قبل ذلك للاستبيان؛ والذي يعني أنه عبارة عن مجموعة من الأسئلة التي توفر وسيلةً لجمع البيانات. وما لم تُعرض هذه الأسئلة بطريقة تصادفية لتجعل إطلاق صفة "الاستبيان غير المُقنن" على هذا النوع أمراً مشروعاً، فإن وصف تلك الاستبيانات بأنها "غير مُقننة" قد يصبح أمراً إشكاليا.ولعل بعض الاستبيانات تكون أقربَ إلى القالب غير المُقنن عندما يتم طَرْحُ مجموعة من الأسئلة المفتوحة جدا بها، ويترك بجانبها فراغ كبير يخصص لكتابة الأفكار والتأملات الشخصية للمستجيبين. ومع ذلك، فإنه من غير المحتمل إلى حدٍّ بعيدٍ أن يكون هذا الاتجاه محل تفضيل، لأن الوضعيين لا يمكنهم أن يحصلوا من خلاله على ما يحتاجون إليه من البيانات التي تتسم بالثبات، كما أنّ المفكرين المناهضين للوضعية يميلون إلى اعتبار الطرق الأخرى، (ومنها مثلاً المقابلات، والملاحظة) أنسَب لدراسة التفردُ الذي يتصف به أفراد البشر.

وقد كثرت وتنوعت الكتابات في علم الاجتماع عن عملية وضع الاستبيان. ويرى دي فو De Vaus (١٩٨٦) أنه ينبغي على الباحثين أن يَتّبِعوا سلسلةً من الخطوات المنطقية، التي يراعوا فيها الأمور التالية:

- اعتَن باختيار المجالات ذات الأهمية لضمان طرح كل الأسئلة ذات الصلة في تلك المرحلة. ذلك أنه من العسير الرجوع لجمع معلومات أخرى إذا اكتشف الباحث مُؤخّراً أنه لا مناص من جمعها لضرورتها.
- صُغ الأسئلة في عبارات تجعلها واضحة، وغير ملتبسة ومجدية – فاللُّغة المستعملَة ينبغي أن تكون بسيطة، و موجزة، وخالية من التحيز، وغَيْر مُوحية (أى: لا توجه المبحوث إلى رد أو إجابة معينة) وما أشبَهَ ذلك.
- حدد نمط السؤال – هل هو سؤال مفتوح (حَيْثُ يصوغُ المستجيبون إجاباتهم الشخصية بأنفسهم) أم أنه سؤال مُغلق أو مُحدَّد (حَيْثُ يُطرحُ فيه عددٌ من الأجوبة البديلة، يختار منها المستجيبون إجابة واحدة أو أكثر).
- اهتم بتقييم الأسئلة: فبمُجرد أن تُصاغ الأسئلة الأولية يَتَعيَّن تقييم كلّ سؤالٍ منها تقييماً دقيقاً من خلال الاختبار الاستطلاعي قبل إدراجها في الاستبيان النهائي.
- إخراج الاستبيان أو تنسيقه بالصورة التي يظهر فيها للمُستجيب: وفي هذا الشأن توجد جوانب أساسية هي: إجراءات الإجابة، وأسئلة التوافق، والتعليمات، والانتفاع بمساحة الاستبيان، وترتيب الأسئلة؛ والإعداد للتكويد أو الترميز.

ويؤكِّد "دي فو" على أنه ينبغي أن يكون الاستبيان بمثابة مُحَصلة للمشكلة البحثية، والنظرية، وطريقة التطبيق، وطرق تحليل البيانات. والاستبيانات الجيدة لا تتوفر بسهولة أو بالصدفة، وإنما هي تقتضي التفكير الدقيق، والمسوّدات العديدة، والتقييم الشامل، والاختبار الواسع النطاق.

معرفة - فهم تفسير- تطبيق	تمرين ٧-٧

سيُمكنك هذا التمرين من تفسير وتطبيق ما أوجزنا القول فيه قبل ذلك من المعلومات الخاصة بوضع وتنسيق الاستبيان. اقرأ الاستبيان التالي الخاص "بأسلوب المعيشة" وانجز المَهامَّ التي تليه.

استبيان عن أسلوب المعيشة

سوف أقوم بمشروع بحثي المُصغَّر، الذي سوف أتناول فيه بالدراسة أسلوب معيشة بعض الناس. إنني في الواقع فضولي قليلاً، ويبدو أن ذلك أسلوب جيد للوصول إلى معرفة الناس نوعاً ما. أشكرك إذا تفضلت بملء هذا الاستبيان مساعدة لي.

١- ما اسمك وكم تكسبُ من المال؟

____

(اُكتُب الإجابة على هذا السطر)

٢- ما سِنُّك؟

- صفر - ١٠ سنوات
- ١١ - ١٣ سنة
- ١٤ - ٢٥ سنة
- ٢٦-٤٥ سنة
- ٤٦-٥٠ سنة
- ٥١ - ٧٦ سنة

(ضع علامة على فئة واحدة فقط)
٣- أين تعيش؟ ______________________ (أكتُب الإجابة على هذا السطر)
٤- كيف تود أن تصِف أسلوب معيشتك؟ • أسلوب مُريح ___ • أسلوب غير مريح ___ • لا تدري ___ • ليس جدياً كما تريد ___ • جيد في جُملته ___ (ضع علامة على فئة واحدة مالم تكن غير متأكد)
٥ – ما الذي تفعله في وقت فراغك؟ • تتمشى خارج المنزل ____ • تلبَث داخل المنزل ____ • تلبث داخل البيت ثم تخرج للتمشية بعد ذلك؟ ____ • لا تخرج للتمشية إلا فى العطلات الأسبوعية ____ • أنشطة أخرى (أذكرها من فظللك) ____

• أنشطة أخرى (اذكرها من فضلك) ____

٦- هل أنت سعيد بحياتك؟

• نعم __

• لا __

(ضع علامة على فئة واحدة)

٧- هل لك أصدقاء كثيرون؟

• نعم - اذهب إلى السؤال رقم ٩

• لا (ضع علامة على فئة واحدة) - اذهب للسؤال رقم ٨

٨- إلى أيّ مدى يُؤثِّرُ على أسلوب معيشتك قِلة الأصدقاء؟

____

(أكتب على السطر)

٩- هل أنت مشهور بسبب أسلوب معيشتك أم أن أسلوب معيشتك هو نتيجة لشهرتك؟

____

____

____

(أكتب هنا بتوسع لأن أستاذي قال إن دراستي سوف تكون أكثر صِدقاً إذا تحصَّلْتُ على بعض التعليقات)

١٠- إلى أي مدىً يُمكن لأسلوب معيشتك أن يكون مختلفاً لو أن لديك مالاً أكثر، وأصدقاء أكثر، ووقتاً أكثر، ووالدين أقلّ تشدداً، إلى آخره؟

____

____

(جزيل الشكر، على ملء هذا الاستبيان.إن رفقائي في مقرر علم الاجتماع سيهتمون بقراءته!

١- بانتفاعك بالمعلومات المقدمة أعلاه عن الممارسة الجيدة في وضع الاستبيان، اكتشف أكبر عدد يمكنك اكتشافه من عوامل التصميم التي تتعارض مع نصيحة "دي فو".

٢- أعد كتابه مُسوَّدة لهذا الاستبيان في قالب شبه مُقَنن (أي من خلال استخدامك لتوليفة من الأسئلة المغلقة والأسئلة المفتوحة لزيادة قيمته كطريقة لجمع البيانات).اُحصُر نفسك في حدود ١٠ أسئلة كحد أقصى.

٣- قارن استبيانك باستبيان واحد آخر من زملائك من دارسى علم الاجتماع، قيِّم أيَّ هذين الاستبيانين اللذين أُعيدت كتابة مسودتهما يَبدو أكثر جدوى، ولماذا؟ ما عوامل التصميم التي يأخُذ بها هذا الاستبيان؟ وما الشيء الذي "تضيفُهُ" هذه العوامل إلى الاستبيان الأصلي؟

تقييم الاستبيانات

نقاط القوة

١- بإمكان الاستبيانات أن تصل إلى عينةٍ كبيرة من الأفراد وتوفر كمياتٍ كبيرة من البيانات على نحوٍ سريعٍ نسبياً. وبمُجرد أن يتم تصميمها تصميماً جيداً، فإنه ينبغي أن يكون تطبيقها سهلاً إلى حدٍ معقول.

٢- نظراً لأن الاستبيانات تجمع بياناتٍ كمية أساساً، فإنها تكُون مُفضلةً عند الوضعيين. فهي تُمكِّن من تطوير قواعد البيانات ممَّا يُسهل تطبيق الأحكام العامة المستخرجة من العينة على مُجتمع البحث.

٣- إذا تم الحصول على البيانات في قالب مُقنن، وغالباً ما يكون مُكوَّدا من قَبْل ذلك، يصبح من السهل القيام بالتحليل يَدَوياً وكذلك عن طريق الكومبيوتر. وحتى عندما تحتوي الاستبيانات على أقسام بها إجابات حُرة، فإنها تَظَلُّ مُفيدة، وذلك لأن هذه الوثيقة تُقَدم تسجيلاً دائماً لتعليقات المستجيبين. وهذهِ التعليقات يُمكن أيضاً تحليلُها بمساعدة البرامج الكومبيوترية.

أوجه القصور

١- على الرغم من أن بإمكان الاستبيانات أن تغطِّي منطقةً واسعة وأن تصلُ إلى عينة كبيرة الحجم من المبحوثين، فلا يُوجد ضمانٌ لاستيفائها. فالاستبيانات المُرْسلة بالبريد لا تحظى إلا بُمعدَّل إجابة مُنخفض.

٢- لا تستطيع أن تتأكد –على الدوام– من أن الإجابات تتسم بالثبات أو الصدق. شاهد ذلك، أن الاستيفاء الجَمَاعي للاستبيانات، والذي لا يُشْرِف عليه الباحث،

قد يعني أن نوعاً ما من "تأثير الجماعة" يُحدثُ أثره، بمعنى أن الأفراد يملأون الاستبيانات معا و يُعبرون جميعاً عن نفس الآراء. وقد يفضي استيفاء الإستبيانات تحت إشراف الباحث إلى نوعٍ من "تأثير الرغبة في إرضاء الباحث". بمعنى أن الأفراد يُقدّمون الإجابات التي يظنون أنه ينبغي عليهم أن يقدموها لأنهم يريدون إرضاء الباحث أو لأنهم يشعرون بضغطٍ واقعٍ عليهم بسبب حضور الباحث بينهم.

٣- ويميل المناهضون للوضعية إلى الزعم بأن أي شَكل من أشكال الاستبيان، وبُمقتَضَى طبيعته الذاتية، يتضمن إرغام إجابات الأفراد على الدخول في فئات سَبَقَ تحديدها، وهو الأمر الذي يَنفي عن هذه الإجابات صفةَ الصدق. فإن كان من اللازم أن تُستَعمَل الاستبيانات بأية حال، فإن المناهضين للوضعية قد يؤيدون استيفاءها وجهاً لوجهٍ، بمعنى أن يتمَّ ذلك عَبر المقابلات المقننة، إلا أنه في هذا السياق يُصبح استعمال مصطلح "الاستبيان" استعمالاً مُلتبساً وخادعاً إلى حد ما.

طُرق البحث غير التجريبية: الطرق الكيفية

المقابلات

يَصِف مُصطلح "المقابلة" عملية بحثية بواسطتها يتحاور الباحث والمشارك، وعادةً ما يكون ذلك وجها لوجه، وإن كان يَحْدُثُ ذلك أحياناً عبر الهاتف، كما يحدث باضطراد أكبر. وبفضل مظاهر التقدم التكنولوجي أصبح ذلك الحوار يتم كذلك عَبر الفيديو ووصلات القمر الصناعي.

تتيح المقابلاتُ للباحثين جمع البيانات الكيفية التي تتسم بارتفاع درجة صدقها وانخفاض درجة ثباتها. ونظراً لما تتصف به المقابلات من استهلاك للوقت فمن الملائم، وفي حالة ما إذا استُعملت طريقة من طرق المعاينة أصلا، من الملائم أن تكون العَينة صغيرة نسبيا بالمقارنة بالعدد الذي تغطيه الاستبيانات والمسوح الاجتماعية. لهذا السبب لا نستطيع أن نسلِّم بأن المقابلات سوف تكون مُمثلة بدرجة مرتفعة، كما ينبغي علينا أن نكون حذرين عند محاولة صياغة التعميمات. فالمقابلات تُعتبر طريقة بحث على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغرى (المايكرو)، كما أنها مُفضّلة لدى مناهضي الوضعية الذين يرغبون في جمع المعلومات المُعمّقة التي تعكس التفرُد والخصوصية التي تتصف بها رؤى المبحوثين الذين تتم مُقابلتهم.

وقد ذهب الباحثون النسويون، مثل آن أوكلي Ann Oakley (١٩٨١). وهيلين روبرتس Helen Roberts (١٩٩١)، إلى أنه ينبغي أن يوجَدَ منحى فكري نُسَويٌّ في إجراء المقابلات يختلف عن النموذج الفكري الذكوري الذي تُقدمه الكتب الدراسية التقليدية الخاصة بطرق البحث. فتذهب أوكلي إلى أن مفهوم إجراء المقابلة الذي يدعو إلى "الموضوعية"، و"الحيادية" وانفصال الباحث عن المبحوث، هو اتجاه مبني على أساس ثقافيّ وضعي لا يعبر عن الصورة الحقيقية التي ينبغي

أن تكون قيد الفحص والاختبار. والواقع أن بعض مجالات الحياة الاجتماعية التي تكون حساسة للغاية لدرجة يتعذر معها بحثها، كمجال العنف بين أفراد الأسرة وولادة الأطفال، والعمل المنزلي والأدوار التي يقوم بها الزوجان؛ فهذه المجالات لا يمكن تناولها ومعالجتها انطلاقاً من المنظور الفكري التقليدي. وقد وجدت أوكلي أنه كثيراً ما كان مبحوثوها يرغبون في طرح الأسئلة كما كانوا يرغبون في الإجابة عليها، وهكذا تبنَّتْ أوكلي نوعاً من الاستجابة المفتوحة والصريحة، كما أن علاقات التشارك التعاونية قد ظهرت وتبلورت نتيجةً لذلك. وكانت أوكلي تشعر أنه بتأكُدها من أنها لم تستغلَّ النساء اللاتي كانت تُقابلُهنَّ، فإنَّ بحثها يكون أكثر صحةً والتزاماً بالأخلاقيات، ورعاية للمشاعر. وقد قالت معظم مبحوثاتها أنهن قد تأثرن لكونهن أُجريت معهن المقابلات بطريقة إيجابية أساساً، مما مكنهن من التأمل في خبراتهن والتعمق فيها.

تمرين ٧-٨	
تحليل تقييم	اكتب قائمة بالآراء المؤيدة والمعارضة لوجهة النظر التي قدمتها أُوكلي. حاول استعمال المصطلحات المستخدمة في مناهج البحث مثل: "التمثيل" (تمثيل العينة للمجتمع المدروس)، و"الصدق" و"الثبات" و"الأخلاقيات"، و"الموضوعية"، و"الحيادية" وما أشبه ذلك، لتُبين ما إذا كان رأيك يتفق أو يتعارض مع وجهة النظر النسوية هذه أمْ لا.

إن بالإمكان أن تتفاوت المقابلات في درجة تقنينها. مثال ذلك، أن المقابلات المُقَننة (والتي تُعرَف أحيانا بالمقابلات "الرسمية") تتضمن مجموعة من الأسئلة المصمَّمة من قبلُ. وهذه الطرق تجعلُ عملية المقابلة أكثر اقتصاداً في استهلاك الوقت، كما يمكنها زيادة مستوى ثبات البيانات بفرضها القيود على مدى الاختلاف

في الإجابات على الأسئلة. ويُعدُّ تكرار المقابلات المُقنَّنة أمراً يسيراً نسبياً. يُضافُ إلى ذلك،أن بالإمكان الانتفاع بفريق من الباحثين الذي يُجرون المقابلات بغرض جمع البيانات، وذلك لأن بالإمكان أن يتّبع مجموعةٌ من الأفراد جدولاً دقيقاً سبق الاتفاق عليه من قبلُ. فهذا الإجراء يزيد درجة تقنين عملية جمع البيانات (انظر الفصل السادس من هذا الكتاب).

ويكون هذا التصميم مفيداً – بصفةٍ خاصة – إذا كان الباحثون القائمون بمقابلة المبحوثين ذوي خبرة محدودة بإجراء المقابلات. ومع ذلك، فإن هذا التصميم يتطلّب فعلاً من الباحثين أن يكونوا على معرفةٍ جيدة بموضوع البحث/ أو قضيته. يُضاف إلى ذلك أنه لا تُوجد في حالة استعمال هذا التصميم إلا فرصة ضئيلة لسَبر أغوار القضايا التي لا ينشغل بها الباحث أو التي لا علم له بها، أو لتوضيحها واستكشاف معالمها.

وغالباً ما يفضل الباحثون المقابلات شبه المقننة نظراً لأن تصميمها أقل تشدداً. وعادة ما يتم وضع كشف بالمجالات أو الموضوعات التي سيتم بحثها مُسبقاً، إلا أن هذا الكشف لا يمثل سوى دليل يسترشد به الباحث المكلف بإجراء المقابلات وليس جدولاً دقيقا. وتتطلب المقابلات شبه المُقننة مزيداً من المهارة لأنها غالبا ما تُجرى بأسلوب المحاورة، فإنْ رغب الباحثون الذين يُجرُون المقابلات أن يُضفوا على المقابلة جوا "طبيعياً" فلا بد أن يكونوا قادرين على تكييف أسلوبهم في إلقاء الأسئلة استجابةً للتعليقات التي يُبديها المبحوثون الذين تتم مقابلتهم. وتميل المقابلات شبه المقننة إلى إنتاج بيانات أكثر صدقاً من بيانات المقابلات المقننة لأنها تتيح مجالا أوسع للتأمُّل، وسَبر الأغوار، وإيضاح ما يغمُضُ فَهْمُه. ومع ذلك، فإنه لا تزال توجد فُرصةٌ ضئيلة لاحتمال ألا تستوعب العناوين أو رؤوس الموضوعات – المُعدَّة من قبلُ – جميع الاحتمالات أو جميع القضايا المهمة. كما

أنه من الصعوبة البالغة تكرار المقابلات شبه المُقننة لأنه قد لا يوجد تسجيلٌ للأسئلة المحفِزة المهمة التي تؤدي إلى أن يستجيب المبحوثون الذين تتم مقابلتهم ويفتحوا قلوبهم للباحث الذي يُجرى معهم المقابلة.

وتتطلب المقابلات غير المُقنَّنة (وتُعرف أحياناً بالمقابلات "غير الرسمية") قدراً عظيماً من المهارة. فالباحث الذي يُجرى المقابلة لا يَعتمد على عَناوين لقضايا سبق تحديدها من قبل، بل يقتصر في عمله على مُنطلق رحب واسع النطاق، كما يحاول أن يجمع أصدق ما يكون ممكناً من البيانات. وقد يُقدم هذا المنحى أعظم رؤية ثاقبة تصل إلى إدراك تفرد الميول والسلوكيات الإنسانية، إلا أنه قد يتطلب لذلك وقتا طويلا للغاية، كما يكاد يكون من المُحال تكراره. ومع أن مناهضي الوضعَية يميلون إلى اعتبار مثل هذا المنحى مَنحىً مرغوبا فيه، فإن من المرجَّح أن العوامل والظروف العملية سوف تتدخل بالتأكيد (انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب)، ولذلك تُعَدُّ المقابلات غير المقننة أقل شيوعاً من حيث الاستعمال في البحث السوسيولوجي مقارنة ببديلاتها الأكثر تنظيما و إحكاما (وهي المقابلات المقنّنة وشبه المُقنَنَة).

وبرغم كل ذلك تظل المقابلة طريقة بحثٍ مهمة عند علماء الاجتماع. ويُسلِّطُ دنسكومب Denscombe (١٩٩١) الضوء على استعمالها في دراسة أنماط العمل لبعض الوقت وأنماط العمل المرنة. فقد شرعت دراسة ضخمة أُجريت لصالح "مجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية"، وكان عنوانها "التغير الاجتماعي والحياة الاقتصادية"؛ شَرعَتْ هذه الدراسة في اختبار النبوءة العلمية التي كانت تقول إن سنوات الثمانينيات من القرن العشرين سوف تشهد نُمواً هائلاً فيما يسمى القطاع "الهامشي" للقوة العاملة: وهُم العمال المؤقتون والذين يعملون لبعض الوقت، والعمال غير المنتظمين، والأفراد الذين يعملون بعقود قصيرة الأجل، والأفراد

الذين يعملون من خلال وكالات التشغيل. وتضمنت هذه الدراسة مقابلات مع ستة آلاف مفردة في ستة مواقع متباينة هي: أبردين، وكيركالدي، وروتشديل، وكوفنتري، ونورثامبتون، وسويندون. وقد جَمعت بين مُسُوح اجتماعية لأصحاب الأعمال، والأفراد، والعائلات، وبين سلسلة من دراسات الحالة المكثفة، كما غطُت مجموعة كبيرة من القضايا. وقد اتضح أنه على الرغم من أن أنماط العمل قد تغيرت، فإن نسبة العمال الذين يمكن اعتبارهم حقاً عُمَّالاً "هامشيين" في نهاية ذلك العقد لم تزد عن ٣%. وعلى الرغم من أن عدد العمال المؤقتين أو الذين يعملون بعض الوقت قد زاد، وبعيداً عن كونهم واقعين على هوامش القوة العاملة (من حيث التخصصات)، فإنهم قد أصبحوا جزءاً من التيار الرئيسي للعاملين، كما أصبحوا يتمتعون بدرجة معقولة من الاستمرار في التوظف.

الموضوع (D)
الدين والنوع في سبيل الدراسة الدقيقة للخبرات والاتجاهات لدى النساء المسلمات الاسيويات من الجيل الثاني في بريطانيا (أي النساء اللاتي وُلدن لآباءٍ وأمهات سبق أن هاجروا قبل ذلك إلى بريطانيا)؛ من أجل ذلك أجريتُ بحثاً في كوفنتري وبرادفورد. وقد تم إجراء ثلاثين مقابلة شبه مُقننة مع كلٍّ من الرجال والنساء في هاتين المنطقتين. وكانت أعمار جميع الإخباريين (١٥ رجلاً و ١٥ امرأة) تتراوح بين ١٨ سنة و ٣٠ سنة. وقد تَمَّ اختيار الإخباريين لمحاولة الحصول على قطاع مستعرض كبير للأفراد من حيث السِّن، والنوع، والحالة الزواجية، والتعليم، والمهنة. وقد ظَفِرتُ بالإخباريين من مراكز الشباب، والمراكز الاجتماعية للمسلمين، ومن العلاقات والصلات التي كونتها داخل هذين النوعين من المراكز.

(المصدر: شارلوت بتلر Charlott Butler، "الدين والنوع – الشابات المسلمات في بريطانيا"، مجلة Sociology Review ٤ (٣)، ١٩٩٥).

	تمرين ٧-٩
	سيُمكنك هذا التمرين من التعرف على أحد الأمثلة على استعمال المقابلات في البحث السوسيولوجي. اقرأ الموضوع (D) ثم أجب على الأسئلة التالية:
معرفة فهم تفسير تطبيق	١- إذا أدخلنا في الحُسبان أن البحث الوارد في الموضوع (D)، كان يهدف إلى التعرف على خبرات واتجاهات الشابات المسلمات، فلماذا اختير ٥٠% من العينة رجالاً؟
تفسير تطبيق	٢- لماذا كان النطاق العُمري للعينة متناسباً مع معيار البحث الخاص "بالجيل الثاني"؟
تقييم	٣- إلى أيّ مدىً تكون المقابلات شبه المُقننة مفيدة في مثل هذا البحث؟
تحليل تقييم	٤- عند اختيار المشاركين في البحث، لماذا حاولَتْ الباحثة بتلر "أن تَظْفَر بقطاعٍ مستعرض كبير من الأفراد"؟
تقييم	٥- إلى أي مدىً قد تكون الطريقة التي بها تحصلت بتلر على عينتها قد أثَّرتْ على ما يتصف بهِ البحث من تمثيل للمجتمع الذي تدرسه.

تُوضِّح الأمثلة المذكورة آنفا قيمة المقابلات في البحث السوسيولوجي وتكشف الغطاء عن بُزُوغ اتجاهٍ مثيرٍ للاهتمام، وأعني به استخدام المقابلات مُقترنةً مع غيرها من طُرق البحث، كالاستبيانات مثلاً. فهي إنْ لم تُستخدَم بوصفها طريقةَ البحثِ الرئيسية أو بوصفها وسيلةَ جمع البيانات، فمن الشائع تماماً أن تُستخدم كطريقةِ بحثٍ مُساعدة بقصد أن تعادل ما تتسمُ به الاستبيانات من درجة صدق مُنخفضة. وبالمثل، فإن بالإمكان استخدام الاستبيانات لتعادل ما تتصف به المقابلات من انخفاض درجة الثبات، وللقيام بتقدير مدى ما تتصف به البيانات التي جمعت من المقابلات من تمثيل لمجتمع البحث. وعندما تُستخدم طريقتان أو أكثر من طُرق البحث كاستراتيجية يُتمم بعضها بعضاً، فإن ذلك يُطلق عليه مصطلح "تعددية طرق البحث" أو التعددية المنهجية، أو "استعمال أكثر من طريقةِ بحثٍ"، وسوف يتم تناول هذا الاتجاه في الفصل التاسع من هذا الكتاب.

تصميم المقابلات وتنفيذها

كما هو الحال مع الاستبيانات، فإنه يغلب على مَنْ ليسوا على درايةٍ بطرق البحث أن يعتقدوا -خطأ- أن المقابلات طريقة سهلة نسبياً في جمع البيانات، وأنها لا تحتاج إلا لقليلٍ من الإعداد نظراً لأن من السهل الحصول على البيانات (فالمبحوث سوف تتم مقابلته متوفر وجاهز). وقد عرَفنا حالاً أن هذا الاعتقاد غير صحيح. فالباحثون الذين يُجرُون المقابلات بكفاءة يحتاجون إلى قدرٍ عظيمٍ من المعرفة بموضوع البحث وإلى بُعد نظرٍ في اختيار الأسئلة الملائمة، وإلى خبرة كبيرة في إدارة المقابلات؛ يحتاجون كل ذلك لكي يضمنوا الحصول على أقصى استفادة من الوقت الذي يقضونه في المقابلات.

جاء فيما كتبه دينيسون Dennison وكيرك Kirk (١٩٩٠)، قولهما: "إن مُعظم ما نتعلمُه يأتي من العمل الميداني والممارسة".ويترتب على ذلك منطقيا أنه

سيكون من الأسهل عليك تقدير الصعوبات التي تكتنف المقابلات إذا كنت قد حاولت – قبل ذلك – أن تُصممَ مقابلةً وأن تنفذها. وتتطلب منك التمرين ٧–١٠ أن تقوم بهذا العمل، كما أنه من المفروض أن يؤدّي ذلك إلى زيادة فهمك لمبادئ تقنية المقابلة ولما فيها من مزالق يجب الحذر منها.

تحليل – تقييم	تمرين ٧–١٠
هذا التمرين مصمَّم لتوضيح بعض الاعتبارات العملية التي يتضمنُها تصميم المقابلات وتنفيذها. وسوف يتيح لك هذا التمرين الفرصة لعقد المقارنة بين المزايا النسبية للمقابلات المقننة وشبه المقننة، وللوصول إلى نوعٍ من التقدير للفرق بين إجراء المقابلات المتعلقة بالقضايا الواقعية الحياتية في مقابل القضايا "الحساسة".	
١– اختر موضوعاً واحدا من القائمة التالية.وسوف تلاحظ أن بعضها موضوعات ذاتَ طبيعة حياتية/ واقعية وأن بعضها موضوعات ذات طبيعة "حساسة". • المدرسة (التعليم) / العمل. • الأسرة. • الصداقات. • الآمال/ الطموحات. • المخاوف/ مصادر القلق. • الحسرات/ الإحباطات. • المعتقدات الخاصة/ القيم الأخلاقية الشخصية.	

٢- اقض ١٠ دقائق تُعِدُّ فيها معالم مقابلة مختصرة للتعرف على آراء مبحوث واحد في هذه القضية. ولكي تؤدي هذا العمل بنجاح سيَتوجّب عليك أن تُدخل فى حُسبانك قضايا تصميم المقابلات، لأن هذا الأمر سيؤثّر على ما تقوم به من عَمَل وعلى الطريقة التي تؤديه وفقاً لها. مثال ذلك، هل ستستعمل تصميما مقنناً (أي: رسمياً)؟ إن كان الأمر كذلك، فلماذا؟ وماذا ستكون الفوائد التي يتفوق بها على غيره من أساليب المقابلة؟ أم هل ستستعمل تصميما غير مُقنن (أي :غير رسميّ)؟ وإلى مدىً يمكن لهذا أن يُغير البيانات التي تتحصل عليها؟

٣- قم بإجراء مقابلة مختصرة مُدتها ٥ دقائق مع "أحد المتطوعين". لكي تجعل هذه العملية أكثر صدقاً حاول ألا تستعمل فيها صديقا مُقرباً لك.

٤- بعد ذلك اشرح لهذا المتطوع هذا الذي قمت به معه – بمعنى أن تُخبره بأن الهدف من هذه المقابلة كان رغبتك في اكتساب قدر من الخبرة في إدارة المقابلة، وأعد التأكيد لهذا الفرد الذي أجريت معه المقابلة أن جميع إجاباته ستحاط بأقصى درجات السرية. وهذا عُرفٌ محمود من حيث الاعتبارات الأخلاقية.(انظر القسم تحت عنوان: "الأخلاق" في الفصل التاسع من هذا الكتاب).

٥- قيِّم هذا التصميم وأجر هذه المقابلة وقدِّر مدى نوعية وكمّية البيانات التي تحصلت عليها. استعمل الأسئلة التالية لإرشادك:

التصميم

- هل أحسن التفكير في المقابلة والإعداد لها؟
- هل اتخذت الأسئلة تسلسُلاً منطقياً؟

- هل كانت اللغة واضحة؟
- هل أغفلت أيةُ أسئلةٍ مهمة؟

التنفيذ

- إلى أيِّ مدىً كُنتَ واثقا من نفسك ومطمئنا لدى إجرائك للمقابلة.
- ما درجة الأُلفة التي حققتها مع الشخص الذي أجريت معه المقابلة؟
- إلى أي مدى مَضَتِ المقابلة على نحو ما كنت تتوقَّع؟

البيانات المحصلة

- ما مدى رضائك عن كمية (أي مقدار) المعلومات التي حصلت عليها؟
- إلى أيِّ مدىً أنت راضٍ عن نوعية (أي:عُمق/ أو تفصيل) المعلومات التي حصلت عليها؟

تقييم المقابلة

نقاط القوة

١- تُعدُّ المقابلات مفيدة في تحصيل البيانات المتعمقة أو التفصيلية التي تكون ذات درجة صدق مرتفعة. ويرجع ذلك – في جانب منه – إلى أن هذه البيانات تُجمع عبر اللقاء الشخصي مع الفرد المبحوث، حيث يتيح ذلك تكون نوع من الألفة، مما يُمكِّنُ الباحث من الحصول على المعلومات التي لولا ذلك لظلت مجهولة.

٢- في بعض الحالات تكون المقابلات هي الطريقة الممكنة الوحيدة التي بها يستطيع الباحث أن يجمع البيانات. مثال ذلك، أن دوباش Dobash ودوباش (١٩٨٠) عندما أجريا دراستهما عن ضرب الزوجات كان من الواضح كل الوضوح أنه لا يليق أن يرسلا استبياناً إلى بيوت السيدات اللاتي يعتقد أنهن ضحايا سوء المعاملة.

٣- يُمكن استعمال المقابلات لدعم واستكمال الطرق التي تتصف بالطابع الكمي بدرجة أكبر – كالاستبيانات مثلا- وذلك لتعويض انخفاض درجة الصدق فيها. إذ أن من الشائع فعلاً بالنسبة لبيانات المقابلات أن تُجمع كجزء من المبادرات البحثية على مستوى الوحدات الصغرى (الميكرو) لتضيف إلى بيانات البحث بُعدا/ أو منظورا فكريا أرحب.

٤- ذهب النسويون، مثل آن أوكلي (١٩٨٠، ٢٠٠٥)، إلى أنه استعمل الباحثون تقنيات المقابلة بأسلوب يتسم بالتعاطف مع المستجيبين ولم ينتحلوا لأنفسهم مركز سُلطة يتعالون به على المستجيب فستكون المادة التي يخرجون بها حينئذ أكثر استيفاءً وثراءً وتفصيلاً. وفي بحثها عن ولادة الأطفال، والأمومة، والعمل المنزلي، حاولت أوكلي أن تُبدى نوعاً من الألفة مع مبحوثاتها اللاتي كانت تقابلهن، وكثيراً ما تصادقت معهن. فقد كانت أوكلي تريد أن تُحطم فكرة الباحث "الموضوعي المتحرر من القيم".

أوجه القصور

١ – تُعدُّ المقابلات مستنفدة للوقت بشكل بالغ، كما أنها باهظة التكاليف. ويتطلب تنفيذها مهارةً كبيرة، كما أنه بعد الفراغ من جمع البيانات قد يستغرق الأمر

شهوراً حتى يتم تحليلها. وحتى لو استعملت المسجلات الصوتية، فإن نَسْخ ما عليها من بيانات – بتفريغها على الورق- يمكن أن يستغرق زمناً طويلاً.

٢- بسبب ما تتطلبه المقابلات من قضاء وقتٍ طويل، يكون من الملائم توظيف فريقٍ من الباحثين، وهذا الأمر يجلب معه مشاكل من نوع خاص. وما لم يكن جدول المقابلة مُقننا تقنيناً جيداً جداً، فإنه يكون من العسير تحقيق درجةٍ عالية من المعيارية أو التوحيد القياسي. وبالعكس، فإنه إن يكُن جدول المقابلة مُقنناً تقنيناً عالياً فسوف تنخفض درجة صدق البيانات، لأن هذا التصميم ذا الترتيب المُسبق سيحدُّ من إمكانية تنوع الإجابات التي يدلي به الأفراد.

٣- إن من شأن الوضعيين أن يطعنوا في مدى مُلاءمة طريقة بحثٍ تدعو إلى الألفة/ أو التواصل الحميم مع الأفراد الذين يُشكلون عينة البحث. فهم يميلون إلى اعتبار هذا تهديداً بالخطر للطبيعة "الموضوعية" للبحث (انظر الفصل السادس من هذا الكتاب)، زاعمين أن الباحثين لا يمكنهم أن يأملوا أن يكونوا "متحررين من القيم" عند تحليلهم لنتائج بحثهم إن كانوا قد زيفوا (بسبب تلك الألفة) شكل العلاقات مع مبحوثيهم الذين يُجرون المقابلات معهم. ذلك أن نزعتهم الذاتية ستجعل تفسيرهم للنتائج موضعا للشك، خاصةً إذا ما أظهر الباحثون الذين يُجرون المقابلات أشكالاً من التعاطف مع مبحوثيهم. وهذا الأمر قد يرجح احتمال حدوثه عندما تشتمل المقابلات على خبرات "مشتركة" بين الباحث والمبحوث، من ذلك، ما يحدث عندما يكشف المبحوث عن معلومات لم يَبُحْ بها لأحد قبل ذلك – كعرضه للإيذاء (النفسى أو البدني)، أو الشقاق بين الزوجين، أو الخيانة، وما أشبه ذلك.

الملاحظة

تُشير الملاحظة – في أوسع معانيها – إلى فعل المشاهدة/ أو الرصد الحسّي للأحداث، وإن كانت عند استعمالها في علم الاجتماع تتضمن –عموما– البعد الإضافي لتسجيل ما يشاهده الباحث. وقد يكون هذا التسجيل منظماً منهجيا، حيث يتضمن استخدام شكل معين من أشكال العمليات الكمية، مثل كشف التكويد الذي سبق تقنينه. ومع ذلك، فإنه من الشائع أن يوثق الباحثون بياناتهم بطريقةٍ كيفية، كأن تكون في صورة ملاحظات أو مذكرات يدونونها في سجل بحثي أو نوتة يوميات.

وقد تجري المقابلة في بيئة المعمل كجُزءٍ من مرحلة جمع البيانات في إحدى التجارب. ومع ذلك، فإنها أشيعُ استعمالا كتقنية لدراسة السلوك البشري والأحداث البشرية حال وقوعها بصورة معتادة في بيئةٍ طبيعيةٍ ما. لهذا السبب تُعتبر هذه التقنية مرتفعةً في درجة صدقها، وذلك لأن الوصول إلى البيانات الكيفية يمكنه توفير صورة معمقة للموقف قيد الدراسة.

يتوافر للباحث كثير من التقنيات الخاصة بالملاحظة. ونقدم هنا مناقشة للتمييز بين طريقة الملاحظة الظاهرة (المكشوفة)، وطريقة الملاحظة المستترة (المغطاة) وطريقة الملاحظة المشاركة (المباشرة)، وطريقة الملاحظة غير المشتركة (غير المباشرة). ومن الممكن إدراج أي توليفة من هذه التقنيات معاً، وذلك اعتماداً على هدف البحث. مثال ذلك، أنه إن قرر الباحث أن يلاحظ جماعة من داخلها، بمعنى أن يشارك فيما يجري فيها من أمور، فإنّ بإمكانه أن يكون صريحاً في هذا الشأن ويسأل هذه الجماعة، عما إذا كانت تقلق إذا وضعت تحت الدراسة (وهي حالة الملاحظة الظاهرة)، كما أن بإمكان الباحث أن يحتفظ بهدفه سراً (وهي حالة الملاحظة المستترة). وبالمثل، فإن الباحثين يمكنهم أن يلاحظوا بدون أن يشاركوا ويقرروا أن يُخفوا هويتهم أو لا يُخفوها.

لكل نوع من أنواع الملاحظة مزاياه النسبية. وربّما كانت أكبر علامة استفهام هي التي توضع أمام المأزق الأخلاقي الذي تتضمنه الملاحظة المستترة. فعلماء الاجتماع لديهم مسئولية أخلاقية بأن يتقيدوا ويلتزموا بضوابط معينة عند إجرائهم لبحوثهم (انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب)، وهذه المسئولية تجعل إخفاق الباحثين في الحصول على موافقة المبحوثين محلّ رفض أخلاقيّ. فإن لم يتم الحصول على موافقة المبحوثين، فقد ينتهك البحث السوسيولوجي تلك الضوابط الأخلاقية بتعديه على حُرمة الخصوصية وعلى حق المبحوثين في التراجع والانسحاب إنْ علموا بأنهم محلّ دراسة.

ولابد من موازنة أمثال تلك الصعوبات بأوجه القصور الموجودة في الملاحظة الظاهرة. فإذا كشف الباحث عن هويته الحقيقية، فقد يُغير ذلك مسار الأحداث محلّ الدراسة (انظر كالفي Calvey،٢٠٠٠). وقد يقوم "تأثير الرغبة في إرضاء الباحث" بإحداث أثره، والذي بمقتضاه يتصرف المشاركون بطرقٍ معينة لإرضاء ذلك الباحث. وبدلاً من ذلك، قد تظهر "خصائص الطلب"، والتي بمقتضاها يقوم الباحث لا شعورياً بتوصيل توقعاته عن السلوك إلى الجماعة محل الدراسة، والتي تقوم حينئذٍ بدمج هذه التوقعات في ذاتها – بصورة مقصودة أو غير مقصودة – وتتصرف وفقاً لها. فإذا أدّى حضور الباحث إلى تغيير المسار الطبيعي للأحداث أو السلوك، فإن هذا يهدم بوضوح صدق البحث. فهذه الملاحظة في هذه الحالة لا تقدم صورةً للحقيقة، وإنما تقدم صورة مختلفة مشوهة للواقع.

قدم همفريز Humpherys مثل هذا التبرير (١٩٧٠) في كتابه بعنوان "لقاءات تناول الشاي"، وهي الدراسة التي أثارت قدراً كبيراً من الخلافات عن الجنسية المثلية في المراحيض العامة للرجال في الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة من ستينيات القرن العشرين. وقد استخدم همفريز في دراسته طريقة

الملاحظة المشاركة (حيث قام بدور المراقب أو "الراصد" (أو:الناضورجي)) لأنه كان يَزعُم أن ذلك "يُستبعد معه أن تُشوِّه صورة العالم الواقعي... إذ لا يوجد إلا طريقة واحدة لتراقب سلوكاً مرفوضا أو مُخزياً جداً وهي أن تتظاهر بأنك في نفس القارب مثل هؤلاء الذين يمارسونه. كما يصر همفريز على أنه ليس بإمكانه الحصول على صورة صحيحة للأحداث إذا كشف عن هويته. "فإلى أيّ مدىً يمكن لهذا المسح أن يكون "طبيعيا" أو مطابقاً للمعايير"؟ وكيف أمكن للباحث أن يفصل هذا المظهر وهذا المستور عن الإجراءات المعيارية للمقابلة؟

ومن ثم فإنه بينما تُوحي الضوابط الأخلاقية بأنه من الخطأ الذي يتنافى مع المعايير أن يتعمد الباحث خداع الأفراد الذين يُجري بحثه عليهم؛ نجد همفريز يدافع عن سلوكه في إجرائه لبحثه. فهو يذهب إلى أن الهدف الأساسي الذي ينبغي على الباحث العلمي أن يستهدفه هو أن "يحمي مبحوثيه من التعرض للأذى"، كما يرى أنه نظراً لما بذله من مجهود ليتصرف وفق ذلك ولكي يحمي هوية المبحوثين، فإن بحثه يُعتبر مقبولاً أخلاقياً. ومن الأمور المثيرة للاهتمام رغم ذلك، أنه يلفت الانتباه إلى الغموض والالتباس الذي يُحيط بلفظ "الحماية"، وذلك بقوله: "إننا، مع ذلك، لا نحمي جماعة من المنحرفين الذين يتعرضون للمضايقات، عن طريق رفضنا لبحث أحوالهم" (نفس المرجع السابق). وهذا بدوره يثير قضية عامة لها أهميتها تدور حول الطبيعة التحكمية أو النسبية لتعريف ما هو "أخلاقي".

وحتى عندما يكون الباحثون صُرحاء فيما يتصل بهدفهم من البحث، فإن اختيارهم للملاحظة المشاركة أو الملاحظة غير المشاركة أمرٌ لا يخلو من المشاكل. شاهد ذلك، أن مُجرد حضور الباحث سيُغير -حتماً- طبيعة تفاعل الجماعة. تخيل أنك تُدردش مع الأصدقاء وأن شخصاً آخر انضم إلى الجماعة، فلابُد أن تتغير ديناميات الجماعة. والآن تخيّل أن ذاك الشخص يسألك ما إذا كان يستطيع أن ينضم إليكم لكي يقوم ببعض الملاحظات. وتخيل ما هو أكثر من ذلك،

وهو أنه يُقرر أن هذه الملاحظة ستُجرى على إثنوجرافيا الجماعات غير الرسمية، وأن اهتمامه الخاص أن يقوم بدورٍ في الحوار الدائر بين أفراد هذه الجماعة.

مع كل كلمة يُصرِّح بها أحدهم تتغير ديناميات الجماعة تغيراً يتناسب معها. فالسماح لإمرئٍ بأن ينضم لجماعتك شيء، والسماح له بأن يُلاحظك شيء آخر. فإن هذا يجعل من هذا الموقف مصطنعا إلى حدٍّ ما (فالناس غير معتادين على أن ينضم إليهم فرد بغرض أن "يتجسس" عليهم!). وإن معرفتك بأن هدف الباحث هو الدراسة المنهجية لكم بوصفكم جماعة "غير رسمية" من شأنه أن يزيد من اصطناعية الموقف بدرجة أكبر لأن حُكماً تقييمياً قد أصبح ينطبق عليكم، بمعنى أنكم يُنظر إليكم وتصنفون وتُسمون باعتباركم "جماعةً غير رسمية"، ومن ثمَّ فإن وعيكم الذاتي بأنفسكم سوف يزداد. وقد كشف بعض الباحثين، – من أشهرهُم وايت Whyte(١٩٩١) وباتريك Patrik (١٩٨١) – كشفا بصورةٍ جُزئية عن مقاصدهما "لقائدي" العصابة اللذين كفلا لهما بعض الحماية عندما بدأ غيرهما من أعضاء العصابتين يغالون في الفُضول وكثرة الأسئلة. إذ كان "دوك" "Doc" في دراسة وايت وتيم "Tim" في دراسة باتريك؛ كانا في بعض الأحيانِ شخصيتين محوريتين في الحفاظ على "غطاء" (بمعنى الحماية) لهذين الباحثين على التوالي، كما أنهما – بهذا الشكل – مكَّنا الباحثين من تحقيق عمق في المعرفة لم يَكُن ممكناً تحقيقه لولا هذه الحماية. وأخيراً، فإن من شأن معرفة الباحث بالمجال المُحدد للدراسة أن يزيد من المغالاة في وعي الجماعة الذاتي بنفسها. ولن يظل قيام الباحث بدوره في الحوار مجرد ردَّ فعلٍ تلقائي، بل سيكون بمثابة استجابة منضبطة ومحكومة. إذ أنكم سوف تكونون جميعاً واعين وعياً ذاتياً بأنفسكم، كما أن من الأرجح أن يكون أيُّ تفاعلٍ تتم ملاحظته محصلةً "لخصائص الطلب" أكثر من كونه تبادلاً طبيعياً (فطرياً) أو تبادلاً محكوماً بالظروف الاجتماعية (أي:تبادلاً مُكتَسباً بالتعلُّم).

يكشف المثال السابق ذكره عن الدلالات المنهجية والأخلاقية التي تنطوي عليها عملية اختيار طريقةٍ من طرق الملاحظة من حيث نوعية البيانات التي يتم جمعها والتأثير الواقع على المشاركين. ومن العوامل المهمة الأخرى: التأثير الذي يُحدثُهُ اختيار طريقة البحث على الباحث. إذ أن أي دراسة قائمة على الملاحظة لابد أن تؤدي إلى الاندماج الشخصي للباحث مع الجماعة التي يدرسها. وبإمكان ذلك الوضع أن يكون نافعاً، كما يمكن أن يكون ضاراً. فمن الناحية الإيجابية، ستتوافر للباحث الفرصة لتطوير ذلك التعاطف الوجداني الذي يرغبُ فيه مناهضو الوضعية بشدة. فالاندماج الشخصي يُمكِن أن يكون له عائد مُجز بدرجةٍ هائلة. شاهد ذلك أن إيلين باركر Eleen Barker (١٩٨٤)، عند روايتها لخبرتها في الملاحظة المشاركة التي تبنتها في دراسة لجماعة المونيز Moonies (وهم إحدى الجماعات الدينية)، قالت: "كنتُ – في العادة – أجد وقتي الذي أقضيه مع أبناء هذه الطائفة الدينية مُمتعا، وقد أصبحتُ – بالتدريج – شغوفةً بعددٍ من أفراد المونيز". وعلى الجانب السلبي، فإن هذا الاندماج الشخصي يمكن أن يعرض الباحث لبعض مواطن الخطر. شاهدُ ذلك، أن جيمس باتريك (١٩٨١)، في دراسته الممتازة بعنوان "ملاحظة عصابات جلاسجو" يصف الصعوبة التي انطوت عليها دراسته – من الداخل – لجماعة من جماعات العُنف في مجتمع مُتفجِّر:

"لقد تعمدتُ أن أترك بعض السنوات تمضي بين فراغي من هذا البحث الميداني ونشره. وكانت الأسباب الرئيسية لهذا التأخير هي اهتمامي بالحفاظ على نفسي، ورغبتي في حماية أعضاء هذه العصابة، وخوفي من تفاقم موقف هذه العصابة من جلاسجو التي كانت تَحظَى باهتمام في شتى أنحاء البلاد خلال عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩. كما أن الاعتبارات المتعلقة بأمني الشخصي فرضت عليَّ استعمال اسم مستعار".

مع أخذ ذلك الخلاف الذي يُدور حول الملاحظة كتقنية في الاعتبار، يلفت الاهتمام أنها لا تزال شائعة الاستعمال في علم الاجتماع على نطاق واسع. وعلى الرغم من التكلفة والوقت الكبيرين اللذين يقتضيهما تحصيل البيانات عن طريق الملاحظة، فإن الباحثين يعترفون بكفاءتها في كشف الغطاء عن المعلومات التي لا يمكن الظفر بها باستعمال طريقة بحثٍ أخرى. وقد استعمل "سيم" Sim (١٩٩٤) الملاحظة في دراسته لأحوال "الأميش" The Amish، وهم جماعة محلية دينية متميزة (وهم الخلف المباشرين لطائفة الأنابابتست[*] السويسرية) يعيشون في الأراضي المُنبسطة في أواسط الولايات المتحدة ويتميزون بإصرارهم على التمسك بالعُرف ومقاومة التغير. وقد كان "سيم" مهتماً بالذات باستقصاء الحقيقة وراء أسطورة انعزال الأميش، أي الحقيقة وراء الصورة الذهنية الثابتة التي مفادها: "أن الأميش يعدون- في كلٍ من التصور الأكاديمي والتصور الشعبي - جماعة لها هدف محوري هو الحفاظ على هُويتهم المتفردة وذلك عن طَريق الحفاظ على تباعدهم عن المجتمع وما يسوده من اتجاهات".

ويقوم البحث الذي أجراه ويليامز Williams وزملاؤه (١٩٨٤) عن العُنف المرتبط بكرة القدم بتسليط الضوء على مشكلة اكتساب القبول داخل جماعةٍ ما، وكيف أن "التسكع" مع هذه الجماعة كان جُزءاً من الملاحظة. وكما كان باتريك، كان ويليامز كذلك واعياً بأن الضغط الذي يتعرض له - للمشاركة في أعمال الشغب، وفي الجرائم الكبيرة التي تحدث في الشوارع - كان ضغطاً ثقيل الوطأة. إلا أنه استطاع أيضاً أن يُسوّيَ موقفه كباحث بالوصول إلى حلٌ وسط بشأنه.

(*) الأنابابتست Anabaptist طائفة بروتستانتية تدعو للعودة إلى الأصول الدينية الأولى للنصرانية، واللفظ معناه الحرفي "العودة للمعمودية". (المترجم).

(E)الموضوع
بحث مجتمع الآميش في بحثي الذي أجريته في شمال شرق ولاية "أوهايو"، وهي المنطقة التي بها أكبر جماعة سكانية من الآميش في الولايات المتحدة، ظفرت بفرصة لملاحظة تفاعل الآميش مع المجتمع الأوسع من مصدرها الأصلي مباشرة... في مدينة كيدرون، بمقطعة "وين"، يوجد محل "ليمانز" لتجارة الخردوات. وهو محلٌ كبير لتجارة الخردوات ظل يخدم الأميش لمدة عقود. وهو يتاجر في السلع التي يحتاجها أسلوب معيشة مجتمع الأميش، من قبيل الأفران التي توقد بالخشب، ومصابيح الكيروسين، والعصارات التي تُدار باليد والعديد من الأدوات التي لم تعُدْ شائعة الاستعمال خارج مجتمع الأميش. ويتردد أعضاء هذا المجتمع على هذا المحل بانتظامٍ إلى حدٍ ما، خاصة في الأيام التي تُجرى فيها المزادات العلنية في مدينة كيدرون. ومع ذلك، فإن مَحَل "ليمانز" ليس مجرد محل لبيع الخردوات للأميش ولغير الأميش من السكان في مدينة كيدرون، إذ أنه يعد – إلى جانب ذلك– أحد المعالم التي تجذب السياح؛ فهذا المحل ينتج كُتيباته اللامعة بهدف تشجيع البيع للسياح، كما يسعى وراء ذلك إلى أن يتم إدراجه في دليل الزوار الذي تُصدره مقاطعة "وين".ويؤكد المحل في إعلانه هذا على طول خدمته للأميش وعلى أنهم لا يزالون يشترون منه.... ويُعتبر محل "ليمانز" متجراً سياحياً بمقدار ما هو متجر لبيع الخردوات. والآميش لا يزالون يتسوقون حاجاتهم منه فعلا. وربما لا يكون لديهم اختيار آخر، إلا أن للآميش الذين لاحظتهم كانوا لا يزالون على صلةٍ طيبة مع العاملين بالمحل. ويبدو كما لو كانوا غير سعداء بوضعهم كمزار سياحي، ولكنهم يحاولون – على الأقل – أن يتوصلوا إلى توافق مع هذا الوضع...

(المصدر: نقلا بتصرف عن آلان سيم "هل ترى "الشاهد؟ أسطورة عزلة الأميش"، مقال في مجلة: Sociology Review ٣(٣) ١٩٩٤).

تمرين ٧-١١	
تفسير تطبيق	اقرأ الموضوع (E) ثم أجب على الأسئلة التالية: ١- إذا أدخلنا في الحسبان السبب الذي دعا "سيم" للبحث (وهو استكشاف أسطورة عزلة الأميش) لماذا كان من المفيد الاعتماد الملاحظة كتقنية بحث؟
تقييم	٢- ما المزايا التي يتفوق بها استعمال الملاحظة في هذه الحالة على استعمال غيرها من طرق البحث؟
تقييم	٣- ما الفوائد التي يمكن تحصيلها من وراء استعمال الملاحظة المشاركة المستترة أداة لهذا البحث؟
تحليل تقييم	٤- لماذا كان اعتماد "سيم" على هذه الطريقة مصدراً لبعض الصعوبات التي واجهها؟
تقييم	٥- إلى أي مدى يمكن للوضعيين أن يهاجموا ما يتصف به بحث "سيم" من مستوى الثبات (المنهجي) ودرجة تمثيله لمجتمع البحث المدروس؟
تقييم	٦- كيف يمكنه أن يدافع عمّا في نتائج بحثه من فوائد وجوانب إيجابية؟

شأنها شأن المقابلات، تتطلب الملاحظات تحضيراً يتسم بالتروي والتدقيق. إذ يتوجب على الباحثين أن يُحددوا نوع طريقة الملاحظة التي سوف يتبنونها في بحثهم – هل هي ملاحظة ظاهرة أو مستترة، أو مشاركة، أو غير مشاركة – كما يتوجب عليهم أن يظفروا بمدخل (أو بمنفذ) يضعهم في قلب موقع البحث. فإن كانت طريقة البحث التي سوف يعتمدون عليها هي الملاحظة المستترة، فق يتوجب على الباحث أن يقضي شهوراً قبل أن يستطيع الفوز بالمدخل الذي يُوصله إلى هذه الجماعة وإلى اكتساب ثقتها.

لابد أن يَدْخُلَ الباحثون مجتمع البحث وهُم مُزوَّدون بأفكارٍ سبق اقتناعهم بها، وتتعلق بما سوف يلاحظونه، أو بفرض مُحددٍ يختبرونه. وبإمكان ذلك أن يجعل عملية الملاحظة اقتصادية بدرجة أكبر لأن الباحثين سوف يُقصرون اهتمامهم على المعلومات التي يهتمون بها تحديداً. ومع ذلك، فإن هذا قد يعني – أيضا – أنهم سيتجاهلون، أو تفوتُهم المعلومات التي تظهر بصورة طبيعية وقد تُضيفُ المزيد إلى مصداقية البيانات التي يَجري جمعها.

في بعض الأحيان يَدخُلُ الباحثون "الميدان" وليس لديهم أفكارٌ مُسبقة ويقتصرون على قضاء بعض الوقت يكتسبون فيه فهما وإحساسا بهذه الجماعة. وقد يقودهم ذلك إلى صياغة فرضٍ معين، أو الاقتصار على جَمع معلوماتٍ غير مقنَّنة توفر لهم بعض الرؤى الدقيقة ولكن لا يكون لها بؤرة اهتمامٍ مُحدَّدة. وقد يكون مثل ذلك التوجه مُفيداً لأنه يُقلل من احتمال أن تفوت الباحث معلوماتٌ تستحق الاهتمام.

ومن ناحية أخرى، قد يقتضي ذلك الاتجاه أن يكون هذا البحث أكثر استهلاكا للوقت بمراحل، وأقلَّ جدوى ومنفعة.(أي له أقصى عائد بأقل مجهود). ويرجع ذلك إلى أن الباحث يجمع البيانات بدون منطق أساسي يرتكز عليه، لذلك يكون من العسير جداً عليه أن يحكم متى تكون المعلومات التي جمعها كافية، ومتى ينسحب من موقع البحث. ذلك أن المعلومات غير المقننة، بصفة خاصة، تكون أعسر في تحليلها بالمقارنة بالمعلومات المُقننة.

ويقودنا هذا إلى قضية كيف تجمعُ البيانات. فقواعد البحث تقتضي أنه عندما يكون لَدَى الباحثين أفكار سبق لهم الاقتناع بها فيما يتصل بالموضوعات التي تقرر بحثها، فإنهم يصممون قائمة أو كشفاً بالأكواد لاستخدامها في الحصر العددي لما يلاحظونه.ورغم أن هذا الكشف يكون ملحقاً به – في العادة – شكلٌ ما من أشكال سجلات البحث أو المفكرات اليومية المخصصة لتسجيل المزيد من المعلومات الكيفية، إلا أنه يعني فعلاً أن هذه المعلومات المسجلَة في الكشف ذي الأكواد من السهل نسبيا تفسيرها وتحليلها، خاصة بالاستعانة بالكومبيوتر.

وإنْ صمم الباحثون فروضهم "أثناء وجودهم في الميدان" أو اقتصروا على تسجيل انطباعاتهم لما يلاحظونه بطريقة غير رسمية (أي تلقائية غير ملتزمة بضوابط معينة)، فمن الراجح أن هذه المعلومات سوف تكون ذات طبيعة كيفيةٍ إلى حدٍ بعيدٍ جداً. وسوف يجعَلُها ذلك ذات مستوى أعلى من الصدق ولكنه يجعلها عسيرةً على التفسير، وذلك لأن الباحثين سوف يُضطرون إلى الاعتماد على تحليل المضمون اليدوي أو تحليله بواسطة الكومبيوتر. وهاتان التقنيتان كلتاهما تستنفذ الوقت بشكل بالغ، أمَّا نتائجهما، وإن كانت صادقة، فإنها ليست بالضرورة نتائج تتسم بالثبات (المنهجي) أو بحسن تمثيل مجتمع البحث.

إن الطريقة المُثلى بالنسبة لك لكي تصل إلى تقديرٍ للمزايا والعيوب التي تتسم بها الملاحظة كتقنية بحثٍ هي أن تقوم بتصميم ملاحظة وتقوم بإجرائها، وذلك على النحو الوارد في التمرين ٧-١١.

تفسير – تطبيق تحليل – تقييم	تمرين ٧-١٢

اتجه عدد من الدراسات التي تناولت السلوك العدواني بين الأطفال في سن ما قبل المدرسة إلى بلورة بعض النتائج التي مَفَادُها أنَّ الأعمال العدوانية أكثر حدوثاً بين الصبيان مما هي عليه بين الفتيات الصغيرات (مثال ذلك دراسة باردويك Bardwick، ١٩٩٢، وماكوبي Maccoby وجاكلين Jacklin، ١٩٧٤). ويتم إجراء مثل هذه البحوث عادةً عبر الملاحظة المباشرة للعب الحُر الذي يمارسه الأطفال. ويُعد هذا البحث مشوقاً لأنه يُميز بين العدوان البدني والعدوان اللفظي، حيث يُبدي الصبيان قدراً أكبر من العدوان البدني وتُبدي الفتيات الصغيرات قدراً أكبر من العدوان اللفظي.

بإمكانك أن تختبر هذه الأفكار عن طريق إجراء دراسة بسيطة قائمة على الملاحظة في أحد ملاعب الأطفال أو إحدى حدائقهم، كما يلي:

١ – حدد ما نوع البيانات (أي: كميَّة أم كيفية) التي سوف تجمعُها وكيف ستسجلها (أي على كشفٍ مكوّد مُسبقا للبيانات أم في مفكرة. إن كنت تخطط لاستعمال كشفٍ للتسجيل، فلابُدَّ من أن تصممه قبل ذلك).

٢- أمضِ نحو ١٠ دقائق في موضعك المختار ولاحظ الأطفال وهم منهمكون في اللعب الحر (أي:اللعب غير المنظم أو المقنن). سجل أي فروقٍ في الأعمال العدوانية قائمة على أساس النوع الاجتماعي. (ملاحظة: سوف تحتاج للحصول على موافقة مسبقة من الوالدين أو المُعلِّمين على ملاحظة هؤلاء الأطفال).

٣- حلل بياناتك. إلى مدى تُقدم هذه البيانات صورة للنتائج التي انتهت إليها نتائج البحوث السابقة؟

٤- قيّم دراستك القائمة على الملاحظة:

(أ) إلى أيِّ مدىً كانت طريقة مُلاحظتك ناجحة؟

(ب) إلى أي مدى تُعد نتائجك مفيدة؟

(حـ) ما التعديلات التي من شأنك أن تقوم بإحداثها إن كُنتَ ستُجرِي بحثاً مماثلاً في المستقبل؟

تقييم الملاحظة

نقاط القوة

١- توفر الملاحظات رؤية تفصيلية مُعمّقة لأحداثٍ أو سلوكياتٍ تجري بصورةٍ طبيعية. لهذا السبب، يُفترض فيها أنها أرجح في تقديم بيانات تتسم بالصدق، حيث لا يوجد فيها إلا فرصة ضئيلة لتسلُّل التصنع أو الاصطناعية إليها.

٢- تمكننا الملاحظاتُ من الكشف عن المعاني الكامنة وراء الأفعال. لهذا السبب تُعد مُفضّلةً عند مناهضي الوضعية، والذين يذهبون إلى أنه ينبغي أن يكون الهدف الأساسي للبحث: رسم صورة للعالم في ضوء قِيم ومعايير الفاعلين الاجتماعيين.

٣- نظراً لأن البحث في حالة الملاحظة يكون ذا نطاقٍ صغير، فلا يستلزم في العادة إلا باحثاً واحداً فقط. وهذه النقطة لها أهميتها الخاصة إذا أدخلنا في الاعتبار المتطلبات الهائلة الموضوعة على عاتق الأفراد الذين يُجْرون مثل هذا البحث. ومن أمثلة ذلك، أن البحث الذي أجرته إيلين باركر (١٩٨٤) على طائفة المونيز Moonis ترتب عليه تقيدها بالتزامٍ شخصي دام ستة أعوام.

أوجه القصور

١- يميل مناهضو الوضعية إلى انتقاد الملاحظة لأنها تتصف بعدم الثبات (المنهجي) والقصور عن تمثيل مجتمع الدراسة. والبحث القائم على الملاحظة ذو نطاق صغير، وغالباً ما يفتقر إلى مراعاة الإطار الاجتماعي والتاريخي.

٢- من المُعتَرَف به أن مُجَرد وجود الباحثين يسلُب البحث مصداقيته بصرف النظر عما إذا كانوا "ظاهرين" أو "مستترين" فيما يتصل بهويتهم أو هدفهم.

٣- يؤدي اشتراك الباحث مع الجماعات من خلال الملاحظة؛ يؤدي لا مَحَالة إلى ادعاءات بشأن درجة الذاتية التي ينطوي عليها تفسير النتائج.

٤- يثير البحث القائم على الملاحظة بعض المسائل الأخلاقية والعملية. فقد ينطوي على انتهاكٍ للمبادئ التي وُضِعت لحماية المبحوثين الخاضعين للدراسة، كما قد يجعلِ الباحث عُرضةً لخطرٍ لا يُستهانُ بهِ من حيث الضرر البدني أو الإزعاج أو المشقة الشخصية.

معرفة – فهم تفسير – تطبيق	تمرين ٧-١٣

يتطلب منك هذا التمرين أن تراجع المادة التي يتناولها هذا الفصل للتأكُّد من أنك توصلت إلى فهم واضح للفروق بين تقنيات البحث الكمي وتقنيات البحث الكيفي. اُنسخ الجدول المرفق وأكمِلْ صورة أُخرى أكبر منه لتَخلص المزايا أو السمات النسبية التي تتصف بها طرق البحث غير التجريبية.

طرق البحث غير التجريبية – مُوجز المزايا والسمات النسبية لطرق البحث الكمية وطرق البحث الكيفية

التقنية	التعريف	الدراسة الأساسية	المزايا	العيوب
الطرق الكمية • المسوح الاجتماعية • الاستبيانات **الطرق الكيفية** • المقابلات • الملاحظات				

تقييم الطرق الكمية في مقابل الطرق الكيفية

محور الامتحان: كتابة مقال

باستعمال الجدول المذكور أعلاه والملاحظات المقدمة في نهاية الفصل الثاني من هذا الكتاب وكذلك الورادة فيما بَعدُ، أجب على السؤال التالي:

قارن، وأظهر نقاط التضاد، بين استعمال الطرق الكمية والطرق الكيفية في البحث السوسيولوجي (٢٥ درجة)

إن ما يلي سيساعدك في تقنين إجابتك.

المقدمة

إلى أي مدىً تختلف الطرق الكمية والطرق الكيفية عن بعضها؟ قدّم

تعريفاً أو وصفاً موجزاً لكلُ نوع من هذين النوعين من الطرق.

المادة الرئيسية للمقال

(أ) ما أكثر طرق البحث الكمية شيوعا في الاستخدام، قدّم أمثلة عن المشاريع البحثية/ الدراسات الرئيسية/ الشواهد المؤيدة.

(ب) ما أكثر طرق البحث الكيفية شيوعا في الاستخدام، قدّم أمثلة عن المشاريع البحثية/ الدراسات الرئيسية/ الشواهد المؤيدة.

التقييم/ النتيجة

(أ) تقدير صريح للمزايا والسمات النسبية لكل نمط من نمطي طُرق البحث، أي: نقاط القوة/ أوجُه القصور.

(ب) العناية بالتطورات المعاصرة، حيث نلاحظ في الوقت الحاضر أن الطرق التي يمكن اعتبارها طرقاً كميةً وكيفية في الآن معاً، صارت الآن أكثر شيوعاً، ما هو الأثر الذي قد يُحدثهُ ذلك على البحث السوسيولوجي في المستقبل؟

مفاهيم مهمة

• الطريقة العلمية • الطرق التجريبية/ وغير التجريبية • المقابلات

• الاستبيانات • الملاحظة • الأخلاقيات • منهج البحث النسوي

التفكير النقدي

• هل أدى الانتقاد النسوي لطرق البحث السوسيولوجية التقليدية إلى جعل البحث "العلمي" الكميّ أمرا زائداً عن الحاجة؟

- هل يمكن اعتبار البحوث والبيانات الكمية والبحوث والبيانات الكيفية مُتنافيتين تستبعد إحداهما الأخرى؟
- إلى أيّ مدى تعني الاعتبارات الأخلاقية بجانب أهمية الحصول على موافقة المستجيبين على إجراء البحث؛ إلى أي مدىً تعني هذه الأمور أن كثيراً من تقنيات البحث لم تعُد ملائمة؟

الفصل الثامن

الاتجاهات المعاصرة في استعمال طرق البحث

بنهاية هذا الفصل ينبغي أن تكون قادراً على:

- التعرف على طرق البحث المعاصرة التي تَحظَى بالرواج نظراً للتطورات الحديثة في الفكر السوسيولوجي.
- تعيين وتقييم نماذج ممثلة للدراسات التي تستعمل مثل تلك الطرق.
- إعمال الفكر في المزايا والسمات النسبية لمختلف الطرق وفَهْم الكيفية التي وفقاً لها يمكن استخدام هذه الطرق جنباً إلى جنب مناهج البحث القائمة.
- فَهم الإسهام الذي تُقدمه تكنولوجيا المعلومات والاتصال للبحث السوسيولوجي، وفهم الكيفية التي بها يقوم استعمال الوسائط والمجالات الإلكترونية الافتراضية بتوليد طرقٍ جديدة للبحث.

مقدمة

يقدم هذا الفصل إطلالة على الاتجاهات المعاصرة في استعمال طرق البحث، والتي تعترف بالتطورات الجديدة في النظرية السوسيولوجية، وهي التطورات التي أدت بالضرورة إلى تغيرات في علم مناهج البحث. ومن المُنطلقات التي يبدأ بها هذا العرض ما توصل إليه باين Payne وزملاؤه (٢٠٠٤) من أن ٥

في المائة فقط من الأبحاث المنشورة في المجلات العلمية لعلم الاجتماع هي التي استعملت التحليل الكمي. والاهتمام هنا مُوجه للاستعمال المتزايد لطرق البحث التي يُمكن اعتبارها كمية وكيفية في الآن معاً، وإلى ظهور البحوث المقارنة استجابة للعولمة، والمسيرة المتقدمة للتقنيات الأقل الشُهرة، والأثر الذي تُحدثه تكنولوجيا المعلومات والاتصال على البحث السوسيولوجي.

طرق البحث الكمية وطرق البحث الكيفية

دراسات الحالة

يُشير مُصطلح "دراسة الحالة" إلى الدرس التفصيلي لمجال بحثي مُفرد، كأن يكون فرداً، أو إقليماً جغرافياً، أو جماعةً، أو مُنظمة، أو مجتمعا محليا، أو أُمَّة، أو ظاهرة اجتماعية. وتعتبر دراسات الحالة جامعة بين الصفة الكمية والصفة الكيفية لأنها تقوم – في العادة – على أساس البيانات الإحصائية كما تعتمد على المعلومات المتسمة بالتعمق البالغ أو التفصيل، والمُستمدة من تشكيلة متنوعة من المصادر.

في عرض مُوجز لاستخدامات ودراسات الحالة وقيودها في علم الاجتماع، تُسلط بلات Platt (١٩٩٣) الضوء على الغموض المُحيط باستعمال مصطلح دراسة الحالة. وهي تذهب إلى أن هذا المصطلح – بالذات – مرتبط بطرق البحث الكيفية، حيث يربطه الكُتاب القُدامى – في أذهانهم– بدراسات تاريخ الحياة، بينما نجد أن أول ما يتبادر إلى فكر الكتاب المُحدثين –عندما يفكرون في طرق البحث الكيفية– هي الملاحظة المشاركة. ولتلطيف حدِّة هذا الخَلط والاضطراب تقترح بلات (المرجع السابق) الأخذ بتعريف واضح لدراسة الحالة، هو:

إن تعريفنا لدراسة الحالة هو – إذن – تعريفٌ قد يُوجد فيه حالة واحدة فقط وقد يُوجد به أكثر من حالة، إلا أن السمة الفارقة أن هذه الفردية أو التفرُدية التي

تتسم بها كل حالة على حدة يتم الحفاظ عليها، بجانب أن أعداد الحالات التي تندرج تحت أي فئة لا تعالج باعتبارها أمراً مهما. وقد تكون هذه الحالات محل البحث أفرادا، أو جماعات صغيرة، أو منظمات، أو مجتمعات محلية، أو أمماً، أو أحداثاً. وقد تستقل دراسات الحالة بنفسها، أو قد تُستعمل كجزء واحد من أجزاء مشروع بحثي كبير يعتمد هو الآخر على أنماط أخرى من العمل. وفي هذه الحالة الأخيرة، تعتمد وظيفة دراسة الحالة على طبيعة وحجم دورها في المشروع الكبير.

	تمرين ٨-١
تفسير **تطبيق** **تحليل** **تقييم**	١- اقرأ القائمة التالية للدراسات البحثية، وفي ضوء التعريف الذي اقترحته بلات، حدد: (أ) أيّ هذه الدراسات يُمكن تسميتها دراسات حالة؟ (ب) أيّ هذه الدراسات لا يمكن تسميتها كذلك؟ (ج) هل توجد أي دراسة يصعب تصنيفها؟ ولماذا؟
	الدراسات البحثية • دراسة متعمقة لخبرة المرض العقلي لدى شخص مُصاب بالفُصام. • عدد المسافرين في أشهر عربات السكك الحديدية العتيقة والتي تعمل بالبُخار- تحليل إحصائي. • مشروع بحثي عن المخزون السمكي، تبعاً للمناطق البحرية ولبعض الأنواع المختارة من الأسماك. • العلاقة بين مشاهدة التليفزيون والطبقة الاجتماعية.

	• الدلالة الاجتماعية لانتشار موضة سيارة فورد كابريس The Ford Capris في ثقافة الشباب البريطانيين. • من كرويدون Croydon إلى كرولي Grawley – رؤية للتطورات الحديثة في مجال الطريق السريع إيه ٢٣ A23. • مواقف الكاثوليك الرومان (أتباع الكنيسة الكاثوليكية في روما) من مَنع الحمل والإجهاض. • "تكين في نيوبيجين" Nockin in Newbiggin – دراسة تاريخية في عادات الزواج عند مراهقي جيوردي Gerodie.
تفسير تطبيق	٢- سجل إجاباتك في نُسخة أُخرى مُفصلة ومُسهبة للجدول المدوّن فيما يلي. وقد قدّمنا لك بعض الأمثلة لمساعدتك على أن تبدأ إجابتك. **من دراسات الحالة**: خبرة المرض العقلي لدى شخص مُصاب بالفُصام. **ليس من دراسات الحالة**: عدد المسافرين في أشهر عربات الحديدية العتيقة والتي تعمل بالبخار – تحليل إحصائي
	سبب صعوبَة تصنيف الدراسة؟ "تكين في نيوبيجين" دراسة تاريخية لعادات الزواج عند مراهقي جيوردي، هذه الدراسة من الممكن أن تكون قائمة على معلومات مُستمدة من تشكيلة متنوعة من مصادر المعلومات ذات الطبيعة العامة وليس من دراسة متعمقة واحدة.

حتى عهد قريب نسبيا، لم تكن دراسات الحالة تُعد – في الواقع – طريقة بحث محورية. ويرجع ذلك – في جانب منه – إلى أنها لا تشتمل على عينة مُممثلة، وإلى صعوبة التعميم بناء عليها. ويميل الوضعيون إلى توجيه النقد الشديد لدراسات الحالة نظراً لما فيها من أوجه القصور هذه.

ومع ذلك، تحظى دراسات الحالة بنوع من البعث أو الإحياء، كما أنها آخذة في التحول إلى تقنية بحث يتسع مجال استخدامها بصورة متزايدة. وترى بلات (١٩٩٣) أن ذلك قد يرجع إلى أن الباحثين في وقتنا الحاضر باتوا يدركون أنه من الغباء أن تُرفض دراسات الحالة رفضاً تاماً لمجرد أنها لا ترقى إلى مستوى مُتطلبات الدراسة "المثالية" أو النموذجية. وبدلاً من ذلك، أصبحنا نجد اليوم أن هدف البحث يأتي في المحل الأول من الاعتبار عند اختيار طرق البحث. فالباحثون مُتأكدون من أنه نظراً لأن الدراسات المختلفة تكون لها أهداف مختلفة، فإن طرق البحث المختلفة ستكون قادرة على ملاءمة هذا الوضع. فإن كان الهدف هو تقديم صورة شاملة عن بعض الأفراد، أو الجماعات، أو الأحداث وما أشبه ذلك، بحيث تجمع هذه الصورة بين كلٍّ من المعلومات الكمية (الإحصائية، والرقمية) والمعلومات الكيفية (المتعمقة، والتفصيلية)، فقد تكون دراسة الحالة – حينئذٍ – هي الاختيار الأمثل بالتأكيد.

وتستعرض بلات استعمال دراسة الحالة في البحث السوسيولوجي، وتذهب إلى أنها تقدم عدداً من الفوائد للباحثين الإمبيريقيين (انظر تمرين ٨–٢). أولاً، يُمكن لدراسات الحالة المُكثفة أن تُلقي ضوءا على السمات المميزة لبعض الشخصيات التاريخية المؤثرة (مثل تشارلز داروين، والمهاتما غاندي)، كما يمكنها إلقاء الضوء على كثير من القضايا الكبيرة، كالأحداث التاريخية الهامة المتفردة، من قبيل نشأة الرأسمالية مثلاً. كما تذهب بلات إلى أن البحث المقارن يُمكن

الباحثين من الدراسة المنهجية للأحداث التي تُشبه هذه الحادثة المهمة. وهذه الدراسة تتضمن عقد المقارنة بين مختلف البلاد الرأسمالية بهدف الوقوف على السمات المشتركة، حتي وإن كانت أمثال تلك البيانات ستكون – بالضرورة – أقلّ تفصيلاً وأقل منفعة من بحثٍ علمي متعمق لبلد واحد.

وتذهب بلات إلى أنه حتى عندما تكون الحالة محلُ الدراسة غير نمطية أو "مُنحرفة" (أي غير معتادة)، فإنّ بإمكانها أن تدلنا على الكثير من الأمور عن النظريات الراهنة:

"إن الحالة المنحرفة هي تلك التي لا تتطابق مع النظرية الراهنة أو مع التعميمات الإمبيريقية – أو على الأقل تبدو أنها كذلك. فإن كانت إحدى الحالات منحرفة انحرافاً حقيقيا حتى عند البحث الدقيق لها، فإن هذا يفند ذلك التعميم أو يعني أنه لابد من تعديله. فإذا تبين أن هذه الحالة ليست مُنحرفة فعلا، فإن ذلك يُقدم تأييداً لهذا التعميم أقوى مما كان عليه الأمر من قبل". (نفس المرجع السابق ذكره).

استعمل هوبز Hobbs ودننجهام Dunningham (١٩٩٨) ما قاما به من دراسة حالة للأفراد المشتركين في شبكات محلية طليقة السراح للجريمة المُنظمة في مدينة شمالية؛ استعملا دراسة الحالة هذه في صياغة فرضٍ يتعلق بالطبيعة المتغيرة لشبكات الجريمة المحلية والدولية. ويُبين بحثهما كيف يبدأ المجرمون مسار حياتهم الإجرامي على المستوى المحلي، وكيف يقومون، وبصورة شبيهة إلى حد كبير بما يمكن أن تفعله شركة تجارية ملتزمة بالقانون؛ يقومون بالبحث المتواصل عن فرص توسيع وتطوير أرباحهم. وأحياناً ما يتضمن هذا العمل ارتباطهم بالشبكات العالمية كشبكات تهريب المخدرات أو حتى شبكات الهجرة. وبالمثل، استعمل بلامر Plummer (١٩٩٥) دراسات الحالة الفردية ليوضح "الروايات الشفاهية الحديثة الظهور" والمُتعلقة ببعض القضايا الجنسية مثل قضية

"إفصاح" الشخص ذي النزعة الجنسية المثلية بأنه كذلك، كما تناول بلامر قصص الاغتصاب وقصص العلاج والاستشفاء التي يرويها من عانوا من الإيذاء الجنسي وسوء المعاملة.

كما ألقت بلات الضوء على فائدة دراسات الحالة واسعة النطاق في البحث السوسيولوجي، ذاهبة إلى أن هذه التقنية يمكن انه تكون لها – في أقل تقدير – نفس قيمة البحث الكمي واسع النطاق، هذا إن لم تكن ذات قيمة أكبر منه. فهي تُمكن الباحثين من الدرس الدقيق لكيفية ولأسباب تصرف الأقليات العددية بشكل مختلف عن الأغلبية التي تتضمنها هذه الدراسة.

وقد استعمل كثير من علماء الاجتماع دراسات الحالة في بحوثهم. مثال ذلك، أن الدراسة التي قام بها جولدثورب Goldthorpe وآخرون (١٩٦٩) بعنوان "العامل المترف" والتي تناولت اتجاهات العمال اليدويين إزاء السياسة. والعمل، والعلاقات في اختبار للبرجزة (اكتساب سمات البرجوازية)؛ هذه الدراسة يمكن أن تندرج تحت تعريف بلات لدراسة الحالة. وتُعتبر دراسة جالي Gallie (١٩٧٨) للعلاقات الصناعية واتجاهات العمال نحو العمل في معملي تكرير للبترول في فرنسا وفي معملي تكرير بترول في بريطانيا؛ تُعتبر مثالاً آخر. يُضاف إلى ذلك، أنه رغم استعمال وليس Willis (١٩٧٧) لتشكيلة متنوعة واسعة من طرق البحث (كالملاحظة المشاركة، والمناقشات الجماعية، والمقابلات غير الرسمية، ودراسة المذكرات اليومية وما أشبه ذلك) في دراسته لإحدى المدارس في إنجلترا في سنوات السبعينيات من القرن العشرين؛ رغم استعمال "وليس" لهذه الطرق المتنوعة في دراسته، فإنّ بالإمكان تصويرها وفهمها باعتبارها دراسة حالة، باعتبار أنها تركز على خبرة التلمذة (أي: التعلم في المدرسة) انطلاقاً من منظور مجموعة صغيرة مكونة من ١٢ من الصبيان المنتمين للطبقة العاملة والذين يسمون "الغُلمان".

	تمرين ٨-٢
تحليل تقييم	١- ضع جدولاً من عامودين وضمنه قائمة بمزايا وعيوب دراسات الحالة. استعمل ذلك في كتابة تقييم لفائدتها كتقنية من تقنيات البحث.
تحليل تقييم	٢- قارن أفكارك بالأفكار المُبينة أدناه. ما مدى جودة مهاراتك في التقييم.

تقييم دراسات الحالة

نقاط القوة

١- توفِّر دراسات الحالة رؤية ثاقبة متعمقة مُفصَّلة لحالات مُحددة متفردة، وتكشف عن المعلومات التي غالباً ما تتجاوز عنها تقنيات البحث واسعة النطاق (كالمعلومات المتعلقة بحالات الأقليات وبالجماعات اللانمطية أو المختلفة).

٢- رغم أن البيانات الكيفية لا تضمن توافر الصدق بالضرورة، فإن استعمال سجلات المقابلات في صورتها الطبيعية الخام، والملاحظات التي تُدوّن عند إجراء الملاحظة؛ استعمالها في دراسات الحالة قد يعني أنها تتمتع بدرجة صدق مقبولة.

٣- نظراً لأن الغالب أنّ دراسات الحالة تتضمن بياناتٍ كمية كذلك، فإن درجة الثبات (المنهجي) للبحث لابد أنها ستكون معقولة، وذلك على الرغم من أنه لابد من التسليم بأن مثل هذه البيانات قد تكون محدودة النطاق تماماً.

٤- تُوفر دراسات الحالة طريقة بحث حساسة بدرجة معقولة للقضايا التي لم تدرس من قبل، أو التي يصعب دراستها. فهي توفر رؤية شاملة لمجالات قد لا تكون معروفةً جيداً أو لا تكون مفهومة بوضوح قبل هذه الدراسة.

أوجه القصور

١- أُثيرت التساؤلات حول ما تتصف به دراسات الحالة من تمثيل لمجتمع البحث. فقد ذهب البعض إلى أن حالة مُفردة لا يمكنها أن توفر بياناتٍ مُمثلة. ومع ذلك، فإن هذه النقطة خلافية. فإن الباحث سوف يدعي أنها مُمثلة للجماعة محل الدراسة. وسوف يزعم النقاد أنها غير ممثلة لأنها لا تقدم صورةً ممثلة للمجتمع الكبير، والسبب الرئيسي لذلك أنه لم تتم عملية اختيار عينة بقصد انتقاء مجموعة بحثية.

٢- الخلاف على التمثيل له دلالاته الضمنية بالنسبة لعملية التعميم. إذ يزعم البعض أن من أوجه الضعف المهمة في دراسات الحالة أنه لا يمكن صياغة التعميمات بناء عليها لأنها ليست ممثلة. وتدافع بلات (١٩٩٣) عن دراسات الحالة في هذا الصدد، ذاهبة إلى أن مجرد عدم استخراج العينة الممثلة في بداية البحث، لا يعني أنه لا يمكن صياغة التعميمات. مثال ذلك، أن كثيرا من المسوح الاجتماعية قد استخرجت عينات عشوائية ممتازة من مدينة كبيرة واحدة، وهو الأمر الذي يجعل هذا البحث دراسة حالة لهذه المدينة، بصرف النظر عما إذا كان، أو لم يكن، مقصوداً لهذا المسح أن يكون كذلك. وهكذا تذهب بلات إلى أنه إن كانت أوجُه الغموض في اختيار العينة تعني أننا لا نستطيع أن نستخرج حُكماً عاماً من عينةٍ مُمثلة، فإننا لا نستطيع أن نُدين – في الواقع– دراسات الحالة لافتقادها للقابلية للتعميم. ويستطرد بلات فتذهب إلى أن كثيراً من البحوث

السوسيولوجية تنتهي إلى صياغة تعميماتٍ زائفة، بينما يتمثل واحدٌ من أوجُه قوة دراسات الحالة في أنها لا تدَّعي القابلية للتعميم.

٣- إن وُجدت حالة واحدة فقط أو مُجرّد عدد قليل من الحالات فإنَّ من السهولة البالغة أن نعثر على تفسير نظري ينطبق عليها. ومن الممكن اختراع تفسيرات كثيرة تكون متوافقة مع مثل تلك البيانات المحدودة، وبهذا الشكل لا يُمكن التعامل مع أي تفسير يُطرح باعتباره تفسيراً صحيحاً حتى بالنسبة للحالات التي نحن بصددها. وتستجيب بلات (المرجع السابق) لهذا الرأي بالذهاب إلى أنه إنْ وُجدت بيانات وفيرة وتفصيلية عن جوانب كثيرة من هذه الحالة (أو الحالات) فإنه يكون أدعى للارتياب أن نجد تفسيراً ينطبق على كل المعلومات من أن نجد حُكما عاما شديد السطحية ينطبق على عددٍ أكبر من الحالات. زد على ذلك أنه إذا تمت البرهنة على صحة تنبؤ يتعلق بحالة واحدة، فإن النظرية تكون قد اجتازت اختبارا شديد القسوة لأنه من المُستبعد جداً أن تأتي مثل هذه النتيجة مصادفة.

تحليل الوثائق وتحليل المضمون

يُشير تحليل الوثائق وتحليل المضمون للتحليل الثانوي للمعلومات و/أو البيانات المنشورة وغير المنشورة. ومن الأخطاء الشائعة التسليم بأن الوثائق والمضامين (أي المعاني والدلالات) تُعد ذات طبيعة كيفية، إلا أنه من الأرجح في الواقع أن تشتمل الوثائق على بيانات عَددية وغيرها من المعلومات الكَمية. ونذكر من نماذج الوثائق الكيفية: اليوميات المكتوبة، وسجلات المحاضر (للهيئات التشريعية ونحوها من الهيئات)، والتسجيلات الشخصية، والصُحف، والكُتب وما أشبه ذلك. بيْد أن تحليل المضمون يمكن إجراؤه أيضاً على منتجات وسائل الاتصال الجماهيرية، بما فيها أفلام الفيديو، والإعلانات وما أشبه ذلك.

ومن نماذج الوثائق الكمية: نشرة البيانات التي تصدُر بعنوان "الاتجاهات الاجتماعية" Social Trends، والتي تُصدرها سنويا إدارة الإحصاءات الحكومية (البريطانية) في قالب وثيقة، والأشكال المتخصصة من الإحصائيات الرسمية – مثل النشرة الإحصائية لوزارة الداخلية (في إنجلترا، وهي عن الإحصائيات الرسمية للجريمة)، وبيانات صندوق الأمم المتحدة للسكان عن النمو السكاني في العالم وما أشبه ذلك. ومع ظهور التكنولوجيا الجديدة، فإنه بدلاً مما هو متاح حاليا من توافر أمثال تلك البيانات في شكل مطبوع، فإنه يجري – بصورة مضطردة – توفيرها على السي .دي. روم CD-ROM(*). (أي الأقراص المدمجة التي يُمكن للكمبيوتر قراءتها) أو على الإنترنت. وهناك عدد من المواقع الإحصائية المجانية على الشبكة، التي تحتوي على تشكيلة هائلة من البيانات الرسمية ابتداءً من مختلف أنواع النتائج السنوية للامتحانات ومروراً بالاتجاهات المُتبعة في تدبير المعيشة وانتهاء بالبيانات المتعلقة بالتركيبة السكانية. اُنظر مواقع الشبكة التالية للإطلاع على معلومات مفيدة: www.nationalstatitics.gov.uk، وموقع www.issp.org/.

تحليل المضمون

يُمكن لتحليل المضمون أن يكون طريقة بحث كمية و/أو كيفية ترتبط في أحيان كثيرة بدراسة وسائل الاتصال، وإن كانت تستعمل كذلك في بحث مجالات منها: مجال كُتب الأطفال (لوبان Lobban، ١٩٧٤)، ومجلاّت الفتيات المراهقات (مكروبي McRobie، ١٩٩٦)، والصحف، والتغطية التليفزونية للأخبار (جي. إم.يو.جي GMUG أي: مجموعة جامعة جلاسجو للإعلام، لسنوات السبعينيات،

(*) CD-ROM وهو اختصار لما يلي : Compact Disc Read Only Memory.

والثمانينيات، والتسعينيات، وسنوات العقد الأول من الألفية الثالثة). وعادة ما تتضمن الطريقة الكمية تحديد مجموعة من الفئات ثُم تصنيف المادة وفقاً لمعدل تكرار الظهور. ويُمكن للتحليل الكيفي للمضمون أن يتضمن انتقاء مجموعة من الفئات أو المعايير التي تُستخدم لتنفيذِ تحليلٍ للمعاني الكامنة تحت السطح لتلك الفئات أو المعايير. ويمكن الانتفاع بالسيميولوجيا (وهو العلم الذي يدرس العلامات أو الدوال في كافة أشكال الاتصال) في البحث الدقيق لكلٍ من فهم القيمة الظاهرة على السطح للصورة أو النص (أي الرمز الدلالي) والسياق التحتي الكامن تحت السطح لما يجري عرضُه (أي: الرمز الضمني).

يميز بوسون Pawson (١٩٩٥) بين أربعة أنماط رئيسية لتحليل المضمون:

- **التحليل الشكلي**: وهذا النمط يشتمل على عينة منتظمة للمقالات الرئيسية (في صحيفة مثلاً) أو النصوص التي يأخذها الباحث في الحسبان.
- **تحليل الأفكار المحورية (أو: التيمات)**: حيث يُختار مجال مُحددة لتقرير المقاصد الأساسية لمؤلفي هذه النصوص.
- **التحليل النصي**: وهو يتعمق في فحص استعمال اللغة واستعمال فئات مُعينة من الكلمات بجانب الصور المرئية التي تهدف لإحداث تأثيرٍ ما.
- **تحليل جمهور المتلقين**: ويكون التركيز فيه على رد فعل الجمهور على هذه الرسائل، والصور، واللغة بهدف اختبار تفسير الباحث لهذه الأمور، بجانب تفسير الجمهور لها.

تشتهر مجموعة جامعة جلاسجو للإعلام .G.U.M.G بما قامت به من تحليل مضمون واسع النطاق لوسائل الإعلام. فبدءاً من تحليل هذه المجموعة لمضمون أساليب وضع أجندة التليفزيون في تغطيته الإخبارية لموضوع العلاقات

الصناعية (بين العمال وأصحاب الأعمال)، وتحليلها للتحيز الإعلامي بصورة عامة خلال سبعينيات القرن الماضي، وتقديم التقارير عن أخبار الحرب في الثمانينيات ثم في التسعينيات، وما حدث من تغيير هذه الجماعة العلمية لبؤرة اهتمامها التي تركز عليها، واتجاهها إلى البحث في موضوع التأثير الذي تُحدثه وسائل الإعلام على الجمهور (من المشاهدين، والمستمعين، والقراء)، وهو البحث الذي استعملت فيه المناقشات الجماعية والأنشطة الجماعية. وقد استخدمت أعمال هذه المجموعة – على امتداد مسيرتها العلمية تلك – في اختبار قضية الهيمنة الثقافية فضلاً عن اختبار بعض عناصر النظرية الماركسية. وقد أظهر ما قامت به هذه الجماعة من بحوث مَدى ما يمكن أن تكون عليه وسائل الإعلام من تحيزٍ يتمُّ بصورة منهجية لصالح وجهات نظر الجماعات المسيطرة في المجتمع.

ومع ذلك، يوضح فيلو Philo (١٩٩٠) في كتابه بعنوان "المشاهدة والاعتقاد"، وكما فعل سيتوارت هول Stwart Hall أن الجماهير لا تَقْبَل أو لا تُصدق دائماً ما يقال لها. وقد جمع فيلو وميلر Miller (٢٠٠٢) بين تشكيلة متنوعة من الاتجاهات المختلفة في دراسة وسائل الإعلام – ساعيين لعرض مضمون هذه الوسائل، ولكيفية تفسير الجمهور لها وردّ فعلهم إزاءها، وكذلك لكيفية خلق السياقات الاجتماعية والسياسية الأوسع لهذه الرسائل، وهو ما يُطلق عليه مُصطلح "دورة الاتصال". وقد استُعمل منهج تحليل السياق التاريخي كذلك في بحثهما للصراع الإسرائيلي الفلسطيني (فيلو وبري Berry، ٢٠٠٦)، كما أن تحليلهما لطُرق عَرض التقارير الإخبارية والتغطية التليفزيونية لهذا الصراع قد ارتبط وتمحور حول معتقدات جمهور مشاهدي التليفزيون وتصوُّراتهم واتجاهاتهم (فيلو وبري، ٢٠٠٤). وقد وجد بري وفيلو أن:

"هناك تفضيل وأسبقية في عرض "وجهات النظر الإسرائيلية" الرسمية، وبالذات على قناة بي.بي.سي الأولى، حيث تمّ إجراء المقابلات مع الإسرائيليين وتقديم تقارير إخبارية عنهم بمعدل أكبر من ضعف ما تمّ مع الفلسطينيين. وفوق ذلك، حَظى السياسيون الأمريكيون الذين يؤيدون إسرائيل بمعدل ظهور قوي جداً. فقد ظهروا عدداً من المرات أكثر من مرات ظهور السياسيين من أي بلد آخر وضعف عدد مرات ظهور السياسيين البريطانيين". (ص ص١٩٦-١٩٧).

كانت معالجة الجماعات الاجتماعية المختلفة داخل وسائل الإعلام هو الموضوع الذي تناوله القدر الأعظم من البحوث. فقد أظهرت الدراسات التي أُجريت على عرض قضايا النوع الاجتماعي، والقضايا المتعلقة بالسن، والإثنية، والسلوك الجنسي، والعجز البدني، والطبقة الاجتماعية في وسائل الإعلام؛ أظهرت هذه الدراسات وجود تحيز مضطرد ومستمر وتصور ذهني نمطي، مُضادين للنساء، والشباب والمسنين، والعاجزين بدنيا، وللمثليين الجنسيين، وللسود، وللطبقة العاملة على امتداد فترة طويلة من الزمن (لجنة المعايير الإذاعية، ١٩٩٩). (انظر تمرين ٨-٣).

تفسير - تطبيق تحليل - تقييم	تمرين ٨-٣

اختر جماعة تنتمي إلى إحدى الفئات التالية: النوع الاجتماعي، أو السن، أو السلوك الجنسي، أو الإثنية، أو الطبقة الاجتماعية، أو العجز البدني. ارسم جدولا يتضمن أكبر عدد يمكنك تصوره من الصور الذهنية النمطية لهذه الجماعة. اختر أحد أنواع العرض التليفزيوني كالمسلسلات اليومية، أو المسرحيات، أو العرض الوثائقي، أو الإعلانات وما أشبه ذلك، ثم شاهد هذا النوع التليفزيوني الذي اخترته على امتداد عدة أيام و جدولك أمامك. دوّن فيه

عدد المرات التي تظهر فيها كل صورة من الصور الذهنية النمطية. عند نهاية الفترة الزمنية التي حددتها لنفسك اجمع الدرجات المستمدة من جدولك واكتب مُوجزاً قصيراً وقيمٌ النتائج التي توصلت إليها. وقد تُقابل صوراً أكثر إيجابية لبعض الجماعات كالمثليين الجنسيين. فعلام يدلنا هذا على طبيعة العرض في وسائل الإعلام؟

وبدلاً من ذلك يُمكن أن تقوم ببلورة اتجاه أكثر كيفية (دلالي/ضمني) واختيار برنامج معين أو شخصية (أو عدة شخصيات) مُعينة يتم تقديم صورة لها وقم بإجراء تحليل سيميولوجي (علاماتي) لصور هذه البرامج أو تلك الشخصيات.

(انظر ملحق تمرين ٨-١ أدناه لمساعدتك على تنظيم جدولك)

كما أن بالإمكان تسجيل تحليل المضمون في قواعد بيانات الكومبيوتر على أن تطبع عند الحاجة إلى المعلومات ذات الصلة. وهذا تطور مهم خاصةً بالنسبة لعلماء الاجتماع إذ أنه يُمكن من عقد المقارنات السريعة بين البلاد على مستوى العالم. ويقوم الابتكار التكنولوجي، وبصورة متزايدة، بدفع تيار تحليل البيانات إلى النقطة التي عندها يكون بالإمكان تمحيص قواعد البيانات الهائلة بلمسة لأحد أزرار الكومبيوتر.

ومنْ ثَم فإن إمكانية نجاح تحليل الوثائق والمضمون في علم الاجتماع آخذة في التنامي بوتيرةٍ سريعة. ولاشك أن دارسى علم الاجتماع يقدرون الآن على الانتفاع بهذه التكنولوجيا الجديدة، وذلك لأن المزيد والمزيد من المؤسسات التعليمية سترتبط ارتباطا إلكترونيا مباشرا بمصادر المعلومات السوسيولوجية في جميع أنحاء العالم، الأمر الذي سوف يتيح لها الوصول الفوري للدراسات السوسيولوجية المعاصرة والكلاسيكية، وكذلك الحصول على خدمات تكنولوجيا المعلومات والاتصال، والانتفاع بحزم البرمجة الإحصائية التي منها حزمة PASW (التي كانت معروفة قبل ذلك باسم SPSS).

يوميات البحث

يُبرز دايسون Dyson (١٩٩٥) الدور الذي تستطيع يوميات البحث أن تقوم به في عملية البحث. فهو يذهب إلى أن الاحتفاظ بمُفكرة يومية للبحث سوف يكون بالغ الفائدة "خارج نطاق دورها الرئيسي في ذلك الجزء من البحث الميداني متعدد الطرق والمرتبط بطريقة جمع البيانات". وهو يرى أن لكل البحوث سياقاً اجتماعياً، وأن موقع الباحثين في هذا السياق (والذي يشتمل بطبيعة الأمر على دورهم في الإسهام في خلق هذا السياق الاجتماعي ينبغي أن يكون محل تفكير نقدي. والمعتاد أن يفرض الدخول إلى مواقع إجراء البحوث على الباحثين التناقش والتفاوض حوله بشكلٍ أو بآخر، بحيث لا يكون المبحوثون في الموقع المقترح مُجرد "مُستجيبين"سلبيين، ولذلك يحاولون – بفعالية – توفير الشروط والظروف المحيطة بمشاركتهم. ومن هنا فإن العملية البحثية تكون – دائماً – أكثر اتساعاً بمراحل من عملية جمع البيانات نفسها.

الموضوع (A)
الاحتفاظ بدفتر يوميات للبحث تشمل فائدة يوميات البحث ما هو أبعد من مُجرد الاحتفاظ بوصفٍ واقعي للقاءات والمواعيد، فهي جُزءٌ من عملية التأمّل الذاتي النقدي التي يقوم بها الباحث حين يُعمل فكره في دوره في هذا البحث. فالبحث بأكمله يكشف عن علاقات القوة، كما أن الأدوار المتبادلة للباحث والمبحوثين تكون محل تفاوض أو أخذ ورد، وليست أمراً مُسلماً به. وإن بالإمكان تسجيل هذا الأخذ والرد في

يومية البحث، كما أنه مهم في تحديد السياق الذي يتمُّ فيه البحث، وهو الأمر الذي يكون دائماً أكثر أهمية من مجرد جمع البيانات ذات الصلة. فاليوميات يمكنها الإسهام في استعمال طرق متعددة لجمع وتحليل البيانات.

	تمرين ٨-٤
	اقرأ الموضوع (A) وأجب على الأسئلة التالية:
تفسير تطبيق	١- مارأيك فيما يقصده الموضوع (A) عندما يقول إن كافة البحوث تكشف عن وجود علاقات قوة؟
تفسير تطبيق	٢- ما رأيك في المقصود من مصطلح "استعمال طرق متعددة للبحث" (ملحوظة: إن لم تكن متأكداً من إجابتك، فانظر القسم الخاص "بالتعددية في مناهج البحث" في نهاية الفصل التاسع من هذا الكتاب).
فهم تطبيق تقييم	٣- لماذا يكون مهمًا بالنسبة للباحثين أن يكونوا متنبهين إلى المناقشة والحوار حول الأدوار في البحث؟
تحليل تقييم	٤- لماذا قد يكون من المفيد الاحتفاظ بدفتر يومية، وذلك بجانب الأسباب المطروحة في هذه الفقرة؟

أوضح دايسون عديدا من فوائد ومزايا الاحتفاظ بدفتر يومية باعتباره سجلاً للبحث الأولي. كما توفر يوميات البحث البيانات الثانوية لعلماء الاجتماع الآخرين الذين يرغبون في معرفة الطريقة التي أجرى بها البحث، أي عند دراسة العملية

البحثية ذاتها. ومن شأن توفر مثل هذه المعرفة المُبينة لخلفية البحث أن تلعب دورا مهما في ضمان النظر إلى النتائج التي ينتهي إليها البحث داخل سياقها الملائم. وقد يرغب بعض الباحثين في تحليل العملية البحثية تحليلا منهجيا بقصد إعادة تقييم طريقة البحث المُستعملة في هذا البحث، أو بقصد الكشف عن السمات الأساسية لهذا البحث حتى يكون بالإمكان تكراره أو تعديله. ومن الواضح أن ليوميات البحث تطبيقات عملية كثيرة عند علماء الاجتماع وعند دارسي علم الاجتماع كذلك.

ومع أن تحليل الوثائق و تحليل المضمون أصبح يحقق - باضطراد - مستويات رفيعة من الدقة والاتقان، كما أصبح أكثر تنوعاً من حيث طرق البحث المُستعملة فيه منذ البحوث التي أجراها جلينيس لوبان G. Lobban، فإن المبادئ الأساسية للمعالجة الكمية للمضمون ولتحليل البيانات يمكن أن يستمر تطبيقها في المستقبل أيضا في الكشف بشكل مفيد عن بعض المجالات الجديدة في علم الاجتماع. مثال ذلك أن بالإمكان استعمال تحليل الوثائق وتحليل المضمون في استقصاء الحقيقة وراء الفكر ما بعد الحداثي المتعلق بوسائل الإعلام والثقافة الشعبية. وقد صمم التمرين التالي لتمكينك من ذلك.

الموضوع (B)
ما بعد الحداثة، والثقافة الشعبية، ووسائل الاتصال الجماهيرية ألقى الفصل الرابع من هذا الكتاب الضوء على الفكر الكامن وراء ما بعد الحداثة، وقدم أمثلة للتحليل ما بعد الحداثي. ومن القضايا المهمة في هذا المنظور الفكري تلك الدعوى القائلة بأن وسائل الاتصال مسئولة عن النزعة الاستهلاكية.حيث يُزعم أنه في عالم بعد حداثي، يستهلك الناس الصور

والعلامات لذاتها، بمعنى أننا الآن أصبحنا نشتري غلاف السلع وتصميمها أكثر مما نشتري السلع نفسها. ولم يعد الإعلان مُنصباً على الترويج لجودة المنتج أو لفائدته. وبدلاً من ذلك يتراجع باضطراد الدور المباشر للسلعة المنتجة. وينصبُّ التأكيد على أسلوب الإعلان وعلى شكله الخارجي، وعلى ما فيه من اقتباسات بارعة من الثقافة الشعبية ومن الفنون، وعلى القصص المُنمنمة والنكت الساخرة، وذلك على حساب الإعلان نفسه. ويلخص سترِيناتي Strinati (١٩٩٢) هذا الوضع الراهن باستعمال المثال التالي: "في وقتٍ مضى كانت موسوعة جينس Guiness مناسبة لنا. أما الآن فإن كل ما نراه هو أن مُمثلاً يشربُ كأساً بدون أي إيحاءات إيجابية تتعلق بموضوع: لماذا ينبغي علينا أن نشرب نحن أيضا هذا الشراب.

تفسير – تطبيق تحليل – تقييم	تمرين ٨-١

سوف يزودك هذا التمرين بخبرة أخرى في إجراء تحليل المضمون. كما أنه سيمكنك من اختبار مصداقية الأفكار ما بعد الحداثية المتعلقة بالثقافة الشعبية التي سبق أن تناولناها في هذا الكتاب. اقرأ الموضوع (B) ونفذ المهمة التالية.

استخدم تشكيلة منوعة من المجلات أو استخدم تسجيل فيديو للإعلانات التليفزيونية، جرب القيام بتحليل مضمون المُخرَج الإعلامي لاختبار الدعوى التي تقول أن الإعلان في وقتنا هذا يُركز على الشكل (أي الأسلوب، والصورة وما أشبه ذلك) بدرجة أكبر من تركيزه على الوظيفة (أي المنفعة، والجودة وما

أشبه ذلك). ولكي تقوم بذلك بنجاح ستحتاج للتفكير في القضايا التالية: استخدم المادة العلمية التي أوردناها أعلاه عن تحليل المضمون الكمي/الكيفي بوصفها دليلاً لك واستخدم الجداول الواردة أدناه لمساعدتك.

١- ما **الوسيط** الذي سوف تقوم بتحليله، مثال ذلك، مجلات المراهقين، أو التليفزيون؟

٢- إلى أيّ مدى سيؤثر ذلك على نوع البيانات التي يتم الحصول عليها؟

٣- ما مقدار **المحتوى** (المضمون) الذي سيكون مطلوباً؟

٤- كيف ستقوم **بتصنيف** الإعلانات: تبعاً للوظيفة، أم تبعاً للشكل، أم مُناصفة بينهما: ٥٠/٥٠؟

٥- ماذا يحدث عند ظهور إعلانين مختلفين لنفس المُنتج - هل ستصنف كُلاً منهما بصورة مستقلة عن الآخر؟

٦- كيف **ستسجل** بياناتك؟ (ملحوظة: ربما ستحتاج إلى تصميم جدول موجز كالجدول المقدم هنا)

تحليل المضمون - سجل البيانات

طبيعة الإعلان

الماركة التجارية/ المُنتج	الوظيفة-الشكل- مناصفة	ملاحظات
جينس - بيرة سوداء ثقيلة		رجل يشرب كأساً- دون تقديم مبرر.
ديتول - مطهر		رجل ينظف سطح قطعة

		الشغل[*] في المطبخ.
نايكي – الأحذية الرياضية		مباراة لكرة السلة إلا أنها تنتهي بالشعار: "فقط جربها".

٧- كيف **ستحلل** بياناتك؟ (ملحوظة: يمكنك أن تقدم إحصائيات وصفية كالنسب المئوية وأن تعرضها في جدول كالجدول المُبين أدناه.

تحليل المضمون – تقسيم البيانات

عدد الإعلانات	النسبة المئوية للتركيز على الوظيفة	النسبة المئوية للتركيز على الشكل	المناصفة بين الشكل والوظيفة	هل يؤيد رأي ستريناتي؟
				نعم ☐ لا ☐ من العسير تقرير الأمر ☐

٨- كيف ستفسر نتائجك؟ (ملحوظة: قد تهدف إلى تحديد الاتجاهات، مثال ذلك، أن بعض المنتجات يزداد رجحان الترويج لها عن طريق عرض وظيفتها، كالمُطهرات مثلاً، بينما يزداد رجحان الترويج لبعضها عن طريق عرض شكلها، كالملابس مثلاً).

(*) "قطعة الشغل" (أو: الأُرمة) : قطعة من الخشب السميك تستعملها ربة المنزل في تقطيع الخضروات واللحوم فوق سطحها. (المترجم)

تقييم تحليل الوثائق وتحليل المضمون

نقاط القوة

١ - يقوم تحليل الوثائق والمضمون بحثً الباحثين على ألا يتناولوا المعلومات تناولا سطحيا، بل عليهم أن يتبنوا اتجاهاً نقدياً عند تفسيرهم للبيانات.

٢- أحياناً ما يكون تحليل الوثائق والمضمون هو الطريقة الوحيدة منهجياً لتفكيك المعرفة السوسيولوجية، وفي اختبار الفروض المتعلقة بالطريقة التي يُفسَّرُ بها الواقع.

٣- قد يكون تحليل مضمون بعض الوثائق هو الطريقة الوحيدة للوصول إلى المعلومات. إذ أنه توجد مجالات كثيرة في علم الاجتماع تقتصر معرفتنا عنها على البيانات التي تحتوي عليها الوثائق. ومن الأهمية أن يُنظر إلى هذه البيانات نظرةً منهجية حتى تكون انطباعاتنا عنها واستنتاجاتنا منها موضوعية بقدرِ الإمكان.

أوجه القصور

١- يعتمد نجاح تحليل الوثائق والمضمون - عموماً - على نوعية البيانات المتاحة. فإذا كانت البيانات غير مستوفاة أو كانت ذات نوعية متواضعة، فسيكون أي تحليل لها جزئيا أو متحيزاً.

٢- هذه الطرق قد تكون مستنفذة للوقت وتتطلب مهارة كبيرة في التحليل والتفسير. مثال ذلك، أن تحليل قواعد البيانات الإحصائية يتطلب درجة من الكفاءة في العلوم الرياضية، كما يتطلب - بصورة متزايدة - ثقافة كومبيوترية عالية. ويتطلب تفسير المعلومات التي تتصف بقدر أكبر من الكيفية مهارات تحليلية مُركزة.

٣- أي نتائج يمكن استخلاصها لن تزيد في قيمتها عن قيمة البيانات الأصلية. مثال ذلك، أن النقاش الذي يدور حول "الحقائق الاجتماعية" (انظر الفصل السادس من هذا الكتاب) لابد من أخذهِ في الحسبان عند تفسير الوثائق الكمية. ونلاحظ أن النقاش المتعلق بالتفسير الذاتي للأحداث يتسرب مُتغلغلاً في ثنايا تحليل الوثائق ذات الطبيعة الأكثر كيفية.

البحث الإثنوجرافي

إن البحث الإثنوجرافي طريقة في إجراء البحث بدأت بقصد تحقيق أغراضٍ عمليةٍ بحتة، وذلك في مؤلفات الأنثروبولوجيين الاجتماعيين الغربيين الذين كانوا يدرسون المجتمعات غير الغربية في السنوات المبكرة من القرن العشرين (هامرسلي Hammersley، ١٩٩٢). وقد تطور انطلاقاً من أعمال برونيسلاو مالينوفسكي Malinowski، والذي ابتكر منحى جديداً في الأنثروبولوجيا يتضمن دراسة الأفراد على مقربة وثيقة منهم (من خلال معايشتهم مثلا). ولكي يستطيع مالينوفسكي توثيقِ حياتهم "انطلاقاً من وجهة نظرهم المحلية الخاصة"، عاش وسط هؤلاء الناس الذين كان يدرسهم. وقد أصبح بحثه هذا بالغ التأثير، كما أدَّى إلى ظهور اتجاه جديد في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، هو: الاتصال المباشر مع الثقافات الأخرى.

ويوثق هامرسلي (١٩٩٢) ما أعقب عَمل مالينوفسكي من نشوء البحث الإثنوجرافي في علم الاجتماع. ومن الأمثلة الشهيرة لهذا المَنْحَى ما نجده في بحوث مدرسة شيكاغو في مجال إيكولوجيا الجريمة والانحراف. ومن الممكن العثور على مراجعة شاملة لهذا الاتجاه في لاوسون وهيتون Lawson and heaton (١٩٩٩)، ولكن موجز القول أن قسم الاجتماع في جامعة شيكاغو طرح

نظرية تربط الجريمة ببعض القضايا التي نذكر منها: أنماط التنمية الحضرية، وفقدان روح المجتمع المحلي، وارتفاع معدل التحركات للسكانية. وبزوال مدرسة شيكاغو هبطت شعبية الإثنوجرافيا، إلا أنها عادت للظهور حديثاً باعتبارها طريقة بحثٍ عمليةً ومبدعة.

تفسير - تطبيق تحليل - تقييم	تمرين ٨-٥
مع أن من العسير تعريف البحث الإثنوجرافي تعريفاً دقيقاً، فإن هامرسلي(١٩٩٢) يميز عدداً من خصائصه المهمة. وهذا التمرين مُصمم لإبراز الخصائص الرئيسية للإثنوجرافيا، ولتمكينك من تقييم سماتها ومزاياها النسبية. انسُخ الجدول الوارد أدناه. واقرأ الخطوط العامة لهذه الملامح الرئيسية ثم فكّر في باقي أعمدة المزايا والعيوب، وحاول أن تستكملها.	

سمات وخصائص البحث الإثنوجرافي		
السمات المُميزة	المزايا	العيوب
• دراسة حالة واحدة أو عدد قليل من الحالات، على امتداد فترة زمنية طويلة (كأن تستغرق عدة أيام بالضرورة، وربما استغرقت سنوات أحيانا). • تَبنّي رؤية مبدنية ذات طبيعة عامة (أي فكرة عامة) في		

مستهل البحث، وليس اختبار الفروض المُحددة تحديداً دقيقاً. • يتم استعمال تشكيلة منوعة من أنماط البيانات – دون الاقتصار على نمطٍ واحدٍ فقط – في مقدمتها:البيانات المستمدة من الملاحظة، و/أو البيانات المستمدة من المقابلة التي تُعتبر هي المصدر الرئيسي عادة، إلا من الممكن الاستفادة من الوثائق، أو الإحصائيات الرسمية، أو البيانات المستمدة من الاستبيانات. • لا يعرف البحث الإثنوجرافي إلا الحد الأدنى من التقنين (أو التحديد) المُسبق للبيانات التي يتم جمعها. وبدلاً من ذلك، يقوم الباحث بكتابة المذكرات الميدانية المُفصلة، كما يتم توثيق الأحداث في صورة كيفية أكثر منها كمية. كما أن بالإمكان استعمال البيانات السمعية (كتلك المسجلة على أشرطة التسجيل الصوتي مثلاً). والبيانات البصرية بالفيديو مثلا. • يمكن القول بصورة عامة أن التحليل يتخذ شكل التوصيفات والتفسيرات اللفظيةِ، وذلك في الوقت الذي يقوم فيه التحليل الكمي والإحصائي بدور ثانوي في أغلب الأحوال.		
(المصدر: منقول بتصرف من هامرسلي، ١٩٩٢)		

يذهب هامرسلي (١٩٩٢) إلى أن الإثنوجرافيا تقوم على مُسلمات محددة عن طبيعة العالم الاجتماعي وكيف ينبغي دراسته، وهي:

الطبيعية: وفحواها أن البحث الاجتماعي ينبغي أن يكون الهدف منه فهم السلوك البشري الذي يحدث بصورة طبيعية.

الفهم: إدراك أن الأفعال البشرية تختلف عن سلوك الأشياء المادية، لأن الأفعال البشرية تقوم على تفسير المثيرات والحوافز وتأويل الاستجابات. وهذا يقتضي أنه إن قررنا تفسير السلوك البشري بصورة فعالة وناجحة، فلابد من أن نتوصل إلى فهم المنظورات الفكرية الثقافية أو رؤى العالم الخاصة بأفراد مجتمع البحث التي يقوم عليها هذا السلوك الذي نلاحظه.

الاكتشاف: "يُنظر للبحث باعتباره مُكرساً لاستكشاف طبيعة الظواهر الاجتماعية، وموجّها للكشف عن خصائصها، وليس باعتباره مقصوراً على اختبار بعض الفروض المحدَّدة. ويذهب البعض إلى أنه حين يتناول الباحث إحدى الظواهر باستعمال مجموعة من الفروض فإنه قد يُخفق في الكشف عن الطبيعة الحقيقية لهذه الظواهر، وذلك لكونه متأثراً بالمُسلَّمات الموجودة في هذه الفروض بحيث تحجب عنه الرؤية الواضحة لحقيقة الظاهرة." (المرجع السابق نفسه).

ومن يبن مجالات الحياة الاجتماعية التي يُسلط عليها هامرسلي الضوء ليُظهر النمو الكبير في الدراسات الإثنوجرافية التي تراكمت خلال السنوات الأخيرة؛ البحوث في مجال الشرطة. وقد أجريت الدراسات الإثنوجرافية في مجال الشرطة في مناطق جغرافية مختلفة (كوسط المدينة، والضواحي، والريف)، حيث غطت أنماطاً مختلفة من أعمال ضبط الأمن (كرجال الشرطة المشاة (دوريات السير) أو رجال الشرطة الراكبين عرباتهم، أو الشرطة السريين، والفرق الشرطية المتخصصة، وما أشبه ذلك). كما استخدمت تلك الدراسات تشكيله متنوعة من

استراتيجيات البحث. وفى بعض الأحيان تم إجراء هذه الدراسات بمعرفة ضباط الشرطة أنفسهم، سواءً فعلوا ذلك بطريقة مستترة أم ظاهرة، إلا أن هذه الدراسات أكثر - غالباً - من تلك الدراسات التي أجراها باحثون من خارج رجال الشرطة، وهم الباحثون الذين تغلبوا على عقبة الوصول إلى أهداف البحث. ووفقاً لهامرسلي (١٩٩٢)، فإن تلك البحوث كانت تستهدف:

"الوصف التفصيلي للأوجه المتنوعة للعمل في الشرطة وإلى أيّ مدىً تختلف هذه الأوجه بين مكان ومكان وعلى امتداد الأوقات. وبالمثل، بذلت عدة محاولات لتفسير كلّ من السمات الثابتة والمتغيرة للعمل الشرطي، بجانب فَهم دوره في المجتمعات الحديثة".

رغم أن البحث الإثنوجرافي يشهد نوعا من الإحياء في السنوات الأخيرة، فسيكون من الخطأ التسليم بأنه مقبول لدى جميع الباحثين باعتباره طريقة بحث مشروعة ومرغوب فيها. ومع أنه من المُعترف به أن مثل هذا البحث يستطيع التغلب على بعض أوجه القصور في الطرق الأكثر تقليدية، فإنه لا يزال محل انتقاد. فقد أولى بعض علماء الاجتماع اهتمامهم لتأمل الطبيعة المتحيزة للإثنوجرافيا، وأشهرهم في ذلك المفكرون النسويون، والذين يذهبون إلى أنه لابد من من تغيير شكل الإثنوجرافيا لتتحول عملية تعاونية تقوم على المشاركة، إذ يتم فيها إزالة التمييز بين الباحث والمبحوثين إذا كانت تريد أن تخدم أهداف الحركة النسوية.

ومع ذلك، فإن الانتقادات المتعلقة بنقص الموضوعية قد أضعفتها الاتجاهات الفلسفية الحديثة (كما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة، وما أشبه ذلك - انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب) إذ تلقي هذه الاتجاهات الشك أصلا في إمكان وجود تمثيل موضوعي وصادق للعالم الاجتماعي، وذلك على النحو التالي:

" تؤكد هذه الفلسفات أن جميع وجهات النظر إنما هي بمثابة تأويلات، وأنها تعكس الظروف الاجتماعية التاريخية والمصالح الخاصة بالشخص الذي يقدم وجهة النظر. فلا وجود "لرؤية إلهية" تعلو على العالم الاجتماعي؛ فالإثنوجرافيون هم – بالضرورة– جُزءٌ من هذا العالم الذي يصفونه، كما أن توصيفاتهم لهذا العالم يتحكم فيها موقعهم في داخله. زد على ذلك ما يقال من أن ادعاء القدرة على تقديم تفسير موضوعي ومحايد للواقع الاجتماعي يؤدي دوره بفاعلية كوسيلة تستخدمها بعض الأصوات الصادرة عن بعض المواقع الاجتماعية، التي عادة ما تكون أصوات الرجال الغربيين البيض من أبناء الطبقة المتوسطة، التي تسعى للسيطرة على أصوات الآخرين" (المرجع نفسه، ص ص ٢١-٢٢).

استجابة لوجهات النظر هذه، اتخذ الباحثون مَنْحىً أكثر إحكاماً في الدراسة الإثنوجرافية يرتكز على منظور فكريٍّ نقديٍّ رحيب في البحث السوسيولوجي، يستلهم فلسفة النزعة النسوية بصورة عامّة. ويذهب هذا المنظور الفكرى في "البحث الاجتماعي النقدي" إلى التسليم بأنه لا يمكن اكتشاف المعرفة أو الحقيقة بمجرد إجراء الدراسة. فالمعرفة لا يمكن فصلها عن القيم والاتجاهات، ولهذا السبب يتأثر الباحثون بتلك القيم والاتجاهات في اختيارهم للموضوع وللطرق التي يتبعونها في إجراء بحثهم. كما يرى أصحاب هذا المنظور النقدي أن القيم المتعلقة بـ"الفهم الشائع" (أو الباده) "وبكل ما يؤخذُ مأخذ التسليم" يتعين النظر إليها نظرة نقدية بُغية التعرف على ما يكمُن تحت السطح، وهو الأمر الذي يمكن بَعدَه للبحث أن يأخذ مجراه حتى يؤلد معرفة جديدة. (هارفي Harvey، ١٩٩٠). وقد استعمل النسويون – مثل آن أوكلي– هذا المنحى في بيان كيف أن العمل المنزلي، ورعاية الأطفال، وولادة الأطفال، والأمومة أمور عالجها علم الاجتماع انطلاقاً من منظور ذكوري شائع يحطُّ من قيمة عَمل النساء ومن دور النساء في المجتمع بصورة عامّة، ويرى أن ما تقوم به النساء من عمل أمرٌ لا أهمية له أو أمرٌ ثانوي. وركّز

باحثون آخرون – يأخذون بهذا التوجه –على الجماعات المقهورة أو على أبنية القمع في المجتمع. ومن الأمثلة على ذلك دراسة وستوود Westwood (١٩٨٤) لعاملات المصانع من الآسيويات والبيض، ودراسة ماك Mac و جيل Ghaill (١٩٩٤) لتطور الذكورة في الشباب من الجنسيين المثليين ومن ذوي الميول الجنسية الطبيعية.

الإثنوجرافيا الإلكترونية

تُعرف الإثنوجرافيا الالكترونية بأنها دراسة التفاعل الإلكتروني (جاجالا Gajjala، ١٩٩٧). ويمكن أن يتم هذا التفاعل في غرف الدردشة، أو عبر نظم تخزين وحفظ البيانات على الكومبيوتر، أو من خلال البريد الإلكتروني، أو بواسطة التليفونات المحمولة، وفي مرافق التعليم الافتراضي (VLEs).

فمع الاستعمال المتزايد للإنترنت في مجال العمل، والتعليم، وقضاء وقت الفراغ والاتصال باعتبارها "ثقافة افتراضية"، ونظراً لأننا جميعا أصبحنا منخرطين ضمن شبكة اتصال تتزايد في عولمتها، فقد توفر مبرر معقول لدراسة هذه الأشكال الجديدة للاتصال في المجتمع الذي نعيش فيه دراسةً سوسيولوجية. والواقع أن ولمان Wellman وهايثورنثوايت Haythorn-thwaite (٢٠٠٢) يذهبان إلى أن الإنترنت تُعد في وقتنا الحاضر جزءا لا يتجزأ من حياتنا اليومية. ومن هنا نمت وتطورت الإثنوجرافيا الإلكترونية باعتبارها وسيلة بحث لدراسة التفاعل، والاتصال والمجتمعات الإلكترونية. ومع ذلك، يوجد ثمة خلافٌ حول طبيعة ذلك "المجتمع"الإلكتروني، وحول ما إذا كانت توجد أوجه تشابه/ أو أوجه اختلاف بين المجتمعات الإلكترونية/أو الافتراضية والمجتمعات الواقعية (وورد Ward، ١٩٩٩). وبهذا الشكل يكون لمفهوم المجتمع دلالاته الضمنية في دراسة الشبكات

الإلكترونية، حيث يتجدد النقاش حول القضايا الأخلاقية للإثنوجرافيا التقليدية، التي يعاد إنتاجُها في المناقشات الدائرة حول الإثنوجرافيا الإلكترونية وحول إجراءات ممارستها. ويذهب وورد إلى أنه يمكن استعمال الإثنوجرافيا الإلكترونية وحدها، كما يمكن استعمالها كذلك كمُكمِّل لطُرق البحث التقليدية: كإجراء المقابلة والمُلاحظة؛ إلا أن الإثنوجرافيا الإلكترونية تُعد أساساً وسيلةً مقصود منها أن تُصبح جزءاً من ثقافة الإنترنت، باعتبار الباحث فيها مشاركا فيها وملاحظاً لها. وقد استعمل وورد المقابلات شبه المقننة في الدراسة الإثنوجرافية الإلكترونية لمجتمعين إلكترونيين نسويين، وفيها قام بتعديل عملية المقابلة بحيث تواكب الإمكانيات المتاحة على مواقع الشبكة، كما أتاح للمشاركين فرصة الاضطلاع "بالدور القيادي" في تحديد طبيعة جماعتهم.

يستعرض فاي Fay (٢٠٠٧) تطور الإثنوجرافيا الإلكترونية ويصل إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد إلا قدرٌ قليل من الفائدة التي نجنيها من النظرة الثنائية إلى المجتمع "الواقعي" والمجتمع "الافتراضي". وذلك لأن الأقرب إلى الصواب أن المجتمعات الإلكترونية تجمع بين أمرين هما: أنها تشارك المجتمعات الواقعية في خصائص كثيرة، إلا أن لها كذلك بعض الجوانب الخاصة التي تميزها عن تلك المجتمعات. فالمجتمعات الافتراضية تسكن العالم الواقعي، بمعنى أنه يتوافر لمن يشاركون فيها سياقات اجتماعية، وسياسية واقتصادية، وهي السياقات التي تبيح وتقيد ممارسات أمثال تلك المجتمعات. وعلى أشد المستويات أساسيةً، سوف يؤدي افتقاد الوصول إلى التكنولوجيا الافتراضية إلى الحيلولة دون حدوث تلك المشاركة أصلاً. ويُعد مثل هذا الوصول أمراً مُقنناً، وذلك حال كون كثيرٍ من أجزاء العالم النامي لا تملك إلا قدراً من إمكانيات الوصول لهذه التكنولوجيات يقل كثيراً عما لدى العالم المتقدم. يُضاف إلى ذلك، أن أُورى Urry (٢٠٠٣) يذهب إلى أنه توجد علاقة بين اللقاءات المباشرة واللقاءات الإلكترونية، من حيث كون كل منهما تحدثُ داخل نطاق

شبكةٍ معينة، ومن حيث ظهور الروابط الانفعالية القوية التي من نتائجها زيادة التزام المشاركين بالحفاظ على المجتمع الموجود في العالم الافتراضي.

وبينما تركز معظم الدراسات الإثنوجرافية الإلكترونية على المجتمعات الإلكترونية الأكاديمية، ومن أمثلتها تلك المجتمعات التي تنشأ من داخل المؤتمرات أو من خلال واحدة من الاهتمامات الأكاديمية المشتركة، فإن ظهور تكنولوجيا إنشاء الشبكات الاجتماعية، والمتمثلة في "ماي سبيس" My Space أو "فيس بوك Facebook"، تقدم مجالاً إضافياً للبحث. وتدلنا على أهمية مواقع الشبكات الاجتماعية هذه، كثرة عدد الملايين من مستخدميها، حيث يستخدمها أكثر من نصف الأمريكيين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢-١٧ سنة (لنهارات Lenhart وآخرون، ٢٠٠٧). وكان فونتس Fontes وأوماهوني O'Mahony (٢٠٠٨) قد استخدما المقابلات المتعمقة شبه المقننة في استخدام الأفراد لمواقع الشبكات الاجتماعية، والتي منها موقع إم.إس.إن MSN، والتي تستخدم أسلوب الإرسال الفوري للرسائل. كما يقوم بحثهما على الإثنوجرافيا الإلكترونية الاستكشافية بقصد استقصاء هذا المجال غير المشهور للشبكات الاجتماعية. وهما مع ذلك على وعيٍ بالمشاكل التي تكتنف مثل هذه الدراسات، من قبيل مشكلة التمثيل في اختيار العينة ومشكلة صدق المادة التي تُجمع من المُستجيبين، وكذلك مشكلة أوجه القصور الموجودة في أشكال الاتصال التي تتم عن بعد، أو قل أشكال الاتصال "الافتراضية" في هذا النوع من البحوث.

ويرى ريباس Rybas وجاجالا (٢٠٠٧) أن واحداً من الفروق الأساسية بين البحث الإثنوجرافي (التقليدي) والبحث الإثنوجرافي الإلكتروني يتمثل في العلاقة بين الباحث والمبحوثين. فعلى حين تتطلب الإثنوجرافيا التقليدية من الباحث أن ينغمس في ثقافةٍ معينة لكن يستطيع أن يفهمها، فإنهما يذهبان إلى أنه توجد مرحلة

في البحث الإثنوجرافي الإلكتروني تجعل هذه العملية مختلفة. فلكي يشارك الباحث في مجتمعٍ إلكتروني، يتعين عليه أن يقدم ذاتاً إلكترونية. ويتم عَمَل ذلك من خلال قيامه بالكتابة ومعالجة صورته الشخصية، أي "كتابة المرء عن نفسه كما هو عليه الآن". كما يقوم المشاركون الآخرون بصنع صورة "لذواتهم" أو "لأنفسهم" من خلال فعل الكتابة، وبهذا الشكل يوجد كل من الباحث والمبحوث بوصفهما مبحوثين مزدوجين حيث يقوم أحدهما بالكتابة – وهو الباحث – ويكون الثاني هو الشخص الذي يُكتب عنه. وبهذا الشكل لا يكون الباحث منغمساً في ثقافةٍ ما، بل يكون الباحث الذي رُسمت صورته شريكا فعالاً في خلق هذه الثقافة. وهذا يثير الشكوك في حدوث التحيُّز والتأثير اللذين يتعذر التغلب عليهما.

ويتمثل جانب آخر من جوانب الصعوبة في أن طرق البحث التقليدية لتحليل الشبكات الاجتماعية يتعذر تطبيقها على المجتمعات الإلكترونية، والتي تكون حدود المجتمع فيها حدوداً غير واضحة ودائمة التغير. كما أنه ليس من اليسير تقدير قوة الروابط القائمة بين المشاركين في مجتمع إلكتروني، وذلك لأن التفاعل لا يعني بالضرورة وجود ارتباط وثيق في مثل هذه الفضاءات الافتراضية (انظر شليجر Shlager وآخرون ٢٠٠٩). وإن بإمكان الجمع الآلي للتفاعلات، والذي تتيحه لنا هذه التكنولوجيا، أن يُقدم خريطة علاقات اجتماعية لأنماط الأفعال التي تحدث في المجتمع الإلكتروني، إلا أنه لا يدل الباحث شيئاً عن معنى هذه التفاعلات وأهميتها لدى هؤلاء المشاركين. وقد توصل البحث إلى اكتشاف أن المجتمعات الإلكترونية تتعهد الروابط الضعيفة بالرعاية، وبينما يكون ذلك أمراً ممتازاً بالنسبة لتدفق المعلومات، وبالنسبة للنشاط الذي يمثل محور التركيز، ولتطور المشاركين، إلا أن مثل هذه المجتمعات لا تساعد على ظهور "رأس المال الاجتماعي" الذي يُمثل هدف تلك المجتمعات (لفئة المدرسين مثلاً).

يُضاف إلى ذلك، أن طرق البحث التقليدية في جمع البيانات، سواء منها الطرق الكمية والكيفية، ليس لها إلا تطبيق محدود في مجال الشبكات الإلكترونية. فحتى المجموعات الصغيرة تكون دائمة التغير، وتتفاعل وينسحب بعض أفرادها بصورة تبدو عشوائية، مما يجعل عملية البحث أمرا عسيرا. وعلى الجانب الآخر، توجد مجموعات ضخمة من البيانات المفيدة المتوافرة، والتي تحتاج إلى قدرٍ عظيم من الوقت والخبرة في التحليل الكمي واسع النطاق، إلى حد قد يجعل من الصعب تحليلها. لهذا يذهب شليجر وآخرون (٢٠٠٩) إلى أنه لابد من تطوير أدوات البرمجيات الجديدة التي يمكنها إتاحة فهم نواتج التفاعل (وهو ما يتم تحليله الآن) بجانب فهم هذه العمليات (والتي من العسير بدرجةٍ أكبر تكوين صورة واضحة عنها) التي بمقتضاها تظهر هذه النتائج. ويجب على المُصممين - عند تطويرهم للبرمجيات الجديدة - ألا يقتصروا على النظر إلى عدد مرات التكرار وحدها، بل عليهم كذلك توضيح وتحديد معنى التفاعل وفائدة هذه الشبكة للمشاركين فيها. ومن الأفكار في هذا الشأن تحليل "تمثُّل أو استيعاب" الابتكارات التي تستحدثها الشبكة (كالأفكار، والمصادر وما أشبه ذلك)، وبحيث لا يقتصر ذلك البيان على مدى استيعاب تلك المبتكرات من جانب مبدعيها المباشرين وحدهم، وإنما استيعابها كذلك في نفوس الأعضاء الآخرين في الشبكة. ومن ناحية أخرى يذهب جانكوفسكي Jankovski وآخرون (٢٠٠٤) إلى أن أغلب البحوث التي أجريت على مجتمعات الإنترنت والمجتمعات الإلكترونية تستخدم صورا معدلة من التقنيات الراهنة، كالاستبيانات الإلكترونية مثلا، ولا تطور طرق بحث تكنولوجية جديدة إضافة لما هو موجود. ورغم ذلك نلحظ أن هناك بعض الاستراتيجيات الجديدة الآخذة في الظهور والتشكُّل، والتي منها استراتيجية التدريبات على تحديد المعالم/أو رسم التفاصيل mapping (لاستعمال الإنترنت) واستراتيجية تحليل التوصيلات الفائقة واستراتيجية المقابلات الإلكترونية التفاعلية (سواءً منها ما يتمُّ آنيا أو ما يتم على فترات زمنية ممتدة). (انظر هاين Hine، ٢٠٠٥).

تقييم البحث الإثنوجرافي

نقاط القوة

١- نظراً لأن البحث الإثنوجرافي له مجالُ اهتمام أساسي واسع المدى، فإنه يمكن القول بأنه يُنتج بيانات متنوعة لا تعكس أفعال الباحث ولا تأويلاته (أي: فروضه التي سبق له تقريرها). ومن ثَم فإنه يلقى التأييد من علماء الاجتماع التأويليين.

٢- تقتضي سلسلة تقنيات جمع البيانات (المتمثلة في تعددية طرق البحث) أن يكون هذا البحث ذا درجة عالية من حيث الصدق والثبات.

٣- لأن البحث الإثنوجرافي يستعمل كلاً من البيانات الكمية والكيفية، فإنه يقدم مثالاً جيداً للطريقة التي بها يمكن دمج هاتين الطريقتين بصورةٍ ناجحة في البحث السوسيولوجي.

٤- يمكن للإثنوجرافيا الإلكترونية أن تكمل البحث الإثنوجرافي التقليدي عن طريق تقديمها لوسيلة إضافية لاستكشاف وفهم العمليات الاجتماعية في فضاء افتراضي قائم على النصوص.

أوجه القصور

١. يميل الوضعيون إلى انتقاد البحث الإثنوجرافي لأنه يفتقد الفروض المحددة. فهم يرون أنه بدون هذه الفروض، يفتقد البحث مصداقيته العلمية.

٢. كما أنهم يميلون إلى القول بأنه يتعذر على الباحثين أن يكونوا موضوعيين إذا كانوا، وهم في مستهل بحثهم، غير متأكدين من تحديد القضية التي

ستتم دراستها. فأي اتجاه يتخذه الباحث سيكون راجعاً إلى التأويل الشخصي له، كما يمكن أن يكون اتجاها غير أخلاقي.

٣. كما أن غياب الفرض المحدد له آثاره على قضية التمويل، وذلك لأنه من الصعوبة البالغة ضمان تمويل بحث غير موجه إلى قضية محددة قابلة للمعالجة الكمية (أي: قابلة للقياس). فمعظم هيئات التمويل لا تميل إلى اعتبار البحث ذي الأسلوب الاستكشافي مجزيا من حيث التكلفة.

٤. نظراً لأن المجال الأساسي لاهتمام البحث الإثنوجرافي مجالٌ فضفاض، فإنه يكون مُستهلكاً للوقت بصورة بالغة. فقد يستغرق شهوراً عديدة للوصول إلى موضوع محدد مناسب، كما أن من المحتمل أن تُجمع – خلال هذه الفترة– بيانات كثيرة غير ضرورية.

٥. قد يكون فحص البيانات التي تم الحصول عليها من خلال تشكيلة متنوعة من طرق البحث أمراً عسيراً من ناحية التنفيذ العملي. إذ أن من المشقة البالغة تقديم نتائج بحث متماسكة إذا لم تتوفر فكرة أساسية محورية (كفرض البحث/ أو هدفه) لتشُد أجزاء البحث معاً.

٦. الإثنوجرافيا الإلكترونية بالذات قد تسئ عرض صورة المجتمعات التي تجري دراستها بسبب المُسلمات الثقافية التي يعتمد عليها الباحث في دراسته للجماعات الإلكترونية.

البحث المقارن التتبعي

يقوم البحث المقارن – وكما يشير إليه اسمه – على عقد المقارنات بين الأفراد، أو الجماعات أو قطاعات من المجتمع. ويمكن لهذه المقارنات أن تتخذ

شكل الدراسات القطاعية أو المستعرضة التي تقارن بين جماعاتٍ مختلفة في فترة محددة من الزمن. ويعتبر بحث تيلور Taylor (١٩٩٤) عن الأسلحة النارية الشخصية نموذجاً لمثل هذا النوع من البحوث. فتيلور يقارن أنماط استعمال المسدس/ أو السلاح الناري الشخصي في بلدين رأسماليين –هما بريطانيا والولايات المتحدة– في محاولة لتقرير ما إذا كان (الذعر الأخلاقي) (أي: الاحتجاج الاجتماعي الصارخ) الحالي في بريطانيا، والمتعلق بالأسلحة النارية، له ما يبرره أم لا. ومع هذا، فإن هذا البحث يمكنُ بسهولة أن يُسمى بحثا "ثقافيا مقارنا" إذ أنه يقارن بين بلدين لهما أنماط ثقافية متميزة.

وتُعد الدراسة التي قامت بها شيهي (١٩٧٤) للأزمات التي يمكن التنبؤ بها في حياة البالغين، وعنوانها "مراحل التحول"؛ تُعد مثالاً آخر للبحث المقارن. حيث قامت شيهي بمقارنة خبرات الأفراد في المراحل المختلفة لحياة البالغين لترى ما إذا كان بالإمكان تمييز مراحل تطورية متميزة أم لا. وبدلاً من القيام بدراسة تتبعية للبلوغ، حاولت شيهي أن تفهم حقيقة مجموعات مختلفة، وفي أعمارٍ مختلفة، فيما يتصل بنقطة محددة، حيث أن الهدف العام لهذه الدراسة هو رسم خريطة تفصيلية للمراحل التطورية.

الموضوع (C)
مراحل التحوّل تقدم عملي هذا عبر عدة مراحل. فقد بدأ بإثارة بريئة... أعقبها بسرعة ذُعرٌ شديد. لنفترض أنَّ عشرة أشخاص أخذوا ما قلته مأخذ الجد؟ إن مُعظمنا لا يُؤثر على عشرة من الغرباء عن حياتنا. لقد كانت هذه المسئولية مُرعبة. فقد

تحولت إلى دارسة مجتهدة: أقرأ في الطب النفسي، وعلم النفس، والسير الشخصية، والروايات، والدراسات التتبعية، والمطبوعات الإحصائية المملة أشد الملل. لقد صرت أضحوكة في حفلات العشاء، لهذا فقد توقفت عن الاستمرار، أو التزمت الصمت وتجاوزت هذه المصاعب.

وقد جمعت إجمالاً عدد ١١٥ قصة حياة. وقد رأيت كثيراً من هؤلاء الأزواج معاً، وذلك بعد أن قمت أولاً بإعادة بناء تصور عن سيرهم الشخصية بصورة منفصلة. وقد زودتني تلك الجلسات بنوع من التعقيد الساحر كما ألقت كثيرا من الضوء على نفسية كل فرد منهم.

كان الأفراد الذين اخترتهم للدراسة ينتمون إلى "فئة القُدوة" الأمريكية- وهم أفراد أصحاء ذوو دوافع تحركهم ممن بدأوا حياتهم داخل الطبقة المتوسطة أو التحقوا بها قريبا، ورغم أن بعضهم بدأوا فقراء، بل في أحياء معزولة (جيتُوهات)، فإنني اخترت هذه المجموعة لأسباب عديدة.

وتتراوح أعمار الأفراد في هذا الكتاب بين ١٨ و ٥٥ سنة. ويشتمل الرجال على محامين، وأطباء، ومديرين تنفيذيين، ومديرين من الفئة الوسطى، ووزراء، وأساتذة جامعيين، وسياسيين، وطُلاب، كما كان منهم رجال يعملون بالفنون، وبوسائل الإعلام، وبالعلوم، ومن يديرون أعمالهم التجارية بأنفسهم. كما أنني سعيت في الوصول إلى النساء اللاتي بلغن القمة، بجانب أنني تتبعت خطوات كثير من النساء اللاتي يقمن برعاية صغارهن.

يكاد يكون كل من قابلتهم من هؤلاء الأفراد قد طلبوا مني أن يظلّوا مجهولي الأسماء...

ورغم أن كثيرين من المستجيبين كانوا قد نشأوا وتَربُوا في مدن صغيرة،

فإن المراكز الحضرية التي انجذبوا إليها تتضمن نيويورك، ولوس أنجلوس، وواشنطن، وسان فرانسسكو، وشيكاغو، وديترويت، وبوسطن، ونيوهافن، ودايتون، وأوهايو، وهي المدينة التي يعتبرها أصحاب الإعلانات داراً للأزواج الأمريكيين العاديين".

(المصدر: منقول بتصرف من: جيل شيهي:"مراحل التحول". "أزمات حياة البالغين التي يمكن التنبؤ بها".

Gail Sheehy, Passages: Predictable Crises of Adult Life, London:Bantam Books, 1974.

	تمرين ٨-٦
	سيُمكنك هذا التمرين من اكتشاف كيف أدارت شيهي بحثها. اقرأ الموضوع (C) ثم أجب على الأسئلة التالية:
تفسير تطبيق	١- لماذا كانت شيهي ملتزمة بالأخلاق حين اعتبرت مسئوليتها "مُرعبة"؟
معرفة فهم تقييم	٢- ما الفوائد التي يمكن أن تتحقق من قراءة شيهي للمادة المنشورة؟
تفسير تطبيق	٣- هل من المحتمل أن تكون البيانات المستمدة من قصص الحياة أعلى درجة من حيث الثبات أو الصدق؟ ولماذا؟
تقييم تحليل	٤- إلى أي مدىً كانت عينة شيهي مُمثلة؟ قدم مبررات لإجابتك.

تفسير تحليل تقييم	٥- ما العيوب التي يمكن أن تنجم عن التركيز على "فئة القدوة الأمريكية"؟
تطبيق تحليل	٦- على الرغم من هذا، تزعم شيهي أنها اختارت هذه الجماعة لأسباب عديدة. اقترح سببين ممكنين لهذا الاختيار.
معرفة فهم تحليل	٧- إذا رغب الأفراد المشاركون في دراسةٍ أن يظللوا مجهولي الهوية، فما الخطوات التي يستطيع الباحث اتخاذها للحيلولة دون التعرف على شخصياتهم؟
تحليل تقييم	٨- قيم السمات والمزايا النسبية لسحب جزءٍ من العينة -على الأقل- من مدينة كبيرة يعتبرها أصحاب الإعلانات "داراً للأزواج الأمريكيين العاديين"؟

تستهدف الدراسات الثقافية المقارنة تعزيز فهمنا للسلوك الإنساني في المجتمعات عن طريق استقصاء السمات المميزة للثقافات المختلفة. ومن النماذج الممتازة لهذا الاتجاه ما قدمته عالمة الأنثروبولوجيا مرجريت ميد Margaret Mead (١٩٣٥) التي أجرت في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين مجموعة من الدراسات عن بعض جزر المحيط الهادي لتقرر ما إذا كانت الأدوار المستندة للجنسين (أي: للرجال وللنساء) أدواراً عامة/ أو عالمية في كل المجتمعات أم أنها ثمرة للثقافة. وقد ذهبت إلى أنه إن كانت الأدوار المُسندة للجنسين وليدة العوامل الثقافية، فإنه ينبغي أن يكون سهلاً تمييز التباين الثقافي بين المجتمعات المختلفة على امتداد العالم كله. وتشير بحوثها (الموثقة في جميع الكُتب الدراسية الرئيسية لعلم الاجتماع) إلى أن هناك من الشواهد ما يؤيد صحة تلك الفرضية وأن الأدوار المسندة

للجنسين إنما هي من "صنع المجتمع" (أي يتم تشكيلها وصياغتها وفقا للمعايير والتوقُعات الاجتماعية) أكثر مما يتم تحديدها بيولوجياً (أي تشكيلها بمقتضى الطبيعة) إن دلالة هذه النتيجة تعلمنا الشيء الكثير عن قيمة البحث الثقافي المقارن.

وفي العادة، يهدف البحث المقارن إلى تحديد درجة التشابه أو الاختلاف بين مجموعات البيانات، أو يهدف إلى الكشف عن الأنماط المتكررة والاتجاهات السائدة في البيانات. ولهذا السبب، يحظى مثل هذا البحث بالتفضيل لدى البنيويين الذين يهتمون بالعوامل الأساسية التي تحكم المجتمع الإنساني. ومن الأمثلة الكلاسيكية للبحث المقارن دراسة دوركايم (١٨٩٧-١٩٥١) عن الانتحار. إذ قام دوركايم بمقارنة معدلات الانتحار في تسعة بلاد أوروبية في محاولة للكشف عن العوامل المشتركة التي يمكن أن تفسر الانتحار(انظر القسم الذي يتناول الوضعية في الفصل الثالث من هذا الكتاب).

ونظراً لأن بحث دوركايم قد تعرض لانتقادات شديدة من جانب، ونظراً لظهور النزعة المضادة للوضعية وعلم الاجتماع التأويلي في الخمسينيات من جانب آخر، فقد هبط مستوى شعبية أو جاذبية الشكل البنيوي للبحث المقارن. مثال ذلك، أن المفكرين أصحاب نظرية الفعل أكدوا على تفرد السلوك البشري لكل إنسان ولذلك ذهبوا إلى أن المقارنات واسعة النطاق على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى أمرٌ غير مناسب. ومع ذلك، احتفظ البحث المقارن بمكانته لدى الوضعيين الأوفياء للوضعية، كما واصلت كثير من أقسام علم الاجتماع بالجامعات اعتمادها على طرق البحث المقارنة لمساعدتها على فهم القضايا على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى. ويمكن القول أن عددا كبيراً من البحوث التي تناولت التقسيم الطبقي الاجتماعي والحراك الاجتماعي قد تبنت منحىً مقارناً عند الحكم على القضايا الموضوعية والقضايا الذاتية للطبقة الاجتماعية وللحراك الاجتماعي.

وفي وقت أحدث، أدت بعض العوامل -كالعولمة وظهور التكنولوجيا الجديدة (للمعلومات والاتصالات)، إلى أن يحظى البحث المقارن بنوع من الإحياء الجديد. إذ يتزايد الاعتراف بقيمته في مجال عقد المقارنات العالمية بين الأمم، وذلك لأن علماء الاجتماع يدركون أنّ الخصائص الاجتماعية لكل أمة من الأمم لم يعد بالإمكان النظر إليها بمعزلٍ عن غيرها، بل ينبغي-بدلاً من ذلك- النظر إليها باعتبارها متأثرةً بالعوامل العالمية، إنْ لم تكن باعتبارها نتيجة لهذه العوامل نفسها (انظر تمرين ٨-٧).

وقد قدمت تشيرنجتون Chernington (١٩٩٣) مثالاً للدور الذي يستطيع أن يقوم به البحث المقارن في إثراء فهمنا للجريمة والانحراف. ويركز بحثها على مشكلة المخدرات الآخذة في التضخم في الصين، على النحو الذي تؤكده السلطات الصينية. ونظراً لعدم توفر البيانات الموثوق بها والدراسات المتعمقة، فإن من المتعذر استخلاص النتائج المتعلقة بمدى وطبيعة هذه المشكلة الراهنة، وذلك على الرغم من أن تشيرنجتون تُبين كيف أن بالإمكان تطبيق النظريات والبحوث السوسيولوجية البريطانية بطريقة مُفيدة في المساعدة على فهم سوء استخدم العقاقير المخدرة في الصين، وهي بلد به معايير اجتماعية وثقافية، وسياسية مختلفة، تقول في هذا المعنى:

"يتضمن هذا البحث المقارن القيام بعقد المقارنات بين كلا المجتمعين (البريطاني والصيني) وإعمال الفكر في تأثير ما تقوم به السلطات في كل بلد منهما من التأثير على التطورات اللاحقة في كل بلد منهما. ومن ناحية أخرى يمكن أن تؤدي هذه المحاولة لفهم الوضع في الصين إلى إعادة التفكير فيما يحدث داخل المجتمع البريطاني". (المرجع السابق).

ومن الأمثلة الأخرى للبحث المقارن ذلك البحث الذي قام به ستوكمان Stockman وآخرون (١٩٩٢)، إذ درسوا تأثير التصنيع على المجتمعات. وقد كانوا مهتمين – بصفة خاصة – بقضية ما إذا كان التصنيع يتسبب في جعل المجتمعات "تتقارب" (أي: يزداد التشابه بين بعضها البعض في أنماطها المؤسساتية). أم "تتباعد" (أي تُظهر استجابات مختلفة لأزمات التنظيم الاجتماعي المتماثلة ومن ثم تزداد اختلافا عن بعضها البعض).

وقد ركز ستوكمان وزملاؤه على جانب واحد من جوانب عملية التصنيع، وهو الجانب الذي قد يُفترض أنه شائع بين جميع النساء – والمتمثل في انفصال البيت عن العمل والدور المتغير للنساء– أي: تغيُّر دورهن من المشاركة في الاقتصاد الأُسري في عصور ما قبل الصناعة (أي: عصر الصناعة المنزلية– أو الريفية) إلى المشاركة في المجال المنزلي فقط. وقد تنبأ ستوكمان وزملاؤه بأنه إذا كانت فكرة "التقارب" هذه فكرة دقيقة، فإنه ينبغي – حينئذ – أن تكون عامةً وعالمية (أي: تحدُث في جميع أنحاء العالم).

الموضوع (D)
عمل المرأة تُستمد البيانات المتعلقة بالصين واليابان من "المسح الاجتماعي للحياة العائلية للنساء العاملات"، وهو مشروع اشترك في تنفيذه "معهد علم الاجتماع في الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية ببكين"و "المعهد الياباني لدراسات الشباب" في طوكيو. وفي هذا المسح سئلت النساء اللاتي لهن أطفال صغار يرتادون دور الحضانة، ورياض الأطفال، ومراكز رعاية الطفولة في ثلاث من كبريات المدن

الصينية وفي المناطق الحضرية في اليابان، وتم ذلك سنة ١٩٨٧. وكانت العينة الصينية تضمُّ (٢٠٧٠) امرأة، بينما شملت العينة اليابانية (١٨٦٥) امرأة.

ولكي يمكن تقديم بيانات قابلة للمقارنة بالنسبة لبريطانيا، اعتمدنا على بعض نتائج البحث الذي أجراه مركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية بعنوان "مبادرة التغير الاجتماعي والحياة الاقتصادية". وتضمن هذا البحث مقابلات مع ١٠٠٠ مبحوثة في كل سُوقٍ من أسواق العمل الحضرية البريطانية متوسطة الحجم الستة التي تمت دراستها في عامي ١٩٨٦و ١٩٨٧ (بإجمالي ستة آلاف مفردة). والبيانات المستعملة في هذا المقال مستمدة من عينة فرعية مكوّنة من ٤٦٦ مبحوثة من النساء المتزوجات، العاملات، اللاتي لديهن أطفال في سن الدراسة أو في سن ما قبل الدراسة. وقد تم تكملة هذه البيانات بمادة مُستخرجة من المسح الاجتماعي الخاص "بالنساء والتوظُّف" الذي أجراه مركز OPCS في سنة ١٩٨٠ (مارتن وروبرتس، ١٩٨٤).

(المصدر: نورمان ستوكمان، ونورمان بوني Norman Bonney وشينج زيوين Sheng Xuewen، "عمل المرأة في الصين، واليابان، وبريطانيا العظمى"، "مجلة علم الاجتماع" Sociology Review، (١)، ١٩٩٢).

	تمرين ٨-٧
	اقرأ الموضوع (D) وأجب على الأسئلة التالية:
معرفة فهم	١- هات سببين ممكنين يفسران لماذا استعمل الباحثون بيانات مستمدة من "المعهد الصيني لعلم الاجتماع" (بكين) و"المعهد الياباني لدراسات الشباب" (طوكيو).

تفسير تطبيق	
تحليل تقييم معرفة فهم	٢- لماذا كان مهما أن تُسحب العينة الصينية من ثلاث مدن كبرى وتسحب العينة اليابانية من المناطق الحضرية.
تفسير	٣- ما العدد الإجمالي للنساء اللاتي اشتملت عليهن هذه الدراسة؟
تحليل تقييم	٤- إلى أي مدى يمكنك أن توافق على دعوى الباحثين بأن البيانات المستخرجة من بريطانيا كانت "قابلة للمقارنة تقريباً"؟ (ملحوظة: أمعن النظر في حجم العينة، وفي حجم المناطق الحضرية المختارة، وفي خصائص هذه العينة وما أشبه ذلك، وحدد إلى أي مدىً تُعدُّ هذه العينة وهذه المناطق مشابهة للعينات والمناطق الصينية واليابانية؟).
تحليل تقييم	٥- لماذا يُحتمل أن يكون من المجازفة تكملة بيانات البحث بمادة مستخرجة من المسح الاجتماعي للنساء والتوظف، والذي قام بإجرائه مركز OPCS في عام ١٩٨٠؟

ومع أن بحث ستوكمان وزملائه يُعد نموذجا شيقا لطريقة استخدام البحث المقارن في الكشف عن وجوه التشابه ووجوه الاختلاف بين المجتمعات، فإنهم توصلوا إلى نتيجة -هم مُحقون تماماً فيها- مَفادُها أن هذا البحث لم يُوفر إلا

مُقارنة أوّلية أو مبدئية فيما يتعلق بتوزيع أفراد الأسرة على كل من العمل بأجر والعمل المنزلي في ثلاثة أقطار، كما أن نتائجه لا يمكن أن تعد نهائية أو حاسمة.

إذا أدخلنا في الاعتبار ظهور علم الاجتماع العولمي، فمن المرجح أن يؤول أمر البحث المقارن في المستقبل إلى المزيد والمزيد من الانتشار. إذ يوجد مجال له شأنه في جمع البيانات تبعاً لنطاق المقارنات التي يمكن عقدها، أي: المقارنات القطاعية (المستعرضة)، والمقارنات بين الثقافات، والمقارنات التتبعية (الطولية). ومن شأن التطوراتُ التي حدثت في تكنولوجيا المعلومات أن تجعل البحث المقارن أسهل. فبدلاً من أن ينفق الباحثون فتراتٍ طويلة من الزمن وهم يجمعون البيانات ويصنفونها يدوياً، سيصير في الإمكان فحص البيانات واختيار المتغيرات بل حتى الأقطار، أو القارات، أو الأمم للمقارنة بينها في خلال ثوانٍ.

ويلاحظ أن نمط البحث المقارن الذي يحقق أعظم فائدة لعلماء الاجتماع العولميين هو الدراسة الثقافية المقارنة، أي وضع السمات المميزة لبعض الثقافات والمجتمعات المختلفة بجوار بعضها البعض وتأملها. إذ من شأن مثل هذه المقارنات أن تُمكن من إجراء عمليات الاختبار محدودة النطاق لبعض فروض العولمة. مثال ذلك، أنه لو كان حقاً أن العولمة تسير فعلا في طريقها العادي المتوقع لها، فإن بإمكان المرء أن يفترض أن الأحداث المذكورة بالتفصيل أعلاه من الممكن التعرف عليها، وكذلك مراقبتها ورصد تأثيراتها في الأقطار المختلفة. وبذلك يمكن التحقق من فكرة جيدنز أن بإمكان العولمة أن تَحدث "تعددية في ردود الأفعال أو الاستجابات على المستوى المحلي" (أي تنوعاً جغرافيا في آثار ونواتج العولمة).

يتمثل نمطٌ آخر للبحث المقارن في الدراسة التتبعية (الطولية). ويتمّ إجراء البحث التتبعي على امتداد فترة زمنية معينة، حيث يجري البحث في العادة على نفس العينة أو على عينة متشابهة من الأفراد ويستعمل المقابلات و/أو الاستبيانات

لجمع البيانات. وكان البحث التتبعي قد استخدم لأول مرة في الولايات المتحدة لقياس التغيرات في الاتجاهات العامة بين الناس عن طريق سؤال مجموعة دائمة panel أو عينة من الأفراد على امتداد فترة من الزمن، كان الباحثون يتصورون أنهم يستطيعون أن يكونوا متأكدين بدرجة معقولة من أن أيَّ تغيرات في اتجاهات الناس ليست راجعة إلى تركيب هذه المجموعة الدائمة من المبحوثين.

ولعل أشهر دراسة تتبعية أجريت حتى وقتنا هذا في المملكة المتحدة في علم الاجتماع هي الدراسة التي عنوانها: "البيت والمدرسة" والتي قام بها دوجلاس W.B.Doglas(١٩٦٤). فقد فحص دوجلاس المسار التعليمي الابتدائي (حتى سن ١١ سنة) لـــ ٥٣٦٢ طفل بريطاني وُلدوا في الأسبوع الأول من شهر مارس سنة ١٩٤٦. وفي كتابٍ آخر، بعنوان "كل مستقبلنا" (١٩٦٨)، تتبَّعَ ٤٧٢٠ من العينة الأصلية خلال مرحلة الدراسة الثانوية حتى وصلوا سن السادسة عشر والنصف في العام ١٩٦٢.

قام دوجلاس باستقصاء سلسلة من القضايا المرتبطة بالتعليم، كقضية الخلفية الاجتماعية، وقضية الأداء التعليمي، وقضية الاتجاهات الوالدية إزاء التعليم، وانتهى إلى استخلاص بعض النتائج التي تتصل بتحديد العوامل المفضية إلى "النجاح أو الإخفاق" في التعليم. وقد تعرضت هذه الدراسة منذ ذلك الوقت لانتقادات شديدة، ترجع أساساً إلى استخراجها لنتائج غير مناسبة ودون توفر أساس تستند إليه. ومع ذلك، فإنها قدمت – في ذلك الوقت – رؤية قيمة لخبرة الأطفال التعليمية، كما أنها أصبحت حافزاً كبيراً للبحث في الأثر الذي يمكن للأحداث التي تقع في الطفولة المبكرة أن تُحدثه في الأداء التعليمي اللاحق. وفي سنة ٢٠٠٨ قررت الحكومة أن تُنفق إنفاقاً ضخماً على هذا البحث الاجتماعي من خلال تحديثه (أي: إعادة إجرائه من جديد). فتقرر إجراء دراسة على الأطفال الذين يولدون في أسبوع واحد من سنة

١٩٦٤، وسنة ١٩٥٨، وسنة ١٩٧٠، وسنة ٢٠٠٠، وسنة ٢٠١٢. وفي أغسطس ٢٠٠٨ شرع الباحثون الذين يُجرون المقابلات في إعادة سؤال الـــ١٧٠٠٠شخصٍ المولودين في أسبوعٍ واحدٍ في سنة ١٩٥٨. وقد سبق أن كشفت المقارنة بين المولودين سنة ١٩٤٦ والمولودين سنة ١٩٧٠ عن الصلة بين تدخين الأم أثناء حملها وانخفاض وزن الطفل عند ولادته. وكان ثلثا المولودين سنة ١٩٥٨ قد تركوا المدرسة وهم في سن السادسة عشرة، مما يدلُّ على أنهم سيعانون من البؤس طيلة حياتهم نتيجة لذلك (وذلك على الرغم من أن غيرهم استطاع الحصول على مؤهلات في مراحل لاحقة من حياتهم). وقد تبين أن الحراك الاجتماعي لمواليد سنة ١٩٥٨ كان ناجماً عن الطلب على المزيد من الموظفين الدائمين. ومع ذلك، وكما أشار إليه بولي توينبي Polly Toynbee (٢٠٠٨)، لم يتم إجراء بحوث طوال الفترة من سنة ١٩٧٠ حتى سنة ٢٠٠٠، وهي فترة ساد حكم المحافظين في أغلبها.

ومن الأمثلة الأخرى للبحث التتبعي الجاري تنفيذُ "المسح الاجتماعي لعينة دائمة من الأسر البريطانية" الذي يُجريه عدد من الباحثين في جامعة إسكس حيث يتم إجراء المقابلات الدورية مع عينة كبيرة جداً مكونة من ١٠٠٠٠ شخص سُحبوا من ٥٥٠٠ أسرة للحصول منهم على بيانات عن التغير الاجتماعي في حياة الأسرة. وقد انتفعت دراسات أخرى كثيرة بهذا البحث كبيانات ثانوية (داعمة).

وكانت دراسة مهمة عن الحراك الاجتماعي قد أُسست على قاعدة من بحثين تتبعيين (بلاندون Blandon وآخرون، ٢٠٠٥)، وهما: دراسة تطور الطفل على المستوى القومي (سنة ١٩٥٨) و"دراسة الأفواج البريطانية" (سنة ١٩٧٠)، ووجدت هذه الدراسة أنه يبدو أن الحراك في الدخل يقع بين هذين التاريخين. ومع ذلك، فإن هذا البحث استبعد جميع النساء، والعُزاب، والمتعطلين كذلك، معتبراً إياهم فوجاً أقلّ أهميةً مما كانت الدراسات الأولى تنظر به إليهم.

تقييم البحث المقارن

تمرين ٨-٨	تفسير- تطبيق تحليل-تقييم

يقتضي منك هذا التمرين أن تحدد السمات الرئيسية للبحث المقارن، وأن تُعمل فكرك في مزاياه وعيوبه. انسخ الجدول الموجز الوارد أدناه وأكمل صورة أخرى له أكبر منه. ولكي تضيف إلى الخانات الخاصة بالمزايا والخانات الخاصة بالعيوب، فقد تحتاج لإعادة قراء القسم السابق وتُعمل فكرك في السمات والمزايا النسبية للأمثلة المذكورة بصورة عامة.

السمات المميزة للبحث المقارن

١- يقوم البحث المقارن على ــــــــ

٢- يُمكن للبحث أن يكون واحداً من ثلاثة أنماط ــــــــ

٣- البحث المقارن مُفضل عند ــــــــــــ

٤- زادت شعبيته نتيجةٍ لــ ــــــــــ

المزايا	العيوب
١- يتيح لنا الكشف عن وجوه التشابه ووجوه الاختلاف بين الجماعات، وهو الأمر الذي	١- غالبا ما يتضمن عقد المقارنات بين الجماعات التي بينها من وجوه الاختلاف قَدر أكبر من وجوه

بإمكانه أن يساعد على زيـــادة فهمنا لحقيقة السلوك الإنساني.	التشابه. ولهذا السبب ستكون أى نتائج ينتهي إليها ذات منفعة محدودة.

تقييم البحث التتبعي

نقاط القوة

١- بدلاً من تقديمه لقطة سريعة أو صورة خاطفة، يُمكن للبحث السوسيولوجي التتبعي أن يُزودنا بالبيانات التي تم جمعها على امتداد فترة زمنية ممتدة، وبذلك يكشف عن الاتجاهات أو النزعات، والأنماط المتكررة، والتغيرات.

٢- يمكن الانتفاع بالعينات الكبيرة نسبياً في جعل البحث أكثر تمثيلاً وصدقاً. ويمكن تكرار هذا البحث، كما يمكن الاتصال بنفس الأفراد مرة بعد مرة.

٣- يستطيع البحث التتبعي الكمي – في غالب الأحيان- أن يختبر عدداً كبيراً من المتغيرات، وبذلك يكون في غاية التفصيل.

أوجه القصور

١- قد يتحقق الحجم الأصلي للعينة بصورة كبيرة على امتداد الزمن، نظراً لأن بعض أفراده يخرجون منه، أو يموتون، أو يغيرون محال إقامتهم، ومن ثم لا يمكن أصلا جمع بيانات منهم (وهو ما يعرف باسم: معدل الانقراض أو التناقص)، وهو الأمر الذي يجعل خجم العينة أقل تمثيلاً وبالتالي يؤدي إلى تشويه النتائج.

٢- للاستعمال السائد للاستبيانات والمقابلات في البحث التتبعي عيوبه ونقائصه فيما يتصل بالحصول على بيانات متعمقة (انظر الانتقادات التي سبق توجيهها لاستعمال هاتين الطريقتين).

٣- يمكن لطرق البحث التتبعي أن تكون باهظة التكاليف فيما يتصل بوقت الباحث وبعمليات تحليل النتائج.

٤- قد يغير المبحوثون سلوكهم أحيانا لأنهم يدركون أنهم محل دراسة.

تقييم الطرق الكمية والطرق الكيفية

تفسير – تطبيق تحليل – تقييم	ملحق تمرين ٨-٢

اهتم هذا الفصل – حتى الآن – بالطرق التي يمكن اعتبارها كمية وكيفية في الآن معاً. ومن شأن هذا أن يُحدثُ تعارضاً مع الاتجاهات التي عالجناها في الفصل السابع من هذا الكتاب، حيث تم تحديد طبيعة التقنيات بوصفها إمّا كمية أو كيفية. انسخ الجدول الموجز الوارد أدناه واستوف كتابة صورة أخرى منه أكثر اتساعا بغرض مراجعة المادة التي تناولها هذا الفصل بالدراسة، وقارنها بالمادة الواردة في الفصل السابع من هذا الكتاب. إن المعرفة والفهم الواضحين لأوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين التقنيات المختلفة. سيكون ضرورياً لا محالة بالنسبة لك عند إجابتك على أحد أسئلة الامتحان التي تتعلق بالطرق الكمية في مقارنتها بالطرق الكيفية، كالسؤال الرئيسي في القسم الخاص بمجال اهتمام الامتحان، والموجود في نهاية الفصل السابع من هذا الكتاب.

طرق البحث غير التجريبية - موجز للسمات والمزايا النسبية

لطرق البحث الكمية والكيفية

الطريقة	التعريفات	الدراسات الأساسية	المزايا	العيوب
• دراسات الحالة • تحليل الوثائق والمضمون				
• الدراسات الإثنوجرافية				
• البحث المقارن				
• البحث التتبعي				
• مناهج البحث البصرية				
• جماعات المناقشة				

زيادة الإقبال على التقنيات الأقل شهرة

مصادر الوثائق البشرية

حتى وقت قريب نسبيا، كانت مجموعة من تقنيات البحث التي تقع تحت فئة مصادر الوثائق البشرية (والتي منها على سبيل المثال، السير الشخصية والخطابات، والمفكرات اليومية، والتواريخ الشفاهية، وتواريخ الحياة) كانت تقنيات البحث هذه لا تحظى باهتمام علماء الاجتماع بصورة عامة. ويذهب هيتشكوك

Hitchcok وهيوز Hughes (١٩٩٥) إلى أنه بالرغم من أن مصادر المعلومات هذه جمعها العلماء الاجتماعيون واستعملوها لعدد من السنوات، فإنها ظلت مدة طويلة جداً "الجانب المهمل" لعلم الاجتماع (بلامر Plummer، ١٩٩٣).

وفي استعراض للكتابات السابقة في مجال الوثائق البشرية، يلقى هيتشكوك وهيوز (١٩٩٥) الضوء على طبيعة وأهمية مصادر البيانات هذه، كما يستكشفان بعض القضايا المنهجية والنظرية التي يرتكز عليها استعمالها. وهما يذهبان إلى أن الباحثين يتجهون إلى الاهتمام بمصادر الوثائق البشرية في محاولة منهم لاستقصاء خبرات الأحداث والمواقف انطلاقاً من وجهة نظر الفرد أو الجماعة. وينصبُّ الاهتمام هنا على نوع من التعاطف؛ وبهذا الشكل يكتسب هذا الاتجاه قواسم مشتركة كبيرة مع نمط علم الاجتماع الذي دعا إليه فيبر وعلماء الاجتماع التأويليون (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب، للوقوف على عرض لهذه الأفكار). واستعمل بلامر (٢٠٠١) تواريخ الحياة كجزء من البحث في دراسة عن الجنسية المثلية. وهو يذهب إلى أن جميع الوثائق – بما فيها الصور الفوتوغرافية، والخطابات، والمذكرات اليومية، والمذكرات، ودفاتر الملاحظات، والكلمات والعبارات المكتوبة على الجدران، والموسيقى – تُعد مصادر ثرية للبيانات عند علماء الاجتماع. كما يروج هذا الاتجاه كذلك بين النسويين الذين يسعون لتقويم وإصلاح التيار الذكوري السائد في علم الاجتماع عن طريق دراسة القضايا انطلاقاً من المنظور الفكري للنساء، وذلك لأن أساس مثل هذا البحث النسوى يقوم على الاعتراف بأن المدارك الحسية للنساء مختلفة عن المدارك الحسية للرجال. والواقع أن بعض النسويين (ستانلي Stanley و وايز Wise، ١٩٩٠) يرون أن القضية الوحيدة في البحث هي البدء انطلاقاً من خبرات المُشاركات واستخراج التصور النظري من واقع هذه الخبرات. وهم يبررون هذه الدعوى بالذهاب إلى أن نظرية

المعرفة السائدة في علم الاجتماع كانت في العادة إبيستمولوجيا الرجال البيض من أبناء الطبقة المتوسطة ذوى الميول الجنسية العادية.

تحليل – تقييم	تمرين ٨–٩

يقدم هذا التمرين تقنيات الوثائق البشرية، ويُمكنك من إعمال الفكر في السمات والمزايا النسبية لكل تقنية. وقد زودناك بتعريفات لكل اتجاه. ومهمتك أن تستعمل هذه التعريفات لتساعدك على تحديد ميزة واحدة وعيب واحد لكل اتجاه.

موجز لمصادر الوثائق البشرية

المصدر	التعريف	المزايا	العيوب
السير الشخصية/ تاريخ الحياة	إعادة تجميع مسار حياة فرد ما بواسطته نفسه. وقد يكون مُركزا على جوانب محددة من الخبرات أو على نوع من استرجاع تيار الوعي.		
التواريخ الشفاهية/ تواريخ الحياة	يُجري الباحث مقابلة مع المبحوث عن ماضيه، بما فيه من اتجاهات وما فيه من أعمال كذلك. قد يقوم الباحث بإيعاز المستجيب حتى يستمر في تركيزه على القضية المطروحة.		

الخطابات والمراسلات	البيانات المكتوبة، والتي يُدونها فرد ما في نفس الوقت، والتي يُوجهها إلى فردٍ آخر أو أفرادٍ آخرين.		

أبرز هيتشكوك وهيوز في ثنايا تقييمهما للسمات والمزايا النسبية لمصادر الوثائق البشرية، حقيقة أنه على الرغم مما لهذه المصادر من "إمكانية نجاح واضحة"، فإن علماء الاجتماع يتشككون فيها غالباً. وحتى على الرغم من ظهور شأن النموذج الفكري المضاد للوضعية (انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب)، فإن كثيراً من علماء الاجتماع ينفرون من الأخذ بتقنياتٍ تُنتج بيانات يُشك في كونها بيانات مُمثلة وثابتة منهجياً، وذلك بصرف النظر عما لها من درجة عالية من الصدق. ومن ثم، فإنه يبدو أن "الشخصي" لا يشغل إلا حيزا ضئيلاً في علم الاجتماع.

ومع ذلك يعترض هيتشكوك وهيوز على مثل هذا الإصرار. إذ يذهبان إلى أن تأثير فلسفة ما بعد الحداثة، والنزعة النسوية وارتفاع شأن الإثنوجرافيا كُلها أمور تؤيد البحوث المنشورة في مجال الوثائق البشرية. وقد شرع علماء الاجتماع الذين يتبنون الفكر المعاصر في التطلع نحو طرق البحث التي تؤكد على أهمية وجهات النظر الشخصية وتبرز ضرورة فهم العمليات الذاتية والتأويلية عند تفسير الحياة الاجتماعية. وهذا الرأي ناجمٌ، في جزء منه على الأقل، عن الإقرار بزوال السرديات الكبرى، أي: التفسيرات الشاملة لكل شيء في الظواهر الاجتماعية.

وقد تسببت قيمة مصادر الوثائق البشرية، أو ما يتصل بها من جوانب أخرى، في إطلاق جدل مُفعم بالحياة. فالوضعيون يرفضون البحث في الكتابات التي تعتمد على الوثائق البشرية، حيث يعتبرونها فاقدة للدقة ولمنهج البحث المنظم. فالبيانات المستمدة من تواريخ الحياة والتواريخ الشفاهية، والخطابات، والمراسلات تتضمن

حتماً عُنصراً من عناصر التأويل الذاتي أو الشخصي، وأعني بذلك أن الباحث يحكُمُ على المعلومات انطلاقاً من منظور فكري شخصي. يضاف إلى ذلك أن الباحث ليس لديه إلا قدرٌ قليل من السيطرة على المعرفة التي يتم جمعها، لأن قدراً كبيراً منها يصدر عن فردٍ كما أنه مُصمم للمقارنة التي يُجريها طرف ثالث. فالباحث لا يستطيع العمل إلا مع البيانات المتاحة. وأخيراً، إذا كان يتمُّ تعريف العلم بأنه "مُوجه إلى جمع المعرفة المتصلة بالوقائع التي تجري في العالم الطبيعي وإلى التنبؤ بها" (انظر الفصل السابع من هذا الكتاب للوقوف على التعريف الوافي)، فإن من شأن الوضعيين أن يرفضوا بحوث الوثائق البشرية لأنها لا تنطبق عليها هذه المعايير. فالبحث في الكتابات المعتمدة على الوثائق البشرية لا يهدف إلى وضع تنبؤات، وإنما هي "تحاول أن تستقصي حقائق الخبرات الفردية بالأحداث والمواقف انطلاقاً من وجهة نظر فردٍ ما أو جماعة معينة (هيتشكوك وهيوز، ١٩٩٥).

وقد أوعز هذا الخلافُ الجوهري إلى هيتشكوك وهيوز أن يستكشفا حقيقة ما إذا كان هذا النقص الملموس للمصداقية العلمية يصل إلى حد أن يمثل نقداً مشروعا للبحوث المعتمدة على الوثائق البشرية أم لا. وهما يذهبان إلى أنه لا يوجد بحث يُعنى فقط بطريقة البحث العلمية. بل إن الباحثين معنيون "بالفن" المتعلق بعالمهم بنفس درجة اهتمامهم – أو بدرجة أكبر – من اهتمامهم "بالعلم" المتعلق بمجهوداتهم. مثال ذلك، أن التطورات في البحوث التي تتناول تواريخ الحياة تُثير تساؤلات مهمة عن طبيعة وشكل التصورات الثقافية. وهما يستشهدان بميلز (١٩٤٩) في القول بأن مثل تلك التصورات تشكل جزءاً من التحليل العلمي الهادف للمجال المتداخل بين الفرد والمجتمع، وبين تاريخ الحياة الفردي والبناء الاجتماعي، وكذلك – وبصورة حتمية – بين القضايا الشخصية والهموم العامة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن طريقة البحث التي تستكشف التفاعل القائم بين جوانب المجتمع، ودورها في خلق الواقع الاجتماعي، إنما تكون طريقة مفيدة كل الفائدة.

ويمكن القول دفاعا عن الدراسات المعتمدة على الوثائق البشرية، أنه من الأرجح في ضوء التطورات المعاصرة في الفكر السوسيولوجي، أن البحوث التي تستكشف التصورات الثقافية ستقوم بدورٍ أشدَّ أهمية في علم الاجتماع. وقد تناولت البحوث فعلاً أمثال تلك القضايا التي منها قضايا ما بعد الحداثة وقضايا الثقافة الشعبية، من قبيل: تآكل الهوية الجمعية والشخصية، والعولمة (التطور والتأثير الشخصي للثقافة والاقتصاد الكوكبيين)، والأصولية (بزوغ رؤية عالمية تبرز الحقائق الجوهرية للعقائد الدينية التقليدية وتُطبقها بحماسة شديدة على مجتمع القرن العشرين)، والنزعة الكونية/ أو الكوزموبوليتانية (أي: تعايُش مختلف الثقافات، والجماعات الإثنية والحركات الاجتماعية) وما أشبه ذلك.

وقد لا يثير الدهشة أن يتنبأ هيتشكوك وهيوز (١٩٩٥) بمستقبل مزدهر للمصادر الوثائقية البشرية في علم الاجتماع فيقولان:

"يشكل الاهتمام بالسير الشخصية وتواريخ حياة الأفراد جزءاً من حوار سوسيولوجي بازغ معنيٌّ بكتابة وتحليل حيوات الأفراد... ونحن (أي: الباحثين) في جمعنا لتواريخ الحياة وتشجيعنا الأفراد على أن يكتبوها إنما نقوم – في آخر الأمر – بتشجيع أنفسنا ذاتها وبإعادة اكتشافها".

يضاف إلى ذلك، أنه جنباً إلى جنب تطور طرق البحث الجديدة التي تنبثق من النقد ما بعد الحداثي للطرق التقليدية التي منها طريقة المقابلة مثلاً، فإن الرؤية المستمدة من المنظور الخاص بالوثائق البشرية يمكن الانتفاع بها كذلك في تحسين الطرق التقليدية. ويعتقد ألفسون Alvesson(٢٠٠٢) أنه إن كان الباحثون على دراية بالوسائل التي يستطيع بها الخطاب السائد أن يؤثر على عملية المقابلة، فإنهم يستطيعون أن يُجوّدوا تقنياتهم في إجراء المقابلات ليُدخلوا في اعتبارهم وجهات نظر الأفراد الذين تتمُّ مقابلتهم. وبالمثل، فإن الباحث الذي يُجري المقابلة يمكنه أن

يكون حساساً لما لدى الفرد (الذي تتمُّ مقابلته) من وجهات نظر، وآراء، واتجاهات، وقيم، بجانب أنه، وكما ناقشت آن أوكلي (٢٠٠٥) هذا الموضوع باستفاضة، يستطيع التأكد من أنه لا تتشكل علاقة قوة غير متكافئة على امتداد خطوط النوع الاجتماعي، أو الإثنية، أو السن، أو العجز البدني، أو الطبقة الاجتماعية.

تقييم مصادر الوثائق البشرية

تفسير- تطبيق تحليل- تقييم	تمرين ٨-١٠
استعمل المعلومات التي يضمها هذا القسم لتكملة جدول ذي عمودين ذاكراً - على الأقل - ثلاث مزايا وثلاثة عيوب للمصادر الوثائقية البشرية. واكتب تحت هذا الجدول تقييماً لهذه المزايا والعيوب لتصل - بذلك - إلى تقييم متوازن.	

التحليل الكيفي المعاصر

في استعراضهما للتحليل الكيفي، يُسلط بانيارد Banyard وهيز Hayes (١٩٩٤) الضوء على مجموعة كاملة من التقنيات التي تزايدت شعبيتها على امتداد السنوات القليلة الأخيرة. وتشتمل هذه التقنيات على تحليل الحشد (دراسة السلوك الطقوسي للأفراد الموجودين في أحد مواقع الحشود) وتحليل البروتوكول (أي تحديد الخطوات التي تتضمنها أنماط معينة من العمليات المعرفية (أي العقلية) انظر (سلوبودا Sloboda، ١٩٨٥)، والتحليل الكيفي للموضوعات الأساسية (أي تفسير نتائج اتخاذ القرار باستعمال مجموعة من المعايير المعتمدة سلفا للتحليل

الموضوعي، انظر هيز، ١٩٩١)، وتحليل المحادثة (انظر بيليج Billig، ١٩٩٠)، والتحليل العاملي (أي التحليل العاملي للتقارير، والتفضيلات، والأحكام، والهوية الفردية، وما إلى ذلك، انظر ستيفنسون، ١٩٨١، وستينتون – روجرز Stainton-Rogers، ١٩٩١).

ويلاحظ أن التقنيات التي تمت الإشارة إليها فيما سبق قد تطورت داخل نطاق علم النفس، إلا أن علماء الاجتماع البارزين يعترفون – وبصورة متزايدة- بقيمة تطوير ممارسات بحثية كيفية جديدة. مثال ذلك أن دراسة علم الاجتماع الجديد للذات (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب) تبّدو أكثر التزاما بطرق البحث الكيفية التي ركّز عليها بانيارد وهيز منه بالطرق الكمية التي تُعتبر متكاملة إلى حد بعيد مع علم اجتماع "الحداثة".

ويعني هذا الوضع الجديد أن مجال اهتمام علم الاجتماع آخذ في التغير، وأن القضايا التي يُنظر إليها في وقتنا الحالي باعتبارها قضايا يهمنا فهمها، تتطلب طرق بحث جديدة لدراستها. ففي الوقت الذي يُعتبر السعيُ للوصول إلى فهم القضايا الكوكبية على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى أمراً محورياً في النظرية الجديدة لعلم الاجتماع، يؤكد جيدنز (١٩٩٤) على دلالات العولمة بالنسبة للثقافة وبالنسبة للأفراد. مثال ذلك، أنه يتحدثُ عن أن القضايا الكوكبية تخلق أشكالا متنوعة من ردود الأفعال المحلية"، بما يعني أن هذه القضايا تؤثر على المجتمعات المحلية بطرق مختلفة ولكنها مهمة.

يضاف إلى ذلك، وكجزء من نظرية التشكل الاجتماعي (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب) يعرف جيدنز (١٩٩٢) "الانعكاسية" (التأمل النقدي) باعتبارها جانباً نقدياً من جوانب الذات الحديثة. وهو يعني بهذا التعبير: عملية التفكير فيما نعمله، وعملية اتخاذ القرارات، وعمليات الانتقاء بين خيارات مختلفة.

ومما يجعل هذا الأمر فائق الأهمية في العالم المعاصر هو أن اليقينيات التي كانت سائدة في الماضي لم تعد موجودة. وغياب السرديات الكبرى يعني أنه لا يمكن إقامة الممارسات الاجتماعية على أساس الماضي، بمعنى أن الأفراد لم يعودوا قادرين على أن يبنوا سلوكهم على التراث، وعليهم – بدلاً من ذلك – تبرير كل شيء في ضوء المعلومات الجديدة. وبافتراض ذلك، فإن كان علماء الاجتماع لا يستطيعون الاعتماد على السرديات الكبرى كأساس لتفسير الحافز/ والسلوك البشري لأن تلك السرديات لم تعد موجودة، فلابد أن يُحولوا اهتمامهم إلى دور الانعكاسية (التأويل) في تحديد الفعل البشري أو في الإسهام فيه. وقد يفضى هذا إلى زيادة استعمال طرق البحث الكيفية الموجهة لدراسة التفاعلات على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغرى بقصد تطوير فهمنا للانعكاسية كعملية اجتماعية. ومن اتجاهات البحث التي انبثقت انطلاقاً من التفكير الانعكاسي في علم الاجتماع، وبالذات من الرغبة في فهم وتفسير العالم من منظور هؤلاء الذين تُجرى عليهم الدراسة؛ انبثق منها اتجاهان هما: الاتجاه الخاص باستعمال طرق البحث البصرية كأفلام الفيديو، والفيلم السينمائي، والصورة الفوتوغرافية والإنترنت، والاتجاه الخاص باستعمال جماعات المناقشة.

طرق البحث البصرية كتقنيات بحث

شهدت السنوات الأخيرة استخدام طرق البحث البصرية – كالصور الفوتوغرافية وتحليلها، وأشرطة الفيديو، والفيلم السينمائي، والصور الإيضاحية، والإعلانات، والتليفزيون والإنترنت- استخدامها من قبل بعض علماء الاجتماع (سويتمان Sweetman ونولز Knowles ٢٠٠٦، وهيليارد Hillyard، ٢٠٠٧)، وذلك لتكملة الانتفاع بطرق البحث الكيفية التقليدية كالمقابلة مثلا، كما استخدمت الطرق

البصرية كأدوات بحث في حد ذاتها. ويُعد هذا الوضع – إلى حد ما – انعكاساً للعالم الحديث الذي يتسم بإغراقنا بشكل مستمر بالصور والرسائل البصرية الصادرة من تشكيلة متنوعة من المصادر – كالتليفزيون، والإنترنت، والمجلات، وأفلام الفيديو، والدي. في.دي DVD، وألعاب البلاي ستيشن، وما إلى ذلك – والصادرة كذلك من الاستعمال الكبير للتكنولوجيا الرقمية في الكاميرات والتليفونات المحمولة بعد أن أصبحت هذه التكنولوجيا أرخص ثمناً، وأيسر توافراً، وأشيع استعمالاً.

توجد ثلاثة اتجاهات كبيرة في مجال استخدام الصور البصرية في علم الاجتماع. فالاتجاه الواقعي يعتبر الصور الفوتوغرافية وأفلام الفيديو بمثابة شكل من أشكال الشواهد (الميدانية) أو الأدلة التي يُمكن جمعها مثل أي بيانات أخرى بغرض التحليل الذي يقوم به عالم الاجتماع. ولارتباط الصور بما بعد البنيوية، فإنَّ بالإمكان -أيضاً- النظرية إليها كسِمة مُميزة للتشكيل الاجتماعي للمجتمع وبالذات مع التحكم في الجسد. مثال ذلك، أن واحداً من الاستخدامات المبكرة للصور الفوتوغرافية كان مخصصا لالتقاط صور للمجرمين، وذلك بقصد الاحتفاظ بسجل لملامحهم لإجراء المزيد من التحقيقات في المستقبل. وهذا الاتجاه الأخير مستمدٌ من علم العلامات (السيميولوجيا)، فهو موجود حيث تُعالج الصور بوصفها نصوصاً تتم قراءتها للوصول إلى دلالتها الإيديولوجية أو الاجتماعية الأشد عُمقاً. (انظر نولز وسويتمان، ٢٠٠٤).

من ذلك مثلا، ما عمد إليه هيليارد (٢٠٠٧) من سؤال المبحوثين – في دراسة تقع في نطاق علم الاجتماع الريفي- أن يزودوه بسجل أو تقرير قائم على الصور الفوتوغرافية التي التقطوها لتسجيل وقائع حياتهم، وذلك ليستوثق من أن منظور هذه الصور وتفسيرها صادران من وجهة نظر ذاتية وليس من تفسير قد يكون مفروضاً عليهم لو أن هذه الصور الفوتوغرافية كان قد التقطها باحثٌ ما.

ويشير هيليارد إلى مدى تجلي تعقد حياة أحد حراس الطرائد(*) في الصور التي التقطت في مكان تكون فيه اللقاءات الاجتماعية جزءا مهمًا من حياته المتصلة بعمله. بل حتى مع صورة تبدو – إلى حد ما- غير معقدة في نظر عين غير مُدربة – كأن تكون صورة فوتوغرافية لأحد الحقول – توجد عناصر في غاية الدقة تحتاج لتفسيرها، ومنها مثلاً الطريقة التي تدار بها الأجزاء المختلفة من "حقل الذرة" لضمان توفير التغذية للطيور المستعملة في الصيد وضمان الحفاظ على البيئة الطبيعية. فالقسم الواقع خلف "حقل الذرة" يتم الحفاظ عليه لاستعماله في إطلاق النار على الطيور ولضمان أنها وصلت إلى ارتفاع كاف لإطلاق النار عليها. ويشير هيليارد إلى أهمية تحليل هذه الصور الفوتوغرافية عن طريق الانتفاع بمعرفة دور حارس الطرائد المذكورة، وذلك بقصد الانتقال إلى ما وراء التفسير "الظاهري" للوصول إلى تفسير أكثر عُمقا مع استحضار وجهة نظر هذا المبحوث في الذهن.

وقد ذهب شو Shaw ومايزن Mizen (٢٠٠٧) إلى أن الأصول التي نشأ منها التصوير الفوتوغرافي وعلم الاجتماع "تصدر" عن منطلقين متشابهين من حيث أنها تشترك في الرغبة في التوثيق الموضوعي للمجتمع والتطور المجتمعي، وفي تحسين الظروف الاجتماعية للمحرومين والفقراء، إلا أن تلك الأصول "غير مترابطة بشكل ظاهر". ومع ذلك، فإن جوفمان، ومنذ وقت بعيد يرجع إلى سنة ١٩٧٩، استخدم الصور الفوتوغرافية لتحليل كيف تُشكل علاقاتُ القوة الركيزة التي يقوم عليها أدوار الرجال وأدوار النساء في الإعلانات التي تستخدم الجنسين. وتُعتبر أبحاث أخرى في مجال الصور الموجودة في كتب الأطفال (لوبان، ١٩٧٤)، ومجلات المراهقين (مكروبي، ١٩٩٦)، وفي الكتب الدراسية العلمية؛

(*) Gamekeeper هو الشخص المكلف بمنع المتطفلين من صيد الطيور في عزبة أو أملاك ريفية. (المترجم)

تعتبر هذه الأبحاث مألوفة لدى دارسي علم الاجتماع، وذلك على الرغم من أن هذه الأبحاث تميل إلى التأثر بدرجة أكبر بتحليل المضمون كما أنها تتضمن حساب عدد مرات استعمال صورة معينة بطريقة إمبيريقية كمية. وفي وقت أقرب، استخدم علماء الاجتماع الصور، والصور الفوتوغرافية، واليوميات المصورة بالفيديو، وما أشبه ذلك، في بحث وتوثيق مجالات الحياة الاجتماعية، كمجال الحياة الريفية مثلاً (هيليارد ٢٠٠٧) وتزيين الجسد والتحكم فيه (سويتمان، ٢٠٠٠) – وهي المجالات التي قصّر العلماء في بحثها قبل ذلك – استخدموا هذه الأنواع من الصور في محاولة لفهم حقيقة الحياة الاجتماعية كما تبدو من زاوية نظر المبحوثين المشاركين في هذه الدراسات.

وقد استخدم هاربر Harper (١٩٩٨) الصور الفوتوغرافية التي التقطها الباحث لعالم الشخص المبحوث كجزء من "مُقابلة مُستمدة من الصور"، ولكنه تبين أن "المعلومات الثقافية" الموجودة في هذه الصور الفوتوغرافية غير معروفة لمن التقط هذه الصور. وهذا الوضع يُسلط الضوء على واحدة من القضايا المتعلقة بأمثال تلك الطرق، أعني بذلك أن بالإمكان أن تضيع من الباحث الدلالة الثقافية للصورة أو يسيء تفسيرها، ومع ذلك يذهب شو ومايزن (٢٠٠٧) إلى أن الصورة الفوتوغرافية كسردية خارجية يُمكن استعمالها كجزء من البحث الكيفي لتزويده بالثراء والعمق الذي هو الهدف المنشود لمثل هذا البحث. إنّ بإمكان ما تحويه الصور الفوتوغرافية من دلالات وسياق أن تزودنا بمعلومات وفيرة عن العوالم الاجتماعية التي نعيش فيها وعن كيفية تفسير الواقع الاجتماعي تفسيراً تاريخياً وثقافياً. كما أنّ بإمكان "إعادة التصوير الفوتوغرافي" (أي: التقاط الصور لنفس الشخص المبحوث – أو الأشخاص المبحوثين- بعد فاصل زمني معين) بإمكان ذلك أن يزودنا بمثل هذا الفهم لحقيقة التغير الاجتماعي.

ويقرر روز Rose (٢٠٠١) أن المعاني المرتبطة بصورة ما يتم تفسيرها في ثلاثة مواقع هي: الموقع الأول في مرحلة إنتاج هذه الصورة، والثاني هو الصورة نفسها، والثالث هو الجمهور الذي يشاهد هذه الصورة. ولا يعد أي واحد من هذه "المواقع" محايدا، فكلها مواقع تتحدد وتتأثر بالدلالة الثقافية، وبالممارسات الاجتماعية وبعلاقات القوة، كما أن كل هذه الأمور تستعمل في عملية تأويل المعنى وتفسير الرسالة الكامنة وراء صورة ما أو في شريط سينمائي معين. وقد ظل النسويون زمنا طويلا وهو يؤمنون بالرأي الذي مفاده أن الصور الشائعة للنساء تساعد على تكوين تصور معين لأنماط الذكورة والأنوثة التي تقدم الرجال باعتبارهم مُسيطرين وتقدم النساء باعتبارهن خاضعات.

أما جونتلت Gauntlett (٢٠٠٧) فيستخدم طرق البحث البصرية على نحو مختلف في بلورة اتجاه في الدراسة قائم على "الثقافة البصرية". وكجزء من بحث يتناول مكانة وسائل الاتصال الجماهيرية في حياة الناس، قام جونتلت بسؤال المشاركين في البحث أن يقدموا المادة البصرية باعتبارها وسائل لاستكشاف المعاني التي تدل عليها علاقاتهم بمختلف أشكال وسائل الاتصال. وقد يُطلب من المشاركين أن يتخيلوا في البداية أنهم يصوغون تعبيرا مجازيا ثم يستمروا فيستكشفوا هذا التعبير المجازي في علاقته بهويتهم. ويؤمن جونتلت بأنه نظراً لأننا محاطون بثقافة بصرية من كل جانب، فإن من المعقول أن ندمج طرق البحث البصرية في البحث الاجتماعي بدلا من استعمال اتجاه ذي بعد واحد كالاستبيان أو المقابلة مثلا. وفي سعيه للوصول إلى بدائل للمقابلات وجماعات المناقشة المركزة، قام جونتلت بتنفيذ بعض المشروعات المبتكرة. وقد بين بحثه المتعلق بما تعنيه الهوية عند الناس أنفسهم أن مبحوثيه – وخلافاً لما تتحدث عنه الدوائر الأكاديمية من هويات "ما بعد حداثية مُتشظية" – أبدوا تماسكا ملحوظا، ووضوحا وتميزا. وشملت مشروعات بحثية أخرى لجونتلت بعض الأطفال الذين يُنتجون أفلام فيديو،

قاصداً من ذلك أن يتعرف على فهمهم للبيئة. وبُغية استكشاف أفكار الشبان المتعلقة بالذكورة قامت بعض هذه المشروعات البحثية بوضع تصميمات لأغلفة المجلات. وللكشف عن طموحات المراهقين قامت بعض هذه المشروعات البحثية برسم صور للمشاهير ولنجوم الإعلام الذين يُعجب بهم المراهقون.

ومع أن طرق البحث البصرية آخذة في تقديم صورة ثرية ومتنوعة للعالم في البحث السوسيولوجي، إلا أنه يتعين أن نضع في أذهاننا أن الصور البصرية، شأنها شأن الكلمات المكتوبة والمنطوقة التي ترد في طرق البحث الأكثر تقليدية، قابلة للتأويل وعرضة للخطأ في التأويل. فالصور - بحكم طبيعتها- متعددة المعاني أو الدلالات (حمَّالة أوجه)، بمعنى أنها قابلة لعدد من القراءات المختلفة. يضاف إلى ذلك، أنه توجد صعوبات مختلفة أخرى ترتبط بطرق البحث البصرية، منها ملكية حق النشر وحق السرية، وحق احتفاظ المبحوثين بأسمائهم مجهولة حالة استعمال صورهم الشخصية، ومنها كذلك اختيار صور معينة من بين صور كثيرة لتأكيد الآراء المطروحة. ويذهب "بينك" Pink (٢٠٠١)، في دفاعه عن طرق البحث البصرية، إلى أن بالإمكان توجيه نفس هذه الانتقادات إلى الأشكال المكتوبة من الأدلة والشواهد السوسيولوجية، كما يرى - أنه نظراً لأننا نعيش في مجتمع حافل بالصور ذي مستوى مرتفع من الثقافة البصرية - فالمفروض أن يكون تحليل الصور واحدا من الاهتمامات الأساسية لعلماء الاجتماع. والآن عُدْ إلى ملحق التمرين ٨-٢.

تمرين ٨-١١
١- اختر صورة تثير اهتمامك ودوِّن سائر ما يتعلق بها من المسائل والنقاط الأساسية، وما الذي تعنيه عندك. أعط هذه الصورة لمجموعة من أصدقائك واطلب منهم أن يقوموا بمثل ما قمت به من تحليل. قارن نتائجك وناقش أوجه التشابه، مع التركيز بشكل خاص على أيّ أوجُه اختلاف ظهرت لك. حاول أن تتخيل أنه ليس لديك فكرة عما تعنيه هذه الصورة. حاول أن تتناول الصورة باعتبارها "غريبة بالمفهوم الأنثروبولوجي"، وبتعبير آخر: عالجها انطلاقاً من عالم مختلف أو من ثقافة مختلفة عن ثقافتك، ثم قرر كيف يمكنك أن تفهمها من هذه الزاوية. ٢- تأمل بعض الأفكار لمشروعات بحثية تستطيع أن تدمج فيها نماذج من المواد البصرية المتسمة بالإبداع مثل أفلام الفيديو، ولوحات الكولاج، والرسم أو البناء بمكعبات الليجو، والتي يُنتجها مبحوثوك كجزء من هذا البحث. ما مجالات علم الاجتماع التي من شأنها أن تكون ملائمة بصورة جيدة لخدمة مثل هذا الاتجاه؟

تقييم طرق البحث البصرية

نقاط القوة

١- بإمكان طرق البحث البصرية أن تُوفر بعداً كيفياً إضافياً للمشروع البحثي.

٢- يُمكن للمشاركين في البحث أن يكون لهم دور أكثر فعالية في العملية البحثية، بدلا من أن يكونوا مستجيبين سلبيين، خاصة إذا كان هذا الاتجاه يتطلب توفر مشاركة بصرية من جانبهم.

٣- يُمكن توفير الصور البصرية التي يُنتجها المبحوثون بغرض إيضاح وجهة نظرهم، وأسلوب حياتهم، وهويتهم، وحياتهم الوظيفية، وثقافتهم، وما أشبه ذلك.

٤- قد يكون في الإمكان استعمال الصور الفوتوغرافية لعقد المقارنات على امتداد فترة زمنية معينة.

أوجه القصور

١- المواد البصرية هي الأخرى عرضة للتأويل، كما يوجد خطرٌ لأن يُساء فهمها.

٢- يلاحظ أن الدلالة الثقافية للصور تجعل من الصعب استعمالها في سياقات غير السياق الذي يجري فيه البحث. كما أن بالإمكان أن تتقادم وتفقد قيمتها بسرعة جداً.

جماعات المناقشة المركزة

للمقابلات الجماعية مع جماعات المناقشة المركزة تراثٌ فى بحوث السوق منذ خمسينيات القرن العشين، ثم في البحوث التي تتناول وسائل الاتصال في وقت أحدث، إلا أن استعمالها أخذ يتزايد في علم الاجتماع وفي البحوث الصحية والبحوث المتعلقة بتربية الأطفال وحضانتهم. واستعملت جماعات المناقشة المركزة لدراسة مجموعة من القضايا والموضوعات الصحية والطبية التي قد تتعسر دراستها باستعمال المقابلات والاستبيانات التقليدية. وتستهدف طريقة جماعات المناقشة جمع وتحليل البيانات المستمدة من بعض الجماعات "التي يتعذر الوصول

إليها"، بما فيها الجماعات الإثنية المختلفة. وعادة ما يتضمن استعمال طريقة جماعات المناقشة جمع البيانات الكيفية عن موضوعٍ ما من خلال استعمال المناقشات التى تجريها تلك الجماعات (مورجان، Morgan، ١٩٩٨). وفي رأي كالي Calley وآخرين (٢٠٠٨)، تتكوّن جماعات المناقشة من عينة عمدية صغيرة نسبيا من حوالي ٦ إلى ١٠ أفراد يشاركون في "مناقشة موجهة" guided discussion يقوم بإدارتها باحث لا يقوم بدور في المناقشات سوى طرح الأسئلة. وبإمكان مثل تلك المناقشات أن توفر صورة ثرية مفصلة "لحيوات وخبرات" هؤلاء المشاركين. وفي ذلك البحث قامت كالي وآخرون بدراسة موضوع حالة الزوجين الأبترين (أي: اللذين لا ذرية لهما) في مجتمع من أصول آسيوية وهو الأمر الذي تصعب دراسته بطريقة تقليدية نظراً لأنه موضوع حساس، كما أنه في الغالب لا يُفهم على نحو صحيح من جانب بعض المبحوثين وقد ذهبت كالي إلى أن استعمال جماعات المناقشة أدخل الطمأنينة على المشاركين وأتاح الفرصة للتعرف على آرائهم ومعتقداتهم بأسلوب لا يتيحه البحث الذي يتم مباشرة بين الباحث والمبحوث. والآن عد إلى ملحق تمرين ٨-٢.

تقييم جماعات المناقشة

نقاط القوة

١- تتيح هذه الطريقة جمع المعلومات من الجماعات المتنوعة أو الجماعات التي يتعذر الوصول إليها.

٢- يتم تقديم المعلومات انطلاقاً من وجهة نظر المشاركين في الجماعة.

٣- من الراجح أن تكون المادة ذات مستوى عالٍ من الصدق.

أوجه القصور

١- قد يحدث قدر من سوء الفهم إذا لم يكن الباحث على وعي تام بالمعايير الثقافية للجماعة أو على دراية طيبة بلغتها.

٢- من الممكن أن يكون تسجيل البيانات، ونقلها إلى وسائط أخرى، ثم تحليلها أموراً مستهلكة للوقت، كما أن من الصعوبة تمييز من الذي قال كذا في نقاش جماعي.

٣- قد يكون تجميع جماعات المناقشة معاً في حد ذاته أمراً عسيراً أصلا.

٤- قد يكون التأكد من كون الآراء المطروحة صادقة وحقيقية وليست متأثرة بالآخرين الموجودين في الجماعة، قد يكون ذلك قضية خلافية يُحتمل أن تؤثر على صدق هذه الآراء.

٥- سيكون من العسير تكرار دراسة قائمة على استعمال طريقة جماعات المناقشة.

٦- قد تكون هذه الجماعات غير ممثلة للمجتمع الأوسع.

تقييم المسيرة المتقدمة للتقنيات الأقل شهرة

نقاط القوة

١- تستطيع التقنيات الجديدة والأقل شُهرة أن تخلق توجها فكريا مفعما بالحيوية يكون عامل إحياء وتجديد للمعالجات القديمة.

٢- تُقدم الطرق الجديدة بدائل للطريقة العلمية التقليدية. ونظراً لأن الطرق غير العلمية تتزايد في شعبيتها، فقد تكتسب المزيد من المصداقية.

٣- تقوم الطرق الجديدة بتوسيع مجال الخيال السوسيولوجي، فالتأمل النقدي (الانعكاسية) قد يُصبح جزءاً لا يتجزأ من منهج البحث في علم الاجتماع.

٤- إن الأفراد، والجماعات، والقضايا التي لم تحظ قبل ذلك إلا بقدر قليل من الدراسة في علم الاجتماع (كالجماعات الثقافية، والنساء، والأقليات الإثنية، والمجرمين، وما أشبه ذلك) قد تكتسب المزيد من الاهتمام نظراً لتطوير طرق البحث الأكثر تلاؤماً معها.

أوجه القصور

١- قد يفسر البعض ظهور المزيد والمزيد من طرق البحث على أنه نوع من التشظي أو التفتت الداخلي في علم الاجتماع. ويمكن القول بتعبير آخر: لو كان هذا العلم على قدر عظيم من التماسك، فلماذا يتوجب عليه أن يستمر في إعادة اختراع منهجية بحثه؟

٢- قد يُنظر إلى التقنيات الأقل شهرة باعتبارها تقاليع شائعة trendy fads أقل مصداقية من طرق البحث الأكثر قبولا واعتمادا. مع العلم بأن هذه النقطة قد يكون لها دلالات وعواقب تتعلق بالتمويل.

٣- ويلاحظ أن أصحاب النزعة الاستقلالية (أو الانفصالية داخل العلمين: علم الاجتماع وعلم النفس) قد يعارضون التعاون المشترك على مستوى طرق البحث، معتبرين إياه أمرا يحط من قيمة تخصصهم العلمي.

سبق أن تناولنا بالمناقشة – في موضع سابق من هذا الكتاب- الفوائد الجمّة التي يمكن الحصول عليها من تكنولوجيا المعلومات والاتصال. وليس الأمر مقصوراً على أن علماء الاجتماع يمكنهم الاستفادة بتكنولوجيا المعلومات والاتصال في تنفيذ بحوثهم وفي عرض بياناتهم وتحليلها، بل إن هذه التكنولوجيا أضافت – بجانب ذلك – بُعدا جديدا لدراسة العالم الاجتماعي. وقد سبقت الإشارة إلى وجود حزم برمجيات إحصائية مُصممة خصيصاً للعلماء الاجتماعيين، مثل حزمة PASW، والتي كانت تُعرف قبل ذلك باسم SPSS، وهي متاحة على نطاق كبير في الأقسام العلمية بالجامعات.

وقد تسبب ظهور تكنولوجيا المعلومات والاتصال في إثارة عدد من القضايا البحثية بالنسبة لعلماء الاجتماع. مثال ذلك، أن ظهور الإنترنت وتوسُعها السريع قد وفر منظومة اتصال كوكبية، ولا يمكن لهذا الوضع أن يعجز عن تغيير طبيعة العلاقات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية. وقد تتضمن بعض المشروعات البحثية مستقبلا دراسة دور الإنترنت في الربط بين المشروعات التعليمية عبر العالم. ومن الأمثلة الحديثة لهذا العمل: ذلك المشروع البحثي التعاوني المشترك بين إحدى المدارس الأساسية في ويلز (بريطانيا) وإحدى المدارس الأولية الأسترالية بهدف التعرف على دلالات ونتائج الكارثة البيئية التي أصابت الساحل الجنوبي الغربي لبريطانيا (مجلة Western Mail، عدد يوليو ١٩٩٦).

ولذلك ليس مما يدهشنا حدوث نمو سريع في عدد الإصدارات (أي المطبوعات من كتب ومجلات علمية ونحوها) المُصممة لمساعدة علماء الاجتماع على الإحاطة بميدان تكنولوجيا المعلومات والاتصال وآفاق الانتفاع بها بصورة كاملة في البحوث والممارسة السوسيولوجية. مثال ذلك، تناول بلانك Blank وزملاؤه (١٩٩٥) موضوع دور التكنولوجيا الجديدة في علم الاجتماع وما قدمه لي Lee (١٩٩٥) من نصائح عملية للعلماء الاجتماعيين في مجال تكنولوجيا

المعلومات والاتصال ومحاولة لوسون (١٩٩٣) أن يضع استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال داخل السياق الأوسع للاستراتيجيات الجديدة في البحث الاجتماعي. والأمر الواضح المُستفاد من هذه المطبوعات ومن غيرها، أنه ليس في وسع علماء الاجتماع أن يتجاهلوا ما تُقدمه لهم تكنولوجيا المعلومات والاتصال من فوائد لبحوثهم. وسوف توفر قراءة أي كتاب من الكتب التي ذكرناها رؤية شاملة لمدى ما يمكن الوصول إليه في رفع مستوى ممارسة البحث في علم الاجتماع عن طريق استعمال التكنولوجيا المتقدمة.

وفي وقتنا الحالي تُعد الكفاءة في استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصال جزءاً من "المهارات الأساسية" التي لا غناء عنها في المدارس والكليات. ويُتوقع من الطلبة أن يطوروا قدراتهم في هذا المجال. والواقع أن المقررات في المدارس الأساسية (الابتدائية والإعدادية) تضم عدداً من المجالات التي يُتوقع من الأطفال أن يفهموها، كما يُتوقع منهم أن يكونوا قادرين على استخدام الكومبيوتر، والسبورات البيضاء التفاعلية، وبيئات التعلم الافتراضي(*) في عمل واجباتهم الدراسية. كما أصبحت تكنولوجيا المعلومات والاتصال شائعة في المدارس الثانوية والكليات والجامعات في وقتنا الحالي.

والمُتوقع من المدرسين حالياً أن يحرصوا على مسايرة التطورات الجارية في تكنولوجيا المعلومات والاتصال داخل تخصصهم العلمي، كما تُجرى لهم اختبارات لقياس كفاءتهم أثناء تلقيهم الدورات التدريبية للمدرسين، لذلك ينبغي عليك في مرحلة ما من دراستك لمقررك أن تتوقع الالتقاء بتكنولوجيا المعلومات في صورة: معالجة الكلمات، وقواعد البيانات، واستخدام الإنترنت، وبيئة التعلم الافتراضية الخاصة بك، وحزم برامج الجرافيكس (فنون الرسم والطباعة) مثل برنامج الإكسل Excel. بل إن موسوعة الويكيبيديا، والمدونات والبودكاستس(**) Podacasts أصبح يتم دمجها في المسار العام للتعليم والتعلّم في المدارس والكليات والجامعات.

(*) VLE = Virtual Learning Environment.

(**) عملية Podcasting هي آلية لتبادل المعلومات والآراء على الإنترنت. (المترجم)

الموضوع (E)

هل الهدف هو طعمها فقط؟ دراسة لتأثير

ما بعد الحداثة على عادات الشرب

السياق: هل يشرب الناس المشروبات الغازية الكحولية تمتعاً بطعمها أم بسبب الصورة؟ (الأساس المنطقي/ السياق:هل الدافع للاستهلاك هو الصورة الموضوعة فوق عبوة المشروب؟ تأثير ما بعد الحداثة على أنماط الاستهلاك).

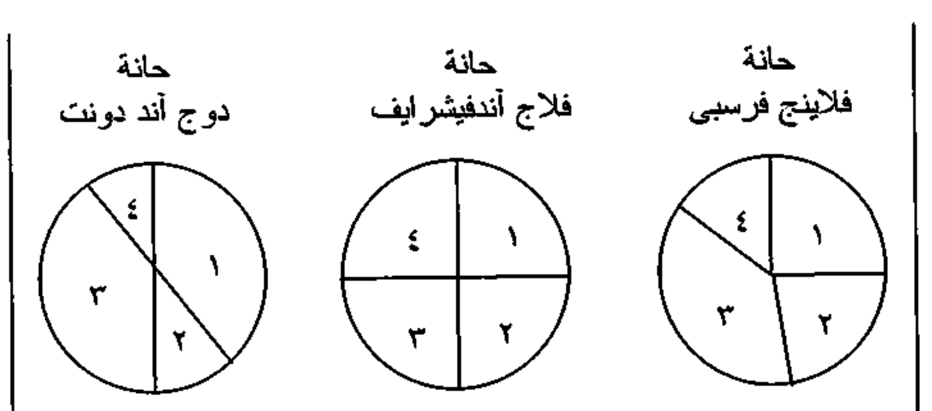
طريقة البحث: جمعت بياناتي من الأفراد الذين يشربون المشروبات الغازية الكحولية بصفة منتظمة. ترددت على ثلاث حانات وسألت الأفراد الذين طلبوا مشروبات غازية كحولية لماذا طلبوها. وضعت تصنيفات لتيسير تحليل البيانات إذا ذكر المبحوث سببين لطلب المشروب كنت أسجل أولهما فقط. وجاءت النتائج على النحو المبين أدناه:

النتائج: لماذا تتناول المشروبات الغازية الكحولية؟

السبب	عدد الأفراد
١- الطعم أفضل	٣٣
٢- التكلفة أقل	١٩
٣- الميل للقيمة/ الصورة	١٣
٤- ضغوط الأصدقاء	١٣
الإجمالي	١١٤

تقسيم الأسباب حسب الحانة

	حانة فلاينج فرسبي	حانة فلاج آندفيشوايف	حانة دوج آند دونت	الإجمالي
١-	١٢	١٥	٦	٣٣
٢-	٨	٥	٦	١٩
٣-	٤٠	٦	٣	٤٩
٤-	١٠	٢	١	١٣
الإجمالي	٧٠	٢٨	١٦٦	١١٤



الشكل ٨-١: تناول المشروبات الغازية الكحولية: شكل توضيحي دائري للنسب المئوية للأسباب المذكورة، حسب الحانة.

الحساب:

	كل اختبار مُعبرا عنه بالنسب المئوية	**حسابات درجات الرسم التوضيحي الدائري**
ف ف (فلاينج فرسبي)		
١	%١٧,١ =١/١٠٠/٧/١٢	(°٦٣)٦٣,٣٦=١٠٠/٣٦٠×١٧,١
٢	%١١,٤ = ١/١٠٠/٧٠/٨	(°٤١) ٤١,٠٤=١٠٠/٣٦٠×١١,٤
٣	%٥٧,٢=١/١٠٠×٧٠/٤٠	(°٢٠٥)٢٠٥,٩٢=١٠٠/٣٦٠×٥٧,٢
٤	%١٤,٣=١/١٠٠×٧٠/١٠	(°٥١)٥١,٤٨ =١٠٠/٣٦٠×١٤,٣
ف، ف (فلاج وفيشوايف)		
١	%٥٣,٦	(°١٩٣)١٩٢,٩٦
٢	%١٧,٩	(°٦٤) ٦٤,٤٤

٣	%٢١,٤	٧٧,٤٤ (٧٧°)
٤	%٧,١	٢٥,٥٦ (٢٦°)
د، د (دوج آند دونت)		
١	%٣٧,٥	١٣٥
٢	%٣٧,٥	١٣٥
٣	%١٨,٧٥	٦٧,٥
٤	%٦,٢٥	٢٢,٥

١ ٢ ٣ ٤   ١ ٢ ٣ ٤

حانة ف. ف.   حانة د. د.

فلاج وفيشوايف   دوج آند دونت

الشكل ٨-٢: تناول المشروبات الغازية الكحولية: رسم بياني باستخدام الأعمدة للأسباب التي ذكرها الأفراد، حسب الحانة.

تحليل - تقييم	تمرين ٨-١٢
سوف يشجعك هذا التمرين على تحديد أوجه الضعف في عرض البيانات، وعلى تصميم الاستراتيجيات المطلوبة لتحسين أساليب عرض البيانات. ويُقدم الموضوع (F) قسم النتائج من مشروع بحث سوسيولوجي مُتخيَّل. اقرأ الموضوع بعناية، ثم أكمل مع زميل لك المهام التالية: ١- ناقشا نقاط القوة وأوجه القصور التي في عرض البيانات. ٢- حددا الأخطاء التي حدثت في عرض هذه المعلومات. ٣- اقترحا كيف يمكن تصحيح كل خطأ لتحسين النوعية الإجمالية لهذا البحث.	

البرمجيات الإحصائية الخاصة بالعلوم الاجتماعية

كما يتم - بصورة متزايدة - استخدام حزم برمجيات تكنولوجيا المعلومات في تحليل نتائج البحوث في علم الاجتماع، وخاصة البحوث التي يغلب عليها الطابع الكمي. وتُعتبر حزمة برمجيات PASW مثالاً شائعاً يحظى بانتشار واسع. وهي حزمة برمجيات كومبيوترية مُصممة لتخزين، واسترجاع، وتحليل البيانات الكمية أو الرقمية. وتتيح هذه البرمجية للباحث أن يستحدث فئات أو مجموعات البيانات المرتبة في شكل متغيرات، وأن يختبر مدى قوة العلاقة بين هذه

المتغيرات. مثال ذلك، أننا إذا أنشأنا مجموعة بسيطة من البيانات ذات متغيرين هما: متغير النوع الاجتماعي ومتغير اتجاهات الناس عند التصويت في الانتخابات، وحيث تقوم هذه المجموعة من البيانات على أساس إجابات المبحوثين على الاستبيان الخاص بذلك، فإن حزمة برامج PASW سوف تتيح لنا أن نحدد تحديدا دقيقا إلى أي درجة يعد النوع الاجتماعي عاملا من عوامل دعم الأحزاب. فهذه الحزمة البرامجية تحتوي على وظائف/ أو دوال ثنائية المتغيرات (أي ذات متغيرين) على النحو الوارد في المثال المذكور أعلاه، كما تتمتع بقدرة أكثر كفاءة ودقة على معالجة المتغيرات المتعددة.

استخدام تحليل المضمون

تمثل الدراسة التي قدمتها جيلينز لوبان G.Lobban (١٩٧٤) عرضا وتحليلا لما في كتب الأطفال من صور نمطية جامدة لدور الجنس (النوع)، وهي تعد النموذج الكلاسيكي لاستخدام طريقة تحليل المضمون. ويعتمد التمرين التالي على تكرار لهذه الدراسة نفذ في شهري فبراير ومارس سنة ١٩٩٢ على يد ثلاث مجموعات من الطلاب الذين يدرسون مقرر الرعاية الاجتماعية القومية في كلية "بارك لين" للتعليم المستمر في ليدز.

الموضوع (F)

المفترسون ومشرفات الحضانة وصائدات الأخطاء:

الأدوار المرتبطة بالجنس في كتب الأطفال(*)

الخلفية العامة: قبل أن نقوم بتنفيذ مشروعنا العلمي، كنا قد بحثنا في علم الاجتماع التربوي، وبالذات في القضايا المتعلقة بالنوع الاجتماعي داخل مجال التعليم. وقد تم توجيهنا إلى العمل الذي قدمته جلينيز لوبان عن الأدوار المرتبطة بالجنس في برامج القراءة. ويعتمد البحث الراهن على الأفكار التي وردت في دراستها. وقد أشارت إلى أن برامج القراءة تؤثر تأثيراً كبيرا "لأنها عادة ما تكون أول مرة يدخل فيها الطفل إلى عالم الكتابة".وقد شعرت أنه نظرا لأن أطفالا كثيرين للغاية يترددون على دور الحضانة أو رياض الأطفال، فإنه سيكون من الطريف أن نخطو خطوة إلى الخلف ونحلل الأدوار المسندة إلى كل من الذكور والإناث، والتي تصورها بعض كتب مرحلة ما قبل المدرسة مما هو متاح حاليا منها.

(*) العنوان الأصلي للموضوع يستخدم الاستعارة، فيتحدث عن حيوانات التنين، ومشرفات التغذية في دور الحضانة، وحيوان ابن مقرض (مقرض). والتنين – كما هو معروف– حيوان خرافي يشبه الزواحف الضخمة الهائلة الحجم، يتحرك طائرا باستخدام جناحيه، ويستطيع أن ينفث نارا قوية مهلكة من فمه. وفي اللغة الإنجليزية يطلق – مجازا– على الشخص القوي الجبار الذي يتصف فوق ذلك بالشراسة، خاصة من النساء. ومن هنا ترجمة "المفترسون". أما مشرفات التغذية في رياض الأطفال فهن رمز القهر والتحكم لأنهن لا يتصلن بعالم التعليم ولا اللعب، وإنما بمجال تناول الطعام ومراقبة الأطفال – بصرامة لازمة– أثناء الوجبات. وابن مقرض حيوان شبيه بابن عرس يستخدم لصيد القوارض، ومن هنا ترجمة "صائدات الأخطاء". وهكذا يتضح أن الكلمات الثلاث تتناول ثلاثة أنماط أو صور جامدة لكل الشخصيات التي تمارس قهرا على الصغار داخل دور الحضانة، وفيها من المداعبة أو السخرية أكثر مما فيها من الصدق والحقيقة. (المترجم)

طريقة البحث: طُلب من التلاميذ أن يأتي كل واحد منهم بثلاثة من كتب مرحلة ما قبل المدرسة. ولم يكن من اللازم أن تكون هذه الكتب ذات توجه متميز مع أو ضد تصوير النوع، بل يكفي أن تكون من الكتب التي لديهم في البيت، أو التي قرأوها عندما كانوا يترددون على دار الحضانة، أو الكتب التي كانوا يودون قراءتها في روضة الأطفال. وبهذا الشكل تجمع لدينا ما جملته ١٣٢ كتابا. ولا ريب أنه توجد آلاف الكتب التي يمكن الاختيار من بينها، كما أنه لو حاول المرء، فإني واثق من أن بالإمكان العثور على ١٣٢ كتابا أخرى لا ترتبط بقضية النوع، وواثق من أن نتائج دراستها ستكون مختلفة تماما عما انتهى إليه بحثنا. ومع هذا، فقد قمت بتنفيذ هذا البحث في ظروف أخرى متعددة فأتى بنتائج عامة متشابهة. ولذلك يمكن القول أن القضايا الرئيسية سوف تصمد بوضوح في كل وقت، كما أنها تشير إلى نوع من الاختلال الشديد في تصوير كلا الجنسين في كتب مرحلة ما قبل المدرسة.

(المصدر: إل. بست L.Best، "المفترسون ومشرفات الحضانة، وصائدات الأخطاء: الأدوار المرتبطة بالجنس في كتب الأطفال"، مقال في: مجلة علم الاجتماع Sociology Review، العدد الثاني من المجلد الثالث، ١٩٩٣).

	تمرين ٨-١٣
	اقرأ الموضوع (F) ثم أجب على الأسئلة التالية:
معرفة فهم	١- ما هي في رأيك أسباب إخبار التلاميذ أن لا يبحثوا بالذات عن كتب ذات توجه متحيز مع أو ضد تصوير النوع؟

تقييم	٢- هل ترى أن عدد الكتب التي استخدمت في البحث كان كافيا للقيام بتحليل المضمون المذكور؟ هات الأسباب التي تُدعم إجابتك.
معرفة فهم	٣- لماذا يكون من الحكمة معالجة نتائج هذا البحث بحذر في ضوء التعليق التالي: "قمتُ بتنفيذ هذا البحث في ظروف أخرى متعددة فأتى بنتائج عامة متشابهة".
تحليل تقييم	٤- ما التفسيرات التي يمكن لعلماء الاجتماع أن يقدموها لاكتشاف نوع من "التوازن المختل بشكل صارخ في تصوير كلا الجنسين في كُتب مرحلة ما قبل المدرسة"؟

يبين المثال الوارد في الموضوع (F) بوضوح كيف يمكن لتحليل الوثائق وتحليل المضمون أن يَكون أداة نافعة لاختبار الفروض المتعلقة بشتى جوانب المجتمع، إلا أنه يمكن أن يخدم – كذلك – بعض الأهداف الأخرى لعلماء الاجتماع. مثال ذلك، أنها تتيح لهم تحليل: كيف أجرَى علماء الاجتماع الآخرون بُحوثهم، وذلك بافتراض أن المعلومات المتعلقة بالعملية البحثية قد تم توثيقها بشكل آخر، كيومية البحث، أو السجل اليومي الدقيق. ويفيد هذا الأمر –خصوصا– إذا كان الباحث يرغب في تكرار العمل الذي قام به باحثٌ آخر أو كان يود تقييم ما تتمتع به هذه الدراسة من ثبات (منهجيّ) وصدق.

ورغبة في الانتفاع بتكنولوجيا المعلومات في المقررات الدراسية، فإن من المهم أن نتعلم كيف يتم عمل مختلف الرسوم والصور البيانية وأن تقوم بتحليل البيانات قبل أن تبدأ في كتابة تقرير بحثك. فمن شأن ذلك أن يمنحك مزيداً من الثقة، والأهم من ذلك أنه سوف يُوفر الوقت. ومن المؤكد أن التمرين التالي سيساعدك على فهم معدات تكنولوجيا المعلومات الموجودة في مدرستك أو كليتك.

تمرين ٨-١٤

استخدام برنامج PASW

يمثل برنامج التحليل التنبؤي - ويشار إليه اختصارا بالحروف PASW - أحزمة برامج إحصائية ذات أساس كومبيوتري مُصَمَّمة لتخزين وتحليل البيانات البحثية في صورة كمية (أي عددية). وبمجرد إدخال بيانات البحث في هذا البرنامج، يصبح بإمكانك استخدامه لتلخيص تلك البيانات بحيث يمكن قراءتها في صورة نسب مئوية أو لوحات الأعمدة البيانية مثلا. كما يستخدم البرنامج لاختبار العلاقات بين المتغيرات، من قبيل العلاقات بين النوع والسلوك الانتخابي أو بين الانتماء الإثني والبطالة. وتقوم حزم برامج PASW كذلك بإجراء تحليلات إحصائية أكثر تعقُّدا ودقة.

تم تصميم المثال والتمرين التالي لتعريفك بشكل سليم بحزم برامج PASW. ولكي تقوم بتنفيذ هذا البحث يتعين أن يكون في متناولك جهاز كومبيوتر مُحمَّل في داخله بحزم برنامج PASW، ومتوفر في مدرستك أو في كليتك أو جامعتك. ويحتوي الكشفُ المُبين أدناه على معلومات تتعلق بالدرجات التي حصل عليها أطفال فصلٍ دراسي بمدرسة أساسية - تتراوح أعمارهم حول السابعة من العمر - في اختبارات المقرر الدراسي القومي (المرحلة الأساسية رقم واحد).

والمعلومات المتوفرة عن كل طفل تتعلق بنوعه (ذكر أم أنثى) وعن نتائجه في اختبار اللغة الإنجليزية (+T= حقق الهدف أو زاد عليه)، (BT= لم يحقق المستوى المطلوب). ونتائجه في اختيار مادة الرياضيات (+T = حقق

الهدف أو زاد عليه)، (BT= لم يحقق المستوى المطلوب). وهكذا نجد – مثلا – أن الطفل رقم ١٢ (بالعامود رقم١) أنثى (عامود رقم٢) وكانت نتيجتها دون المستوى المطلوب في اللغة الإنجليزية (عامود رقم ٣) وحققت الهدف أو أفضل منه في الرياضيات (عامود رقم٤).

عامود١: رقم الطفل	عامود٢:الجنس	عامود٣: اللغة الإنجليزية	عامود٤: الرياضيات
١	ذكر	T+	T+
٢	ذكر	T+	BT
٣	أنثى	T+	T+
٤	ذكر	T+	T+
٥	أنثى	T+	T+
٦	أنثى	T+	T+
٧	ذكر	T+	T+
٨	أنثى	BT	BT
٩	أنثى	T+	T+
١٠	ذكر	T+	T+
١١	ذكر	BT	Bt
١٢	أنثى	B+	T+

١٣	أنثى	T+	Bt
١٤	ذكر	T+	T+
١٥	أنثى	T+	T+
١٦	ذكر	BT	T+
١٧	أنثى	T+	T+
١٨	أنثى	T+	T+
١٩	أنثى	T+	BT
٢٠	أنثى	T+	T+
٢١	ذكر	BT	BT
٢٢	أنثى	T+	T+
٢٣	ذكر	T+	T+
٢٤	ذكر	BT	T+

باستعمال هذه المعلومات يمكن أن يغطي هذا التمرين الذي يستخدم حزم برنامج PASW العناصر والعمليات التالية:

١- تكوين مجموعة البيانات، أي تحديد المتغيرات (النوع، نتائج اللغة الإنجليزية، ونتائج الرياضيات) علاوة على إدخال هذه البيانات في الكومبيوتر.

٢- إجراء حساب التكرارات.

٣- عمل لوحات الأعمدة البيانية.

٤- عمل الجداول (خاصة تلك تسمى الجداول المركبة أو المزدوجة) والتي تشير إلى العلاقة بين المتغيرات (على سبيل المثال العلاقة بين الجنس والإنجاز في اللغة الإنجليزية).

تكوين مجموعة البيانات رقم (١): تحديد المتغيرات

لكي ندخل البيانات في حزم برمجيات PASW، يتعين علينا أولاً أن نحدد المتغيرات المُوضحة في الكشف المذكور أعلاه. ويشير كشفنا هذا إلى ثلاثة متغيرات، لكل متغيرٍ منها قيمتان:

- المتغير رقم ١: الجنس: إما ذكر أو أنثى
- المتغير رقم ٢: اللغة الإنجليزية: إما حقق الهدف أو زاد عليه وإما دون المستوى المطلوب.
- المتغير رقم ٣: مادة الرياضيات: إما حقق الهدف أو زاد عليه وإما دون المستوى المطلوب.

ولتحديد هذه المتغيرات فلابد – بطبيعة الأمر- أن نفتح برنامج PASW. ويتم فتح البرنامج إما بضغطتين على أيقونه PASW الموجود على الشاشة أو من خلال قائمة البرنامج The Program menu. وفي النافذة التي تنفتح أمامك على الشاشة أبرز (عن طريق الوقوف عليه بالماوس) الاختيار المعنون بعنوان "أدخل البيانات الجديدة" "type in new data"، ثم اضغط العلامة "OK". وهنا سوف ترى النافذة الرئيسية لبرنامج PASW على الشاشة (انظر شكل ٨-٣).

محرر بيانات برنامج PASW غير المعنون

	المتغير	المتغير	المتغير	المتغير	التمغير	المتغير	
١							
٢							
٣							
٤							
٥							
٦							

شكل ٨-٣: النافذة الرئيسية لبرنامج PASW

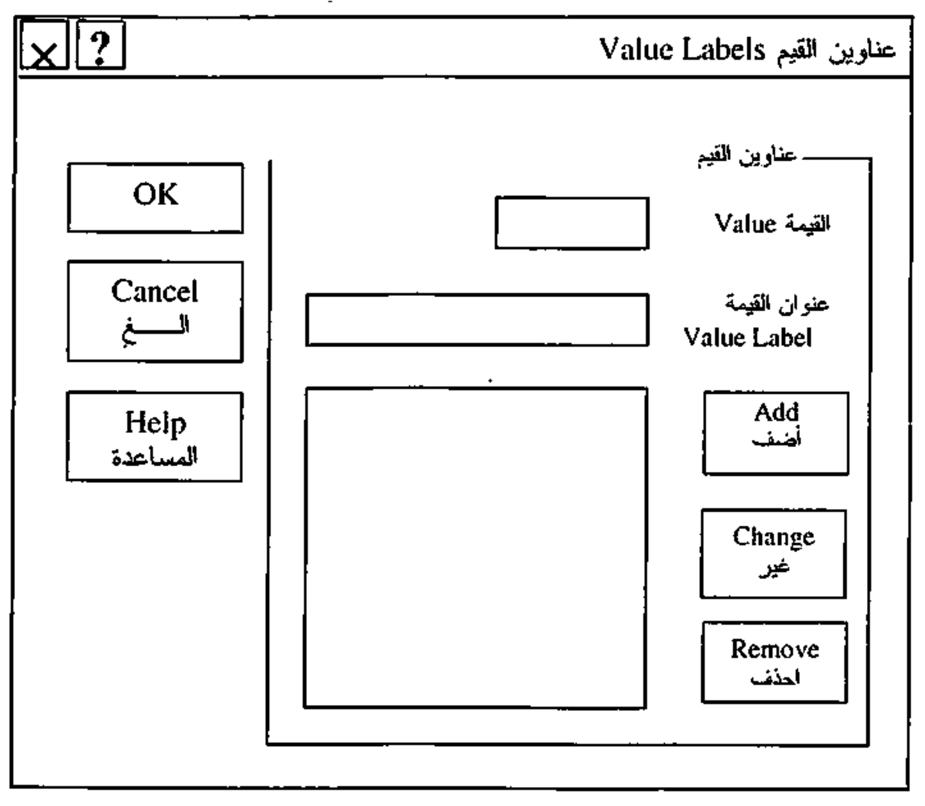
مشاهدة البيانات data view، مشاهدة المتغير Variable view

اضغط على الخانة المكتوب فيها كلمة "مشاهدة المتغير". وفي نافذة مشاهدة المتغير يمكننا توضيب كل متغير من متغيراتنا الثلاثة. والمتغيرات مُدرجة في قائمة موجودة في العمود الأول. ومُرقَّمة بأرقام ١، ٢، ٣، ٤ وهكذا. ونحن لن

نستعمل إلا الصفوف الثلاثة الأولى، وذلك لأن هذه المجموعة من البيانات بها ثلاثة متغيرات فقط. والأعمدة الأخرى لها عناوين متنوعة، إلا أن الأعمدة التي عليها عنوان "الاسم" Name وعنوان "النمط" Type وعنوان "القيمة" Value هي الأعمدة المهمة في هذا التمرين:

المتغيرات	الاسم	النمط	العرض	الأنظمة العشرية	العنوان	القيَم	إلى آخره
١							
٢							
٣							
٤							
إلى آخره							

والآن سوف نحدد المتغير الأول، مستعملين الصف رقم (١) على الشاشة. وتحت خانة "الاسم" أدخل كلمة "النوع". والواقع أن بالإمكان أن تعطي لمتغير ما أيَّ اسمٍ تختاره، إلا أنه من المعقول دائماً أن تستعمل مسميات ذات صلة، وخاصَّةً أن الآخرين قد يقرأون عملك هذا. بعد ذلك، اضغط على الخانة الموجودة تحت العنوان "النمط". أضئ الاختيار المعنون بعنوان "السلسلة" String واضغط "OK". وأخيراً، اضغط على الخانة الواقعة تحت مسمى "القيم". وهنا ينفتح أمامك صندوق جديد للحوار (شكل ٨-٤).



شكل ٨–٤: صندوق حوار عناوين القيم في برنامج PASW

وكما هو مُبيّن بعاليه، يكون للنوع قيمتين اثنتين فقط، هما الذكر والأنثى. داخل الصندوق المخصص لكتابة "القيمة" اكتب رقم(١)، وداخل الصندوق المخصص لعنوان "القيمة"، اكتب كلمة "ذكر" male. اضغط على الخانة المكتوب داخلها كلمة "أضف" ADD.

بعد ذلك، أدخل كتابةً رقم (٢) في الصندوق المعنون بعنوان "القيمة" وأدخل كتابةً كلمة "أنثى female" في الصندوق الذي يحمل عنوان "القيمة". اضغط على الخانة المكتوب داخلها كلمة "أضف" Add ثم اضغط Ok.

والآن انتهينا من استكمال المتغير الأول، وهو متغير النوع. ويتمُّ تحديد أو توضيب المتغير الثاني والمتغير الثالث، وهما متغير اللغة الإنجليزية، ومتغير الرياضيات، بنفس هذا الأسلوب تماماً. وبالنسبة لكل متغير منها، وتحت الخانة المعنونة بعنوان "القيم" أدخِل عنواني القيمة +T (أي: تحقَّق الهدف أو زاد عليه) BT (أي: أقل من المستوى المطلوب) مع القيمتين (١) و (٢) على التوالي. وعن استكمال هذه الخطوة اضغط على الخانة المكتوب فيها "مشاهدة البيانات" في الركن السفلي الأيسر من الشاشة. وعندها سوف ترى النافذة الرئيسية لبرنامج PASW مرةً ثانية، ولكن النافذة في هذه المرة ستظهر وقد سُجلت عليها المتغيرات الثلاثة، كما هو مُبين أدناه:

	النوع	اللغة الإنجليزية	الرياضيات	المتغير رقم٤	إلى آخره
١					
٢					
٣					
٤					
إلى آخره					

تكوين مجموعة البيانات رقم (٢): إدخال البيانات

نحن الآن مستعدون لإدخال البيانات – كتابةً– من الكشف المُبين قبل ذلك. والتلميذ الأول، والمدوَّن في الصف الأول من الكشف ذكرٌ حقق الهدف أو تجاوزه في كلٍ من مادة اللغة الإنجليزية ومادة الرياضيات. أدخل – كتابةً – القيم ذات الصلة والخاصة بكل من هذه المتغيرات (ضع قيمة واحدة فقط في كل حالة) وهنا سوف يظهر هذا الصف بالصورة التالية:

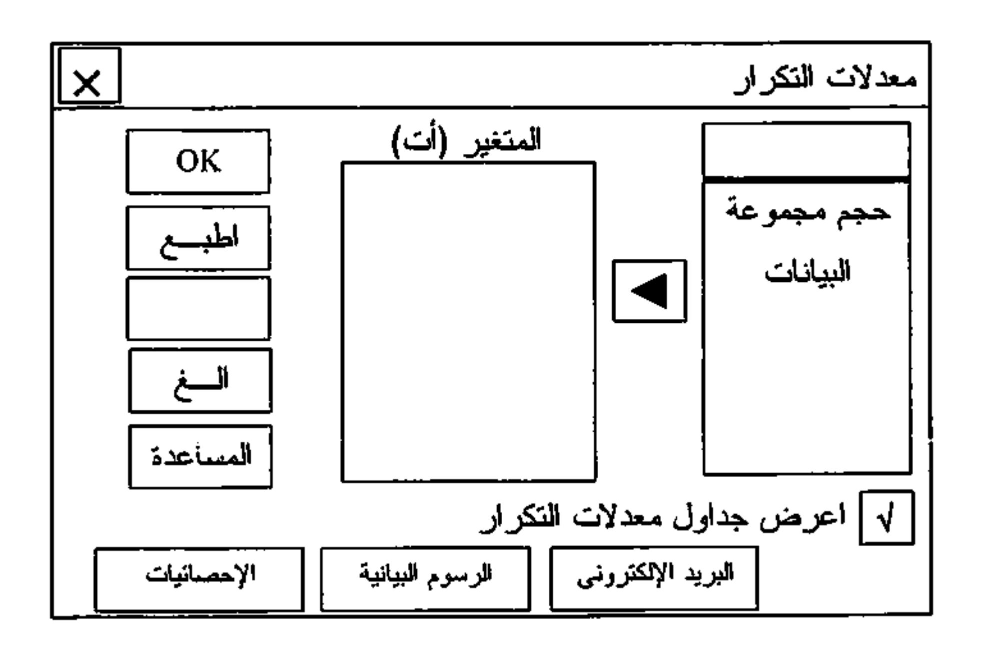
النوع	اللغة الإنجليزية	الرياضيات	المتغير(٤)	إلى آخره
١- ذكر ٢-	T+	T+		

نواصل إجراء هذه العملية إلى أن يتمّ إدخال بيانات التلاميذ الأربعة وعشرين. وننصحك، عند انتهائك من عملك، أن تقوم بحفظ هذه المعلومات: اضغط على الأمر "سجّل في ملف File" وعلى الأمر "احفظ بهذا الشكل" Save as، وأعطِ اسماً وموقعا لمجموعة البيانات هذه، حتى يمكن استرجاعها فيما بعد.

حساب معدلات التكرار

يُشير مصطلح "معدل التكرار" إلى النسبة المئوية أو لعدد مرات ظهور متغير ما.

على امتداد قمة النافذة الخاصة بمشاهدة البيانات (أي: على امتداد الشريط الموجود في الجزء الأعلى من هذه النافذة) يوجد عدد من الاختيارات هي "احفظ في ملف و"حرر" Edit، "ومشاهدة" View، و"البيانات"، و"غير الشكل" Transform، و"حلِّل" Analyse، و"رسوم بيانية" Graphs و"الأدوات" Utilities، و"النافذة" Window و"المساعدة" Help. ولكي تحسب معدَّل تكرار متغيرٍ ما (مئوياً)، اضغط على الاختيار "حلِّل". وهنا ستنفتح أمامك قائمة جديدة، اضغط على الخانة المكتوب عليها كلمة "إحصائيات وصفية" ثُمَّ على الخانة المكتوب فيها كلمة "معدلات التكرار". ينفتح أمامك صندوق حوار عنوانه "معدلات التكرار" وبهِ المتغيرات الثلاثة مُسجلةً في صندوق على اليسار، كما يوجد به سهم في الوسط وصندوق فارغ على اليمين (شكل ٨-٥).



شكل ٨-٥: صندوق حوار معدلات التكرار في برنامج PASW

مثال ذلك، أضف المتغير "النوع" وحركه إلى الجانب الأيمن عن طريق الضغط على السهم. اضغط على العلامة "أوكي" OK، فترى أمامك جدولاً يشير إلى كلمة من أعداد الذكور والإناث في هذا الفصل وإلى نسبهم المئوية، وهكذا.

	النوع	التكرار	%	الصحيح%	التراكمي%
صحيح	ذكر	١١	٤٥,٨	٤٥,٨	٤٥,٨
	أنثى	١٣	٢٤,٢	٥٤,٢	١٠٠,٠
	إجمالي	٢٤	١٠٠,٠	١٠٠,٠	

يمكنك تكرار هذا التمرين على المتغيرات الأخرى بنفس الأسلوب.

إعداد لوحة الأعمدة البيانية

يُمكن إعداد لوحة الأعمدة البيانية باستخراجها من نافذة معدلات التكرار المُبينة أعلاه. وبعد أن تُحرك المتغير إلى الجانب الأيمن اختر النافذة المكتوب عليها كلمة "الرسوم البيانية" Chart . وداخل هذه النافذة الجديدة اختر الخانة المكتوب فيها عبارة "النسب المئوية موضحة بالأعمدة" "Bar-Percentages" واضغط على OK. يقدم شكل ٨-٦ رسما بيانيا للوحة الأعمدة البيانية.

الجداول المركبة (المزدوجة)

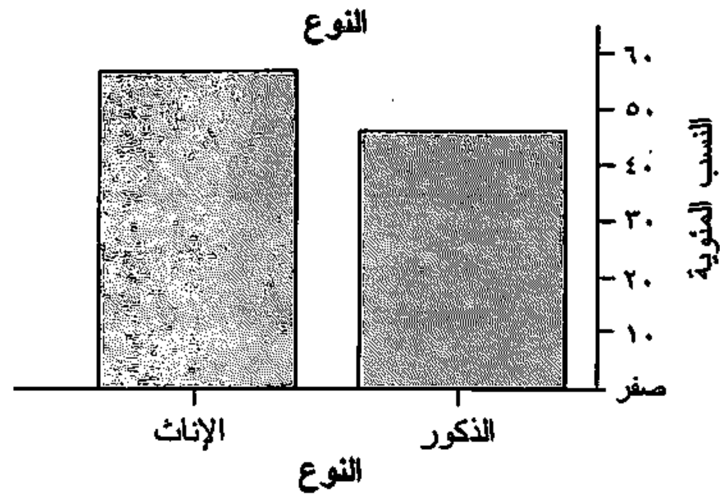
يشير مصطلح "الجداول المركبة" إلى الجداول التي تُبين العلاقة بين المتغيرات.اختر من الشاشة التي يظهر فيها مشاهدة البيانات؛ اختر العناوين التالية: "حلّل" – إحصاءات وصفية – الجداول المركبة. وسوف تجد نفسك أمام صندوق حوار (شكل ٨-٧).

يستهدف صندوق الحوار المبين في شكل ٨-٧ غرض الإيضاح، كما أنه يَعرض عدداً من المتغيرات أسفل الجانب الأيسر. وفي حالتنا ستوجد ثلاثة متغيرات مذكورة في قائمة هي: النوع، واللغة الإنجليزية، والرياضيات. أضئ هذا المتغير المستقل، ثم حركه نحو صندوق النصوص المكتوب عليه كلمة "صفوف"Rows، وذلك عن طريق اختيار **النوع** المناسب. وبنفس الأسلوب حَرِّك المتغير التابع في اتجاه صندوق النصوص المكتوب عليه كلمة "الأعمدة" columns والمتغير المستقل هو المتغير الذي يمكن استخدامه في تفسير المتغير التابع. وهنا،

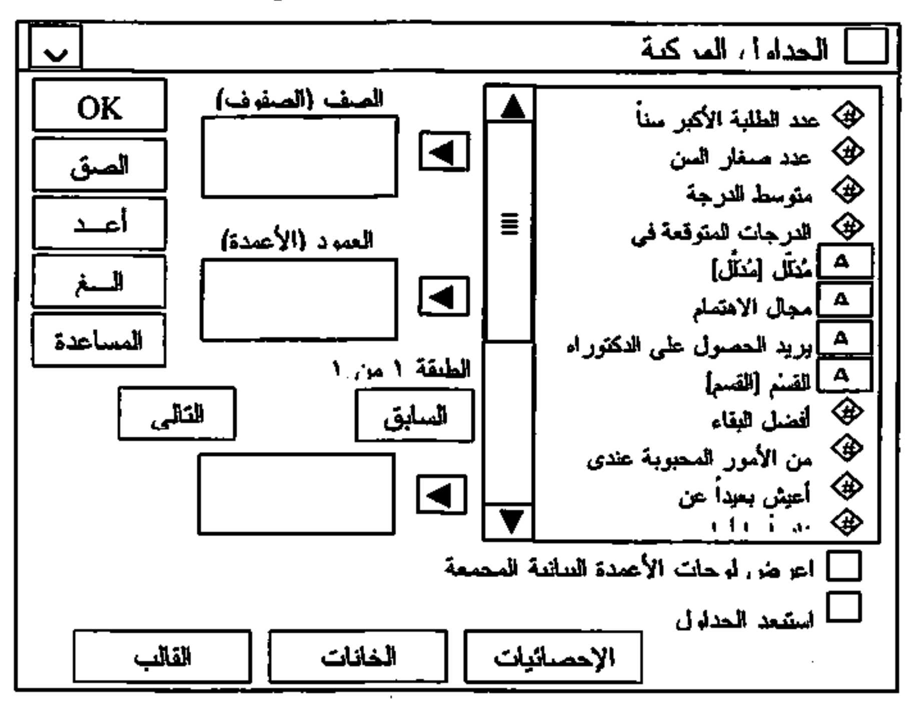
يُمكن استخدام النوع لتفسير التحصيل الدراسي في اللغة الإنجليزية والرياضيات. ومن الواضح أن الأداء في الاختبارات التعليمية لا يُحدد ما إذا كان الطالب ذكراً أم أنثى. لذلك يكونُ النوع هو مُتغيرنا المستقل، ويكون كلٌّ من اللغة الإنجليزية والرياضيات هما المتغيرين التابعين. وبإمكانك أن تتجاهل صندوق النصوص المكتوب عليه كلمة "الطبقات" Layers بالنسبة لهذا التمرين. اختر "اللغة الإنجليزية" أولاً. ثُم اضغط على الزر المكتوب عليه "الخانات" وأضئ الاختيار الخاص بالنسب المئوية المذكورة في الصفوف Raw percentages ، واضغط على الزر المكتوب عليه "استمر"، ثم اضغط على OK.

سيظهر أمامك جدول يوضح الأداء النسبي للفتيات والصبيان في مادة اللغة الإنجليزية. وسوف يُتيح لك هذا الجدول أن تحكم على مدى وجود علاقة بين النوع والأداء في اللغة الإنجليزية. بعد ذلك، ينبغي عليك أن تكرر هذا العمل بالنسبة لمادة الرياضيات.

من الميسور نقل مُخرجات برنامج PASW، كالنسب المئوية، والرسوم البيانية، والجداول المركبة، إلى وثيقة مكتوبة Word document عن طريق عملية القص واللصق. تذكر كذلك أنه إن وجدت صعوبة فإن برنامج PASW يحتوي على مدرس خصوصي مفيد. وبإمكانك أن تعثر على هذا المدرس الخصوصي عن طريق انتقائك للاختيار "المساعدة" والموجود أعلا النافذة الرئيسية لمشاهدة البيانات.



شكل ٨-٦: لوحة الأعمدة البيانية فى برنامج PASW



شكل ٨-٧: صندوق حوار الجداول المركبة لبرنامج PASW

<table>
<tr><td>تطبيق –
تحليل
تقييم</td><td>تمرين ٨–١٥</td></tr>
</table>

١- اذكر ما يلي:

(أ) ما معدات وتجهيزات تكنولوجيا المعلومات المتاحة في مدرستك/ أو كُليتك/ أو جامعتك؟

(ب) كيف تستطيع أن تتعلم طريقة استعمال هذه التجهيزات والمعدات. ومن المسئول عن تكنولوجيا المعلومات والاتصال؟ هل ينظم المسئولون دورات تدريبية متقدمة؟

(جـ) ما مهارات تكنولوجيا المعلومات التي من الراجح أنْ تحتاج إليها لتعلُّم هذا المقرر الدراسي الخاص بك – اسأل مُدرسك.

٢- استخدم معرفتك في إنتاج العروض البيانية للبيانات على الكومبيوتر. قد تميل إلى استعارة بعض هذه البيانات لتعالجها، أو – بدلاً من ذلك – قد تستعمل الإنترنت أو تستعمل موقعاً إحصائيا من مواقع الشبكة للحصول على بيانات تتعلق بموضوع يهمُك: وهنا بمجرد أن تكوّن مجموعة بيانات، استخدم برنامج PASW لاستخراج العلاقات القائمة بين المتغيرات، وبعد ذلك قم بإنتاج الرسوم البيانية التالية لتوضيح نتائج بحثك:

(أ) رسم للوحة الأعمدة البيانية.

(ب) رسم بياني خطي (أو: مُضلّع تكراري frequency polygon)

(حـ) شكل توضيحي دائري.

(ملاحظات وتنبيهات: انتفع انتفاعا تاما بالعناوين الصحيحة لتوضيح ما هو معروض من بيانات. احتفظ بموادك المطبوعة في مكان آمن وتأكد من أن لديك نُسخاً احتياطية منها على الجزء الخاص بالذاكرة في الكومبيوتر. قد يكون من المفيد كذلك أن تُدون عدداً قليلاً من الملاحظات عن الطريقة التي اتبعتها في إعداد الرسوم البيانية، أي عن النظام المستخدم، والأوامر المطلوبة، وما أشبه ذلك. كما أن عليك أن تدون ملاحظاتك عن أي صعوبات واجهتك وعمَّا فعلته للتغلب عليها).

وبمجرد أن تشعر بالثقة في نفسك فيما يتصل باستخدامك لتكنولوجيا المعلومات والاتصال، قد يكون من المفيد أن تمارس مهاراتك في استعمال هذه التكنولوجيا عن طريق تحويل البيانات المستمدة من الجداول الإحصائية (والمأخوذة، مثلاً، من الكتاب الإحصائي الرسمي بعنوان "الاتجاهات الاجتماعية") وتحويلها إلى صور وأشكال بيانية باستعمال برامج إكسل. وإذا انتقيت بياناتك بحكمة، فستنتفع بوقتك انتفاعاً جيداً. مثال ذلك، أن المعلومات التي تم تحديثها والمرتبطة بالموضوعات التي يتناولها مُقررك الدراسي سوف ترفع مستوى جودة ملاحظاتك. ومن الممكن لهذه المعلومات أن توضع في ملفات تُنشأُ في أماكن ملائمة داخل ملاحظاتك، كما يمكن الإشارة إليها أثناء مراجعتك للمقرر الدراسي. ومن شأن ذلك أن يجعلك مطلعا اطلاعا طيبا على التطورات المعاصرة في هذا الموضوع، كما أنه سوف يترك انطباعا جيدا على من يقوم باختبارك. ومع ذلك، تذكر وجهة نظر لوسون التي يقول فيها:لابد أن تكون قادراً على تحليل الجداول التي تنشئُها إذا قررت تقديم صورة واضحة تماما لمهاراتك في التطبيق والتحليل والتقييم. حاول أن تستوثق من أنك تُحمّلُ وتُخزن المعلومات ذات الصلة فقط في قالبٍ يسهُل الوصول إليه، مما يمكنك أن تفهمهُ وأن تفسره وأن تطبقه بثقة واقتدار.

تقييم تأثير تكنولوجيا المعلومات على البحث السوسيولوجي.

سلّط هذا القسم الضوء على بعض المزايا العملية التي يمكن تحصيلها باستخدام تكنولوجيا المعلومات في البحث السوسيولوجي. ومن الناحية النظرية، يميل البنيويون ودارسو الوحدات الاجتماعية الكبرى (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب) إلى تأييد استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال. تذكر أن كلا هذين الفريقين ينادون بأنه ينبغي أن يُدرس المجتمع انطلاقاً من أوسع ما يمكن من المنطلقات باستعمال طُرق البحث الكمية، وذلك لأن هذا الأسلوب هو الأسلوب الوحيد الذي يمكن أن يتيح لنا استكشاف القوانين الاجتماعية التي تحكم السلوك البشري. ويميل المفكرون من أصحاب نظرية الفعل وكذلك دارسو الوحدات الاجتماعية الصغرى؛ يميلون إلى الاعتراض بقوة على هذه الرؤية، كما يميلون إلى مناهضة الاستعمال الزائد لتكنولوجيا المعلومات والاتصال في علم الاجتماع، خاصة إذا كان هذا يعني الاتجاه نحو استعمال طرق البحث الأكثر كميةً على حساب طرق البحث الكيفية.

تحليل – تقييم	تمرين ٨-١٦

مثلما يتعرض استخدام طرق البحث الواسعة النطاق (الماكرو) للاعتراضات النظرية، كذلك نلاحظ أن ما تتصف به من عيوب تطبيقية قد يُحد من هذا الاستعمال. اجمع قائمة بالمآخذ والعيوب التي قد تظهر من جراء الاعتماد الزائد على التكنولوجيا المتقدمة في البحث السوسيولوجي. انتفع بالمعرفة التي حصّلتها من الفصول القليلة السابقة ومن الأسئلة المذكورة أدناه لمساعدتك في الإجابة:

- هل بالإمكان أن يتحول علم الاجتماع إلى علم ذي مستويات تراتبية نتيجة قدرة البعض – دون البعض الآخر – على الحصول على تكنولوجيا المعلومات، أعني بذلك: هل سيتمكن هؤلاء الباحثون الذين تتوافر لديهم منحٌ بحثية ضخمة أو تمويل خاص من الوصول – بدرجة أعلى – إلى التكنولوجيا المتقدمة، ومن ثَمَّ يكونون قادرين على التفوق على الباحثين الذين يُقومون بمشروعات بحثية لا تحظى بهذا التمويل السخي؟
- لماذا يكون من شأن الاهتمام الزائد بتكنولوجيا المعلومات، خاصة باعتبارها وسيلة للتعبير عن البيانات الكمية؛ لماذا يكون من شأن ذلك الاهتمام أن يؤدي حتماً إلى إحياء الخلاف القديم حول طبيعة الحقائق الاجتماعية (انظر الفصل السادس من هذا الكتاب)؟
- تكنولوجيا المعلومات في حالة تحديث دائم، فما دلالات ذلك بالنسبة للمشروعات البحثية التتبعية؟

محور الامتحان: الأسئلة المُقنَّنة

سيُمَكنك الاختبار التالي من مراجعة، وتطبيق، وتقييم المعلومات التي عرضنا لها في هذا الفصل. اقرأ الموضوع (G)، والموضوع (H)، والموضوع (I) بعناية ثم استوفِ إجابة الأسئلة التالية على كل منها. إن احتجت للاستفادة بتقنياتٍ لاستيفاء إجابة الأسئلة المقننة، فارجع إلى الملاحظات/ أو التنبيهات التي زودناك بها في نهاية كل من الفصل السادس والفصل السابع من هذا الكتاب.

الموضوع (G)

البحث المقارن

إن ما يُمكن عقده من مقارنات في البحث المقارن إنما يتم على مستويات مختلفة متعددة. إذ يمكن عقد المقارنات بين البلاد (وهي المقارنات الماكرو) أو داخل إحدى البلاد بين الجماعات أو الأفراد الموجودين في المجتمع. وغالبا ما يحدث – بسبب التكلفة المرتفعة لهذا النمط من البحوث – أن يتم إجراء البحث المقارن في نقطة زمنية معينة، وفي دراسة من نوع الدراسات المستعرضة. والبحث الثقافي المقارن له أهمية في تحديد أوجه الاختلاف وأوجه التشابه بين البلاد. مثال ذلك، أنّ الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة قد تبدوان متشابهتين في ظاهر الأمر، إلا أن بإمكان البحث الثقافي المقارن أن يُثبت وجود اختلافات جوهرية بينهما (أو على الأقل بين بعض الجماعات السكانية الرئيسية داخل كل بلد منهما) فيما يتصل ببعض القضايا، كقضية تنظيم حمل الأسلحة النارية.

الموضوع (H)

المصادر الوثائقية

في مناقشة طُرق البحث، غالباً ما يُسلم الباحثون بأن الاستراتيجيات "الإيجابية/الفعالة" هي الأسلوب الأمثل للحصول على البيانات السوسيولوجية. وقد كُتب الكثير عن المسح الاجتماعي، وعن الاستبيانات، وعن المقابلات، وعن التقنيات الإثنوجرافية، إلا أن ما كُتب عن أحد المصادر الضخمة للبيانات المتاحة فعلاً لعلماء

الاجتماع يُعد قليلاً بالمقارنة بالكتابات السابقة. ذلك أن جُزءاً من طبيعتنا البشرية يتمثل في إنتاجنا لمقادير ضخمة من الوثائق الإنسانية، والتي يتم توليدها باعتبارها شيئا طبيعيا على امتداد حياتنا. وتشكل هذه المصادر الوثائقية البشرية (كاليوميات، والرسائل، والسير الشخصية وما أشبه ذلك) بنكاً ضخماً للمعلومات عن النشاط البشري الذي لم يُنقب عنه علماء الاجتماع إلا نادراً. وعندما يقدم بعض الباحثين على استخدام المصادر الوثائقية، فغالباً ما لا يخطر ذلك على بال الباحث إلا بعد الانتهاء من البحث. كما أنها لا تعد – على الدوام- بنفس أهمية طرق البحث الأساسية.

الموضوع (I)

الجمع بين التقاليد البحثية المختلفة

من العسير أن ننظر إلى طرق البحث الكمية والكيفية باعتبار أن كلا منها ينفي وجود الآخر. فعلماء الاجتماع يقومون، وبصورة متزايدة، بالجمع بين هذه الاتجاهات في الدراسة الواحدة. ويشخص برايمان هذه الحقيقة فيقول: "إن ما يتسم به الخلاف الدائر حول البحث الكمي والبحث الكيفي من تفضيل أحد هذين النوعين من البحث دون الآخر (وهي نزعة: إما هذا/ وإما ذاك)، قد يبدو أمراً شاذاً في عين شخص غريب عن هذا المجال،وهو الذي يرى أن الأمر الأكثر صوابا أن تتمثل الطريقة الواضحة لمواصلة التقدم في دمج هذين الاتجاهين حتى يمكننا الظفر بمزاياهما واحداً بعد الآخر".

يشير برايمان إلى أن "معظم الباحثين يعتمدون – أساساً– على طريقة بحث مرتبطة بتُراث أو اثنين من مختلف أنواع التراث البحثي، إلا أنهم يُدعمون نتائج بحوثهم باستعمال طريقة بحث مرتبطة بغير ذلك من أنواع التراث البحثي". ويلاحظ أن ممارسة الجمع بين البحث الكمي والبحث الكيفي تستند إلى تاريخ طويل، نجدها واضحة في الاتجاه الذي دعا إليه فيبر.

(المصدر: بتصرُّف نقلا عن هارالامبوس وهولبورن، في كتابهما بعنوان: "علم الاجتماع: أفكار محورية ومنظورات فكرية"، لندن، دار نشر كولينز، ٢٠٠٤).

تفسير تحليل	أسئلة ١– اذكر ميزة للاتجاه المقارن في البحث (الموضوع (G)) (درجتان).
فهم تحليل تقييم	٢– اذكر أسباب الاعتقاد بأن المصادر الوثائقية الإنسانية ليست بنفس أهمية طرق البحث "الفعالة".(الموضوع (H)) (درجتان).
معرفة فهم	٣– ما الذي يعنيه علماء الاجتماع "بالتعددية المنهجية"؟ موضوع (I). (٤ درجات).
تقييم	٤– قدّر المزايا والخصائص النسبية لطريقة البحث المقارنة وطريقة البحث القائمة على الوثائق الإنسانية في علم الاجتماع (الموضوع G والموضوع H) (٢٠ درجة)

٥- باستعمال الأدلة والشواهد المُستمدة من هذه الفقرات ومن غيرها، قيّم فائدة التعددية المنهجية في البحث السوسيولوجي. (٢٠ درجة)	
(ملاحظة: قبل الإجابة على السؤال رقم (٤) والسؤال رقم (٥)، قد يفيدك أن تقرأ القسم الذي يتناول التعدُدية المنهجية في الفصل التاسع من هذا الكتاب).	

مفاهيم مهمة
• العملية البحثية • التحليل الوثائقي وتحليل المضمون • دراسات الحالة • البحث الإثنوجرافي • البحث المقارن • طرق البحث البصرية • تكنولوجيا المعلومات والاتصال والبحث العلمي • برنامج PASW

التفكير النقدي
• إلى أي مدى أنهت التعددية المنهجية الفصل بين اختيار التقنيات الكمية واختيار التقنيات الكيفية؟ • هل توافق على أن الاستخدام المتزايد لطرق البحث البصرية وتكنولوجيا المعلومات والاتصال في علم الاجتماع يمكن أن يعد إعلانا عن مستقبل هذا العلم؟ أمْ أن هذا نوع من الظهور الجديد لمشكلة التقسيم بين الكمي/ والكيفي؟ • هل تظلُ طرقُ البحث السوسيولوجية الأقل شهرة، كطرق بحث الوثائق الإنسانية، هل تظلُ – على الدوام – بعيدة بُعداً شديداً عن التيار السائد في طرق البحث؟

الفصل التاسع

اختيار طريقة البحث

عند نهاية هذا الفصل ينبغي أن تكون قادرا على:

- التعرف على مدى المؤثرات التي تتدخل في تشكيل اختيار الأفراد لطريقة البحث.
- فهم التأثير الذي يمكن أن يمارسه المنظور الفكري للباحث على عملية اختيار طريقة البحث.
- التعرف على القيود العملية التي يمكن أن تؤثر على قرارات تصميم البحث وما يترتب عليها من اختيار طريقة البحث.
- فهم أهمية الأسس والاعتبارات الأخلاقية والمعنوية والتعرف على حجم وطبيعة تأثيرها على البحث.
- التعرف على الأساس المنطقي للتعددية المنهجية، والوقوف على نماذج لبعض الدراسات التي تستخدم هذا الاتجاه، وتقييم فائدته فى البحث السوسيولوجى.
- • تقدير التفاعل بين جميع أشكال التأثير التى يتناولها هذا الفصل، وتقييم الأهمية النسبية لكل منها.

مقدمة

يندر أن يتحرر علماء الاجتماع من القيود ومن التحيز عندما يكونون بصدد اختيار الطريقة التي سوف يستخدموها في معالجة موضوع بحثهم. فمن المحتم أن تشتمل عملية اتخاذ القرار هذه على تفضيل لطريقة بحث على أخرى، كما أن هذه العملية تُضفي على البحث بُعداً شخصياً أو ذاتياً. زد على ذلك، أن التحيز المتعمد يَحدُث لأن الباحثين يُجرون أبحاثهم انطلاقا من منظور فكريّ معين، أو فلسفة معينة، أو نموذج نظري معين. ويذهب جولدنر (١٩٦٧) إلى أن مقداراً معيناً من التحيز أمر حتمي لا مناص منه، إذ أنّ من المستحيل أن يتحقق التحرر من القيم لدى البشر، فلا يمكن الفصل أبداً بين الناس من ناحية، و/معتقداتهم من ناحية أخرى.

كما تلعب العوامل والاعتبارات العملية دورا مهما في تشكيل اختيار طريقة البحث. شاهد ذلك، أن الدراسات البحثية لا يمكن أن تُجرى إلا بإنفاق مال يأتي من الهيئات المُمولة، وسيؤدي هذا لا محالة إلى التأثير على الأسلوب الذي يُجري به البحث. وكما سوف نرى، أصبح السعي لتمويل البحث يزداد أهمية باضطراد في السنوات الأخيرة. ومع أن علماء الاجتماع ربما لا يزالون يحاولون انتقاء التقنية التي تفي باحتياجات بحثهم على خير الوجوه، فإن الحاجة إلى نمط معين من البيانات التي تُستمد من هيئة أو مؤسسة خارجية قد يُحد من طرق البحث المُستخدمة في الدراسة.

وتتزايد مطالبة علماء الاجتماع بمراعاة الاعتبارات الأخلاقية لبحوثهم. وتضع رابطة علماء الاجتماع البريطانيين خطوطاً إرشادية أخلاقية واضحة لإجراء البحوث السوسيولوجية تتصل بموضوع حساسية (الباحث)، وضرورة حصوله على إذن أو تصريح من المستجيبين، والتأكُّد من عدم وجود عواقب سلبية تقع على هؤلاء المشاركين في البحث (انظر المعالجة الواردة فيما بعد للوقوف على المناقشة التفصيلية لموضوع الأخلاق). وستجد هذه الخطوط الإرشادية على موقع الشبكة الخاص بالرابطة البريطانية لعلماء الاجتماع

(www.britsocial.co.uk/equality/statement+Ethical+Practice.htm).

وكذلك الخطوط الإرشادية الخاصة بالرابطة الأمريكية لعلماء الاجتماع (ASA) على مواقعها

(www.asanet.org/cs/root/leftnav/ethics/code_of_ethics_table_of_contents).

ولعلّ هذا التركيز على الممارسة الأخلاقية الطبية مرتبطاً ببعض المبادرات التي منها مثلاً مبادرة "ميثاق المواطن" Citizen's Charter والاهتمام بالدعوة إلى الحقوق المدنية في السياسات الحزبية. كما أن هذا التركيز على الممارسة الأخلاقية الملتزمة قد أدّى إلى زيادة الوعي بالحاجة إلى الحساسية في العملية البحثية. يُضاف إلى ذلك أن أعداد طلبة علم الاجتماع الذين يقومون بإجراء البحوث، سواء أكان ذلك على نطاق صغير محدود في المدرسة أو الكلية (حتى لو لم تكن عناصر العمل في المقرر الدراسي موجودة بَعدُ)، أو كان ذلك كجزء من برنامج درجة علمية جامعية قبل التخرّج؛ نقول: يُضاف إلى ما سبق ذكرهُ أن أعداد طلبة علم الاجتماع آخذة في التزايد، وهو الأمر الذي يشير إلى الحاجة إلى التوجيه الأخلاقي الواضح للبحث.

تُبين القضايا المطروحة بعاليه أن اختيار طريقة البحث ليس أمراً صريحاً لا غموض فيه، كما أنه – من الناحية العملية – يترجح أن يكون نوعاً من الموازنة

بين المؤثرات الخارجية المتنافسة من جهة، والمنظور الفكري أو الفلسفي للباحث من جهة أخرى.

ويهدف هذا الفصل إلى إلقاء الضوء على أمثال تلك المؤثرات/ والعمليات من خلال استعراض عدد من الدراسات البحثية والتمرينات العملية.

الاعتبارات النظرية

قدَّم لك الفصلان الثاني والثالث من هذا الكتاب فكرةً ما عن الأسلوب الذي به يستطيع التفضيل النظري أن يؤثر على صياغة تصميم البحث، إلا أنه ليس من الراجح – كما سلفت الإشارة – أن هذا سيكون هو المؤثر الوحيد، إذ أن العوامل والاعتبارات العملية والأخلاقية سوف يكون لها دورها البارز كذلك في تلك المعادلة. ومع ذلك، ومن أجل رعاية مُقتضى الحال، سيكتفي هذا الفصل بالتركيز على التفضيل النظري وحده. وسوف يساعدك التمرين التالي على الإلمام بالأفكار الرئيسية الكامنة وراء المنظورات الفكرية السوسيولوجية المتنوعة، وعلى بيان الطريقة التي تُؤثر بها هذه المنظورات الفكرية على تصميم البحث.

تفسير – تطبيق	ملحق تمرين ٩–١
	كتب الموضوع (A) مدرس حديث التخرج، كان يقوم للمرة الأولى بتدريس مادة "النظرية وطرق البحث" (وهي أقل المواد جاذبية في نظره). وقد كان مضغوطا – إلى حد ما – بعامل الوقت، حيث كان عليه أن يضع الدرجات لـــ ١٢٠ مقالة (كتبها طلبته) كما كان مرتبطا بالمشاركة في مباراة كرة قدم في

مساء اليوم السابق على إلقاء هذا الدرس، لذلك فقد كتب – على عُجالة – مُسوّدة عامة مُشوشة للدرس على ظهر ورقة بها قائمة بمشترياته من أحد المحال، وأعطاها لسكرتيرة المدرسة لتكتبها على الآلة الكاتبة. ولسوء الحظ كان من الصعب قليلاً قراءة بعض الكلمات، إلا أن علم السكرتيرة بأن هذه المهمة عاجلة، جعلها تخمّن ما هذه الكلمات. والأهم من ذلك، أنها كانت مُعتادة على فكّ شفرة الخط الردئ الذي يكتب به وكيل المدرسة.

١- اقرأ المُسوَّدة التي كتبها بيده هذا المدرس (الموضوع A) بعناية، وانظر ما إذا كنت تستطيع تحديد ما هو خطأ فيها.

٢- ضع علامة بقلمك الرصاص على المعلومات الصحيحة، وضع علامة الخطأ (×) على المعلومات غير الصحيحة، وارسم أسهماً لتشير إلى المكان الذي ينبغي أن تُنقل إليه المعلومات الموجودة في العمود الخطأ.

٣- قم بإعداد نُسختك الخاصة لهذا الجدول المختصر، وذلك بعد تصحيح الأخطاء وإعادة ترتيب المعلومات في تسلسُل منطقي. فإن ذلك سيكون مفيداً للمراجعة في وقت لاحق. (والآن امحُ ما كتبتهُ بالقلم الرصاص من علامات، وتصليبات (×) وأسهم).

ينبغي للصورة التي تقدمها أن تبين كيف يُؤدي التمييز بين النزعة البنيوية ونظرية الفعل الاجتماعي إلى تحديد الطريقة التي يُجرى بها البحث. فالمعتقدات الرئيسية لكلِ منظورِ فكري على حدة تُؤدي منطقياً إلى أفكار تتصل بالطريقة التي ينبغي اتباعها في إجراء البحث، وبنمط البيانات المطلوبة، وبتحديد أيّ طرق البحث التي تكون أفضلَ من غيرها من حيث مناسبتها لتحصيل هذه البيانات. وتُعَدُّ طرق البحث المُبيَّنة في هذا العرض الموجز أشكالا معتمدة في البحث السوسيولوجي بصورة جيدة.

الموضوع (A)	
النظرية وطريقة البحث – من الذي يؤمن بماذا؟	
• أومن بالنظرية البنائية	• أؤمن بنظرية الفعل (الاجتماعي).
• أرى المجتمع مُركبا من العلاقات وعمليات التبادل بين الأفراد.	• يركز بحثي على البناء الاجتماعي.
• أؤمن بالفلسفة الوضعية.	• أعتقد أنه ينبغي علينا أن ندرس المعنى الذي يُضفيه الأفراد على الأحداث لأن هذا هو الذي يتجمّع معا ليشكل طبيعة المجتمع.
• إن معنى أنني وضعيٌ أنه ينبغي علينا ألاّ نتعامل مع علم الاجتماع باعتباره علماً طبيعياً. فالوضعية تعني النظر إلى الجانب المُشرق للحياة مع تَبنّي نظرة متفائلة للمجتمع.	• أرى أن المجتمع مُكونٌ من المؤسسات والنظم المؤثرة التي تتجمّع لتشكل حيوات أعضاء المجتمع.
• يُركز بحثي على الفعل الاجتماعي.	• أنا ضد التشاؤم.
• أنا مُتأثر بكتابات "ميد"، وجوفمان، وشوتز، وجارفنكل، وفيبر.	• هذا يعني أنني أؤمن أنه لا ينبغي أن يُدرس المجتمع بنفس طريقة دراسة العلم، إذ أن للبشر

	مشاعرهم، كما أنهم أعقد من مادة الدراسة في العلوم الطبيعية.
• يهدف بحثي لجمع بيانات كيفية حتى أستطيع الظفر ببيانات متعمقة، ومُفصلة وصحيحة عن السلوك الإنساني المتفرد.	• ينبغي أن ندرس المجتمع على المستوى الصغير المحدود (المايكرو)، وأن نحاول تطوير فهمٍ متعمق للحالات الفردية.
• استعمل البيانات الأولية والثانوية، إلا أنني أجد البيانات الثانوية مفيدة في الكشف عن الأنماط والاتجاهات الاجتماعية التي يمكن تعميمها لاستخلاص القوانين الاجتماعية.	• أنا مُتأثر بكتابات كُونت، ودوركايم، وماركس، وإنجلز، وفيبر.
• أميل لاستعمال طرق البحث التالية: الاستبيانات غير المُقننة، المقابلات المتعمقة، والملاحظة.	• أميل إلى استعمال طرق البحث التالية: الإحصائيات الرسمية، الاستبيانات المُقننة، والمسوح الاجتماعية.
	• استعمل البيانات الأولية والبيانات الثانوية، وذلك على الرغم من أن البيانات الأولية – في العادة – أجدَى في الحصول على رؤية ثاقبة للمعنى الكامن وراء الفعل.

يعتمد الأثر الذي تُحدثه العوامل النظرية في اختيار طريقة البحث على الأمور التي تعد أولويات البحث أو على أشكال البحث التي تكون مُفضلة في هذا الوقت. وقد شهد القرن الماضي تلك النقلة الواضحة من الاهتمام بمنهجية البحث على النطاق الكبير (الماكرو)، والمستمدة من أفكار النزعة البنيوية، إلى منهجية البحث على النطاق الصغير (المايكرو)، والمستمدة من أفكار النزعة التفاعلية. كما توجد أمثلة لها قدرُها للبحوث التي أجراها علماء الاجتماع باستعمال مجموعة من التقنيات المستمدة من منهجيتي البحث الماكرو والمايكرو.

من اليسير أن نعثر على شواهد ماضية لبعض أنواع البحوث التي ولدت من رحم الأفكار الجديدة حديثة النشأة المتعلقة بأفضل طريقة للقيام بتفسير الحياة الاجتماعية. مثال ذلك، أنه في عشرينيات القرن العشرين أصبح علم الاجتماع الإيكولوجي يحظى بشعبية متزايدة. وكان هذا يعني ضمنا إعطاء الأهمية للبعد الجغرافي للبحث، أعني بذلك أنه كان من المُسلَّم به أنَّ المؤثرات البيئية يمكنها أن تمدنا بتفسير للسلوك. وقد أدى رواج المنظور الفكري الإيكولوجي في جامعة شيكاغو إلى إجراء كم كبير من البحوث انطلاقاً من زاوية نظر جغرافية، وبالذات عند محاولة تفسير أنماط الجريمة. ورغم أن ذلك البحث كان بلا شك أعلى تكلفة من الاتجاهات الإحصائية الأساسية، كما كان يمثل انحرافاً جذرياً عن التفسيرات البنيوية التي كان يطرحها المفكرون الوظيفيون والماركسيون. والسبب هو الاهتمام الكبير – على امتداد فترة زمنية طويلة – بإمكانيات النجاح المتاحة لعلم الاجتماع الإيكولوجي. كما تم تطوير منهجيات البحث بهدف التمكين من دراسة التأثيرات البيئية والجغرافية على السلوك.

وبالمثل، فقد أدى ما حدث في ستينيات القرن العشرين من زيادة الاهتمام بدراسة جوانب التفاعل الاجتماعي إلى تطور طرق البحث الملائمة للمعالجة الكمية

للقواعد والقوانين الموجودة – ولكن غير الملحوظة – التي تحكم السلوك الإنساني. فقد شملت البحوث في الولايات المتحدة دراسة المشاركة في الحوار (تحليل الحوار) ودراسة تبادل العلاقات (تحليل التعاملات). وامتدت هذه الاهتمامات إلى الجامعات البريطانية، حيث بدأ إجراء أنماط مشابهة من البحوث في هذه الدولة بعد عقدٍ من الزمان.

ليس من الصعب العثور على أمثلة للبحوث السوسيولوجية تأثرت فيها عملية اختيار طريقة البحث بالتوجه النظري للباحث. مثال ذلك، أن الجدل الراهن حول الانتحار يرجع عموماً إلى عدم الاتفاق على تحديد ما هو المنظور الفكري المُعتمد في دراسته، أعني بذلك هل هو الوضعية أو الظاهراتية (انظر في الفصل السادس من هذا الكتاب الجزء الخاص بطبيعة الحقائق الاجتماعية).

ورغم صحة أن الاتجاهات التاريخية كانت واضحة في منهجيات البحث المختلفة، فإنه من الخطأ القول بأن البحث السوسيولوجي كان واقعا – في مراحل معينة – تحت تأثير منظور فكري واحد بعينه. وإنما الأصح القول بأن بعض الأقسام العلمية في الجامعات كانت تفضل منظورات فكرية معينة، وأن الباحثين المنتمين إلى قسم معين سوف يميلون للأخذ بالمنظور الفكري الذي يتبناه هذا القسم، أو أنهم كانوا متعاطفين مع هذا المنظور الفكري قبل الالتحاق بالقسم. ومن ثمّ فقد تعكس بحوثهم تفضيلاً لمنهجيات بحثٍ معينة. ويعني هذا أنه – في كل سنة – تعكس الإصدارات العلمية سلسلة كاملة متنوعة من المنظورات الفكرية ومنهجيات البحث المختلفة.

وباعتبار أن مُعظم البحث السوسيولوجية تُجرى داخل المؤسسات الجامعية، فإنه ليس من العجيب أن تؤثر اهتمامات هذه المؤسسات على طبيعة البحوث وعلى الطرق المستخدمة فيها. وقد بنت بعض أقسام علم الاجتماع المختلفة في شتى أنحاء

العالم سُمعتها وشهرتها على أساس من تبنيها وتطويرها لأنواع معينة من الأساليب المنهجية، والتي طبقتها في سلسلة مختلفة الأشكال من المشروعات البحثية. ومع ذلك، فسيكون من الخطأ أن نفترض أن المؤسسات البحثية يحكمها الالتزام بمنظور فكريٍ وحيد. وإنما الأرجح أن الاهتمامات الفكرية لأحد الأقسام فيما يتصل بمناهج البحث يتمُّ تطبيقها في سلسلة من الدراسات البحثية، وذلك على الرغم من وجود مثل هذه الدراسات في العادة داخل إطار مفاهيمي أوسع نطاقاً على أية حال.

شاهد ذلك، أن قسم علم الاجتماع بجامعة "ساري" مشهور باهتمامه بمناهج البحث وبالتدريب على إجراء البحوث. وهو يُعلن عن ورش عمل دولية منتظمة في مجال النظرية وطرق البحث (وتشتمل موضوعات بعض الورش التي أقيمت مؤخرا على: التحليل الكيفي باستعمال الكومبيوتر، ومُحاكاة المجتمعات والعمليات الاجتماعية). وكان هذا القسم رائداً في مجال التحليل الثانوي (تحليل البيانات الثانوية) لمجموعات البيانات الضخمة والمعقدة التي تستخدم في البحث السوسيولوجي، كما تشمل البحوث الحديثة في ميدان المناهج دراسات عن العمل في تحليل البيانات الكيفية، وعن تطوير طرق البحث القائمة على المحاكاة الاجتماعية، وعن دراسة المقابلة في البحوث الإثنوجرافية.

والمعهود في مُعظم المؤسسات البحثية المعاصرة، أن يتم إجراء البحوث انطلاقاً من المنظور الماكرو (الوحدات الكبرى) والمنظور المايكرو (الوحدات الصغرى). وتتبنى البحوث التي يقوم بها هذا القسم على ثلاثة توجهات متداخلة و مترابطة ببعضها البعض، هي:

- **التفاوت الاجتماعي**: ويتمثل في التقسيمات الاجتماعية القائمة على أساس العُمر أو الجنس، ومن أمثلة ذلك: المشروعات البحثية في مجال النساء والتوظف، والمعاشات المهنية، والصحة في أواخر العمر، وعلم اجتماع

الإنجاب والطفولة. كما يتمثل في التقسيمات الاجتماعية القائمة على أساس الوظيفة والطبقة الاجتماعية، ومن أمثلتها: المشروعات البحثية المتعلقة بالمهن الفنية العليا، والجيش، والشرطة، والبحوث المتعلقة بالعرق، وبالإثنية. ومنها أخيرا التقسيمات الاجتماعية الناتجة عن قيام النظم الاجتماعية الأساسية بوظيفتها، مثال ذلك، النظام التشريعي الجنائي.

- **التغير الاجتماعي:** يتكون البحث هنا من توليفة من الاتجاهات الكمية والكيفية في دراسة التطورات الأساسية في الحياة الاجتماعية، والسياسية، والدينية، والثقافية. واشتملت المشروعات البحثية الحديثة على دراسات للقيم الاجتماعية والدينية والثقافية الأوروبية المتغيرة، ودراسات للتصورات البيئية، وللتحولات التي اعترت أشكال النظم السياسية الأوروبية. وتركز المشروعات البحثية الراهنة على تطور التحليلات والتقديرات التي تتناول دورة الحياة البيئية، والنزعة القومية، وتكنولوجيا العمل المتغيرة، وثقافة موسيقى "الجاز" وأشكال الموسيقى الزنجية.

- **اللغة والتفاعل الاجتماعي:** البحث في اللغة المنطوقة والمكتوبة في تشكيلة متنوعة من البيئات الاجتماعية، مع تركيز خاص على الموضوعات التالية: تحليل تنظيم التفاعل اللفظي في مواقع العمل التي يستخدم فيها الأفراد الكومبيوتر وتكنولوجيا الاتصالات، حيث يُطورون نماذج حاسوبية لأنماط التفاعل اللفظي، معتمدين في ذلك على تقنيات مُستمدة من علم اللغة الحاسوبي والدراسات السوسيولوجية للتفاعل في الحياة اليومية، ومُستكشفين لدلالة الخطاب في العلميات العلمية والعمليات النفسية الاجتماعية.

تفسير - تطبيق	تمرين ٩-١

تم إجراء المشروعات البحثية التالية بمعرفة قسم علم الاجتماع بجامعة "ساري" Surrey، بالمملكة المتحدة. حاول أن تُفيد من المعلومات التي عرضنا لها في الفقرات السابقة لكي تدرج هذه المشروعات في الفئة البحثية ذات الصلة. سجل إجابتك في جدول مكون من ثلاثة أعمدة تحت العناوين الآتية: "التفاوت الاجتماعي"، و"التغير الاجتماعي" و"اللغة والتفاعل الاجتماعي".

المشروعات البحثية

- "حياة العاملات المسنات": من تأليف جاي جين Jay Ginn وسارة آربر Sara Arber.
- "تحليل دورة الحياة البيئية والاجتماعية للفحم والفضلات بوصفها من أنواع الوقود": مارتن أوبريان Martin Brien وكريستيان هيث Christian Heath.
- "نمذجة الحديث داخل السياق": أندرو فوردهام Andrew Fordham ونيجل جيلبرت Nigel Gilbert، ويان هتشبي Ian Huchby وروبين ووفيت Robin Wooffitt.
- "تقييم التأثير الاجتماعي : دراسة للتأثيرات البعدية، دراسة لمخططات تحسين أحوال الطرق"، كيت بيرننجهام Kate Burningham ونيجل جيلبرت.
- "التحليل الإقليمي للتباين في ارتكاب الجرائم"، آلان كلارك Alan Klarke، ونيجل فيلدنج Nigel Fielding.

- "الاعتبارات السياسية للنزعات والاتجاهات الروحانية"، مايك هورنسبي- سميث Mike Homsby-Smith

- "الثقافة الشعبية"، كولين تبتون Colin Tipton.

- "خبرة النساء بالإنجاب"، هيلاري توماس Hilary Thomas

ركّز هذا القسم على الكيفية التي بها تُشكل العوامل النظرية اختيار منهجية البحث الذي يتمُّ تنفيذهُ ونتائجه. ومع أنه من المفيد فهمُ الصلة بين التفضيل النظري والممارسة البحثية، فإن من النادر أن يقوم اختيار طريقة البحث على أساس الاعتبارات النظرية فقط. فغالباً ما يكون عمل علماء الاجتماع متأثراً بالاعتبارات العملية أو الأخلاقية بدرجة أكبر من تأثره بالنظرية، كما أنه أمرٌ طبيعي تماماً بالنسبة للباحثين أن يُجروا بحوثهم انطلاقاً من مجموعة من المنظورات الفكرية، وذلك بالاعتماد على مصالح واهتمامات مَنْ يكلّفون الباحثين أو مَنْ يُمَولون البحوث.

والآن استخدم موقع الشبكة الخاص بجامعة أخرى - غير جامعتك - يكون بها قِسم لدراسة علم الاجتماع للوقوف على اهتماماتها البحثية وعلى وجوه القوة فيها.

تقييم الاعتبارات النظرية

نقاط القوة

١- إن التماهي مع منظور فكري معين يزود الباحثين بإطار لتقرير طريقة إجراء البحث وتحديد أي طرق البحث سوف تُستخدمُ في تنفيذه.

٢- تُوفِّر تركيزاً على تحليل البيانات، إذ ينظرُ كلُ منظورٍ فكريٍّ إلـى هـدف البحث بشكل مختلف، وبهذا الشكل ستُحلَّل البيانـات فـي ضـوء هـذه الاعتبارات.

٣- عندما يقوم التفضيل النظري بتشكيل اختيار طريقة البحث، فإن هذا يـوفر رابطةً منطقية بين المعرفة السوسيولوجية والممارسة.

أوجه القصور

١- إن بإمكان البحث ذي النزعة النظرية القوية أن يصبح ذا طابع ذاتـي وأن يُفضي إلى التأويل المتحيز.

٢- حالَ كون الباحث محصُور التفكير أو الرؤية بمنظور فكري مُحدد، فإنه قد يرفض طُرقَ بحثٍ ملائمة/ أو مُناسبة مُفضلا عليها طُرق بحث أقلَّ قيمةً، وما ذاك إلا لأنها تتماشى مع فلسفة عالم الاجتماع هذا.

٣- قد تكون بعض المنظورات الفكرية أو بعض طرق البحث عرضة للقيـود التمويلية بسبب النظر إليها باعتبارها غير ذات قيمة أو باعتبار أنها بلغت من صغر النطاق حداً يجعلها غير مُفيدة.

الاعتبارات العملية

سوف يناقش هذا القسم مجموعة من الاعتبارات العملية، كما يقـدم بعـض الأمثلة والتمارين لمساعدتك على فهم الطريقة التي بها تقوم التأثيرات التي تتصف بها هذه الاعتبارات بدورها. فإن بإمكان كثير من القضايا العملية أن تـؤثر علـى اختيار طريقة البحث على النحو التالي:

- الموضوع المُقرر دراسته وإمكانية الوصول إليه.
- هدف البحث، بما في ذلك نمط البيانات المطلوبة، والبحوث السابقة.
- الموارد وتشمل: الوقت، والمال، والعاملين في المشروع البحثي.
- الاعتمادات المالية: من حيث مقدارها وطريقة الحصول عليها.
- الأفراد المُقرَّر دراستُهم.

وغالباً ما يكون من الصعب تقدير التأثير الخاص بكل عامل من هذه العوامل لأن بإمكانها أن تتضافر معاً لتُشكِّل البحث. وللتيسير سيتم معالجة هذه العوامل مستقلة عن بعضها، إلا أنه ينبغي تذكُّر أن اختيار طريقة البحث لن يعتمد – إلا نادراً – على عاملٍ وحيدٍ من هذه العوامل.

معرفة- فهم تفسير- تطبيق	ملحق تمرين ٩-٢
	من الأمثلة المبينة في الفصلين السابع والثامن من هذا الكتاب، حدِّد ودوِّن قائمة بالدراسات البحثية التي أثَّرَ فيها أيٌّ من العوامل المذكورة في اختيار طريقة البحث المستخدمة. ضع مراجع كاملة لكل دراسة، وذلك بالانتفاع بقسم المراجع المُبين في نهاية هذا الكتاب لمساعدتك (ومن شأن هذا أن يجعلك تتعرف بالشكل الصحيح لعرض المراجع في الرسائل العلمية الجامعية وفي البحوث).

الموضوع المراد دراسته

لابد لعلماء الاجتماع أن يُمعنوا النظر بحرص شديد في الموضوع الذي يريدون دراسته قبل تقرير طريقة (أو طرق) البحث التي سوف يستخدمونها. فبعض الموضوعات تتناسب مع تشكيلة متنوعة من طرق البحث، بينما تتصف غيرها بأنها مقيدة منهجيا أشد التقييد. ويمكن لبعض الموضوعات أن تُدرس على يد جميع علماء الاجتماع، ابتداءً من طلبة شهادة الثانوية الإنجليزية GCSE، وانتهاء بأكبر العلماء الجامعيين. والبعض الآخر من الموضوعات شديدة التعقُّد وقد تتطلب طُرق بحث خاصة و/أو تحتاج لدرجة عالية من الخبرة والمصداقية من جانب الباحث. وسوف تواجه هذه الموضوعات الباحثين ببعض المشكلات التي تَحدُّ من اتجاهاتهم في البحث.

تتسبب الموضوعات الحساسة في إحداث صعوباتٍ جمَّة. ويُسلط "لي" Lee (١٩٩٣) الضوء على بعض عوائق البحث في كتابه بعنوان "إجراء البحوث عن الموضوعات الحساسة".

أوَّلاً: يمكن للمحظورات الثقافية الموجودة داخل ثنايا المجتمع أن تُقيد البحث. ويستخدم "لي" التابو (المحرمات أو المحاذير) المتعلق بأمور الجنس والموت كشاهد على مثل تلك القيود. وبالمثل، فقد وجد بلومر (١٩٨١) أنه لابد أن يكون حساساً لأبعد حد وحذراً من التابوهات (المحرمات والمحاذير) الموجودة في بحثه عن الجنسية المثلية.

ثانيا: يُسلط "لي" الضوء على التأثير الذي تحدثه "مجالات البحث المحظورة". ويصفُ هذا المصطلح مجالات البحث التي تُعرَّف – من الناحية المؤسسية- بأنها مناطق ممنوع دخولها. وقد طُرح هذا المفهوم للمرة الأولى على يد فولر Fuller(١٩٨٨)، والتي شَرعت في استكشاف الادعاءات والمزاعم الخاصة بالسياسات المضادة لكوبا من جانب حكومة الولايات المتحدة، وهي المزاعم التي

تعكس – بصورة مزعومة– مجموعة من المصالح الاقتصادية، والعسكرية، والجيوسياسية التي تهدف إلى عزل هذه الجزيرة اقتصاديا، وسياسياً، وإيديولوجيا. ومع ذلك، فإن حكومة الولايات المتحدة قد خلقت "مجالات بحث محظورة" وحافظت على استمرارها، مما جعل من الصعب إجراء بحث فولر، كما أن ذلك جعل الدليل على وجود سياسة مناهضة لكوبا دليلا مبهما غامضا. وبذلك أدى اختيار فولر لموضوع البحث إلى تقييد اختيارها لمنهجية البحث بدرجة كبيرة.

يتمثل العائق الثالث الذي يحول دون إجراء البحوث الحساسة في القيود والنظم القانونية. فالبحث يخضع لقيود قانونية متعددة. مثال ذلك، أن إجراء البحوث في بعض الدول أمر تُنظمه الدولة. وقد يواجه الباحثون متطلبات قانونية لضمان أن من يدرُس الباحثون أحوالهم قد أقروا بذلك عن علم، وأعني الموافقة الصريحة على مشاركتهم القائمة على أساس معرفتهم بطبيعة البحث وهدفه. ومن القضايا الأخرى الخاصة باختيار موضوع البحث تلك التي تتعلق "بحماية البيانات"، وهي الحماية التي بمقتضاها تتحكم اللوائح أو الضوابط القانونية في الأسلوب الذي يحدد ما إذا كانت المعلومات تخزَّن على الكومبيوتر، أم تُستعمل نُظم التسجيل اليدوية. وسوف نناقش الدلالات الضمنية لهذه القيود في موضع لاحق من هذا الفصل (انظر المناقشة الخاصة بالعوامل الأخلاقية).

رابعا:– ويُطلق على القضية الرابعة مصطلح "التجميد". ويحدث هذا التجميد "عندما يتم منع الباحثين، الذين يتوقعون صُدور بعض ردود الأفعال العدائية من زملائهم؛ عندما يتم منعهم من استكمال كتابة أو نشر البحث في موضوع بعينه" ("لي"، ١٩٩٣، ص٣٤). ويذهب "لي" إلى أن بعض الباحثين الاجتماعيين، وبالذات في الولايات المتحدة، تُفرض عليهم القيود عن طريق مطالبتهم بالالتزام "بسلامة الموقف السياسي" في الحياة الأكاديمية، كما أن الباحثين الذين يخرجون على الإجماع السياسي ذي الميل اليساري يواجهون التهميش، أو إطلاق التسميات

السلبية عليهم، أو توقيع بعض العقوبات عليهم. كما أنهم يواجهون العداء من الزملاء، تضييقا لفرص النشر، أو الترقيّ، أو التمويل. وفي الحالات المُتطرفة قد يواجهون الاحتجاج الجماهيري المُنظم ضد بحوثهم.

معرفة – فهم تفسير – تطبيق تحليل – تقييم	تمرين ٩-٢
في مجموعات صغيرة العدد، قوموا بتحديد ووضع قائمة بمجالات البحث التي قد تثير العداوة في هذه الأوقات الحافلة "بسلامة الموقف السياسي". كيف يمكن للباحثين أن يتغلبوا على هذه الصعوبات وأن يقدموا المُبررات لإجراء بحوثهم؟ تناولت الفقرات السابقة مدى تأثُّر اختيار منهجية البحث بالطبيعة الحساسة لبعض الموضوعات. وقد أوضح "لي" (١٩٩٣) هذا الأمر، عندما أكد أن إحدى مُشكلات بحث الموضوعات الحساسة تتمثل في عدم وجود تعريف مُتفق عليه عموماً لماهية أو مقومات الموضوع "الحساس". فالموضوع الحساس في المصطلح السوسيولوجي "مفهوم نسبي"، أي إنه يتوقف على اعتبارات الزمان، والمكان والرؤى والتصورات الشخصية، والثقافة وما أشبه ذلك. وسوف يُمكنك التمرين التالي من استكشاف الصعوبات الناجمة عن هذا المفهوم وكيف يحاول الباحثون مواجهة هذه الصعوبات.	

تمرين ٩-٣	معرفة- فهم تفسير- تطبيق تحليل - تقييم

تأمل القائمة التالية لموضوعات البحوث:

- الفوبيا الاجتماعية أو الرُهاب الاجتماعي: الخوف من ملاقاة الآخرين و/أو من مواجهة المواقف الاجتماعية.
- سرقة العربات للتنزه بها وقيادتها.
- السلوك الانتخابي في بريطانيا: كيف يستعمل الناس حقّهم في التصويت (أو الاقتراع).
- إيذاء الأطفال: الإساءة البدنية، أو الجنسية، أو الانفعالية إلى صغار السن.
- الإنفاق العائلي: كيفية إنفاق المال في المنزل.

١. دوّن كتابة تلك الموضوعات التي تراها حساسة.

٢. قل رأيك في السبب الذي يؤدي إلى اعتبار (رؤية) هذه الموضوعات حساسة، ومن الذي يعدها كذلك؟

٣. اختر واحداً من هذه الموضوعات الحساسة، وانتفع بالموضوع الوارد أعلاه ليوجهك في:

(أ) تحديد ثلاث مُشكلات قد تواجه الباحثين لدى دراسة هذا الموضوع.

(ب)تقديم اقتراح يتصل بالطريقة التي قد يتّبعها الباحثون في محاولة التغلّب على كل واحدة من هذه المشكلات الثلاثة.

١- اختر واحداً من الموضوعات التي قررت أنها ليست حساسة، وحاول الانتفاع بمعرفتك ومعلوماتك السوسيولوجية التي تضمنها هذا الكتاب لتوجيهك في تقرير ما يلي:

(أ) حدّد وسيلة واحدة بها قد يقوم هذا الموضوع بتقييد اختيار الباحث لطريقة البحث.

(ب) سلّط الضوء على طريقة بحثٍ واحدة ترى أنه لا يمكن استخدامها في دراسة هذا الموضوع. قدّم المبررات على إجابتك.

(حـ) سلّط الضوء على تفضيلك لطريقة (أو طرق) بحث لدراسة هذا الموضوع. قدّم المبررات على إجابتك.

في الوقت الذي ازداد فيه الوعي العام بالموضوعات أو القضايا الحساسة نلاحظ تنامي الاهتمام بإجراء البحوث في هذه القضايا. ويواجه علماء الاجتماع في وقتنا هذا مأزقا. إذ يتوجبُ عليهم أن يُقرروا ما إذا كان البحث الذي يعتبره البعض متطفلا على حياة الناس ويفتقد الالتزام بالأخلاق؛ ما إذا كان مُبرراً من عدمه. ويتوجب عليهم أن يوازنوا بين رغبتهم في زيادة فهمنا لجوانب العالم الاجتماعي التي لم تستكشف قبل ذلك من جهة، والحاجة إلى مراعاة الحساسية من جهة أخرى. ومع ذلك، فإنه لا ينبغي أن يُعوقهم ذلك الموقف، إذ يوجد الكثير الذي يمكن الحصول عليه من إجراء البحوث عن الموضوعات الحساسة.

ويميل البعض إلى التمادي في هذا الرأي إلى حد القول بأن على علماء الاجتماع مسئولية البحث العلمي لأمثال تلك القضايا بقصد رفع مستوى الفهم العام

لها. وكما عبّر عن هذا الرأي تعبيـــرا بليغـــا ســـيبر Sieber وســـتانلي Stanley (١٩٨٨) عندما كتبا قائلين:

"يُعالج البحث الحساس بعضاً من أشد القضايا الاجتماعية والمسائل السياسية ضغطاً وإلحاحاً. ورغم أن تجاهل القضايا الأخلاقية في البحث العلمي يعد اتجاهـــا يفتقر إلى الالتزام بالمسئولية إزاء العلم، فإن التباعد عـــن الموضـــوعات المثيـــرة للخلاف لمُجرد أنها مثيرة للخلاف، هو الآخر نوع من الهروب من المسئولية"

وبالمثل، يقرر كل من "لي" ورينزتي Renzetti (١٩٩٠) صراحة بأنه ليس لمجرد أن الموضوعات الحساسة تثير قضايا ومعضلات معقـــدة، أن يعنـــي ذلـــك ضمنا عدم وجوب دراسة هذه الموضوعات. بل الأحرى أنه ينبغي على البـــاحثين أن يمضوا قُدما في دراستها، إلا أنه ينبغي لعملهم أن يخضع لما يتصفون به مـــن انضباط ذاتيّ وتمسُّكٍ بالتوجيهات الأخلاقية التي أصـــدرتها مؤســـساتهم وهيئـــاتهم المهنية (انظر ص ص ٢٦٦- ٢٦٧).

هدف البحث

يتمثل أحد العوامل الواضحة التي تؤثرّ في اختيار طريقة البحث في تحديـــد الغرض من البحث، و أعنى بذلك إلام تهدف الدراسة أو إلى من تهدف الدراســـة؟ ومن الواضح أن هذا يرتبط بنوع البيانات المطلوبة. مثال ذلك، أن من يرغب فـــي الوقوف على كيفية تغير أنماط التردد على الصلوات – وعلى العظة بالكنائس عبر الزمن سوف يقوم – منطقياً – بالاعتماد على دراسة البيانات الكمية. وبالمثل، فإن من يرغب في دراسة موضوع ماذا يعني الدين للأفراد قـــد يكـــون أكثـــر مـــيلاً لاستعمال البيانات الكيفية.

ومن القضايا التي يمكن أن تؤثر بشكل حاسم على اختيار طريقة البحث، قضية ما إذا كان الباحث يهدف إلى تحديد ودراسة الأنماط المتكررة والاتجاهات الشائعة وإلى صياغة التعميمات، أو ما إذا كان يقصد تقديم رؤية مفصلة وفهم متعمق لحالة فردية أو لموقف فرديّ. وفي بعض الأحيان قد لا يعرف الباحثون غرض البحث إلا بعد أن يجمعوا البيانات الأولية، وإن كان مثل هذا الوضع نادر الحدوث في أيامنا هذه لأن تمويل البحث يرتبط عادة بهدف بحثي مُحدد.

وقد توجد أحياناً حاجة إلى دراسة موضوع معين لم يسبق بحثه، وذلك في الوقت الذي يوجد فيه خلاف على النتائج المتوقعة منه. مثال ذلك، أنه في أعقاب حرب الخليج ظهر أنه من المحتمل وجود رابطة بين بعض الأمراض التي أصيب بها الجنود المحاربون وبين اللقاحات التي أُعطيت لهم عند تحضيرهم للمعركة. وقد أفضى ذلك إلى جدلٍ عام مُتقدٍ حول ما إذا كانت توجد متلازمة مرضية (أي مجموعة من الأعراض المرضية المترابطة syndrome) يمكنها أن تفسر الأعراض التي ظهرت على من خدموا في حرب الخليج. وقد تصاعد الضغط الشعبي وطالب الناس بإجراء استقصاء عام للحقائق. وعندما اكتسبت هذه الحملة القوة الدافعة، أصبح واضحاً أن لكل طرف من الأطراف المطالبة بالبحث في هذه القضية أجندة خاصة تختلف عن غيره، وهي الأجندات التي قد تكون أثّرت على الطريقة التي أُجرى بها هذا البحث. وسوف يُمكنك التمرين التالي من الوقوف على الدلالات المختلفة لمثل هذا الموضوع.

الموضوع (B)

هل لمُتلازمة حرب الخليج وجود فعلا؟

بعد حرب الخليج الأولى وحرب الخليج الثانية عبَّر الناس عن قلقهم من تعرض الجنود أثناء الحرب لعدد من الكيماويات والسموم المختلفة المُستخدمة في الأعتدة الحربية للحلفاء وفي الحُقَن التي أعطيت للجنود لحمايتهم من أي هجوم كيميائي تشُنُه القوات العراقية (انظر لوسون وهيتون، ٢٠٠٩، في كلاميهما عن جرائم الدولة). وقد ذهب البعض إلى أن مُتلازمة حرب الخليج أدت إلى عدد من حالات الولادة المشوهة في أطفال الجنود الذين تعرّضوا لمثل هذه الكيماويات. وكانت الحكومة عازفة في مبدأ الأمر عن إجراء بحوث للتحقق مما إذا كان ثمة ارتباط بين مُعدلات الإصابة بالعيوب الخلقية عند المواليد الذين وُلدوا لآباء من العسكريين الذين خدموا في الخليج من جهة، والسموم التي تَعرَّض الآباء لها من جهة أخرى. وقد ألَحَّ الجنود الذين خاضوا المعارك على إجراء استقصاء للحقائق، وكان إلحاحهم شديداً، كما أن كبار العسكريين أيدوهم في ذلك. ومن جهة نظر الجيش، كان الأمر الأخطر من حيث الأهمية هو "عدم معرفة" عواقب استخدام أمثال تلك الخطط العسكرية، بينما كانت العائلات أشدّ قلقاً على أطفالها الحاليين وعلى أي أطفال يُولدون في المستقبل. ومع ذلك، فإن من العسير إثبات وجود علاقة سببية بين هاتين الظاهرتين حتى لو أمكن أن نبرهن على أن معدلات الإصابة بالعيوب الخلقية لدى المواليد أعلى بصورة ظاهرة مما هي عليه في باقي السكان.

تمرين ٩-٤	تفسير - تطبيق تحليل- تقييم

اقرأ الموضوع (B) ثم أجب على الأسئلة التالية:

١- إن كلاً من السُلطات العسكرية والجنود العائدين من حرب الخليج يُلحوّن في طلب إجراء استقصاء عن الحقائق. ولكن دوافع كل طرف لإجراء هذا الاستقصاء تتباين عن بعضها. فما دوافع:

(أ) الجنود المقاتلين في حرب الخليج؟ (ب) السلطات العسكرية؟

٢- ما نوع البيانات التي يتطلب الأمر جمعها من أجل توفير برهان على أنه توجد "مُتلازمة مرضية"؟

٣- كيف يمكن تنظيم البحث بقصد جمع تلك البيانات؟

٤- ما أنواع البيانات التي قد تساعد تلك العائلات التي تُناضل لتتغلب على العواقب اللاحقة لهذه الحرب؟ قدم ما يبرر إجابتك.

٥- كيف يمكن جمع هذه المعلومات؟

يُبين المثال السابق كيف يمكن لنفس القضية أن تُبحثَ باستخدام اتجاهات مختلفة، وذلك بالاعتماد على الهدف المُحدد لهذا البحث. وقد اعترف علماء اجتماع عديدون فيما نشروه من نتائج بحوثهم بأنهم اختاروا -عن قصدٍ- طريقةَ بحث مُعيَّنة لمعالجة مسألة بحثية خاصة.

وتُقدم دراسة بادفيلد Padfield وبروكتر Procter (١٩٩٦) شاهداً على ذلك. فقد سعى المؤلفان لاستكشاف الأثر الذي يحدثُهُ جنس الباحث الذي يُجرى المقابلة على عملية المقابلة وذلك في ضوء الاهتمام المتزايد بهذه المسألة. أجرى بادفيلد وبروكتر سلسلة مقابلات مع مجموعة صغيرة العدد من الشابات لاستكشاف خبراتهن وطموحاتهن فيما يتصل بالعمل وبالأسرة. وقد أُجريت المقابلات مع تسعة وثلاثين امرأة، ٢٠ أجراها يان بروكتر (وهو رجل) و١٩ أجرتها مو بادفيلد (وهي امرأة). وقد أتاح لهما هذا الإجراء أن يقارنا المقابلات التي أجراها رجل بالمقابلات التي أجرتها امرأة، وأن يتحققا مما إذا كان لجنسيهما على التوالي تأثير على عملية المقابلة من عدمه.

الموضوع (C)
تأثير نوع الباحث الذي يجرى المقابلة أو **إثنيته على عملية المقابلة: بحث مقارن** أجرى بحثنا بواسطة مقابلة شبه مُقننة قمنا فيها بتشجيع من قابلناهم على التحدث بحرية في ردهم على مجموعة من الأسئلة المُقننة بعناية، والتي تُغطى عملهم وتواريخ أُسرهم وطموحاتهم للمستقبل فيما يتصل بكل من مجال العمل ومجال تكوين الأسرة. وكانت المقابلات قائمة على مبدأ المشاركة... وبذلك أصبحنا في وضع يتيح لنا عقد المقارنة بين المقابلات التي أجراها رجل (وهو يان Ian) والمقابلات التي أجرتها امرأة (وهي مو Mo). وهذه المقارنة لها أهميتها لأنه على الرغم من الدعاوى التي تُقال بشأن التأثير الذي يُحدثُه الجنس (ذكر/أنثى) على عملية إجراء المقابلة، فإنه لا يوجد تحت أيدينا

شواهد مقارنة وفيرة ذات أساس إمبيريقي يمكن في ضوئها التدليل على صحة هذه الدعاوى. وحتى وقتٍ قريب، كان أغلب النقاش الدائر حول النوع في البحث الميداني قائماً على أساس الحكايات الطريفة (وارن، ١٩٨٨، ص١٣). وكان قدرٌ كبير من هذا النقاش مُركزاً على ما يسميه وارن "أسطورة الأهمية المحورية للنوع في البحث الميداني" (١٩٨٨، ص٦٤).

إن من الحقائق التي تكاد تكون بدهية بشأن البحث القائم على المقابلة، مثلاً، أن النساء الباحثات يستطعن – في معظم المواقف- تحقيق المزيد من "الألفة" مع المبحوثين بسبب ما يتصفن به من قلة التسبب في إشعار المبحوث بالتهديد، ولِما لهنَّ من مهاراتٍ أفضل في إتمام عملية الاتصال (١٩٨٨، ص٤٤).

ولسنوات عديدة قدمت هذه الدعوى – وبصورة رئيسية – المُبرر لعُلماء الاجتماع الرجال الذي يكتبون عن أساس المادة العلمية لموضوع المقابلة، وهي المادة التي تجمعها في أغلب الأحيان باحثات مجهولات الأسماء ممَن يقُمن بإجراء المقابلات. ومع ذلك، فقد اتضحت بعض نقائص هذه الأسطورة عندما تم بحثها في إطار المناقشات النسوية الحديثة لطرق البحث (أُوكلي، ١٩٨١، ماكي Mckee وأوبريان، ١٩٨٣): فبدلاً من القول بأن "الأُلفة" تمثل ملمحا مريحا ومُسلَّما به في عملية إجراء المقابلة، فإن الرأي الأقوى – والذي عززته مناقشات المفكرين النسويين – هو أن جنس الباحث الذي يُجرى المقابلة ليس مجرد أمر مريح ومحل تسليم ولكنه أمرٌ مهمٌ، وأن الباحثات قادرات على الإتيان بأنواعٍ مختلفة من "المعلومات".

وقد وجد باحثون آخرون مثل لابوف Labov أن التلاؤم بين الصفات الشخصية للباحث الذي يُجري المقابلة والمبحوث الذي تتم مقابلته فيما يتصل بالانتماء الإثني وبالعمر يمكن أن يكون له تأثيرٌ ملحوظٌ على صحة البيانات التي يتم الوصول إليها.

(المصدر: إم. بادفيلد وآي. بروكتر، في مقالة لهما بعنوان: "تأثير نوع الباحث على عملية المقابلة: بحث مقارن"، مجلة "علم الاجتماع"، عدد ٣٠(٢)، ١٩٩٦؛ ودبليو لابوف (١٩٧٣) في مقالة له بعنوان": منطق اللغة الإنجليزية غير القياسية" في الكتاب الذي حرره إن. كدي N.Keddie بعنوان: "السمكري والترزي: أسطورة الحرمان الثقافي"، ها موندزورث، بنجوين).

تمرين ٩-٥	معرفة - فهم تفسير- تطبيق

يُقدم الموضوع (C) بعض التفاصيل عن الدراسة التي قام بها بادفيلد وبروكتر. اقرأ الموضوع، ثم أجب على الأسئلة التالية. والمفروض أن يُزودك هذا التمرين بفهم ثاقب للمبررات والأهداف التي سعى بروكتروبادفيلد إلى تحقيقها من وراء إجرائهما لهذا البحث، وللكيفية التي بها عكس تصميم البحث أهدافها.

١- ما المقابلة شبه المقننة؟ (ملحوظة: إن كنتَ غير متأكد من الجواب، راجع القسم الخاص بالمقابلات في الفصل السابع من هذا الكتاب).

٢- لماذا كان مُهماً أن تقنّن الأسئلة بعناية في هذا البحث؟

٣- ماذا كان دافعُ الباحثين الذي حفزهما إلى دراسة هذا الموضوع المُختار؟

٤- اشرح - بكلماتك أنت - ما الذي يعنيه تعبير "أسطورة الأهمية المحورية للنوع في البحث الميداني".

٥- ما هي - في رأي بادفيلد وبروكتر - العيوب والنقائص التي تتضمنها هذه الأسطورة؟

وهكذا يُبين المثال السابق، أن الباحث قد لا يحتاج إلى اختيار طريقة بحث بعينها لأنها - في بعض الحالات- قد تتقرر في ضوء هدف البحث. وعند التفكير في هدف البحث نفسه، فلا بدَّ من أن نولي الاهتمام الكافي للاختيارات المتاحة للباحث. وغالبا ما نجد في الواقع العملي أن تحديد هدف البحث يخضع للهيئات الخارجية التي تُموله، ويقتصر دور الباحثين على استخدام مهاراتهم في تحقيق الهدف من هذا البحث. وقد يشمل هذا الإسهام قيامهم باختيار طريقة البحث الملائمة، أو العمل بطريقة بحث سبق أن حددها المشروع البحثي الذي كلفوا به.

الموارد والإمكانيات

من العوامل الأخرى المؤثرة في اختيار طريقة البحث: وفرة الموارد والزمن قيدٌ من قيود الموارد. فبعض طرق البحث أكثر توفيراً للوقت من الطرق الأخرى، ومن ثم يفضل استخدام مثل هذه الطريقة في البحث ذي النطاق الزمني القصير أو المحدود. والوقت مرتبط ارتباطاً حتمياً بالمال. فمن المعروف - مثلا - أنَّ طرق البحث الكمية في جمع البيانات مُكلفة مالياً، على حين يكون التحليل في هذه الحالة سريعا وموفرا للتكاليف نسبياً. وعلى الرغم من أن تصميم أداة لجمع البيانات قد تتكلف قدرا كبيرا من الوقت وتتطلب خبرة العديد من العاملين، فإنه بمجرد وجودها، ينبغي أن يكون الجزء الباقي من العملية البحثية مُوفراً للمجهود وأن تكون فاتورة الأجور منخفضة. وبصورة عامة، فإنه بمجرد إنشاء قاعدة بيانات (وذلك من خلال تكويد المعلومات بها)، يكون بالإمكان القيام بتحليلها

بواسطة الكومبيوتر بمعرفة عدد قليلٍ من الأفراد. ويصبح بالإمكان نشر النتائج بسرعة وصياغة التقرير بصورة محكمة دقيقة. وتقلُّ الحاجة إلى فريقٍ بحثيٍّ كبير العدد يتطلب تكاليفٍ ضخمةٍ.

وعلى حين يميل الناس للنظر إلى طُرق البحث الكمية على أنها سريعة ورخيصة التكاليف، نجد أن طُرق البحث الكيفية تعتبر أكثر استهلاكاً للوقت، وذلك في ضوء عدة اعتبارات:

أولاً: نظراً لأن طرق البحث الكيفية تهدف إلى جمع البيانات المتعمقة لتوفير رؤيةٍ ثاقبة واقعية لحقائق الأحداث والمواقف، فقد يحتاجُ الأمرُ إلى إنفاق قدرٍ من الوقتِ لا يستهان به "في الميدان" قبل البدء في تنفيذ المشروع البحثي. وقد تشتمل هذه المرحلة على عقد لقاءات نافعة مع الجماعة المراد دراستها وعلى تعلم مفرداتها، أو لغتها الاصطلاحية، أو أساليبها التقليدية المرتبطة بها، أو يشتمل فقط على تطوير مشاعر المشاركة الوجدانية والتعاطف مع هؤلاء الذين تقررت دراسة حالتهم. مثال ذلك أن أوكلي (١٩٨١) قامت قبل شروعها في دراسة النساء الحوامل بشهور، وهي الدراسة التي كان عنوانها "من الآن وحتى الأمومة" "From Here to Maternity"؛ قامت على امتداد فترة ستة شهور بإجراء ملاحظات في وحدة الأمومة في مستشفى لندن لكي تؤسس أرضية معرفية تُقيمُ عليها بحثها. وبالمثل، أمضت لانجهام Langham (١٩٩١) وقتاً تتعلم فيه ما يتصل بقوات الشرطة قبل أن تشرع في بحثها عن تجنيد (أو توظيف) النساء وخدمتهن في قوات الشرطة.

ثانياً: في بعض الحالات، لن تكون نوعية البيانات التي يتم جمعها جيدة إلا إذا كان التصور الأصلي للباحثين عن الجماعات التي يدرسونها تصوراً جيداً ودقيقا. وتعتمد طرق البحث الكيفية على درجة الأُلفة التي تتبلور بين الباحث

والمبحوث، وهذه الألفة لا يمكن تحقيقها على عجل، ذلك أن أي علاقة أخرى تظهر بين الباحث والمبحوث يغلب عليها أن تكون سطحية. وقد كان هذا هو السبب الذي جَعل دوباش Dobash ودوباش Dobash (١٩٨٠) – في دراستهما الممتازة لموضوع العنف الأسري – يعتمدان على خدمات باحثتين مساعدتين أمضيتا شهوراً عديدة في أحد الملاجئ تجريان فيه مقابلاتٍ مع النساء اللاتي تعرضن للضرب.

ثالثاً: تتسبب الحاجة إلى البيانات المتعمقة في مشكلتين للباحث هنا: أن تسجيل البيانات سيكون عملية طويلة الأمد، كما أن تحليل هذه البيانات تحليلا ذا معنى سيكون عسيراً بسبب المقدار الكبير للبيانات المُتضمَّنة. فإذا تقرر القيام بمحاولة للمعالجة الكمية للبيانات حتى يُمكن اكتشاف الأنماط والاتجاهات العامة، فلابد من تصميم نظام تكويد لتفسير كل تباين ممكن في الاستجابات. وحتَّى إذا تُركت البيانات في صورة كيفية فسيتعين تحويلها من صورتها الخام في السجلات إلى صورة يمكن استخدامها واسترجاعها بسهولة.

ويتطلب هذا الوضع قدراً كبيرا من الوقت ومن القوة العاملة. مثال ذلك أن كل مقابلة أجرتها أوكلي وسُجلت على شريط تسجيل كانت تستغرق ساعتين ونصف الساعة تقريباً، وأن المقابلات التي أجراها دوباش ودوباش كانت الواحدة منها تستغرق ما بين ساعتين و١٢ ساعة. ولوضع هذا الأمر في السياق الصحيح نقول: إن أمكنك أن تتذكر مَدى طول الوقت الذي يلزمك كطفل صغير لتعيد نسخ كلمات أغنيتك الشعبية المُفضلة (بالإنصات إليها وتدوينها) حتى تستطيع أن تغنيها متماشياً مع أصل الأغنية، فسوف تستطيع أن تكوّن فكرة معقولة عن العمل الضخم الذي يتضمنه ما يقرُبُ من ثلاث دقائق من هذا العمل.

إذا قام باحث واحد بدراسةٍ ما بمفرده، فلن يمكنه سوى جمع بيانات قليلة جداً من خلال طُرق البحث الكيفية، ما لم تمتد الدراسة عبر فترة طويلة من الزمن. مثال ذلك، أنه اقتضى الأمر من باركر Barker (١٩٨٤) ست سنوات لاستكمال دراستها المتعمقة لإحدى الجماعات الدينية. لهذا السبب يكون من الشائع عند فرق الباحثين أن يجمعوا البيانات الكمية، وذلك رغم أنه لابد أن يقوموا – قبل جمع البيانات – بتوحيد وتقنين أسلوبهم في العمل الميداني، وذلك كي يضمنوا أنهم جميعا يفسرون الأحداث ويُسجلونها بأسلوب مُوحّد. وقد تجلت أهمية هذا الاتجاه في دراسة ويلموت (١٩٨٧) في كتابهِ بعنوان "شبكات الصداقة والدعم الاجتماعي". فقد انتفع ويلموت بفريقٍ من خمس باحثاتٍ لجمع البيانات المطلوبة في مسحة الاجتماعي المحدود النطاق عن الصداقة والدعم الاجتماعي غير الرسمي، كما أن جزءاً مهمًا من العملية البحثية تمثل في تحديد كيفية قياس المفاهيم الغامضة مثل مفهوم الصداقة. وبدون الاتفاق على كيفية هذا القياس ما كان لويلموت أن يتأكد من أن جميع باحثاته كُنّ يُفسرن البيانات بنفس الأسلوب الذي كان يتبعه. وبإمكان هذا الأمر أن يُقلل من فائدة توظيف الأفراد للتعجيل بمعدل تنفيذ العملية البحثية.

من شأن الاتفاق على الطريقة التي سوف تُعالج بها المفاهيم الأساسية معالجة كمية، بجانب التأكد من أن هذا التفسير مُطبق بصورة متسقة على امتداد تفاصيل العملية البحثية؛ من شأن هذا الاتفاق وهذا التأكُد أن يستهلكا قدرا كبيرا من الوقت وتكلفة مالية مرتفعة، إذ أن هذا الأمر يتطلب إجراء اتصالات متكررة بين أعضاء فريق البحث. ولن يستطيع أيُ إنسان يُجرى بحثاً بميزانية محدودة أن يقوم بتنسيق مثل تلك العملية المعقدة من جمع البيانات، كما أن من الراجح انه سيضطر إلى تبني طريقة بحث أكثر تقنيناً يكون نطاق سوء الفهم فيها أضيق، وتكون صعوبات التفسير فيها أقلً.

التمويل

من الممكن أن يؤدي التمويل إلى أن يَفرض منهجية البحث المُستعملة. مثال ذلك، أنَّ من الراجح لشركة تنتج الأدوية المُخدرة وتمول بحثا يتناول فاعلية أو مُلاءمة علاجٍ بأحد الأدوية المخدرة؛ من الراجح أن تُحبذ منهج بحث مُصمَّم لجمع البيانات الكمية عن الشفاء، وتخفيف حدة المرض، والانتكاس وما أشبه ذلك، وذلك لأن هذه هي أنواع الإحصائيات التي ستساعد على تسويق هذا المُنتج. وعلى عكس ذلك، نجد أن من يعارضون استعمال الأدوية المُخدرة، أو يكونون مستقلين مالياً عن مجال الاختبارات الإكلينيكية قد يكونون أكثر اهتماماً بالنتائج الكيفية لاستخدام الأدوية، أي بالنتائج الجسدية، والاجتماعية، والسيكولوجية التي تحدث للشخص الذي يجري علاجُهُ.

قد يتعذر في بعض الأحيان تحديد التأثيرات التي يُحدثها التمويل في البحوث، إلا أنه بالإمكان – مع ذلك – أن تكون هذه التأثيرات قوية المفعول. فالبحث السوسيولوجي يُمكن تمويله عن طريق تشكيلةٍ متنوعة من المصادر، من قبيل: ميزانيات البحوث الجامعية، والشركات الخاصة، ومجالس البحوث والقطاع العام. وتمويل البحوث قضية حساسة. شاهد ذلك، أن بالإمكان الزعم بأن إجراء البحث يعني ممارسة حقٍّ أساسيّ من حقوق الإنسان في تطوير المعرفة. ومن ثمّ، فإنه في دولةٍ ديموقراطية، يكون البحث العلميّ بأكمله عملاً مشروعاً وينبغي دعمُه. ومع ذلك، ورغم أن هذا المبدأ قد يكون سليماً من الناحية الفلسفية، فإنه قد يكون أقلُّ سلامةً من الناحية المالية. فالبحث العلمي مُكلفٌ مالياً ولا يمكن إجراؤه إلا إذا كان تمويله أمراً مضموناً. وإنَّ بإمكان هذا الوضع أن يعمل على تقسيم المشروعات البحثية المُحتملة إلى فئتين هما: المشروعات التي تعد جديرةً بالتمويل، والمشروعات التي تُعتبر غير جديرة بالتمويل.

لذلك لا يستطيع الباحثون أن يتناولوا بالدراسة المجالات والقضايا التي تمثل اختياراتهم بدون النظر إلى الاعتبارات المالية التي تتضمنها تلك الاختيارات، كما أن الحقيقة القاسية للقيود المالية تؤثر -في أغلب الأحيان- على صياغتهم لفروض بحوثهم. ويَظل بعض الباحثين مُخلصين لذواتهم الأكاديمية أو الفلسفية، حيث يسعون بهمة لتمويل دراسة القضايا التي يعتبرونها مهمة. ويقوم بعض الباحثين بتعديل بعض اهتماماتهم من أجل ضمان التمويل، وهُم بعملهم هذا يتنازلون عن بعض اهتماماتهم ومُثُلهم اغتناماً لفرصة إجراء البحث الذي قد يتماشى مع الاهتمامات التي يتمسكون بها. وهناك باحثون آخرون متحررون من القيم عموماً، إذ يعملون "كوزراء بدون محافظ مالية"، ولا يجدون غضاضة في قبول مشروعات البحوث التى يصوغها بصورة مباشرة أصحاب المصالح في عالم التجارة أو في القطاع العام. وفي مثل تلك الحالات، يعمل الباحثون كمستشارين ويوظفون مهاراتهم البحثية في معالجة المسائل الخاصة بالهيئة أو العميل الذي يُمول البحث.

من الأرجح أن يتم توظيف النمطين الأوّلين من الباحثين المشار إليهم في إطار البحوث الجامعية، حيث لا يزال بالإمكان الاحتفاظ بعلاقات مع البحث العلمي البحت (أو الخالص)، كما يزداد احتمال توظيف النمط الثالث من الباحثين في الأطر التجارية كأبحاث السوق مثلاً، حيث ينصبُ التأكيد – عموماً– على توظيف المهارات البحثية في الإجابات على الأسئلة التجارية.

إن الباحثين الذي يُوظفون في بيئة من بيئات أبحاث السوق يكونون أبعد عن الاهتمام بالأثر الذي يمكن أن يُحدثه التمويل في البحث، وهو الأمر الذي يرجع أساساً إلى أنهم سبق أن اختاروا إجراء البحث لأسباب تجارية. ومع ذلك، فإن هؤلاء الباحثين الذين يُوظفون في بيئة جامعية يكونون أقرب للاهتمام بالضغوط التي يفرضها التمويل وأشد تأثُراً بها. وقد أصبح تمويل البحوث الجامعية موضوعاً

مثيراً لخلافات شديدة في السنوات الأخيرة. شاهد ذلك، أن بيلـيج Billig (١٩٨٧) يشير إلى أن التغييرات البنائية قد أثرت على أنواع البحوث التي تحظـى بتقـدير المجتمع، كما أن الجامعات أصبحت مضطرة للتجاوب مع هذا الوضـع. ويناقش بيليج الطريقة التي أثرت بها الظروف السياسية لسنوات الثمانينيات علـى نمـط الأبحاث التي يُجريها الباحثون الجامعيون. وهو يرى أن التأثير المتزايـد للنزعـة المحافظة، وخاصةً فيما يتصل بتأكيدها على أهمية قوى السوق، قد أرغم الجامعات على الظهور في صورة المنظمات التي تسعى لتحقيق الربح، ويقول في ذلك:

"إن الجامعات، والتي طالما ارتاب المحافظون (سياسيا) في كونها حاضنات للاشتراكية، كانت أهدافاً مستهدفة من جانبهم. كما طُلب من الجامعـات أن تكـون ذات طابع تجاري يسعى لتحقيق الربح. وتوجَّب على الأساتذة الجامعيين أن يكونوا أعضاء نافعين في المجتمع، حيث يساهمون بصورة مباشرة في الهـدف القـومي لخلق الثروة. وقد أعلنت الحكومة صراحة، وهي التي تمول المجـالس الرئيـسية لتمويل البحوث، أنه ينبغي إعطاء الأولوية للبحوث التي تعود بالمنفعة على الأمـة. ومن المُحزن أن أقول إن الجامعات قبلت دورها الجديد كمُنظمات هادفة للربح. إن الأساتذة الجامعيين المتخصصين في المشروعات التجارية هم من يمسكون بمقاليـد الأمور في وقتنا هذا. ويتنافس الأساتذة الجامعيون فـي الحـصول علـى عقـود للبحوث. ولم يعد يسعى أحدٌ للتمويل بقصد إجراء البحث، بل يجرى البحث بقـصد الحصول على التمويل". (المرجع نفسه، ص٨).

وقد أصبحت الجامعات – في استجابتها للتدخُل السياسي – شديدة الحـرص على تحسين مستواها العلمي المنحدر، وعلى أن تُعيد إحياء الصورة العامة للبحـث العلمي الذي يمكن أن تُقدَّر قيمته وفقا للاعتبارات المالية. ويزداد خضوع مخرجات البحث العلمي للجامعات للتنظيم الذي يتولاه المحكمون الحكوميـون، كمـا أُقحـم

المُراقبون لمتابعة تنفيذ هذه البحوث والحكم عليها من الناحية العلمية. وبهذا الشكل يُمكن إعطاء كل بحث جامعي قيمة تجارية خاصة به. والتمويل مرتبط بتقييم مستوى المخرج العلمي (بإعطاء القيم التجارية المختلفة) وبأن لكل عمل منشور قيمة مالية. ونتيجةُ ذلك، وفقاً لبيليج، أن أصبح أساتذة الجامعات واقعين تحت ضغط " إما أن يَنشُروا بحوثهم وإما أن تتوقف مسيرتهم العلمية".

وقد أثر هذا الضغط على الطريقة التي يُجرى بها تنفيذ البحث. ويقوم العلماء الاجتماعيون، ولحرصهم على الظفر بعقود مُربحة من بحوثهم؛ يقومون بالترويج للقيمة العلمية لتخصصهم العلمي. ويعطي بيليج المَثَل على ذلك بأقسام علم النفس التي تنجذب نحو استخدام تكنولوجيا المعلومات، والتي تُحسن من مستوى أعمالها انطلاقا من منظور فكري قائم على التشارك بين الإنسان والآلة. وبالمثل، يبدو علماء الاجتماع وهم يتباعدون عن البحوث البحتة، وهي البحوث التي يُنظر إليها باعتبارها ذات قيمة عملية محدودة، حيث يُفضلون عليها الدراسات التطبيقية التي تصوغ شكل السياسية الاجتماعية وعملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وكنتيجة لذلك، فإن نطاق الدراسات البحثية آخذٌ في التحوُل إلى نطاق أضيق وأضيق، كما أن القرارات المتصلة بما إذا كان بَحثٌ معين جديراً بالتمويل أم لا، تقوم في وقتنا الحالي على تقييم المنفعة العملية وليس الجدارة الأكاديمية.

ورغم ذلك، فإن الهيئات المرتبطة بالبحث الاجتماعي حريصة على الإعلان عن التزامها برصد الاعتمادات المالية لتشكيلة متنوعة من المشروعات البحثية، وليس الاقتصار على تلك المشروعات التي تتلاءم مع أجندة محددة سلفا. مثال ذلك، أن رغبة هذه الهيئات في توضيح سُوء الفهم المتعلق بالتمويل في سنة ١٩٩٦ أدت بالبروفسور ميتشيل وست وتشارلز هولم الأستاذين بمجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية إلى أن يكتبا خطاباً مفتوحاً للمجلة العلمية الأكاديمية "عالم النفس" Psychologist (مارس ١٩٩٧) جاءَ فيه:

"نحن عضوان في مجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية، ونعمل بالمكتب الذي يخصص المنح لإجراء البحوث، وهو المكتب المسئول عن تخصيص الاعتمادات المالية للبحوث في العلوم الاجتماعية والتي تبلغ نحواً من ١٤,٤ مليون جنيها إسترلينيا في السنة.

وحديثاً، حدد مجلس البحوث المذكور أولويات للموضوعات التي يتولى تمويل بحوث عنها في المستقبل من أجل تحقيق نوع من المعالجة الأكثر إستراتيجية ومُباشرة للقضايا ذات الأهمية العلمية والأهمية الاجتماعية التطبيقية. ومع ذلك، فإنه يبدو أن إحدى النتائج التي ترتبت على هذا الأمر تمثلت في وجود نوع من سُوء الفهم الذي تكون لدى بعض أفراد الجماعة العلمية الذين تصوروا أن مجلس البحوث المذكور لم يَعُد يطبق نمطاً مرناً لتخصيص الاعتمادات المالية، وأن على جميع الالتماسات التي تطلب رصد اعتمادات ماليّة لبحوثها أن تكون متناسبة مع واحدٍ من المجالات الموضوعية التي حدّدها المجلس.

إننا نرغب في توضيح وإعادة تأكيد حقيقة أن مكتب تخصيص منح البحوث لا يزال ينفذ نمطاً مرناً كل المرونة لتخصيص الاعتمادات المالية للبحوث، وذلك حتى لا يتم تخصيص أيّ اعتمادٍ ماليٍّ منه لأي من، أو لكل الأولويات والموضوعات البحثية المقرّرة".

على الرغم من وعد مجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية بتأمين تطور العلوم الاجتماعية، فلا يمكن إنكار أن البحث في وقتنا الحالي لا يزال متأثراً – بشكل مباشر أو غير مباشر– برصد الاعتمادات المالية. لذلك لم يعد أمام الباحثين – في مواجهتهم لهذه الضغوط – سوى أن يُجروا البحوث التي ينظر إليها باعتبارها ذات قيمة تجارية، كما أنهم – نتيجة لذلك – قد يختارون طُرق بحثٍ تعكس الاعتبارات المالية بأكثر مما تعكس الاعتبارات النظرية. ويُرحّب بهذه النقلة

في موقف الباحثين أولئك الذين يرون أن الباحثين ظلوا زماناً طويلاً جداً مشغولين بالتنظير أكثر من انشغالهم بالاعتبارات العملية.

اجتذب البحث التربوي مثل هذا النقد في السنوات الأخيرة بسبب تركيزه على النظرية، على حساب معالجة "القضايا الواقعية" التي تواجه المدرسين. وقد قدّم آلان سميثرز Alan Smithers – مدير مركز بحوث التربية والتوظف بجامعة برونل – قدّم دعماً لهذا الرأي بتأكيده أنه يتوجب على الباحثين أن يصبحوا أكثر دقة وصرامة إذا أرادوا أن يستمروا في تبرير الإنفاق العام الباهظ. وقد أكد سميثرز، في خطاب ألقاه في الاحتفال السنوى للرابطة البريطانية للعلوم في جامعة ليدز، أن عدداً كبيراً للغاية من الباحثين يتصرفون مثل العلماء الاجتماعيين، إذ يتناولون قضايا عصية على الفهم العام (أي غامضة/ أو منتقاة) بدلاً من معالجة القضايا ذات الأهمية العملية. وخلص سميثرز إلى نتيجة مفَادُها أن معظم البحوث التربوية ليست محل تقدير من أحد، فيقول: "رغم إنفاق نحو مائة مليون جنيها إسترلينياً في السنة على البحوث التربوية، فإن نتائجها لا تلقى سوى التجاهل عُموماً من قِبل كل إنسانٍ، بدءاً بالسياسيين وانتهاءً بمدرسي المدارس". (نقلاً عن بارنارد Barnard، ١٩٩٧).

تمرين ٩-٦	تحليل – تقييم
في مجموعات صغيرة، اطرحوا آراءكم فيما ذهب إليه سميثرز. إلى أيّ مدىً توافق على أنه ينبغي على الباحثين أن يُقدموا بحوثا ذات قيمة تجارية أكثر من كونها ذات قيمة أكاديمية أو نظريةٍ؟	

يُمكن النظر إلى الأثر الذي يُحدثُهُ التمويل في البحث العلمي باعتباره أثـراً سلبياً وإيجابياً معاً. فمن يرغبون في الدفاع عن البحث "الخالص" أو البحث (أعنـي بذلك البحث الذي يهدف لتوسيع نطاق معرفتنا وفهمنا للعالم أكثر من كونـه بحثـا تحركه الأهداف العملية أو التجارية)؛ هؤلاء قد يعتبرون تـشديد قيـود التمويـل وارتفاع كفاءة التكلفة في أقسام البحوث اتجاهاً مُزعجاً. فالبحث الذي يُعتَبر ذا قيمة مالية ضئيلة قد يهلك بسبب نقص التمويل. ويمكن التعبير عن ذلك بـصورة أشـد سخرية أن البحث الضار سوف يحال دون تنفيذه أصلا. ومع ذلك، فإن من يحبذون التطبيقات العملية للبحوث قد يَرَون أن زيادة القيود المالية والمساءلة هي خطـوات ذات أثر إيجابي. إذ يجب إجراء البحث بأهداف محددة، كما أن الاعتمادات الماليـة يجب أن يكون لها مدلول مباشر في نظر هؤلاء الموجودين خارج دائـرة أقـسام البحوث العلمية. ذلك أن إلزام الجامعات بأن تكون ذات كفاءة في اسـتثمار المـال سوف ينقلها إلى العصر الحديث للتنافس ومن ثم الفوز بالتمويل المطلوب، وذلـك لأن نجاحها في هذا المضمار سوف يكون حاسما في استمرارها وبقائها.

السمات الشخصية للباحث

ليس من الصعب العثور على شواهد للتفاعل بين الموضوع المقَرر دراسته، والسمات الشخصية للباحث، واختيار طريقة البحث في البحـوث الـسوسيولوجية. وهناك كثير من الموضوعات التي لا يمكن دراستها إلا بأساليب معينة علـى يـد أفراد بعينهم لهم ملامح أو صفات أو مهارات معينة تكسبهم القدرة علـى الـدخول إلى مجتمع البحث والنفاذ إلى أفراده.

وتوضح دراسة جريفيث Griffith (١٩٩٦) عن العالم الاجتماعي لألعـاب القمار عدداً من الطرق التي بها يُمكن للسمات الشخصية للباحث أن يكون لها تأثير

على البحث. فقد قام جريفيث بإلقاء الضوء على السمات والمزايا النسبية للملاحظة المشاركة في مقابل الملاحظة غير المشاركة في العمل الميداني. وقد نجح في ثنايا ذلك في توضيح الطريقة التي يمكن بها للسمات الشخصية للباحث أن تؤثر على تحديد أيّ طُرق الملاحظة سيتم اختيارها.

يلاحظ جريفيث أن أي إنسان يحاول إجراء ملاحظة بالمشاركة يتعين أن تتوافر له:

(١) معرفة بالناس، والثقافة، و/أو اللغة التي تجري دراستها،

(٢) القدرة على التصرف بوصفهِ عضواً "طبيعياً" من أبناء ذلك المجتمع.

وهكذا تعد السمات الشخصية – والتي منها هوية الباحث – أمراً حاسماً في الحكم على ما إذا كان مثل هذا البحث ممكناً أم لا. ويواصل قوله ليُسلط الضوء على الكيفية التي بها تفرض الطرقُ المختلفة للملاحظة شروطاً ومتطلبات مختلفة يتعين توفرها في الباحث. مثال ذلك أن الملاحظة غير المشاركة تعتمدُ –عادة– على كون الباحث مجهولاً عند الجماعة التي يدرسها، كما أنه لكي يندمج الباحثون داخل موقع بحثي معين – دون أن يُغيروا ظُروفه وأوضاعه – لابُدّ أن تتوافر لهم سمات شخصية معينة. وفي حالة جريفيث، كانت الخبرة،والسن، والجنس من العوامل المؤثِر في القدرة على بقاء الباحث في وضع لا يكتشفه فيه أحد، وفي هذا يقول:

"*حيث أن الممرات الموجودة تحت البواكي كثيراً ما يتردد عليها المراهقون والشبان بصورةٍ عامّة، فإن القاعدة العامة تتمثل في أنه كلما كبر سنُّ الباحث، زادت صعوبة اندماجه بينهم بصورة ناجحة و فعّالة. فإن لم يكن ممرُّ البواكي شديد الزحام، فإن البديل الوحيد هو أن تكون واحداً من "المقامرين*" (المصدر نفسه، ص١٧)

يُبرز جريفيث كيف مكَّنته سماته الشخصية من إثراء بحثـه عـن طريـق انتفاعه بطريقة غير مشهورة من طُرق الملاحظة وهي طريقة كتابة "الإثنوجرافيا الذاتية"، وأعني بذلك الاعتماد على الخبرة الشخصية في تحسين مستوى فهم الموضوع قيد الدراسة. وقد اعتاد جريفيث أن يكون مُقامراً منتظماً، وبهذا الشكل كان في موقع يُمكنه من تحليل خبراته الخاصة. وتُعتبر قيمة هذا المنحى البحثي في توفير البيانات البحثية الخام قيمةً محدودة، وإن كانت قُوته تكمُن في كونهِ مصدراً للفروض والنظريات المتعلقة بتفسير لماذا يُقامر الأفراد. وعن طريق لفته الانتباه إلى الفوائد التي يمكن لصفاتِ شخصيةٍ معينةٍ أن تجلُبها للعملية البحثية. ولا يَعني جريفيث بذلك أن البحث القائم على الملاحظة ينبغي ألا يقوم بهِ إلا من لهم خبرة شخصية سابقة بمجال موضوع الدراسة. بل الأصح أنه يُبين – فحسبُ – كيف أنه في بعض الحالات يكون من المفيد للباحثين أن "يُصبحوا هم أنفسهم موضوع بحثهم". (المرجع نفسه، ص١٨).

كما أن بإمكان السمات الشخصية للباحث أن يكون لها تأثير ضار على العملية البحثية في ظروفٍ مُعيَّنة. مثال ذلك، أنَّ الصعوبات قد تنشأ إذا كان للباحثين اتجاهات أو اعتقادات معينة قد تُعرض للشبهة قدرتهم على أن يكونوا موضوعيين (انظر ص١٦٣) عند إجرائهم للبحث. وقد حَظيت هذه القضية باهتمام وسائل الإعلام عند قام أستاذٌ جامعي مشهور، مثير للاختلافات، مُنتمٍ لليمين (أي من المحافظين)، وهو دكتور جيمس تولي James Toolay عندما قام بإجراء بحثٍ علمي كلَّفته به هيئة أوفستد Ofsted، عن القيمة العملية للبحوث التربوية المُموَّلة من الحكومة. وتمثل هيئة أوفستد إدارة المعايير المُطبَّقة في مجال التربية، كما أنها مُنظمة عيَّنت الحكومة أعضاءها من الباحثين وكبار المدرسين (والذين يكونون من المُحالين للمعاش عادةً)، والذين يفحصون مستوى جودة التربية في دور الحضانة، وفي الإدارات المعنية بخدمات الطفولة، وفي المدارس والكليات على المستوى

القومي. وهم يكتبون التقارير ويضعون الدرجات للمؤسسات والهيئات التي يراقبونها، كما يتم نشر هذه التقارير (لمزيد من المعلومات يمكنك الإطلاع على موقعهم على الشبكة www.ofsted.gov.uk). وقد تسبب تكليف "تولي"في صدور نقدٍ قويٍ من مُمَثِّلي مجتمع البحث التربوي:

"في الوقت الذي نُرحِّبُ فيه بأي بحثٍ علميٍّ مُحَايدٍ في مجال البحوث التربوية، فإننا في غاية القلق من أن يكون لامرئ معروفٍ بموقعه السياسي القوي منظورٌ فكريٌّ متحيز. فمقاييس البحث العلمي السليم لابُد من دعمها وتأييدها. "(مايكل باسي، السكرتير التنفيذي للرابطة البريطانية للبحوث التربوية، المؤتمر السنوي، مدينة يورك، ١٩٩٧- انظر باسي Bassey، ١٩٩٨).

وبعد ذلك أنكر متحدثٌ باسم هيئة أوفستد Ofsted أن يسمح دكتور "تولي" لآرائه الشخصية أن تلوِّن بحثه العلميَّ، إلا أن تعليقات "تولي"الخاصَّة لم تسهم كثيراً في إسكات هؤلاء المنتقدين حيث يقول:

"نُريد أن نبحث موضوع قيمة المال الذي ينفق على البحوث التربوية الراهنة... كم من هذا المال يتم ضخُّه في المدارس، وكم منه يوجه للمصلحة التافهة التي تخُصُّ المجتمع البحثي، إن جاز استخدام مثل هذه العبارة الحادة". (نقلا عن بدج Budge، ١٩٩٧).

<table>
<tr><td>تفسير – تطبيق
تحليل – تقييم</td><td>تمرين ٩–٧</td></tr>
<tr><td colspan="2">ناقش مع زملائك في مجموعات صغيرة العدد الأسئلة التالية:</td></tr>
<tr><td colspan="2">١– لماذا اعترض الباحثون التربويون على تكليف دكتور "تُولي" من قِبل هيئة أوفستد؟</td></tr>
</table>

٢- ما الدوافع التي قد تتوافر لدى هيئة أوفستد للقيام بهـذا التكليـف، مـع الأخذ في الاعتبار أنها تعلم "الميـول اليمينيـة" (أي المؤيـدة لحـزب المحافظين) لدكتور "تُولي"؟

٣- إلى أي مدى توافقون على أن الباحثين كانوا على حق في القَلـق مـن تكليف دكتور "تُولي" في ظل هذه الظروف؟

سلطت المناقشة السابقة الضوء على الطريقة التي بها قد يكون للسمات الشخصية للباحث تأثيرٌ على طريقة البحث المختارة أو على العملية البحثية الأوسع نطاقاً. وعلى الرغم من أنه من المُستبعد أن تكون السمات الشخصية للباحث هي أهم عاملٍ مؤثرٍ على اختيار طريقة البحث، فسيكون لهذه السمات - بلا شك - تأثيرٌ ما على تحديد ما هو نمط البحث الذي يكون ممكناً.

من الأمور التي تستحق ألا تغيب عن أذهاننا أنه ليس لمجرد أن الباحث قد يشارك المجموعة التي يدرسها في سمات فسيولوجية معينة (كالعمر، أو العرق، أو الجنس مثلاً)، ليس معنى ذلك - بالضرورة - أن الباحث والمبحوثين سيشتركون في نفس الرؤى والأفكار. فالعكس قد يكون صحيحاً كذلك، أعنى بهذا أنه من الممكن أن تعمل الفروق الموجودة بين الباحث والمبحوثين على إفادة المشروع البحثي، إذ تُودي إلى زيادة الفهم المتبادل وزيادة الاحترام. يُضاف إلى ذلك أن العلاقة بين السمات الشخصية للباحث والسمات الشخصية للمبحوثين دلالاتها بالنسبة لبعض القضايا، كقضية الموضوعية وقضية التحرر من القيم. مثال ذلك، هل من الأرجح أن يكون الباحثون موضوعيين إذا كانوا مختلفين عن الأفراد الذين يدرسونهم، أم أن وَضعَهم "كأغراب" يؤدي إلى تفسيراتٍ متحيزة أو نمطية جامدة لسلوك الجماعة؟ من العسير معرفة الحقيقة بشكل قاطع.

وقد أمدتنا رودس Rhodes (١٩٩٤) برؤية ثاقبة في هذا الشأن من خلال دراستها للتأثيرات التي يحدثها العِرق في البيانات المستخلصة من المقابلات. فقد انتهت إلى نتيجةٍ مَفادُها أنه سيكون من الخطأ افتراض أن التناغم بين السمات الشخصية للباحث وللمبحوث الذي تتم مقابلته سوف يؤدي إلى جمع بيانات أكثر صحة وصدقاً. وبدلاً من ذلك، ترى أنه بالرغم من أن الباحث الذي له سمات شخصية مختلفة عن السمات الشخصية للمستجيب قد يصل إلى معلومات مختلفة وينتهي إلى تفسير وفهم مختلفين، فإن هذا الوضع يمكن أن يأتي ببيانات صحيحة تماثل تماما تلك البيانات التي يجمعها باحثٌ تُشبهُ سماته الشخصية سمات المبحوثين.

الأخلاقيات

حتى عهد قريب نسبياً، لم تكن الاعتبارات الأخلاقية المحيطة بالبحث السوسيولوجي تحظ إلا باهتمام ضئيل. ولو سئل أحد الدارسين العاديين في سنوات الستينيات من القرن العشرين أن "يُقيم بصورة نقدية العوامل المؤثرة على اختيار عالم الاجتماع لطريقة البحث، لكان من المحتمل أن يقسّم هذه المناقشة إلى العوامل النظرية والعوامل العملية. ولم تكن المسائل الأخلاقية لتحظى ساعتها إلا بالحد الأدنى من الاهتمام، هذا إن ذُكرت أصلاً.

وقد كانت تُوجد مبررات عديدة تفسر لماذا قامت الأخلاقيات بدورٍ ضئيل في البحث السوسيولوجي، وبعبارة أوضح، في اختيار منهجية البحث بوجه خاص. ومن أمثلة تلك المبررات:

- افتقاد الوعي بأن على الباحثين التزاماً أخلاقياً تجاه من يدرسونهم.

- افتقاد التشريع الذي يلزم بالكشف عن الجوانب الأخلاقية للبحث.
- لم يكن المجتمع ككل يولي اهتماما كبيرا لبعض القضايا مثل قضية المُواطنة، وقضية التمكين (وهما من الحقوق الفردية)، مما أدّى إلى النظر إلى المبحوثين كأشخاص نكرات لا ملامح لهم، ممّن يمكن التلاعب بهم لتحقيق الصالح الأكبر للمجتمع ككل.

لو كان محتملاً في العقود السابقة أن تتعرض أي طريقةُ بحثٍ للتشكيك فيها لاعتبارات أخلاقية، لكانت هي طريقة الملاحظة المشاركة المستترة أو السرية. وكان ذلك راجعاً إلى الغش والتضليل الموجودين في نشر البيانات التي جُمعت من مبحوثين بسطاء لم تؤخذ موافقتهم على أن يكونوا محلَّ دراسة. ففي سنوات السبعينيات وسنوات الثمانينيات من القرن العشرين أدّت بعض المؤلّفات، مثل كتاب همفريز Hamphreys بعنوان "تجارة صالات الشاي" (١٩٧٠) وكتاب باركر Barker بعنوان "تكوين كنيسة أتباع مون(*) (١٩٨٤)؛ أدّت هذه المؤلفات وأمثالها إلى لفت انتباه الناس للطبيعة التطفلية لطريقة البحث هذه، كما وجد علماء الاجتماع أنفسهم في وضع لا يُحسدون عليه يفرض عليهم أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة عدم الالتزام بالأخلاقيات.

كان همفريز (١٩٧٠) يشعر بأنه مُلزم بأن يقدم تبريراً لبحثه حتى يتحدى النقد المُوجه إليه بأنه بحث غير أخلاقي. وفي ثنايا قيامه بذلك قدم في البداية تعريفاً لما هو "غير أخلاقي"، ذاهباً إلى أن البحث يكون غير أخلاقي إذا:

(١) قدم الباحثون صورة مُحَرفة لهويتهم أو لأهدافهم من أجل الحصول على المعلومات،

(*) هي كنيسة أنشأها سنة ١٩٧٤ القسيس الكوري صن ميونج مون. (المترجم)

أو (٢) خانوا الثقة التي منحت لهم،

أو (٣) أجروا بحثاً يضرُ بمصالح أو رفاهية المستجيبين.

ثمَّ قرر بعد ذلك أن بحثَهُ – وبالحكم عليه وفقاً لتعريفه هذا – يكون بعيداً كل البعد عن الملامة. وكانت باركر (١٩٨٤) أقل صراحةً فيما يتصل بتعريف ما يُشكِّل سلوكاً غير أخلاقي وفقاً لقواعد البحث، وذلك على الرغم من أنها دافعت هي الأخرى عن بحثها دفاعا شديداً، مُعطيةً انطباعاً بأنه قدم رؤيةً ثاقبة متفردة لحقيقة جماعةٍ كان يُنظر إليها باعتبارها جماعة تهدد المجتمع بالخطر. وربما تمّ، بهذه الطريقة، تبرير ما قامت به من خداع أو استغلال لعينتها (وهم القلة) بالمصلحة الأعظم التي سوف يجلبها هذا البحث لهؤلاء الموجودين في المجتمع الأوسع (وهمْ الكثرة) والذين قد يتعرضون للخداع أو (لغسيل المُخ) على أيدي أتباع كنيسة مون.

إن البحوث التي من شاكله بحث همفريز وبحث باركر قد زادت – بلا ريب – من حدة الوعي بالبُعد الأخلاقي للبحث. أمَّا ما أعقب ذلك فقد كانت عبارة عن جهود منسقة قامت بها هيئات مهنية مختلفة لصياغة ميثاق يضم مجموعة من القواعد الواضحة للممارسة توجه لمن يرغبون في الاضطلاع بالبحث السوسيولوجي. وقامت المواثيق الأخلاقية التي وضعت مسوداتها الرابطة الأمريكية لعلماء الاجتماع، ورابطة علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية لدول الكومنولث، ورابطة البحوث الاجتماعية؛ قامت تلك المواثيق الأخلاقية بإلهام رابطة علم الاجتماع البريطانية لأن تُصدر "بيان الممارسة الأخلاقية والخطوط الإرشادية للسلوك المهني السليم" في سنة ١٩٩٢.

بيان الرابطة البريطانية لعلم الاجتماع عن الممارسة الأخلاقية

تعرض هذه الوثيقة مجموعة من الالتزامات الأخلاقية لتوجيه سلوك المشتغلين بالبحث السوسيولوجي. والمقصود من هذه التوجيهات و الخطوط الإرشادية أن "تبُثّ الروح في الأحكام الأخلاقية للباحث، وليس المقصود أن تفرض عليهم مجموعة من المقاييس والمعايير الخارجية". وهي تغطي عددا من القضايا الأساسية داخل نطاق ثلاثة مجالات رئيسية هي:

١- **الاستقامة المهنية:** ينبغي على علماء الاجتماع أن يحافظوا على استقامة علم الاجتماع نفسه كتخصص علمي عن طريق حماية مصالح من تشملهم بحوثهم أو من يتأثرون بها، وذلك من خلال الممارسة الأخلاقية للبحث.

٢- **العلاقات مع المشاركين في البحث وتحمُّل المسئولية تجاههم:** يتوجب على علماء الاجتماع أن يتأكدوا من أن هدف بحثهم لا يعتدي على حقوق الآخرين. ويتوجب عليهم أن يحافظوا على مصالح المشاركين في البحث وأن يحصلوا على موافقتهم الصريحة بإجراء البحث عليهم. ويجب احترام مجهولية أسماء المشاركين في البحث واحترام خصوصيتهم ما لم توجد أسباب "واضحة وقاهرة" تحول دون ذلك.

٣- **العلاقات مع الرعاة و/أو الممولين وتبعات الباحثين حيالهم:** ينبغي على علماء الاجتماع أن يتأكدوا من أن رعاة بحوثهم و/أو ممولیها يقدرون التزامات الباحثين تجاه المجتمع الأوسع. ويجب ألا تحول العلاقة بين رعاة البحث والباحثين دون إجراء البحث موضوعيا بقدر الإمكان.

هناك بعض القضايا الإشكالية التي تنجم عن وجود أي توجيهات أخلاقية للبحث. مثال ذلك، أن قضية الموافقة الصريحة للمبحوثين تُعد جانباً محوريا من جوانب هذه التوجيهات، إلا أنه توجد مشكلات خاصة تتعلق بفكرة إعطاء الموافقة الصريحة التامة. مثال ذلك، أن من العسير القول بأنها أعطيت في حالة ما يكون الباحثون غير متأكدين من المدى الكلي للمعلومات الخاصة بالمشاركين والتي قد تظهر من بين ثنايا المشروع البحثي، وبذلك يكون من المُحال معرفة ما الذي يوافق عليه المشاركون (انظر هافركام Haverkamp، ٢٠٠٥). و في بعض المواقف، قد تتوقف موافقة أنثى على الاشتراك في البحث على الإذن المُسبق الذي يُعطيه اياها أحد الرجال (كالآباء أو الأزواج)، كما يثير هذا الموقف قضايا أخلاقية من نوع خاص (مارشال Marshall، ٢٠٠٣). وحيثما يكون الخداع جزءاً لا يتجزأ من إستراتيجية البحث، فإن من الممكن حينئذٍ الحصول على الموافقة عند استخلاص المعلومات (كما يمكن الحصول عليها، حتى في غير هذه الحالة، إذا كان من المقرر إجراء دراسة تتبعية).

ينبغي على علماء الاجتماع أن يُراعوا التوجيهات الأخلاقية في كل البحوث، وذلك على الرغم من أنه قد يحدث أن يكون أحد البحوث أكثر إثارة للخلافات وأن يفرض هذا البحث على علماء الاجتماع مطالب أشدُ لتطبيق أحكامهم الأخلاقية. مثال ذلك أن البحث الذي يتناول السلوك الجنسي يقتضي من الباحثين أن يتحروا الحذر البالغ، كما أنه ليس من الغريب أن البحث المنهجي في هذا المجال من الحياة الاجتماعية لم يحدُث إلا منذ عهدٍ قريب نسبياً. ويستمد البحث المعاصر قوة دفع من الحاجة إلى فهم التغيرات البنائية التي تحدث داخل الأسرة وداخل المجتمع بصورة عامة، ولبلوغ هذه الغاية تزايد اهتمام علماء الاجتماع بدراسة الجنس والسلوك الجنسي. ويُلاحظ بيرك Burke (١٩٩٤) أن تغطية وسائل الاتصال للسلوكيات الجنسية المغايرة قد زادت في السنوات الأخيرة، كما زاد عدد الدراسات التي تتناول

موضوع المرأة السحاقية والذكر ذي النزعة الجنسية المثلية، وذلك في أعقاب تحرر المثليين. فقد قام بيرك بدراسة لضابطات شرطة من السحاقيات وضباط شرطة من المثليين جنسيا، والصعوبات التي يواجهها أمثال هؤلاء الأفراد المثليين شيء معروف. ويتيح لك التمرين القادم أن تتعرف على هذه الدراسة وتتأمل دلالاتها:

الموضوع (D)
بحث أحوال العاملين بالشرطة من **الرجال المثليين والنساء السحاقيات** يلاحظ أن المواقف المحافظة والتمييزية التي تتخذها بعض قطاعات قوات الشرطة – والذين يُسمون "ثقافة التأهب العسكري" ظلت لأمد طويل متماهية مع رهاب البشر (أو الخوف المرضي من البشر) (انظر لوسون وهيتون، ٢٠٠٩). وظلت قوات الشرطة – إلى جانب الجيش- تمثل المعقل الأخير للتحيز المقبول ضد الرجال المثليين جنسياً. وقد كان لهذا الوضع عواقبه التي لم تقتصر على الطريقة التي بها تتعامل الشرطة مع أعضاء الجمهور من الرجال المثليين جنسيا ومن السحاقيات، بل شملت كذلك أساليب التفاعل مع العاملين بالشرطة من المثليين جنسيا. ومع أنه قد يُوجد بعض رجال الشرطة من الذين يصرحون بأنهم مثليون، فإن وجود التحيز المناهض للرجال المثليين قد أسهم في دعم الإستراتيجية التي تقضي بأن يظلوا أخفياء لا يراهم أحد. زد على ذلك، أن الاتجاهات المضادة للشرطة والشائعة بين أعضاء مجتمع الرجال المثليين قد تدفع – هي الأخرى- إلى أن يعيش رجال الشرطة من المثليين ونساء الشرطة من السحاقيات بصورة متحفظة في ساعات العمل وفي وقت الترفيه. ذلك أن

رجال الشرطة من المثليين الذين يعلنون في مكان العمل عن هويتهم الجنسية قد يتعرضون لضغوطٍ معينة يمارسها زملاؤهم من غير المثليين الذين يترصدون لأي علامة من علامات الضعف تصدر عنهم.

	تمرين ٩-٨
تفسير تقييم	اقرأ الموضوع (D) ثم قم بتنفيذ المهام التالية: ١- أمعنوا النظر في بعض الصعوبات المبينة قبل ذلك وفي القضايا الأخلاقية التي عرضنا لها بالتفصيل فيما سبق، ثم قرروا، اثنين اثنين، أو في مجموعات صغيرة العدد: (أ) ما طريقة/ أو طُرق البحث التي تميلون إلى اختيارها لإجراء دراسةٍ عن العاملين بالشرطة من الرجال المثليين أو السحاقيات؟ قدموا المبررات على إجابتكم.
تفسير تقييم	(ب) كيف يمكنكم الحصول على عيناتكم، وما هي الصعوبات التي قد تواجهونها في قيامكم بهذا العمل؟
تقييم	(جـ) ما التوجيهات والإرشادات الأخلاقية التي تعد أشدَّ انطباقاً على هذا البحث؟

عندما يُتَّخذُ قرارٌ بالمُضيِّ قُدُماً في تنفيذ البحث، ينبغي على علماء الاجتماع أن يبذلوا جهدهم في حماية المشاركين (المبحوثين) بأقصى قدرٍ ممكن. ويمكن أن تشمل هذه الحماية التأكد من أنهم لا يتعرضون لأذى أو انتهاكٍ على امتداد مسار البحث، إلا أنه قد يتسع كذلك ليشتمل على التفكير العميق في التأثيرات بعيدة المدى

التي قد تُحدثُها المشاركة في المبحوثين. وقد أبرز ويكس Weeks وجيمس James (١٩٩٥) أهمية هذا الأمر. ففي كتابهما بعنوان "غُرباء الأطوار" يصوران الصعوبات التي واجهتهم عند اختيار عينة لدراستهما وما يعقُب الاختيار من إجراءات لحماية أفراد هذه العينة. وفي ذلك يقولان:

"بعد أن اتخذنا القرار بالاضطلاع بدراسة منهجية لغرابة الأطوار، كان التحدي الأول هو العثور على الأشخاص ذوي الأطوار الغريبة. فهم يميلون إلى النظر إلى أنفسهم بجدية، كما كان ثمة خطرٌ يتمثل في أنهم قد لا يرغبون في أن يكونوا جزءاً من دراسة قد يخشون على أنفسهم من أن يتمّ الربط فيها بينهم وبين المرض العقلي، أو أصحاب التصرفات الغريبة التي تثير السخرية" (المرجع نفسه، ص١٣).

للتغلُّب على هذه الصعوبة، قرر ويكس وجيمس أن يعلنا عن طلب متطوعين للمشاركة. وعلى الرغم من أن هذا التصرف فرض عليهما صعوبات تتعلق بمنهجية البحث، فإنه مما عوّضهما عن هذه الصعوبات أن هؤلاء الأشخاص الذين قدموا أنفسهم طوعاً سيكونون مشاركين راغبين في المشاركة في هذا البحث. ومع ذلك، فإن رغبة المؤلفين في أن يكونا سليمين من الناحية الأخلاقية، عرَّضت دراستهما للانتقادات على أساس أن (١) عينة الاختيار الذاتي (التطوعية) هذه قد تكون غير مُمثلة (وقد اعترفا هما بنفسيهما بذلك فقالا: "ألا يوجد أمر غريب الأطوار في أي شخص يردّ على إعلان يجتذب الأشخاص غرباء الأطوار"؟) و (٢) أن هذه العينة سوف تعرف نفسها بنفسها، بمعنى أن المتطوع هو الذي يُقرر/ أو يحكم على نفسه، ولو في مبدأ الأمر فقط، أنه غريب الأطوار" (المرجع نفسه، ص١٣). ومع ذلك فقد بدا أنهما قد أمَّنا – بالفعل – معالجةً مشروعة لأفراد مُتفردين ينظرُ إليهم على أنهم تجسيد لغرابة الأطوار / أو الشذوذ، وذلك كما يوضحه النص التالي المستخلص من كتابهما:

"تتسم نورما جين بريانت – من كونيكتيكت الغربية – ما يمكن أن يُسمّى غرابة الأطوار الكوكبية: فهي تعيش كل جانب من جوانب حياتها تقريبا بأسلوب غير متوافق مع الآخرين .فهي تعتقد أنه مما يتنافى مع الأخلاق أن يُطرح أي شيء جانباً، لذلك فإنها لا تزال تحتفظ بكل شيء سبق لها أن اشترته أعطِيَ لها.

وحيثما تذهب نورما جين، فإنها تدفع أمامها عربة يدٍ من عربات البقالة بها كشافان ضوئيان، ومُحَمَّلة بتشكيلة متنوعة من مقتنياتها. ومن بين هواياتها الأخرى الكثيرة، أنها تعزف في أحد الفرق الموسيقية المسماة فرق "الكازو"Kazoo (وهي تستعمل نوعاً من الزمّارات التي تطلق صوتا يشبه كلمة "كازو)" وفي الشتاء ترتدي معطفاً مما يلبسه رجال المطافئ. وتُعدُّ نورمان جين شخصية مضيافة وودودة إلى حد كبير، ولكنها لا تستطيع أن تطهو الطعام بصورة طيبة تماما، لذلك فإنها تقيم ما تُسميه "حفلات الأطعمة المُعلّبة". وفي الصيف، تقيم حفلاً أيام مباريات ويمبلدون للتنس تقدم فيه الفراولة (المعلبة بالطبع) وترتدي ثياباً تشبه ثياب أعضاء الأسرة المالكة البريطانية". (نفس المرجع، ص١٩)

ويكشف ويكس وجيمس – في تفسيرهما المتعاطف وجدانياً مع سلوك نورما جين عن التزامهما بمسئوليتهما الأخلاقية، وهي المسئولية التي تشتمل على احترام لنسق التفكير لإحدى المشاركات في البحث. ويحث هذا التصرف من جانب المؤلفين القارئ على تقدير هذا السلوك باعتباره سلوكاً له معناه عند نورما جين، وباعتباره سلوكاً يتيح فهماً ورؤيةً لمجتمع مُكبّل بقيود التقاليد فيقولان:

"يوجد في الجذور العميقة لما تتصف به نورما جين من مخالفة لسلوك الآخرين رفض مُلح لتقبّل أي شيء باعتباره مُسلّماً به... وشكّ في المُسلّمات التي يعتبرها بقيّتنا أمراً مفروغاً منه. وقد عبّرت نورما جين عن هذه الحالة العقلية بدقة في بيانها الذي وجّهته لنا قائلة:"إن كلّ واحدٍ منا يولد فرداً متفردا فذّا لا شبيه له...

وفي الوقت الذي قد تكون النتائج المُترتبة على هذا النوع من عدم الامتثال الحاد منافية للعقل في نظر الآخرين، يشعر الشخص الغريب الأطوار بإحساسٍ بالتحرر من قيود الحياة اليومية. فبقية الناس يعتقدون أنه لا يوجد إلا اتجاه واحد للسير، وأن معاطف رجال المطافئ خاصة برجال المطافئ، وأنه ينبغي على سيدة من الطبقة الراقية أن ترتدي معطفاً من صوف التويد في الشتاء؛ إلا أن هذه الأمور تُعتبر في نظر الأفراد المختلفين أو الغريبي الأطوار قواعد مملة تسبب الضجر، والتي لا توجد لكي نستخف بها". (المرجع نفسه، ص٢٠)

من القضايا الأخلاقية الأخرى التي يُمعن الباحثون النظر فيها، قضية التأثيرات التي يسببها بحثهم للأفراد المشاركين في الدراسة. فمن المحتمل أن يصاب المشاركون بالضرر أو يتأثروا بطريقةٍ أخرى أثناء الوقت الذي يجري فيه البحث، إلا أن ذلك لا يتضح إلا بعد أن ينتهي البحث. ومن الطرق التي بها تُراعى التوجيهات الأخلاقية المتعلقة بحماية المشاركين في البحث أن تُجرى دراسة تتبعية على هذه المجموعة من المبحوثين. وإنّ بالإمكان أن تكون قيمة هذه الدراسة قيمة مضاعفة: فهي تستطيع الكشف عن أي ضرر تسبّبت فيه المشاركة في البحث بصورة عامة، كما أنها تستطيع الكشف عن أي ضرر مُحدد تسببت في إحداثه طريقة (أو طرق) البحث المستخدمة. ومع ذلك، فإنه على الرغم من القيمة الواضحة للدراسات التتبعية، فإنه من العسير إلى حدٍ بعيد أن نجد شواهد على التأثيرات التي يُحدثها البحث في المشاركين فيه. وتصف برانن Brannen (١٩٩٣) هذا الأمر بأنه "موضوع مُهمل، فهو مجال للتخمين إلى حدٍ كبير، أكثر منه مجالاً للبحث الإمبيريقي".

<table>
<tr><td>تفسير – تطبيق
تحليل – تقييم</td><td>تمرين ٩-٩</td></tr>
<tr><td colspan="2">باستعمال المعلومات الواردة في هذا الفصل وفي غيره، كونوا مجموعات صغيرة من أربعة إلى خمسة أفراد وناقشوا سبب قلة الاهتمام بدراسة تـأثيرات البحث على المشاركين فيه. قدموا أفكاركم وأبلغوا بها بقية زملائكم في الفصل، إن كان ذلك ممكناً.</td></tr>
</table>

سبق لبرانن (١٩٩٣) أن أجرت دراسة تتبعية على امتداد ثـلاث سـنوات للأمهات العائدات للعمل بعد انتهاء إجازة الوضع، وفي البحث التتبّعـي (المرجـع نفسه) طلبت من المشاركات أن يُقيّمن خبرتهن بالعملية البحثية. وقد ميزت بـرانن ثلاثة جوانب محددة للعملية البحثية كان لهـا عواقـب مهمـة بالنـسبة لهـؤلاء المشاركات، هي: (١) الإطار النظري وتصميم البحث، و(٢) طرق البحث (وكانت في حالتها هذه : المقابلات، والاسـتبيانات التـي تـستوفيها المبحوثـة بنفـسها، واختبارات قياس نمو الأطفال، والملاحظة بأنواعها، و(٣) نتائج الدراسة.

تشرح برانن كيف أن المشاركات قد تأثرت بجميع مراحل العملية البحثيـة، ابتداءً من الإطار النظري، ومروراً بطرق البحث، وانتهاء بالنتائج نفسها. فقد ساعد الإطار النظري للبحث وتصميمه على تصور المشاركات بوصـفهن موضـوعات للبحث بأساليب مختلفة. وكان يُنظر إلى منهجية البحث على أنها أثرت على مـدى صدق البيانات المجموعة. مثال ذلك، أن طرق البحث الأقل تقنيناً (مثل المقـابلات شبه المُقننة) كان يُنظر إليها بصورة أكثر إيجابية لأنها:

"أتاحت للأمهات أن يُعملن الفكر في مشاغلهن البارزة والمباشرة في الوقت الراهن، أعني بذلك : العودة للعمل بعد ولادة الطفل الأول، وقدمت لهن مزايا

علاجية بفضل ما أبدته الباحثة التي تجرى المقابلة من اهتمام وتجاوب، وكذلك من خلال معرفة الأم المبحوثة التي تجرى مقابلتها بأنها جزء من جماعة أكبر حجماً". (المرجع نفسه)

كان لنتائج البحث تأثير مزدوج على المشاركات فيه. فعلى المستوى الفردي سعت المشاركات إلى تحديد مواقعهن من حيث العلاقة بالمشاركات الأخريات عن طريق قيامهن بمقارنة نمو أطفالهن بنمو أطفال الأمهات الأخريات المشاركات في الدراسة. وعلى مستوى الجماعة أصبحت المشاركات أكثر انغماسا في السياسة كلما اضطرد تقدم المشروع البحثي: فمن خلال خبراتهن الشخصية، ومن خلال نمو درجة إحساسهن وارتفاع مستوى وعيهن (بفضل العملية البحثية)؛ بفضل ذلك أصبحن واعيات بالمصاعب الرهيبة التي تواجهها رعاية الأطفال في بريطانيا، كما أنهن كُن يَعتبرن نتائج البحث ذخيرة لتغيير السياسة الاجتماعية.

وبعد أن قامت برانن بالتفكير العميق في كل جانب على حدة بصورة شاملة، تخلصُ إلى نتيجةٍ مفادُها أن البحث أبعد ما يكون عن الإضرار بالمشاركات في البحث حيث "يوجد تناغم بالغ وتماثل شديد بين الباحثات والمبحوثات في المشاغل وفي السمات الشخصية" (المرجع نفسه، ص٣٢٨). ومن المُرجح أن يُفيد هذا التناغم أو التماثل المشروع البحثي كما يفيد المشاركات فيه بالمثل، وذلك لأن هؤلاء المشاركات سوف تشعرن بأن لهُن قيمة ولسن مُهددات بالخطر عندما تُشاركهن الباحثات اهتماماتهن، كما أنه -بهذا الشكل- ستتمكن الباحثات من الحصول على البيانات ذات الدرجة العالية من الصدق. وإن الإعلان الرسمي لهذه البيانات يمكن أن يكون له التأثير الإيجابي طويل المدى في تمكين هذه المجموعة البحثية من الباحثات والمبحوثات.

الموضوع (E)

دراسة سرقة معروضات المحلات

اختار طالب جامعي – لمشروعه قبل التخرج – أن يبحث موضوع سرقة السلع المعروضة للبيع في المراكز التجارية. فقد سبق له أن شاهد برنامجاً تلفزيونيا شيقاً ورأى أن هذا البرنامج سيكون مناسباً لهذا الموضوع الذي يتناول ميدان الجريمة والانحراف (والذي أطلق عليه موضوع "الصورة المعتمة للجريمة"). يُضاف إلى ذلك أن عَمّهُ كان يعمل حارس أمن في المركز التجاري المحلي وله عدد كبير من أصدقائه ممن يعملون مخبرين سريين داخل كثير من المحلات. ومن هنا كان بمقدور عمه أن يزوده ببعض المعلومات التي يعرفها المطلعون على الأمور، والتي تتعلق بالمجرمين المحتملين، وبالشخص الذي يزداد رجحان القبض عليه وماذا يحدث لمن تم القبض عليهم بالفعل – أي المعلومات المتعلقة بالعوامل التي تحدد من هو الشخص الذي تَرجُح محاكمته – وما أشبه ذلك.

في بداية مشروعه، قرر هذا الطالب أن يوزع استبيانات يفترض أن يجيب عليها أفراد مجهولو الأسماء من طلبة الصف الدراسي السادس في المدرسة التي كان مُلتحقا بها قبل دخوله الجامعة، وذلك لكي يعرف على وجه الدقة مدى انتشار سرقة المعروضات بين مجموع السكان. وعند تحضيره للاستبيان، أدرج فيه نظام تكويد سري يعرف مستقبلاً مَن الذين استوفوا الإجابة على هذه الاستبيانات. فمن شأن هذا التصرف أن يُمكنه من إجراء مقابلات تتبُعية فيما بعد إن دعت الحاجة لذلك. وقد وضع ملاحظات لإدخال الأكواد السرية على الكومبيوتر عندما يعود لبيته، وذلك حتى يُمكنه تخزين بيانات كل شخص إلكترونيا عندما تُعاد إليه الاستبيانات بعد ملئها.

وللحصول على بعض البيانات الإضافية، قرر أن يُمضي أحد أيام السبت في القيام بنوع ما من الملاحظة في المركز التجاري المحلي مع عمه. وحتى لا يثير شكوك أحد استعار زي أحد موظفي الأمن العاملين في ذلك المحل. ولحسن الحظ أنه وجد زيا مناسباً له تماماً في المقاس. وفي الواقع أنه بدا موظف أمن حقيقيا وهو يؤدي هذا الدور بحذافيره، حيث كان يتبختر في سيره مُتجولا في المركز التجاري، بل إنه تمادى قليلاً في أداء هذا الدور، فسأل شخصين عما إذا كان يستطيع أن يَرى ما معهما من إيصالات دفع ثمن المشتريات، كما غَضَّ الطرف عن امرأة سمراء بدا عليها أنها تدُسُّ إصبع أحمر شفاه" ذا لون أرجواني داكن"في كُمها.

ولكي يجعل مذكراته البحثية تبدو أصيلة حقيقية، اقتبس عدداً قليلاً من الصفحات من السجل الرسمي أصيلة لأحداث المراقبة الأمنية ليصوغ مذكراته في صورتها النهائية. كما قام بنقرة سريعة على فأرة الكومبيوتر تَجوَّل بواسطتها داخل سجلات الأحداث الأمنية السابقة، كما دوَّن – بصورة مختصرة وسريعة – بعض المعلومات التي من شأنها أن توفر بيانات كيفية مفيدة ليزيد بها مصداقية هذه الدراسة.

<table>
<tr><th colspan="2">تمرين ٩-١٠</th></tr>
<tr><td colspan="2">يتطلب منك هذا التمرين أن تقيِّم العواقب المترتبة على إجراء البحث الذي يُقصر في اتباع التوجيهات الأخلاقية. اقرأ الموضوع (E) ثم أجب على الأسئلة التالية:</td></tr>
<tr><td>تفسير
تطبيق</td><td>١- ضع قائمة بأكبر عدد ممكن تستطيع رصده من انتهاكات التوجيهات الأخلاقية الواردة في هذا البحث.</td></tr>
</table>

تحليل تطبيق	٢- قارن إجاباتك بإجابات ما لا يقل عن دارس آخر من دارسي علم الاجتماع.
تحليل تقييم	٣- اقترح كيف يُمكن إعادة تصميم البحث بقصد جعله أقرب للسلامة من الناحية الأخلاقية.
تقييم	٤- إلى أي مدىً تعتبر هذا الموضوع صالحا للبحث السوسيولوجي؟ قدم ما يبرر إجابتك.

معرفة – فهم **تفسير – تطبيق**	**تمرين ٩-١١**

يلخص الجدول الوارد أدناه المادة التي تمت دراستها حتى الآن في هذا الفصل عن العوامل التي قد تؤثر على اختيار طريقة البحث. استخرج نسخة من هذا الجدول وأملأ ما فيها من الفراغات منتفعا بالفقرات التي قرأتها للتو لمساعدتك.

اختيار طريقة البحث – موجز للعوامل الأساسية

العامل المؤثر	القضايا الأساسية	أمثلة تطبيقية
التوجه النظري • يتأثر اختيار طريقة البحث بفعل التفضيلات	• أدت النزعة التفاعلية إلى تطوير بدائل لمنيجية البحث	______ ______ • ثلاثينيات القرن العشرين:

النظرية، وذلك رغم وجود تحول معاصر نحو الاعتماد على توجيات نظرية وطرق بحث مختلفة الأنواع.	البنيوية. • يزداد تحول البحوث المعاصرة من المنظور الكبير (الماكرو) إلى المنظور المحدود (المايكرو).	علم الاجتماع البيئي. • ١٩٦٠ النزعة التفاعلية ________ ________ • التحليل • جامعة ساري Surrey: ثلاثة أنواع من البحوث: ١-التمييز أو التفرقة الـ ____ ____ ٢- الـ ______ الاجتماعي. ٣- ______ و التفاعل.
القضايا العملية • من المرجح إلى أبعد حد أن يخضع اختيار طريقة البحث لمجموعة من العوامل العملية التي تفيد الباحث	• الموضوع المقرر دراسته. • هدف البحث: – التعميم – أم الدرس المتعمق •الموارد والإمكانيات • الباحثون • السمات الشخصية للباحث	• ______ (١٩٩٣) • القضايا الحساسة. – فولر Fuller (١٩٨٨): ________ ________ ________ ________ ________ ________ (١٩٩٦) بادفيلد وبروكتر (١٩٩٦)

	• التمويل	ـــــــــ تأثيرات النوع ـــــ(١٩٨١) لانجهام (١٩٩١) ـــــ(١٩٩٦) رودس(١٩٩٤) تولي (في بدج، ١٩٩٧) ـــــ(١٩٩٧)سميثرز(١٩٩٧)
القضايا الأخلاقية • تزايد تأثير الرابطة البريطانية لعلم الاجتماع على الطريقة التي بها يجري علماء الاجتماع أبحاثهم ويصوغون ما انتهوا إليه من نتائج في تقاريرهم.	• القضايا المتعلقة بالمراقبة الذاتية. • المسئولية تجاه الأفراد المبحوثين. • التأثيرات التي يُحدثها المشاركون في البحث.	ــــــــ (١٩٧٠) باركر(١٩٨٤)، بيرك(١٩٩٤) ــــــــ و ــــــــ (١٩٩٥) ــــــــ (١٩٩٣)

التعددية المنهجية

تمثل التعددية المنهجية (استخدام عدة طرق بحث) حلاً شائع الاستعمال لعلاج أوجه قصور استخدام طرق البحث المنفردة. ويتضمن هذا المنحى استعمال تشكيلة متنوعة من طرق البحث، وعادةً ما تتكون من طرق البحث الكمية وطرق

البحث الكيفية معاً. والهدف من ذلك هو الحصول على بيانات تتسم بالثبات والصدق، وتكون ممثلة للجماعة موضوع الدراسة، هذا إن لم تكن ممثلة للمجتمع الأوسع نطاقا. مثال ذلك، ما يذهب إليه برور Brewer وهنتر Hunter (٢٠٠٦) من أنه عن طريق الجمع بين الطرق الأربعة البحث وهي: العمل الميداني، والمسوح الاجتماعية، والتجارب، والطرق اللاتدخلية يكون مستوى الصدق المتحقق أعلى بكثير مما لو استعملت طريقة بحث واحدة. ويذهب هامرسلي (٢٠٠٨) إلى أنه ينبغي على علماء الاجتماع أن يميزوا دائما بين استعمال طرق متعددة في البحث triangulation، والبحث الذي يستخدم طرقا متنوعة. وذلك أن تعدد طرق البحث يمكن أن يكون مفيداً حينما لا يوجد اتجاه "ذي طرق متنوعة"، على نحو ما يحدث مثلاً عندما يكون بإمكان المصادر المختلفة للبيانات الكيفية (وهي الملاحظة والوثائق الشخصية) أن تعزز مصداقية البحث.

ويستعمل مكنيل McNeil مصطلح "تعدد طرق البحث" triangulation لوصف مثل ذلك المنحى، وهو المنحى الذي عن طريقه يختار الباحثون مزيجاً من مصادر البيانات ومن طرق البحث بغرض أن يقدموا صورة متوازنة لموضوعهم. وهو يرى أن هذا المنحى مفيد في تكييف ما يُطلق عليه مصطلح "العلاقة ذات الأركان الأربعة" القائمة بين: التفضيلات النظرية، واختيار الموضوع، والاعتبارات العملية، واختيار طريقة البحث. وهو بهذا يعني أن المنظور الفكري لعلماء الاجتماع سيوجهيهم إلى اختيار الموضوع كما سيوجهيهم إلى طريقة البحث التي يأخذون بها. فاختيار الموضوع يُؤثر في طريقة البحث والعكس بالعكس. وإنَّ بإمكان استعمال طرقٍ متعددة للبحث أن يُقلل – للحد الأدنى – من سلبيات استعمال كل طريقة على حدة.

في بادئ الأمر كان الأساس المنطقي لاستخدام أكثر من طريقة بحث واحدة، يتمثل في عدم التجانس الظاهر بصورة واضحة بين المنحى الكمي والمنحى الكيفي. ولهذا أصبح يعتقد أنه عن طريق ضم عناصر من كلا المنحيين بطريقة براجماتية (عملية)، يمكن للباحث أن يتحصل على أفضل ما في هذين العالمين معاً. ويرى برجمان Bergman (٢٠٠٨) أن النموذج الفكري السائد في ميدان مناهج البحث طوال تسعينيات القرن العشرين كان يتمثل في وجهة النظر التي ترى أن للكيفي والكمي من السمات المميزة والفلسفات المختلفة أساساً ما يجعل من الصعوبة العثور على مبرر غير البراجماتية (النفعية والعملية) لتنفيذ البحوث باستخدام طرق مختلطة. وإن كان يرى أيضاً أن السمات المنسوبة لكل منحىً على حدة هي من النوع النمطي الجامد (الكليشيهات) كما أنها تعكس اهتمامات كل من الباحثين الكيفيين والباحثين الكميين، والذين يقومون بحماية طرقهم على نحو يتسم بالحمية والغيرة. إلا أن الباحثين الذين يستعملون الطرق المختلطة، ومن خلال رفضهم لعدم التجانس بين هذه الطرق، قاموا بالترويج لتشكيلة متنوعة من الطرق الكمية والطرق الكيفية، وذلك على أساس أن البيانات التي يتم توليدها عن طريق كلتا هاتين المجموعتين من الاستراتيجيات ستقدم صورة أوفى لما تجري دراسته. معنى ذلك، أنه يُنظر إلى نقاط القوة في الطرق الكمية مقرونة بنقاط القوة في الطرق الكيفية باعتبار أنها جميعا تتيح استكشاف كل من الأبعاد الموضوعية والأبعاد الذاتية لأي ظاهرة (انظر إرزبرجر Erzberger وكيل Kelle، ٢٠٠٣).

يستعمل كثير من علماء الاجتماع أكثر من طريقة بحث واحدة، أو أكثر من مصدر واحد من مصادر البيانات في سياق البحث الواحد. مثال ذلك، أنه على الرغم من أن الدراسة الكلاسيكية التي قام بها همفريز Humphreys فقد يتذكرها الباحثون بسبب الخلاف الذي دار حول استعماله لطريقة الملاحظة المشاركة كطريقة بحث، فإنه استعمل – أيضاً – المقابلات غير المقننة والاستبيانات غير

المُقننة للحصول على البيانات المتعلقة بالسير الذاتية فطبقها على عينته. وبالمثل، جَمَعَ كوريجان Corrigan (١٩٨١) بين عدد من طرق البحث وأنواع البيانات في دراسته عن أبناء الطبقة العاملة، مُستعملاً للسجلات المدرسية، وللملاحظة المباشرة والمُقابلات. ويُعتبر تحديد ما إذا كانت هذه الطرق والأنواع تُشكل أمثلة لاستعمال طرق متعددة في البحث؛ يُعتَبر موضوعاً قابلاً للجدل والخلاف، وذلك لأن تعريف مصطلح "التعدد المنهجي" لم يُحدد كم عدد طرق البحث وأنماط البيانات التي لابد من الاعتماد عليها حتى يمكن اعتبار هذا المنحى من النوع الذي يستعمل التعدد المنهجي. والواقع أن تشكرى Tashakorri وكرسول Gesswell (٢٠٠٧) يصفان الدراسات التي تعطي تعيدا كاذبا باشتمالها على أكثر من طريقة بحث واحدة (كأن تشتمل مثلاً على إجراء مقابلات قليلة داخل اتجاه بحثي يغلب عليه الطابع الكمي) نقول: إن هذين المؤلفين يصفان هذه الدراسات باعتبارها "دراسات شبه مختلطة".

كما توجد وسائل كثيرة يمكن بيا مزج طرق البحث معا، والتي منيا استعمال إحدى الاستراتيجيات الكمية بصفة أساسية قبل استعمال عنصر كيفي (أو بالعكس)، أو باستعمال عناصر كمية بالتوازي مع استعمال عناصر كيفية في توازن أكثر تعادلا (انظر برانن، ٢٠٠٨). ويذهب الكُتاب الذين ينتقدون اتجاهات استخدام طُرق بحث مختلطة إلى أن الواقع هو أن طُرق البحث الكمية تسود في البحوث ذات طرق البحث المختلطة، وأن هذا الوضع ليس في حقيقته سوى استمرار للفلسفة الوضعية باستثناء أنه لا يُسمى بهذا الاسم (انظر جيدنجز، ٢٠٠٦)، وهو الوضع الذي تيبط فيه قيمة طرق البحث الكيفية إلى وضع الأفكار التي ترد على البال بعد الانتهاء من التفكير.

يشيع النظر إلى ما قامت به باركر (١٩٨٤) من دراسة لإحدى الطوائف الدينية في الولايات المتحدة باعتبارها مثالاً واضحا للتعددية في طرق البحث. ومع

ذلك، فقد أثار بحث باركر عاصفة من الجدل، ويرجع ذلك في جزء منه إلى الشمولية والإحاطة اللتين بذلتهما في إجراء هذا البحث. فعلى امتداد ست سنوات من البحث استعملت باركر طرق وأدوات: المقابلات المتعمقة، والملاحظة المشاركة، والاستبيانات، كما أنها جمعت سجلّها الشخصي الخاص للأحداث (أي: دفتر يومياتها) للوصول إلى البيانات المتعلقة بأعضاء "كنيسة التوحيد" (والذين يسمون "المونيز"Moonies، نسبة إلى القسيس موني). وكانت تستهدف تحديد أسباب انضمام الأفراد إلى هذه الطائفة الدينية، وما هي طبيعة الحياة في أعين أعضائها، وكيف كان يتم تنظيم هذه الطائفة. انتهت باركر إلى نتيجة مفادها أن عضوية هذه الطائفة لم تكن مُحصلة للقهر أو الخديعة، بل كانت بمثابة هدف للأفراد المعنيين، كما أنها أشبعت بعض الاحتياجات الفردية.

ورغم أن النتائج التي انتهت إليها باركر قُوبلت بترحيب يتسم بالشك، كما تعرضت لنقد شديد من النواحي العملية والأخلاقية، فإنها دافعت عن بحثها، مبررة بأنه بدون استعمال مثل هذا الاتجاه الاستيعابي الشمولي لم يكن من الممكن تحصيل إلا القليل من المعرفة. وقد مكنت تعددية طرق البحث باركر من فهم المبرر الحقيقي لوجود هذه الحركة والدوافع الكامنة وراءها، وفهم الطريقة التي أثرت بها العضوية في حياة الأعضاء وفي حياة عائلاتهم. وقبل هذا البحث الذي قامت به باركر لم نكن نعرف إلا القليل عن هذه الطائفة، كما أن التصور العام لها كان قائماً على التجاهل والتحيز.

كشفت بيلشر Pilcher (١٩٩٥) عن قيمة الجمع بين مختلف طرق البحث وشتى أنواع البيانات في تحسين فهمنا للجماعات والظواهر الاجتماعية. قامت بيلشر بدراسة الجوانب الاجتماعية للشيخوخة من خلال بيانات ثانوية مستمدة من الإحصاء السكاني لعام ١٩٩١ ومن واقع الشواهد الثقافية المقارنة والشواهد التاريخية. وقد

مكنتها البيانات السكانية من تقديم صورة كاملة للشيخوخة في بريطانيا الحديثة ومن إعمال الفكر في العمليات التي تشكل الشيخوخة. وأدخلت في حسبانها جدوى وعواقب التصور الذهني للشيخوخة في ضوء الاعتبارات الزمنية، والفسيولوجية، واعتبارات دورة العمر، واعتبارات عضوية الفوج السكاني. وانتهت إلى أنه "لابد من فهم الشيخوخة باعتبارها توليفة متزامنة من تلك العمليات المتداخلة المترابطة: من الشيخوخة البيولوجية أو الفسيولوجية؛ والشيخوخة الاجتماعية أو الثقافية، وهما اللتان تحدثان داخل سياقات تاريخية معينة".(المرجع السابق). وهكذا يُقدم هذا العمل مُبرراً لتوظيف تعددية طُرق البحث عند محاولة فهم سوسيولوجيا الشيخوخة. فإذا نظرنا إلى الشيخوخة باعتبارها مفهوماً متعدد الوجود أو متعدد الجوانب، فلابد – يقينا – من دراستها في ضوء هذه الاعتبارات جميعا، وذلك باستعمال مجموعة من طرق البحث والاعتماد على بيانات مختلفة الأنماط.

وتوضح بيلشر إسهام الشواهد الثقافية المقارنة والشواهد التاريخية – وذلك بعد تحليلها تحليلاً مقارناً– إسهاما في إثراء فهمنا للشيخوخة. كما يمكن استخدام تلك البيانات في التدليل على أن الخبرات في الطفولة، وفي الشباب، وفي السن الكبير تختلف باختلاف المكان والزمان. وهذا، بدوره، يساعد في تحدي مدى كون العمر age والشيخوخة ageing مفهومين يتحددان على أسس اجتماعية (ولا تحددهما أسس بيولوجية). مثال ذلك، أنه عندما يُقدم البحث المقارن برهاناً على أن الأفراد من نفس السن (أي: النظراء أو المتماثلون بيولوجيا وعمريا) يتصرفون أو يُعاملون بصورة مختلفة في المجتمعات المختلفة أو الثقافات المختلفة، فإن ذلك يُوحي بأن هوية العمر أو الشخصية العُمرية تُعتبر – جزئيا على الأقل – نتيجة الخبرات والضغوط الاجتماعية. وإن بالإمكان الجمع بين تلك البيانات المقارنة والبيانات السكانية الثانوية لبناء صورة للعمليات الأساسية التي يتضمنها التقدم في السن والدخول في الشيخوخة.

استعمل وينلو Winlow (٢٠٠١) طُرق الملاحظة المشاركة، والمقابلات غير الرسمية، والمصادر الثانوية في دراسته للبلطجية والجريمة في مدينة "سندرلاند" Sunderland، وهي الدراسة التي تناولت موضوع "المظاهر المتغيرة للذكورة" بين رجال الطبقة العاملة. ونظراً لأن وينلو كان جزءاً من هذا المجتمع الذي يدرسه، فقد استطاع أن ينتفع بمعارفه الشخصيين ليظفر بالوصول إلى الحراس الذين كان يدرسهم، كما أنه بنفسه التحق بعمل كأحد البلطجية. كان وينلو مهتماً بالذكورة والعنف في علاقتهما بثقافة هذا المجتمع المحلي وبالإجرام. وقد أتاحت له المصادر الثانوية، كأنماط الجريمة، والدراسات السابقة التي أجريت عن حياة الطبقة العمالية، أن يعقد مقارنات مع الماضي وأن يتأمل التغيرات في حياة الطبقة العاملة على امتداد الزمن. كما أنه اعتمد – إلى جانب الطرق المذكورة – على مجموعة من الاتجاهات النظرية مثل علم اجتماع الذكورة، ونظرية الثقافة الفرعية، ونظرية ما بعد الحداثة ونظرية العولمة ليقدم إطاراً لبحثه العملي.

وتشير آلن Allen (٢٠٠٦) لاتجاهات طرق البحث المختلطة في بحثها عما إذا كان ما يشيع ذكره من وجود فرق في "الخوف من الجريمة" بسبب النوع (والذي تبدو فيه النساء أشدَّ من الرجال خوفاً من الجريمة)؛ عما إذا كان خوفاً حقيقياً أم أنه مجرد نتيجة للاعتماد على تحليل الإحصائيات الرسمية فقط. وبجانب ما قامت به آلن من تفسيرها "للمسح الاجتماعي البريطاني للجريمة" (وهو اسم المطبوعة التي تصدرها الحكومة)، اعتمدت على مصادر أخرى للمعلومات، والتي اشتملت على استبيان وعلى عينة فرعية من الأفراد الذين تمت مقابلتهم لاختبار وجود فرق في الخوف من الجريمة حسب النوع. وعن طريق سبرها لأعماق التصورات الرجالية والنسائية لشدة الخوف من الجريمة، ولعوامل الخطورة المرتبطة بالجريمة، تُثبتُ آلن أن هذه الفروق بين الرجال والنساء ليست بنفس الضخامة التي يوحي بها البحث المقتصر على هذه الإحصائيات وحدها.

الموضوع (F)

التقدم في السن

يمكن أن يكون التقدم في السن أمراً عظيماً، إلا أن أحدا لا يُخبرك أبداً عن بعض المتاعب الخفية للتقدم في السن. وتوجد لديك وسائل كثيرة جداً لتكيف أسلوب حياتك على التعامل مع ما يجد في حياتك من مظاهر الضعف وعدم اليقين التي تصاحب التقدم في السن. فعليك استخدام المرحاض في أي وقت يتاح لك فيه دخول المرحاض، إذ أن الأمر يزداد صعوبة بالنسبة لك أن تتمالك نفسك وأنت خارج البيت إذا راودتك الرغبة في دخول المرحاض. كما أنك لن تستطيع أن تحتسى الخمر بنفس الكمية التى كنت تتناولها عندما كنت شاباً أو تطيل السهر للاستمتاع بحياة الليل بنفس الطريقة. ثم إن الضجيج في الأماكن العامة يجعل من الصعب عليك أن تسمع ما يُقال، لذلك تكتفي بالإيماء دائماً وأنت ترجو أن تكون إيماءاتك هذه صحيحة ومناسبة للرد على ما يقوله الناس لك.

تمرين ٩-١٢

اعتمدت بيلشر (١٩٩٥) على البيانات السكانية، والبيانات الثقافية المقارنة والبيانات التاريخية عند إجرائها لدراستها هذه، وليس على البيانات الكيفية والتي كان بإمكانها أن توفر رؤيةً ذاتية لأعماق عملية التقدم في السن. وهذا التمرين مصمم لمساعدتك في تأمل المزايا والعيوب التي يتسم بها استعمال مثل هذه البيانات في دراسة أحد موضوعات سوسيولوجيا الشيخوخة. اقرأ الموضوع ثم أجب على الأسئلة التالية:

تفسير تطبيق	١- ما نوع البيانات التي يقدمها هذا التقرير؟
تفسير تطبيق	٢- ما الذي يمكن لبيلشر أن تكسبه من تضمين تقارير مثل التقرير الوارد في الموضوع (F) في عملها؟
تطبيق تحليل	٣- ما المشكلات التي يمكن أن تواجه الحصول على هذا النوع من البيانات: (أ) البيانات الثقافية المقارنة، أي: المستمدة من مجتمعات وثقافات مختلفة. (ب) البيانات التاريخية، أي: المستمدة من فترات زمنية مختلفة.
تقييم	٤- ما التبرير الذي قد يُقدمه علماء الاجتماع لعدم استخدام بيانات تشبه البيانات المذكورة من قبل في بحوثهم.

يتزايد شيوع استعمال الباحثين لتشكيلة من طرق البحث في بحوثهم. وقامت الأمثلة السابقة بإلقاء الضوء على بعض مزايا تعددية طرق البحث، إلا أنه مما لا يمكن تفاديه أنه ستوجد كذلك عيوب سوف تمنع علماء الاجتماع من استعمال(تشكيلة/ أو تنويعة) من التقنيات المتعددة. والتمرين التالي مُصمم لمساعدتك في التعرف على كل من المزايا والعيوب.

تقييم تعددية طرق البحث

معرفة – فهم تحليل – تقييم	تمرين ٩-١٣

١- باستعمال المعرفة التي حصّلتها من القسم السابق (ومن أحد الكتب الدراسية في طرق البحث عند الضرورة)، ضع جدولا يشبه الجدول الوارد أدناه، وأوجز المزايا والعيوب التي تتصف بها تعددية طرق البحث. وقد زودناك بمثال لكل من المزايا والعيوب لتقدم لك مُنطلقاً تبدأ به إجابتك.

٢- والآن فكر في القسم الخاص بالتقييم واستوف بياناته: متى وفي أي الظروف يكون من الأفضل استعمال التعددية في طرق البحث؟ ولماذا؟

المزايا	العيوب
١- يمكن جمع تشكيلة من البيانات ذات قدر أكبر من التنوع.	١- يترتب عليها نفقات كبيرة.
٢-	٢-

	محور الامتحان: السؤال المقنن
	اختيار طريقة للبحث يتطلب منك هذا القسم أن تطبق المعرفة التي حصّلتها في هذا الفصل، وتطبق ما ورد في هذا الاختبار من تقنيات. استوف إجابة جميع الأسئلة التالية. إن احتجت للمساعدة، فارجع إلى الملاحظات والإرشادات الواردة في نهاية الفصل السادس والفصل السابع من هذا الكتاب.
تفسير تطبيق	**الأسئلة** ١- ما التأثيرات التي يُحدثها التوجه النظري للباحث في تشكيل المشروع البحثي؟
تفسير تطبيق	٢- في أيّ الظروف يكون من الملائم أن تتبنى إستراتيجية ملاحظة مشاركة خفية أو مستترة؟
تفسير تطبيق	٣- حدد ثلاث مشكلات تتعلق بالنجاح في الدخول إلى مجتمعات البحث؟
تحليل تقييم	٤- قيم فائدة المقابلات عند بحث الموضوعات الحساسة. (ملاحظة: قد يكون مفيدا لك أن تراجع القسم المتعلق بالمقابلات في الفصل السابع من هذا الكتاب، وكذلك مناقشة كتاب "لي" (١٩٩٣) عن البحث الحساس الوارد قبل ذلك في هذا الفصل).

تحليل	٥- قدر ما العوامل التي قد تؤثر في اختيار طريقة البحث.
تقييم	(ملاحظة: انتفع بالجدول الذي الذي استوفيت بياناته في التمرين ٩-١١ ليساعدك في هيكلة وترتيب أفكارك).

مفاهيم مهمة
• النظرية والتطبيق • اختيار طريقة البحث • أهداف البحث • التحيز/ السمات الشخصية للباحث • التمويل • الأخلاقيات.

التفكير النقدي
• هل يتأثر اختيار الباحث لطريقة البحث دائماً بالعوامل الشخصية والاجتماعية التي تجعل التحيز متأصلاً في البحث.   • هل تعتبر بعض الموضوعات المعينة أكثر عرضة للتحيز من غيرها من الموضوعات؟ هل تستطيع أن تقدم بعض الشواهد على ذلك؟   • هل يستطيع علماء الاجتماع – أصلا – أن يفصلوا أنفسهم عن وجهات نظرهم، واتجاهاتهم، وآرائهم الشخصية؟ وهل من المرغوب فيه القيام بذلك الفصل في البحث؟ هل يمكن لوجهات نظرنا الشخصية أن تعمل كاعتبار أخلاقي في البحث؟

الفصل العاشر

علم الاجتماع والعلم

بنهاية هذا الفصل ينبغي أن تكون قادراً على:

- معرفة الأساس المنطقي للمنهج العلمي.
- فهم متى ولماذا يكون استخدام المنهج العلمي مفيداً.
- معرفة عيوب النظر إلى العلم باعتباره مرتبطاً فقط بالمنهج العلمي.
- وصف الخلفية التاريخية لقضية كون علم الاجتماع علما.
- تحديد العوامل والحُجَج المؤيدة لعلم الاجتماع بوصفه علماً.
- تحديد العوامل والحُجج الرافضة لاعتبار علم الاجتماع علماً.
- تَبَني موقف قائم على تفسيرك لهذه الحُجج، والقدرة على تبرير هذا الموقف.
- معرفة التأثير المحتمل للمسلمات التي تأخذ بها ما بعد الحداثة فيما يتعلق بمستقبل العلم والمنهج العلمي، وبمنهجية البحث الوضعية، وبالبحث السوسيولوجي.
- الوصول إلى حُكم متوازن بشأن إذا كان للعلم ولعلم الاجتماع مستقبل أم لا، وإعمال الفكر فيما يمكن أن يحمله هذا المستقبل.

مقدمة

إن الاهتمام بالعلم أمر شائع في المجتمع. وقد حظِيَ العلم منذ زمان بعيد بمكانة عالية كمبحث أكاديمي نظراً لتاريخه المتميز الحافل بالاختراقات العظيمة والاكتشافات المتعلقة بالحياة الإنسانية والعالم الذي نعيش فيه. وفي العصر الحديث، يحرص السياسيون من جميع الأحزاب السياسية على إقرار ما للعلم من إمكانيات واعدة بالنجاح. إذ يوجد اعتراف عامّ بأن العلم والعلماء يُمسكون بمفتاح مستقبلنا، كما أنه إن قُدر لبريطانيا أن تتماشى مع بقية العالم فلابد أن نستثمر في المشروعات العلمية، وأن نشجع نشر المعرفة العلمية.

ومع ذلك، فإن سُمعة بريطانيا كدولة متميزة بالاكتشاف والابتكار مُهددةٌ بالخطر. فقد أرغم تخفيض الاعتمادات المالية كثيراً من الأقسام العلمية بالجامعات على وضع المشروعات البحثية المهمة على الرفوف. ولوصدقنا ما تقوله الصحف الشعبية، فلن يحظى بالدعم إلا المشروعات التي يتصور أن لها قيمة سوقية. ويناضل هؤلاء الذين يُجرون بحوثاً بحتة (أساسية وليست قابلة للتطبيق المباشر – المترجم) من أجل الحصول على اعتمادات مالية، ولكنهم لا يلقون إلا اهتماما محدوداً. وسوف يستمر هذا الوضع ما لم يتم الوصول إلى اكتشاف جذري يؤثر على الطريقة التي نعيش بها حياتنا. وفي وقتنا الحالي، يبدو من الأمور الساخرة إلى حد ما أن العلم يعاني مصيراً مشابهاً لمصير علم الاجتماع، وذلك على الرغم من الفروق الكبيرة في تصور الجمهور لهذين المجالين العلميين. (انظر تمرين ١٠-١).

تحليل – تقييم	تمرين ١٠-١

فكر في أكبر قدر يمكنك التفكير فيه من الأفكار الشائعة بين الناس والمرتبطة بكلمتي/ أو مبحثي "العلم" و "علم الاجتماع". ضع هذه الأفكار في أعمدة منفصلة.

١- ميز ما إذا كان هذان اللفظان/ أو الفكرتان إيجابيتين، أم سلبيتين، أم محايدتين؟

٢- أيُّ هذين المبحثين له القدرُ الأعظم من الإيجابيات/ أو السلبيات؟

٣- لماذا ترى ذلك الرأي؟

٤- اقرأ قوائمك مرةً ثانية. ميز الأفكار/ أو الكلمات التي يمكن إعادة تفسيرها بوصفها إيجابية أو سلبية مما كان يُعتبر قبل ذلك متصفاً بعكس ذلك. واشرح السبب.

٥- هل ترى أن العلم يُقدم مبرراً لمكانته كموضوع أساسي على قدم المساواة مع اللغة الإنجليزية والرياضيات؟ لماذا؟

٦- هل ترى أن من الصواب عدم إدراج علم الاجتماع في "المُقرر الدراسي القومي"؟ وما الأسباب المحتملة لاستبعاده؟

كان الاحترام الذي حظى به العلم في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر هو الذي شجع علماء الاجتماع على تطوير مبحثهم/أو علمهم عن طريق تبنيَ مناهج العلوم الطبيعية. وكان العلم مسئولاً عن كثير من الاكتشافات الميمة، وقد أدى ذلك – بلا ريب – إلى إرساء الأساس للتصورات المستقبلية للمكانة المحورية لهذا الميدان في مجتمعنا. ولاستكشاف الأثر الذي أحدثه العلم في تطور علم الاجتماع، قد يكون من المفيد أولا الوقوف على بعض الحقائق القليلة عن العلم.

ما العلم؟

يُعرف قاموس "تشيمبرز" العلم بأنه "المعرفة المؤكدة عن طريق الملاحظة والتجربة، والتي يتم اختبارها وتنظيمها على نحو نقدي، وتصاغ في مبادئ عامة". وبتعبير آخر نقول: العلم مجموعة من المعارف المرتبطة بأسلوبٍ معين في البحث، أي أنه مجموعة معارف تتميز باستعمال طرق بحثٍ معينة في ظروف خاصة وتُصاغ وفقا لمنطق أساسي. ومع هذا، وعلى الرغم من أنَّ كثيراً من الكُتاب قد كرسوا اهتماماً بالغاً بموضوع طبيعة العلم، فإن عملهم يُبين أن الإجابة على السؤال القائل"ما العلم؟" بعيدة عن أن تكون إجابة مباشرة أو واضحة المعالم.

وفي سعيهم لصياغة صورة عقلية للعلم ركَّز الكتاب على جوانب كثيرة، من قبيل: طبيعة العلم، والمسلَّمات التي يرتكز عليها، والسمات المتميزة للعلم، ومنهجية البحث العلمي. ولعلَّه واضح أن جميع هذه الجوانب تحتاج لمراجعتها وإعادة النظر فيها للوصول إلى فهمٍ لما هو العلم في الحقيقة.

طبيعة العلم

يفسر لوسون (١٩٨٦) معنى العلم بأنه : "المعرفة"، إلا أنه يعترف بأن هذا اللفظ يُستعمل بطريقة دارجة للإشارة إلى العلوم الطبيعية للكيمياء والفيزياء والبيولوجيا. وهذه العلوم يوحدها هدف مشترك: فهي تسعى كلها لفهم وتفسير العالم الطبيعي بأسلوب مُمنهج ومنطقي باستعمال تقنيات وإجراءات خاصة.

ويتفق معظم الكتاب الذين يبينون معالم تطور العلم على أنه تم تطويره بغرض تقديم شكل للمعرفة بديل للشكل الذي يتولد من الخبرة والتفكير العقلي. شاهد ذلك أن كوهن Cohen ومانيون Manion (١٩٩٤) يَريان أن العلم كان جذاباً لأنه قدّم منحىً مختلفا بصورٍ جذرية عن أسلوب الخبرة، إذ يتضمن صياغة نظريةٍ يمكن اختبارها إمبيريقياً (على محك الواقع)، وليست قائمة على "المعرفة البديهية". (نفس المصدر، ص٢). كما استطاع العلم أن يتجاوز التعليل الاستقرائي والتعليل الاستنباطي، حيث قدم منحىً يجمع بين الاستقراء المستمد من فرض مستخلص ومن قدر ضخم من البيانات الخاضعة للملاحظة، إضافة إلى الاختبار المنهجي والدقيق للفروض التي افترضها الباحث قبل ذلك.

كان للظروف التاريخية التي تطور فيها العلم تأثير كبير في تحديد طبيعة هذا الميدان الجديد. وعلى الرغم من أن العلم يعود إلى زمن أقدم من حركة التنوير، فإن هذه الفترة هي التي شهدت ازدهار الاهتمام الأكاديمي بفضل ما للعلم من إمكانيات مبشرة بالنجاح. ففي منتصف القرن الثامن عشر أصبح العلم "في نظر مفكري حركة التنوير النموذج المثالي للعقل المتنور" (هاميلتون Hamilton ١٩٩٢). وكما لاحظ هاميلتون فعلا، فقد كان العلم وحركة التنوير بمثابة عربتين نقلتا معاً المجتمع البشري إلى درجة أعلى ودفعتاه إلى الأمام في الاتجاه نحو وضع أكثر تنويراً وتقدمية". وطوال القرن التاسع عشر كان العلم هو المجال الخاص بعلية القوم من الأثرياء والأرستقراطيين الذين كانوا يستطيعون تحمل تكاليف إشباع اهتمامهم بالعالم الطبيعي. وكان هذا النموذج الفكري السائد يرى أن تصنيف وتقسيم العالم الطبيعي إلى رتب وفئات له أهمية كبرى لأن كل شيء في العالم الطبيعي له – من قبل – تنميط محدد يمكن بمقتضاه الحكم على ما يجد من إضافات. فهذه هي الطريقة التي ظهر بها للوجود نظامنا الحالي للعلم. ولعله من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن العلماء الهواة كانوا هم الأفراد الذين وزنوا أدمغة

البشر وقرروا – وبناءً على أنّ أدمغة النساء وزنها أقل من أدمغة الرجال – أن النساء لهذا السبب أقلّ ذكاءً من الرجال. وكان هذا العصر، كذلك، هو العصر الذي حدث فيه تقسيم "الأعراق" (السلالات) البشرية إلى طبقات مع وضع الأوروبيين البيض في القمة من هذا التدرج الهرمي، والأفريقيين السود في القاع. وإن ما تم بلورته في أيامنا هذه من نظم التصنيف لتبدو بوضوح وجلاء شديدين مرتبطة بقيم واتجاهات المرحلة الكولونيالية، ولو أن النظرة الكولونيالية لم تكن – في ذلك الوقت – جزءاً من تفكير العلماء.

بدأ الناس ينظرون إلى العلم باعتباره محاولة لخلق المعرفة التي يمكن الوثوق بها، والتي من شأنها أن تكون صحيحة في كل الظروف وفي كل الأوقات (لوسون، ١٩٨٦). وكانت قيمة هذه المعرفة هائلة، فمن خلال معرفة أمر مؤكد كان يمكن لأفراد معينين (وهم العلماء) أن يتنبؤوا بالمستقبل بشيء من الدقة. ومن هنا، أصبح العلم قوة شديدة التأثير في المجتمع، كما أنه اتخذ مكانة جديدة باعتباره شكلاً راقياً من أشكال المعرفة.

وقد برر العلم هذه المكانة بأنّ الطبيعة الحقة لهذا المجال هي التي تجعله متفرداً. وقد حظيت وجهة النظر هذه بتأييد الوضعيين، وأعني بهم أولئك الذين يؤمنون بأن العلم، والعلم وحده، هو القادر على تقديم المعرفة الموضوعية التي يمكن الاستناد إليها في وضع التعميمات والأحكام العامة. وبذلك أصبح العلم يستمد مبرر وجوده من اضطلاعه بحل المشكلات، كما كان هدف الوضعية هو الكشف عن القوانين العلمية المتعلقة بالظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية، والتي يمكن استعمالها في شرح أسباب تلك الظواهر، وكيف تقوم بعملها، وما نتائجها. وكان بالإمكان الكشف عن تلك القوانين من خلال تطبيق منحى نموذجي يشتمل على:

(١) أسلوب منطقي معين (وهو المنهج العلمي التقليدي أو المنهج القائم على استخدام الفروض والاستنباط)،

(٢) واستعمال تقنيات خاصة (هي التجارب المعملية) و

(٣) تبني موقف فكري مُعين (وهو: الموضوعية).

مسلمات العلم

يستخدم العلم ما يسميه بـورل Burrel ومورجـان Morgan (١٩٧٩) أسلوبا "موضوعياً" في تناول الحقيقة الاجتماعية. ويشتمل هذا المفهوم الخـاص بالعالم الاجتماعي على أربع مسلّمات أساسية تتعلق **بالأنطولوجيا** (أي بطبيعة/ وجوهر الظواهر الاجتماعية قيد الدراسة، **وبالإبستمولوجيا** (أي أسس المعرفة، وطبيعتها وأشكالها، وكيف يُمكن تحصيلها، وكيف يتم توصيلها للكائنات البشرية الأخـرى)، **وبالطبيعـة البـشرية** (أي العلاقـات بـين البـشر وبينـتهم)، **وبالميثودولوجيا** (أي طرق البحث).

وفيما يتصل **بالأنطولوجيا**، يُفضل العلم مفهوماً واقعيا للعالم الاجتماعي. وتفترض الواقعية أن الأشياء لها وجودها المستقل وأنها لا تتوقف في وجودها على "العارف". والحقيقة الاجتماعية ليست ثمرة/ أو نتيجة للمعرفة الفردية (أي التفكير الفردي)، التي تتخلق في عقل المرء، وإنما هي خارجة عن الأفراد، كما أنها تفرض نفسها فرضا على وعيهم من خارجه.

وفيما يتصل **بالإبستمولوجيا**، ينادي العلم بمفهوم إيجابي للمعرفة. ويتضمن هذا المفهوم التسليم بأن المعرفة ذات طبيعة عيانية مشخصة وواقعية ومن الممكن

تحويلها إلى شكل ظاهر ملموس. وتقتضي وجهة النظر التي ترى أن المعرفة عيانية ومشخصة، وموضوعية وظاهرة، تقتضي من الباحثين أن يتبنوا دور الملاحظ (أو المراقب)، فضلا عن الالتزام التام بطرق البحث في العلوم الطبيعية (كوهن ومانيون، ١٩٩٤).

وفيما يتصل **بالطبيعة البشرية**، يتبنى العلم وجهة نظر حتمية، بمعنى أن الكائنات البشرية تستجيب للبيئة بطريقة ميكانيكية. وتتحدد صفات البشر وخبراتهم بفعل الظروف الخارجية عنهم. وينطبق مفهوم الحتمية على كلٍ من العوامل الداخلية في الفرد والعوامل الخارجية عنه. وتتضمن الأسبابْ الداخلية (أي الحتمية البيولوجية) نموذج الحاجة البيولوجية (كالجوع أو العطش مثلاً)، والطاقة الغريزية والموهبة أو العطية الوراثية.

وتتضمن الأسباب الخارجية (وهي الحتمية البيئية) تعلم الخبرات، بجانب المثيرات الموجودة في البيئة. ومن ثم يكون لكافة أنواع السلوك أسبابها، كما أنها لا يمكن أن تُحدث على نحو آخر.

ويواصل مالين Malin وآخرون إعمال الفكر في دلالات هذا المنحى الفكري. فالحتميون يسلمون بأن السلوك الإنساني يخضع لنظام يحكمه وأنه متوافق مع القوانين، وأنه لهذا السبب قابلٌ للتفسير ويمكن التنبؤ به. والسلوك الحالي للشخص هو ثمرة ما سبق حدوثه من قبل وعِلة ما سيحدُث من بعد. فحينما تعرف تاريخ شخصٍ ما وتعرف وضعهُ الحالي، فإنك تستطيع أن تتنبأ بما سوف يفعلُه هذا الفرد مستقبلاً. وإذا استطعت أن تتنبأ بالسلوك فإنك تستطيع كذلك أن تتحكم فيه.

وفيما يتعلق بمنهجية البحث، فإن العلم ينادي بالتناول الموضوعي إزاء العالم الاجتماعي. فالظواهر الطبيعية يُنظر إليها بوصفها ظواهر عيانية، واقعية وخارجية عن الفرد، كما أنه ينبغي –لهذا– أن يُوجه البحث لتحليل العلاقات

والأنماط بين جوانب هذا العالم. ويؤكد البحث العلمي على أهمية الحاجة لاستكشاف المفاهيم وتحديد وقياس الموضوعات والعناصر الأساسية، والتي قد تؤدّي إلى اكتشاف القوانين العامة التي تحكم الواقع الجاري ملاحظته. ويُشار إلى مثل هذا المنحى، والذي يتميز بالإجراءات والأساليب وطرق البحث المُصمّمة لاكتشاف القوانين العامة؛ يُشار إليه بأنه منحى "تعميمي" (أي مَعْنِيّ بالنواميس العامة التي تحكم الأشياء والأحداث).

السمات المميزة للمعرفة العلمية

يبالغ أنصار العلم والمنهج العلمي مبالغةً كبيرة حين يشيرون إلى مدى اختلاف المعرفة العلمية عن الفهم الشائع أو البدهي:

أولاً: ترتكز المعرفة العلمية على التجربة. وخلافاً للفهم الشائع يتضمن العلم القيام بالصياغة الدقيقة والمنهجية للنظرية. ويتم اختبار هذه النظرية على الصعيد الإمبيريقي، وبهذا الشكل يكون للتفسير العلمي أساسٌ راسخ في الواقع، ولا يقتصر على مُجرد التخمين، الذي هو سمة الفهم الشائع. وفي سعيهم لتحصيل المعرفة، يبذل العلماء جهودهم للسيطرة على المصادر/ أو المؤثرات الدخيلة. وهذا يكفُل أن تكون المعرفة العلمية خالصة وليست ثمرةَ قُوى غير متوقّعة وغير مُنظّمة. وبذلك يكون أي تفسير يُقدّم للعلاقات بين السبب والنتيجة ثمرة للبحث والاستقصاء الدقيق والمُحكَم.

ثانيا: تقوم المعرفة العلمية على الاستدلال العقلي. فالعلم في عصرنا الحديث يقوم على توليفةٍ من الاستدلال العقلي الاستنباطي والاستدلال العقلي الاستقرائي. ويعنى الاستدلال العقلي الاستنباطي جمع البيانات من خلال سلسلة من

الخطوات المنطقية والمحددة تحديدا دقيقا بغرض الانتقال من الحكم التنبؤي العام (أي الفرض) إلى نتيجةٍ معينة تُعَزز هذا الفرض أو تدحضه. ويتضمن الاستدلال العقلي الاستقرائي جَمع البيانات بدون وجود أفكار مُسبقة في ذهن الباحث عن مدى أهميتها، والتسليم بأن أي أنماط متكررة أو أي علاقة سوف تظهر، كما أنه سيَتم ملاحظتها من قِبل الباحث. واليوم نرى أن المعرفة العلمية تنبثق من الملاحظة التي يتم تصنيفها عن طريق الاستدلال العقلي الاستقرائي والاختبار المنهجي والمنطقي من خلال الاستدلال العقلي الاستنباطي.

ثالثا وأخيراً: تقوم المعرفة العلمية على أساس البحث. ويقدم هذا البحث على قواعد منهجية معينة يتبناها الباحث لتيسير الفحص/أو الاختبار المنظم، والمنضبط، والإمبيريقي والنقدي للقضايا الافتراضية الخاصة بالعلاقات المُفترضة بين الظواهر الطبيعية. ومن العناصر الجوهرية للبحث العلمي قابليته للتكرار – أعني بذلك، أنه قابل للإعادة تحت ظروف مماثلة حتى يمكن التحقق من النتائج التي انتهى إليها البحث. وهذا التحقق يجعل المعرفة العلمية موثوقاً بها reliable – أعنى بذلك، أنها تكون متسقة في ظل الظروف المماثلة. ويعمل البحث وفقاً "لمبدأ الاقتصاد"، وأعني أنه ينبغي أن تُفسَّر جميع الظواهر بأكثر الطرق اقتصاداً قدر الإمكان. وهكذا تتميز المعرفة العلمية بالتعبير المحكم عن التصورات والأفكار المُعقَّدة. وفي بعض أشكال العلم تستبدلُ بالكلمات الرموز التي تمثل معجما مشتركا ومتفقا عليه بين الباحثين يمكنهم من تبادل الأفكار فيما بينهم بطريقة دقيقة تتسم بالكفاءة.

المنهج العلمي

يقدم كوليكان Coolican (١٩٩٤) تلخيصا بارعا لخطوات المنهج العلمي على النحو التالي:

١- ملاحظة البيانات، وجمعها وتنظيمها.

٢- استقراء التعميمات، أو القوانين.

٣- تطوير نظريات تفسيرية.

٤- استنباط الفروض لاختبار النظريات.

٥- اختبار الفروض.

٦- تعزيز النظرية أو تعديلها.

يطبق العلماء هذا المنهج باستخدام تقنية خاصة، هي التجربة (للمراجعة انظر الفصل السابع من هذا الكتاب). وهي تعني ضمناً الفحص المنهجي للعلاقات السببية تحت الظروف المنضبطة انضباطا دقيقا. وبصورة عامة، ينبثق التجريب من الملاحظة والاستقراء، ويهدف إلى الإسهام في تطوير النظريات الشارحة/ أو التفسيرية التي تُمكن العلماء من استنباط الفروض واختبارها. وتُوفر الفروض الأدلة التي إما تؤدي إلى تعزيز النظرية المفسرة، أو تؤدي إلى تعديل النظرية المطروحة.

معرفة – فهم	ملحق تمرين ١٠-١

> إن أردت أن تطور فهمك للتجريب، اقرأ ما ورد في **الفصل السابع من** هذا الكتاب في القسم الخاص بالمنهج العلمي، ثم قـم بـأداء **بعـض الأنـشطة** المرتبطة به، إذا لم تكُن قُمت بها قبل ذلك.

واقع العلم

رغم الدعم الواسع الذي يحظى به العلم، فإن هذا المجال ليس **بمنـأى عـن** الانتقاد. ويمكن تقسيم الاعتراضات المُوجُهة للعلم إلى نوعين: انتقاد **مُوَجَّـه إلـى** المسلمات التي يقوم عليها العلم، وانتقاد مُوجه إلى ممارسات العلماء. ومفـاد هـذه الاعتراضات أن العلم لا يعمل بالطريقة التي يَـدعيها/أو يَـدعو إليهـا، أو **وفقـا** للمُسلَّمات التي يَشيع الإيمان بها.

الاعتراضات على مُسلَّمات العلم

يؤمن العلم – كما أوضحنا– بتصور معين عن الحقيقة الاجتماعية. وينطوي هذا الإيمان على الإقرار بأربع مُسلّمات أساسية تتصل بالأنطولوجيـا (الواقعيـة)، والإبستمولوجيا (الوضعية)، والطبيعة الإنسانية (الحتمية) والميثودولوجيا أو منهجية البحث (النزعة التعميمية). ويُطلق على هذه الرؤية الخاصة بالحقيقـة الاجتماعيـة مصطلح "الموضوعية".

وثمة مفهوم بديل للحقيقة الاجتماعية ينادي بتبني توجه "ذاتي" لفهم العالم الاجتماعي. ويطرح هذا المفهوم مُسلَّمات بديلة فيما يتصل بالأنطولوجيا (الفلسفة الإسمية)، وبالإبستمولوجيا (النزعة المضادة للوضعية) وبالطبيعة الإنسانية (الإرادة الحرة)، والميثودولوجيا أو منهجية البحث (البحث الفردي، الذي يركز على حالة فردية).

ويرى أصحاب النزعة الذاتية أن الحقيقة الاجتماعية إنما هي ثمرة الوعي الفردي، الذي يتخلق في عقل الفرد. وموضوعات الفكر ليست سوى الكلمات فحسب، ولا وجود لمفهوم يشتمل على معنى الكلمة يمكن التوصل إليه وفهمه بصورة مستقلة عن الكلمة. ويُسمى هذا المنحى "بالفلسفة الإسمية".

ويتسبب رفض الفلسفة الوضعية (وهو موقف النزعة المضادة للوضعية) في إثارة اعتراض آخر على العلم. إذ يزعم مناهضو الوضعية أنه من غير الملائم أن نسعى لاكتشاف القوانين الحاكمة للعلاقات بين الأشياء، أو الظواهر، أو البشر، لأنهم ينكرون الوجود المستقل لهذه الأمور كما ينكرون تفرُّدها. ومع أنه من المُعترف به أنه قد يكون من المفيد اختزال الظواهر المعقدة إلى علاقات بسيطة من نوع العلاقة بين السبب والنتيجة، إلا أنه من الخطورة بمكان نزع الأمور من سياقها ووضعها في بيئة اصطناعية مُعقَّمة. يُضاف إلى ذلك، أن من المُسلَّم به أن صياغة التعميمات تنكر تفرُّد الأفراد وخصوصية الحالات الفردية.

كما يوجد اعتراضٌ على قبول العلماء للحتمية. فهؤلاء الذين يؤيدون النزعة الطوعية يشيرون إلى أنه من الخطر إنكار الأثر الذي تُحدثه الإرادة الحرة في مصير الفرد. وعلى الرغم من أن النقاد قد يقرون القول بأنه لا يوجد في الأشياء غير الحيَّة إلا احتمال ضئيل للإرادة الحرة، فإنهم يميلون إلى الاعتراض على المعتقدات الأخرى للمنحى الفكري للإرادة الحرة.

وبالإمكان توجيه اعتراضين للمنحى الحتمي هما:

أولا: ليس من الحكمة التسليم أن بالإمكان صياغة تنبؤات دقيقة. فقد اضطر بعض العلماء إلى وضع عوامل الشك في قوانينهم، إلا أنهم -في دفاعهم عن موقفهم- يحاجُون بأنه ليست الطبيعة المُتأصلة لمادة بحثهم هي ما يجعل من العسير عليهم صياغة تنبؤات دقيقة، بل السبب في ذلك هو افتقادهم للمهارة في صياغة القياسات الدقيقة (ماليم Malim وآخرون، ١٩٩٢).

ثانيا: إذا لم يكُن بالإمكان الكشف عن أسباب الظواهر، فإن الحتميين يواصلون البحث عن الأسباب بدلاً من التسليم بأنه لا وجود لها. وهذا أمر مُشكِل لأنَّ بالإمكان أن يستمر مثل هذا البحث إلى مالا نهاية، دون أن يقربنا ذلك من فَهم الظواهر الاجتماعية أو من وضع النظريات.

وأخيراً: يعترض منتقدو العلم على مدى سلامة ومُلاءمة الاتجاه التعميمي كمنهجية بحث. فالتأكيد على القياس الدقيق، والفحوص المضبوطة ضبطاً مُحْكَماً، والقابلية للتكرار، بجانب صياغة التعميمات بدلاً من القيام بإجراء الملاحظات المُحدَّدة؛ نقول: إن هذه الأمور يمكن أن تعني فقدان القدرة على رؤية السياق الأوسع الذي تقع فيه الأحداث. ويُصرُّ النقَّاد على أن التجارب التي تُجرى في العالم الاصطناعي للمعامل يتزايد الاستغناء عنها باضطراد كوسيلة لدراسة العالم الطبيعي، إذ أن من المستحيل التوصل إلى فهم جوهر العالم الطبيعي داخل ذلك الجو المحكوم للمعمل. ومن شواهد ذلك، هذا الاتجاه الحديث إلى إجراء التجارب البحثية في الفضاء على يد رواد الفضاء. ومن شأن ذلك أن يلقي الضوء على أهمية كلٍ من قيمة البحث الذي يُجرى خارج المعمل، وعجز العلماء الباحثين عن التحكم في الظروف الدقيقة التي في ظلها يتم إجراء التجارب.

الاعتراضات على ممارسات العلماء

لعل أهم انتقادٍ يُوجَّه للعلم في عصرنا الحاضر هو ما يتعلق بمدى كون البحث العلمي مرآةً تعكس صورة العلم. وقد أدت هذه الفجوة بين الكلام الطنَّان عن العلم من ناحية والواقع من ناحية أخرى، إلى الاستئثار باهتمام الناس، كما أوردت المقالات المنشورة في الصحف بعض الشواهد على أن العُلماء يبدو عليهم أنهم يعملون خارج نطاق المبادئ التي يعتنقونها.

وكان كارل بوبر Papper واحداً من أوائل من أشاروا اعتراضات على الممارسة العلمية. ففي كتابه بعنوان "منطق الاكتشاف العلمي" (١٩٣٤)، ذهب بوبر إلى أن وجهة النظر التي يتبناها العلماء عادة بشأن طبيعة مجالهم هذا إنما هي وجهة نظر مُضللة. مثال ذلك، أن مبدأ التحقُّق (أي: البحث عن الأدلة لتأييد الفروض الجديدة) يقوم على التسليم بأن تراكم المعارف يسمح بصياغة التنبؤات المتعلقة بالعالم الطبيعي. وقد اعترض بوبر على هذا التصوُّر، مُحتجاً بأنه لا يمكن أبداً لأي نظرية أن يتم التحقق من صحتها بصورة تامة، لأنه يوجد على الدوام احتمال إثبات خطئها في وقتٍ ما في المستقبل.

وكبديل أكثر واقعية، دعا بوبر إلى استعمال طريقة التفنيد (أي: التكذيب أو دحض النظرية)، حيث يعتقد أنه ينبغي على العلماء أن يسعوا لدحض نظرياتهم. إذ لا يمكن اعتبار أي فرضٍ صادقاً، وذلك رغم صموده للاختبار المتكرر. فالأحرى أن الفرض لا يمكن تأييده أو البرهنة على صحته إلا إلى حين يتسنى دحضُه في المستقبل. والفكر الكامن وراء هذا التصور فكر واضح: فبهذه الطريقة يُمكن التخلص بسرعة من النظريات الضعيفة والقاصرة، كما أن النظريات الأقوى هي

وحدها التي ستظل باقية للاختبار في المستقبل وستُشكل الأساس الذي تقــوم عليــه أوجُه التقدم المؤقتة في المعرفة العلمية والفهم العلمي (سلاتري، ١٩٩١).

كما رفض بوبر المُسلَّمة التي مَفادُها أن الاكتشافات العلمية تنتج من الملاحظة المُقنَّنة والدرس الدقيق المُنظم. وذهب بدلاً من ذلك إلى أنه مــن الأرجــح أن تــأتي الاكتشافات نتيجة الأحداث التصادفية أو غير المتعمَّدة التي تؤثر على العملية البحثية. ولم يكنْ بوبر وحده في الذهاب إلى أن عمل العلماء ليس منضبطا ولا دقيقاً بالدرجــة التي يريدون منا أن نصدقها. فحتى في الكتب التي تُقــدم مــدخلا لدراســة العلــوم، يعترف الذين يستعرضون إسهامات العلماء الكبار بأن بعــض الاكتــشافات جــاءت بصورة غير مُتعمدة لم يكن مُخططا لها، وأنها تمت مُصادفةً. مثــال ذلــك أن هــان Hann (١٩٩١) يوضح كيف أن جلفاني Galvani (عالم الفيزياء الإيطالي القديم) قد اكتشف التيار الكهربائي المستمر "بطريقة تكاد تكون تصادفية تماماً".

وفي كتابه بعنوان "ضد المنهج" يذهب فايرآبند Feyerabend (١٩٧٥) إلــى أن العلم الحديث لم يحقق إلا القليل من النجاح في سبيل التغلب على مظاهر العجز والقصور التي شابت سوء الممارسة السابقة العهد. وعند مناقــشته لوضــع العلــم المعاصر نجده يرفض ذلك المنحى الساذج، الذي يتسم بالمغالاة في التحفظ، وفقــر الخيال، وهو المنحى الذي يميز البحث العلمي في وقتنا الحاضر، كما يدعو فايرآبند إلى التحول صوب الممارسات العلمية التي تتسم بالمزيد من التأمُّل وإعمال الفكر.

من ناحيته يعترض كون Kuhn (١٩٦٢) على التسليم بــأن العلــم يتــسم بالرشد، وأنه مجال نقدي ومتفتح الأفق، محتجاً بأن العلماء فــي الواقــع منغلقــون ومحافظون يؤثرون التمسك بالموروث في تفكيرهم، وبأن نسقهم التصوري يتــشكل وفقا لتأثير مجموعة من الاتجاهات والقيم التي يشيع بينهم الإيمان بها فيما يتــصل بهوية العلم وطبيعته. وهذه "النماذج الفكرية"يتم تطبيقها بحــذافيرها ودون تفكيــر

وعلى نحوٍ غير نقدي على دراسة العالم الطبيعي، وذلك إلى أن يحين الوقت الـذي يثبت فيه عدم جدواها، وتظهر نماذج فكرية أخرى تحل محلهـا، طارحـةً رؤيـةً جديدة للطبيعة وتثير مشكلات جديدة يتعين العمل على حلها. ولكون العلماء بعيدين عن الانفتاح الفكري والموضوعية – في رأي كون – نجدهم يلتزمون التزاماً شديداً بالنماذج الفكرية الخاصة التي يرتكز عليها حقل العلم، سواءٌ أكان هو علم الفيزياء، أم الكيمياء، أم أي علم آخر (سلاتري، ١٩٩٤).

ويحتج النقاد كذلك بأن العلم لم يَعُدْ موضوعيا لأنه يقع تحت رحمة القـوى الاجتماعية والإيديولوجية مثل التمويل والسياسة، وكذلك تحت رحمة مـا يـستأثر باهتمام الجمهور. وتساعد أمثال تلك العوامل علـى تحديـد الأولويـات البحثيـة. وبإدخال الأزمة التي تواجه أقسام البحث العلمي في الجامعات في الحسبان، فلـيس أمام العلماء سوى خيار ضئيل أن يُذعنوا للضغط الخارجي ويجروا البحوث التـي تنتهك قدسية المعتقدات الأساسية للمنهج العلمي. وبإمكان هذا الوضع أن يكون لـه عواقب مناوئة للعلم بوصفه ميداناً معرفياً، على نحو ما يوضح التمرين التالي:

الموضوع (A)

هل يغش العلماء؟

هذا سؤال الإجابة عليه بالغة الصعوبة، لأن العلماء فـي غايـة الـتحفظ والكتمان. وقد يبدو ذلك نوعاً من التناقض، إذ أن النمط المثـالي للعلـم يتـسم بالمصارحة والانفتاح كركن أساسي للمنحى العلمي، وذلك حتى يكون بالإمكـان التحقق من صحة النتائج من خلال تكرار البحث. ومع ذلك، فـإن كثيـراً مـن العلماء لا يُعرضون بياناتهم للفحص والتمحيص من جانب غيرهم من العلمـاء، ويُمكن أن يحدث هذا لمجموعة من الأسباب.أولا: يعمل كثير من العلماء لحساب

شركات تجارية، وهم مُطالبون بالاحتفاظ ببياناتهم سرية لتحتفظ الشركات بوضعها المتميز في السوق. ثانياً: ينشغل كثير من العلماء باكتساب المال من اكتشافاتهم ويحافظون على نتائج بحوثهم بحرص شديد. والمكانة الرفيعة في العلم (ناهيك عما يعقُبها من الترقيات والمنح البحثية) يتم اكتسابها من خلال نشر العمل الأصيل والمبتكر في مجالٍ تشتد فيه المنافسة، كما قد يتعرض العالم لإغراءٍ بأن يختصر الطُرق حتى ينشر عمله قبل غيره. وقد يتخذ هذا الوضع شكل تجاهل النتائج السلبية للبحث عند نشر البيانات، أو يتخذ شكلا أكثر إيغالاً في الغش، أعني بذلك أن يختلق/أو يُركب العالم بياناته تركيباً (أي: يشكلها وينظمها من عنده). ورغم وجود حالات تم فيها فضح العلم المخادع، فإن لا يحدث إلا قدرٌ ضئيل من تكرار البحوث (بقصد التحقق من صحة ما توصلت إليه من نتائج) وذلك لعدم وجود حافز يدفع العلماء للتحقق من أعمال غيرهم بدلاً من نشرهم لمادة أصيلة ومبتكرة في أحد حقول العلم.

	تمرين ١٠-٢
	يسلط الموضوع (A) بعض الضوء على عدد من الدلالات الضمنية لسوء الممارسةِ في مجال العلم. اقرأ الموضوع ثم أجب على الأسئلة التالية:
تقييم	١- إلى أيّ مدى تتفق مع الموضوع (A) في أن اختلاق البيانات هو مجرد شكل مُغالي فيه من أشكال الغش؟ ابحث جانبي هذا الرأي كليهما وقدّم ما يُبرر ما انتهيت إليه من نتيجة.

تحليل تقييم	٢- ما الصعوبات التي قد تنجُمُ من قيام العالم بالجمع بين الترقيات، والمِنح الكبيرة للبحث والمكانة الرفيعة، كأسباب تفسِّر لماذا قد يلجأ العالمُ للغش؟
تقييم	٣- لماذا يكون من شأن الأخذ برأي بوبر في دحض/أو تفنيد النظرية أن يُحدَّ من نمط الغش المبين في الموضوع (A).
تحليل تقييم	٤- كيف يمكن لمفهوم "النماذج الفكرية" التي يقول بها "كُون" أن تساعد على تفسير الأخطاء غير المقصودة للعلماء وليس الأخطاء المقصودة؟

كذلك يؤيد لوسون (١٩٨٦) الرأي القائل بأن من الممكن أن تكون ممارسات العلماء المعنيين بالعلوم الطبيعية مُخادعة. فالمشكلة -في رأي لوسون- هي أن هؤلاء العلماء الطبيعيين كائنات إنسانية، وأنهم يُنفذون أعمالهم -عادةً- داخل المنظمات الاجتماعية، وأنهم بذلك يخضعون تقريبا لنفس القُوى الاجتماعية والاقتصادية شأنهم شأن أعضاء سائر المنظمات. مِثال ذلك أن العلماء الطبيعيين مشغولون بما يخصهُم من مكانة اجتماعية ومستقبل مِهني، وهي الأمور التي قد تتوقف على النشر "الناجح" أو الإنجازات "الناجحة". وتاريخ العلم حافلٌ برُكام مِن النشر المبتسَر، أو حافل بالتخلص من النتائج "غير المريحة أو غير المواتية"، أو بالغش الصرف. وقد يتقرر اتجاه البحث بناء على ما تراه المؤسسات التي ترصُد الاعتمادات المالية للبحث، إذْ أنها ستؤثِّر بالتأكيد على المسائل التي يسبر العلماء الطبيعيون أغوارها في بُحوثهم.

ويواصل لوسون عرض وجهة نظرة بالقول بأن مؤسسات الدولة القومية تصوغ شكل البحث العلمي بأسره، ولو لم يكن ذلك إلا من خلال المقدار الهائل من المال الذي يَضخّ في مجال تطوير الأسلحة. زد على ذلك أن تصميم التجارب

المعملية وتفسير النتائج ليسا عمليتين موضوعيتين بل تشتملان على قدرٍ كبير من الخيال، والبراعة الإنسانية، والحدس الباطني، بجانب قدرٍ كبير من الحظ. والعلماء أعضاء في مُجتمع علميٍ صغير لا يقتصر على تمحيص العمل الذي يقوم به العالم بمفرده بل يساعد –كذلك– في تحديد الأسئلة التي تُطرح في المقام الأول (انظر تمرين ١٠-٣).

ويُكرر لوسون إحدى وجهات النظر التي سبق طرحها في هذا الفصل، وأعني بها أنه يبدو أن مُعظم العمل العلمي لا يتبع الإجراءات الدقيقة التي أرساها النموذج الوضعي. فعدد من العلوم الطبيعية – كعلم الفلك مثلاً– ليس من السهل القيام بأبحاثها في بيئة المعمل المنضبطة. كما نجد أنه – حتى في العلوم الطبيعية – كثيرا ما يطرح العلماء نظريات متعارضة في تفسير ظاهرة معينة. وهذا سببه أن "الحقيقة" ليست واضحة على الدوام أو ليست سهلة الاكتشاف بمجرد اتباع القواعد الوضعية والخضوع لها خضوعاً تاماً.

تفسير – تطبيق – تحليل	تمرين ١٠-٣

اقرأ السيناريو التالي ثم أكمل المهمة المرافقة له.

افترض أنك عالم بحثي بارز، وتروعك مزاعم النقاد بأن البحث العلمي يتسم بالخداع والغش. اُكتب خطاباً إلى صحيفة "الأوبزرفر" The Observer التي تقوم بصفة منتظمة بدحض الادعاءات المطروحة في الموضوع (A). قدّم الشواهد والأدلة التي تعزز حُجّتك.(ملاحظة: قد تحتاج إلى أن تقوم ببحث إضافي لهذا الغرض. يمكنك الاستفادة بالمكتبة الموجودة في مدرستك/أو كليتك، أو الدخول على المواد المرجعية من خلال تجهيزات تكنولوجيا المعلومات مثل الأقراص المضغوطة، والإنترنت، وما أشبه ذلك).

يبدو كما أوضحنا سابقا أن العلم والمنهج العلمي ليسا بمنأى عن اللوم والمؤاخذة. فقد وُجه النقد إلى مدى ملاءمة المُسلمات التي يرتكز عليها العلم، وإلى بعض ممارسات العلماء التي لا تبدو مُطابقة لصورة البحث الموضوعي المتحرر من القيم. وقد تكون حقيقة العلم بعيدة عن البلاغة. فصورة العلم مرتبطة، وبشكل لا انفكاك له عنها، بسماتٍ خاصّة تقوم بتحديد هوية العلم. فإن لم تكن هذه السمات موجودة في الواقع، فهل يعني هذا أن العلم نفسه غير موجود، أم يعني أن العلم لم يَعُدْ علمياً؟ إنها فعلا قضية خلافية معقدة.

يؤمن كثير من العلماء وفلاسفة العلم في وقتنا الحالي بتفسير أكثر براجماتية للعلم يمكنه أن يتكيف مع التطبيق الانتقائي للمبادئ المرتبطة تاريخيا بالعلم. ويطرح بول Pohl (١٩٧٦) مثالاً لذلك يقول فيه:

"ينظر معظمنا إلى "العلم"، وبصورة متعجلة لا تفكير فيها، باعتباره نوعاً من التشكيلة التي تضُمّ المُفاعلات الخطية Linear accelerators ومركبات الفضاء ونماذج الكيمياء العضوية. والعلم، في الواقع، ليس أيا من هذه الأشياء، إذ هو لا يعدو أن يكون منهج بحث منهجي لجمع المعارف واختبارها، بما يتضمنه هذا المنهج من إجراءات شكلية معينة؛ لجمع المعلومات، وصياغة فرض لتفسير هذه المعلومات، والتنبؤ بنتائج هذا الفرض، والقيام بتجربة لاختبار هذا التنبؤ. فإن كُنت تدرس أيّ مجالٍ من مجالات المعرفة باستعمال هذه الطريقة، فأنت تشتغل بالعلم. وإن كنت تستعمل أي طريقةٍ أخرى، فأنت تشتغل بشيءٍ آخر".

إن التعريفات من أمثال ما أوردناه هنا لتفتح المجال على مصراعيه لقضية خلافية جديدة: هل إذا استوفت فروع العلم الأخرى هذه المعايير الجديدة للعلم، فهل يعني هذا أنه يمكن النظر إليها باعتبارها علميةً أيضاً؟

علم الاجتماع كعلم

حركة التنوير

إن الخلاف حول ما إذا كان بالإمكان اعتبار علم الاجتماع علماً من عدمه، يمتد بامتداد تاريخ هذا التخصص نفسه. فقد بدأ ظهور علم الاجتماع في القرن الثامن عشر بعد مرحلة زمنية من التغير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي الهائل. وقد سعى العلماء لفهم حقيقة هذه التغيرات والتعرف على أبعاد هذا العالم الجديد الذي كان آخذاً في الظهور. وقد أدت هذه المرحلة إلى مرحلة في التاريخ تُعرف "بحركة التنوير"، "وهي عصر تميز بتطوير أشكال مستحدثة تماما للفكر فيما يتصل بالمجتمع وبالمجال الاجتماعي عموماً". (هاميلتون، ١٩٩٢، نقلا عن هول Hall وجيبين Giben، ١٩٩٢، ص١٨).ويرى الكثيرون أن حركة التنوير مثلت حداً فاصلاً في الفكر البشري فيما يتعلق بالمجتمع لأنها حثت على اتباع طريقة جديدة في التفكير تتسم بإعمال العقل والانتفاع بالخبرة والتجربة بتطبيقها على العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي.

وفي الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، بدأ علماء الاجتماع الأوائل دراسة مُشكلات المجتمع لدرجة لم تكن معروفة حتى ذاك الوقت. واستلهاما للإدراك المتنامي بقيمة المبادئ والإجراءات العلمية، تحملوا مشقة الانكباب على دراسة البناء الاجتماعي والتغير الاجتماعي باستخدام الوسائل العلمية. وبقيامهم بهذا العمل، وضعوا الأساس لما أصبح بعد ذلك "علماً" بازغاً للمجتمع (انظر تمرين ١٠-٤)

الموضوع (B)

الأفكار الرئيسية لحركة التنوير

١- **العلـم**: كانت المعرفة العلمية والمنهج التجريبي بمثابة السبيل لاكتشاف أوجُه التقدم النافعة التي من شأنها أن تفيد البشرية.

٢- **العقل**: كان الرشد هو الأسلوب الوحيد المقبول لتنظيم المعرفة الإنسانية. وكانت بلورة خطوط التفكير الواضحة التي تبقى مستقلةً عن أي خبرةٍ فردية هي الطريقة الوحيدة لتفادي الخطأ البشري وللظفر بتوافق الأفكار لدى غالبية الناس.

٣- **النزعة الإمبيريقية**: ومع ذلك، فقد كان من اللازم أن يتم تعزيز العقل بالخبرة، وكان لابد من تدعيم الأفكار بالوقائع الإمبيريقية التي يتم إقرارها من خلال حواسنا.

٤- **العمومية**: وكانت تعني أن بالإمكان تطبيق القوانين العلمية على كل المواقف المماثلة وعلى كل الظواهر، بما فيها المجالات التي كان يُظنُّ قبل ذلك أنها خارج نطاق مملكة العلم.

٥- **النزعة الفردية**: كان الفرد يعد حجر الزاوية بالنسبة للمجتمع، كما أنه ينبغي ألا يخضع عقلُ الفرد لسلطات أعلى كسلطة الهيئات الدينية مثلاً. ويقوم سائر الأفراد معاً، ومن خلال التفاعل مع بعضهم البعض، بخلق أشكال المجتمع.

٦- **التقدم**: باستعمال العقل والعلم، كانت الأوضاع الاجتماعية قابلة للتحسين، مع ما ينتج عن ذلك من زيادة سعادة الأفراد أعضاء هذا المجتمع.

٧- **التسامح:** لما كان الأفراد متماثلين أساساً، فمن الطبيعي أن يكونوا متساوين في القيمة بصرف النظر عن أشكال التمييز التي تفرضها المجتمعات عليهم. وكان هذا المعنى منطبقاً على كل الحضارات وليس مقتصراً على الحضارات الأوروبية وحدها.

٨- **الحرية:** ينبغي ألا تُفرض إلا قيود محدودة على الأفراد في سعيهم لتحصيل السعادة، ولهذا السبب فإن كل القيود الإقطاعية و/أو القيود الدينية ينبغي أن تُزال بمقدار ما يكون ذلك متوافقاً مع سعادة الآخرين.

معرفة - فهم - تفسير تطبيق- تحليل- تقييم	تمرين ١٠-٤

اقرأ الموضوع (B) ثم أجب على الأسئلة التالية:

١- ما مفهوم العقل الذي تبناه هؤلاء الفلاسفة من المفكرين الأحرار؟

٢- لماذا كان ظهور النزعة الإمبيريقية بمثابة تحدٍ للتفسيرات الدينية للظواهر؟

٣- ما المنهج العلمي الذي كان يُنظر إليه باعتباره الطريقة التي تزودنا بمفتاح تطور المعرفة البشرية؟

٤- كيف تم ربط فكرة العلم بفكرة العمومية؟

٥- كيف كان مفهوم التقدم مبررا لبلورة علمٍ للمجتمع؟

٦- كيف تبدو النزعة الفردية متناقضة مع النزعة العمومية؟.

٧- ما التأثير الذي كان من المُرجَّح أن يُحدثه التسامح في بريطانيا كافة؟

٨- ما التحدي الذي فرضته الحرية على المجتمع الإقطاعي؟

وقد اعتمد اثنان من علماء الاجتماع على أفكار حركة التنوير بغية ابتكار علم جديد للمجتمع، هما سان سيمون وكونت، وكان المبحث الذي قدّماه هو الفلسفة الوضعية.

صعود الوضعية – علم للمجتمع

يدلنا استعراض أعمال أوائل المفكرين الوضعيين على أن علم الاجتماع لم يتطور مُستقلا عن العلم لكي يسعى بعد ذلك لأن يعتبره الناس مبحثاً علمياً، وإنما الأقرب للحقيقة أن التفكير العلمي كان بمثابة القوة الدافعة لتطوير هذا المبحث. ومن هنا، يميل الوضعيون إلى الزعم بأن علم الاجتماع يُعد علماً لأنه يقوم على أساس المبادئ التي نادى بها أوائل العلماء، ولأنه يشترك معهم في المسلمات التي يؤمنون بها. وإن من اليسير العثور على شواهد تاريخية تؤيد هذه الحُجَّة، إذ أن أوائل علماء الاجتماع قد بذلوا جهوداً عظيمة ليوثقوا أوجُه التماثل بين موضوعهم الجديد من ناحية وميدان العلم من ناحية أخرى. وحينذاك لم تُثر اعتراضات قوية فيما يتصل بما إذا كان من الملائم تطبيق المبادئ والإجراءات العلمية على دراسة العالم الاجتماعي. فقد كان من الواضح التسليم بأن العلم خيِّر، وأن العلم يؤدي للتقدم، وان بإمكان العلم أن يقدم الأجوبة على أسئلة الحياة، كما أن العلم قدم مجالاً أرحب مما قدمه الدين لتفسير الأحداث تفسيرات استدلالية عقلية وإمبيريقية يُمكن اختبارها من خلال تطبيق الإجراءات العلمية الدقيقة الصارمة. لقد كان أمراً عجيباً

بعض الشيء أن أوائل علماء الاجتماع الساعين إلـى الوصـول لإطـار نظـري لأعمالهم كانوا يؤمنون بالعلم.

إن تطوير الوضعية، وتطوير علمٍ للمجتمع، من الأمور التي ينسب الفـضل الأكبر فيها إلى الفرنسي أوجست كُونت August Comte (١٧٩٨-١٨٥٧). وقد كان كونت مدفوعاً إلى تطوير الوضعية بسبب حاجته لفهم ذلك التغير الاجتمـاعي السريع الذي أحدثته الثورات الصناعية والزراعية والسياسية التي كانت تندفع بقوة في كل أنحاء أوروبا. فذهب إلى أن بالإمكان تفسير العـالم الاجتمـاعي والعـالم الطبيعي بنفس التصورات، وذلك لأن لكل منهما واقعه الموضوعي الـذي يُمكـن دراسته باستعمال المنهج العلمي. وكما يشير سلاتري (١٩٩١) فـي استعراضـه لأعمال كُونت، فإن الأمر الذي ميز منظور كونت وجعلـه متفـردا هـو رفـضُهُ للدراسة الميتافيزيقية للقوي فوق الطبيعية، مُؤثراً عليها مُلاحظة الوقـائع الحقيقيـة وتصنفيها وقياسها، والتي يُمكن أن يُستنبط منها -عن طريق التفكيـر المنطقـي- الفروض القابلة للاختبار، والعلاقات بين الأسباب والنتائج، كما يُستنبط منها، فـي نهاية الأمر، القوانين السببية وقوانين التطور التي يُمكن مقارنتها بقوانين الطبيعـة التي يكتشفها علماء الفيزياء، والكيمياء، والبيولوجيا. وكان كونت لا يؤمن بجـدوى دراسة المشاعر والتصورات الشخصية، وذلك لأنه لا يُمكن حسابُ هـذه الأمـور حساباً كمياً. وبدلاً من ذلك، ينبغـي أن يكـون مطلبنـا هـو اكتـشاف المعرفـة الموضوعية المتحررة من القيم.

والتمرين التالي مُصمَّم لمساعدتك في تقدير الأساس المنطقي الكـامن وراء أعمال كونت وطريقة البحث التي كان ينادي بها.

تفسير - تطبيق	تمرين ١٠-٦

أكمل فراغات الفقرة التالية باختيار الكلمات الصحيحة من بين القائمة المذكورة أدناه:

يتمثل إسهام كونت في تأسيس ـــــــ كشكل رئيسي للبحث السوسيولوجي والـــــــ. ونظراً لما رآه في عصره من وجوه التقدم في المعارف التي حققتها العلوم الـــــــ فقد جعل هدفه الرئيسي وضع الـــــــ "لعلم مجتمع" مقارن سمّاه في مبدأ الأمر "ـــــــ"، إلا أنه أعاد تسميته بعد ذلك ـــــــ. وقد قدّم كونت نفسه معاني متنوعة لمصطلح "ـــــــ". فالـــــــ العلمي ينبغي ألا يشغل نفسه إلا بما هو ـــــــ، ونافع، ومؤكّد، ودقيق واستدلالي (أي: مبنى على الاستنتاج والتفسير)، وألا ينشغل بالقضايا الـــــــ، التافهة، أو غير المؤكدة، أو الغامضة والـــــــ أو النقدية. وكان كل التركيز في هذا الـــــــ الجديد منصباً على الوضعي، وعلى اكتشاف المعرفة الاستدلالية، والنافعة، والتي يمكن الاعتماد عليها كأساس لـــــــ المجتمع. وقد مثّل هذا المنحى الجديد رفضاً لكل من أنماط التفكير قبل الوضعية و ـــــــ. لقد كانت فلسفته في جوهرها فلسفة ـــــــ، مُصممة لاستعادة النظام من خلال الـــــــ العلمي والتقدم، وذلك من خلال السياسة العملية. فقد سعت هذه الفلسفة لتوطيد الوضعية كنزعة ـــــــ. ومعنى ذلك أن أي شيء لا يمكن معرفته علمياً تستحيل معرفته.

(المصدر: نقلا بتصرف من سلاتري، ١٩٩١).

الكلمات الناقصة

• القواعد/ الأسس • الطبيعي • الوضعية • ثوري • التنظير • التحليل •محافظ

• التحسين/أو رفع المستوى • العلم • علم الاجتمــاع • الــواقعي •الفلــسفة • الفيزياء الاجتماعية • البحث • مدمر.

أثّر كونت تأثيرا كبيراً على أجيال من عُلماء الاجتماع طوال قرن.كامل بعد نشر أعماله. وقد سعى الكتاب من شتى أنحاء العالم لتطبيق المنهج الوضــعي فــي دراسة العالم الاجتماعي بُغية الإسهام في إنشاء قاعــدة المعرفــة المتناميــة لعلــم الاجتماع. وكان من بين أشهر هؤلاء الكتاب إميــل دوركــايم (١٨٥٨-١٩١٧)، وذلك بما قدمه من دراسة كلاسيكية عن الانتحار، بجانــب المفكــرين الــوظيفيين البنائين الذين ظهروا في أواخر خمسينيات القرن العشرين، ونذكر منهم مثلا: عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز Talcot Parsons.

وقد شكل هذه العمل أساس معظم التفكير السوسيولوجي في النــصف الأول من القرن العشرين. فقد اعتبر المنهج الوضعي – بتأكيده على الجَمع الموضــوعي للبيانات، والقابل للتكرار، والمحكم، والموثوق به، والمُنظَّم، والمعيــاري – اعتبــر المنهج الوضعي بمثابة مفتاح الكشف عن القوانين التي تحكم الــسلوك الإنــساني. وفي الوقت الذي كان يتم فيه تحديث هذا المنهج علــى امتــداد الأعــوام بحيــث يستوعب البحث المقارن داخله، فإن الأساس المنطقي للبحث الوضعي ظل كما هو – أعني بذلك أنه ظل حريصا على تحديد العلاقات الــسببية بــين أجــزاء البنــاء الاجتماعي المختلفة، مُوفراً -بهذا الشكل- القاعدة اللازمة لصياغة التعميمات.

مضت الوضعية في طريقها يداً بيدٍ مع البنائية (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب) وهي الفلسفة التي ذهبت إلى أن حياة الأفراد إنمــا تتــشكل بفعــل الــنظم والقوى الاجتماعية، وإلى أن الأفراد ليس لديهم قدرة تذكر يمكنهم أن يُسيطروا بها على مصيرهم الشخصي. كان هذا المنحى الفكري جذاباً في نظر الوضعيين لأنــه قدم مُبررا لرفض البعد الذاتي في دراسة العالم الاجتماعي.

وقد كان هذا الرفض هو نقطة الضعف في الفلسفة الوضعية في ستينيات القرن العشرين عندما أخذ فرع بزغ حديثاً من فروع علم الاجتماع يركز اهتمامه على الكشف عن دور الوعي الإنساني والتفاعل الاجتماعي في تشكيل العالم الاجتماعي. وقد رفض هذا المنحى الفكري الجديد دعوى الوضعيين بأن بالإمكان دراسة الطبيعة البشرية بنفس طريقة دراسة الأشياء غير الحية في العالم الطبيعي، وذلك لأن تبني هذا التوجه في الدراسة معناه إنكار التفرد الذي تتصف به الروح الإنسانية، وإنكار العوامل الشخصية في تشكل تصورات الأفراد، وأفعالهم، والتي -بدورها- تُشكل الحقيقة الاجتماعية. وقد أصبحت هذه الحركة -- والتي استلهمت أفكارها من كتابات مفكري التفاعلية الرمزية، والظاهراتية، والإثنوميثودولوجيا- أصبحت هذه الحركة تعرف باسم الوضعية المضادة.

صعود النزعة المضادة للوضعية كتحد لعلم الاجتماع.

تطورات الوضعية المضادة من خلال الكتابات والنظريات التي قدمتها مجموعة من علماء الاجتماع الذين كانوا مهتمين بتطوير بديل لمفهوم الحقيقة الاجتماعية الذي كان يسود الفكر السوسيولوجي حتى ذاك الوقت. وقد ذهب مفكرو الوضعية المضادة إلى أنه من الخطأ تطوير علمٍ للمجتمع لأنه ليس من العملي تطبيق طرق البحث العلمية على دراسة الكائنات البشرية، وبأنه من غير الملائم افتراض أن من الممكن استخراج أوجه تشابهٍ بين دراسة العالم الطبيعي ودراسة العالم الاجتماعي.

وقد تشكك جورج هربرت ميد (١٨٦٣- ١٩٣١) في قيمة التحليل والتنظير المتعلقين بالبناء الكُلي للمجتمع. وذهب إلى أنه من الأجدر الاهتمام باستكشاف العوالم

الاجتماعية التي يعيش فيها الأفراد، واستكشاف الطريقة التي بها تـؤثر تـصوراتهم الشخصية (أي الأنساق الفردية لتفكيرهم) في استجابتهم لهذا العالم وتفـاعلهم معـه. ويرى مناهضو الوضعية أن هذا التفسير ما تحت الشعوري هو الـذي يُـؤثِّر علـى المعنى الذي يُضفيه الأفراد على جوانب الحياة الاجتماعية وعلى استجابتهم للمواقـف المختلفة. فالحقيقة الاجتماعية تُعتَبَر –هنا– نابعة من الداخل، كما أنـه إذا قررنـا أن نفهم المجتمع فلابد من أن نبدأ بالمشاعر الذاتية للأفراد وبتفسيراتهم للأحداث. ويمكن أن نعثر على هذه الرؤية فـي كتابـات هوسـرل (١٩٣١)، وجوفمـان (١٩٥٩)، وجارفينكل (١٩٦٧) وشوتز (شوتز ولوكمان، ١٩٧٣).

ويتفق مفكرو الوضعية المضادة في رفضهم للفكرة القائلة بأن أفضل طريقة لدراسة المجتمع هي الأخذُ بطرُق البحث المُتبعة في العلوم الطبيعية. بل إنهم يرون أن العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي لا يمكن أن يتطابقا أو يتوافقا. ويشرح مفكرو الوضعية المضادة ذلك بالقول بأن البحث في العالم الطبيعي يعني ضـمناً دراسـة الأشياء غير الحية التي ليس لديها وعي والتي تتأثر – بصورة عامـة – بالوقـائع والأحداث الخارجية. ومن هنا يكون بالإمكان التنبؤ بالعالم الطبيعي لأن العوامـل الوحيدة التي تؤثر عليه هي تلك العوامل المفروضة عليه مـن خارجـه. ويمكـن للعلماء أن يشتغلوا بالدراسة المنهجية للعالم الطبيعي عن طريق إدخالهم لتغييـرات طفيفة عليه ودراسة تأثيرها على الأشياء، أو المواد، أو الكيماويات. ويمكن التحكم في الظروف – التي في ظلّها تُجرى أمثال تلك "التجارب" – تحكُماً دقيقا صـارماً بقصد التأكُد من أن التغييرات التي أحدثها العلماء هي وحدها التي يمكن أن تكـون مسئولة عن النتيجة التي أعقبت التجربة. وهذه العلاقة القائمة بين السبب والنتيجـة يمكن إثبات صحتها عن طريق تكرار إجراء هذه التجارب تحت نفـس الظـروف وباستعمال نفس طُرق البحث.

ويذهب مفكرو الوضعية المضادة إلى أنه إن طبق المـنهج الوضـعي فـي دراسة العالم الاجتماعي، فسيثبت أنه قاصر عن تحقيق المطلوب منه. وقد كـشف هوسرل عن أوْجُهِ قصورِ منهجيةِ البحثِ الوضعية، زاعماً أن طريقتي الاسـتنباط والاستقراء العقليتين ليستا كافيتين وحدهما. فهما لا تستطيعان أن تتلاءما مع دراسة تلك الجوانب من السلوك البشري التي لا يمكن ملاحظتها بصورةٍ مباشرة. ولهـذا السبب، ذهب هوسرل إلى أنه ينبغي أن يُشكل الحَدْسُ جزءاً من الجهود التي تبـذل لتحليل وفهم جميع أشكال المدارك والتصورات البشرية. كما يرى شوتز أن المنهج العلمي العقلاني لا يتيح إلا مجالاً ضئيلاً لزيادة فهمنا للعالم الاجتماعي. وهو يُحبـذ نوعاً من العودة للفلسفة كمسارٍ لاستكشاف القواعد المشتركة التي يقوم عليها النظام الاجتماعي بصورة عامَّة.

ويرى مفكرو الوضعية المضادة أنه لا يمكن دراسة العالم الاجتماعي بـنفس الطريقة التي يُدْرَسُ بها العالم الطبيعي. وذلك لأسـباب منهـا: أوّلاً: لأن العـالم الاجتماعي مُكوَّن من الكائنات البشرية ذات الحوافز الفردية والقادرة على توجيـه سلوكها الشخصي. وعلى الرغم من أن بعض جوانب الحياة الاجتماعية تقع خارج نطاق سيطرة الأفراد، فإن مفكري الوضعية المضادة يحتجون بأنـه سـيكون مـن الخطأ النظر إلى البشر بنفس الطريقة التي يُنْظَرُ بها إلى الأشياء غير الحيـة فـي العالم الطبيعي. ثانياً: لا يمكن لدراسة البشر أن تكون دقيقة وقاطعة. حقيقـة أنـه يمكن أحيانا دراسة الأفراد من البشر في مُختبرٍ ما، ولكن علماء الاجتمـاع ليـسوا قادرين على التحكُم في الجوانب التي لا يمكن ملاحظتها من الفعل الإنساني. ومـن ثَمَّ فإن جانباً واحداً من هذه الجوانب – على الأقل – يكون خارج نطـاق سـيطرة القائم على التجربة.

ومن شأن دراسة البشر باتباع نهج علمي أن يخلق مشكلات إضافية.إذ يتسبب التجريب في إثارة المسائل الأخلاقية، كما أن إجراء التجارب على البشر قد يمثل انتهاكا للميثاق الأخلاقي الذي أصدرته الرابطة البريطانية لعلم الاجتماع BSA (راجع الفصل التاسع من هذا الكتاب). يضاف إلى ذلك – وبالرجوع إلى قضية سياق أو بيئة المختبر (الذي تجري فيه التجربة) – أنّ مفكري الوضعية المضادة يحتجون بأنه لا ينبغي دراسة السلوك الإنساني بمعزل عن السياق أو الوسط الذي يحدُثُ فيه عادة، وذلك لأن السلوك الإنساني لا يوجد في فراغ، بل هو نتيجة التفاعلات بين الأفراد والجماعات الاجتماعية. ولفهم الحياة الاجتماعية بصورة وافية فإن من المهم ألا يقتصر الأمر على دراسة السلوك الإنساني في حد ذاته، بل يُضاف إلى ذلك دراسة السياق الذي يحدث فيه هذا السلوك ودراسة المعنى الذي يضفيه "الفاعل الاجتماعي" على سلوكه هذا. وأعني بالفاعل الاجتماعي ذلك الفرد الذي يصدر عنه هذا السلوك. ولا يتوجب على علماء الاجتماع – بالضرورة – أن يقبلوا التفسير الشخصي الذي يقدمه الفرد لتوضيح سلوكه موضوع البحث. إذ قد يعمدون بدلاً من ذلك – إلى تطبيق معرفتهم ورؤيتهم الشخصية في تفسير الأحداث.

لهذه الأسباب، يسعى مفكرو الوضعية المضادة لجمع البيانات الصحيحة لإثراء فهمهم لحياة الأفراد وسلوكهم، وليظفروا برؤية تكون أقرب ما يمكن من الحياة الفعلية. ويولي مفكرو الوضعية المضادة أهمية كبيرة للدراسة المتعمقة للأفراد في بيئتهم الطبيعية وفي أثناء الأحداث التي تقع بصورة طبيعية، وذلك من أجل التمكن من فهم تفرد الروح الإنسانية. وقد تتضمن مثل هذه الدراسة استعمال اليوميات (المذكرات اليومية للأفراد)، والخطابات، والروايات، والملاحظة، وما إلى ذلك.

اعتراضات أخرى على علم الاجتماع بوصفه علماً

ليس مفكرو الوضعية المضادة وحدهم في الاعتراض على المُسلمة التي تقول إنه ينبغي على علم الاجتماع أن يأخذ بطرق البحث المستخدمة في العلوم الطبيعية، وأن عليه أن يبذل الجهد ليصبح علماً للمجتمع. فالمفكرون التقليديون الحريصون على الحفاظ على مكانة العلم أصروا على منع العلم من الارتباط بهذا المبحث المعرفي الأحدث عمرا والأشد غوايةً وفساداً (أي: عِلم الاجتماع). فقد قام مُنتقدو الحركة الوضعية، انطلاقاً من التعريف التقليدي للعلم؛ قاموا بإدانة علم الاجتماع لعجزه عن تحقيق التوقعات والمطالب الصارمة للعلم.

ولا يمكن أن يكون علم الاجتماع منظماً بصورة منهجية لأن السلوك الإنساني يتأثر بالبيئة التي يحدُث فيها، وهذه البيئة لا يُمكن التحكم فيها. ولا يمكن لعلم الاجتماع أن يتكرر لأن الحياة الإنسانية عملية متغيرة باستمرار. وإن من المحال أن تُجمد الحياة في لحظة معينة من الزمن لدراستها ولإعادة دراستها.

ويرتاب النقاد كذلك في قدرة علماء الاجتماع على أن يكونوا موضوعيين في دراستهم للسلوك الإنساني. وهم يُشيرون إلى أن علم الاجتماع يتسم بالنماذج والرؤى الفكرية المتعارضة، كما يذهبون إلى أن من المحال أن يفصل الباحثون السوسيولوجيون معتقداتهم عن أبحاثهم.

الواقعية

يطرح الواقعيون (انظر باسكار Bhaskar، ١٩٧٩، وكيت Keat، وأوري Urry، ١٩٨٢، وساير Sayer، ١٩٩٢) بُعداً آخر للجدال الدائر حول النظر لعلم الاجتماع بوصفه علماً، وذلك برفضهم للاعتراضات التقليدية المذكورة قبل ذلك.إذ

يذهب الواقعيون إلى أن كثيراً من اعتراضات المفكرين التقليديين مُجحفة وغير عادلة لأنها مبنية على المُسلّمة التي تقول إن الممارسة العلمية تقدم صورة مطابقة للتعريفات المرتبطة تاريخيا بها. وهكذا، يكون علم الاجتماع محكوماً عليه ظُلماً بأنه عاجز عن الوفاء بالمعايير الدقيقة للعلم، وذلك في الوقت الذي يتعين فيه على العلم أن يناضل حتى يفي بهذه المعايير ذاتها.

ثانياً: يدعي الواقعيون أن العلماء عرضة للتحيز كأي شخص آخر بسبب بعدهم عن الموضوعية وعن التحرر من القيم في بحوثهم. ويوضح كون Kuhn (١٩٦٢) هذا الموضوع، بالقول بأن العلم يتم توحيده عن طريق الاتفاق على نماذج نظرية معينة (أي طرق معينة للتفكير) وعلى الرغبة في تأييدها من خلال ممارسات بحثية محددة. كما يواجه العلماء الضغط المتمثل في تأمين الحصول على تمويل لبحوثهم، وهو الأمر الذي قد يؤدي بهم إلى إجراء بحوث تقع خارج نطاق ميدانهم المختار أو خارج نطاق خبرتهم. وقد يؤدي هذا إلى بحوث منخفضة الجودة. بل إن الأمر قد يصل ببعض الباحثين إلى التضحية بمبادئهم من أجل تأمين الحصول على عقود بحث مربحة. وإنه من الصعوبة رفض علم الاجتماع بوصفه غير علمي لمجرد وجود التحيز، خاصةً إذا كانت التُهمة الأقوى بالخداع مُوجهة للعلماء.

كما يذهب الواقعيون إلى أن من النادر أن يكرر العلماء بحوثهم لأنه لا يوجد سوى مكسب مالي ضئيل يمكن الظفر به من القيام بهذا العمل. وعلى الرغم من أن العلماء يُصرون – من الناحية النظرية– على أن تكون البيانات موثوقاً بها فإن من النادر أن يُعاد اختبارها، كما أنها – لهذا السبب – لا تكون أكثر مصداقية من البيانات التي يتم الحصول عليها من جُزء من البحث السوسيولوجي يُجرى لمرة واحدة لا تتكرر.

فإن صدقنا الواقعيين فيما ذهبوا إليه، فإن العديد من الاعتراضات المُوجهة إلى علم الاجتماع بوصفه علماً تكون اعتراضاتٍ لا أساس لها.إذ لا يمكن إدانة علم الاجتماع بأنه ليس مُتصفاً بما لا يتصف به العلم أيضاً. فالعلم وعلم الاجتماع أكثر تشابهاً مما يريد المفكرون التقليديون منا أن نعتقده. مثال ذلك، أن كليهما يهدفُ إلى كل من تطوير وتوسيع قاعدة المعرفة من خلال البحث. وهما يُطبقان إجراءات وطرق بحث مُعتمدة، كما أنه لا يعارض أيّ واحد منهما تطوير طُرق بحث ابتكارية لتوسيع حدود البحث العلمي. وهما يسعيان لتحسين الوضع الإنساني من خلال البحث. كما أن غرض البحث، عندهما كليهما، هو رفع مستوى فهمنا للعالم، سواء أكان العالم الطبيعي أم العالم الاجتماعي.

فإن تقرر أن نُحدد مدى كون كل مجال منهما (أي: العلم، وعلم الاجتماع) علمياً، فلابد من أن نُعمل الفكر أولا في معنى المقصود "بالعلمي". فالتعريف القديم الذي يؤكد على الموضوعية، ومنطق النظام، والدقة، والتجريب والتكرار يتعين علينا تطبيقه بمرونة حتى يُعد ملائماً في وقتنا الحالي. ويدعو الواقعيون إلى اتجاه براجماتي، والذي بمقتضاه يتم توسيع نطاق هذا التعريف ليتسع لأي بحث يتضمن الجمع المنظم والاختبار المنظم للمعرفة. ويشتمل هذا الاتجاه على إجراءات شكلية معينة، وعملية المعلومات، واستخدام الفروض، وإجراء التجارب لاختبار التنبؤات.

نُظم العلم المفتوحة ونُظمه المُغلقة

ميَّز ساير (١٩٩٢) بين نُظم العلم المفتوحة ونظم العلم المغلقة. فالعلوم التي منها الفيزياء والكيمياء يمكنها خلق أنظمة مغلقة في المُختبر حيث يُمكن تثبيت الظروف والمُتغيرات، ومن ثم يمكن التحكم فيها. وعلى هذا يمكن صياغة التنبؤات

بقدر مقبول من الدقة. ومع ذلك، فإنه توجد أيضا مجالات واسعة للبحث العلمي داخل نُظم مفتوحة لا يمكن فيها السيطرة على الظروف والمتغيرات. فعلم البيئة، وعلم الجيولوجيا، وعلم الأرصاد الجوية، وعلم المحيطات، وعلم الاجتماع يمكن وصفها بأنها أنظمة مفتوحة يندر أن توجد فيها الدقة والتنبؤ بأي درجة من درجات التأكد. ويميل مفكرو النزعة الواقعية إلى القول بأنه ليس معنى ذلك أن هذه المجالات المفتوحة ليست علمية، إذ لا يزال ممكنا شرح وفهم العمليات، والأبنية، والآليات الأساسية التي تُؤثر على الطقس، وعلى تكوين الصخور ومستودعات البترول، وعلى السلوك الإنساني. كل ما في الأمر أنه توجد في مثل هذه النظم درجة من التأكد تقل عما هو موجود في النظم المغلقة. ومن ثم فإن وُجد علم للمجتمع – في نظر مفكري النزعة الواقعية – يكون أمرا ممكنا.

هل ينبغي لعلم الاجتماع أن يطمح في أن يكون علمياً؟

ركز الجزء الأكبر من هذا الفصل على العلم كمبحث معرفي جدير بالاهتمام، وسلّط الضوء على الطريقة التي بها أدّى التقدير الواسع الانتشار لقيمة العلم والاكتشافات العلمية إلى دفع أوائل علماء الاجتماع للسعي لمحاكاة العلم. وقد أمعنا النظر فيما إذا كان بمقدور علم الاجتماع أن يفي بالمعايير الصارمة للعلم، أم لا. وفي استكشافنا لهذا الأمر، نكون قد سلّمنا ضمناً بأن العلم والمنهج العلمي يُعتبران نمطاً مثالياً ينبغي أن يَطمح إليه علماء الاجتماع.

وقد تساءل مفكرو الوضعية المضادة عما إذا كان من المرغوب فيه لعلم الاجتماع أن يأخذ بطرق البحث المستخدمة في العلوم الطبيعية في محاولة لاكتشاف القوانين العامة التي تحكم أداء العالم الاجتماعي لوظائفه. والوضعيون ملزمون

حتى وقتنا هذا بتقديم إجابة على رؤى المفكرين الواقعيين بأن العلم يُعتبر – في أفضل الأحوال – مُحاكاةً قاصرةً للتعريف الخاص به، ويُعتبر – في أسوأ الأحوال – مُخادعاً وفاسداً. ومع أن البعض قد يعتبر اكتشاف أن العلم أقلّ علمية مما يبدو عليه أمراً إيجابياً، لأنه يترك الطريق مفتوحاً لعلم الاجتماع ليُنظر إليه بوصفه علماً؛ فإن هذا الرأي يُثير -بالفعل- التساؤل عمّا إذا كان من مصلحة علم الاجتماع أن يربط نفسه بمبحث معرفي يعتبره البعض مُخادعاً. كما أُثيرت أسئلةٌ حول ما إذا كانت المُسلّمات التي يقوم عليها العلم تُعتبر صحيحة ومعترفا بها أم لا. فإن يكُن الأمر هكذا، فقد يجدرُ بعلماء الاجتماع أن يكونوا حذرين فيما يتصل بسعيهم لإثبات المكانة "العلمية" لمبحثهم المعرفي.

مستقبل علم الاجتماع والعلم

ما بعد الحداثة والعلم

يرى بعض الكتاب أن فلسفة ما بعد الحداثة أعقبت مرحلة الحداثة وشككت في كثير من مُسلمات العصر الحديث (انظر الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب). ولهذا الأمر دلالاته الضمنية بالنسبة لطريقة فهم العلم وتصور الناس له، وبالنسبة للطبيعة العلمية لعلم الاجتماع. وكما يُلاحظ ستريناتي (١٩٩٢)، فإن مفكري ما بعد الحداثة يشكُون في أي دعوى معرفية مُطلقة وكلية وشاملة، كما يذهبون إلى أن النظريات أو المذاهب التي تنادي بأمثال تلك الدعاوى يتزايد تعرضها للنقد والمناقشة والارتياب فيها. ونتيجة لذلك، تتشكّك فلسفة ما بعد الحداثة في العلم لأنه مبني على المُسلمة التي تقول إنه ثمة "حقيقة" يُمكن التعبير عنها بالقوانين الطبيعية التي تُكتشف من خلال البحث العلمي.

يتناول كامبل Campbell (١٩٩٦) هذا الهجوم الما بعد الحداثي على العلم، ويذهب إلى أن أساسه والداعي إليه يكمُن في "غطرسة الحداثة". ويرى كامبل أنــه يُوجد في كل من الأوساط الجامعية والثقافة العامــة ازدراءً للعلــوم التــي يجــد الكثيرون أنه من العسير فهمها. ووفقاً لما يذهب إليه كامبل، فإن العلم أصبح يُنظر إليه في وقتنا الحالي بوصفه "طليعة الاستغلال الأوربي، وباعتبــار أنــه مبحــث معرفي اندفع بجنون يُدمر كل شيء". وهو يعزو هذه النقيصة إلى تورُّط العلم فــي تطوير أنظمة التسليح، وفي خدمة النظام الرأسمالي والتجريب المُحرّم.

كما يذهب كامبل إلى أن العلم تحمّل معاناة هجوم عليه دام زمناً طويلاً جاءه من المسيحيين، وذلك على الرغم من أن مؤسسي العلم كانوا من المسيحيين. وقــد أُدين العلم – على امتداد التاريخ – بأنه متعجرف ومحدود النظر. ويــورد كامبــل المُسلّمة التي تقول إن الحداثة تعني العقلانية (الرشد) كبرهان على هــذا الــرأي، وذلك في نفس الوقت الذي توجد فيه مُسلّمة يتعين تصديقها ضمنيا تقــول إن الآراء الأخرى آراء لا عقلانية (غير رشيدة).

وقد أدّى الانزعاج من هذه العجرفة إلى تشكيل جماعات متماسكة، ومُتحــدة في رفضها للعلم. ويُميز كامبل اثنتين من هذه الجماعات هما: النُقاد العلمانيون مــا بعد الحداثيون والنقاد ذوو النزعات الصوفية. وهو يراهما جماعتين يربط بينهمــا الإصرار على مهاجمة العلم التقليدي. ويعتمد النقاد العلمانيون ما بعــد الحــداثيين على أعمال "كون" (١٩٦٢)، والذي أدان الأســاطير المحيطــة بــالتفكير العلمــي والممارسة العلمية. وفي نظر مفكري ما بعد الحداثة، تُعتبر التعريفــات الحداثيــة للعلم تعريفات مضللة لأنها تدّعي أن العلم موضوعي. والموضوعية تُفهم في ضوء مفهوم الإمبيريقية (بمعنى أن جمع البيانات يتم باستخدام حواسنا) وفي ضوء مفهوم الرشد (أي العقل، والمنطق، والقابلية للدفاع عنها بالحُجة والبرهان). ويُردد مُفكرو

ما بعد الحداثة ما أكده كون من أنه لا يمكن التسليم أبداً بأن الحقيقــة موجــودة، أو بأن بالإمكان التعبير عنها بشكل موضوعي. فالأصح، هو أن العلــم لــيس ســوى مشروع اجتماعي، وأنه بهذه الصفة أمر ذاتي. ويوضح كون ذلك قــائلاً: "إن كــل اختيار فردي بين النظريات المتعارضة يتوقف على مزيج من العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية" (نفس المرجع). وهذه الاختيارات (الفردية) لا يتم التوصل إليهــا بصورة مستقلة، بل تتأثر بالنماذج الفكرية السائدة في حينه، ومن ثم فــإن المنطــق يتم فرضه من الخارج كما أنه مُرتبط بالتاريخ، والظروف المحيطة، والثقافة.

يُصنف كاميل (١٩٩٦) الاعتراضات ما بعد الحداثية على العلم إلى أربعــة انتقادات تُقدم لنا موجزاً بليغاً لوجهة النظر ما بعد الحديثة:

١- جميع عمليات الملاحظة ذاتية، بما فيها تلك التي يجريها العلماء. ولهــذا لا تكون النتائج العلمية موضوعية.

٢- على الرغم من أن العلماء يدّعون أن الرشد (العقلانية) هو رائدهم، فالعقلانية نفسها رائدها النظريات السائدة التي تُعد رؤى من صُنع المجتمع .

٣- ليست قواعد المنطق سوى طرق للتفكير يفرضها المجتمع.

٤- إن المُقدَمات (الافتراضات المُسبقة) التي يأخذ بها العلم ليست صادقة بصورة واضحة إلا في نظر أبناء الثقافة الغربية.

وهكذا يرى مفكرو ما بعــد الحداثــة أنــه لا وجــود لليقــين ولا للحقيقــة الموضوعية الشاملة، فكلُ ما هو موجود مُجرد مجموعة من التفــسيرات الذاتيــة المتعارضة للأحداث. والموجود هو صورة وهمية للحقيقة صاغها عددٌ قليــل مــن الأكاديميين الغربيين ذوي النفوذ لتأمين الخضوع للهيمنة الفكرية والثقافيــة، وهــي الصورة التي نلمس فيها نبذا للتفسيرات غير العلمية بوصفها تفسيرات لا قيمة لها.

ويطمح مفكرو ما بعد الحداثة في أن يقلبوا اتجاه هذه النزعة وينزعوا عن العلم أسطوريته، وذلك لكي يبرهنوا على أن "العلم ليس له حجية أكبر مما لأي شكل آخر من أشكال الحياة" (كامبل، ١٩٩٦)، ويطمحون بهذا التصرف في أن يُحرروا الثقافات غير الغربية والأشكال الأخرى للمعرفة والمرجعية.

ويأتي هجوم آخر على العلم من قبل الناقدين ذوي النزعة الصوفية روبي روكر Ruby Rucker ورينيه ويبر Renee Weber (انظر كامبل، ١٩٩٦)، واللذين يذهبان إلى أن العلماء مخطئون في محاولتهم تصوير عالمنا بلغة النماذج النظرية المُجردة والمتشظية. وبدلاً من ذلك يدعو هذان الناقدان إلى الأخذ بمنحىً كلي في فهم الظواهر، فيقولان:"هيا بنا نتخذ من أفكارنا وإحساساتنا الفعلية الكيانات الأساسية بحق" (روكر، نقلا عن كامبل، ١٩٩٦). ففي رأي المفكرين الصوفيين أن الطريقة المناسبة الوحيدة لتناول العالم الطبيعي بالدراسة هي معالجة جميع الأشياء كشيء واحد، وهذا منظور فكري يعرف باسم "الأحادية" monism. وكما يلاحظ كامبل، فإنه عند الأخذ بمثل هذا المنحى فإن مصدر المرجعية سوف يتحول ليصبح هو الخبرة الشخصية ليس إلا. فمن المُحال الفصل بين الطاقة الروحية والوجود المادي. ومن ثمّ فإن العالم ليس واقعاً تحت سيطرة مصيره بأكثر من وقوع مصيره تحت سيطرته. وأي محاولة لفهم العالم الطبيعي لابد أن تعترف بهذه العلاقة المعقدة بين الباحثين والعالم الذي يبحثونه.

يقتبس كامبل (١٩٩٦) من كلام "ويبر"– وهو من مفكري ما بعد الحداثة– ليوجز هذا الرأي:

"خلافاً للعلم، الذي يلتفت إلى العالم الخارجي عن الباحث، نجد النزعة الصوفية تلتفت للداخل، أي إلى القوانين التي تحكم الباحث نفسه. فالعلم هو الاحتكام للخبرة الخارجية، والصوفية هي الاحتكام للخبرة الداخلية... ومن ثم يرى

صاحب النزعة الصوفية أنه يمكن التوفيق بين الخارجي والداخلي من خلال المثل التأويلي القائل "كما يكون الأعلى يكون الأسفل...". فالعالم والحكيم كلاهما محولان للطاقة، وذلك لاشتراكهما في رقصة شيفا. فالعالم يجعل المادة الكثيفة ترقُص لتُطلق الطاقة الخالصة، أما الصوفي- وهو سيد المادة التي تخفى عن الأبصار – فيرقص هذه الرقصة بنفسه... ذلك أننا بقيامنا بالفعل الذي نقوم فيه بتفسير العالم، نقوم بخلق هذا العالم... وفي أثناء تحاورنا معه، يتغير العالم... يتغير تصوره لنفسه... إذ ينسُبُ دوراً للإنسان كانت تختص به الآلهة نفسها قبل ذلك".

يسلط كامبل الضوء على الضغط المتصاعد المُوجّه للعلم حتى يراجع مُسلماته وإجراءاته. ويُمكن الاستفادة بمثل هذا النقد في الحث على القيام بنوع من إعادة تقييم هذا المبحث المعرفي. أما مسألة ما إذا كان العلماء يُؤثرون إدخال هذه الانتقادات في حُسبانهم أم لا، وكيف يقررون الاستجابة لها؛ فإنها مسألة قد تطرح إشارة مثيرة للاهتمام إلى مدى غطرسة هذا المبحث المعرفي بالفعل.

الدلالات الضمنية لمستقبل العلم/ أو البحث العلمي

يبدو مما سبق ذكره أن مستقبل البحث العلمي سيكون مستقبلا محدودا في عالم ما بعد الحداثة، إلا أن هذا تصور مُضلل. فبدايةً نقول: إن انتقادات ما بعد الحداثة مُوجّهة للعلم التقليدي. وقد بيَّن هذا الفصل أنه يجري إرغام العلم على التحرك بعيداً عن النظرية التقليدية والممارسة التقليدية في سعيه لفهم العالم المعاصر. واليوم يجري في الأوساط الأكاديمية نوع من التمييز بين العلم التقليدي أو "الصلب" من جهة، وبين نوع من تصور الأحداث أكثر "سيولة"، وهو التصور الذي تُستبدل فيه السرديات الكبرى الحتمية والمُطلقة (انظر الفصل الرابع من هذا

الكتاب) لتحل محلها دعاوى الحقيقة الأكثـر اتـصافاً بالتـصادفية والاحتماليـة. (ستريناتي، ١٩٩٢).وهناك اعتراف عام بأن الممارسة العلمية في وقتنا الحاضر قد لا تعكس التعريفات الصارمة التي كانت تميزها تاريخيا من قبل. في نفس الوقـت يزداد قبول الناس لما يتصف به العالم من عدم يقين واستعصاء على التنبـؤ، كمـا تتزايد الرغبة في القيام بالبحث التأملي خارج نطـاق الحـدود المغلقـة لاختبـار الفروض داخل جدران المُختبرات العلمية.

يُضاف إلى ذلك أنه يبدو أن العلم ألقى ببعض ما يتصف بـه مـن سـمات حصرية على البحث، وأنه يدعو إلى قبول إسهامات من كان يحتمل النظر إليهم في العصور السابقة على أنهم لا قيمة لهم أو أنهم شُذّاذ غريبوا الأطوار. وقـد أصـبح الاشتراك المتزايد للجمهور العام في المشاريع العلمية الكبرى، فضلا عن التعـاون بين العلماء التقليديين وأصحاب التخصصات العلمية الأخرى (كعلم الفلـك، وعلـم التنجيم، والفلسفة، وما إلى ذلك)؛ كل ذلك إزداد وضوحا خلال السنوات الحديثـة. ولاشك أن التطورات الجارية في تكنولوجيا المعلومات جعلت العلـم والاكتـشاف العلمي أقرب منالا وأكثر إتاحة لاسـتخدام الجمـاهير. إن التكنولوجيـا التفاعليـة وأنظمة الإدارة الذاتية بالكومبيوتر قد غيرتا طبيعة الممارسـة العلميـة وأعادتـا تعريف دور العلماء.

وقد توفر لنا اليوم مجالٌ أرحب للاستكشاف العلمي مـن خـلال عمليـات المحاكاة[*] أكثر مما هو مُتبع من خلال عمليات التجريب العلمي. ويميل المدافعون عن العلم إلى تذكيرنا بهذه الحقيقة كشاهدٍ على كيفية سعي العلم لاغتنـام الفُـرص الجديدة من أجل توسيع نطاق البحث، في نفس الوقت الذي يُحافظ فيه على التحكم،

(*) المحاكاة: Simulation وهي أسلوب فـي البحـث يعتمـد علـى إمكانيـات الكومبيـوتر وتكنولوجيات الذكاء الصناعي المتقدمة. (المترجم)

والنظام والدقة؛ وهي الأمور المرتبطة بالتجريب. وفي وقتنا الحالي تسهل بـرامج الكومبيوتر اختبار عددٍ كبير من الفروض في وقتٍ واحدٍ، كما تُقلل من احتمـال أن تتعرض الاكتشافات ذات الأهمية الحيوية في المستقبل للإغفال مـن قبـل البحـث العلمي الخَطّي. وقد أصبح العلماء بفضل تبنيهم هذه التكنولوجيا قادرين على صـد جُزء من الهجوم المابعد الحداثي عليهم. وهم يُكيفون طرق بحثهم مع العالم ما بعد الحديث ويسعون لإعادة تعريف المعرفة في ضوء الثورة الكونية فـي تكنولوجيـا المعلومات. وقد شكلت أمثال تلك الجهود أساس مجموعة من أوراق البحث التـي قُدمت في مؤتمرٍ عُقد سنة ١٩٨٧ في سانت بزبارا – وهو مؤتمر "نحو عـالم مـا بعد حداثي"– وفيها حاول كثير من العلماء الرواد أن يُعيـدوا تعريـف مجـالات تخصصهم العلمية في ضوء مفاهيم وتصورات ما بعد الحداثة.

ورغم أن الهجوم ما بعد الحداثي قد اكتسب قوة دافعة في تسعينيات القـرن العشرين، إلا أنه سيكون من الخطأ افتراض أن مجرد "تعرض العلم للهجوم" يعني أن موته آتٍ لا محالة. فعلى امتداد التاريخ صمد العلم أمام هجماتٍ كثيـرة شـنتها عليه المراجع الدينية الحريصة على إقصاء التهديد الذي وجَّهه العلم للسلطة الدينية.

يُضاف إلى ذلك، أنه إن أدخلنا في اعتبارنا السياق الاجتماعي الذي يجـري فيه هذا الجدل، فلا يزال يُنظر إلى العلم باعتباره مجالا معرفياً رفيع المكانـة فـي العالم الغربي، كما ينظر إليه باعتباره أكثر جدوى ومنفعة للمجتمع -بمراحل- من الميادين المعرفية المتطرفة التي تسعى لتقويض الأُسس التي يقوم عليها. ويبدو أنه من غير المحتمل إمكان إهدار مكانة العلم على يد علم الاجتماع وبفعل النظريـات المجردة التي تقدمها حفنة من الفلاسفة الاجتماعيين. والأمر الأكثر احتمالاً هـو أن العلم لن يحتاج حتى لمجرد الدفاع عن نفسه في مواجهة هذا الهجـوم. فإسـهاماته التي أضافها للعالم الحديث نتكلم عنه، كمـا أن مـن غيـر المحتمـل أن يَـسمح

المستفيدون من العلم بتعريض مصالحهم للخطر بسبب إدعاءات بعض الأكـــاديميين التي تتسم بالتشاؤم والتشكك.

ومع ذلك نجد أن فلسفة ما بعد الحداثة نفسها مُعرَّضة للهجــوم. فكثيــر مـــن الأفكار التي تشكل أساس هذه الحركة تفتقر إلى التأسيس الإمبيريقي كما تفتقــر إلـــى التطبيق العملي. فإذا أدخلنا في الاعتبار أنه يُحكَم على المعلومات في السوق العالمي وفقاً لقيمتها السوقية، فمن غير المحتمل أن يحتفل أحد بمـــا بعـــد الحداثـــة مُـــستقبلاً بوصفها ثورة فكرية جديدة، قادرة على تغيير شـــكل العـــالم الاجتمـــاعي أو العـــالم الطبيعي. فالأصح أنها ستجتذب ذلك النوع من السخرية ومن الوصـــمة المـــرتبطتين بأي شيء يعترض على النظام الاجتماعي المستقر والمُعترف به. وبـــدأت الـــدوائر الأكاديمية تشهد في أيامنا هذه انتقاداً صريحاً ومسموعاً لفلسفة ما بعد الحداثـــة علـــى نحو ما أوضحنا في الفصل الرابع من هذا الكتاب.ولن يدهشنا أن تظفر هذه الحركـــة (الناقدة لما بعد الحداثة) بالقوة الدافعة وأن يجد مفكرو ما بعد الحداثة أنفسهم واقعـين تحت الهجوم الذي يشنُّه عليهم من كانوا يسعون هم إلى إدانتهم.

تأثير ما بعد الحداثة على منهجية البحث الوضعية

من شأن قبول فلسفة ما بعد الحداثة أن يُـؤدي – ضـــمنا – إلـــى رفـض الوضعية ومنهجية البحث الوضعية أيضا. فالوضعية تتماهى مـــع العلـــم التقليـــدي وتُحاكي مناهج البحث التقليدية، وبهذا الشكل فإنه إن صدقنا مفكري ما بعد الحداثة، فمعنى ذلك أن الوضعية عديمة القيمة، شأنها شأن العلم. فقد كان علم الاجتماع في أول عهده قائماً على أساس المُسلَّمة التي تقــول إن بالإمكـــان اكتـــشاف القـــوانين الاجتماعية إذا استخدمنا منهجية البحث العلمية. ولذلك فإن القــول بـــأن القـــوانين

الاجتماعية لا وجود لها (كما يزعم مفكرو ما بعد الحداثة – المترجم) يمكن استخدامه في الهجوم على الوضعية وفي الدفاع عنها كذلك. فمن الممكن رفض الوضعية لأنها مبنية على مُسلّمة واهية لا أساس لها، أو تبرئتها بناءً على حقيقة أنه لا وجود لحقيقة كلية وعامة. وقد ظلت الوضعية – وعلى امتداد سنوات كثيرة – تجتذب الانتقاد المُوجَّه إليها بسبب نجاحها المحدود في الكشف عن القوانين العامة التي يمكن الانتفاع بها في شرح الطريقة التي بها يتم التحكم في الفعل الإنساني. وقد كان يتوجَّب على الوضعيين أن يتحملوا عبء القيام بالمقارنة مع العلوم الطبيعية، كما ثبت أنهم قصَّروا في تحقيق المطلوب منهم. ويبدو الآن أن "الاكتشافات" التي توصلت إليها العلوم الطبيعية أقل احتراماً مما يجب. ومن ثم، فإنه لم يعد من الممكن الحُكم على الوضعية، وبلا مُسوغ، بأنها ذات صلةٍ بالعلم. وبدلا من ذلك، يمكنها أن تدّعي إنها غير قادرة على اكتشاف القوانين حيثُ لا وجود لأي قانون.

ومع ذلك، فإن من شأن توجيه هذه الحُجة (أي اتهام الوضعية بهذه التهمة) أن يؤدي إلى إحداث "التنافر" (أي التعارض الداخلي) داخل هذا التخصص المعرفي، لأن هذا التخصص قائم على أساس التسليم بوجود حقيقة عامة شاملة يمكن اكتشافها بواسطة الوسائل العلمية، وذلك في نفس الوقت الذي يدعي فيه البعض أن مثل هذه الحقيقة لا وجود لها. والطريقة الوحيدة التي يُمكن للوضعية أن تحرر بها نفسها من هذا التنافر، ودون أن تصل إلى التصلب الأعمى في ادعاء أنه لا وجود لحقيقة عامة (مُتحدية بذلك فلسفة ما بعد الحداثة)، نقول: إن هذه الطريقة الوحيدة هي أن تُعيد الوضعية اختراع نفسها بتبني مفهوم مختلف للحقيقة الاجتماعية. ولو أنها إن فعلت فلن تصبح هي "الفلسفة الوضعية" التي نعرفها.

يمكن للوضعيين أن ينهجوا سبيل العلماء الطبيعيين ويحاولوا استيعاب الفكر الما بعد الحداثي داخل ممارستهم. ومن شأن ذلك الأمر أن يتضمن نقلةً تبتعد بالوضعية عن الاعتقادات المرتبطة بالعلم التقليدي، وتتجه صوب قبول الحقيقة التي يغلب عليها الطابع الذاتي، والمبنية على أساس جملة من التفسيرات المترابطة المتداخلة للظواهر. وبقيامها بذلك، ستنتقل الوضعية إلى موقع أشدّ قُرباً للفلسفة المناقضة لها، وأعني بذلك: الوضعية المضادة.

وبدلاً من ذلك يُمكن للوضعيين أن يختاروا التحدي الصريح لما بعد الحداثة، وأن يستمروا في تطبيق طُرق بحثهم المعتمدة، في مُحاولة لإثبات أن الحقيقة "موجودة بالخارج"، وأن بالإمكان البرهنة عليها بصورة موضوعية، أو يمكنهم أن يحاولوا تفنيد دعاوى مفكري ما بعد الحداثة. وبقيامهم بذلك، يمكنهم الظفر ببعض الدعم لقضيتهم بالاعتماد على معارف وتكنولوجيا العصر ما بعد الحديث.

دلالات ما بعد الحداثة بالنسبة لمستقبل علم الاجتماع والبحث السوسيولوجي.

يُعتقد أن لدى فلسفة ما بعد الحداثة ما يمكن أن تقدمه لعلم الاجتماع، وخاصةً فيما يتصل برفضها لأنساق التفسير الكبرى. إذ تُوفر ما بعد الحداثة لعلم الاجتماع مَهْرباً من ذلك التشظي الداخلي الذي كان سمة مميزة له على امتداد السنين. وبرفضها للتفسيرات الكلية الشاملة ولوجود حقيقة رئيسية مهيمنة، تَتيح ما بعد الحداثة لعلم الاجتماع فرصة للمنظورات الفكرية المتعارضة أن تتواجد جنباً إلى جنب كما يتيح لها إمكانية الإسهام في صياغة توليفة معاصرة تجمع بين الأفكار المتعارضة.

ويرى ريتزر Ritzer (٢٠٠٨) أن فلسفة ما بعد الحداثة ترمز إلى أربعة أمور ذات صلة وثيقة بالانتقال صوب هذه التركيبية الجديدة داخل نطاق علم الاجتماع. أولاً: يوجد ذلك الرفض للبحث القديم عن نظرية واحدة كبيرة وجامعة. ثانيا: يوجد ذلك القبول لوجود مجموعة من محاولات التأليف المحدودة النطاق. ثالثاً: توجد تلك الإذابة للحدود بين التخصصات المعرفية، وتلك الفكرة التي تقول إن التوليفات الجديدة يمكنها أن تضمَّ أفكاراً مستمدة من مجموعة من التخصصات المعرفية المختلفة. رابعاً: يتيح نزع الصفة الأسطورية عن الخطاب البلاغي الفكري؛ يُتيح لعلماء الاجتماع أن يقتبس أحدهم من الآخر – صراحةً – في خلق النظريات التركيبية. ويُمكنك التمرين التالي من استكشاف واحدة من هذه القضايا بمزيد من التفصيل:

الموضوع (C)
فلسفة ما بعد الحداثة يرفض مفكرو ما بعد الحداثة فكرة وجود سردية كلية أو سردية كبرى. وفي هذا الرفض لتلك الأفكار نلتقي بواحدٍ من أهم مفكري ما بعد الحداثة، وهو جان- فرانسوا ليوتار. يبدأ ليوتار (١٩٨٤) بتعريف المعرفة (العلمية) الحديثة بأنها نوع من التركيب الفكري الكُلي الأوحد (أو نوع من الخطاب الكلي) كذلك الذي ارتبط من قبل بأعمال بعض المفكرين من أمثال ماركس وبارسونز. وتشتمل أنواع السرديات الكبرى التي يربطها ليوتار بالعلم الحديث على "ديالكتيك الروح، أو تأويل المعنى، أو تحرير الذات العاقلة أو العاملة، أو خلق الثروة" (ليوتار، ١٩٨٤، ص٢٣ من مقدمة الكتاب).

فإذا كان ليوتار يرى أن هناك تطابقا بين المعرفة الحديثة والسرديات الكبرى، فمعنى ذلك أن المعرفة ما بعد الحديثة تنطوي على نوع من الرفض لأمثال تلك السرديات الكُلية... والواقع أن النظرية الاجتماعية ما بعد الحديثة تُصبح نوعاً من الاحتفال بمجموعة من المنظورات الفكرية المختلفة: فالمعرفة ما بعد الحديثة ليست مُجرد أداة في يد العلماء، فهي تعيد إرهاف إدراكنا للاختلافات وتفرز قدرتنا على قبول "المختلف" والتسامح معه. (ليوتار، ١٩٨٤، ص٢٥ من المقدمة). ووفقاً لتلك الاعتبارات، فإن علم الاجتماع يكون قد تجاوز نطاق العصر الحديث، ودخل في نطاق ما بعد الحداثة، وذلك في بحثه عن مجموعة من التركيبات الفكرية الأكثر تحديداً.

في الوقت الذي يرفض فيه ليوتار السرديات الكبرى بصفة عامة، فإن بودريار يرفض فكرة وجود نوع من السرديات الكبرى في علم الاجتماع. ومن أسباب ذلك، أن بودريار يرفض فكرة "الاجتماعي" في مجملها. والسبب الثاني أن هذا "الرفض يؤدى إلى رفض نسق التفكير الكلي في علم الاجتماع المرتبطة بالحداثة...

وبهذا الشكل، تُمثل النظرية الاجتماعية ما بعد الحديثة رفض أنساق التفكير الكلية بصفة عامة ورفض السرديات الكبرى داخل علم الاجتماع بصفة خاصة.

(المصدر: ريتزر، النظرية السوسيولوجية الحديثة، الطبعة السابعة، نيويورك، ماكجروهل، ٢٠٠٨).

	تمرين ١٠-٨
	اقرأ الموضوع (C) ثم أجب على الأسئلة التالية:
تفسير تطبيق	١- من صاحب الأفكار المذكورة في الموضوع (C) والتي تُعتبر مهمة في تشخيص أثر ما بعد الحداثة على علم الاجتماع؟
تفسير تطبيق	٢- ما الذي رفضه الفرد المذكور في الإجابة على السؤال رقم (١)، وما الأسس التي بنى عليها رفضه هذا؟
تفسير تطبيق	٣- ما الأثر الذي أحدثه هذا الرفض على طريقة فهم وتصور علم الاجتماع؟

كذلك يُمكن النظر إلى فلسفة ما بعد الحداثة باعتبارها تتيح المجال لنوع من إعادة تقييم بحوث علم الاجتماع. فالنتيجة الأشدُّ وضوحاً لفلسفة ما بعد الحداثة هي رفض منهج البحث الوضعي، حيث تترك الطريق بذلك سالكا من غير عقبات أمام ازدهار طريقة البحث الخاصة بالوضعية المضادة. ومع ذلك، فإن رفض كل ما سوى الوضعية المضادة أمرٌ غير ملائم. وتنادي فلسفة ما بعد الحداثة باتجاه انتقائي في تصوُّر العالم الاجتماعي، كما أن من المفترض أن يتسع هذا الاتجاه ليشمل طريقة دراسة هذا العالم الاجتماعي. وتعددية طرق البحث ليست بالموضوع الجديد على علم الاجتماع، فقد ركزت المحاولات التقليدية، وبمعدل أكبر، على استعمال هذه التقنية كوسيلة لإخفاء، أو التعويض عن أوجه القصور التي تسم منهجية البحث المستخدمة. وقد تتميز بحوث علم الاجتماع ما بعد الحداثية – وعلى نحو فريد – بتطبيق مجموعة من مناهج البحث المتنوعة، وذلك لكي تفهم وتؤلف بين تلك الكثرة المفرطة في السرديات المحدودة النطاق Localized narratives والتي يُفترض أنها تطبع ميدان علم الاجتماع بطابعها في القرن الواحد والعشرين.

ومع ذلك، فمن الجدير بالاهتمام تكرار القول بأن فلسفة ما بعد الحداثة ليست بمنأى عن اللوم والعتاب، كما أن من الممكن، ونظراً لما تكتسبه الحركة المناهضة لما بعد الحداثة من قوة دافعة؛ من الممكن أن يعود الباحثون مستقبلاً إلـــى طـــرق البحث التي ظلت تعد محورية في تطور علم الاجتماع كتخصص معرفي أو كعلم. والحقيقة أن النظرية الاجتماعية ما بعد الحديثة تعرضت للانتقـــاد بـــسبب كونهـــا نظرية إيديولوجية ولأنها لا تقدر إلا على انتقاد الاتجاهات الأخرى في نفس الوقت الذي لا تقدم فيه شيئا مهمًا في مجالها. ونلاحظ على وجه الخصوص أن مفكري ما بعد الحداثة – وبسبب اشتراكهم في الاستكشاف لمجموعة ضخمة مـــن الأفكـــار – يتهمون بأنهم لا يملكون إلا القليل من الشواهد الإمبيريقية التـــي تؤيـــد ســـرديتهم الكبرى التي يفسرون بها "نهاية الحداثة". وكنتيجة لذلك، فإنهم غالبا ما يتجـــاهلون الأزمات التي يعتبرها غيرهم من علماء الاجتمـــاع هـــي الأزمـــات الاجتماعيـــة والسياسية والبيئية الأساسية التي تواجه العالم (انظر ريتزر، ٢٠٠٨).

محور الامتحان: الأسئلة المقننة
الأسئلة المقننة أدناه مصممة لاختبار فهمك للمادة العلمية التي تناولها هذا الفصل وقدرتك على تطبيقها. إذا احتجت للمـــساعدة، فعـــد إلـــى الملاحظـــات المذكورة في نهاية كل من الفصلين السادس والسابع من هذا الكتاب.
الأسئلة
١- من المسئول عن إدخال مصطلح "الوضعية" في علـــم الاجتمـــاع لأول مرة؟
٢- بأي فرع من فروع علم الاجتماع ترتبط التفاعلية الرمزية؟

٣- حدد اثنتين من المسلمات المرتبطة بالوضعية.

٤- ما طرق البحث التي يأخذ بها التفاعليون الرمزيون في محاولتهم بلورة فهم معين للحياة الاجتماعية.

٥- اختر اثنتين من المعتقدات الأساسية لحركة التنوير، وقدم نقداً لهما على شاكلة ما قد يطرحه التفاعليون الرمزيون والماركسيون.

٦- قدّر ما إذا كان من الممكن لعلم الاجتماع و/أو ينبغي لعلم الاجتماع أن يُفهم أو يُفسر باعتباره ذا طابع علمي، أم لا.

(ملاحظة: يثير السؤال الأخير قضيتين هما: (أ) هل من الممكن – أي من العملي/أو المُجدي – لعلم الاجتماع أن يُنظر إليه بوصفه علماً؟ وهل هذا أمر مرغوب أصلاً؟ للإجابة السديدة على هذا السؤال، تحتاج إلى أن تستوضح بطريقة منهجية:

(أ) الحجج المستقرة والمتفق عليها فيما يتعلق بطبيعة العلم (ملامحه وخصائصه المميزة)، وما إذا كان من الممكن لعلم الاجتماع أن يضاهي هذه الطبيعة، والاعتراضات التقليدية للعلماء والحجج المضادة، وأعني بها حُجج النزعة الواقعية.

وحاول كذلك أن تلقي الضوء على (ب): المعارك الفلسفية الدائرة حالياً حول ما إذا أن ينبغي لعلم الاجتماع أن يتطلع لأن يُنظر إليه بوصفه علماً، حتى لو كان بإمكانه أن يفي بالمعايير العلمية، أم لا. سوف تتبين أن الوضعيين يجيبون على هذا السؤال "بنعم". لماذا؟ وستجد أن مفكري الوضعية المضادة يجيبون بـ "لا". لماذا؟

اختم إجابتك بإعمال فكرك في الأثر الذي أحدثه فكر ما بعد الحداثة، من قبيل ما يتصل منه، مثلاً، بالضعف التدريجي الذي أصاب السرديات الكبرى ونحو ذلك – في مكانة العلم في المجتمع، وبإعمال فكرك في الدلالات الضمنية التي قد ينطوي عليها هذا الفكر فيما يتعلق بالمعركة الفكرية الدائرة حول علم الاجتماع بوصفه علماً؟).

المفاهيم المهمة
• حركة التنوير • الوضعية/الوضعية المضادة • الواقعية •العلمية •الأنطولوجيا/ أو مبحث الوجود • الإبستمولوجيا/ أو مبحث المعرفة

التفكير النقدي
• هل حدث للعلم أن تعرض للتغير من قبل، أم أن العلم يتبع نفس المناهج التي كان يتبعها دائماً؟   • هل أمدتنا فلسفة ما بعد الحداثة بالتحدي النهائي لوجهة النظر الوضعية في علم الاجتماع ولمناهج البحث الوضعية؟   • اطرح نقداً لفلسفة ما بعد الحداثة انطلاقا من منظور فكريٍّ سوسيولوجي.

English Arabic Glossary

قائمة بأهم المصطلحات السوسيولوجية الواردة فى الكتاب

(A)

• Act, Action, Social Act	فعل، فعل اجتماعى
• Action Research	البحث الإجرائى
• Actor, Social Actor	فاعل، فاعل اجتماعى
• Addiction	إدمان
ADHD = Attention Deficit Hyperactivity Disorder	(مرض) فرط الحركة مع نقص الانتباه (أو التركيز)
• Adolescence	مراهقة
• Ageing, Sociology of	الدراسة الاجتماعية للشيخوخة
• Agency	الفعل، التأثير
• Alcoholism	إدمان الكحوليات
• Alienation	اغتراب
• Analytic Induction	استقراء تحليلى
• Analytical Marxism	الماركسية التحليلية
• Antipositivism	النزعة المضادة للوضعية

• Ascribed Status	مكانة موروثة
• Ascription	الاكتساب بالميراث، النسبة
• Association	رابطة، ارتباط
• Association Coefficients	معاملات الارتباط
• Attitudes, Attitude Research	اتجاهات، بحوث الاتجاهات
• Authority	سلطة
• Autobiography	سيرة ذاتية

(B)

• Bar Chart	لوحة الأعمدة البيانية
• Base	قاعدة، بناء تحتى (أو أساسى)
• Bias	تحيز، انحياز
• Biography	تاريخ الحياة، السيرة الشخصية

(C)

• CAPI (Computer Assisted Presonal Interviewing)	المقابلات الشخصية عن طريق الحاسب الآلى
• Capital Intensive Production	الإنتاج كثيف رأس المال
• Capitalism	رأسمالية
• Capitalism, Spirit of	روح الرأسمالية
• Capitalist, Capitalist Class	رأسمالى، طبقة رأسمالية

• Career	سلك مهنى، مهنة
• Case	حالة
• Case History	تاريخ الحالة
• Causal Modelling	بناء النماذج العلّية
• Cause, Causal Explanation	علّه، تفسير علّى
• Circuit of Communication	دورة الاتصال (وتشمل عرض المضمون الاتصالى، واستقبال الجميور له، وكذلك عملية خلق السياق الاجتماعى والسياسى للرسائل الاتصالية)
• Class Awareness	هوية طبقية
• Class Conciousness	وعى طبقى
• Class Imagery	تصور الناس عن الطبقة
• Class Interest	مصلحة طبقية
• Closed Response	إجابة مغلقة
• Coding	ترميز
• Coding Frame	إطار الترميز
• Coefficient	مُعامل
• Cognition	إدراك
• Cognitive	إدراكى، معرفى

• Cognitive Dissonance	تنافر معرفى
• Cohort Studies	دراسات الأفواج (الأجيال)
• Collective Representations	تصورات جمعية (عند دوركايم)
• Commodification, Commoditization	إنتاج السلع للسوق
• Commodity Chains	الشبكات الاقتصادية (العالمية)
• Commodity Fetishism	تقديس السلع (فتشية السلع)
• Commonsense Knowledge	المعرفة الفطرية، أو البادهة، أو المبنية على حسن التقدير
• Complex Sampling	المعاينة المركبة
• Computer Packages	حزم (برامج جاهزة) للكومبيوتر
• Conflict Theory	نظرية الصراع
• Conformity	امتثال
• Connotative Code	الرمز الضمنى
• Connotative Versus Denotative Meaning	المعنى الضمنى (المفهومى) فى مقابل المعنى الدلالى
• Consensus Theory	نظرية الإجماع (التوافق)
• Constructionism. Constructivism	النزعة التصورية
• Content Analysis	تحليل المضمون

• Contingency	الإمكانية (عند أصحاب النزعة الوظيفية الجديدة)
• Convenience Sample	العينة المريحة (السهلة)
• Conversation Analysis	تحليل المحادثة
• Correlation	علاقة، ارتباط
• Covert Observation	الملاحظة المستترة
• Cross Sectional Analysis, Cross Sectional Data	تحليل مقطعى، بيانات مقطعية
• Crosstabs	الجداول المركبة (أو المزدوجة)

(D)

• Denotative Code	الرمز الدلالى
• Denotative Meaning	المعنى الدلالى
• Desirability Effect	تأثير الرغبة فى إرضاء الباحث
• Desirability Sample	العينة الميسورة
• Deviance	انحراف
• Deviant Subculture	ثقافة إنحراف فرعية
• Diachrony	تتابع (تسلسل تاريخى)
• Dialectic, Dialectical Materialism	جدل، مادية جدلية

• Disability	عجز
• Discourse Analysis	تحليل الخطاب
• Disorganized Capitalism	رأسمالية مفككة
• Documentary Research	البحث الوثائقى
• Domestic Violence	العنف الأسرى
• Drives, Innate and Acquired	الدوافع (الموروثة والمكتسبة)

(E)

• Ecological Validity	الصدق الإيكولوجى (أى إجراء البحث فى بيئة واقعية، مما يعنى قابلية انطباق النتائج على الحياة اليومية)
• Economic Determinism	حتمية اقتصادية
• Emotional Labour	العمل العاطفى المأجور
• Emotional work	الجهد العاطفى
• Empathy	التقمص الوجدانى
• Empirical	إمبيريقى (تجربى)
• Empiricism	(النزعة) الإمبيريقية
• Enlightenment, The	عصر التنوير
• Epistemological Pluralism	تعددية معرفية
• Epistemology	نظرية المعرفة

• Equality of Opportunity	تكافؤ الفرص
• Equilibrium, Social	التوازن الاجتماعى
• Ethics	الأخلاق
• Ethnicity	إثنية
• Ethnography	الإثنوجرافيا
• Ethnomethodology	الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة)
• Exchange	تبادل
• Exchange Value	قيمة تبادلية
• Exogenous Variables	متغيرات خارجية
• Experiment	تجربة
• Experimental Method	المنهج التجريبى
• Explanation	تفسير
• Explanatory Dualism	ثنائية التفسير

(F)

• Fact	حقيقة، واقعة
• Fact, Social	ظاهرة اجتماعية
• Factor Analysis	تحليل عاملى
• False Consciousness	وعى زائف
• Falsification	تكذيب، دحض

• Feminism	النظرية النسوية
• Feminist Methodology	المنهجية النسوية
• Field Experiment	تجربة ميدانية
• Fieldwork	العمل الميدانى
• Fixed Choice Question	السؤال ذو الاختيارات الثابتة (المحددة)
• Focus Groups	جماعات المناقشة (المركزة)
• Fragmentation	تشظى
• Free – response Question	السؤال الحر (المفتوح) فى الاستبيان

(G)

• Gender	النوع
• Gender Discrimination	التمييز على أساس النوع
• Gender Roles	أدوار الجنسين
• Gender Segregation (in Employment)	التحيز الجنسى (فى العمل)
• Gender Stereotypes	الصور النمطية للنوع
• General Household Survey	المسح العام للأسرة
• Gestures	الإيماءات (معنى خاص عند جورج هربرت ميد)
• Globalization	العولمة

• Glocalization	عولمة المحلية
• Grand Narratives	السرديات العامة (الشاملة)
• Grounded Theory	نظرية موثقة (مؤكدة)
• Group Effect	تأثير الجماعة (عند استيفاء الاستبيان في جماعة)

(H)

• Hegemony	هيمنة
• Hermeneutic Circle	دائرة التأويل
• Hermeneutics	التأويل
• Heterosexism	الجنسية الغيرية (أشقاء أفراد الجنس المغاير)
• Historical Materialism	المادية التاريخية
• Holism	كلية
• Homosexuality	الجنسية المثلية
• Houschold	عائلة، أسرة معيشية

(I)

• Ideal Type	نموذج مثالي، نمط مثالي
• Identity	هوية
• Ideographic Versus	الاتجاهات الفردية في مقابل الاتجاهات

Nomothetic Approach	التعميمية
• Ideography	البحث (أو التناول) الفردى
• Independent Variable	متغير مستقل
• Industrial Conflict	الصراع الصناعى
• Industrial Reserve Army	الجيش الاحتياطى الصناعى
• Information Society	مجتمع المعلومات
• Information Technology	تكنولوجيا المعلومات
• Institutionalized Discrimination	تنظيم أو (تأسيس) التحيز الاجتماعى
• Institutionalized Sexism	تنظيم الانحياز الجنسى للرجل
• Integration	تكامل (اجتماعى)
• Interaction	تفاعل
• Interactionism, Interactionist Perspective	التفاعلية، المنظور التفاعلى
• Interest Group	جماعات المصلحة
• Interpretivism	نزعة التأويل
• Interpretation, Interpretive Sociology	تفسير، تأويل، علم الاجتماع التأويلى
• Intersubjectivity	تآلف الذوات، إجماع الذوات (شوتز)
• Intertexuality	تحليل النص (فى علاقته بنصوص أخرى)

- Intervening Variable — متغير وسيط
- Interview — مقابلة، استبار
- Interview Bias — تحيز المقابلة
- Interviewer Bias — تحيز القائم بالمقابلة
- Intimacy — الألفة، الحميمية

(J)

- Juvenile Delinquency — جناح الأحداث

(L)

- Labelling Theory — نظرية الوصم
- Labour — عمل
- Labour Market — سوق العمل
- Late Modernity — الحداثة المتأخرة (عند جيدنز)
- Lesbian and Gay Studies — دراسات السحاقيات والشواذ
- Life Chances — فرص الحياة
- Life Course — دورة العمر
- Life Cycle — دورة الحياة
- Life Style — أسلوب المعيشة
- Life World — عالم الحياة (عند شوتز)
- Linear Correlation — ارتباط مستقيم

• Linguistics	علم اللغة
• Logical Empiricism	الإمبيريقية المنطقية
• Logical Positivism	الوضعية المنطقية
• Longitudinal Study	دراسة تتبعية (أو طولية)

(M)

• Macrosociology	الماكروسوسيولوجيا، الدراسة السوسيولوجية للوحدات الكبرى
• Market Economy	اقتصاد السوق
• Market Research	بحوث السوق
• Mass Communication	الاتصال الجماهيرى
• Mass Culture	ثقافة جماهيرية
• Mass Media, Sociology of	الدراسة الاجتماعية لوسائل الاتصال
• Mass Observation	ملاحظة الأعداد الكبيرة
• Materialism, Dialectical	المادية الجدلية
• McDonalization	مجتمع الماكدونالد
• Mechanical Solidarity	التضامن الآلى
• Media	وسائل الاتصال
• Meta Narrative	نسق التفسير (الكبير أو العام)
• Methodological Pluralism	التعددية المنهجية

• Methodology	علم المناهج، مناهج البحث
• Microsociology	علم اجتماع الوحدات الصغرى، سوسيولوجيا الجماعات الصغيرة
• Minority Group	جماعة أقلية
• Mode of Production	نمط الإنتاج
• Model	نموذج
• Modelling	بناء النماذج
• Modernism	الحداثة
• Modernity	عصرية، الحداثة
• Moral Crusade	حملة أخلاقية
• Moral Panic	ذعر أخلاقى
• Multi Cultural Society	مجتمع متعدد الثقافات
• Multi Stage Sample	عينة متعددة المراحل
• Multinational Corporations	شركات متعددة الجنسية

(N)

• Narrative	السرد، الرواية الشفاهية
• Natural Selection	الانتخاب الطبيعى
• Neo Marxism	الماركسية الجديدة
• Neo Positivism	الوضعية المحدثة

• Network, Social	شبكة اجتماعية
• New Social Movements	الحركات الاجتماعية الجديدة
• Nominalism, Philosophical	الفلسفة الإسمية
• Nomothetic	الاتجاه الإسمى فى الفلسفة، تعميمى (ناموسى)
• Nomotheticism	النزعة التعميمية
• Non Participant Observation	الملاحظة غير المشاركة
• Non – Random Techniques	الطرق غير العشوائية (فى المعاينة)
• Non Verbal Communication	اتصال غير لفظى
• Norm.Normative	معيار، معيارى
• Normal Science	علم معيارى

(O)

• Objectivity, Objectivism	موضوعية
• Observation	ملاحظة
• Observer Bias	تحيز الملاحظ
• Official Statistics	الإحصاءات الرسمية
• Open Response, Open Ended Question	إجابة مفتوحة، سؤال مفتوح
• Overt Participant Observation	الملاحظة المشاركة الظاهرة

(P)

• Panel Study	دراسة تتبعية
• Paradigm, Paradigmatic	نموذج (فكرى)، صيغة، شكل تحليلى
• Pargmatism (Philosophy of)	البراجماتية (فلسفة)
• Participant Observation	الملاحظة المشاركة
• Personal Documents	الوثائق الشخصية
• Phenomenology	الفلسفة الظاهراتية
• Photo – elicitation Interview	مقابلة مستمدة من الصور
• Pilot Study	دراسة استطلاعية
• Pilot Testing	عملية الاختبار الاستطلاعى (تجريب الاستبيان)
• Polysemic	متعددة المعانى أو الدلالات (حمالة أوجه)
• Popular Culture	ثقافة جماهيرية، ثقافة شعبية
• Positivism	الوضعية
• Post Colonialism	ما بعد الكولونيالية
• Post Modernism	ما بعد الحداثة
• Post Structuralism	ما بعد البنيوية
• Practical Intelligence	الذكاء العملى (الاجتماعى)

• Prejudice	تعصب
• Prestige	هيبة
• Profane Versus Sacred Distinction	التمييز بين العلمانى والمقدس
• Professions, Professionalism, Professionalizations	المهن، المهنية، احتراف
• Projective Tests	اختبارات إسقاطية
• Public Sphere Versus Private Sphere Distinction	التمييز بين العام والخاص (أو حديثا بين حياة الأسرة وحياة العمل)
• Public Use Sample	عينة عامة

(Q)

• Qestionnaire	استبيان
• Quality of Life	نوعية الحياة
• Quota Sample	عينة حصية، عينة بالحصة

(R)

• Racialism, Racism	العنصرية (التعصب للسلالة)
• Racism, Institutionalized	العنصرية المنظمة (المؤسسية)
• Random Sample, Random Sampling	عينة عشوائية، معاينة عشوائية
• Real Socialism	الاشتراكية الواقعية

• Realism	الواقعية
• Recipes	الوصفات: السنن، أو آداب السلوك (عند شوتز)
• Reduction	الرد (المنطقى)، الاختزال، التخفيض
• Reference Group	جماعة مرجعية
• Reflexive Sociology	علم الاجتماع الانعكاسى، (النقدى)
• Reflexivity	انعكاسية
• Reification	التشيوء، التشيىء، التجسيد (اعتبار المجرد شيئاً مادياً)
• Relations of Production	علاقات الإنتاج
• Reliability	ثبات (منهجى)
• Representation	تصور، تمثيل
• Representationalism	(النزعة) التصورية
• Representative Sample	عينة ممثلة
• Representativeness	التمثيل
• Reproductive Labour	مهمة إعادة إنتاج قوة العمل (إنجلز)
• Research Design	تصميم البحث
• Research Ethics	أخلاقيات البحث
• Research Methods	طرق البحث

• Reserve Army of Labour	احتياطى العمالة، جيش احتياطى العمالة
• Respondent	المبحوث، الإخبارى
• Response Rate	معدل الاستجابة
• Risk	المخاطرة
• Risk Society	مجتمع المخاطر
• Ritual	شعيرة، شعائرى
• Rotating Sample Design	التصميم الدورى للعينة
• Rules of Correspondence	قوانين الاتفاق (تطابق بين لغة النظرية ولغة الملاحظة)

(S)

• Sample Selection Bias	تحيز اختيار العينة
• Sample Survey	مسح بالعينة
• Sampling	معاينة، سحب العينة
• Sampling Bias	تحيز المعاينة
• Sampling Error	خطأ المعاينة
• Sampling Frame	إطار المعاينة
• Scientific Method	المنهج العلمى
• Scottish Enlightenment	عصر التنوير الاسكتلندى

• Secondary Analysis	تحليل ثانوى
• Self Conception	تصور الذات
• Self Fulfilling Prophecy	النبوءة ذاتية التحقيق
• Self Image	صورة الذات
• Self – Selecting Sample	عينة المتطوعين
• Self, The Self	الذات، الأنا
• Semantics	علم الدلالة
• Semiology, Semiotics	علم العلامات، السيميولوجيا، السيميوطيقا
• Sense - experiences	الخبرات الحسية (عند هوسرل)
• Sex Discrimination	التحيز للنوع (ذكر أو أنثى)
• Sex Roles	أدوار نوعية (للرجال أو النساء)
• Sex Typed	منمط نوعيا
• Sexism	الانحياز الجنسى للرجل
• Sexual Division of Labour	تقسيم العمل على أساس النوع
• Simple Random Sampling	معاينة عشوائية بسيطة
• Skill	مهارة
• Snowball Sample	عينة كرة الثلج
• Snowballing Technique	طريقة كرة الثلج

• Social Action	الفعل الاجتماعى
• Social Actor	الفاعل الاجتماعى
• Social Categories	فئات اجتماعية
• Social Constructionism	النزعة التصورية الاجتماعية
• Social Dynamics and Social Statics	الديناميكا الاجتماعية والاستاتيكا الاجتماعية
• Social Ecology	الإيكولوجيا الاجتماعية
• Social Engineering	الهندسة الاجتماعية
• Social Equality	المساواة الاجتماعية
• Social Fact	الظاهرة الاجتماعية
• Social Group	جماعة اجتماعية
• Social Institution	نظام اجتماعى
• Social Integration	التكامل الاجتماعى
• Social Interaction	التفاعل الاجتماعى
• Social Movements	حركات اجتماعية
• Social Order	النظام الاجتماعى
• Social Organization	تنظيم اجتماعى
• Social Statics and Social Dynamics	الاستاتيكا الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية

• Social System	نسق اجتماعى
• Sociolinguistics	علم اللغة الاجتماعى
• Sociological Imagination	الخيال السوسيولوجى
• SPSS (the Statistical Package For The Social Sciences)	الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية
• Standardization	تقنين، توحيد
• Statistical Interaction	تفاعل إحصائى (تفاعل المتغيرات إحصائيا)
• Statistics	الإحصاء
• Stereotype	صورة نمطية، نمط ثابت
• Stereotyping	التصنيف (وفق أنماط ثابتة)
• Stigma	وصمة
• Stratificaion	تدرج طبقى
• Stratified Sample	عينة طبقية
• Streaming	تصنيف (تقسيم إلى مجموعات متجانسة)
• Stress	ضغط، مشقة
• Structural Functionalism	الوظيفية البنائية
• Structuralism	البنيوية، البنائية

• Structuration	الصياغة البنائية
• Structured Interview	المقابلة المقننة
• Structured Questionnaire	استبيان مقنن
• Subculture	ثقافة فرعية
• Subject, the	الموضوع (الفاعل)
• Subjectivity	الذاتية
• Superstructure	البناء الفوقى
• Surplus Value	فائض القيمة
• Survey, Social	مسح اجتماعى
• Symbolic Interactionism	التفاعلية الرمزية
• Sympathetic Introspection	الاستبطان العاطفى (بين الباحث والمبحوث – عند التفاعليين)
• Synthesis	التركيب

(T)

• Taboo	تابو، محرم
• Technocracy	حكم التكنوقراط
• Technological Society	المجتمع التكنولوجى
• Thick Description	الوصف المكثف (التفصيلى)
• Third World	العالم الثالث

• Totalitarian, Totalitarianism	شمولى، شمولية (مذهب تجميع السلطة)
• Tracking, Streaming	تصنيف (تقسيم إلى مجموعات متجانسة)
• Trade Union	نقابة عمالية
• Tradition, Traditions	تراث، تقاليد
• Traditional Society	مجتمع تقليدى
• Triangulation	تعدد أدوات و/أو طرق البحث
• Trigger Questions	الأسئلة المحفزة
• Typifications	عمليات التنميط (عند شوتز)
• Typology	تنميط

(U)

• Unconscious	اللاشعور
• Underclass	الطبقة الدنيا
• Unit of Analysis	وحدة التحليل
• Unit of Enquiry	وحدة البحث
• Unitended or Unanticipated Consequences	نتائج غير مقصودة أو غير متوقعة
• Unobtrusive Measures	أساليب جمع المادة بدون علم المبحوثين

• Unstructured Interview	مقابلة غير مقننة
• Use Value	قيمة استعمالية
• Utopia, Utopianism	يوتوبيا (الفكر الخيالى)، النزعة اليوتوبية

(V)

• Validity	صدق
• Value	قيمة
• Value Freedom	التحرر من القيمة
• Value Judgements	أحكام قيمية
• Value Neutrality	حياد قيمى
• Variable	متغير
• Variables Paradigm	نموذج المتغيرات
• Verification	تحقق
• Verstehen	فهم (عند فيبر)
• Visual Culture	الثقافة البصرية
• Visual Sociology	علم الاجتماع البصرى (استعانة علم الاجتماع بالتصوير الفوتوغرافى)
• VLE = Virtual Learning Environment	بيئة التعلم الافتراضى

• Voluntarism	النزعة الطوعية

(W)

• Welfare	الرعاية، الرفاهية
• Welfare Programme, Welfare Provision	برنامج الرعاية، خطة الرعاية
• Welfare State	دولة الرعاية
• Working Class	الطبقة العاملة

المؤلف فى سطور:

ميل تشيرتون Mel Churton

أستاذ متمرس فى تدريس المستوى المتميز فى مـــادة علـــم الاجتمـــاع علـــى المستوى القومى فى بريطانيا. ممتحن لمستوى AEB A-Level Sociology لـــسنوات طويلة.

المؤلف المشارك:

آن براون Anne Brown

أستاذة علم الاجتماع بكلية التربية بجامعة ليستر البريطانيـــة. ولهـــا هـــى الأخرى خبرة طويلة بتدريس مادة علم الاجتماع على المستوى القومى هناك.

***

المترجمة فى سطور:

أ.د. هناء الجوهرى

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة والخبيرة الدولية فى التنمية الاجتماعية.

اهتمت منذ بداية عملها الأكاديمى بدراسة أشكال الحياة والعمل الجديدة، فدرست "ظاهرة الأعمال الإضافية غير الرسمية بين موظفى الحكومة والقطاع العام" (١٩٨٩) و"أثر المتغيرات الاجتماعية والثقافية فى تشكيل نوعية الحياة فى المجتمع المصرى" (١٩٩٤). كما اهتمت بحياة ومشكلات سكان العشوائيات فى مدينة القاهرة، وحياة فقراء المدينة، وظواهر الحرمان الاجتماعى...إلخ. ورافق ذلك كله اهتمام متصل بدراسة الأبعاد الاجتماعية والثقافية للمشكلات البيئية، وأخرجت كتاباً عن "التنمية الحضرية" (٢٠٠٦) وكتاباً عن "ثقافة التحايل. دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى" (٢٠٠٤)، ويحوى تقرير البحث الذى أجرته فى إطار مشروع "التراث والتغير" الكبير الذى نفذه مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بجامعة القاهرة. هذا فضلاً عن دراسات "الشباب والإنترنت" (٢٠٠٠)، و"مجتمع الماكدونالدز" (٢٠٠٥) وغيرها كثير مما لا يتسع المجال لحصره هنا.

ولكن نخص بالذكر اضطلاعها بترجمة "موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات الأساسية" (٢٠٠٩)، وكتاب "البحث الميدانى الإثنوجرافى فى العلوم الاجتماعية" (٢٠١٠). وشاركت بسهم وافر فى ترجمة الطبعة الثانية من "موسوعة علم الاجتماع" (تحت الطبع – ٢٠١١). وترجمت كتاب "البحث الكيفى فى العلوم الاجتماعية" (٢٠١١). وجميع هذه الأعمال عن المركز القومى للترجمة بالقاهرة.

التصحيح اللغوى: طارق الشامى
الإشراف الفنى: حسن كامل